سادة القافلة 20

# نورُ الدِّين

## ابنُ إيران

معصومة سبهري


دار المعارف الإسلامية الثقافية

بسم الله الرحمن الرحیم

دار المعارف الإسلامية الثقافية

الكتاب: **نور الدِّين ابنُ إِيران**؛ سادة القافلة – 20

تدوين: **معصومة سبهري**

إعداد: **مركز المعارف للترجمة**

ترجمة: **فاطمة شوربا، علي مهدي**

إصدار: **دار المعارف الإسلامية الثقافية ـ**

الطبعة الأولى: **بيروت** 2018

تصميم الغلاف: eight press & production 009613 017565

إخراج فني: **علي عليق**

طباعة: DBOUK 00961 3 336218

ISBN 978-614-467-059-0

books@almaaref.org.lb
00961 01 467 547
00961 76 960 347

سادة القافلة 20

# نورُ الدِّين

## ابنُ إيران

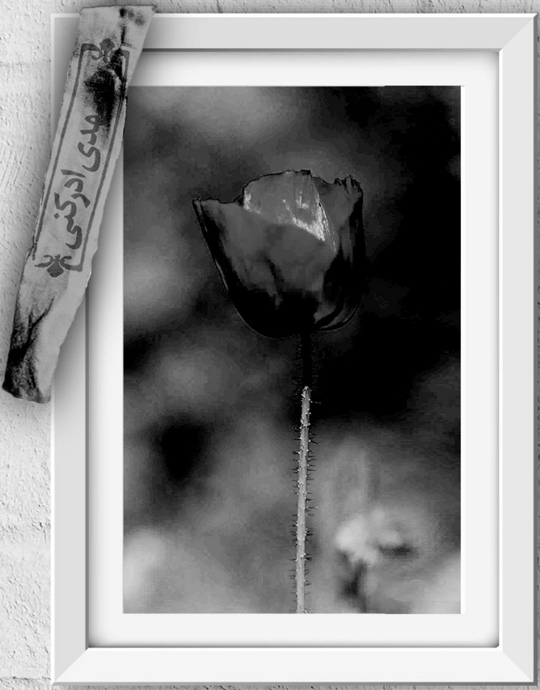


معصومة سبهري

# الفهرس


إشارة ........ 7

المقدّمة ........ 9

الفصل الأول: **رياض الطفولة** ........ 14

الفصل الثاني: **كردستان** ........ 30

الفصل الثالث: «**أنا باقٍ**» ........ 63

الفصل الرابع: **أخوان وعروج واحد** ........ 87

الفصل الخامس: **جرح فوق جرح** ........ 126

الفصل السادس: **مخيّم شهداء خيبر** ........ 137

الفصل السابع: **موقع زيد** ........ 161

الفصل الثامن: **الحياة في الحرب** ........ 174

الفصل التاسع: **كربلاء بدر** ........ 214

292 ............ الفصل العاشر: **كتيبة «أبو الفضل»**

333 ............ الفصل الحادي عشر: **وداعًا «أمير»**

390 ............ الفصل الثاني عشر: **مصنع الملح**

431 ............ الفصل الثالث عشر: **غواصو حبيب**

470 ............ الفصل الرابع عشر: **الجرح في كربلاء 4**

508 ............ الفصل الخامس عشر: **خطّ شلمجه**

522 ............ الفصل السادس عشر: **الانهيار**

551 ............ الفصل السابع عشر: **عندما لم تسعفني دموعي**

564 ............ الفصل الثامن عشر: **الآلام التي لم تنتهِ**

573 ملف الصور

# إشارة

بين يديك أوراقٌ تنبت من شجرة التاريخ..

مفكّـرةٌ هي بألـوان العمـر، وعَبَقِ الهـدف، وذائقة الجبهـة، تتردّد أصداؤها بضحكة ساطعة وَشَهقة كَتُومة.

ذكريـات تبدأ بـبراءة الاندفاع، ولا تنتهي بحـركات الفتى الفُكاهيّ؛ المشاغب، ومحقّق الإنجازات في آن!

فالشاهـد هنـا يشبّ بـين المحاور، ليمتلـئ بها مع الجـراح الحارقة حيويةً وخلوصًا وانتصارًا، إذ يتلوّن غبار الملاحم بشعاع الشمس، وتنهمر قطرات الشتاء في أحياء وطن فُرِضَت الحرب عليه؛ فامتزج الثلج بدماء صفوة أبنائه.

وبينما تجولُ مع السيد «نور الدين العافي» في فضاءات المكان، تدهشك غـزارة التجـارب لفتـى دون العشريـن. وتتنفس رئتـاك أَمْنًـا مع حنان الوالديـن، واتّحـاد الرفاق، وصدق العهـد في قلب المشاهـد المُشَوّقة. ثم يكتمل السَّردُ والحوارات، دون تركيب خيالي أو اختراع صراع أو حبكة.

لكأنـه «بثٌّ حيّ» بمنتهى البساطة، مـن عمق الوجدان، يضجّ بالحب والقيم الكونية الكبرى: البطولة والرحمة والحرية..

لـن يملّ مطالعةَ الكتاب، إن غاص فيه، مـنْ تحاكيه المقالبُ اللطيفة الممتعـة، ومـن تُشفيه صـورة الصبر في المعانـاة، ومن يتأمـل في مبعث السلـوك الإنسـاني الفطري، المدافـع بنهم عن الحيـاة بمعناها الكبير المتّصل بخالقها (عز وجل).

**القارئ العزيز،**

«نـور الدين ابن ايران» أحد الكتب التي نالت تنويه الإمام الخامنئي؛ وهو الذي حضر في جبهـات الدفاع عن الحق- العسكرية والناعمة على السواء- قائدًا ومدبـرًا؛ ومعاينًا للحوادث؛ ومشجّعا للفنون الأدبية التي ترقـى بقضايا الحرب إلى الذاكرة الانسانيـة؛ وتنقل للشعوب والأجيال رؤى وأفكاراً تحرّك الضمائر والقلوب. وقد مهر روايات الجبهة كقارىء وناقـد خبـير، بكلماته المسبوغة بحـرارة الإيمان، ومشاعـره المصبوغة بالعرفًـان. ولطالما حثّ وشجع في مواقف عديـدة على الكتابة والترجمة والنشر.. وفوّض المبادرين المتفاعلين من أهل الفكر والأدب بقوله «أمر النار بيدك»..[1]

**شكر وتقدير**

لا يسعنـا في مركز المعـارف للترجمة، إلا أن نتقـدم بالشكر الجزيل لـكل من ساهم في إعداد وإخراج هـذه الذكريات لتكون جوهرة مضيئة في أكاليل العزة والانتصارات، ونخصّ بالذكر:

فريـق الترجمة: فاطمة شوربـا، علي مهدي، حـوراء طحيني. فريق التحرير والتدقيق اللغوي: نجوى الموسوي، أمل عبدالله، وعدنان حمود. المخـرج الفنّي: علـي عليق. والشكر الوافـر للراوي وللكاتبـة؛ ولا ننسى مؤسســة «ســوره مهر» ومكتب«أدب وفـن المقاومة» ناشـر ومعدّ النسخة الأصليّة؛ وكذلك دار المعارف الإسلاميّة الثقافيّة ناشر النسخة العربية.

**مركز المعارف للترجمة**

ذوالقعدة 1438ه

1- أمـر وتدبيـر عسكري في الحرب؛ يُلجأ إليه عند تعقد الأمور وانقطـاع التواصل مع القيادة..؛ وقد ذكـره الإمام الخامنئـي في لقائه بالجامعيين فـي حديثه حول مواجهة التحديـات الفكرية والثقافية وأدوات الحرب الناعمة (7/6/2017م)

# المقدّمة

عرفت السيد نور الدّين عافي لأول مرة، بصوته عندما كان يروي تفاصيل الأحداث التي جرت معه أثناء الحرب، من كردستان حتى جنوب بلدنا العزيز. كان ذلك في العام 1995م وكنت قد تعرفت حديثًا إلى مكتب أدب المقاومة في «حوزه هنرى» وأعمل على «تفريغ» أشرطة تسجيل لمذكّرات المجاهدين. بعد أن «فرّغت» مذكّرات مختلفة، سلّموني حوالي عشرين شريط تسجيل تحتوي مذكّرات عظيمة لمجاهد جريح اسمه السيد نور الدِّين عافي، هي نصف مقابلات أجراها معه الأخ موسى غيور في عامي 1993 و1994م واستغرقت حوالي الأربعين ساعة. كان الأخ موسى غيور لمدة زميل السيد نور الدين في جامعة العلوم الطبية في تبريز، وقد سمع مذكّرات من السيد حول مرحلة الدفاع المقدس فأصرّ على حفظها. نفس الحصول على موافقة السيد لإجراء هذه المقابلات هو قصة جميلة باح بها السيد في آخر دقائق الحوار وأدرجت في آخر الكتاب. لم أكن أظنّ عندما استلمت أشرطة المقابلة لأفرّغها أنني عندما أسمع هذه المذكّرات سأدخل عالمًا كبيرًا ورائعًا اسمه أدب الدفاع المقدّس. عندما سلّمت آخر جزء للمكتب أحببت أن أرى صاحب هذا الصوت الذي عانى الكثير، وروى بكلّ صدق وبدون رياء أحداث 77 شهرًا من حرب لا مثيل لها، أو على الأقل أن أرسل له رسالة تقدير وتعظيم للآلام الكبيرة التي عانى منها ودوّنتُها على الأوراق عن لسانه،

الأمر الـذي لم يتحقّق أبدًا. بعد أن «فرّغـت» المقابلات التي أُجريت مع السيد، سلّموني مذكّرات الأخ مهدي قلي رضائي لتفريغها، وقبل أن أنهي العمـل بها اقترحوا عليّ تدوين وتحرير هذه المذكّرات فقمت بهذا العمل بـكل شوق وحماس، وعشت في عالم مذكّرات الأخ رضائي الصافية أربع سنوات حتى نُشرت تحت اسم «فرقة الأخيار»[1] في العام 2005م من قبل دار النشر «سـوره مهر»، وكانت أول تجربة لي في مجال تدوين مذكّرات الحـرب. سمعت خـلال هذه المـدة أنّ تدوين كتاب مذكّـرات السيد نور الديـن عافي أوكل لكاتبـين، لكنهما اعتذرا بعد مدّة عـن متابعة العمل. اقترحـوا علـيّ في آخر صيف العام 2004م تدوين هـذه المذكّرات عندما كنـت في المراحـل الأخيرة من كتابـة رسالة الماجستـير، فاستيقظت في داخلـي الحماسة القديمة لأعيش مع مذكّـرات جريح سمعت عن لسانه لأول مرّة حقائق عن الحرب، واستلمت بسعادة غامرة حوالي 700 صفحة «فُرّغـت» من مقابلاته، و40 شريط تسجيـل، وبدأت العمل. في أول لقاء لي معه في جامعة العلوم الطبية أربكني عتابه وشكايته من مسألة التأخر في إنجـاز هـذا العمل، وعدم تفاؤله كثيرًا بعمـل المكتب بشكل عام، ومع هذا فقد قبل بكل احترام أن أراجعه لاستكمال المذكّرات متى لزم الأمر. في المقابلات الأولى لم يتمّ الحديث عن طفولته وعائلته، وبقي الكثير من النقاط المهمة حول مرحلة الثـورة والاشتباكات في كردستان وغير ذلك مـن التفاصيل لم تذكر في صلب المذكّرات. لقـد استقبلني بكرم أخلاق في مـكان عمله وفي المنزل مرات عدّة، وأجاب عن أسئلتي. لم يتمّ حذف أي جزء من المقابلات الأولى عدا المكرر من الأحاديث أو التحليلات التي لا يُخـلّ حذفهـا أو تلخيصها بمسار المذكّرات. لقـد احتجت إلى العديد

1- حـاز كتاب «فرقة الأخيار» فـي الدورة العاشرة لاختيار كتاب الدفـاع المقدس السنوي عام 2006م علـى المرتبة الثانية في قسم المذكرات الشفهية. كذلك اختير كتاب فرقة الأخيار الكتاب النموذجي في حفل الربع قرن لكتاب الدفاع المقدس عام 2009م في قسم المذكرات التي تكتب بقلم الآخرين.

مـن الجلسات لمتابعة تفاصيل ذكرت باختصار في المقابلات الأولى، كما ركزنا في هذه الجلسات على رعاية تسلسل الأحداث وانسجامها، مع أنه ذكر مرات عديدة أنّه نسي الكثير من المذكّرات، وحتى بعض ما ذكره في المقابـلات الأولى. لقد نسي مع مـرور الزمن الكثير من التفاصيل، لكنّه لا يـزال يذكر بوضوح بعضـ ذكرياته مع رفاقه؛ فذكـرى حياة وشهادة أمير الباشـ مازالت حيـة في عقله وقلبه، وما زال صوته يضج بالألم وهو يروي حكاية عمليـة بدر. وللحصول على المزيد من التفاصيل كنت ألجأ إلى الصـور والمذكّـرات التي نُشرت حول مجاهـدي «فرقة عاشوراء31» إضافـة إلى أصدقـاء السيـد الذيـن استقبلـوني بكل احـترام؛ الإخوة العظماء: علـي نمكي، الحاج ميلاني، إسماعيل وكيلزاده وفرج قليزاده، وساعدوني برحابة صدر لإكمال مذكّرات هذا المجاهد القديم في «فرقة عاشوراء»، وعدم تنقيص شيء منها قدر الإمكان.

المسألـة الجديـرة بالاهتمـام في تدويـن خواطـر المجاهديـن الآذربيجانيـين - الذين رووا خواطرهـم بلغتهم التركية الجميلة - هي كيفيـة انتقاء الكلمات المناسبة والقريبـة من لهجة الراوي. وقد واجهت هـذه المسألة لأول مرة عندما «فرّغت» بشـكل أولي المقابلات، وترجمت التركيـة منها إلى الفارسية، وهـو عمل أصعب من «تفريغ» مقابلة باللغة الفارسيـة. كلمـا كانت ثقافة الشخصـ الذي يعمل في «تفريـغ» المقابلة أكـبر سيكون من الممكن الاعتماد على النص الناتج عن عملية «التفريغ» أكـثر، وإلا يتوجب على المـدوّن الرجوع إلى أشرطة التسجيل والتأكد من صحة هذه النصوص. ولأنني قمت بتفريغ نصف المقابلات التي أجريت مـع السيد عـلي كنت أستطيـع بسهولـة ملاحظة الاختلافـات في تلك النصوصـ المفرّغة. لحسن الحظ صرت أفهـم لهجة السيد علي ولغته بسبـب التواصل واستمرار الجلسات معـه لإكمال المذكّرات، وحاولت أن أكـون دقيقة في اختيار الكلمات المتناسب بعضها مع بعض، والقريبة إلى

بيان الراوي. من جهة ثانية، ونظرًا لتجربتي الأولى في تدوين كتاب فرقة الأخيار - الذي رواه مجاهد يتكلم التركية - وما قيل حول الكتاب، خاصة من قبل الأستاذين الكبيرين في مكتب الفن والأدب المقاوم السيّدين: سرهنكي وكمري، انتبهت إلى الفروق البيانية للرواة في هذين العملين. عملت أكثر من خمس مرات على مراجعة وتصحيح هذه المذكّرات لعلّي أستطيع أن أوصل صوت السيد نور الدين إلى أذن القارئ. من جهة، اعتبرت كلام الراوي وعدم تكلّفه -وكان نطقه متغيرًا قليلًا في البداية بسبب الجراح التي أصيب بها في وجهه وفكّه، واستطعت بعد فترة أن أتعوّد عليه - بمنزلة أمانة في عنقي، ومن جهة أخرى كان عليّ إظهار صدى الجراح في قالب كلمات تستطيع إيصال أحوال ومشاعر الراوي بأفضل شكل إلى القارئ. لقد ذكرت العبارات التركية في بعض الموارد كما هي عندما كنت أرى ضرورة لذلك، وترجمتها في الحواشي.

قرأ هذه المذكّرات في مراحل تدوينها الأخيرة اثنان من رفاق درب الجهاد هما السيّدان فرج قليزاده ومهديقلي رضائي، وقمت بإجراء التعديلات التي اقترحوها ووافق عليها السيد. كذلك فقد تذكّر اللواء مصطفى مولوي[1] مسائل هامّة فيما يخص جغرافيا عمليات «فرقة عاشوراء»، خاصة عملية بدر، وقدّم لي فنّان ومصوّر الحرب الأخ بهزاد بروين قدس من أرشيفه الخاص عددًا من صور السيد نور الدين، ولا يسعني هنا إلا أن أعرب عن كامل تقديري وشكري لكلّ هؤلاء العظماء.

ما بين أيديكم هو حياة مجاهد صنّفت جراحه بدرجة 70% بسبب الإصابات التي تعرّض لها في بداية الحرب، وقلّ من أصيب بمثلها، لكن لم يتردد نور الدين ابن السبعة عشر عامًا لحظة واحدة في العودة إلى ساحة الجهاد بهذا الجسد الذي أصابت الجراح كلّ جوارحه، والتي

1- نائب قائد فرقة عاشوراء ذلك الوقت.

غـيرت حتى تقاسيم وجهــه. إضافة إلى تبيين الأحداث التي كان هو من القلــة الذين لم يستشهدوا خلالها، فقد كان حضوره بذلك الوضع دليلًا علــى غيرتــه وإرادة الجهاد عنده بحيث جعلته ينــزل إلى ساحة الجهاد بكلّ وجوده، ولا يقصّر قيد أنملة في العمل بأمر إمامه.

الآن وبعــد أربع سنوات من العمل، وصل تدوين مذكّرات 77 شهرًا من حرب عشقهــا السيد نور الدين عافي إلى خواتيمه. إذا قبلنا هذه العبارة العميقة المعاني بأنّ حــرب كلّ مقاتل تنتهي مع كتابة مذكّراته، فخلاصة مذكّرات هذا المجاهد أنّه أخذ شبابه وكلّ فرحه إلى مناطق الحرب، وعاد إلى المدينــة بجراح خالدة، وهو لا يزال يعاني من آثار الغازات الكيميائية والعذابات التي لا يستطيع أحد إدراكها بسبب الآلام التي خلّفتها الشظايا في فكّــه، والقيح الذي يخرج من عينيه ولم يوجد له علاج حتى الآن، عدا الجراح التي تركها فراق الأصدقاء كأيّ مجاهد آخر.

في الختــام، أوجّه جزيل الشكر لعائلــة السيد المحترمة خاصة زوجته العظيمة السيدة أشرفي التي يجب أن تدوّن كتبٌ في أمثالها، وفي الاختيار الموفّق والعظيــم لها كزوجة. كذلك أشكر زوجــي العظيم الدكتور «أيوب نصير اوغلي» الذي كان في فترة من الفترات عنصرًا في فصيل الغواصين الــذي كان السيد المسؤول عنه، والذي كان دعمه الكبير والمطلق لي سببًا لاستمــراري في هذه الأعمال. وأخيرا أقــدّم شكري لابني العزيز «محمد أمين» الذي تذكّرت جزءًا كبيرًا من طفولته مع هذه الخواطر...

علــى أمل أن تساهم هذه الجهود في تخليــد ذكرى رجال عظماء، في صدر التاريخ المليــء بالأسرار، من أبناء آذربيجان التي لا تلد إلا أبطالًا ساهموا في الدفاع عن الدِّين وعن أرض إيران العزيزة.

**معصومة سبهري**

أيلول-تشرين الأول 2010م

الفصل الأول

# رياض الطفولة

1

ولـدت بحسب الهوية في السّادس من أيلول من العام 1964م في قرية «خلجـان» قـرب «تبريز»، لكنّ أبي «السيد حسين عـاـفي» تأخر أشهرًا في تسجيـل تاريخ ولادتـي. كانت عائلتنا كبـيرة؛ أبي، أمـي السيدة نمكي، وستّـة أولاد هـم: ميررحيم، فريده، ميربيوك، السيـد صادق ولعيا. كنّا نعتمد في معيشتنا على عمل والدي في الزراعة كباقي أهل قريتنا الكثيرة البساتـين، تجمعنـا حياة بسيطة وشاقة. وفي العـام 1967م بدأنا حياكة السجـاد ونصبنـا النول في بيتنـا، ومن أجـل المساعـدة في تأمين لقمة العيشـ، تعلّمت هذه الحرفة أيضًا. بدايـة كنّا نحيك السجاد للآخرين، ثم تحسّنت ظـروف حياتنا شيئًا فشيئًا. وعندما أنهينا حياكة سجادتين يعود ريعهما بالتمام والكمال لنا، ذهب والداي إلى الحجّ في العام 1969م وكانت حينها رحلة الحـجّ تستغرق حوالي الشهرين والنصف. في طريق العـودة، تعرّضـت القافلة لعمليـة سطو فلم يبقَ شيء فيهـا، ولم تكتحل أعيننا برؤية ما أحضراه لنا من هدايا...

منـذ الطفولة، امتازت علاقة والدي بـي عن بقية إخوتي وكان يظهر لي محبـة شديدة وأنا أبادلـه مثلها. كنّا عندما نجلس صباحًا لحياكة السجـاد، ويذهب إلى البستان ليقطف العنب ويأخـذه إلى «سردرود»[1]، يشير إليّ أن «تعـال بسرعة!»، وكنتُ غالبًا ما أتهرّب من حياكة السجاد

---

1- مدينة عامرة في جنوب غرب تبريز، ولم تعد بعيدة عن تبريز بسبب توسع المدينة.

أيضًا بحجة الذهاب إلى المرحاض، فأركض حوالي 3 كلم، لأصل إلى البستان حيث أجد أبي بانتظاري. كثيرًا ما اشترى لي الخبز بالسمن الذي أحبّه جدًّا. ظلّت علاقتي بأبي هكذا حتى إنّني عندما كبرت بقيتُ أنام بجانبه، وأحيانًا أبكي عندما أرى في المنام أنّني ابتعدت عنه. كنت أدعو الله منذ الطفولة أن لا يبعدني عنه أبدًا، وأشكر الله إذ استجاب دعائي مع أنّ سنوات الحرب كانت قاسية على كلينا[1].

في الصيف حيث موسم جني الثمار، كان على أحدهم أن يبقَ في البستان ليلًا، فتناوب أبي وعمي على الحراسة، وكنت أرافق الاثنين في ليالي حراستهما إلى أن ترسل لي أمّي الحاجّة رسالة: «نور الدين! لقد أعددت حساء القرنبيط! تعال بسرعة!»، فأستجيب فورًا لأنّني أحبّ هذا الحساء.

في إحدى الليالي، ظنّ كلّ من أبي وعمي أنّه دور الآخر في النوم في البستان، فلم يحضر أيّ منهما إلى هناك! استيقظت عند منتصف الليل لأجد نفسي وحيدًا في الظلام الدامس، شعرت بالخوف. فكّرت أن أذهب إلى منزل عمتي لأنّه الأقرب إلى البستان، ورأيت كلبنا الوفي نائمًا أمام الباب، كنّا نفكّ قيده ليلًا ليجول في البستان. وكأنّه شعر بأنّني وحيد، ... فأخذته معي. مشيت في ذلك الليل مسافة 800م تقريبًا حتى وصلت. طرقت الباب فلم يفتح أحد، خفت، وخافت عمّتي وأبناؤها المساكين. كانوا في تلك الأيام يخيفون الأولاد الذين هم في مثل سنّي من اليهود، وإذا أرادوا منعنا من الذهاب إلى مكان ما يقولون لنا: «لا تذهبوا إلى هناك، سيأتي اليهود ويمتصون دماءكم!»، وكنت أفكر «وهل اليهود بعوض ليمتصوا دماءنا؟!».

1- بعد الحرب، عدت إلى المنزل الذي تعب هو في بنائه. ما زلنا نعيش في ذلك المنزل. كان يذهب يوميًّا إلى بستاننا في خلجان وأذهب أنا بعد انتهاء دوامي إليه لأعيده إلى المنزل...

كاد أبناء عمتي يموتون رعبًا في تلك الليلة خوفًا من أن يكون اليهود هم من يطرقون الباب! وعندما وجدوا أنّني لم أتزحزح من مكاني، صعدوا إلى السطح ووجدوني. عندما فتحوا لي الباب ذهبت إلى حضن جدتي «تاتا فاطمة». راحت العجوز تلوم أبناءها لأنّهم «ناموا وتركوا الصبي لوحده...» لا أنسى أبدًا خوف تلك الليلة وكنت في السابعة من عمري.

▫

رغم كلّ الصعوبات، كانت حياتنا جميلة. كان أبي يعطينا مصروفنا صباحًا، 5 قرانات[1] لأخي الكبير، وخمسة لنا نحن بقية الإخوة الأصغر سنًّا. كنت و«بيوك» و«صادق» مجبرين على اقتسام هذا المال، قرانان لكلّ واحد، والقران الخامس للولد الثالث على أن نتداوله بيننا، لكن عندما كان يحين دوري، أعمد إلى التحايل عليهما.

كنت أقضي أكثر أوقاتي مع أخي السيد صادق، وكان لدينا العديد من الأصدقاء نلعب معهم دائمًا: «حسن نمكي»، «السيد محمد والسيد علي حسينيان» وهم أخوان، «السيد محمد إيزدخواه»[2]، إضافة إلى ثلاثة آخرين تغير مسارهم عن مسارنا فيما بعد وصاروا يتعاطون المخدّرات. والغريب أنّنا مذّاك الوقت اختلفنا على بعض الأمور. كنّا عندما نمرّ بالبساتين ونرى المناظر الجميلة لعناقيد العنب، الكرز والجوز، لا نمدّ أيدينا إليها، لكنّ أولئك الثلاثة كانوا يقطفونها ببساطة ويأكلونها. أذكر أنّني أحببت الكرز، ولأنّه لم يكن موجودًا في بستاننا، كنت عندما يسألني أبي ماذا يشتري، أجيب فورًا: «الكرز!»

إضافة إلى الدرس والعمل، لعبت وأصدقائي كرة القدم، وقد شكّلنا فريقًا استمرّ إلى ما قبل سنتين أو ثلاث من انتصار الثورة، وسمّيناه

---

1- قران: وحدة العملة زمن القاجاريين، وكل ريال كان يساوي قرانًا واحدًا وخمسة شاهي، والقران كان يساوي 20 شاهيًا.

2- أستشهد هؤلاء الأربعة جميعا في حرب الدفاع المقدس (الحرب المفروضة).

«البعث»! يومها لم نعلم بأنّ البعث (رستاخيز) هو اسم لحزب سياسي، وهو من بـاب الدعاية له يوزّع على الأولاد قمصانـًـا مطبوعًا عليها اسم «البعث»، فكنّا نرتديها أثناء اللعب، ولا علم لنا بكلّ هذا.

مـن ذكريات طفولتي أيضًا أيّام شهر محرّم، فطالما ظلّت هذه الأيام مناسبـة مميّزة لـكلّ الأولاد. لم يكـن يفصلنا عن المسجـد سوى منزل عمـي، لذا دأبنا علـى المشاركة في كلّ مراسمـه. كان خالي «الحاج علي أكبر نمكي» كبير القرية، وإنسانًا متعلّمًا وعنده اطّلاع واسع في «الرسالة العملية»[1]، فكان غالبًا ما يسأل الأولاد في المسجد عن الأحكام والصلاة، وكلّ من يتقن صلاته يعطيه جائزة؛ قرانًا أو قرانين[2].

كان للمسجد في أيام محرّم أجواءٌ خاصة، وكم أحببت هذا الشهر منذ الطفولة، وأحد أسباب ذلك هو الموائد التي تُعدّ فيه! في تلك الأيام لم يكن تناول الأرز متعارفًا إلى حدٍّ كبير، ولم نكن نتناوله أكثر من مرتين أو ثلاث في السنة، كنّا نطبخ منسفًا يطبخ كما الأرز ونأكله، لكنّنا كنّا متأكدين أننا في العشر الأوائل من محرّم سنحظى بالكثير من الأرز والحساء!

◘

أحيانًا في طفولتنا كنّا نسمع أحاديث تولّد في عقولنا الصغيرة أسئلة كبـيرة. كان أبـي في شبابـه ينتمـي إلى أحد الأحـزاب، ويمتلك خنجرًا قديمًـا يخبّئه دائمًا. وحيث إنّنـا نحبّ هذه الأشياء ولدينا فضول لنراها ونحملهـا، كان يعلّق قائلًا: «هكذا سيجدها رجال الشاه!» فأسأله: «وهل يعلم رجال الشاه الغيب!» فيجيبني: «أجل!»، لذا بات من الطبيعي عندما نسمع هذا الكلام أن نخاف من الشاه ورجاله.

سنـة 1971م، وقع نـزاع على الماء بـين عائلتي وأحد أهـالي القرية،

---

1 - الرسالة العملية: كتاب الأحكام الشرعية.

2 - لـم يكـن القران أو القرانين مبلغًا قليلًا في ذلك الوقـت، كان يمكن الذهاب بقرانين بالسيارة من خلجان حتى تبريز.

فاستغلّوا قرابتهم من المختار ونفوذهم الكبير واشتكوا علينا وقالوا إنّنا شتمنا الشاه! فاقتيد أبي وعمّي إلى السجن وأوقفا مدة تتراوح بين 40 و50 يومًا. زرعت هذه الأحداث في قلوبنا الكره وسوء الظن بالشاه، إضافة إلى الخوف.

أذكر أنهم جاؤوا مرات عدّة إلى القرية لأخذ الشباب إلى التجنيد. وكان أحد رجال الشاه ويدعى «شوكفر»[1]، يأتي إلى القرية مع عدد من الرجال ليجنّد الشباب! ولأنّ والدي من جملة الذين لم يذهبوا إلى خدمة العلم، كنّا نصاب بالرعب كلّما أتى «شوكفر»، ويختبئ أبي وتتصدى أمّي للرجل! إنّها امرأة ذكية، وكان أهالي القرية يكنّون لها الاحترام. كثير من الناس رشوا «شوكفر» بالمال ليرضوه ويغضّ الطرف عنهم، إلا أنّ والدتي لم تكن تتراجع أمامه، بل أعادته خائبًا كلّ مرة. لكم تساءلت دائمًا «وكيف يعلم رجال الشاه هذه الأمور؟!».

▫

كان «آية الله خسروشاهي» مرجع التقليد لعائلتنا في تلك الأيام وخطيبًا في مدينة تبريز، وامتلكنا كثيرًا من الأشرطة المسجلة لمحاضراته وما زالت موجودة. صغيرًا أخذني أخي الكبير ميررحيم إلى تبريز لنستمع لمحاضراته. دأب «آية الله خسروشاهي» على التصريح بكلام لا يجرؤ الكثير من العلماء على قوله. روى في أحد الأيام قصة ما زلتُ أذكرها حتى اليوم. قال: «أمر الشاه يومًا أن يُحاك له لحاف، خاط له أوّلُ خياط لحافًا وأحضره له، لكنّه كان قصيرًا وكانت قدما الشاه تظهر من تحته، فأمر الشاه بقتله. خاط الثاني لحافًا، لكن كانت قدما الشاه أيضًا تظهر من تحت اللحاف وقُتِل. جاء الثالث وقال أنا أجيد الخياطة، فخاط اللحاف، لكنّ قدما الشاه ظهرتا أيضًا من تحته! فقال الرجل:

1 - قُتِل أيام الثورة.

«أنا خطت اللحاف بشكل جيد لكنّ قَدَمَيّ الشاه هي التي تطول باستمرار لذا عليكم قطعهما!».

في مثـل تلك الظروف، أمضيت مرحلة دراستي الابتدائية في مدرسة القرية.

◘

قـرّرت في العـام 1978م الذهـاب إلى تبريـز للعمل وتركـتُ مقاعد الدراسة[1]. بحثت عن عمل حتى قُبلت متدربًا في ورشة لصناعة بطاريات «نفـين» في مستديرة «قونقا»، وصاحباها أخوان هما «محمود» و«صمد». كانت المسافة من تبريز إلى خلجان تستغرق حوالي الثلث ساعة، فصرت في بعض الليالي أنام في الورشة.

في أحـد الأيام، أتى «محمود» صباحًـا إلى الورشة وقال لي بفظاظة: «سمعـت أنـك تلاحق البنات عندمـا لا أكون موجـودًا...» لم أكن أصلًا أتوقـع سماع مثـل هذا الكلام، لم أجبه بشيء وبـدأت بالبكاء. بعد قليل جـاء أخوه صمـد لاسترضائي وقال لي: «يقع الكثير مـن الشباب الذين يأتـون إلى تبريز في الخطأ! ولم يقل لـك محمود ذلك إلا لأنّه قلق عليك كي تكون متيقّظا...»[2].

كان «محمد نمكي» –ابن الخال المدير لجلسات القرية– يتابع الدروس الحوزويـة في قم في تلك السنوات، وقد سمعنـا باسم «الإمام الخميني» لأوّل مـرة على لسانه. طالما أحضر أشرطـة محاضراته، بياناته وصوره إلى القريـة، وكنت ممّن يساعدونـه في توزيعها. كان السيد محمد يقول افعلوا شيئًا لتحصلوا على المال لطباعتها ونشرها. رحنا في البداية نبيع

---

1 - بعد الحرب؛ تابعت دراستي في العام1994م وحصلت على الشهادة الثانوية.

2 - مـرت سنوات على هذه الحادثة، والتقيت بـالأخ محمود في ثكنة الأهواز في عملية بدر عام 1985. توجهـت نحـوه وقلت: جئت إلى هنا للبصبصـة والبحلقة؟! تفاجأ... ثم عرفنـي وأخذنا نستذكر تلك الأيام.

الصــور بثلاثة قرانات وبعض المشترين يدفعــون خمسة. وعندما نجمع ثمــن الصور نقوم بتوزيع الباقي منها مجانًا بــين الناس. أحضرت عدة مــرات عددًا مــن الصور والبيانــات من خلجان إلى تبريــز. كان موقف الحافلات الصغيرة لخلجان يقع في حي «آخمقية» تلك الأيام. في إحدى المــرات أخفيت عــددًا من صور الإمام في سترتــي الشتوية وركبت حافلة صغيرة متوجهًا إلى تبريز. عندما وصلنا إلى الموقف رأيت الجنود هناك يفتشون الجميع. خفت، لكن لم أستطع فعل شيء. وصل الدور إلي، فتّشني أحد الجنود وانتبه للصور. كاد قلبي أن ينخلع من الخوف! نظر الجندي إلى وجهــي وقــال لي: «أغلقها بسرعة واذهــب!». أغلقت سحّاب سترتي وخرجت بسرعــة. كانت المسيرة في ذلك اليوم في مستديرة «نصف راه» التــي لا تبعد كثيرًا عن «آخمقيــة». عندما وصلت إلى المتظاهرين وزعت الصور بسرعة وعدت إلى القرية بنفس الحافلة.

مع اشتداد المواجهات ونزول الشعب الكثيف إلى الشوارع، أصبح خبر مجــيء الإمام إلى إيران أمــرًا واقعًا. في الأول من شبــاط كنّا في تبريز نشارك في تظاهرة متجهين من تقاطع «شهناز» -أصبح اسمه بعد الثورة «شريعتــي»- نحو «باغ كلستــان» حين سمعنا بخبر هبــوط الطائرة التي تقــلّ الإمام الخمينــي في مطار مهرآباد في طهران. أذكــر أنّنا احتشدنا أمــام سينمــا آزادي (الحرية) وقد وصلت حماســة الناس وشوقهم إلى أوجهما. قلت لصديقي حينها: «للأسف، ستنتهي المظاهرة!».

- لا! فالأحداث ستبدأ الآن!

كان محقًّا فيما قال إذ نزل الناس إلى الشوارع ولم تتوقف المظاهرات حتــى الحادي عشر من شباط وانتصار الثــورة. وصلت التظاهرات إلى قريتنــا أيضًــا، وكان النــاســ يســيرون حتى مــزار «الشيخ أبــو دجانه»[1]

1 - أحــد أصحــاب أهل البيت عليهــم السلام مدفون بالقرب من خلجان، ولقبــره قبة وبناء صغيران، يقصده الناس للزيارة.

حيث مقبرة القرية، وينهون المظاهرة برمي الحجارة على مجسمين لأسدين منتصبين في المقبرة، وكأنّ الأسدين الحجريين رمز للشيطان، والرمي رمي الجمرات[1]. وكان أهالي القرية يجتمعون أحيانًا ويذهبون بالحافلات الصغيرة إلى تبريز للمشاركة في المسيرات والتظاهرات.

◘

بعد أيام على انتصار الثورة ذهبتُ إلى طهران للبحث عن عمل. كان أخي بيوك قد سبقني إلى هناك للعمل أيضًا، وعاش وحده. استأجرنا منزلًا آخر في «خافران» ووجدت عملًا في محلّة «افسريه» في صناعة البطاريات. لي ذكريات لا أنساها، مع جارنا السيد عبد الله الآراكي الذي لم يُرزق بأولاد وقتها، وكانت زوجته تهتم بنا كثيرًا، وتصرّ أحيانًا على غسل ملابسنا أيضًا. أحبّا أن نعيش معهما. ذهبتُ يوم الجمعة إلى الحمّام العمومي فصدمتني حافلة صغيرة في «خافران»، نقلت إلى المستشفى، وتبيّن أنّ أحد أضلاعي قد كُسر، أمستْ زوجة السيد عبد الله تهتم بي كأمي في فترة نقاهتي التي امتدت إلى خمسة عشر يومًا تقريبًا[2].

خلال تسعة أشهر من عملنا في طهران، ذهبتُ مع أخي مرتين أو ثلاثًا إلى القرية، وصادف أن واكبنا أحداث منظمة «خلق تبريز». كان الناس في قريتنا كباقي مناطق آذربيجان منقسمين إلى جماعتين، ووصل الأمر في القرية إلى أن يؤذي مؤيدو «جماعة خلق»[3] كلّ شخص يذهب لأداء صلاة الجمعة، فكانوا يرمونه بالحجارة ويهددون عائلته أيضًا، وقد تعرّضت والدتي للتهديد مرات عدة بسبب أعمالنا. قام مؤيدو

1 - بعد ذلك، تم نقل المجسّمين إلى متحف آذربيجان في تبريز.

2- ما زالت هذه العلاقة الطيبة قائمة، وما زلنا نتزاور حتى الآن. ذهبت إلى طهران لرؤيتهم بعد إصابتي في عملية مسلم بن عقيل. لم يعرفوني بسبب جرحي وتغير شكلي، وعندما عرّفتهم إلى نفسي انزعجا وبكيا لما جرى لي..

3- حزب الشعب.

«جماعة خلق» في أحد الأيام بعد صلاة الجمعة بمهاجمة المصلين -حيث أُقيمت صلاة الجمعة في السّاحة الكبيرة في منطقة «راه آهن» في تبريز- وراحـوا يضربون الناس بالحجارة والعصـيّ، كانوا يرمون الحجارة من داخل باحـة مستشفى طالقـاني في مستديرة «راه آهـن». كنّا ننزل إلى التظاهرات مع جماعة حزب الله، أما مؤيّدو «جماعة خلق» فينزلون إلى المسـيرات في الجهة المقابلة ويطلقون شعـارات مؤيدة لـ«شريعتمداري»، وقـد حرقوا مكان الصـلاة في ذلك اليوم. قلبـت النزاعات والمواجهات المدينـة رأسًا على عقب، وأحدثت انقسامًـا حتى داخل العائلة الواحدة، حتى إنّ الأخ أصبح ضد أخيه.

في أحـد أيـام تلـك المواجهـات سمعـت أحـد أصدقائـي يشتـم آية الله بهشتـي. سألتـه: «وهـل تعرفه؟»، قال: «هـو المسبـب والباعث لكلّ الخلافـات!». لم يكن لديّ معرفـة كبيرة بالمسائـل السياسية، لكنّني لم أصـدّق كلامـه. أكثر أبنـاء جيلي هم هكـذا، ومثل غالبيـة الناس، كنّا ننـزل إلى الساحات بـكل شوق وعزم، لكن مـن دون امتلاك الكثير من المعلومـات. في إحدى الليالي كنّا في القرية حين سمعنا عبر الراديو نداءً للتبرع بالدم، جاء الناس إلى المسجد، وجئت أنا وإخوتي أيضًا إلى تبريز للتـبرع بالـدم. في النهاية، خمدت «فتنـة خلق» في تبريز مـع أنّ آثارها السيئة استمرّت لسنوات بين أهالي آذربيجان.

2

راودتني منذ مدة فكرة العودة إلى تبريز والعمل هنـاك، لكنني أجّلت المسألـة من يوم لآخر، وبقيت في عملي إلى أواخر أيلول من العام 1980. في ذلـك اليـوم، سمعـت أول خبر عن الحـرب من مذيـاع الحافلة التي كانت تقلني مـن مستديرة «الإمام الحسـين» إلى مستديرة «خراسان».

راحـوا يبثون البيانات المتتالية عن الهجوم العراقي على المدن الحدودية الإيرانية. جميع مـن في الحافلة تحدّث عن هذا الموضوع، وأكثر ما لفت انتباهـي الحديث عن محاصرة «شوش». بعـد سماع هذا الكلام، نزلت عنـد أول محطـة. قلـت في نفسي إنّ «شوشـ» قريبة منـي لأذهب وأرى مـاذا يجري؟! عندما وصلت إلى مستديرة «شوش» لم أجد أثرًا للحرب! ذهبـت إلى عملي من دون أن أسأل أحـدًا شيئًا، لكن أخبرت أخي مساءً بمـا جرى، وفهمـت حينها أنّ «شوشـ» هو اسم إحدى مـدن خوزستان، وليس فقط مستديرة في طهران!

في تلـك الليلة أيضًا لم أستطع النوم بسبـب فكرة العودة إلى تبريز. أخبرت أخي أولًا بقرار العودة إلى هناك ثم ربّ عملي، وبعد مرور أربعة أيام على الحرب، غادرت طهران متوجهًا إلى القرية.

▫

ألقت الحرب بظلالها على كلّ مكان، وعرفت في خلجان أنّ أصدقائي كانوا يسعـون للالتحاق بالجبهة وقـد أصبحوا أعضـاءً في الحرس. أنا أيضًـا كنت أسعى للالتحاق بالجبهة بدل البحث عن عمل، فتوجّهت إلى الحرس الذي كان برأيـي أول باب للذهاب إلى الجبهة، وهناك، قابلني أحـد عناصر الحرسـ «محمد رضا باصر»[1]، وأيّ مقابلـة كانت! سألني أسئلـة في العقيـدة، السياسة، الأحكام... أسئلـة لم أكن أعرف الإجابة عـن الكثـير منها! وعندما قـال لي إنّني غير مقبـول، لم أصدّق! لم أكن أتوقـع أن أحرم من الذهـاب إلى الجبهة بسبب تلـك الأسئلة والأجوبة. عدت إلى المنزل منزعجًا.

---

1- كان محمـد رضا باصر حينها المسؤول عـن الانتقاء في الحرس. أصبحنا بعد أربع سنوات رفيقي السلاح في عملية بدر، وكنت موجودًا لحظة استشهاده...

صارت «الجبهة» الذكر الذي يجري على لساني ليلًا ونهارًا. أضحيتُ في النهار أطرق كلّ الأبواب لعلّي أجد طريقًا إليها، وفي الليل أمسيت أفعل أيّ شيء في البيت لأستجلب رضى العائلة، أحيانًا لم أكن أتناول طعام العشاء وأقول «لن آكل شيئًا ما لم تسمحوا لي بالذهاب إلى الجبهة». وعندما يحتدّ النقاش أحيانًا، كنت أستاء وأذهب لأنام في المسجد، وأحيانًا ألجأ إلى الحديقة، ولا أعود إلى المنزل مهما فعلوا.

بات برنامجي النهاري معروفًا، منذ الصباح أذهبُ إلى مراكز تسجيل التعبئة في تبريز. تكرّر ذلك، حيث ذهبتُ عدّة مرات إلى السوق وأملي أكبر بأن يقبلوني في مركز التعبئة هناك. لكنّني كنت أرجع دائمًا خالي الوفاض، إذ يقولون: «ما زلت صغيرًا، لا يمكن أن تلتحق بالجبهة!». يئست من قبولي في الحرس في أوّل يوم، كما لم يكن لتوسّلي وبكائي أيّ أثر في فروع تسجيل التعبئة كالكثيرين غيري، لكنّني نجحت في المنزل وأقنعت والدتي، أو أنّها ربما تعبت من أفعالي وظنت أنّ ذهابي إلى الجبهة أفضل من بقائي على هذه الطريقة. عندما يئستُ من الحرس والتعبئة فكرتُ بالالتحاق بالجيش، وأخذتُ أمي معي كي يأخذوا موضوعي على محمل الجد. توجهنا إلى أقرب مخفر للدرك في «سردرود»، قلت لهم: «أريد أن ألتحق بالجيش».

– كم عمرك؟

– ستة عشر عامًا!

– اذهب في سبيلك يا عزيزي، لا يمكن قبولك!

– ألا يلزم قوات للجبهة؟

– بلى، لكن قوات! وليس ولدًا في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة! اذهب وعد عندما تكبر!

عدت خائبًا، لكنّ والدتي كانت راضية هذه المرة فأخذت تدعو لي ليقبلوني.

□

في تلك الأيام، كان ابن خالي «إبراهيم نمكي» أقرب شخص إليّ قد ذهب إلى الجبهة وأمكنني أن أسمع منه الكثير عنها. عندما عاد من حرب «سوسنكرد»، جعلته هدفًا لأسئلتي الكثيرة والدقيقة: «ماذا تفعلون في الجبهة؟ كيف تحاربون؟ كيف هي الأسلحة؟ ...». ألهبت إجاباته شوقي أكثر: «هناك، نواجه مباشرة العدو الذي يجب أن نقتله، وهو أيضًا يريد قتلنا. هناك آليات كبيرة اسمها دبابات يصل وزن طلقتها إلى عشرة كيلوغرامات، وأحيانًا يطلقونها على الشخص مباشرة..».

– حسنًا، ماذا عليّ أن أفعل إذا أردت الذهاب إلى الجبهة؟

– يجب أن تتدرّب كثيرًا قبل لذلك، وعليك أن تتمكن من الركض جيّدًا وبسرعة ولا تقصّر في ذلك!

منذ ذلك اليوم بدأت أتمرّن على الركض، كنت أركض فقط حول ملعب كرة القدم في القرية، وفي كلّ يوم أحاول أن أركض دورة إضافية عن اليوم الذي سبق، كما أحمل فوق كتفي كيس خيش مليئًا بالحجارة وأثقله كلّ يوم أكثر بدلًا عن الذخائر وحقيبة الظهر!

كان أولاد القرية الذين عرفوا برنامجي يأتون للمشاهدة، فأضطرّ أحيانًا إلى تبرير ما أفعله، لكن ظلّت مشكلتي الأساسية عدم السماح لي بالذهاب.

□

آخر مرة ذهبت إلى «شعبة تسجيل التعبئة» في سوق تبريز، تواقحتُ ولم أرجع على الرغم من رفضهم المتكرر لي، لقد جعلوني أبكي: «لا التعبئة تسجل اسمي ولا الحرس يقبلني. إذا كيف سأذهب؟». وفجأة قلت لهم: «إذًا سأذهب بنفسي إلى الجنوب! لا بدّ أن يسألني هناك أحد

ما لماذا أتيــت؟!». هنا، أصبحوا أكثر ليونة وقالوا لي: «جيد جدًا! اذهب وأحضر والدتك لنرى ماذا يمكن أن نفعل».

في صبــاح اليوم التالي، ذهبــتُ برفقة أمي إلى مقــرّ تسجيل التعبئة في ســوق تبريــز، وأوصيتها في الطريق أن تجيب بـ «نعــم» مهما سألوها، وحذرتهــا بأنهم لــن يقبلوني إن تأخَّــرَت في الإجابــة أو أجابت بالنفي، فحينها أعود إلى المنزل ومن جديد يعود «النقّ»...

عندمــا سألــوا والدتــي: «هل أنــت راضية أيتهــا السيــدة.. ». قالت مباشــرة: «نعم»، أمــا عندما سألوها عن السبب؛ بــدأت بالكلام وكأنّها وجــدت فرصــة لتشكو همها فقالــت: «لقد أتعبنا منذ شهــر! لم يقبل أن أبقى في المنزل وأخذني حتى إلى المخفر. إن لم أرضَ...». لم يعطوني في ذلــك اليوم إذنًا بالذهاب، ولم يسمحــوا لي بعد ذلك حتى بالدخول إلى فرع التعبئة في سوق تبريز!

فكــرت في تلك الليلــة أنّ آخر الحلول هو إمام جمعــة تبريز «آية اللّه مدني» فقــد سمعت من الإخوة أنّه يستطيع المساعدة، ذهبت إليه وبحتُ لــه بوجعي، وأرشــدني إلى حلٍّ لمشكلتــي. قال لي: «ســوف يوزّعون هذه الجمعــة بعــد الصــلاة استمارات للذهــاب إلى الجبهــة في مسجد «راه آهن». إن شاء اللّه عندما تملأها...».

توجهــت صباح الجمعــة بكلّ شوق وحماســة إلى مستديرة «راه آهن» حيــث تقام صــلاة الجمعة، وذهبت بعــد الصلاة مباشــرة إلى المسجد حيــث وجــدت الكثيرين هناك ينتظــرون قبلي. عرفت مــن حديثهم أنّه سيتــم توزيــع 40 استمارة فقــط، لذلك حاولــتُ الوصــول إلى المقدّمة، واستطعــت بالرغم من كلّ الإجراءات أن أكــون خامس شخص يحصل على استمارة[1].

1 - يقال إنّ الحرس قبل ذلك التاريخ كانوا يرسلون فقط عناصرهم المنتسبين، وفي ذلك التاريخ تمّ إرسال أول دفعة من المتطوعين تحت اسم التعبئة.

كان القرار في البداية أن يأخذوا هؤلاء الأربعين تعبويًا للتدريب بعد أن يحصلوا على موافقة لجنة المسجد حيث تمّ ملء الاستمارات. سلّمتُ استمارتي للّجنة الإسلامية في المسجد التي كان خالي الحاج علي أكبر نمكي عضوًا فيها، وتمّت الموافقة عليها من دون أيّ عائق. وأخيرًا فُتح باب الجبهة أمامي، وتوجّهتُ في آخر أيام الخريف من العام 1980م مع مجموعة من المتطوعين إلى ثكنة «خاصبان»[1] للمشاركة في دورة تدريبية لمدة شهر واحد.

▫

كان الأخ «علي تجلايي» أحد المدربين هناك، أمّا مسؤول التدريب فكان من طهران. أدركنا صعوبة ما سعينا إليه عندما جعلونا نركض في أول تدريب صباحي حوالي 8 كيلومترات ولم نعد نقوى على الحركة، لكن كانت هذه البداية، ومع ازدياد فترات التدريب وصرامة المدربين، نسينا صعوبات اليوم الأول. فقدتُ كلّ طاقتي تحت ضغط تلك التمرينات، لكن ليس بالإمكان التهرّب من التدريب تحت أي حجة.

في إحدى الليالي، قال لي أحد زملائي في الدورة بعد أن رأى حالي: «إذا أصبتَ بملخ في إصبع قدمك سيعفونك من الركض لمدة». تهوّرت إذ سمعتُ قوله وأخذتُ به، وساعدني هو في شدّ إبهام قدمي حتى تأكدت أنّه ملخ! تسببت لنفسي بالألم وتورم إصبع قدمي على أمل أن يتساهل المدرّب معي قليلًا عندما يرى حالي، لكن ما حصل في صباح اليوم التالي هو أنّني أجبرتُ على لبس الجزمة والركض مسافة 8 كلم في المرتفعات والمنخفضات المحيطة بالثكنة، وكانت هذه المرة الأكثر ألمًا

---

1 - تبعد ثكنة التدريب العسكري (خاصبان) حوالي 30 كلم عن تبريز، وبرامج تدريبها العسكري مشهورة ولا تنسى. كان مركز التدريب (خاصبان) قبل عدة شهور من الحرب المفروضة مكانًا للتدريب العسكري للحرس، وهي تعرف اليوم باسم ثكنة سيد الشهداء عليه السلام.

مما سبقها. لعنتُ حظّي السيّئ وركضتُ جنبًا إلى جنب مع الآخرين من دون أن أنبس ببنت شفة، وشاركت في كلّ الصفوف والتمارين، ولم أعلم متى يتعافى إبهامي!

▫

في اليوم الخامس عشر من التدريب، أُبلغنا بوجود حاجة ماسّة إلى قوات جديدة في المنطقة فأرسلوا من بيننا نحن الأربعين، عشرين شخصًا كانوا قد خضعوا لدورات أو تدريبات عسكرية سابقة، وأكملنا نحن تدريبنا الشاقّ في «خاصبان». لقد أصبح التدريب أكثر قساوة؛ وأرسلونا مرتين أو ثلاثًا للتدرّب على القتال الليلي الذي كان صعبًا جدًا ومخيفًا في الوقت نفسه. لم ننعم بالهدوء حتى أثناء تناول طعام الغذاء حيث صاروا يرمون علينا من دون سابق إنذار الغاز المسيل للدموع. وأحيانًا، يباغتوننا أثناء الحراسة الليلية ويأخذون أسلحتنا، وعلينا استعادتها بأي طريقة. شيئًا فشيئًا بدأت آثار التدريب تظهر علينا، ولم نعد تلك القوات الحديثة النفس كما في اليوم الأول.

في إحدى الليالي، وفي طريق العودة من تدريب القتال الليلي، طلبوا من كلّ من لديه طلقات أن يطلق النار قبل الوصول، فأفرغ الجميع بنادقهم من الرصاص إلا أنا، فقد خطر ببالي الاحتفاظ برصاصاتي. عندما اقتربنا من الثكنة، تقرّر الهجوم على عدوّ مفترض موجود هناك، فبدأنا التحرك، وبعد أن اقتربنا عدّة أمتار، واجهتنا «تشريكة ألغام» أعدّوها مسبقًا، وبدأ رامي رشاش بإطلاق النار علينا. خطر ببالي فجأة أن أتجاوز الأشرطة الشائكة والألغام التي وُضعت لتدريبنا! فقطعت كلّ العوائق ووصلت إلى مطلق النار، وأطلقت النار باتجاهه مستخدمًا الرصاص الذي كان بحوزتي فخاف المسكين كثيرًا، هنا نادونا فورًا: «يكفي، عودوا!».

قالوا بعد نهاية المناورة إنّ أحد الأفراد كاد يقتل الرامي. حاولوا كثيرًا إيجاده، لكنّني لم أعترف بفعلتي، وحين لم يتوصلوا إلى نتيجة، أرشدونا إلى المكان الذي سننام فيه، لكنّهم تابعوا الموضوع في اليوم التالي. بعد المراسم الصباحية تمّ استجوابنا: «من أطلق النار على الرامي؟» فلم يُجب أحد. وأنا أيضًا لم أنطق بحرف! فحُرمنا من الطعام 24 ساعة، وسحبونا إلى الخارج حفاة في تلك الليلة الباردة من ليالي الشتاء، أما أنا فكأنّني لم أكن المسبّب لهذه المتاعب الإضافية. في النهاية، عندما رأوا أنّ أحدًا لن يعترف بشيء صرفوا النظر عن متابعة الموضوع.

انتهى شهر من التدريب في «خاصبان»، وانتقلنا إلى تبريز لنذهب بعد يومين إلى الجبهة. لقد اقتربتُ من تحقيق أمنيتي.

الفصل الثاني

# كردستان

1

التحقتُ بالجبهة في شهر شباط من العام 1981م. ودّعتُ أهلي في المنزل، أما أمي فلم تحتمل وأصرّت على أن ترافقني حتى الحافلة. نُقلنا إلى طهران بحافلتين، كنّا 55 شخصًا، 20 من الحرس والبقية من التعبئة، لم أكن أعرف أحدًا منهم. تحركت الحافلة، وبقيت أحدّق من خلف النافذة إلى المناظر من حولي إلى أن بدأ الجميع يتبادلون أطراف الحديث. كان بعض الذين خبروا الجبهة من قبل يتحدثون عن استخدام العراق قذائف الراجمات وعن قصفهم العنيف بالمدفعيات، وكانت أحاديثهم تذكّرني بكلام ابن خالي عن معارك «سوسنكرد»، شعرت مع هذه الأحاديث أنّني اقتربت من الوصول إلى مبتغاي بعد كلّ الجهود التي بذلتها.

عندما وصلنا إلى طهران، انتقلنا إلى ثكنة الإمام الحسين عليه السلام التي كانت مقرًّا للسافاك أيام الطاغوت. بقينا هناك ليوم واحد جاؤوا فيه بأخبار مختلفة! في البداية أعطوا لكلّ واحد منا كلاشينكوفًا وقالوا إنّهم سيأخذوننا إلى الجنوب، وبعد فترة جمعوا الأسلحة وقالوا ستذهبون إلى «كيلان غرب»، ثم أعطوا الجميع أسلحة مرة أخرى وقالوا ستذهبون إلى «كردستان»؛ إنّه القرار الأخير. لم يكن الخيار بيدنا، وجاء الأمر بالعودة من «طهران» والذهاب إلى تبريز حيث لم نمكث طويلًا وتوجهنا إلى «أرومية».

لم تكـن الأوضـاع في «أروميـة» مستقرة يومذاك، حيـث كانت هناك مواجهات مع المعادين للثـورة في المدينة، وقد بقينا ليلًا في مقرّ الحرس الـذي قصـف في تلك الليلة مرات عدة بقذائف الـ(B7). بعد يومين لم نـذق فيهما طعم الهـدوء، جاء الأمـر بالجهوزية عند الساعـة التاسعة والتهيّؤ للذهاب إلى «مهاباد». لم تكن الطرق آمنة تلك الأيام، فالحرس أو الجيش يؤمّنون طريق «نقده–مهاباد» لأربع ساعات فقط في اليوم، أما طريق «مياندوآب–مهاباد» فكانت مغلقة.

سلّمونـا أسلحتنـا وعتادنـا وذكّرونـا بما يجـب علينا فعلـه في حال الاشتبـاك. تقرّر الذهاب إلى «مهابـاد» بآليتي «إيفا»، وتحركنا موجهين أسلحتنـا إلى الخارج في حالة من الجهوزية، لكن لم يحصل أي اشتباك في الطريق حتى وصولنا إلى «نقده» حيث أُخبِرنا بأنّ الطريق بعد تقاطع «نقده» غير آمنة بتاتًا، ويجب بالتالي أن نكون حذرين. رافقتنا من هناك قـوات في آلية «سيمرغ» مع آليتـي مدفعية (106) وآليتي رشاش عيار 50 حيـث التحقت بالقافلة، وشكلت لنا نوعًا مـن التأمين والحماية[1]. تابعنا طريقنـا من جديـد في حالة من الجهوزيـة، لكنّ شيئًـا لم يحصل حتى وصولنـا إلى مشارف «مهاباد»، وهنـاك انفجر دولاب إحدى آليتي «إيفا» التـي كانت تقلّنا فاضطررنـا إلى التوقف. أنزلونـا بسرعة، وجاء الأمر بالتحصّـن خلف الصخور والجبال المحيطـة بالطريق ريثما يتمّ إصلاح الـدولاب، فتموضـع الجميع خلـف الصخور على جانبـي الطريق. كنت قـرب صخرة حين توجه شخصـ إليّ وطلب مني مـاءً ليشرب فأعطيته مطرتـي، شرب وجلس بجانبـي. عندما عرفت أنّه تبريـزي ومن سكان شـارع «باستـور» تذكرت صديقـي «أبو الفضـل بازارتشـي»[2] الذي كان

1 - لم تكن الدوشكا أو الشيلكا معروفة تلك الأيام.

2 - كنـت قد تعرفت إلى «أبي الفضل بازارتشي» في صلاة الجمعة، وأصبح أحد أفضل أصدقائي. كان أصغر سنًّا مني لكنه كان من العظماء الذين نالوا وسام الشهادة ما إن وطأت قدماه أرض الجبهة.

يسكن هناك فسألته إذا ما كان يعرفه، وسررت حين أخبرني -مبتسمًا- أنّـه أخوه، في تلك الأثناء أنهوا إصلاح الـدولاب ونادونا لنركب السيارة بسرعـة ونكمل طريقنا. طوال الطريق كنّا نـردد أناشيد ثورية بالتركية [ومعناها]:

جيش الإسلام يتحرك في الجبال وبين الصخور، ولا يهاب شيئًا
عشيرتي من «آذر»، وابن آذربيجان ليس جبانا
لن أتوقف، سأكمل المسير
السلاح في يدي
سأذهب إلى الحرب حتى نمسك بصدام اليزيدي.

لم نسمـع صـوت طلقة واحدة حتـى وصولنا إلى مشـارف «مهاباد»، وكانـت الأجواء في المدينة نفسهـا أكثر هدوءًا حتى من «أرومية» وكأنه لا يوجـد شيء هناك، لذلك ما إن وصلنـا إلى قيادة الحرس حتى ارتفعت أصواتنا اعتراضًا: «لا يوجد اشتباكات هنا! لماذا جئتم بنا إلى هنا؟ نحن نريـد الذهاب إلى الجنوب...». عاتبناهم كثـيرًا، لكنّ جوابهم أسكتنا: «الاشتبـاكات هنـا أشدّ من الجنـوب... مهاباد من المـدن الأساسية في كردستان، انتظروا حتـى الليل وسترون ماذا سيحصل!». قلت في نفسي أنتم أخفتمونا من النهار ولم يحصل شيء، ماذا سيحصل في الليل إذًا؟

وعندمـا حلّ المساء بدأت الاشتبـاكات واستمرّت طوال الليل، إلى أن ذهبت في الصباح إلى مقرّ الحرس في «مهاباد» وكنت راضيًا! [1].

---

1 - السبـب الأساسـي للحرب فـي كردستان أنّ الأحـزاب السياسية هناك كانـت تطالب بالاستقلال الذاتي. كان الحزبان: الشيوعي (الكوملة) والديمقراطي الكرديّان من الأحزاب الفاعلة في كردستان قبـل سنوات عديدة من انتصار الثورة، وشكلا مع المنافقيـن والجماعات المعادية للثورة التي نشأت فـي مناطـق من كردستـان، القـوات المسلحـة الأساسية التـي واجهتنا. وقـد مكّن موقـع كردستان الجغرافـي في جوار تركيا والعراق القـوات الكردية المسلحة من الحصول على التجهيزات العسكرية عبر الحدود. كانت الحرب في كردستان قاسية وعنيفة، وامتدت جبهة هذه الاشتباكات من مياندوآب حتـى كرمانشـاه بطول 500 كلـم. كان أهالي المدن فـي البدايات يدعمـون الديمقراطيين والكوملة،

تقـع ثكنة الحرس التـي استقررنا فيها على أطـراف المدينة تقريبًا، وتبعد حوالي 200م عن ثكنة الجيش. عرفنا منذ الليلة الأولى أنّ الأكراد يشتبكـون مع الحرس فقـط ولا يتعرّضون للجيش. كان للحرس أكثر من عشريـن نقطة في «مهابـاد» وهي مدينة صغـيرة، وفي كلّ نقطة ضابط، معـاون، عنصر إشارة وعدد من الجنود. استمرت قوات الكوملة تهاجم يوميًـا بعض هذه النقاط وتسيطر عليها، فنقوم نحن بشنّ هجوم مضادّ عليهـم ونستعيدها منهم. كان ضابط العمليـات في الحرس هناك شابًّا طهرانيًـا حذقًا وشجاعًا يبلغ من العمـر 22 عامًا ويدعى «صالح.» وكان يوجـد من القـوات في المدينة أكثر ممّا يوجد في المـدن الأخرى كتبريز، طهران، قزوين، آبعلي، كرمان و..

قيل لنا في بداية تجربتنا هناك إنّه لا ينبغي أن ننام في الليل أبدًا، أمّا في النهار فكانوا يطلبون منّا الانتباه والتدقيق في كلّ شيء، فكنّا نمزح مع بعضنا البعض ونقول: «إذًا متى ننام؟!».

بقينـا في أول يومين في أقصى حالات التأهب ولم تنم أعيننا ليلًا ولا نهـارًا. من الأخطاء التـي ربما ارتكبت في تلك الأيام أنّهم كانوا يخوّفون العناصر الجدد منذ وصولهم إلى كردستان ويقولون لنا إن سها أحدكم فسيقطـع رأسه... وكان من الطبيعي، مع هذا الكلام، أن نبقى متأهبّين دومًـا لكن مع شـيء من الخوف والقلق. كما إنّهـم لم يخبرونا شيئًا عن شجاعـة قواتنا التي قاومت الكوملـة والديمقراطيين بجرأة حتى اليوم، بـل راحـوا في كلّ فرصة يحذروننا: لا ينبغي هنـا أن تذهبوا وحدكم إلى

---

وكانـوا عندما تحين الفرصة لهم، يوجهون ضربـات لدورياتنا من منازلهم أو يهيئون الأرضية لهجوم مسلـح، حتـى إنّ بعض النساء المتحزبات كـنّ في الأيام الأولـى لوصولنا إلى مهابـاد يرمين الإخوة بالقنابـل مـن خلف أبواب بيوتهن، ولهذا كانوا يحذّرون الأفراد القادمين إلى كردستان أن ينتبهوا من كلّ شيء يشكّون فيه، ويقولون إنّ العدوّ يحيط بنا من جميع الجهات!

المدينة، لا تثقوا بأحد هنا، لا يجب...

أرسلونا في ظلّ هذه الأجواء، وفي أول توزيع للقوات، إلى مركز «بنك سبه» القريب من مستديرة «كوزنها»[1]، وقد عرفت المستديرة بهذا الاسم بسبب وجود مجسم لـ«ظبي» فيها. يوجد في جانب من جوانب هذه المستديرة «بنك سبه»، وفي جانب آخر منها إدارة التبغ ومقرّ محافظة «مهاباد»، كما يمرّ نهر في جانب ثالث لها. قليلة هي الأيام التي مرت هناك من دون اشتباكات؛ فقد كانت تبدأ دومًا من جهة النهر حيث البيوت في الضفة الأخرى للنهر متصلة بالغابة فتشكل أفضل مكان للاختباء قبل الاشتباك وبعده.

منذ دخولنا المركز، أُخبرنا كيف قطعت قوات الكوملة رؤوس 39 عنصرًا من قواتنا في «إدارة التبغ» وسلبوهم بعد ذلك أسلحتهم وقذائفهم، بثّ هذا الحديث الرعب في قلوبنا، لكن مع الوقت تعرفنا أكثر فأكثر إلى طريقة الاشتباكات وأتقنّاها بعد يوم أو يومين؛ في البدء كلّ شخص يعبر من هناك على دراجة نارية ثلاثية العجلات أو يبيع الفاكهة، وفجأة ترونه قد أخرج سلاحه و...

في الأيام الأولى تلك، قتلت للمرة الأولى واحدًا من الأعداء. كانت المسافة بين «بنك سبه» والمستديرة تتراوح ما بين الـ 30 و40م، وكان هناك متراسان من الإسمنت على بعد أمتار من المركز، كنت وبعض العناصر يومذاك موجودين هناك. عادة ما استخدم الكوملة نوعًا من الرصاص المتفجر لتدمير متاريس الباطون، ولو لم نتجهّز لهذا الأمر مسبقًا، لا أحد يعرف ما الذي كان سيحلّ بنا. بدأ الاشتباك عندما رأيت شخصًا يجول على دراجة نارية ثلاثية العجلات في المستديرة، ظننته في البداية عابر سبيل فناديت بالتركية: «دعه يذهب!»[2]، هم يفهمون هذه

1- ومعناها مستديرة الظباء؛ حيوان الظبي.

2- كئش كئت!

اللغـة، لكنّه لم يعبأ بكلامي، بـل أخرج سلاح الكلاشينكـوف! فأطلقتُ عليـه النـار مباشـرة وسقط أرضًـا. لم أعرف إن كان قد جـرح أو قتل، وكان الشخص الأول الذي يسقط برصاصي. خفت كثيرا! تراجعت من المتراس إلى المركز وبقيت هناك. انزعجت كثـيرًا ولم أستطع حلّ هذه المشكلـة. ذهبت إلى مسؤول مركزنا الـذي كان من شباب حيّ «عباسي» في تبريـز [1]، وقلت له إنّني قتلت أحدهم! كانت يـداي وقدماي ما زالت ترتجـف. قـال لي ببرود: «وماذا يجـب أن يحصل؟! كان عـدوّا، وإن لم تقتله قتلـك!». أراحني كلامه قليلًا، لكن بقيت أفكـر أنّني ارتكبت ذنبًا بسبب قتلي أحدهم. مضت أيام حتى اعتدت على الأمر وبدأت «الحرب» تظهر لنا وجهها الحقيقي في كردستان.

◘

كان الكوملـة والديمقراطيون يملكون زمام المبـادرة في المدينة، فهم يتلقّـون الدعم والحماية من أيّ منزل قصـدوه ولو بالقوة، أما نحن فلم نكـن نتوقع مساعدة أحد من الناس. وكان بالقرب من إدارة التبغ منزل توجد فيه ثلاث فتيات. عرفنا مع الوقت أنّ هؤلاء الفتيات غير الملتزمات بالحجـاب الشرعي واللواتي يلقين بأنفسهنّ التحية علينا على مدى أيام وينـاديـن الواحـد منّا بـ«الأخ»، كنّ يأتين مسـاءً لمساعـدة الكوملة عند الاشتبـاكات ويرمين علينا القنابل. لقد اعتـاد الناس على الاشتباكات، وعـادة ما كان يسقط في المواجهات التي كانت تحدث في المدينة مدنيّون من المارة وأبناء السوق.

في هذه الأجواء، كان لمركز «بنك سبه» وضع خاصّ، فوثائق ومستندات البنك منتشرة في كلّ مكان، إضافة إلى عدد من الكتب التي نشرتها قوات

---

1 - كانـت تصرفاته غريبة، كان ينفعل كثيرًا في بعض الأحيان، لكنه شخصٌ شجاع؛ وقد استشهد في كردستان. نسيت اسمه للأسف. رحمه الله.

الكوملـة علـى ما يبدو، لكننـا لم نطّلع عليها على الرغم مـن أنّنا نمضي أوقـات فراغنا هناك. كان من بيننا عددٌ مـن طلاب الجامعة يوضحون لنـا بعض القضايا والمسائـل، وأقيمت أيضًا دروسـ في الثقافة والعقيدة والعسكـر، كانت مضامينها مفيدة جدًا للعناصر الجدد أمثالي. عادة ما تمكث القوات في كلّ مركز قرابة العشرين يومًا، ثم تنتقل إلى مركز آخر. ونحن أيضًا انتقلنا فيما بعد إلى مركز في أطراف مستديرة «كوزنها».

غالبًـا ما كان الديمقراطيون يهاجمون مراكزنا في الليل، لكن في أحد الأيام وقع اشتباك نهارًا، فذهبت إلى سطح البيت المجاور وعندما توقف إطـلاق النار وأردت النزول، اعترضني صاحب البيت. قال لي بالكردية: «لقد أطلقتم قذيفة (B7) ودمرتم الحائط في غرفتنا»، توقفت قليلًا، كنت وحـدي والفرصة مناسبة جدًا لـه ليباغتني، ولأنّني دائم الشك بهم قلت له: «حسنًا، تقدّم أنت وافتح الباب لنرى». لم يتحرك! كررت كلامي لكنّه لم يتزحزح وأراد منّي أن أتقدّم أولًا. شهرت سلاحي بوجهه، فاضطر إلى النـزول من على الدرج، ووقف أمام البـاب وانتظر لأفتحه فراودني شك كبير بـه. لو تضرّر منزله لـكان يستطيع أن يأخـذ تعويضًا من الحرس. فتح البـاب بعد إصراري عليه وتهديدي له بالسلاح ورأيت الغرفة سليمة ومرتبـة. نظرت إليه، ومـن دون أن أخسر المزيد مـن الوقت خرجت من المنزل بسرعة لأذهب إلى مركزنا الذي كان الأكثر أمنًا في الحيّ.

كانت ليالي كردستان غريبة وقاسية. لقد أصبحت أصوات الاشتباكات الليليـة في مراكـز المدينة وفي الأطراف مألوفة جـدًا إلى درجة أن نشك ونستغـرب إذا ما مـرت ليلة ولم نسمع فيها أصـوات الانفجارات، لذلك توزّعـت القوات في كلّ مراكز المدينة، ولم تجتمع تحت أي ظرف كان. لم يكن في مركز القيادة الكثير من القوات أيضًا لأنّه مكان ظاهر ومعروف للديمقراطيـين، ولو أنهم وجهوا إليه عشر أو اثنتي عشرة قذيفة لأبادوه بمن فيه. لذلك لم تكن تقام أساسًا مراسم جماعية في كردستان. عندما

كنت في مقرّ قيادة «مهاباد» أحببت أن نقرأ دعاء كميل في ليالي الجمعة بشكل جماعي، إلا أنّ الأخ «حداد» معاون صالح وزّع الإخوة على الغرف حتى لا تكون خسائرنا كبيرة في حال تمّ قصف المكان بالهاون، لذلك لم يتوافر هناك، في مثل هذه الظروف، مجال واسع للمزاح والمشاكسة، ومع ذلك كان البعض يتحيّن الفرص ليمازح الجميع.

بقيت لمدة مساعد المسؤول في مقر مستديرة «كوزنها»، وكان مسؤولنا من شباب قزوين. ذات يوم، كان هذا الأخ رائق المزاج فقال للإخوة: «هل تريدون أن أعلّمكم لعبة جديدة؟».

- ما هي؟

- اجتمعوا كلكم في الغرفة لأخبركم ما هي.

عادة ما كان يوجد في المركز قرابة العشرين عنصرًا عدا عن الذين يحرسون سطحه ومحيطه مداورة في الليل والنهار، اجتمع هؤلاء في الغرفة وبدأت لعبة «وضع العمامة»! لم يكن أحد يعرف ما هي هذه اللعبة. قال: «معي عمامة ستوضع على رأس الجميع، فمن تكون العمامة بحجم رأسه يأخذ تومانًا، ومن لا تكون بحجم رأسه يدفع تومانًا، وهناك شرطان للعبة، الأول أن تُطفأ الأنوار، والثاني، ينبغي أن يبدأ أحد ما اللعبة من أحد الجوانب ويشارك فيها الجميع». ضحكنا قليلًا وأطفأنا النور. كان الشخص الثاني أول من أجبر على دفع الـ(تومان) لأن العمامة لم تكن بحجم رأسه... عندما وصل الدور إليّ كنت قد حضّرت تومانًا، لكنّه مسح بيده على وجهي أيضًا عندما أراد أن يضع العمامة على رأسي، ثم ذهب إلى الشخص الجالس بقربي. أخيرًا انتهت اللعبة وأضأنا النور. كانت أشكالنا تستحق المشاهدة! انفجرنا من الضحك، كان مسؤول هذه الفوضى قد جمع «الشحار» من داخون سخان المياه ووضعه في العمامة، ولوث به وجوهنا حين مسح بيده عليها في تلك العتمة. كانت تلك الليلة

من ليالي كردستان المعدودة التي ضحكنا فيها كثيرًا.

بعدها لم تترك الاشتباكات وشهادة الإخوة وإصاباتهم فرصة ومجالًا لنا لتكرار المزاح والضحك، لكنّني قرّرت أن أردّ الصاع لمسؤولنا القزويني بأيّ شكل كان.

في إحدى الليالي وصل الدور إليّ بعد هذا الأخ القزويني في توزيع مناوبات الحرس الثانية التي تبدأ في تمام الثانية عشرة. جاء في الوقت المحدّد وأيقظني وقال: «سيد! سأذهب لأنام، انتبه...». ذهبت أولًا إلى نقطة الـ«آيفون»(انترفون داخلي) حيث كنّا نتواصل مع الإخوة الذين يحرسون المدخل أو السطح، وأخذت معي الشاي للحرس أيضًا. تفقّدت أحوالهم وسألتهم إن كانوا قد ارتابوا في شيء ما أم لا. بدا أنّ الهدوء يسود المكان. بعد ساعة حلّ الوقت المحدّد لتبديل الحرس. وعندما دخلت المبنى لأوقظ المعنيّين بالمناوبة الثانية رأيت مسؤولنا القزويني يغطّ في نوم عميق. أيقظتهم بسرعة وأرسلتهم ليأخذوا مكان الحراس في المناوبة السابقة. عدت إلى المبنى وأطفأت سخان الماء ليبرد، ثم وضعت «الشحار» في علبة وذهبت إلى هذا الأخ القزويني. كان يتقلّب كثيرًا أثناء النوم، أمسكت بوجهه أولًا ثم مسحت الشحار على رأسه ووجهه! وبعد أن أنهيت عملي عدت إلى نقطة الآيفون، كنت قلقًا بعض الشيء لأنّني تركت المكان هناك خاليًا لبضع دقائق. اتصلت فورًا بالأخ الموجود في نقطة الحرس الأمامية وتحدّثت إليه، إلا أن أحدًا لم يجبني. أصبت بالذعر، ركضت وصعدت إلى السطح من دون سلاح. كان الحارس نائمًا! عندما وصلت إليه لمحت طيف شخصين من على مسافة سبعة أو ثمانية أمتار. مددت يدي إلى سلاح الحارس إلا أنّه وثب من نومه وتمسك بسلاحه بشدة. صحت به: «أعطني السلاح»، راح يهلوس مذعورًا: «ماذا حصل؟.. ماذا حصل؟..» عندما سمع الشخصان صوتي عادا وفرّا عبر السطوح الملتصقة ببعضها -والتي كانت قد ساعدتهما

علـى الوصول- أطلق الحارس النار عليهما بعد أن عاد إلى رشده ليُسمع صوت الرصاص مرة أخرى. نزلت عن السطح وكان الإخوة قد استيقظوا أيضًـا. رأيـت مسؤولنا أمام مـرآة كبيرة في الصالة يقـترب منها قليلًا ثم يرجـع مبهوتًا. لقد استيقظ هذا المسكين على صوت الرصاص وأخذ سلاحه ليذهب إلى الأعلى، لكنّه في ذلك الوضع رأى صورة لا تشبهه! لم يكن يعرف بعد ما حلّ به...

لقـد صفّيـت حسابي معه، وربمـا كان من المصلحة أيضًـا أن أتغافل قليلًا ثم أذهب إلى السطح لأرى ماذا يحدث.

هكـذا انقضت خمسة وأربعون يومًا في «كردستان» لتسمح لنا القيادة بأخـذ إجازة لمدة خمسة عشر يومًا، فعدنا إلى تبريز، ومن هناك ذهبت إلى القرية. صرت أواجه باستمـرار أسئلة من أفراد عائلتي وأصدقائي خاصة «بازارتشي» وخالي عن وضـع الجبهة والحرب: «كيف تحاربون؟ مـاذا تفعلون أساسًا؟ كيف هي الاشتباكات؟.. ». وأجيب: «يطلقون النار قليـلًا، ونطلق النار قليـلًا، يقتل أحدنا الآخـر و..». يسألون مستغربين: «هل يقتلون الناس هناك فعلًا؟!».

## 2

مضـت الخمسة عشـر يومًا بسرعة كبيرة، وعدنـا إلى «مهاباد» عبر «أروميـة» كما في المـرة الأولى، ومع المرافقة وسيـارات الحماية نفسها. أرسلونـا هـذه المـرة إلى مركز آخر قريـب من شركـة الاتصالات حيث تعرفـت إلى «أكـبر واثقـي»[1] من أهـالي «قراملك» في تبريـز، وهو يتيم الأبوين ويعيش في منزل أخيه. عمل راعيًا ولديه العديد من الأغنام يهتم بهم كما قال. كان رجـلًا عظيمًا، طاهرًا، حلو المعشر، ومؤمنًا، يستأنس

1 - اغتيل «أكبر واثقي» في مهاباد فيما بعد ونال وسام الشهادة التي كان يليق بها كثيرًا.

بالصلاة. أحببناه وصرت أمضي معظم أوقاتي معه.

كالعادة، كانت الاشتباكات الليلية برنامجنا في «مهاباد»، ونهارات أغلب الأيام تمضي بهدوء. المركز الذي استقررنا فيه هو عبارة عن منزل يقع بين شركة الاتصالات وإدارة التبغ ويبعد حوالي 150م عن مركزنا السابق. أخبرنا «أكبر واثقي» في أحد الأيام أنّ الديمقراطيين مجتمعون في المنزل الواقع على مسافة 100م من شركة الاتصالات خلف المسجد. ليلًا، تحركت وأكبر وشخصين من «آبعلي» من على السطح باتجاه المنزل الهدف. كنّا نقوم بهذا العمل تحت مسؤوليتي، فقلقتُ شيئًا ما من أن يكون اشتباكنا بلا فائدة لا قدّر الله. ما إن رأينا الحراس على سطح المنزل حتى بدأت الاشتباكات، عاجلناهم برمي قنبلتين داخل المنزل وعدنا، لكن عندما وصلنا إلى المركز قال أكبر بقلق: «قنبلتي ليست معي! لقد وقعت في الشارع حتمًا..»، فقلت له: «هيا بنا لنذهب! سيكون الأمر سيّئًا إذا ما وقعت تلك القنابل بأيدي الناس، سيقولون انظروا كيف فرّوا ولم يأخذوا قنابلهم معهم!». لكن لم يكن الوضع مناسبًا لنخرج ثانية من المركز، فانتظرنا حتى الصباح وذهبنا قبل شروق الشمس ووجدنا القنبلة وسط الشارع، فكرتُ هناك أنّه من الأفضل أن نلقي نظرة على مكان الاشتباك. كانوا قد أخلوا المنزل، والدماء المتناثرة على الأرض تُظهِر أنّ عمليتنا في الليل لم تكن بلا نتيجة، وشاهدت في الزقاق شابًا في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره يحمل بيده رشاش «عوزي»، وما إن رآني حتى هرب، حين رأيت أنّني لن أصل إليه صوّبت على قدمه وأطلقت النار. حين سقط أرضًا ركضت نحوه، أراد أن يتناول سلاحه الذي وقع أرضًا فلم أدعه يصل إليه. كان أصغر منّا بقليل، حملناه على ظهرنا وأخذنا سلاحه أيضًا وذهبنا في طريقنا. حدّدت الدماء التي كانت تسيل من هذا الولد مسيرنا، وكنت واثقًا أنّ صاحبه سوف يأتي خلفنا، وفكرت أنّ الولد الذي يحمل رشاشًا من نوع عوزي، لا بدّ أن يكون

مع والده رشاش ثقيل. قال لي مسؤول المركز عندما رآنا: «أرسلتك لتجد القنابـل أم لتطلق النار على ولد وتحضـره إليّ!». أخبرته أنّه كان يحمل سلاحًـا ولا يُستبعـد أن يكون قد شـارك في تلـك الجلسة (الاشتباك). أخذوه وحققوا معه وحصلوا منه على الكثير من المعلومات.

▫

أُرسلـتُ في أواسـط آذار مـن العـام 1981م إلى تلـة التلفزيون. كان مقـرّ التلفزيـون من أهم النقـاط في المدينة، ويجب حمايتـه بأفضل ما يمكـن، وقد تمّ إنشاء عـددٍ من المراكز حول هذه التلة مـا قلّل من نسبة الاشتبـاكات في مركـز التلفزيـون نفسه. يوجد في هذا المقـرّ حوالي 22 عنصـرًا، وكان مـن أكثر الأماكن راحة بالنسبـة لي في كلّ فترة وجودي في كردستـان، فللحضـور هناك امتيـازات خاصة، إضافـة إلى انعدام الاشتبـاكات الجديّة فيه. عمـد العاملون هناك أحيانًـا إلى بثّ أشرطة لطم ومجالس عزاء وعرضوا أفلامًا عن الحرب تروقنا. كان قلبي ينشدّ إلى جبهـة الجنوب كلما شاهدت أو سمعت شيئًـا عنها. وحين علمت أنّ أحد الأفـراد الموجودين هناك قد أمضى فترة في جبهة الجنوب سابقًا، صـرت أنهال عليه بالأسئلـة. وفيما يروي كيف أصـاب دبابة و... رحت أسأل: «أنّى لي أن أعرف كيف رميت الدبابة، أخبرني كيف كانت تشكيلة القـوات؟ وما هي قاعدة الحرب هنـاك؟». كان ما يقوله شبيهًا بالأفلام التـي يركض فيهـا التعبويون بنـداء الله أكبر مئات الأمتـار إلى الأمام ويُسقِطـون الهـدف! لم أصدّق أنّ جيش صـدام البعثي جاهل إلى درجة يمكن قتاله بهذه الطريقة.

وقـع اشتبـاك واحـد فقط خلال فـترة الشهـر التي قضيتهـا في تلة التلفزيـون وذلـك في يـوم النـوروز عـام1360 (21 آذار 1981م). كان الجميـع جالسـين صباح ذلك اليـوم حول سفرة العيـد ينتظرون لحظة

بداية السنة الجديدة، حـوالي الحادية عشرة. في ذلك اليوم كنت أفكر أنّـه العيـد الأول لي بعيدًا عن البيـت وفي الجبهة، والله وحـده يعلم كم ستطـول الحرب وإلى متى سأبقى أنا! وإذ بصـوت انفجار ورشقات من الرصاص تجعلنا نخلي السفرة. قلت مازحًا: «اجتمعوا، إنها لحظة بداية السنة الجديدة!». استمرّت الاشتباكات في أطراف التلة حوالي ساعة أو ساعتين، وعندما هدأت الأصوات وعدنا إلى مركز التلفزيون، وجدنا أنّ الإمام قد أنهى كلامه بهذه المناسبة، وفاتنا سماعه.

◘

بعد فترة، أرسلونا مجددًا إلى «بنك سبه»، خلال شهر رمضان. طلبوا منا في أحد الأيام تأمين الطريق الممتدة على مسافة 35 كلم من «مهاباد» حتـى تقاطع «نقده»، والتي كانت قوات الجيش تؤمّن نصفها والإخوة في الحرس يؤمّنـون النصف الثاني، وكان من المقـرر الذهاب بثلاث آليات لتأمينهـا. عادة ما تستمـر عملية تأمين الطريق مـن الصباح حتى أذان المغـرب، ولأننا كنّا صائمين سألنا الإخوة القدامى: «ماذا عن صيامنا؟»، فقالـوا: «يجب أن تفطـروا»، عندها شربت الماء فـورًا ولم أكن أعرف أنّ الضابط ينظر إلي، ناداني فجأة: «أنت لماذا أفطرت؟»، تلعثمت، وقلت له: «أنتـم قلتم إنّنا سنذهب للتأمين». لم يتراجع - وكان اسمه «محسن» وهو من الإخوة في الحرس في تبريز - ورماني في غرفة المرحاض عقابًا وعبرة للآخريـن! انزعجـت كثيرًا. ذهبـت إلى شباك صغير مطـلّ على الفناء الخارجي للمركز وحاولت فتحه حتى نجحت في ذلك، ومن هناك توجهت إلى داخـل المبنى. كم تعجبت حين رأيت كلّ الإخوة قد أفطروا، ويتناولون طعامهم قبل التحرك لتأمين الطريق! مع هذا كنّا نحب الأخ محسن[1].

1 - كان مـن قـوات خاصبان، وكان حذقًا وشجاعًا جدًّا. رافقنا أول مرة إلى كردستان حيث كنا حوالي 90 عنصرًا. وقد قُدِّم لنا في مهاباد كمسؤول عنا.

بعـد عدة أيام، وفي أواخـر أيام شهر رمضان المبـارك سنة 1981م، جـاءت إحدى النساء الكرديات بعد الظهـر وأخبرتنا أنّ الديمقراطيين قد نصبوا كمينًا في تقاطع «كوزنها»! كنّا تسعة أشخاص في المركز، وبعد التـداول في الأمر توصلنـا إلى نتيجة مفادها أنّ تلك المرأة كاذبة لأنّه لم يحصل حتى ذلك اليوم أن جاء أحد من أهالي البلدة وقدّم لنا المساعدة. عند الغروب جاء سائـق المركز وملأ خزان المياه، وركبنا نحن في سيارة (بيك آب) لنقوم بجولة في المستديرة، وجلست أنا خلف السائق، وما إن ابتعدنا عن المركز قليلًا حتى انتبهت إلى أنّني نسيت سلاحي، طلبت من السائـق التوقف فورًا وعدت إلى المركز بسرعة وأخذت سلاحي، في هذه الأثنـاء رموا السيارة بقنبلة يدويـة. كان في السيارة 9 شباب استشهدوا جميعًـا في لحظـة واحدة ما عـدا شخص واحد، واحترقـت أجسادهم، وهنـاك استشهـد الأخ الشيخ «كاظم كاظمي»، لقـد كانت لحظات مرّة. احترقت أجساد الشهداء الطاهرة فيما لم نكن نستطيع الاقتراب منهم بسبـب تلك الحـرارة الصاهرة. بعـد التواصل مع القيـادة، جاء الأمر بعدم الاقتراب من السيارة والعودة إلى المركز. كان عدد الديمقراطيين والكوملـة كبيرًا في المدينة، والمواجهات في مثل هذه الظروف ستؤدي إلى خسائـر كبيرة في صفوفنا. لم نكن نعلم حتـى الليل أنّ أحد الإخوة رمى بنفســه من السيـارة لحظة انفجار السيـارة وأصيب بثـلاث شظايا في بطنه. وأخبرنا فيما بعد أنهم جاؤوا ليطلقوا عليه رصاصة الرحمة، لكن عندمـا رأوه ملقى على الأرض قرب الساقية بـلا حراك، قالوا لا حاجة لذلك فقد مات، وذهبـوا. رأى حارس المركز في تلك الليلة شخصًا يجرّ نفسه من المستديرة باتجاه المركز فهرعنا بمساعدة الإخوة إلى نجدته.

طُلـب منّا في تلك الليلـة البقاء على جهوزية تامـة لعلمهم بأنّ العدو سيشـنّ هجومًا على المركـز، ظنًا منه بأنه لم يبق فيه أحد، فانتظرناهم علـى أحرّ مـن الجمر. عند الساعـة العاشرة مساءً، كنـت أحرس أمام

المركز عندما التفتّ إلى شخصين عبرا الشارع. أصبحنا جميعنا نعرف حيلهم؛ قبل الهجوم، يعبر شخصان من أمام المركز الذي يريدون استهدافه، فإن أظهرت القوات الموجودة فيه ردّ فعل يعزفون عن الهجوم، وإلا يبدأ باقي العناصر الذين يكمنون في نقطة أبعد الهجوم. عندما رأيت هذين الشخصين في تلك الليلة قلت للإخوة «دعوهما وشأنهما وانبطحوا على الأرض واستعدّوا»، فخرج عدد من الإخوة من المركز وتموضعوا على جانب الطريق. تحرك الديمقراطيون بسرعة باتجاه المركز، وما إن اقتربوا منا حتى رماهم الإخوة بوابل من الرصاص وقتلوا عددًا منهم في اللحظة الأولى. لقد هاجمونا في تلك الليلة مرّتين، لكنهم لم يستطيعوا السيطرة على المركز.

▫

بعد مدة استدعوني إلى مقرّ القيادة وسلموني مسؤولية مركز شرطة السير في «مهاباد». يتابع عناصرها هناك الأمور المتعلقة بالقيادة والمرور، وينزلون إلى الشوارع بلا سلاح، ولم يحدث أن وقع اشتباك بينهم وبين الناس. أما نحن، فلأننا كنّا مكلفين بحفظ الأمن في تلك الناحية من المدينة، فقد حملنا أسلحة خفيفة كالرشاشات و الـ(B7). كان المسؤولون في الشرطة يراقبوننا ويتابعوننا، وعندما عرف أحدهم أنني لا أحمل رخصة قيادة، أخبرني بأنه المعني عن هذه الأمور، وأنّه يستطيع تأمينها لي، لكنّني لم أكن أفكر بها أبدًا وقلت له: «من غير المعلوم إن كنت سأعيش أكثر وأذهب إلى تبريز وأستفيد منها...». قال إنّه من الصعب الحصول عليها في تبريز، ولكنّني لم أقتنع.

يتصل هذا المركز بالمدينة عبر جسر وقد وقعت فيه عدة اشتباكات. كان الإخوة يقفون عادة على جوانب الطريق للتأمين. انسجمت هناك مع أحدهم أكثر من غيره وهو «كريم برويزي» من مدينة آذر ويبلغ من

العمـر 16 أو 17 عامًـا، وعندما تعرّفنا أكـثر إلى بعضنا البعض، أدركتُ أنّـه يتيم الأمّ. كان قلبي يحترق لأجلـه عندما يتحدّث عن أمه؛ فحاولت أن أعطـف عليـه. ذات يوم جاء والده لرؤيته، وأمضـى الليلة في المركز، وأحضر له الفستق وأنواعًا أخرى من المأكولات.

في اليوم التالي، كنّا ننتظر دورنا في الصف للاستحمام، وكان قد جاء دور كريم حين أخبرونا أنّ الإخوة يخوضون اشتباكًا في الحيّ المجاور، وأنّه لا مجـال للتأخر، قلت لكريم: «أسرع، فهـؤلاء الإخوة لا يعلمون ما ينبغي عليهم فعله!». والقوات التي دخلت في اشتباك مع الديمقراطيين قد جاءت للتـوّ من «آبعلي» ولم تَخبُر بعد أساليـب الاشتباك. بعد دقائق وصل خبر اشتـداد الاشتباكات، وأنّ الإخوة بـدأوا بالتراجع، فذهبت ناحية الجسر لأتابع الأحداث عن قرب. رأيت الديمقراطيين يعبرون الشارع بين الجسر ومستديرة «كوزنها» واضعين الناس أمامهم دروعًا بشرية، وقد التفوا على مجاهدينـا من الخلف وراحوا يطلقون عليهـم النار. أُجبرت على إطلاق النـار عليهم، وكانـت الاشتباكات قد امتدت إلى عدة منـازل. لجأنا إلى قاذف الـ(B7)، إلا أنّ قسمًا منها انكسر، ولم تعد صالحة للعمل، فأحضر الإخـوة الرشاشات، وبدأنا الرمي عليهـم إلى أن أسكتناهم. بعد دقائق، جاء الأمر عبر جهاز اللاسلكي بالانسحاب التدريجي والعودة إلى المركز لأنّ خسائرنـا كانت ستـزداد إذا استمرت الاشتباكات. حين ذاك قال لي كريم: «سأذهب إلى الجهة الأخرى من الشارع».

- لا، أنا...

لم يتركنـي أكمـل كلامي وقال: «إذا استشهـدت أنت ستحزن أمك، أما أنا... حسنًا، ابـدأ بالرمي الآن لأستطيع العبور». بذهاب كريم إلى الجهـة الأخـرى سيطرنا على الموقـف أكثر، واشتـدت الاشتباكات من كلّ الجهـات. كنـت وكريم ننادي بعضنا البعض عنـد كلّ فرصة، وكنت

أميـز صوته بسهولة مـن بين أصوات الرصاصـ المتفجر في تلك الجهة مـن الجسر. فجأة، تغيّر صوته ولم يعـد يجيبني رغم نداءاتي المتكررة لـه. استأتُ وتوقعتُ أن يكون الديمقراطيون قـد استهدفوه من الخلف. وصلتْ في تلـك اللحظة (عربة) آلية بثلاث عجلات من جانب الجسر، فقلـت لسائقهـا: «ابـق هنا حتـى أعبر». لكنّـه لم يُعِر أهميـة لكلامي. أصبـح الناس الذين تعوّدوا علـى الاشتباكات هنـا لا يكترثون لكلامنا لأنّهـم يعلمـون أننا لن نتعرّض لهـم. استغللتُ في لحظـة واحدة حركة هـذه العربة وألقيت بنفسي خلـف الدشمة. كان كريم قد استشهد، وما زال فمـه ينزف. حاولت كثـيرًا حمله على كتفي والعـودة به إلى المركز لكنّنـي لم أستطـع. لم أقـوَ علـى ذلـك لأنّ جثتـه كانت كبـيرة. عشت ظروفًـا قاسية، كنـت فيها قلقًا ومضطربًا ولا أحـد من الشباب حولي. وكنـت قـد طلبت من إخوة «آبعلـي» أن يعودوا إلى المركـز، وها أنا الآن أصبحـت وحيـدًا مع جسد صديقـي بين الأعداء. وضعـت سلاحه على كتفي لأستطيـع استخدام يديّ. قرّرت أن أسحب جسده بأيّ ثمن كي لا يبقـى ويحرقه الديمقراطيـون بعد ذهابي كما فعلـوا سابقًا مع أجساد شهدائنـا. الشـيء الوحيد الـذي استطعت فعله هو سحـب جسده على الأرضـ، أمسكته من قدميـه ورحت أسحبه أمتارًا عـدة لأذهب بعدها إلى خلـف الأشجـار وأشتبـك مع العـدو. بقيت هكذا حتـى وصلت إلى مـكان آمن، عندمـا أردت حمل كريم علـى كتفي، رأيت وجهـه مهشّمًا ومدمًى جراء سحبه على الأرض فشعرت بالخزي. كلّ ما كنت أريده هو أن لا يقـع جسده بأيدي الديمقراطيين. وصلـت أخيرًا إلى قرب المركز فهـبّ الإخوة لمساعدتي. عندما فتحت حقيبة كريم لألملم أغراضه رأيت بينهـا كفنًا... استأت كثيرًا عندمـا تذكّرت حضور والده قبل يوم واحد فقط مـن شهادته، لكن لم يكـن باليـد حيلـة، وكان هـذا أول الغيـث!

خبرنا بالتجربة أنّه عندما يسقط لنا شهداء وجرحى في المواجهات، يشنّ الديمقراطيون هجومًا ثانيًا في الليلة نفسها. تحضّرنا في تلك

الليلة وشنّ العدو هجومًا كما العادة. بدأ الاشتباك، ولأنّني كنت مسؤول الموقع رحت أتنقل من ناحية إلى أخرى وأتابع أمور الإخوة. وخلال كلّ تلك الفترة كان أحد أفراد شرطة السير يلاحقني كظلي. لقد بات مضطربًا لأنّه قتل أحد الديمقراطيين في الاشتباكات ذلك النهار وهو الآن يرجوني: «سيد، إن سألوك من قتل ذلك الشخص قل إنّك أنت من قتلته!».

– أنا قتلته... نحن قتلناه... لقد قمنا بعمل جيد جدًّا. لماذا أنت خائف؟

– لا سيؤذوننا.. بالله عليك قل إنّك أنت من قتله.

– كان عدوّنا، ولا ينبغي الخوف من قتل العدو!

تحدثت معه، لكنّ كلامي لم يؤثّر فيه. كان خائفًا وقلقًا، وظلّ يلاحقني كظلّي على سطح مبنى شرطة المرور أينما ذهبت، ومهما فعلت، ويعيد كلامه، حتى صرت فيما بعد أضحك من تكرار حديثه. قتلنا في تلك الاشتباكات سبعة أو ثمانية أفراد منهم.

بعد عدة أيام، عدنا من مركز شرطة السير إلى قيادة الحرس، المكان الذي كان يسمى «قصر الشباب» قبل مجيء الحرس إلى المنطقة. مضى 45 يومًا على البعثة الثانية إلى كردستان، وتحضّرنا للإجازة والعودة إلى مدننا، إلا أن قائد عمليات الحرس الأخ صالح قال لي: «ابق أنت هنا لأننا نحتاجك». امتثلت للأمر، وبقيت في مقرّ الحرس في «مهاباد» مع عدد من الإخوة الذين طُلب منهم البقاء أيضًا. ذهب البقية في إجازتهم[1] وجعلنا مهمتنا بناءً على طلب الأخ صالح ستة أشهر لنبقى في كردستان ثلاثة أشهر إضافية. وكان «أكبر واثقي» و«رضا نمك دوست» من بين ثمانية أفراد تقرّر بقاؤهم في كردستان 3 أشهر إضافية. لقد أصبحت عضوًا في الحرس بشكل رسمي في ربيع العام 1981م.

1 - وهؤلاء ذهبوا بعد أن أنهوا المأذونية إلى منطقة الجنوب.

3

بعــد مــدة، أُرسلــتُ مع عدد مــن الإخوة في مهمــة إلى تلــة «الشهيد مهــدي زاده» حيث بقينــا هناك أكثر من أسبوعين. تقــع هذه التلة قرب المدينــة تقريبًا، وتشرف من جهة على المدينــة، وتحدّها من جهة أخرى إحــدى القرى على مسافة 500م. لم يقترب الديمقراطيون منا في الأيام الثلاثــة الأولى، وكانــت الاشتباكات تدور في كلّ مــكان إلا في هذه التلة. لم أستطــع الصــبر، فذهبــت إلى المقــرّ وطلبــت أن يرسلــوني إلى أحد المراكــز. كان مسؤولنــا[1]، وهــو من منطقــة «مغان»، مــن العناصر ذوي الخــبرة في الجيش، وقد استقال من الجيــش والتحق بالحرس، قال لي بثقــة: «سوف تقع اشتباكات في التلة هذه الليلة، اصبر حتى المساء». لقد صدق القول، فأخيرًا انكسر الصمت في تلة الشهيد «مهدي زاده» بعد أن هاجمها الديمقراطيون. كنّا مسلحين بالقذائف والرشاشات و الـ(B7)، وسيطرنا ناريّا وبشكل جيد من أعلى التلة على الأطراف، وقد استهدفوا هــم أيضًــا مركزنا بالـ(B7) مــن القرية المجاورة. خلاصــة الأمر، كان الدفــاع عن المراكز التي تقع في أعالي التــلال أسهل من الدفاع عن تلك الموجودة في المدن.

الحــدث الذي لا أنساه وقــع أثناء وجودنا في تلة الشهيد «مهدي زاده» هــو انفجار مكتب الحزب الجمهــوري الإسلامي في 28 حزيران 1981م. قيل في البداية إنّ عددًا من النواب قد استشهدوا، وإنّ الدكتور بهشتي قد جرح، لكن بلغنا لاحقًا الخبر الذي يؤكد شهادة الدكتور بهشتي. في تلك الليلــة خلا كلّ واحد من الإخوة بنفســه وراح يبكي. وعندما استحضرنا ذكريات الماضي، وعينا وأدركنا أكثرَ معنى حديث الإمام الذي اعتبر أنّ مظلومية الشهيد بهشتي أكبر من شهادته. في مقابل حزننا وانزعاجنا،

1 - استشهد فيما بعد في كردستان.

كان أعـداء الثورة يظهرون الفرح، وقـد ازدادت فرحتهم أكثر بعد عدة أيـام عندمـا وصل خبر فرار «بنـي صدر» من البلـد، وإمضائه معاهدة مـع «قاسملو» في إحدى الـدول الأوروبية. نزلـوا إلى الشوارع، لكنهم لم يجرؤوا على إقامة المسيرات بشكل واضح، فصاروا ينزلون جماعات من خمسة أو ستة أشخاص هنا وهناك ويطلقون شعارات مزعجة من قبيل: «بني صدر، قاسملو، معاهدتكم مباركة!».

▫

بعـد تلة الشهيـد «مهـدي زاده»، أوكلـوا إليّ مسؤوليـة تأمين طريق «مياندوآب-مهاباد» التي كانت بيد الديمقراطيين، ولم نكن قد قمنا بعد بـأيّ خطوة لتحريرها. طريقنا الوحيـدة التي كانت تصلنا بالخارج هي طريـق «أرومية-نقده-مياندوآب» الواقعة تحـت سيطرتنا من «مهاباد» حتى «كوى تبه»[1]، آخر مركز لنا في تلك المنطقة ويبعد 15 كلم عن طريق «مهاباد-مياندوآب»، وهو يشبه الثكنة ويتسع لثلاث أو أربعة كتائب.

كنـا مكلّفـين في منطقة «كوى تبه» بتفتيشـ كلّ السيارات المتجهة من «مهابـاد» إلى «مياندوآب». فهِم الحرس أنّ الديمقراطيين يؤمّنون جزءًا من حاجتهم من الغاز والبنزين من «مهاباد»، وأحيانًا كثيرة عمد الأكراد أنفسهـم إلى بيعهـم البنزيـن والنفط بثلاثـة أضعاف سعـره، وأحيانًا أخـرى كانـوا يقدّمون لهم البنزيـن بالمجّان، لكن بشـروط معينة. لذا، تم استحـداث نقطة عنـد مدخل «مهاباد» مهمتها تفتيشـ كلّ السيارات العابـرة في تلك الطريق ذهابًـا وإيابًا. كنّا نتأكد أثنـاء التفتيش من أنّ مـا يحملونه من أمتعة وأطعمة في سياراتهم هـو على قدر حاجة العائلة نفسهـا. أحيانًا كنّا نجد عائلة متوجهة مـن «مهاباد» إلى قريتها وتحمل معهـا 30 علبـة سمن نباتـي، فنفهم أنهـم سيسلمونهـا للديمقراطيين.

---

1 - اسم تركي أطلقناه نحن على التلة، ويعني التلة الخضراء.

اللافت هنا أنّ السائقين كانوا يقولون لنا: «أنتم تفتشوننا هنا، وبعد عدة كيلومترات سيفتش الديمقراطيون سياراتنا!». لهذه الدرجة كان الديمقراطيون والكوملة مسيطرين على المنطقة.

▫

كما العادة، رافقنا في هذا المركز عدد من أفراد التعبئة والحرس، لكن ما بعث فيّ الطمأنينة هو وجود «كاكا قادر». إنّه أحد البشمركة الذين سبق أن التقيته عدة مرات لكننا هنا كنّا دائمًا معًا. كان كاكا قادر من الوجوه المعروفة في كردستان، الكلّ يعرفه؛ الناس، الديمقراطيون، الكوملة وقوات الحرس والجيش. هو من أقوى البشمركة، وقد استشهد أبناؤه وزوجته على أيدي الديمقراطيين. اجتمعنا بالبشمركة مع دخولنا إلى كردستان، فهم من أهالي المنطقة الذين تختلف عقائدهم وأفكارهم عن أفكار البقية، وكانوا يتعاونون معنا، ويعود الفضل في نجاح الحرس في وأد فتنة كردستان في كثير من الحالات إلى تعاونهم ودعمهم المباشر، لأنّ القوات التي كانت تأتي من أقاصي إيران إلى كردستان لم تكن تعرف شيئًا عن تلك المنطقة، أما الإخوة البشمركة فطالما عرفوا المداخل والمعابر والطرق الفرعية وامتلكوا خبرة حرب المدن. وإلى الوقت الذي أصبحت فيه القوات المرسلة من المناطق على معرفة بظروف وطبيعة الحرب في كردستان، شكلت المساندة المهمة للبشمركة السبب الأساسي في مقاومة وصمود الحرس وانتصارهم. كانت عوائلهم معروفة في المدن، فأصبحت هدفًا لحقد الديمقراطيين والكوملة كما حدث مع «كاكا قادر». لقد قدّموا الكثير من الشهداء، ولهذا كانت عائلاتهم تسكن تحت الحماية في قصر الشباب -مقر الحرس- بشكل منفصل عن الآخرين.

في المقابل، عرف البشمركة أيضًا الديمقراطيين والكوملة وأسماءهم ومحلّ سكنهم بشكل جيد، وكانوا حتى يجلبون لنا معلومات حول

إمكاناتهـم وتحركاتهم، واستطعنا في أحد الأيـام أسر 110 عناصر من الديمقراطيين بمساعدة البشمركة، وقد تكررت مثل هذه العمليات على مستـوى أصغر. كان الحرس يرسلون هـؤلاء المساجين من «مهاباد» إلى «أرومية»، وبعضهم يعترف أثناء التحقيق في «مهاباد» بأنّهم قتلوا أفرادًا من قواتنا فيُعدمون هناك بحكم المحكمة.

كان «كاكا قـادر» و«خالد براقي» الأكثر شهـرة بين البشمركة. وأكثر المعلومـات التي وصلت إلى الحرس عن الديمقراطيين جاءت عبر «خالد براقـي»، وهو شابٌ شجاعٌ وكان من أركان المعلومات في المقر، وإليه يعود الفضل في أكثر نجاحات الحرس في المنطقة باعتراف العدو والصديق. عُـرف كشخصية هامـة وحاسمة، وقد حُدّدت بـين عامي 1980و1981م جائـزة قدرهـا 500 ألف تومـان لمن يقتلـه. استشهد بشكل مـؤلم أثناء وجـودي في «بنك سبـه»، حين استهدفه الديمقراطيـون بقنبلة يدوية في ميـدان «كوزنها». كنت قد شاهـدت سابقًا كيف أنّ قنبلـة تحرق سيارة بمن فيهـا، وسبق وعلمت أنها أحيانًا قد تحـرق دبابة، لكن بنية «خالد» كانـت قوية لدرجـة أنّه بقي حيًا بعد إصابتـه بالقنبلة التي رمت بجسده المتهالـك عند أحد الدكاكين قرب الشارع، فأخذ صاحب الدكان يضرب رأس «خالد» بـالأوزان التي كان يستخدمها، ما أدى إلى استشهاده. بعد أيام تمّ التعرف إلى البقال القاتل وأُعدم.

◘

في الفـترة التـي أمضيناهـا في نقطة التفتيش علـى طريق «مهاباد-ميانـدوآب» أصبحـت أكـثر قربًا مـن «كاكا قادر». وهو الـذي دأب على ارتـداء الملابس الكرديـة دومًـا، كان يعـرف الداخلـين إلى المدينـة والخارجين منها؛ ويعلم حتى إلى أين يذهبون! أغلب الذين يترددون إلى هناك عُرفوا لدينا بالتعاون مع الديمقراطيين؛ لكننا لم نكن نعتقل سوى

مـن دخل في مواجهة مسلحـة معنا. مرت عدة أسابيع على بداية مهمتنا في نقطـة التفتيش تلك، وقـد أدى حظر إدخـال بعض المـواد من قبيل البنزيـن وأنواع الأطعمـة إلى إضعاف إمكانـات الديمقراطيين في ذلك المحور. كنت في أحد الأيام واقفًا في نقطة التفتيش عندما وصلت سيارة مسرعة من جهة «مياندوآب» إلى المقرّ وقال لنا سائقها: «الديمقراطيون آتون نحوكـم، وليسوا بعيدين عنكم!». وصـادف في ذلك اليوم أن عددًا مـن الإخوة غادروا في إجازة إلى المدينة وبقيت في المقرّ أنا و«كاكا قادر» وثلاثـة أو أربعة آخرون، وفي حوزتنا رشاش واحد فقط، توقعت أن تكون المعركـة قاسية، فذهبت لأتصل بالقيادة وأطلب المزيد من القوات، لكن صوت «كاكا قادر» منعني: «ابق أنت هنا. أنا سأوقفهم!».

كان بارعًـا في الحرب مع الديمقراطيـين فذهب مع اثنين من الأفراد فقـط وبقيت أنا وشخـص واحد في نقطـة التفتيـش، واستعددنا للدفاع بالرشاش عند الحاجة. في الجانب الآخر من الطريق يمرّ نهر «مهاباد»، وتقع خلفه غابـة بدأ الديمقراطيون إطلاق النار علينا منها. لقد ترجّلوا مـن سياراتهم على مسافـة كيلومتريـن تقريبًا منا وتوجهـوا إلى الغابة ليبـدأوا الاشتباك من هناك. ذهب «كاكا قـادر» إلى تلك الجهة. رماهم بدقّـة، وأثبت حذقًـا وشجاعة. الديمقراطيّون تفوّقـوا علينا أضعافًا من حيـث العـدد، ولكنّنا مـن منطلق التجربـة علمنا بأنّهـم لا يصمدون في الاشتبـاك لأكثر من ربع ساعة في اليـوم. أما هم بدورهم فكانوا يعرفون أيضًـا المـدة اللازمـة لوصول قـوات الدعم مـن مركز القيـادة. قُطعت الطريـق بالكامـل، وتوقّف تردّد السيـارات فيها خلال هـذه المدة، وملأ صـوت الرصاص الأرجاء. بعد ربع ساعة خفّت حدّة النيران. خرجنا من خلف المتاريس وعاد «كاكا قادر» مع الإخوة الذين ذهبوا معه. لم يتأذّ أحد منـا ولم نعلم شيئًا عن خسائر الديمقراطيين أيضًا. وصلت قوات الدعم من مركز القيادة، لكنّ الاشتباكات كانت قد انتهت ولا حاجة لحضورهم.

■

وعلى هذا المنوال، بـدأ الديمقراطيون يضعفون شيئًا فشيئًا، وساعد علـى ذلك أيضًـا بعض السياسـات التـي اتّبعناها مع النـاس العاديين وتعاونهم معنـا، ومنها إعطاء بعض المسؤوليات للأكراد أنفسهم كإدارة شـؤون المدينـة، وتسليم أحد الأطبـاء الأكراد رئاسـة مستشفى مهاباد والـذي كان يساعدنـا في حل المشاكل التي تعترضنـا في المستشفى. كان الديمقراطيـون قبل ذلك يختطفـون جرحانا من المستشفـى ويقتلونهم بشـكل مريـع، لكنّ، تدريجيًّـا ازداد تعـاون الناس معنا، وصـار مشروع تحرير الطرق وتأمينها في رأس أولويات الحرس.

قمنا في صيـف 1981م بالعديد من العمليات لتحرير طرق «مهاباد-مياندوآب» و«مهاباد-بوكان»، وقد تم فتح طريق «بوكان» في هذه العمليات وأرسلونا بعد ذلك إلى «كوى تبه». استقررنا هناك، وتقرّر بعد عدة أيام تطهير مراكز الديمقراطيين في التلال المحيطة بطريق «مهاباد-بوكان» لكي لا يتمكنوا من رصد قواتنا منها.

بـدأت العملية صباحًا بمئة عنصر من قوات الحرس والجيش وقرابة العشـر دبابات. كان الهدف هو تحرير التلال، لكن قبل الوصول إلى تلك التـلال، اشتبكنـا مع الديمقراطيـين في منطقة حرجية سبـق واجتمعوا فيهـا. الاشتباكات في مثل هـذه الأماكن أصعب منهـا في الأرض السهلة والتـلال، لأنّ العـدو يستطيـع الاختباء خلـف الأسوار والأكـواخ. عندما وصلنـا إلى تلك المنطقة، غسلنا رؤوسنا ووجوهنـا بمياه نهر تنتشر على أطرافـه أشجـار الـدراق الناضجـة التي تنتظـر من يقطفهـا، لقد كان منظرها جميلًا. جلسنا هناك لنرتاح، وبدأنا بتناول التمر الذي بحوزتنا وإذ بالديمقراطيين يخرجون فجأة من الغابة، توجهنا بسرعة إلى التلال المحيطـة، لكن أوقفتنا رشقات بنادقهم المتواصلة. بـدا واضحًا أنّ عددًا منهم يراقبوننا من أعالي الشجر. جاءنا الأمر بالانسحاب لتبدأ دباباتنا

بالقصـف المباشر للمنطقة، بقينا لدقائق نراقب المشهد، ثم تقدّمنا إلى الغابـة عندمـا هدأ قصف الدبابـات، واستطعنـا في النهاية تحرير تلك المنطقة والوصول إلى الطريق بعد أسر خمسة أو ستة أفراد من الأعداء.

استمـرّت العمليات للسيطـرة على التلال الواقعـة في الجانب الآخر مـن الطريـق، وتم تقسيـم القوات لتحقيق هـذا الهـدف: الدبابات من جهـة، قوات الجيش من جهة، وقوتين من الحرسـ في كلّ منها عدد من الفصائل والمجموعات، تحركت نحو التلال من ناحيتين. عمدنا إلى هذا الإجراء لأنّ التجارب علّمتنا أنّه كلما قلّ عديد قواتنا في الاشتباكات قلّت خسائرنا وحققنا نتيجة أفضل. عندما وصلنا إلى أسفل التلال، انقسمنا من جديد إلى مجموعتين صغيرتين كنــت المسؤول عن إحداهما، وبدأنا بالصعـود إلى أعلى التلال، قرّرت أن يرافقنــي عنصر الإشارة لنصعد من جهة، ويصعد بقية العناصر من جهة أخرى. في بداية الطريق تقريبًا أصيب العنصر بطلقة من نيران متفرقة ولم يعد يقوى على إكمال المسير، قلـت له: «ابق أنت هنا، أنـا سأكمل!»، ما فكرت بـه أنّ الإخوة يتوجهون الآن إلى الأعلى، وإن لم أصل إلى هناك سيتعطّلون ولن يستطيعوا البدء بالعمل. وصلت إلى أعلى التلة وحدي، توقعت أن ألتقي بهم، لكن لم يكن هنـاك أثر لا للعدو ولا لقواتنا. تعجبت، خفـت أن يكون الإخوة قد تركوا التلة وذهبوا إلى الجهـة الأخرى. تفقدت التلة، لكن لا أحد هناك. ليس مـن الجيد البقاء وحـدي هناك، لكنّني لم أرد العودة في هذا الوضع. في هذه اللحظات بـدأت دباباتنا بقصف التلة فاحتميت بعدد من الصخور الكبيرة وانتظرت. لا أعرف إن كان الراصد قد أخبر بشيء أو أنّ الخطة اقتضت أولًا أن تقُصف أعلى التلال بالدبابات ثم تتقدم القوات. عندما هدأت النيران، رأيت الإخوة يصعدون التلة فخرجت من خلف الصخور ومـا إن رأوني حتى صرخـوا: «حاذر، قد يرمونك مـن الخلف!»، لكنّني خفـتُ في تلك الأثناء من نيران قواتنا الكثيفة وليس من الأعداء. عندما

وصل الإخوة عرفت أنهم لم يستطيعوا الذهاب إلى خلف التلة فعادوا إلى نقطة تحركنا، وهناك رأوا عنصر الإشارة وأخذوه معهم.

هكـذا تحررت التلال الواحدة تلو الأخرى، واستحدث الحرس نقاطًا لـه هناك، وثبّت قوات فيهـا، وتحررت كلّ منطقة «كـوى تبه»، لكن هذا لم يكـن يعني توقـف الاشتباكات؛ إذ ظلّ الديمقراطيـون الذين يعرفون المنطقة جيـدًا يهاجمون مراكزنا ليلًا، فيشتبكون معنا ويتركون المنطقة قبل طلوع الشمس.

▫

بعد التلال، أصبح تحرير طريق «مياندوآب» هدفًا لنا، ولهذه المهمة تم تحضير كتيبتين من المغاوير للمشاركة في العملية، إضافة إلى مجموعات من الحرس تواجـدت سابقًا في المنطقة، وعدد من دبابات الجيش. كان في مقـرّ الحرسـ في «مهاباد» مجموعـة من «القوة الضاربـة»[1]، وعملها الأساسـي هو التدخـل في الاشتباكات التي لا تستطيـع المراكز خوضها. عدد من السيارات سرّع عمل المجموعة التي ضمّت الأخ «أمين» أيضًا، وهو مـن ضباط الحرس. من القوات التبريزية كنـت أنا وأكبر واثقي فقط. بـدأ التحرك بعـد إطلاع القوات على التفاصيـل. تم التنسيق مسبقًا مع الحرس في «مياندوآب»، وتقرر أن يتقدموا هم من جهة المحطة الزراعية حتـى شرطـة «مياندوآب–مهاباد»، أما نحن فنتقدم مـن جهة «مهاباد» إلى الجهـة الأخرى لنهاجم العدو من جهتـين. بعد تقدم 6 كلم من دون اشتباكات، وصلنا إلى إحدى القرى. كما المتوقّع، وجدنا الناس مجتمعين في الساحة، قلنا لهم: «إذا ما أرشدتمونا إلى مكان الديمقراطيين فأنتم وشأنكم، وكلّ من يمتلك سلاحًا فليسلّمه لنا وإلا سيعاقب». سلّمنا العديد من الناس أسلحتهم، لكـن لم يبوحوا بمكان الديمقراطيين، وقالوا: «ما

---

1 - أو مجموعة رأس الحربة.

إن رأوكـم حتـى ذهبوا وابتعـدوا»، لكن كنّا نعرف بالتجربـة أنّه لا يجب أن نثـق بكلامهـم. كنّـا مشغولين بجمـع أسلحتهم عندما طلـب الإخوة في الجيشـ عبر اللاسلكـي المساعدة، فتوقفنا عن جمـع السلاح وركبنا سياراتنـا بسرعـة وتوجهنا إلى مـكان الاشتباك وهـو منطقة حرجية، ويبـدو أنّ الديمقراطيّين قد نصبوا كمينًـا بين الأشجار وقعت فيه قوات الجيش التـي كانت تتحرك بطريقة كلاسيكيـة. في بداية الاشتباك، تم استهـداف الجيب الـذي يتقدّم الجميـع، وقد استشهـد الضابط الذي كان فيـه، ووسـط الطريق من بعيد، رأينا المدفعيـات قد تركت فيه، من دون أن يطلـق الديمقراطيون النـار عليها على أمل أن يأخذوها كغنائم. كانـت قوات الجيش قد تموضعت على جانبي الطريق ووقعت في الكمين. عندما وصلنا إلى المكان تقرر أن يتحرك الأخ «فندرسكي»[1] أمامنا، وكان يتمركز على آلية «سيمرغ» خلف دوشكا، بدأ تحركه، لكن الديمقراطيين التفتـوا إليـه وكادوا يقتلونـه. فأوقفنا حركة هـذا الأخ وقرّرنا أن ندخل الاشتباك راجلـين. استطعنا في هذا الاشتباك سحب المدفعيات وإخلاء أجساد الشهداء أيضًا.

جاء للتوّ خبر مفـاده أنّ قواتنا الآتية من جهة «مياندوآب» قد وصلت إلى مشـارف القرية، وبالتالي تمت محاصـرة الأعداء من كلّ الجهات. أعطاهـم الأخ أمـين مهلة عشر دقائـق لتسليم أنفسهـم، انقضت المهلة ولم يحـدث شـيء، فدخلـت مجموعتان أو ثـلاث القرية مباشـرة لتبدأ اشتباكات عنيفة، وبمجرّد دخولهم عرف الإخوة أنّ الأهالي قد أخلوها، وأن لا أحـد فيهـا سـوى الديمقراطيين الذيـن أبوا الاستسـلام، فجاء الأمـر لهذه المجموعات بالانسحاب، وتمّ قصـف القرية بالميني كاتيوشا

1 - هـو مـن قوات التعبئة فـي كرمان، وقد ذهب قبلي إلى مهاباد حيث انتسـب رسميًا للحرس هناك. كان فـردًا حذقًـا، وهو أول من بحث وتعرف إلى طريقة استخـدام الدوشكا حيث لم نكن نعرف كيفية استخدامه في تلك الأيام.

والمدفعيـات المتموضعة في «كوى تبه»، وبعد دقائق هدأ القصف وتحركنا باتجاه القرية.

تقدّمـت برفقة أحد الإخوة من «قزويـن» عبر حقول القمح للحصول علـى معلومات، ولمـا وصلنـا إلى سور أحـد البساتين، سمعنـا ضجيجًا وضوضاء، ظننّا أنّ الإخوة وصلوا إلى هناك، لكنّنا انتبهنا إلى أنّ العديد مـن الديمقراطيين كانوا في أعالي الشجر، وقد رأونا فبدأ تبادل إطلاق النـار، لكنّنـا استطعنا الوصـول إلى شبابنـا سالمين بحـول الله تعالى. استمـرّت الاشتباكات في الغابـة لفترة طويلة، بقينـا متموضعين هناك حتـى العصر، لكـن لم نتمكن من التقدم أكـثر لأنّ الديمقراطيين كانوا يعرفـون المنطقة هنـاك جيدًا في حين لم تكن أقدامنـا وطئتها من قبل، لذا تقرّر البقاء هناك حتى الصباح، واستكمال العملية عند الشروق.

كنـت تلك الليلة عند الأخ أمين حين أخبرونـا بأنّ الدبابات علقت في المستنقـع، قرّر أمين الرجوع فذهبت معه. كنّا قرب إحدى القرى نتناول طعام الغداء حين أخبرونا ثانية أنّ الدبابات حوصرت فذهبنا إلى المكان الذي توجـد فيه، لم يكن هناك أيّ اشتباكات، لكـن بقينا حتى الصباح نحرسها مع أنّها لا تفيدنا كثيرًا في تلك المنطقة[1].

عُقـدت في الصبـاح جلسة بحضور ضابـط في الجيش لشرح الخطة التـي سنعتمدها، لكنّني لاحظت أنّه فهـم المنطقة وهذه العملية بطريقة أخرى.

يا أخي! هنا كردستان وليس الجنوب!

انزعـج مـن كلامـي. قلت له: «هنـا لا يمكـن القتال بهـذه الطريقة الدفاعية التي تتفضل بها، الحرب هنا حرب عصابات». عارضت خطّته

1 - تقـع منطقـة الاشتباكات قرب ميانـدوآب وعلى مسافـة 15 كلم تقريبًا من «كـوى تبه» في منطقة موحلـة لا تستطيع الدبابات المناورة فيها بشكل جيد. تكون الدبابات أكثر فعالية في الأماكن الجافة، السهلة وفي الطرقات.

القاضيـة بتحـرك الدبابـات في المقدمة وتحـرك القـوات خلفها. كنت أعلـم أنّنا لن نصـل إلى نتيجة بهذه الطريقة لأنّنـي شاركت في الحرب في كردستـان لأشهر، وأعلـم أنّ الأرض غير ملائمـة لحركة الدبابات. علـى أيّ حال، أصرّ الضابـط على رأيه ولم يقتنع بكلامي، وبدأت حركة الدبابـات والقوات. لم نكد نصل إلى المنطقة المعلومة الشبيهة بالمستنقع حتى غرقت إحدى الدبابات في الوحل من جديد، ولم تستطع الثانية التي جـاءت للمساعدة التقـدم أكثر وتوقفت عن العمل أيضًـا، ونالت الثالثة المصـير ذاتـه وغرقت في الوحـول. عند ذلـك توقفت حركـة الدبابات مباشرة وتقـرر استكمال العملية، فتقدمت القـوات «ناقلة جند» وبدأت المواجهـات بعد دقائق. استمرت المعركة حتى الظهر، وفي النهاية طهّرنا المنطقـة بالكامـل بين الواحـدة والثانية ظهـرًا تقريبًا وتحـررت طريق مياندوآب–مهاباد.

كان يومًـا جميلًا في «كوى تبه»، عندما وصلت عصرًا أوّل شاحنة من جهـة تبريز وكان سائقهـا سعيدًا جدًا، وأخذ يشكرنـا على تحرير ذلك المحـور إذ كان الناس مجبرين على قطع طريق طويلة قبل ذلك والمجيء من طريق أرومية. كمـا ضاعفت من سعادتنا أيضًا ورفع معنوياتنا أكثر رؤيةُ مواطن تبريزي بعد مدة طويلة نسبيًا.

◘

بعـد تحريـر طريـق «مياندوآب–مهابـاد»، خطّطنا في مقرّ القيادة لتحريـر «بوكان» أيضًـا، وهي مدينـة مهمة في المنطقـة. كانت الطريق التـي تصل بين «بوكان» و«ميانـدوآب» وتبريز مغلقة بسبب وجود جماعة الكوملة، وبالتالي فإنّ تطهير المدينة والطريق مهمة صعبة.

أُعطيـت التعليمـات اللازمـة لتنفيـذ هـذه المهمة لقـوات مؤلفة من البشمركـة في «بـوكان»، قـوات الحرس في «ميانـدوآب»، الحرس في «مهاباد» وقوات الجيش، وتقرر أن تقوم طائراتنا بقصف مواقع الكوملة

في «بوكان» قبل أن نبدأ التحرك لأننا كنّا نعلم أنّ «بوكان» هي أكبر موقع تنظيمي للكوملة، وأنّ الهجوم الجوي عليها يمكن أن يساعدنا كثيرًا.

صباح اليوم الموعود؛ كانت كلّ القوات متأهبة. تموضعنا في التلال المشرفة على المدينة، وكنا قلقين من أن لا يحصل الهجوم الجوي، وازداد قلقنا مع مرور الوقت. للأسف، لم يقع هذا الهجوم ولم تُقصف مواقعهم، وبدأنا العملية في الوقت المحدد معتمدين على القوات البرية، فوقعت معركة قاسية وأكثر شراسة استمرت ليومين لندخل المدينة في اليوم الثالث، وذلك لأسباب كثيرة، أهمها الخشية من أن نصيب المدنيين بسوء، لكن لم يكن الأعداء يخشون هذا الأمر، بل كانوا يستغلون مثل هذا الحدث دعائيًا ليستجلبوا دعم الناس وتعاونهم أكثر.

بمجرد دخولنا إلى «بوكان» عرفنا أنّ للكوملة مراكز في كلّ أنحاء المدينة، كما كان لنا نحن مراكز في كلّ أنحاء «مهاباد». لقد ضعفت قواهم في معركة أطراف المدينة لذلك لم نحتج للكثير من الوقت لتطهيرها، وبعد تحرير بوكان وطريق «كرمانشاه-بوكان-مياندوآب»، عدت إلى «مهاباد» مع مجموعة القوة الضاربة.

▫

في أواسط أيلول 1981م كنت في إجازة، فمضيت أولًا إلى شارع «باستور» عند صديقي العزيز «أبي الفضل بازارتشي» الذي تعرّفت إليه من صلاة الجماعة فأردت الذهاب معه لأدائها هذه المرة، ثم التوجّه إلى منزل أخي الذي دعاني لتناول طعام الغداء.

قال «أبو الفضل» إنّ الصلاة ستبدأ بعد قليل في مسجد البازار، فقصدناه، وتوقفنا قليلًا عند بائع ساندويشات في أول شارع البازار. كنت طوال الوقت أتحدث عن الاشتباكات في كردستان وهو يستمع إليّ أو يطرح الأسئلة. هو أصغر مني بسنتين تقريبًا وكان تلميذًا متفوقًا حتى الثالث المتوسط، ولكنّه بات يردّد في هذه المرحلة: «لم أعد أستطيع الدرس.

شغلت الجبهة عقلي وقلبي ولم أعد أستطيع التركيز». حاولت أن أقنعه بمتابعة الدراسة وقلت له: «من المؤسف أن تكون متفوقًا وتترك الدراسة وأنت تستطيع الذهاب إلى الجبهة بعد سنة أو سنتين»، لكنّه كان يجيبني بإجابات مختلفة: «هذا غير منصف! أنتم هناك وسط النار ونحن...!». وصلنا إلى مكان إقامة صلاة الجمعة ونحن نتحدّث بهذه المواضيع، وكان «آية اللّه مدني» ينهي خطابه، وعندما استقررنا بين صفوف المصلين سألته: «لماذا لا يفتشون الناس هنا؟ ألا يحتملون وقوع حدث ما؟!». تعجّب من سؤالي، وهزّ بكتفه مشيرًا «لا أعلم!»، وربما ظنّ أنّ كلّ من جاء إلى هنا إنما جاء للصلاة ولا داعي ليفتشه أحد، فكرت في نفسي أنّ وجودي في كردستان جعلني أشك وأحذر من كلّ شيء.

- تكبيرة الإحرام، صلاة الجمعة...

أقيمت صلاة الجمعة. ولأنّني لم أستطع الاستماع إلى الخطبتين، فقد قمت مباشرة بين الصلاتين لأصلّي فرادى، وما إن وصلت إلى القنوت حتى سمعت صوتًا مرعبًا بقيت على إثره مصدومًا لبضعة ثوانٍ؛ انفجار وفي صلاة الجمعة أيضًا؟! عمّت الفوضى المكان فجأة. قطعت صلاتي وركضت مع جموع المتوجهين إلى بقعة الانفجار، فيما ابتعد العديد من الناس عن المكان. كنت من أوائل الواصلين إلى الصف الأول، رأيت فيما رأيت إمام جمعتنا العزيز «آية اللّه مدني» غارقًا بدمه وقد تقطع جسده في المحراب، وإلى جانبه شهيد آخر. لم تكن المرّة الأولى التي أرى فيها شهيدًا على هذه الحالة، إلا أنّ شهادة «آية اللّه مدني» بهذه الطريقة وفي محراب الصلاة أذهلتني. تناولت كيس نايلون وصرت ألملم أشلاء جسده الطاهر بحزن وقلق والدموع تنهمر غزيرة من عينيّ. امتلأ المكان بالعويل والصراخ وكأنّ أحدًا لم يعرف ماذا يجب أن يفعل، وتحطمت الواجهات الزجاجية للمحلات المحيطة بالمكان... وما هي إلا لحظات، حتى بدأ إطلاق النار من على السطوح المحيطة

بالمستديرة فارتعب الناس وأخذوا يركضون هنا وهناك، وعمّت الفوضى حول الجسد الطاهر. ذهبت بعد دقائق إلى بائع الساندويشات الذي كنّا عنــده قبل قليل لعلّي أجد «أبا الفضــل»، وقبل أن أصل رأيت شابين أثارا ريبتــي؛ فلم يكونا يتصرفان بشكل عاديّ. سألتهما «ماذا تفعلان هنا؟»، كانــا أكثر ذكاءً مني، وبــدل أن يجيبا عن سؤالي أشــارا إلى سيدة تعبر المــكان وصرخــا: «هذه المرأة مسلحــة...». خُدعتُ للحظــة، وكنت حتمًا قليــل الخبرة في هذا المجال، فتوجهتُ إليها وطلبت منها التوقف، ولأنها كانت محجبــة، انتظرتُ دقيقــة أو دقيقتين ريثما وصلــتْ ثلاث سيدات وطلبــتُ منهــن تفتيشها. في هــذه اللحظات فكرت في نفســي أنّني أيضًا مسلــح! أنــا عضو رسمي في الحرس في كردستان ولــديّ رخصة بحمل السلاح، لكن لم أكن أتوقع أن أُبتلى بمثل هذه الأحداث المشؤومة. استغلّ هــذان الشابان غفلتي عنهما وهربا! بحثت عنهما قليلًا ولما لم أجد لهما أثــرًا لم أتابع القضية أكثر. انزعجــت إلى درجة لم يعد لديّ أدنى رغبة بالبقاء بين الناس. توجهت إلى منزل أخي، وانتبهت في الطريق أنّ الجوّ تغير؛ فقد هبــت فجأة رياح شديدة ومحملة بالغبار، وعندما وصلت إلى تقاطــع القدس أصبــح الطقس عاصفًا بشكل غريــب. وكأنّه كان لهبوب ريح شديدةٍ في يوم مثل 11 أيلول في تبريز، سبب فوق الطبيعة، حيث كان الطّقس لا يزال دافئًا. عندما دخلت منزل أخي فهم الجميع من حالي أنّ شيئًــا ما قد حدث، ولما أخبرتهــم بشهادة «آية اللّه مدني» انقلبت أحوال الجميع؛ وبقيت سفرة أخي في ذلك اليوم كما هي.

▫

أُجريــت مراســم تشييــع الشهيــد مــدني في اليــوم التــالي في شارع «الفردوسي». كنّا متجهين إلى شارع البازار حين رأيت رجلًا يمشي قرب مجموعة النساء المشاركات في التشييع؛ ذهبت نحوه وقلت له:

- أرجو منك أن تمشي على الرصيف.

- لن أذهب! إذا لم أذهب ماذا سيحصل؟!

- لـن يحصل شيء! لكنك ترى أنّ النساء يمشين في الشارع، لذا من الأفضل أن تمشي أنت على الرصيف.

امتعضتُ منه لأنّه أجابني بكلمات بعيدة عن الموضوع، وفي هذه الأثناء وصلت إحدى سيـارات الحرس؛ أخبرتُهم بما جرى فارتبك كثيرًا، لكنّه لم يستطـع الهـرب، فتشوه ووجدوا معـه مسدسًا! كان منافقًـا وغبيًا إذ فضح نفسه بهذا الشكل.

تابعنـا مسيرنا حتى وصلنا إلى البـازار، توقفت في المكان المخصّص للباعة الذين يعرضون بضاعتهـم على الأطباق والعربات، فجأة سمعت صيـاح النسـوة وتوجهت سيـدة إلي قائلة: «يا أخي! هنـاك رجل يرتدي العباءة قد دخل بين النساء!». حاصرنا المكان بسرعة أنا وشباب الحرس الموجودون في المنطقة، وفتشنا النسوة واحدة واحدة بمساعدة اثنتين من السيـدات حتى عثرنا على الرجل الذي تخفّى بينهن، وكان يرتدي تنورة صفـراء ويضع عبـاءة على رأسـه! فتشناه فوجدنا معـه قرابة الكيلوين من الـ«TNT»! فاعتقلناه، وعرفنـا فيما بعد أنّ أحداثًـا كهذه وقعت في أمكنـة أخرى. سمعت بعد انتهاء مراسم التشييع أنّه تم اعتقال أكثر من عشرين شخصًا من المنافقين في ذلك اليوم.

بعـد الصـلاة عليه، تم نقـل جسد الشهيـد مدني إلى «قـم»، فعدت إلى المنـزل ولم أرغـب بالبقـاء في المدينة. قبـل انتهـاء إجازتي ذهبت إلى «مهابـاد» مع الدفعـة المتوجهة إلى هناك، وتعرفـت في الطريق إلى شخصين أو ثلاثة هم كريم ستاري، الحاج يوسف رنجبر[1] و...

---

1 - المعروف بالحاج يوسف جانباز. التحق بقافلة الجرحى عندما بترت قدماه في عملية الفتح المبين في أواخر آذار عام 1982.

الفصل الثالث

# «أنا باقٍ»

1

كان لدينا في مركز القيادة مكان للاستراحة، يمكن لعناصر الحرس في منطقة «مهاباد» أو للأشخاص الآتين مؤقتًا، أخذ قسط من الراحة فيه. ذات يوم، كنت مستلقيًا هناك بعد صلاة الصبح، وإذ بضجيج يأتي من الخارج. سمعتهم يقولون: لقد أخذوا دبّابات الجيش!

- من أين أخذوها؟!

- من معاقلها!

ضحكت.. لم أستطع التصديق بأنّهم سحبوا الدبابات إلى خارج المعاقل وسرقوها! لم آخذ الموضوع على محمل الجدّ، وحاولت النوم مجدّدًا، وما هي إلّا دقيقة حتّى تجمّعوا فوق رأسي: «قم يا عزيزي! صدر الأمر بالاستعداد، فقد سرقوا الدبابات!». سألت مجدّدًا: «وأين كانت تلك الدبابات؟».

- على التلال التي تقع تحت سيطرة الجيش! في المعاقل!

- هل تسخرون منّي! وهل يُعقل أن يأخذوا الدبابات من غير أن يراهم أحد!

- لم يرَ أحد أيّ شيء.

هذه المرّة أتى «فندرسكي» ووقف عند رأسي مكرّرًا ما تداوله الشباب. ولأنّني من عناصر القوّة الضاربة، توجّب عليّ التحرّك معهم.

كانــت دبابات الجيشــ مستقرّة في تــلال تقع قرب «ميانــدوآب». في طريقنــا إلى هنــاك، لم أتوقّــف عن الظنّ بــأنّ الأمر عبــارة عن دعابة سخيفــة! لكــن عند وصولنا إلى التلال، تأكّدت مــن صحة الخبر تمامًا، لأنّ آثــار الدبابات لا تزال ظاهرة على الأرض وقد داست على الأسلاك الشائكــة أثناء سيرها. كنــت على يقين أنّهم لا يستطيعــون القيام بهذا العمــل مــن دون علم عناصرنا: «مــن المؤكد أنّ أحدًا مــا تساهل في أمر الحراســة أو حتــى تعــاون مع الديمقراطيــين». قيل لنا إنّــه وقعت الليلة الماضيــة اشتبــاكات هناك عندما انتبهــوا لحركة دبابتــين، إلا أنّ أحدًا لم يصب بســوء. وكأنّ هذا الاشتباك وقع للتمويــه! بعد السؤال والبحث والضغــط تبيّن أنّ مســؤول المنطقة لم يكــن قد وضع الليلــة الماضية أيّ شخص للحراســة هناك، الأمر الذي زاد مــن انزعاجنا. ذهبت برفقة عدد من عناصر الحرس لتتبّع آثار الدبابات، لكنّنا قبل ذلك استفسرنا عــن كمية الوقود التي كانت بداخلها ثــم انطلقنا. مشينا قرابة الخمسة كيلومــترات إلى أن وصلنــا إلى إحــدى القــرى التي شاهــد أهلها حركة الدبابــات ليــلًا. أكملنا مسيرنــا وإذ بنا نرى عند أطــراف أحد الوديان هيــاكل الدبابات الضخمة. من المؤكد أنّها كانــت قد فرغت من الوقود. لم يشاهَــد أحــدٌ بالقرب منها، لكنّ فوّهات المدافــع كانت قد فُكّت عنها وأُخــذت مــع القذائــف. لم تتعرّض الدبابــات لأيّ أذى، ويبــدو أنّهم لم يفجّروهــا ليأخذوا الوقود ويكملــوا سرقتهم الكبيرة. أما نحن، فأفرغنا مــا كان بحوزتنا من وقود داخل مخــازن الدبابات وركبها بعض من كان معنا من عناصر الجيش وأعادوها إلى المقرّ.

في اليوم التالي، جاءنا قائد الجيش في ثكنة «مهاباد»، وكان في الواقع إنسانًــا مؤمنًا ومتعاونًا. قال: «ما رأيكم بأن تأتــوا إلى الثكنة لندربّكم؟ يجب أن تجيدوا استخدام جميــع الأسلحة. كما ترون، يقوم البعض هنا بسرقة الدبابــات وإعطائها للديمقراطيــين. في المستقبل أنتم من يجب

أن يحمي هذا البلد...». وبناءً على إصراره الشديد، ذهب ثلاثة أو أربعة أشخاص من ضمنهم «فندرسكي» وعدد من شباب «مراغة» وتدربوا على الدبابات والمدفعية وبعض الأسلحة الثقيلة. ولم يكتف الرجل بذلك، بل صار يأتي إلينا في المركز أحيانًا لإعطائنا الدروس. كان عقيدًا مؤمنًا وكفوءًا وكان يقول: «رأيت أنّكم لم تأتوا، فجئت بنفسي لأعلّمكم»، وتوطّدت العلاقة بيننا وبينه حتى قال لنا: «ليت لي بدل ثكنة العناصر، سريّة واحدة من العناصر أمثالكم»[1].

◘

فرحنا كثيرًا لخبر فكّ الحصار عن مدينة «عبادان[2]» في أواخر شهر أيلول. في ذلك اليوم كنّا في مركز القيادة، وما إن سمعنا هذا الخبر العظيم حتّى توجّهنا نحو سطح المبنى مكبّرين. وبينما نحن كذلك، وإذا بأصوات نيران الديمقراطيين تخترق نداءات التكبير لتبدأ المواجهات. لأنّنا كنا على السطح مكشوفين ومن دون رادع يحمينا من رصاصاهم، فقد أُمرنا بالنزول سريعًا إلى الأسفل. حين كنتُ أنزل على السلالم، لفت انتباهي معطف أحد الإخوة القزوينيين وقد اخترقته رصاصة، سألته: «هل أنت مصاب؟» أجاب متعجّبًا: «لا!». كانت الرصاصة قد مزّقت معطفه من الخلف؛ مسافة سنتمتر واحد أو حتى أقلّ، كانت كفيلة باستشهاده أو إصابته بالحدّ الأدنى، وها هو الآن يخيط معطفه الممزق!

◘

كانت الأيام تمضي هادئة في «مهاباد». حيث بدأ أهالي المدينة بالتأقلم مع مفهوم الأمن التامّ بعدما شهدوا اشتباكات يومية على مدى

---

1- يومذاك كان هناك خلافات على مستوى قيادة الجيش. لم تكن بعد بني صدر قد تمّت إعادة بناء الجيش على نحو ما هو عليه الآن، ولم يعمل بعضهم في بداية الحرب في كردستان كما يجب، وقد تحسن وضعهم تدريجيًّا.

2- في إيران تكتب وتلفظ: آبادان.

سنـوات، أوقعـت خلالها الكثير منهـم ضحايا. كمـا تمّ تطهير أطراف «مهاباد» كليّا، أمّا أنا فاجتاحني الشوق للذهاب إلى الجنوب. عزمت في خريـف العام 1981م على إنهاء عملي مع الحرس في كردستان والذهاب إلى هناك. مـن جهة ثانية كان شهر محرّم على الأبواب، فطاف حنيني إلى إحيـاء الليـالي العاشورائية في تبريـز، وأردت أن أكون فيها في هذه الأيـام. تقدّمت مـن الأخ صالح بطلب إجازة لبضعة أيـام، إلّا أنّه رفض ذلك. حاولت كثيرًا إقناعه لكنْ من دون جدوى، وتحوّل نقاشنا إلى جدل؛ إلى أن تدخّـل «حـداد» وقال لي: «ابقَ هنا يومين علـى الأقلّ ثمّ اذهب». لكنّنـي لم أقبـل، حيث كنت أعلـم أنّ الطرقات تقفل في يـوم عاشوراء، وخفت أن يطول الأمر فأواجـه عند ذهابي الطرقات المقفلة والحواجز. فقـال حداد: «ابق يومين فقط واذهـب في المهمة، وسأرسلك بنفسي إلى تبريـز». ومـع ذلك لم أطمئن لمـا سمعت. منذ مـدة كان الديمقراطيون يتسلّلـون من جهة تلة الشهيد «مهـدي زاده»، ينصبون مدفعين من عيار (106) ودوشـكا ويرمـون مراكزنا ليلًا، ومهمّتنـا الآن باتت على الشكل التالي: أن نصل قبلهم ونكمن لهم. تحجّجت بالتعب الشديد لعلّي أُعفى مـن الذهـاب، فأجاب الأخ «صالـح»: «لا فائدة من هـذا الكلام، ويجب عليـك الذهاب!»، ولمّـا رأى أنّه لن يحصل على شـيء بالفرض، غيّر في أسلوب كلامه وراح يشكو همّه قائلًا: «سيد! اذهب هذه الليلة فقط. فقد ذهبـت من قبل في مهام مثـل هذه..». فقبلت. وقلت في نفسي: «لن تكون هذه الليلة كغيرها من الليالي، ستختلف عنها قليلًا».

وبالفعل ذهبنـا إلى المكان الذي سننفذ فيـه المهمّة بسيارتين من نوع تويوتا، استلمها الحرس حديثًا. وصلنا وانتظرنا حلول الظلام لنصعد إلى أعلـى التلة من دون أن يرانا أحد. كنّا ثلاثة وعشرين شخصًا وبيننا ستة من البشمركة الكـرد. وكانت مسؤولية هذه المجموعة بعهدتي، حيث كان من المقرر أن ننصب الكمين عند المساء لنبدأ العمل مع شروق الشمس.

عند حلول الظلام، تحرّكنا من جانب القوات المستقرة على تلة الشهيد «مهدي زاده» باتجاه الهدف المحدّد. منذ مدّة كانت التلّة قد سلّمت لعناصر الدرك الذين لم يستطيعوا الوقوف كما ينبغي بوجه الديمقراطيين. وما إن اقتربنا منهم حتى سألونا: «إلى أين تذهبون؟».

– قد تواصلنا مسبقًا، سنتقدّم إلى الأمام لننصب كمينًا.

أثار جوابهم غضبي إذ قالوا: «اذهبوا! لكن إن حصل اشتباك ما، فلا تنتظروا منّا أن نساعدكم أو أن نرسل قوات لمساندتكم». ثم اقترحوا علينا الذهاب إلى القرية المجاورة ونصب الكمين هناك بدلًا من التلة المقابلة. فأجبت: «إذا فعلنا كما تقولون سيأتي الديمقراطيون من دون أن نشعر بهم أو نراهم». إلا أنّهم أصرّوا على رأيهم، فانزعجت كثيرًا وتواصلت مع المقرّ عبر جهاز اللاسلكي وأخبرتهم بما جرى، وأنّ هؤلاء يقولون إنّهم لن يمدّوننا بالقوات، ولن يساندونا أو يساعدونا، ولن يطلقوا القنابل المضيئة إلا في حال ذهابنا بالاتجاه الذي اقترحوه علينا، وحينها سيقدّمون لنا ما يستطيعون من مساعدة! وجاءت الأوامر من المقرّ بالتنسيق معهم والذهاب بالاتجاه الذي اقترحوه علينا. في السابق، كنت قد خدمت في تلة الشهيد «مهدي زاده» وأعرف محيط التلة والقرية جيّدًا، لذا علمت بأنّها ليست مكانًا جيّدًا للاشتباك، إذ يمكن للعناصر أن يطلقوا النار خطأً على رفاقهم أثناء الاشتباك، كما لا يُمكن للقوات الصعود منها إلى الأعلى بأيّ شكل. ومع ملاحظة كلّ هذه الأمور، أطعنا الأوامر وأكملنا المسير. وتمّ التأكيد على القوات بضرورة التزام الصمت المطبق، وأن يحملوا ما أمكنهم من الرصاص والقنابل وقذائف الـ(B7).

كنت أمشي أوّل الصفّ، وخلفي عنصر الإشارة، يتبعه باقي العناصر على شكل طابور. أثناء المسير شعرتُ أنّ شيئًا ما يتحرّك في العتمة. دقّقت النظر لكنّني لم أبصر شيئًا في ذاك الليل الدّاكن. فجأة تذكّرت

والـدي. في الصغر، عندما كنت أذهب برفقته ليلًا إلى البستان، وأشعر أحيانًا أنّ شيئًا في الظلام يمرُّ أمامي، كان يقول لي: «لا! لا شيء هناك، أنـت تتخيّـل بأنّـك تـرى شيئًا مـا..». هنا قلـت في نفسي أيضًـا: «لعلّي أتخيّـل». وتابعت المسير مـن دون أن أخبر عنصر الإشـارة الذي يمشي خلفـي بشيء. مشيت عـدّة خطوات ومجدّدًا شعرت بشـيء يمرّ أمامي. فكـرت من جهة بأنّ ما أراه مجرّد وهم في وهم، ومن جهة أخرى ونظرًا لحساسيّـة المنطقة والمهمّـة، لم أعـد أستطيع التفكير كمـا في السابق، وتوجّـب عليّ أخذ الحذر. كنّا نسـير في قناة توصلنا إلى القرية، فقرّرت أن أضـع شخصًا واحدًا بالتناوب داخل القناة كي لا يطلق الشباب النار علـى بعضهـم أثناء الاشتباك عـن طريق الخطأ. وبينمـا أردت الرجوع لأنفّـذ ما قرّرته، صُدمتُ بشخص يخرج فجأة من القسم الغربي للقناة شاهرًا سلاحه بوجهي. تجمّدت في مكاني، كانت فوّهة سلاحه ملتصقة بصـدري تمامًا. بقيت على هـذا الحال لثوانٍ معدودة، مع أنّ السلاح في يـدي كان جاهـزًا للإطلاق؛ معـدّاً (محرّر الأمان) مسبقًـا وفي وضعية الرشـق، وكان إصبعـي علـى الزنـاد، إلا أنّني وقفت في تلـك اللحظات كالعاجز تمامًا. كانـت عيناي مسمّرتين على ذاك الديمقراطي الجاهز للقضـاء عليّ نهائيًّـا.. ضغط على الزناد، لكنّ سلاحـه لم يعمل! خلال لحظة عـدتُ لتوازني فضغطت على الزناد ورميت بـه أرضًا من الطلقة الأولى. كان هذا الصوت كفيلًا بتحذير قوّاتنا فاشتدّت المواجهة. أصبح واضحًـا بـأنّ الديمقراطيـين قد وصلـوا إلى القريـة قبلنا وكمنـوا لنا. استـأت جدًّا لمجـرّد التفكير بأنّ شخصًا ما كان علـى علم بالأمر وطلب منّـا الذهـاب إلى هذه المنطقة. ومـن حسن التوفيق أنّ أحـدًا من قوّات العـدو لم يكن موجـودًا وراء الصخور عند نهاية القنـاة، ولم يكن يُسمع مـن تلك الناحيـة صوت لأحد أو لرصاصة، فطلبـت من الشباب التقدّم إليهـا سريعًا. شكّلت تلك الصخـور الكبيرة الموجودة هناك ملاذًا جيّدًا

بالنسبة لنا. مع أنّني انشغلت طوال تلك المدة، إلا أنّني كنت بحال سيئة. كلّ ما علمته أنّنا محاصرون، وإن لم نتحرّك سيزداد الوضع سوءًا. كنت أسمــع أصوات قذائف الــ(B7) التي يرميها الشبــاب وصوت الرصاص الــذي يرتطم بالصخر فيصدر رنينًــا عندما ينعكس اتجاهه، بالإضافة إلى أصــوات عناصــر القــوات الحليفة والعــدوّة، وأنا أشعــر وكأنّ ذلك الســلاح ما يــزال يضغط فوق صــدري. فقلت في نفســي، لأوّل مرة، كم يمكن للخوف في بداية الاشتباكات أن يكبّل الإنسان!

أثناء المواجهة قلت لعنصر الإشارة، وكان الأقرب إليّ: «قل لمن خلفك أن ينسحبــوا وهم يُطلقــون النار». لكنّه قال: «أنا لــن أنسحب». شخص آخر سمع ما قلته فأجاب: «أنا أيضًا لن أنسحب». وصل الأمر بالانسحاب إلى بقيّــة القــوات فتراجعوا تدريجيًّا في حين بقينــا نحن الثلاثة في تلك النقطــة والاشتبــاك في ذُروته. ثــمّ أحسست بالديمقراطيــين يتقدمون تدريجيًّــا نحونا، فــأردت أن أقول لمــن معي بأن يحاولــوا تغيير أماكنهم خلــف الصخور وتضليــل العدو من خــلال تغيير أماكــن الرماية لكي لا يعــرف مكاننــا بسهولة، لكن مــا إن استدرت حتى وقع نظــري على أحد الديمقراطيــين وقد اقترب منّــا من خلف الصخــور. فرميته على الفور بقنبلــة وانتهى أمره. ثمّ قلــت لعنصر الإشارة والأخ الآخر الذي كان من شبــاب «آبعلــي» بأن يعطياني القنابــل اليدوية خاصّتهمــا ويتراجعا إلى الخلف. إلا أنّهما رفضا مجدّدًا قائلين: «نحن أيضًا سنبقى!».

– لا يُمكــن ذلك. ينبغي لشخــص واحد فقط البقاء هنــا كي يتمكّن الآخران من الانسحاب.

أقنعتهما في النهاية، فتركا قنابلهما معي وانسحبا. بقيت وحيدًا تمامًا لبضع لحظات. فتضاعف الخوف الذي ساورني في بداية الاشتباك ولم يكن قد زال عنّي بعد. رميت بقنبلة نحو الأمام ثمّ تراجعت قليلًا

ولُذتُ بصخرة كانت خلفي. تسارع تقدّم الديمقراطيين، فرميت هذه المرة بقنبلتين اثنتين وتراجعت أكثر. كانت تفصلني عن تلّة الشهيد «مهدي زاده» مسافة ٣٠٠ متر تقريبًا. انسحبت كلّ هذه المسافة شيئًا فشيئًا بخوف ورجاء، وبالاعتماد على ما في جعبتي من ذخيرة إضافية، وبعد مشقّة كبيرة وصلت إلى بقيّة الشباب. قبل أيّ شيء، ذهبت أبحث عن الشخص الذي أرسلنا إلى كمين العدو، وقد افتضح أمره، وكنت أنتظر الصباح![1]

سريعًا أرسل الصباح بضيائه على السهل. عدتُ إلى مركز القيادة مع باقي العناصر وقد جرح منهم اثنان. سلّمت ذاك الخائن إلى معلومات الحرس، ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى اعترف بخيانته.

في ذلك اليوم، أذعنا بين الناس أنّ عدد ضحايانا كبير جدًّا، وكانت تلك خدعة منّا آتت ثمارها؛ إذ كان المعادون للثورة يعترفون بدقّة بعدد قتلاهم عندما نبالغ في عدد شهدائنا وجرحانا بعد انتهاء الاشتباكات. ويومذاك، أعلنوا هم أيضًا عن مقتل ستة من أفرادهم في الكمين الليلي.

بعد هذه الحادثة، قصدت الأخ صالح قائد عمليات الحرس في كردستان، الذي أبقاني ليلة في «مهاباد» من أجل تلك المهمة، وقد كانت ليلة فظيعة بالنسبة لي. ووفقًا للاتفاق السابق فقد أذن لي بالذهاب، وتوجهت إلى تبريز لإحياء يومي التاسع والعاشر من شهر محرّم.

◘

مع مرور الوقت، راح شوقي للجنوب يزداد، لكنّني من جهة كنت عضوًا رسميًّا في الحرس في «مهاباد كردستان»، ومن جهة أخرى جعلني ردّ فعل القادة لا أصرّ كثيرًا على الأمر. في تلك الأيام كان قائد الحرس في «مهاباد» الأخ صالح، وكان معاون العمليات الأخ حداد وهو من شباب

1 - لتصفية حسابي معه.

«قزوين». عرف صالح بالذكاء والشجاعة الكبرى، وكان لديه سيارة من نوع (جيپ) دخل بها في الاشتباكات مرارًا، وبعد تحقيقه خسائر كبيرة في معسكر العدو كان يرجع إلى المقرّ، وقد وقعت على جيبه أكثر من ٢٠٠ رصاصة إلّا أنّه لم يصب بأيّ جرح، حتّى إنّ البعض شكّ في أمره بأن يكون على علاقة بالمنافقين! وسرعان ما انقضى الشك عندما أُصيب وأرسل إلى طهران للعلاج. بعده استلم القيادة شخص آخر هو الأخ «شمس»، من أهالي «كرمان». بعد ذهاب صالح، ذهب الأخ «أمين» أيضًا إلى طهران ومن هناك إلى الجنوب، وأصبح الأخ حداد مسؤولًا عن اللجنة. امتاز الأخير بأسلوبه الخاص في مواجهة الأكراد المعاندين، فعندما يحصل اشتباك في أحد المراكز داخل المدينة، يصدر الأخ حداد أمرًا بالدفاع عن المركز، لكن مع التخفيف من حدّة الاشتباك، وسرعان ما يحاصر المنطقة بقوّات أخرى، وعندما يحلّ الصباح يطلب من أهالي المنطقة عبر مكبّرات الصوت الخروج من المكان، وتقوم جماعة البيشمركة التي معنا بسحب الديمقراطيين من بين الأهالي وينتهي الأمر[1]. تميّزت الخطة بفعاليتها وفائدتها، بحيث أنّه في غضون أشهر ثلاثة أو أربعة تمّ إلقاء القبض على غالبية الديمقراطيين الموجودين داخل «مهاباد» واستئصالهم. ومنذ ذلك الحين صاروا ومجموعات الكوملة يأتون من القرى والمدن المحيطة إلى «مهاباد» للمواجهة، وقد نُفّذت خطة الأخ حداد في المدن الأخرى أيضًا، ما سمح بكشف الكثير من هؤلاء وإلقاء القبض عليهم.

من جهة ثانية، اتُّبعت سياسة جديدة للتعامل مع الأهالي في القرى المجاورة. فأحيانًا كان يتمّ توزيع المؤن والألبسة عليهم، بالإضافة إلى تزويدهم ببعض احتياجات المعيشة، ما ساهم تدريجيًّا بزيادة تعاون

1- بالطبع، بعد تحرير «بوكان» وقعت اللائحة التي تضم أسماء جميع الديمقراطيين في أيدينا، فكنا نعرف حتى أسماء قادتهم ومعاونيهم، ومحل استقرار قواتهم وعددها.

الناس معنا ومساعدتنا، وتوقفهم عن تقديم العون للديمقراطيين أثناء الاشتباكات، بل على العكس صاروا يدلّوننا عليهم. في المقابل كلما كان الخناق يضيق على الديمقراطيين والكوملة كانوا يزدادون شراسة! وهم في الواقع لم يكونوا يقبلون بكلمة «استسلام» أبدًا، وكانوا يقاتلون حتى الموت أو الجرح أو الأسر.

◘

في أوائل العام 1982م، ذهبنا مجدّدًا إلى مركز مستديرة «كوزن ها»، المكان المزدحم دومًا. وعلى الرغم من وجود ثلاثة مراكز لنا هناك يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة ٣٠٠م فقط، إلّا أنّ يومًا واحدًا لم يكن يمرّ من دون حصول اشتباك في هذا الميدان. فقد كان يوجد بين كلّ مركزين سوق كبير تتصل به خمس أو ست طرقات، ما يُسهّل دخول الديمقراطيين للاشتباك والمواجهة، إضافة إلى قرب المنطقة من النهر والغابة. لذا، صعُب جدًّا تطهير هذه المنطقة وبتنا نعبر فيها بواسطة السيارات لا مشيًا على الأقدام. أذكر أنّه طوال السنة التي كنت موجودًا فيها في كردستان، لم يحصل أن جُرحتُ في أيّ اشتباك، أمّا هناك فقد أصبتُ ولأوّل مرّة أثناء اشتباك عادي، وذلك بطلق ناريّ في أعلى الركبة، في الخامس من كانون الثاني. وعلى الرغم من أنّني قد شهدت سابقًا استشهاد الكثير من أصدقائي وإصابتهم بالجراح، ولم أعد أشعر بالخوف، إلا أنّها كانت المرة الأولى التي أُصاب فيها وأذوق طعم الألم الحادّ، فاختلف الموقف عليّ. مع اشتداد المواجهات وسقوط الجرحى من الشباب، عادة ما كانت تأتي من مقرّ القيادة مجموعة خاصة للمساعدة مصحوبة بآليتين أو ثلاث آليات مجهزة بمدافع رشاشة. فجاؤوا ونقلوني بسيارة الإسعاف إلى المستشفى. وهناك أدخلت فورًا إلى غرفة العمليات، وتمّ إخراج الرصاصة من ساقي، لكنّني لم أبق تلك الليلة في

المستشفـى، فالسائد أن يتمّ إخراج الجرحى مـن المستشفى بعد تلقّيهم الإسعافـات اللازمة مـا لم يُرسل المصـاب إلى أرومية في حال الجرح البليغ، أو يظلّ عدة أيام في غرفة الإسعاف الموجودة في مركز القيادة في حال الجرح السطحي، وهذا ما حصل معي فبقيت حوالي الأسبوع هناك قرب معسكر الجيش إلى أن تحسّنت حالي، ولم تعرف عائلتي بإصابتي.

طـوال تلك المـدة، تواصلت مع العائلـة هاتفيًّا، وكنـت أتّصل بمنزل والد زوجـة أخي لأطمئنّ عن أحوال أسرتي، بسبب عدم وجود هاتف في منزلنا.

▫

ذات يوم، وقعـت اشتباكات في إحدى القـرى، فأرسلوا مجموعة من القوة الضاربة إليها. دخلت القرية برفقة «فندرسكي» الذي كان مسؤولًا عـن مدفعية الـ (106)، يقودها بنفسه ويرمي عند اللزوم. ما إن وصلنا إلى هناك حتى رأيت دبابتين تابعتين للجيش تطلقان النار، وانتبهت إلى أنّهـم يريدون رمي دباباتنا بقذائف الــ(B7) فصرخت عاليًا وانتبه لي الطاقـم فنحّوا فوّهة المدفعية عن دباباتنـا. بعد ذلك، أراد «فندرسكي» إطلاق قذيفة مدفعية من عيار (106) على مركز الديمقراطيين، فقلت لـه: «لا يا عزيزي! هؤلاء لا يتخطّى عددهم الستـة أو السبعة أشخاص، مـن المؤسـف أن نهدر ذخـيرة المدفعية عليهـم». كان القـرار أن ندخل القريـة ثلاثـة أو أربعـة أشخاص. تركنـا المدفعية في مكانهـا، وحملنا بأيدينـا قطعتين مـن سلاح الكلاشينكـوف وتقدّمنا علـى شكل طابور. بالقـرب مـن المركز انتبهنـا إلى أنّ ثلاثـة أو أربعة مـن الديمقراطيين قُتلـوا جـرّاء إصابتهم بقذائفنا، ولم تكن الظـروف تسمح لأحد بالفرار خـارج المركز. اقتربنا أكـثر، فلم نجد سوى اثنين منهـم لا يزالان على قيـد الحياة، وقد نـالا نصيبهما من شظايا الدبابـات. كانت جراحهما

بليغـة، ومع ذلك يحاولان ضرب دباباتنـا بقذائف الـ(B7)! حين وصلت مجموعة البشمركـة، قلت: «دعوهما فإنّهما أسـيران». وافقوني الرأي، وعرفنـا لاحقًـا أنّهمـا أب وابنـه. تمّ اعتقالهما، واعترفـا كغيرهما من الديمقراطيين والكوملة المعتقلين أنّهما قتلا عددًا من عناصرنا، فصدر بحقّهمـا حكم الإعدام. كما أنّهما لم ينفكّا عن توجيه الإهانات لنا حتى الرمق الأخير، وكانا يكرّران شعاراتهما غير آبهين!

◽

في شبـاط-آذار، أنهيـت خدمتي في «حرس مهابـاد»، وفيما كنتُ في المقرّ أجهّز نفسي للعودة إلى تبريز، جاء «فندرسكي» إليّ وقال: «سنذهب لتنفيذ عملية».

- أنا ذاهب إلى تبريز. انتهى عملي هنا!

- تعال الآن وشارك معنا في العملية، ومن ثم اذهب.

بعـد دقائـق عـدتُ مجـدّدًا وأخـذت السـلاح والقنابل مـن مسؤول التسليح، وهو من شباب تبريز، ثمّ ركبت السيارة.

كان في «مهاباد» سدّ شيّدوا إلى جانبه متنزّهًا يعرف بـ«متنزّه أشرف»، وبالقـرب منـه تقع قرية لم تكن قـد أثمرت كلّ محـاولات تطهيرها بعد حتى ذاك الوقت، ولعلّ السبب في ذلك يعود لموقعها الذي يعيق احتلالها بسهولـة. في الليلـة السابقـة ووفق خطـة السيد حـداد، حاصرت قوات الحرس القرية، وفي الصباح استُدعيت مجموعة من القوة الضاربة إلى المنطقة لبدء الاشتباكات دفعة واحدة.

ذهبنـا هذه المرّة برفقـة سائق مـن «مراغة»، وبحـوزة «فندرسكي» (رامـي المدفعيـة) 15 قذيفة. لم نكـن قد وصلنا إلى المـكان المعلوم بعد حتى اعترتني حالـة غريبة. كان الاشتباك قد بدأ، ورحنا نسمع أصوات الرصاص والقذائـف. على إحدى التـلال، عملت جرّافـة على إحداث

ساتر ترابي، وما إن انطلقت السيارة صعودًا حتى شممت رائحة بنزين، لم أكـن أعلم أنّ السيارة إن صعدت المنحدر يفيض وقودها ويطفو. قلت لفندرسكـي: «تفوح رائحة البنزين، لن يصيـب الديمقراطيين شيء في هذه الحالة، لكن سيارتنا ستلتهب».

– لا تخف! لن يحصل شيء. ما إن نصعد قليلًا حتى يصلح الأمر.

وصلنـا إلى أعلى التلة واستعددنا للإطـلاق. في الأعلى شاهدنا جيّدًا ما يفعـل الديمقراطيون؛ كانوا يُحضرون القـوّات بالسيّارات فينزلونهم بسرعـة ويعـودون من حيث أتـوا. حضّرنا قبضة مدفـع الـ(106) ثمّ قام «فندرسكـي» برمـي قذيفتين أو ثـلاث. رأيت بـأمّ عيني انفجـار إحدى السيـارات المليئـة بالقوات. حقّـا كان يرمي بدقّة. فبعـد خبرته لفترات طويلـة على هذه المدفعيـة أصبح بارعًا في عمله. كما إنّنـا بدورنا تعرّفنا في تلـك المـدة إلى طريقة عمله؛ كان يوجد على مدفعيـة الـ (106) مدفع رشاش ذو طلقات خطّاطة، وتجنّبًا لهدر الذخيرة، وجّهنا المدفع الرشاش بمـوازاة مدفع الـ(106) ليصيبا هدفًـا واحدًا، فـكان في البداية يرمي بالرشاش لتحديد الهـدف، وإن أصابه أطلق القذيفة المدفعية. بعد رمي ست إلى سبع قذائف حميت فوهة المدفـع، ممّا استوجب الانتظار قرابة الخمس دقائق قبل أن نعاود الرمـي. أثناء انتظارنا لتبرد فوهة المدفعية قليـلًا، انقلبت أحوالي فجأة، فقلت لفندرسكي: «أترى! سأُصاب حتمًا في هذا المكان!».

– لماذا؟!

لأنّنـي كنـت قد أنهيـت عملي وجميع أمـوري هنا لأذهـب أخيرًا إلى الجنـوب. كـم أنا عديم الحـظّ. فـإلى الآن لم أصـب إصابـة جديّة في كردستان، لكنّني أشعر اللحظة بأنّ شيئًا ما سيحدث.

قاطعني «فندرسكي» قائلًا: «هل جُننت... لا تتشاءم!»، إلا أنّني لم أكن

مطمئنًّا. وعندما رمى قذيفة أخرى قلت له: «يوجد في جيبي 500 تومان، تعال وخذها لتسلم على الأقل هذه النقود!...». غضب «فندرسكي» من كلامي. كان هناك أخ آخر معنا يدعى «يوسف»، مهمّته إيصال قذائف المدفعية إلينا، فصار يحضرها واحدة تلو الأخرى، يضعها خلفنا ثم يذهب. كنت أتحدث إلى «فندرسكي» وهو يهدّف. فجأة رأيت «يوسف» قد وضع قذيفة وراء المدفع تمامًا ومشى. وكنت أعلم أنّ اللهب الخلفي لقذيفة الـ (106) يفوق اللهب الخلفي لقذيفة الـ(B7) بعشر مرّات وربّما أكثر! نهضت بسرعة وكان «فندرسكي» يجلس وراء المدفع وكما جرت العادة، كان بعد إطلاق عدّة طلقات من المدفع الرشّاش يضغط بركبته على عقب القذيفة المدفعية مجرة النار. صرخت: «لا ترم!»، وحضنت القذيفة لأُبعدها عن مسار النيران الخلفيّة التي ستنجم عن القذيفة المدفعية عند إطلاقها. لكنّه كان يضع يديه في أذنيه ولم يسمعني، ثم ضغط بركبته ورمى.. وما إن اطلق قذيفته حتى طِرْتُ في الهواء؛ لقد قذفتني سرعة النيران ودفعها الخلفي كطابة خفيفة في الهواء. لا أذكر شيئًا من تلك الثواني الغريبة التي مررتُ بها.. جلّ ما أذكره أنّني وقعت بشدة على الأرض. في حين أنّ عنقي كانت عالقة بين قدميّ! أزكمت أنفي رائحة غريبة؛ كانت خليطًا من رائحة اللحم المحروق، البارود، الدم، والتراب.. وتناهى إلى سمعي شيئًا فشيئًا صراخ «فندرسكي» والآخرين. كانوا يبكون ويصرخون.. أمّا أنا فحاولت إخراج رأسي من بين قدميّ ولم أستطع. عانيت كثيرًا من هذه الوضعية. لم أكن أعلم ماذا يرى أولئك الذين تجمّعوا حولي. أحسست أنّني أصبحت كطابة مستديرة ولا طاقة لي على تحمّل ذاك الوضع فصرخت: «حرّروا رقبتي». لكنّ هذا الأمر استغرق دقائق. عندما تحرّر رأسي من تلك الوضعية الضاغطة رأيت كلّ لحم جسدي يتساقط؛ لم يبقَ أيّ لباس على بدني، حتى القنابل ومخازن الرصاص التي كانت على خصري اختفت، ولعلّها تحولّت رمادًا!

كان الشباب يلطمون وجوههـم ورؤوسهم ويبكون. ردّدت الشهادتين من دون أن يصدر منـي أيّ بـكاء أو نحيب، فأنا كذلك منـذ الصغر. مهما جـرى علـيّ من بلاء لم أكـن أشكو أو أتـأوّه أبدًا. في السابـق كنت أظن أنّـه لو سُلخ جلدي عن جسدي لم يكـن ليُسمع لي صوت. وهذا ما حصل واقعًـا، لقـد شويـت تمامًا خـلال لحظـات، وكان الدم واللحـم والجلد المحروق يتساقط مـن جسدي. حملني بعض الشبـاب بصعوبة ببطانية عسكريـة. تشهّدت وهم يركضون.. مع كلّ اهتزاز انتظرت لفظ أنفاسي الأخـيرة التي لم تأتِ أبدًا، حتى وضعوني داخل آليّة «سيمرغ» هبطت بي من أعلى التلة. بعد تلاوة الشهادتين مرّات أحسستُ في النهاية أنّني باقٍ علـى قيد الحياة! حـاول السائق جاهدًا إيصالي بسرعـة إلى «مهاباد»، وحيث كانـت الطريق في تلك المنطقة الجبلية ترابيـة، راحت الآليّة تعلو وتهبـط، وأنا المكبّـل بالبطانية رحتُ كذلك أعلـو وأهبط معها، فيرتطم بـدني بل كلّ جراحـي بأرضها الحديدية. كنت أتـألّم كثيرًا ومع ذلك لم أشكُ. إلى أن وصلت الآلية في النهاية إلى طريق إسفلتي فتحسّن الوضع قليلًا، ثم توقفت عنـد مركز القيادة وفُتح الباب. عرفني جميع الشباب هنـاك، وتحلقوا لدقائق حولي، كما جاء شمس وحدّاد أيضًا؛ كانا قلقين عليّ! نُقلت فورًا إلى مستشفى «طالقاني في مهاباد». وهناك اقترب مني طبيب، وما إن أزاح البطانية عنّي جانبًا حتى أعادها إلى موضعها وقال: «وضعـه سيّئ جدًّا! أرسلوه إلى تبريز». حتـى إنّهم لم يقوموا بشيء على الإطـلاق من تضميد للجروح أو غـيره، إنّما نقلوني إلى سيارة الإسعاف التـي انطلقت بي. شعرت بالوقت يمرّ ثقيلًا وأنا على تلك الحال السيئة. طوال الساعات الأربع أو الخمس التي قضيتها في سيارة الإسعاف، كنت تـارة أفيق وطورًا يُغمـى عليّ.. ما زلت أذكر جيّدًا الحريق والوجع وذاك الإحساس الغريب الذي انتابني في تلك اللحظات. لم أكن أعلم ما الذي ينتظرني وما الذي سيجري.

رافقَنا عدد من شباب الحرس بسياراتهم إلى أوّل «مياندوآب» حيث أصبحت الطريق آمنة، فتوجّهت سيارة الإسعاف بسرعة نحو تبريز، إلا أنّ السائق لم يكن يعرف المدينة على الإطلاق، فأوقف السيارة وسألني: «والآن إلى أين أذهب بك؟».

- إلى أحد المستشفيات!

- أنا لا أعرف المكان هنا!

خارت قواي، فيما كان السائق يتوقف من وقت لآخر ويسأل الناس عن العنوان. لم أعد أحتمل.. فكرت في نفسي أنّه قد يكون من الأفضل لو أدلّه على العنوان بنفسي لعلّنا نصل بنحو أسرع. رفعت رأسي بصعوبة، نظرت من خلف زجاج سيارة الإسعاف فرأيت شارع السكة الحديدية ودللته من أين عليه أن ينعطف، فذهب من حيث قلت له. وبالرغم ممّا كنت أعانيه من ضعف، عاودت من حين لآخر رفع رأسي بصعوبة والنظر من النافذة لأرشده إلى الطريق مجدّدًا. وهكذا إلى أن وصلنا في نهاية المطاف إلى مقرّ التعبئة في شارع «حافظ». كنت خائر القوى؛ أصحو تارة وأغيب عن الوعي تارة أخرى بانتظار أن يأتي أحدهم ويوصلني إلى المستشفى! وعلى الفور صعد اثنان إلى سيارة الإسعاف وأرشدا السائق إلى مستشفى الإمام الخميني في تبريز. في المستشفى وخلافًا لما توقّعت، لم يسارع أحد لنجدتي. بقيت ما يقارب الربع ساعة على النقّالة ملقًى على الأرض. كلّ شخص يقترب مني ويرى الحال التي كنت عليها كان يتراجع!

- أيّ جرح من جراحه نضمّد؟!

- بل ما الذي يمكننا القيام به من أجله؟

استأت بشدة من هذا الوضع. وكلّ ثانية كانت تمرّ أقسى من سابقاتها، ولجأت من أعماق قلبي إلى الله..

في النهاية، نقلت إلى إحدى الغرف ومدّدوني على بطني. ثم أتى طبيب وأزال بالمقصّ أقسام الجلد المحروق عن بدني، فشعرت بالراحة نتيجة هذا العمل! في قسم الجراحة الثالث، وُضِعتُ على أحد الأسرّة المفروشة بالنايلون. ثم أحضروا طاولتَي طعام ووضعوهما إلى جانبَيّ السرير الذي كنت ممّددًا عليه ووضعوا فوقهما بطّانية وذلك لكي لا يمسّ جسدي شيء.

خسرتُ الكثير من الدماء نتيجة النزف، ما استدعى إعطائي وحدات من الدم لأيّام عدة. العمل الوحيد الذي كان باستطاعتهم القيام به من أجلي يوميًّا هو وضع كمية من الدواء المطهّر على جراحي، وأن تأتي مجموعة لتحركني ثم تذهب. كنت أحيانًا أسمعهم يتهامسون فيما بينهم: «إلامَ سيؤول مصير هذا المسكين في النهاية يا ترى؟!».

◘

مرّت أربعة أو خمسة أيام بقيت فيها على حالي السيّئة من دون أيّ تحسّن يُذكر. قال الطبيب إنّ قسمًا من عظامي قد احترق أيضًا. الشيء الذي لم أسمع به في حياتي أبدًا قد حدث لي الآن. ومن حسن حظي أنّ الحروق البليغة كانت في ظهري ولو كانت في وجهي وصدري لكان من الصعب البقاء على قيد الحياة مع هذه الدرجة من الحرق. إلى ذلك الحين، لم أكن قد أخبرت عائلتي بأنّني مصاب وموجود في تبريز. لكنّ شخصًا أتى لعيادتي، هو السيد «علي حسينيان» أحد أصدقائي القدامى، إذ كان يسارع إلى زيارة المستشفيات التي تستقبل جرحى الحرب لعيادتهم والاطمئنان عن أوضاع الأصدقاء المجاهدين. في أواسط شهر آذار من العام 1982م، وبالتزامن مع العمليات التي نفّذت في منطقة الجنوب، نُقل عدد كبير من الجرحى إلى القسم الذي وُضعتُ فيه. لذا، تواقد الكثير من الناس إلى المستشفى في تلك الفترة. عندما

رآني السيـد علي فرح كثيرًا لكنّـه استاء أيضًا، فقد صُدم للوضع السيّئ الـذي كنت عليه. تجاذبنا أطراف الحديث قليلًا. قلت له: «حتى الآن لم يعرف أحد من أفراد عائلتي بإصابتي».

- إذًا، سأذهب وأخبرهم!

حاولـت إقناعـه بأن لا يفعـل وقلت: «هـم الآن يعتقـدون أنّني سليم معافى في الجبهة. ولو علموا أنّني هنا سينشغل بالهم وسأربكهم بالتردد المستمـر لزيارتي». وكنت قد عزمت علـى إخبارهم ما إن تتحسن حالي قليـلًا. كان وضعي الجسدي سيّئًـا لكنّني ما زلت على قيد الحياة وأعلم أنّ الشهادة لم تُكتب لي حتى الآن، أي لن تُميتني هذه الجراح وسأتعافى. لم تمضِ بضع دقائق على ذهـاب السيد علي حتى سمعت صوت والدتي المألـوف ينبعث من عتبة الباب، وقد أقامت مأتمًا.. لم أعرف متى ذهب السيد علي وأخبر أمي؟!

في ظـلّ الظـروف الصعبـة التي أمرّ بهـا، كان حضور أمـي وصوتها يشعـراني بالراحة والاطمئنان، رغم معرفتي أنّهـا ستغتمّ كثيرًا لأجلي. سرعـان ما أدركـتُ أنّها في ذلك اليـوم، وكغيرها من النـاس، أتت إلى المستشفى لعيـادة جرحى الحرب، وبعد وداع السيد علي لي رآها في بهو المستشفـى، وبعد السلام عليها قال عن غير قصـد: «سيدتي، شفا الله السيـد نور الدين!»، فتعجّبـت: «وهل أصاب نور الديـن مكروه؟». حاول تـدارك الأمر إلّا أنّه وبفعل إصرار الوالدة اضطرّ لقول الحقيقة، مشيرًا إلى أنّ السيـد نور الديـن في الغرفة الأمامية! تركت أمي أكياس الفاكهة في البهـو وركضت نحو غرفتي. وها هي الآن قـد رأتني ولم تصدّق أنّني قد جرحت بهذا الشكل.

- ما الذي أصابك بني؟!

- لا شيء يا أمي!.. لا شيء!

- مـا الـذي تريد أن يحصل ليكون شيئًا؟ وهل هنـاك أسوأ مما أنت

عليه الآن؟!

حزنـت أمـي كثـيرًا. أرادت أن تعرف ما الـذي جرى معـي، إلّا أنّني اختصرت لها الحادثة. ثم جلست المسكينة تستذكر أيام طفولتي وقالت: «لديـك رأس ملـيء بالمصائب والبلاءات، لا أعلـم إلى أين سينتهي بك الحـال؟»، وحدّثتني كيف وقعتُ في المنقل عندمـا كنت طفلًا واحترقت، أمّا أن تراني الآن على هذه الحال أمر صعبٌ عليها كثيرًا.

رضيـت أمـي في النهاية أن تعـود إلى المنزل، لكنّها منـذ ذلك اليوم ما انفكّـت تأتي يوميًّا من قريتنا خلجـان إلى مستشفى الإمام الخميني في تبريـز لزيارتي، وأحيانًا كان يأتي بعض أفراد العائلة والأقارب أيضًا لعيادتـي. إلّا أنّ قدمـيّ والدي لم تطأ أرض المستشفـى طوال تلك المدة! وكنـت أعلم أكثر من غيري كـم يتشاءم من المستشفيـات، وما ستسبّبه رؤيتي من ألم له.

▫

لم يتغـيّر وضعي عمّا كان عليه في الأيـام الأولى للإصابة، حتى إنّني اعتدت على تلك الرائحة المنبعثة من جسدي، لكنّ كلّ من يدخل عليّ كان يحسّ برائحة البارود الممزوج بالرمل والحصى المحترق تحت جلدي. في المستشفـى لم يستطيعوا القيام بشيء لي سوى إعطائي وحدات من الدم من وقت لآخر وفصل الأجزاء المحترقة من جلدي ولحمي عن بدني.

ذات يوم جاء الطبيب لمعاينتي كما جرت العادة، كنت شبه نائم وخائر القـوى، لكنّني سمعت الحـوار الذي دار بقربي. قـال الطبيب للممرّض الذي يرافقه: «ما من علاج لهذا الجريح!».

– لكنّنـي أعرف دواءه! سأنقله إلى الحمـام، وأمدّده وأكشط جسمه إلى أن ينفصل هذا الجلد المحروق والممزوج بالحصى عن بدنه!

لم أر ردّ فعـل الطبيـب علـى كلام الممرض، لكنّنـي أحسست ببدني

يشتعل. ناداني الممرض: «أخي! هل تتحمّل أن أنقلك إلى الحمام..»؟ كنت أعلم ماذا يقصد. في الحقيقة، لم يكن هناك أيّ علاج آخر، وكان عليّ أن أقبل بهذا الحل الوحيد. سألت فقط: «كم يستغرق هذا الأمر من الوقت؟».

– قرابة العشر دقائق.

– حسنًا، سأتحمّل هذه العشر دقائق مهما كانت صعبة.

أعدّوا التجهيزات اللازمة بسرعة، ثمّ حملوني إلى حوض الاستحمام الذي مُلئ بالمياه الفاترة والقليل من المادة المطهّرة للجروح ووضعوني فيه. لم يكن الأمر سهلًا على الممرض الذي رقّ قلبه لحالي. سألني: «هل تريد شيئا؟!»، فلم أطلب سوى أمر واحد وهو أن يضعوا شيئًا بين أسناني كي لا أصرخ. فوضع لي منديلًا وبدأ عمله. المشهد الذي ما زلت أذكره عن تلك الدقائق الصعبة أكثر من أيّ منظر آخر هو حبات العرق المتصبّبة على وجه الممرّض. شعرت وكأنّ كلّ عروق جسدي تشتعل وأحترق من جلدي... لقد أراد القيام بما عجز الأطبّاء عن القيام به حتى الآن، وقد فعل! حبست بكائي وصراخي في حنجرتي وكدت أغيب عن الوعي من شدّة الألم. لكنّني قاومت حتى اللحظة الأخيرة، إلى أن نظر في عينيّ وقال لي: «لقد انتهى الأمر!».

كنتُ خائر القوى ومتعبًا إلى درجة لم أستطع التفوّه بأيّ كلمة. في اللحظات الأخيرة التي كانوا يحملوني فيها من حوض الاستحمام ليضعوني على السرير. نظرت إلى الحوض وإذ بي أرى قطع جلدي ودهون جسدي تطفو فوق الماء. لعلّي خلعت اثنين إلى ثلاثة كيلوغرامات من وزن بدني داخل حوض الاستحمام! لكن مع ذلك انتابني شعور غريب بالراحة!

كانوا منذ ذلك اليوم وأنا في سرير المستشفى، يسكبون «البتادين» على جسدي، ويضعون الملاءة قربي على الطاولة ويذهبون. وبعد مدة، صاروا

يطهّرون جراحي ويضعون لي ضمّادات «الفازلين»، وفي اليوم التالي حيث تكون الضمّادات قد يبست والتصقت بجراحي، يضعون «السافلون» عليها لتصبح رطبة ويتمكنوا من نزعها بسهولة، وهكذا دواليك...

بدأ جلدي ينمو شيئًا فشيئًا، وكانت تزعجني بعض الأماكن في بدني حيث الحرق أكثر عمقًا، لكنّ وضعي تحسّن كثيرًا عمّا كان عليه.

ذات يوم تناهى إلى سمعي صوت أنين وبكاء ينبعث من الغرفة المجاورة. لم أكن وقتها على ما يرام، فانزعجت من تلك الأنّات والآهات. طلبت من أحد الممرضين أن يحمل سريري ويضعه بالقرب من ذاك الأخ. ظننتُ أنّه من جرحى الحرب، لكنّه لم يكن كذلك. عندما حملوني إليه عرفت أنّ اسمه «حسن شيرافكن». سألته عن سبب كلّ هذا الأنين فأجاب أنّه يشكو من ألم في الكلية ما زاد من انزعاجي، لكنّني لم أظهر له ذلك وقلت له: «في النهاية على المرء أن يتحمّل. انظر إليّ! لم يبقَ أيّ مكان سالمًا في بدني ومع ذلك لم أُصدر صوتًا.. ستتعافى إن شاء الله». عندما رأيته يبكي تعجّبت. قال: «أنت تقول إنّك مقاتل وقد حصل لك في الجبهة ما حصل. أما أنا فماذا..؟!». أعتقد أنّ كلامي قد أثّر به. فبعد ذلك اليوم لم أعد أسمع له حسًّا، لكنّنا التقينا مجدّدًا وأصبحنا أصدقاء، حيث قضينا معًا في مستشفى الإمام الخميني مدّة شهر تقريبًا. بعد مضيّ حوالي الشهرين على إصابتي في كردستان، وفي أواسط أيار من العام 1982م كان خروجي من المستشفى بشكلي الجديد.

◘

لقد نبت لي لحم زائد في الأماكن التي كان الحرق فيها أعمق، وتوجّب عليّ الذهاب إلى طهران لأُكمل العلاج في مستشفى «الشهيد مطهري» المخصّص للحروق. كان جلدي الجديد رقيقًا وناعمًا، ولكن بعض الأقسام الأخرى ما تزال بحاجة إلى التضميد ممّا يستدعي الذهاب إلى المستشفى، فصرت أتواعد مع «حسن شيرافكن» ونذهب

معًا. في تلك المدة، وفي كلّ مرّة سألته فيها عن عمله كان يُجيب: «أنا بائع في شارع تربيت، وستأتي وترى ذلك بنفسك.»

ذات يوم ذهبت، ورأيته يبيع أدوات التزيين الخاصّة بالنساء والجوارب و... فتعجّبت: «سيد حسن! هذا العمل لا يليق بك على الإطلاق!».

- أقسم بالله! لقد سئمت من بيع هذه الأشياء! وأطلب من الله أن يخلّصني من هذا العمل، لكن ليس باليد حيلة!

- لا يا أخي، الأمر بيدك.

طوال تلك المدة أصبحنا صديقين حميمين. لذا لم يكن من الصعب عليّ أن أنصحه بترك عمله لغيره والذهاب للتدريب العسكري.

- الجبهة من أفضل الأماكن! عليك الذهاب لترى!

ولم يمضِ وقت طويل حتى التحق بدورة عسكرية، لينطلق بعدها إلى الجبهة[1].

◘

بعد خروجي من المستشفى، وجدتْ أمي عملًا جديدًا لها. ففي كلّ يوم كانت تجلس بالقرب مني لساعة، تحمل بيدها الإبرة وتُخرج بها ما تبقّى من رمال تحت جلدي! فيما بعد اشتريتُ بعض أدوات التضميد وبدأت أتكيّف مع جراحي.

ذهبت مرتين إلى طهران لاستكمال علاج اللحم الزائد، وقد وقعتْ بعض الأحداث هناك. كان الحرس هم من يتولّون نقل الجرحى في ذلك الحين، ولهم في طهران قسم خاصّ بعلاج الجرحى، وأحيانًا كانوا يرسلونهم إلى خارج البلاد لتلقّي العلاج. في الطابق العلوي لمستوصف «الشهيد بهشتي» في تبريز، أُحدث مكان ليستريح فيه الجرحى إلى أن

---

1- «حسن شيرافكن» هو نفسه الذي سطّر الملاحم في عملية «والفجر4»، وأذهلت بطولاته وشجاعته أصدقاءه، وسرعان ما نال الشهادة.

يحـين موعد نقلهم إلى طهـران أو إلى المستشفيـات الأخرى. وكان هذا القسـم يتألّف من عدّة غرف يتمّ فيها تضميـد الجروح وإعطاء الحقن للجرحى، وهي مجهّزة بسرائر كتلك المخصصة للمستشفيات.

وفي يـوم من الأيام تمّ إدخـالي إلى مستوصف «الشهيد بهشتي» حتى يحـين وقـت نقلي. ومن حظّي السيّئ أنّه في الوقـت نفسه الذي كنت فيه هنـاك تواجد شخص آخـر، قال البعض إنّه مـن المنافقين وقال آخرون إنّـه من الديمقراطيـين. يبدو أنّه اعتقل ونقـل إلى المبنى التابع للحرس في المنطقـة الخامسـة، ثمّ حُبس مسـاءً داخل غرفة ليتـمّ استجوابه في الصبـاح التالي، ووضعوا له حارسًا أمام باب الغرفة أيضًا لكي لا يتمكّن مـن الفرار، فقصّ البطانية بقطعـة زجاج على شـكل شرائط ووصلها ببعضهـا محاولاً الفرار من النافـذة، إلا أنّ الشرائط تمزّقت فوقع على الأرض وكسر قدميه، وقد وُضع علـى حاله تلك معنا في الغرفة. ومع أنّ قدميـه الاثنتين كانتا مجبّرتين إلّا أنّـه كان قويًّا، فكنا نخاف النوم رغم وجود الحرّاس فوق رأسه خشية من أن يؤذينا!

أُرسلـت في نهايـة المطاف إلى طهـران، حيث خُصّصـت للحرس في «شمـيران» و«فنك» مبـانٍ نظيفة ومرتّبـة يتابعون فيهـا أمور الجرحى. وعنـد وصـول المصاب، يتم إرسالـه في سيارة الإسعاف مـع مرافق إلى المستوصـف أو المستشفى، ويتابعون أمر علاجه حتـى المراحل الأخيرة. أحيانًـا كانوا ينتظرون مع الجريح، وأحيانًا أخـرى يعطونه رقمًا ليطلبه عنـد الانتهاء مـن العلاج. بعد سنـة أو سنتين تغيّرت هـذه الإجراءات، وشهدنا أيامًا أمرّ بعشرات المرّات من أيام الحرب والجراح[1]!

---

1- منذ أن عُهد أمر متابعة أمور الجرحى إلى مؤسسة الشهيد، اختلف الوضع. فإما أنه لم يكن يوجد إمكانات، وإما لم يكن هناك تنسيق. وحصل لمرات أنه عندما نذهب إلى مؤسسة الشهيد في طهران، كنـا نقف في صـف طويل ليعطونا رسالـة يعرّفونا فيها إلى أحـد المستشفيات. وكثيـرًا ما يحدث أن تتوقف سيارة نظيفة ومن أحدث طراز إلى جانب الطريق أو أمام المستشفى وتترجل منها سيدة سيئة الحجـاب، تريـد إيصالنا إلى المكان الـذي نقصده. عادة ما كان الناس يدركـون أننا جرحى حرب،

استغرق الأمر وقتًا طويلًا من الأول من آذار العام 1982م حيث أصبت بتلك الجراح النادرة إلى أن تحسّن وضعي نسبيًّا. وحتى صيف العام 1982م كنت قد تغيّبت لأشهر عن ميدان القتال. هذه المدة الطويلة من النقاهة أرهقتني وأحزنتني، فحزمت أمري على العودة إلى الجبهة. في هذه الفترة، أنهيت عملي مع حرس كردستان الذين اعتقدوا أنّني بعد إصابتي لن أكون عنصرًا فاعلًا. وها أنا الآن أصبحت حرًّا وصار بإمكاني الذهاب إلى الجنوب. وبصعوبة أقنعت عائلتي وبالأخصّ الوالدة، ثم وضعت في حقيبتي الصغيرة بعض الأغراض الضرورية لتضميد جراحي وتوجهت إلى الجنوب.

فكانوا من باب التعاطف أو لأي نية أخرى، يحاولون مساعدتنا. إلا أن [قلوب العاملين في] مؤسسة الشهيد على ما يبدو لم تكن ترقّ لحالنا! كانوا ينزلوننا في أحد الفنادق التي يفوق وضعها الأنزال* (جمع نُزُل) سوءًا، وكان مصعداه الكهربائيان معطلين، فكان على الجرحى أن يتكبدوا عناء صعود السلالم ونزولها وهم يعرجون. كما كانت معاملة موظفيه غريبة، حيث راحوا يقدمون لنا الشاي في فناجين بلاستيكية كنا نضطر لاستعمال أمثالها في الجبهة. لا أعلم، ربما كانت هذه المشاكل تحدث بسبب كثرة الجرحى الذين يتوافدون من قوى الحرس والجيش والتعبئة، ومن جميع المدن إلى هناك. كنا نرى تغير القيم وتبدلها شيئًا فشيئًا، فقد كانوا يقدمون يوميًّا لكلّ جريح يأتي إلى طهران للعلاج مئة تومان، ويضاعفونها مرّات عدة في بعض الحالات الخاصة. كنت أستمع هناك إلى كلام بعضهم فتثور أعصابي. فيقول أحدهم مثلًا: «اقتحمت حشود الناس وكسرت الزجاج ليعطوني المال». ويقول آخر: «ذهبت إليهم وبكيت وانتحبت...» أكاد أجن حين أسمع ذاك الكلام. لو كنت أملك المال، لدفعت مصاريف العمليات من جيبي الخاص ولا أرى مثل هذه المعاملة والمشاهد. لقد ازداد التساهل والاستهتار. ذات يوم أرسلوني إلى أحد الأطباء من أجل استكمال علاجي، وبعد طول انتظار، حين جاء دوري قال لي إنّ علاجي ليس عنده، وإنّ اختصاصه مغاير تمامًا لمشكلتي!

## الفصل الرابع

# أخوان وعروج واحد

**1**

كان سفري الأوّل إلى الجنوب حافلًا بالأحداث. بجسدٍ حافل بالحروق لكنّه مغطّى، انطلقتُ برفقة كريم ستّاري[1] -الذي تعرّفت إليه في كردستان- وبعض الأصدقاء الآخرين. سار جميع العناصر من مركز الحرس إلى المصلّى مطلقين الشعارات. من هناك، ركبنا الحافلات وتوجّهنا إلى محطّة القطار. كثر الشباب بحيث امتلأت المقصورات، وبقي عددٌ منهم واقفًا على رجليه. وفي تلك الأثناء، جاء إلينا أحد مهندسي الحرس ويُدعى «موسوي». كان عضوًا في لجنة مسجد التوحيد، ويبدو أنّه على معرفة بكريم من خلال المسجد. أخذنا جانبًا وقال: «لا تذهبوا بهذه البعثة، من المفترض أن تُنقل الليلة في تمام التاسعة، خمس عشرة جرّافة بقطار الشحن إلى الأهواز. أريدكم أن ترافقوا هذه الشحنة وتسلّموها إلى المعنيّين هناك». كانت مهمة ملائمة تمامًا لوضعي.

ترجّلت وكريم من القطار وعدنا إلى مقرّ الحرس. قدّموا لنا هناك الطعام وأعطونا مصروف الطريق، وعلمنا أنّ رحلتنا هذه إلى الأهواز ستستغرق خمسة أيّام. كانت مهمّة صعبة ومسؤوليّة كبيرة بالنسبة لنا. أوصلنا الإخوة في الحرس بكلّ احترام وفي الموعد المحدّد إلى محطّة

---

1. استُشهد في عملية مسلم بن عقيل. كانوا ثلاثة إخوة غالبًا ما يذهبون معًا إلى الجبهة، وقد استشهد أخوه محمود متأثّرًا بجراح أصيب بها بالسلاح الكيميائي، وهو مهندس في بلديّة تبريز.

القطـار، لأبدأ وكريم ستّـاري رحلة فريدة من نوعهـا. لم يكن في قطار الشحـن سوى مقصورة واحدة فقط مُعـدّة لاستراحة السائق ومساعده كنّـا نستريح فيهـا ليلًا، أمّا في النهـار فنجلس علـى الجرّافات. انطلق القطـار من تبريز في تمـام التاسعة ليلًا ووصلنا ظهـر اليوم التالي إلى طهران. كان علينا البقاء ثلاث ساعات في محطّة القطار من أجل أعمال الصيانـة، فقمت وكريم بجولة هناك، ولم نبتعد كثيرًا بسبب الازدحام. المحطّة التالية كانت قم. وصلنا إليها في الثامنة مساءً، وكان علينا التوقف هنـاك أربـع ساعـات. وجدناها فرصةً جيّـدة، فقرّرنا الذهـاب لتناول العشـاء أوّلًا، ثـمّ زيارة مقام السيـدة المعصومة عليهـا السلام والعودة بعدهـا إلى المحطّـة. وعلى الرغم مـن أنّهم زوّدونا في تبريـز بالمعلّبات والطعام البارد، إلّا أنّنا كنّا مشتاقين إلى الطعام الساخن، فرحنا نبحث عـن بائعٍ للكبـاب في الجوار، إلى أن وقع نظرنا علـى أحد المطاعم قرب المحطّة. دخلنا. شاهدنا الصالة خالية، والطاولات قد صُفّت ورُتّبت بنحو جيّد، ووُضعت عليها المناديل الملوّنة والمرطّبات على أنواعها و... وكنّا في الطريق قد اشترينا كيلوين من العنب، فغسلته ووضعته في أحد الصحون الموضوعـة علـى الطاولة. لفت منظرنـا النادلين؛ فلباسـ الجبهة الذي نرتديـه، والغبار الذي غطّى ثيابنا وعلا وجوهنا ورؤوسنا جرّاء الجلوس أيّامًـا على الجرّافـات، جعل مظهرنا غير ملائم للمـكان. كنّا قد طلبنا عنـد دخولنا المطعم صحنين من الأرزّ بالكبـابٍ، فقال النادل: «سنقدّم الطعام للجميع دفعة واحدة». لم نلتفت إلى ما قاله لشدّة جوعنا، ورحنا نتنـاول الخبز الموضوع على الطاولة مع العنب. لكنّني رحت أوصي كريم باستمـرار: «لا تأكل كثيرًا! فينفد العنب ولا يبقى منه شيء للطريق. كما إنّ الأرزّ بالكبـاب سيبقـى ولن تستطيع أكله!». لكن حتى الآن لا خبر عن الأرز بالكبـاب، فقلت لكـريم: «قم واستعجلهم ليأتونـا بالطعام، فلدينا أربـع ساعـات من الوقت قضينا منها ساعة هنـا!». ذهب كريم، والتفت

إلى الكراسي تمتلئ شيئًا فشيئًا بالوافدين إلى القاعة. هذا يضع ربطة عنق، وآخر جاء مع زوجته وما شابه.

فعلًا لقد جئنا إلى مكان خاصّ!

قلت ذلك في نفسي وسمعت كريم يقول: «يقولون إنّهم سيقدّمون الطعام للجميع معًا!». فجأة وبينما كان الجالسون حولي يرمقوننا بنظرات حادّة، خطر ببالي خاطر؛ لعلّ مراسم خاصّة تُقام هنا ونحن لا ندري. أخبرت كريم بالأمر لكنّه قال: «لا يا عمّ، فطاولات الطعام تُزيّن دائمًا على هذا الشكل... اجلس، بعد قليل يأتوننا بالطعام!». وما كدت أفتح فمي لأردّ عليه، حتّى وقع نظري على عروسين يدخلان الصالة! وارتفعت الأصوات مرحّبة بهما...

– أسرع يا كريم، ها هما العروسان يدخلان!

وقفنا، لكن الأصوات ارتفعت من كلّ صوب تدعونا للجلوس. ظنّ أهل العروس أنّنا من أهل العريس، وكذا أهل العريس ظنّوا أنّنا من أهل العروس. كان الجميع يقولون: «أهلًا وسهلًا، بعد قليل يُقدّم الطعام». دخل العروسان، فانقلبت الأوضاع ولم نعد نستطيع التحرّك من أماكننا، وبدأنا نشعر بعذاب الضمير. في النهاية، هدأ الجوّ وجلس الجميع. قلت لكريم: «أنا سأذهب، اتبعني!». تركنا العنب وخرجنا من الصالة بحجّة ما. في الطريق كان أكثر ما أسفنا عليه العنب الذي تركناه على الطاولة! مضت ساعة من الوقت المحدّد للاستراحة. لم نجد في تلك الناحية مبتغانا. مشينا إلى آخر شارع محطّة القطار. قال كريم: «لن نجد في هذا الوقت من الليل مطعمًا يقدّم الأرزّ بالكباب، تعالَ نوصِ على سيخين من الكباب المشويّ، ومن ثمّ ننصرف إلى عملنا!». عندما قصصنا قصّتنا على صاحب أحد المحلّات التي تبيع الكباب المشوي، انفجر ضاحكًا وقال: «أنتم الليلة ضيوفي على العشاء! ولن آخذ منكم

المـال لقاءه. لكـن ليتكم بقيتم وتناولتم عشاءكم هنـاك!». على كلّ حال قنعنـا بما قدّمه، وتوجّهنـا سريعًا إلى الحرم[1]، وبعـد الزيارة والصلاة عدنا إلى المحطّة لينطلق القطار بعد نصف ساعة.

▫

كان قطار الشحن يتحرّك ببطء ويتوقّف ساعات في المحطّات؛ أحيانًا يحمّـل البضائع، وأخـرى يبدّل الأدوات. وصلنا صبـاح اليوم التالي إلى «آراك»، وهنـاك اشـترى سائـق القطار خروفًـا وذبحه ودعانـا لتناول الطعـام. كان من المقرّر أن نتوقّف هناك أربع ساعات، فكانت تلك المدّة كافية لطبخ مرق اللحمة اللذيذة، وإضفاء المزيد من الذكريات الجميلة إلى الرحلة الأولى للجنوب.

كان ذلـك في أواسط فصل الصيف حيـث موسم العنب، والمزارعون يقدّمـون لنا العنـب والفاكهة الأخـرى. اختزنّا طـوال الطريق ذكريات جميلـة. في إحدى المحطّات، ذهبنـا إلى أحد الكروم وطلبنا من صاحبه ابتياع القليل من العنب، وحين رآنا ننقل بعض الآليّات الثقيلة إلى الجبهة قـال بكلّ احـترام: «ما هذا الكلام، عن أيّ مـال تتكلّمون؟ هذا البستان لكم بما فيه!». ثمّ أحضر كيسًا وأصرّ علينا أن نقطف ما نشاء منه. حقًّا، كان ذلك العنب لذيذًا.

طـوال النهار، حـين نمرّ بقرية أو مزرعة مـا، كان الناس يلوّحون لنا بأيديهم بكلّ محبّة. كان الطقس رائعًا، فالطبيعة في مناطق غرب إيران وجنوبهـا لا ينقصها من الجمال شيء. في طريق «انديمشك - بُل دختر»، عَـبَرَ القطـار أنفاقًا عديـدة، فانتشر دخانـه الغليظ في أحدهـا، وكأنّه يعوّض عن كلّ مسرّات الطريق! بالإضافة إلى الدخان، تقاطر الماء علينا مـن سقف النفق، ليصبح شكلنا يُرثى له عند خروجنا منه. حين وصلنا

1- مرقد السيدة المعصومة (عليها السلام).

إلى «أنديمشـك»، كان وضعنا مزريًا، لذا قرّرنا في فترة الاستراحة التي ستستمرّ لأربع أو خمس ساعات، أن نهتمّ بأنفسنا ونحسّن هندامنا. بعد الاستحمـام وتنـاول الطعام، أقمنـا صلاتي المغـرب والعشاء في مسجد كبـير قريب من المحطّة، وعندمـا عدنا إلى المحطّة قالـوا إنّنا سننطلق ليلًا. خلدنا إلى النوم، ولم نستفق إلّا ونحن في الأهواز.

قبـل ساعتين من طلوع الفجر، كان الإخوة في الحرس قد أرسلوا إلى المحطّـة من يستقبلنـا هناك. أصرّوا علينا للبقـاء عندهم، ولم يتركونا نذهـب إلى مقرّنا إلا مع إشراقة الصبـح. استضافونا على الفطور، وما إن بسـط النهار أجنحته حتّى توجّهنـا إلى مدرسة الشهيد «براتي» مقرّ لـواء عاشـوراء. وحين وصلنـا أخبرونا أنـه ينبغي علينـا تسليم مفاتيح الجرّافـات لمسؤول المحور، وهو الأخ «حبيـب باشايي»، ولم أكن قد رأيته حتـى ذلك اليوم. سألنا عنـه أوّل شخص التقيناه، وكان شابًّا ذا مهابة. قال: «أنا هو حبيب باشايي!».

دقّقـت النظر فيه. بدا لي منذ النظرة الأولى إنسانًا مختلفًا؛ رياضيًّا في ريعـان الشباب، ذا لحيـة كثّة أضافت بهاءً خاصًّـا إلى جمال وجهه. حقًّـا كانت القيادة تليق بـه. سلّمناه المفاتيح بعـد أن أخبرناه بأنّنا أتينا بالجرّافـات من تبريز، وها هي الآن في محطّـة قطار الأهواز. استقبلنا الأخ حبيـب باشايي بحفـاوة وقال: «لا يكفـي أنّكم جئتـم بأنفسكم، بل أحضرتم الجرّافات أيضًا!..». سُررنا جدًّا، فتجربتنا الأولى في السفر إلى الجنـوب كانت مميّزة، كما إنّ رؤيتنا الفرحة العارمة في وجوه المسؤولين والعناصـر لاستلام عدد مـن الجرّافات في المنطقة، شكّلـت واقعًا أمرًا مهمًـا. ركبنا سيّارة الأخ حبيب، وسلك بنا طريقًا سريعًا ومختصرًا إلى محطّة القطارات، حيث التقينـا خمسة أو ستّة سائقين سبقونا لاستلام الآليّات. توجّه إلينا الأخ حبيب قائلًا: «أنتما ضيفانا لليومين المقبلين».

بقينا في ضيافتهم يومين، وفي تلك المدّة شاهدت كم كانت تؤثّر هيبة حبيب باشايي في عناصره. في اليوم الأوّل وقبل أيّ شيء، استحممنا في الحمّام العمومي الذي أُعدّ للمجاهدين في مدرسة الشهيد براتي، بعدها أخذني كريم، وقد سبق له المجيء إلى الأهواز، لنجول في المدينة، وأراني أهمّ المناطق هناك. توجّهنا إلى جسر الأهواز المشهور، فأثارت رؤية نهر «كارون» فيّ شعورًا رائعًا. لم أكن إلى ذلك الحين قد رأيت نهرًا بهذه العظمة. جلنا في المتنزّه المجاور للنهر، وراح كريم يحدّثني عن الطابور الخامس الذي كان له وجود كبير هناك، ووقعت مواجهات عنيفة معه في المدينة. في طريق العودة إلى المدرسة وقع نظري على محلّ يبيع الساندويشات. أصرّ كريم على تناول الغداء في مدرسة الشهيد براتي حيث يقدّمون الطعام لجميع العناصر، لكنّني كنت أرى أنّ طعم الساندويش يفوق طعام المقرّ لذّة! ولم أستطع صرف النظر عنها. تناولنا الساندويشات وعدنا إلى المدرسة لنجد العناصر متوجّهين نحو صالة الطعام. كانت صالة الطعام عبارة عن عدّة خيم موصول بعضها ببعض، بحيث عندما تدخل من أحد جانبيها ترى منظرًا لافتًا؛ سفرة طويلة قد مُدّت، وأوّل ما يلفت نظرك فيها الأكواب البلاستيكيّة الحمراء الموضوعة عليها، فيما يتحلّق حول المائدة المجاهدون الذين وردوا الأهواز للتوّ، والذين لا يلبثون أن يوزّعوا على الكتائب بعد الفرز والتنظيم. في الواقع، كانت مدرسة الشهيد براتي بمنزلة مكان للتجهيزات، حيث أُنشئ فيها مخزن كبير يلبّي حاجة العناصر والكتائب. في فترة تواجدنا هناك، كان عناصر كتيبة الشهيد مدني في طريق العودة من إجازتهم، كما توجّهت بعض الكتائب إلى المنطقة استعدادًا للعملية القادمة، أمّا نحن فتمّ فرزنا بعد يومين.

استقـرّ عدد من عناصر لواء عاشوراء في «كلستان» و«بوستان»، وهما مدرستـان تحوّلتـا بعد بـدء الحرب إلى مقـرّ للمجاهديـن. في البداية فُرِزنـا إليها، ثـمّ انتقلنا إلى جامعة «جندي شابـور»[1] حيث التقيت بابن خـالي إبراهيم نمكـي[2]. كان لقاء أحد المعارف بالنسبـة لي في أول مرّة آتـي بها من كردستان إلى الجنوب، أمرًا رائعًا. غالبًا ما سألني الإخوة: «أين خدمت قبل مجيئـك إلى هنا؟»، وعندما يسمعون باسم كردستان، يغلبهم الشوق والحماسة لأخبرهـم عن المواجهات التي حصلت هناك. مـا كانوا ليتصوّروا فكرة عـدم وجود مسافة بين الصديـق والعدوّ، وأنّ المرء قد يُرمى بقنبلة في أيّ لحظة من قبل أيّ رجل أو امرأة أو طفل. لذا اعتـبروا وجود قوّاتنـا في مواجهات كردستان، وجودًا قويًـا، وقالوا: «إنّ الـذي يخدم في كردستان لمدّة شهرين أو ثلاثة كالذي يخدم في الجنوب لمدّة سنتين أو ثلاث!»، وهذه هي الحقيقة. فمواجهات كردستان القاسية والمتتالية، تجعل الإنسان أشدّ مِراسًا وتجربة.

بعـد يومـين أو ثلاثـة قضيتهـا عند ابن خـالي، ذهبـت إلى مدرسة الشهيـد براتي في الأهواز. كان الأخ زارعـي هو المسؤول عن فرز القوّات وتنظيمها، وقد سبق لـه أن تعرّف إليّ. بعد التحيّة والسلام والاستخبار عن الأحوال وفرز القوّات، التفتُّ إلى أنّني الوحيد الذي لم تُحدّد مهمّته.

- إذًا، لما لم تفرزوني إلى نقطة معيّنة؟
- أنت الآن باقٍ هنا، تعال وامضِ معنا يومين أو ثلاثة!

---

1. فـي تلك الفترة كانت جامعة جندي شابور، فرع الأهـواز التي تقع في أوّل طريق الأهواز–خرّمشهر القديم، مقرًا للمجاهدين.

2- هـو مـن المجاهدين القدامى في فرقة عاشوراء، وكان له حضور كبير أيّام مقاومة القوّات الآذريّة في «سوسنكرد». وقع أسيرًا بأيدي القوّات العراقيّة أثناء عملية خيبر، وعاد إلى الوطن بعد سبع سنين من المعاناة في الأسر.

قـال هذا فبقيت. في تلك الفـترة كان أخي الأصغر منّـي سنًّا السيّد صادق، في كتيبة الشهيد مدني أيضًا. فبعد ذهابي إلى جبهة كردستان، فعـل السيّد صـادق كلّ ما بوسعه للالتحـاق بالجبهـة، إلى أن أُرسل في النهايـة إلى جبهـة الجنوب. ومـن قضاء الله أن وُوجِه منـذ أوّل وصوله إلى الجبهـة، بالمواجهـات العنيفـة في تلّـة «الله أكبر»[1]. وهنـاك أصابه الهلع عند رؤيته الجثث الكثيرة المتناثرة، فترك سلاحه في أرض المعركة ورجع إلى المدينـة! ومنذ ذلك الحين وُضع اسمه على لائحة الفارّين من المعركة. لذا، فقد طرق كلّ باب من أجل الالتحاق مجدّدًا بالجبهة، لكن بلا نتيجـة، إلى أن جعلني وسيلته إلى ذلك، وراح يطلب مني باستمرار: «بـالله عليك، تكلّم مع جواد بشأني»، ويقصـد «جواد جبّار زاده» المكلّف في الهيئـة المشرفـة على إرسـال العناصر إلى الجبهـة، وقد رفض طلبه لمـرّات. في النهاية، وخلال فـترة النقاهة التي قضيتهـا بعد إصابتي في كردستان، قصدنا الهيئة المشرفة على إرسال العناصر، وكانت تربطني بجواد علاقة جيّدة ويعاملني بلطف، وأعلم أنّه لن يرفض لي طلبًا. قلت له: «سجّل اسمه، فهو يريد الالتحاق بالجبهة!».

- هذا فارّ من الجبهة، ما القرابة التي تربطك به يا سيّد؟!

- إنّه أخي!

لم يكـن يريد التصديق أو قل لم يمكنه ذلـك. أكدتّ له: «صدّقني يا سيّد، إنّه أخي!».

- يا أخي هذا الشابّ قد فرّ يومًا من الجبهة!

- لا مشكلة. سجّل اسمه الآن، فهو يريد الالتحاق بالجبهة.

بالمحصّلـة، كاد أخي السيّد صادق يطير من الفرحة، وجاء اسمه في

1 - قـام المجاهدون التبريزيّون بتنفيذ عملية في تـلال «الله أكبر» على حدود «سوسنكرد» في أوائل الحرب بتاريخ 21 أيار 1981م، بهدف دحر العدوّ من المنطقة وفكّ الحصار عنها.

عديد كتيبة الشهيد مدني في أوّل بعثة أُرسلت.

كانت هذه الكتيبة التي يقودها «السيّد أحمد موسوي» قد أخذت إجازة خلال المدّة التي قضيتها في الأهواز، فأخذ أخي السيّد صادق إجازة أيضًا، وقبل أن ينطلقوا، جاء لرؤيتي ثم توجّه مع بقية العناصر إلى تبريز أمّا أنا فبقيت. في تلك الفترة، كان «أصغر قصّاب عبداللهي» معاونًا لقائد الكتيبة، و«صادق فعله آذري» و«حميد بهنيان»[1] مسؤولي سرايا. لم أتذكّرهم جيّدًا حينذاك، لكن يبدو أنّهم كانوا يعرفونني من مركز مسجد التوحيد في «قره آغاج»، واستقبلوني بحرارة[2].

كانت فرصة جيّدة لنا أثناء غياب العناصر لنتبادل الأحاديث حول ذكريات كردستان والجنوب ومعاركهما. بعد عدّة أيّام، بدأ بعض مسؤولي الكتيبة بالعودة الواحد تلو الآخر من إجازاتهم التي علمت أنّ سببها انكشاف عملية كانت مقرّرة في الجنوب.

عندما عاد السيّد صادق حمل إليّ سلّة صغيرة من العنب من محصول كرمنا، وقد أوصته أمّي أن يوصلها كلّها إليّ، فتقاسمتها حينذاك مع الرفاق. كان الشعور باهتمام الأبوين بأولادهم في كلّ الظروف شعورًا منقطع النظير!

◻

فُرزت كعنصر في كتيبة الشهيد مدني، وتوجّب عليّ أن أذهب إلى السيّد أحمد موسوي وأخبره بذلك. استقبلني السيّد بوجه بشّ، وحين سألته: «سيّد بأيّ مجموعة سألتحق؟»، أجاب: «أنت مقاتل حرّ، ستبقى

1. هو واحد من أهالي منطقة «قره آغاج» في تبريز، وقد التحق بالحرس عندما كان طالبًا جامعيًّا. كان شديد الإيمان ودقيقًا فيما يتعلّق ببيت المال، بحيث كان يترك نصف راتبه للحرس لاعتقاده بأنّه يدرس ولا يقضي كلّ وقته في الحرس. لم يمضِ وقت طويل حتّى نال الشهادة في عملية مسلم بن عقيل.

2. بعد تعرّفي إلى كريم ستّاري في كردستان صرت أتردّد إلى مسجد التوحيد، واستمرّت هذه العلاقة لمدّة سنتين.

هنــا!». من الواضح أنّه أخـذ بالحسبان تجربتي في جبهة كردستان التي استمرّت خمســة عشر شهرًا. أصررت على الالتحاق بإحدى المجموعات فلـم يقبل. قلـت: «يا أخي، أريـد أن أعرف كيف هــي المواجهات هنا في الجنوب؟»، فأراحني جوابه حيث قال: «لقد قاتلت في كردستان، والحرب هنا أسهل بكثير من هناك!».

في أحـد أيــام آب الأخيرة من العام 1982م، قــال لي السيّد موسوي: «علينــا أن نذهــب إلى سومــار بأســرع وقــت». جهّزنــا أنفسنــا بسرعة وانطلقنــا بالحافلة نحــو «كرمانشــاه» و«إسلام آبــاد». وفي الطريق إلى إســلام آباد، التقــط الإخوة في الحافلــة الإذاعة العراقيّــة. ذُهلنا حين سمعنــا بيان الإذاعة العراقيّــة يقول: «ها هي قوّات لــواء عاشوراء الآن قــد ركبت الحافــلات متّجهــة إلى إسلام آبــاد للقيام بتنفيــذ عملية!». رحــت أضحك، فأنا نفسي لم أكــن أعرف إلى أين يــؤدّي هذا الطريق، لكــن الإذاعة العراقيّة كانت على علم وخبر بمسيرنا ومقصدنا. قلت في نفسي: «كيف يمكن القيام بالعملية هنا؟!».

بقينــا لثمانية أيّام في ثكنة «الله أكبر» في إسلام آباد، وهناك وضعوا برنامجًــا لتدريبنا على حرب الجبال. كانــوا عادةً ما يُخرجون العناصر مــن الثكنة ليلًا بعد تنــاول العشاء، ليسيروا أحيانًــا ما يقارب العشرين كيلومترًا حول الثكنة، أو ليتسلّقوا الجبال أحيانًا أخرى. وفي هذه الجبال كانــت تُنصب بعض الكمائن من قبل الأعداء، وكنّا أحيانًا نصطدم بها. فكنّــا على حــد تعبير بعضهم، نقــوم بمناورات حيــة، وأحيانًا نتوقّف في مكان مــا، فيعلّموننا معرفة الجهات بواسطة النجــوم. وفي تلك الفترة، أغــارت الطائرات العراقيّة مرّتين أو ثلاث مــرّات على المنطقة، ما أدى إلى سقوط عدد من الشهداء.

مــن هناك انتقلنا إلى منطقة قريبة من نهر «سومار» وتقع في مرمى

قذائف مدفعيّة الجيش العراقي، كما لم تدع صواريخ الطائرات الشباب يعرفون طعم الراحة أيضًا. بقينا ما يقارب العشرة أيّام في الخيام، وكنّا يوميًا في حالة تعلّم وتدرّب؛ تدرّب على تسلّق الجبال، قراءة الخريطة وما شاكل. حينها شاهدت خريطة للمرّة الأولى، وفيها رأيت لأوّل مرّة موقع تلّة «سلمان كشته»[1].

▫

برزت من السيّد أحمد برامج غير عاديّة. ذات يوم وأثناء المسير في المنطقة وصلنا إلى منحدر يتراوح طوله حوالي 70م. طلب من الرفاق التوقّف وقال: «ليضع كلّ واحد منكم يديه على رأسه ولتبدأوا بالشقلبة (التدحرج) الواحد تلو الآخر...». وقفت أفكّر هل أتشقلب أم لا، وجاء دوري.

- هيّا!

كان السيّد أحمد موسوي هو من أعطى الأمر. قلت بلهجة لطيفة: «سيّد! أنا أيضًا...!؟».

- نعم!

- لكن أنا ما زلت...

- لا! عليك أن تفعل! أسرع.

لم أستطع أن أخبره بصراحة أنّني مصاب، وأنّ بدني لم يتعافَ ويستعيد قوّته بشكل جيّد إلى الآن. وأُجبرت على وضع يديّ خلف رأسي و«التشقلب»... وازداد عذابي وأنا أتدحرج في ذلك المنحدر قرابة 60 الى70مترًا، ونفذت الأشواك من وراء الثوب في جسمي لينتشر الوجع في

1. تقع تلّة سلمان كشته في مرتفعات «سان وابا»، وكان مخفر سلمان كشته يقع عليها ويشرف على مدينة «مندلي» العراقيّة.

المواضـع المحروقة. في طريق العـودة كنت أتلوّى من الألم، وما إن وصلنا إلى مقـرّ الكتيبـة حتّى دخلت الخيمـة، ورفعت القميصـ مناديًا السيّد أحمد: «سيّد أحمد... تعالَ الآن وأزل هذه الأشواك من بدني!».

المسكـين، حين رأى ظهري تغيّرت نبرة صوته وقال بكلّ محبّة: «لِمَ لم تقل لي؟!».

– مـاذا كنتَ تريـدني أن أقول! أخبرتُك أنّني جريح بعض الشيء، لم تقبل!

مـع أنّ السيّـد كان منزعجًا، إلّا أنّـه أجاب جوابًا قويًـا: «لا ضير في ذلك! تبقى فتصبح أقوى!».

2

في أواخـر شهـر أيلول مـن العام 1982م حيث لم يبـقَ سوى يومين أو ثلاثـة على بـدء العملية، جـاء إليّ أخـي السيّد صادق مـع آخرين ومن جملتهم كريم ومحمود ستّاري - وهما أخوان - وقالوا: «هيّا بنا نذهب إلى البحـيرة»[1]. كان ذلك صباح يوم خريفـي، وقد مال الطقس إلى البرودة شيئًـا ما، لكنّنـي لم أرفض دعوتهم. كان الإخوة في تلـك الأيّام القلائل يذهبـون إلى هناك للاستحمام والسباحة في حـرّ الظهيرة. وصلنا إلى هنـاك مع اشتـداد حـرارة الشمس. مـا إن جلسنا على ضفّـة البحيرة وتهيّأنا للنزول، حتّى ناداني أخي صادق: «انظر هناك! أحدهم يغرق!».

– لا يا أخي!

– انظر ذاك الفتى يغرق!

حقًّـا ما كان يقول. فثمّـة شخص يصارع في المـاء، ويعلو ويهبط من

1 - كان جهـاد البنـاء قد أنشأ في تلك المنطقة سدًّا صغيرًا فـي مجرى نهر «سومار»، فتجمّعت الكثير من المياه في ذلك المكان، وهذا ما قصده الرفاق بالبحيرة.

دون أن يلتفت إليه أحد ممّن حوله. قفزت فورًا في الماء ووصلت إليه بسرعة. نزلت تحت الماء ورفعته من رجليه إلى الأعلى ليبقى رأسه فوق الماء. ما إن طفا المسكين على سطح الماء حتّى تعلّق بشعري ودفعني إلى الأسفل واستقرّ فوق عنقي. شربت الكثير من الماء؛ ومهما حاولت لم أفلح في إفلات رأسي من بين ذراعيه. بتّ الآن أنا من يغرق، ولم يعد بيدي حيلة سوى أن ألكمه عدّة لكمات على بطنه لعلّه يتركني. سحبته من الماء بصعوبة، إلّا أنّ أنفاسي كانت قد انقطعت، وقد شربت من الماء أكثر منه. أخرجنا بصعوبة الماء الذي شربناه. تعرّفت إليه، إنّه الأخ الأصغر لـ «محمّد رضا تشميدفر»[1]. أعرضنا مع هذه الحادثة عن فكرة النزول إلى البحيرة، وارتدينا ملابسنا وغادرنا المكان.

بدأ مقرّ الكتيبة يتراءى لنا شيئًا فشيئًا. كنّا نسير في الطريق الترابيّة المؤدّية إلى المخيّم والتي غالبًا ما تسلكها الآليّات، لعلّنا نجد من يقلّنا. لكن أينما جلنا بنظرنا، رأينا الإخوة يتوجّهون نحو التلّة مشيًا على الأقدام. مرّت لحظات، وإذ بغبار يتصاعد في المكان. لقد جاءت سيّارة التجهيزات تنقل قدور الطعام الكبيرة إلى القوّات. كان السائق من أهالي «مراغه»، توقّف على مسافة أمتار أمامنا لنركب السيّارة. ما إن وصلنا إليها حتّى اعتلاها الإخوة من كلّ مكان وتعلّق كلّ منهم بمكان فيها. ركب صادق أيضًا في المؤخّرة، ولم يبق سواي! ناداني السائق: «تعال يا سيّد واركب أنت أيضًا!».

– أين أركب، لم يبقَ أيّ مكان فارغًا!».

أراد السائق أن يُرجع الإخوة الذين جلسوا في المقدّمة إلى مؤخّرة السيّارة، فلم أرضَ وقلت له: «اذهب أنت، أريد أن أذهب مشيًا!». حين رأى أخي أنّني لم أركب، ترجّل فورًا من السيّارة، وهكذا فعل كريم

1- هو من قدامى العناصر الآذربايجانيّين الذين قاتلوا في «سوسنكرد» و«بستان»، ومن عداد الباقين في تلك الملحمة الكبرى.

ستّــاري، وانطلقت السيّارة. إضافــة إلى ثقل قدور الطعام المملوءة، فقد تعلّــق بالسيّــارة ما يقــارب الثلاثة عشــر شخصًا، فكانت تصعــد التلّة بصعوبــة. بعــد دقائق قليلة، سمعنــا هدير الطائــرات العراقيّة. كنّا قد وصلنــا إلى أعلــى التلّة، ولا يفصلنا عن مقــرّ الكتيبة أكثر من 800 متر. كانــت السيّارة تســير في أرض سهلة ولمّا تصل إلى هنالك بعد، ما جعلها هدفًــا سائغًــا للطائرات التي اتجهت إحداها نــزولًا. أطلقتُ صرخة من الأعماق: «تريد أن تقصف السيّارة!».

ركضت مسرعًا، لكن في ظرف ثوانٍ قليلة، أطلقت الطائرة صاروخًا، فتطايــرت السيّارة وتناثر كلّ شيء أمــام أعيننا؛ الإخوة، قدور الطعام، العجلات... حين وصلنا وجدنا أشلاء الإخوة متناثرة. انقبضت أحوالنا. كان الطعام يومها عبارة عن «الآش»، وأزعجنا كثيرًا المنظر الذي رأيناه أمامنــا... من بين كلّ الإخوة، لم يبقَ حيًّا سوى مسؤول التجهيزات الذي بُترت ساقاه وتمزّقت أحشاؤه، فنُقل إلى الخطوط الخلفيّة. لملمنا الأشلاء قدر الإمكان. بعد ساعة جاءت جرّافة من الكتيبة، وطمرت بقايا السيّارة ومخلّفات الانفجار بالتراب، وذلك حتّى لا تضعف معنويّات الإخوة جرّاء النظــر إلى ذلك المشهــد. في اليوم نفسه سمعنــا أنّ الناجي الوحيد من تلك الحادثــة نال الشهادة وهو في طريقه إلى غرفــة العمليات[1]. شاءت القــدرة الإلهيّة أن أنجو وصادق حينها مــن القصف، وأن نشهد شهادة رفاقنا المجاهدين. والله وحده كان يعلم ماذا سيحلّ بنا بعد أيّام!

◘

مُــدّت خريطة العملية من أجل الشــرح والتوضيح، وهذا يدل على أنّ موعــد تنفيذ العملية صار قاب قوسين أو أدنى. تقرّر أن نكون في منطقة

---

1 ـ أعتقــد أنّ تلــك السيّارة تعود لكتيبة الشهيد صدّوقي، وكان مســؤول التجهيزات فيها الأخ قربانعلي بجاني الذي نال الشهادة أيضًا.

العملية قبل يوم من تنفيذهـا، لذا تهيّأنا للمسير. وبينما نحن متوجّهين إلى آليـات الـ«إيفا»، كانت مشاهدة أحوال الإخـوة أمرًا جديدًا بالنسبة إليّ؛ هـا هـم يحتضنـون ويودّعـون بعضهم البعض بالبـكاء والنحيب والدعاء، ولم أكن قد رأيت مثل هذا الأمر في كردستان أبدًا.

في النهايـة، توجّهنا إلى منطقـة العملية في 29 أيلـول العام 1982م. بقينـا نمشـي لساعات ولم نعلم بأنّنـا قد ضللنا الطريـق. توقّفت آليات الـ«إيفا»، وترجّل بعض الشباب ليستطلعوا المكان، لكن ما لبثوا أن عادوا وأخبرونا بأنّنا صرنا على مقربة من القوّات العراقيّة! كان بعض الإخوة قد ترجّلوا مـن الآليات لقضاء حاجة من دون أن يعلموا بشيء، والقوّات العراقيّـة المتمركـزة في التلال المحيطـة تشرف على المـكان بشكل تامّ، بحيـث يمكنها رؤيتنا جيّدًا عبر المناظير الليليّة. فجأةً، بدأ وابل النيران ينهمـر علينا من كلّ مكان. انسحبـتْ بسرعة كلّ سيّارة استطاعت ذلك من دون التفكير فيمن ترجّل منها. كانت صواريخ الكاتيوشا والرشاشات تعمـل بلا توقّف، فانسحبنا في جنـح الليل من تلك المنطقة مستائين من هذا الخطأ الذي حصل.

كانـت الخطـوط الدفاعيّة لمنطقة سومـار متباعدٌ جـدًّا بعضها عن بعضٍ، وقـد قطعنا مسافة طويلـة حتّى وصلنا إلى أحـد تلك الخطوط. أخـيرًا بلغنا المحـلّ المقصود، وبتنـا باقي ليلتنا في الخيـام التي نُصبت هنـاك. في الصباح، أُبلغنا بأنّه سيتـمّ إرسالنا بعد صلاة الظهر وتناول طعـام الغداء إلى منطقة أخرى. كان لصـلاة الظهر أجواؤها الخاصّة، فقـد اتّخـذ كلّ فرد ناحيـةً وراح يصلّي ويناجي ربّه بحالـة من الخشوع والخضـوع، ثمّ وزّعـوا على كلّ منّا علبتين من السمـك المعلّب، فأعطيتُ واحـدة لأحدهم، وتناولـت قليلًا من الثانية. وعند حلـول موعد الغداء، وإذ أردت أن آكل مـا تبقّـى مـن السمك المعلّب، وجـدت النمل قد هجم عليـه! ولم أستطع أن آكله. في هذه الأثناء، جـاء إليّ «أصغر غربي» وقد

التفت إلى ما حدث، ففتح علبته وقاسمني إيّاها.

عند قرابة الثانية والنصف ركبنا الآليّات وسرنا في طابور. كان قد جرى التخطيط من قبل، بأن تتوقّف الآليّات في ثلاث أو أربع محطّات لاستراحة العناصر، هيأوا فيها من قبل الماء والطعام والفواكه المعلبة. توقّفت آليّتنا في أحد المحاور بالقرب من نهر صغير، فأدّينا صلاتي المغرب والعشاء. وبعد تناول الطعام، تفرّق الإخوة. البعض يصلّي، وآخرون يقرأون القرآن والأدعية بخشوع، وبقية يوصون بعضهم بعضًا الوصايا الأخيرة. اشتدّ أنين البعض ونحيبهم، أمّا أنا فكنت غريبًا عن ذلك العالم. أساسًا، لم يكن يروقني طلب المسامحة ومثل هذه الأمور. ربّما كنت قاسي القلب بعض الشيء.

سرعان ما بدأنا مسيرنا الأخير نحو منطقة العملية[1]. كانت ليلة مقمرة، بل أضاء نور القمر البهيّ كلّ مكان، وبفضله لم يصطدم أحد بأحد خلافًا لما كان يحدث سابقًا؛ عندما كان الإخوة يصطدمون ببعضهم من شدّة الظلمة وهم يسيرون على شكل طابور. وصلنا إلى منطقة يمكن فيها سماع أصوات العراقيّين في ذلك السكون. وهناك، حان وقت الوداع ليتفرّق بعده الإخوة ويذهب كلّ منهم إلى محور محدّد. كنت جائعًا فشاركت اثنين من الإخوة طعامهم. تناولت لقيمات، وانفصلت عنهم بوداع سريع. بدأ تحرّكنا الأخير. وما إن سرت قليلًا، حتّى سمعت أحدهم يناديني: «نور الدين... نور الدين!».

إنّه صوت أخي صادق، الذي كان يسير إلى جانب الطابور بحثًا عنّي ويناديني. لكنّني لم ألتفت! وانزعجت أيضًا لأنّه لم يراعِ الحيطة في تلك المنطقة التي يمكن أن نسمع فيها صوت العراقيّين. حين عثر عليّ قال: «يا مسهّل! نحن أخوان، ونريد أن نذهب إلى العملية، وسوف نفترق...

1. بدأت عملية مسلم بن عقيل بنداء «يا أبا الفضل العبّاس»، فجر 1982/10/1م، في جبهة غرب «سومار» والمرتفعات المشرفة على «مندلي».

دعنا على الأقلّ نودّع بعضنا!».

لم تستطع كلماته أن تليّن قلبي: «حسنًا، الجميع ذاهبون إلى العملية، لِمَ الوداع؟! هناك أيضًا سنلتقي!».

ومهما فعل لم أودّعه. كنت أعتقد بأنّه لا حاجة للوداع، وأنّنا نسير في هذا الطريق معًا. عند سماعه كلامي، ذهب والتحق بطابوره، وتابعنا نحن أيضًا مسيرنا. وصلنا إلى مكان يشبه الوادي، سبق وزرعه العراقيّون بالألغام، وطهّر الإخوة قسمًا منه ليُجعل معبرًا. تقدّمتْ من خلاله إحدى الكتائب وعبرت، وبقينا نحن بانتظار أن يُفتح معبر آخر. كنّا هناك بمحاذاة تلال «سلمان كشته»[1]، في منطقة تقع أعلى «نفت شهر». وفيما فرقة الهندسة تعمل على فتح المعبر، بدأت الاشتباكات مع الألوية الأخرى الموجودة في أطراف تلال سلمان كشته.

من مكاني رأيت جيّدًا الضابط العراقي وهو يصيح في وجوه قوّاته! كان الهدف من العملية احتلال تلّة «سلمان كشته»، الأمر المحال الذي تقرّر أن يصير ممكنًا على أيدي الشباب الغيارى. فجأة، وفي تلك اللحظات، عمّ ضباب كثيف المكان، فلم نعد نرى أمامنا. راح العراقيّون يطلقون القنابل المضيئة، ما مكّن الإخوة من إتمام عملهم تحت نورها. كنّا نرى الإمداد الغيبي بأمّ العين.

أعطاني السيّد أحمد موسوي الأمر بالتحرك، وكنت من العناصر الحرّة في الكتيبة: «لقد تمّ قطع الأسلاك الشائكة، ابدأ بالمواجهة لإلهاء القوّات العراقيّة». كان من المقرّر أن نقوم بإلهاء العدوّ ليتمكّن باقي الإخوة من الصعود من السفح إلى أعلى التلّة، وقد أكّد السيّد أحمد

1. المجاهدون الذين شاركوا في مواجهات «سلمان كشته» يعلمون جيّدًا ما هي طبيعة المنطقة. يومذاك، لم تكن القيادة نفسها تصدّق بأنّنا سنسيطر على هذه التلة. الحقيقة أنّ العراقيّين جّهزوا التلّة بإمكانات وتجهيزات كبيرة للحؤول دون إمكانية السيطرة عليها؛ فالتحصينات القويّة، وعربات الشيلكا، والدبّابات و.. جعلت شبه المستحيل تحقق ذلك. أساسًا، إنّ أيّ عملية تهدف إلى احتلال تلك المنطقة لم يكن من الممكن تنفيذها من دون الدعم الناري.

علينــا بأن نعمل على أن تبقى نــيران العدوّ موجّهة إلينا. تقدّمت و«أصغر غربي» وشخصٌ آخر يُدعى «أسد» من الناحية التي قُطعت فيها الأسلاك الشائكــة، ولم يكن للعراقيّــين أيّ أثر. تقدّمنا أكــثر، وكان بيننا وبين تلّة «سلمــان كشته» الرئيسيّــة ثلاث تلال صغيرة. عبرنــا الأولى من دون أن يرانا أحد. وصلنا إلى الثانية وصعدناها ولم يلتفت إلينا أحد كذلك.

– فلنذهب باتّجاه الثالثة!

– لقد اقتربنا كثيرًا! من غير الممكن أن لا يرونا!

كان أصغــر وأسد يميلان لأن نبــدأ بالمواجهة من مكاننا. فيما رجّحتُ أنّنــا كلّما تقدّمنا أكثر سيصبح الأمر لمصلحتنا، لكنّني بالنهاية وافقتهما الــرأي. تموضعنــا في مكاننا، ورحنــا نتناقش بأيّ سلاح نبــدأ مواجهتنا؛ ففــي حوزتنا رشّاشــ*، وكلاشينكــوف، و(B7)، وحُسم القــرار بأن نبدأ بهــا جميعًا. قلنا بســم الله وبدأنا الرمــي. ردّ العراقيّــون علينا مباشرة؛ بالثنائــي**، والرشاش، وحتّى بالقذائــف المدفعيّة! أصبحت الأوضاع غير عاديّــة. نحن نفتقــد أيّ مكان محصّن، وكنّا نرمي عليهــم من أعلى التلّة لإلهائهــم فقط، لــذا صرنا هدفًا لجميع أنواع الأسلحــة. كان من الواضح أنّ خطّتنــا قد نجحت، وما هي إلّا دقائق حتــى بدأنا نسمع أصوات تكبير الإخــوة الذين صعدوا التلّة، واشتبكوا مــع العدوّ من الناحية الأخرى. لقد بدأت المعركة الأساسيّة. قلت: «قوموا بسرعة، علينا أن نهجم نحن أيضًا!».

– يا عم، إنّهم يرمون علينا، ما هذا الذي تقوله؟!

– لا، إنّ كلّ اهتمامهــم الآن منصــبّ علــى تلــك الناحيــة. مــن الآن فصاعدًا إن رمى علينا أحد ستكون قوّاتنا هي التي ترمي!

تحرّكنــا بسرعــة، وعندما وصلنــا إلى مواقع العراقيّــين، رأينا الإخوة

---

* – سلاح من صنف الBKC أو ما يشبهه، وكثيراً ما يرد في الكتاب بهذا العنوان (رشاش).

** – مدفع رشاش متوسط يستخدم مضاداً للطائرات أيضاً له فوهتان.

مشتبكين معهم من الناحية الأخرى. فبدأنا نحن بتطهير الدشم من ناحيتنا. كانت في الموقع الأوّل دبّابة لا تزال سليمة وتشكّل غنيمة كبرى. قلت: «لا تفجّروها!»، لكنّ أحد الإخوة لم يلتفت وألقى بداخلها قنبلة يدوية و... توجّهنا نحو الموقع الثاني. كان موقع الاشتباك يبعد مسافة عن موقع تلّة «سلمان كشته» الرئيسيّة. غاية الأمر، أنّنا بالاشتباك والتطهير كنا نتقدّم نحو الأعلى. ابتعدتُ عن الإخوة حتى وصلتُ إلى جانب دشمة وسمعت منها صوتًا يدل على عدم خلوّها. مباشرة رميتُ قنبلة يدوية في الداخل وابتعدت. وما هي إلّا ثوان حتّى انفجرت وتطايرت في الهواء. علمنا أنّها كانت دشمة الذخائر، وأحدثت الانفجارات المتتالية في مدّة زمنيّة قصيرة صدمة للأعداء، والإخوة لا يزالون أيضًا يقاتلون ببسالة ويتقدّمون. كان الأمر بمنزلة إطلاق ألعاب ناريّة معتبرة، وملأت المنطقة أنوار الانفجارات المتتالية. من الواضح أن العدوّ لم يكن يتحلّى بروحيّة المقاومة.

- بقي مدفع فاصل ثنائيّ فقط يشكّل مصدر إزعاج للإخوة!

قال أحدهم ذلك، فانطلقنا معًا لإسكاته. كنّا تقريبًا وراء الثنائي الذي يشرف على المكان ويمنع الإخوة من التقدّم، كما كان هناك اثنان أو ثلاثة من العراقيّين يرمون. ناديت من الخلف بصوتٍ عالٍ: «فليأتِني أحدكم بالـ(B7) لأضرب هذا الثنائيّ»[1]. بالطبع، لم يكن أحد إلى جانبي، لكنّني أردت بذلك إسماع العراقيّين وحثّهم على الاستسلام! وهكذا، فقد سمعوا ما قلت، وخرج أحدهم من الدشمة وتوجّه نحوي. اقترب منّي كثيرًا، وحين صار على مسافة أقدام منّي أردت أن أرمي عليه، لكنّ الكلاشينكوف لم يعمل. جرّبت ثانيةً، لكنّه استعصى! والعراقيّ يتقدّم نحوي بهدوء. حرت ماذا أفعل. يا إلهي، لقد استخدمت كلّ القنابل التي بحوزتي. كان شكله في تلك اللحظات مثيرًا للرعب: بنيته كبيرة،

1 - بير نفر آر بي جي كتيسين من بو دولولى ووروم!

ويحمل في يده سكّينًا. تركت السلاح ولذت بالفرار! رحت أعدو وهو يعدو خلفي. لم يكن أيٌّ من الإخوة موجودًا في تلك الناحية، وأدركت حينها أيّ خطأ ارتكبت حين ابتعدت عنهم. استجمعت كلّ طاقتي في رجليّ ورحت أركض. كنت أسمع صوت أنفاس العراقيّ من خلفي، لكنّني لم أجرؤ على الاستدارة. في تلك الأثناء، أطلق العراقيّون القنابل المضيئة، فوقع نظري في ظلّ نورها على قذيفة (B7) مرميّة على الأرض قد رُكّبت حشوتها الدافعة أيضًا. وفي لحظة، التقطّتها واستدرت نحوه وضربته بها على رأسه. فأصيب بدوّار! ضربته بقوّة حتى انفصلت أجزاء القذيفة عن بعضها البعض. لكنّني تابعت فراري أيضًا، لأنّ ذلك المخلوق الذي رأيته لم يكن ليسقط جرّاء تلك الضربة. تقدّمت قليلًا، فرأيت أحد الإخوة، صحت به: «ارمه...»[1]، ورماه أخيرًا.

حين سقط أرضًا، وقفت وتنفّست الصعداء. وهذه المرّة ذهبت مع عدد من الأشخاص إلى موقع الرشّاش الثنائي، وأسكتناه برمي قنبلة يدوية عليه. زاد انسحاب العراقيّين من معنويّات الشباب. كنت ذاهبًا إلى مكان الاشتباك حين التقيت بأصغر غربي. قلت له: «كم أشعر بالنعاس!»، قال: «اذهب ونم في واحدة من هذه الدشم!».

– سأنام، لكن إيّاك أن تبتعد من هنا! فقد يخطر فجأة على بال أحد شبابنا تطهير الدشمة ويرمي عليها قنبلة!

– كن مرتاح البال، سأبقى في هذا المحيط!

وضعت رأسي على تراب الدشمة ونمت...

استفقت على صوت أكبر وهو يقول «حان وقت الصلاة». تبيّن لي أنّني نمت قرابة الساعتين. صلّيت الصبح، واشتدّت الاشتباكات. لقد شنّ العراقيّون هجومًا مضادًّا واضطربت المنطقة. كنت أفكّر في أخي السيّد صادق، وإذ بالسيّد أصغر يناديني: «أحدهم يبحث عنك».

1- بوني ورون...

- من كان؟
- لا أدري! كان فتىً يافعًا. ولأنّك كنت نائمًا لم أدعه يوقظك!
- من أيّ جهة ذهب؟

أشـار إلى مضيق (معـبر) وقال: «من هنا». ذهبـت في ذلك الاتّجاه فلمحـت من بعيد أخي السيّـد صادق قد جلس في فوّهة المضيق. اقتربت إليه من الخلف، فوجدته يأكل الإجاص المعلّب، ومن دون أن أتفوّه بكلمة، سحبت العلبة من يده. نظر خلفه، ولمّا رآني فرح كثيرًا. كنّا فرحين لكوننا ما زلنـا سالمين. كان معه بعض البسكويت، فرحـت آكل منه وأنا واقف، فقال لي: «اجلس على الأقلّ يا أخي، وكُل!».

- لا تخف، وهل يوجد خطر هنا؟
- ألا ترى كلّ الرصاص يأتي إلى هذه الناحية؟!

جلسـتُ بجانبـه، ثـم التحقنـا بعد دقائـق بجمـع الإخـوة. استعاد العراقيّـون في هجوم معاكس التلال المجـاورة لـ«سلمان كشته»، ثمّ بدأوا قرابـة الحادية عشرة ظهرًا هجومًا آخر بالدبابات من جهة «نفت شهر» لاستعـادة تلّة سلمان كشته، إلّا أنّ مقاومـة الشباب الباسلة منعتهم من تحقيـق أهدافهم. إلى ذلك الحـين، لم يكن إسنـاد مدفعيّتنا قد صدّق بأنّنـا سيطرنا على التلّـة [1]، وظلّ دومًا يطلب منّـا الانسحاب، ويقصف المنطقة بشكل عنيف، ما تسبّب بخسائر في صفوفنا أيضًا!

في الواقـع، كنّا في تلّة «سلمان كشته» عرضة لنيران العدوّ والصديق، ووقعنـا تحت ضغط شديد؛ وكانت الأوضاع غير عاديّة وأخبار استشهاد الرفـاق تصلنـا باستمرار. في تلك الأثنـاء، أتى مسـؤول المحور «حبيب باشايـي» لتفقّد أحـوال الإخوة والاطّلاع على ظـروف المنطقة عن كثب. لكـن في طريق العودة قُصفتْ سيّـارة الإسعاف التي أتى بها إلى منطقة

1. كانـوا يظنّـون أنّنـا عراقيّـون؛ وأننا من أجـل تضليلهم نتكلّـم الفارسيّة ونرسل لهـم برسائل أن لا يقصفوا المنطقة هناك.

العملية، فارتفع شهيدًا إلى جوار ربّه[1].

غـدت المواجهـات تشتدّ كلّ لحظــة. ظهرًا، طلبتُ مــن السيّد صادق الانسحــاب، فمــا دام موجودًا هناك، كنت أفكّر فيــه ولا أستطيع القيام بعملــي جيّدًا. بعد ساعة، ولمّا سقطت كلّ التــلال الصغيرة المحيطة بتلّة «سلمــان كشتــه»، جاء الأمــر بالانسحــاب إلى خطوط خلفيــة حدّدوها مسبقًــا، لنقــوم بتنفيــذ المرحلة الثانية مــن العملية من أجـل السيطرة مجدّدًا علــى التلّة. كما أُصدرت الأوامر للجرحــى ممّن كانت جراحهم سطحيّــة، بمساعدة الجرحى الذيــن لا يستطيعون الحــراك بأنفسهم، ونقلهــم إلى الخطــوط الخلفيّة. قضت الأوامر بــأن لا يُخلى الخطّ دفعة واحــدة، وأن تستمــرّ المقاومة ريثما يُستكمل بنــاء السواتر الترابية. دام هذا الأمر إلى قرابة الثالثة بعد الظهر، ليبدأ الانسحاب التامّ. وفي هذه الأثنــاء، وصلت قوّات العــدّو إلى أعلى تلّة سلمان كشته، وأخذت تمطرنا بوابـل نيرانهــا. والرصاص الطائش يضرب بالأرض مــن حولنا، ويثير الغبار في الهواء.

– نور الدين... سيّد نور الدين!

نــاداني أحدهم ونحــن ننسحب: «يا فتى! دخلت في حقـل الألغام!». أصابني الذهول.

ألقيت نظرةً من حولي فوجدتني في حقل ألغام.

– سامحك الله! الآن تقول لي!

كان رصاص العراقيّين ينهمر علينا مــن دون توقّف، وأنا محاصر لا أستطيــع التقدّم إلى الأمام أو التراجــع إلى الخلف. وجب عليّ أن أقرّر، وقــرّرت. سمّيت باســم الله وعدت من حيث أتيــت. لم يكن بيدي حيلة. أيمكــن أساسًــا أن يشكّل اجتياز حقـل الألغام خطرًا أكـبـر من الوقوف

1. بقــي جسد الشهيد حبيــب باشايي هناك لسنوات، وعُثر عليه لاحقًا فــي عملية التقصّي عن أجساد الشهداء، فأُعيد إلى تبريز ودُفن في مقبرة وادي الرحمة.

تحت زخّات الرصاص والقذائف والصواريخ والشظايا!؟ في كلّ دقيقة كانت عدّة رصاصات ترتطم بالأرض، لكنّني تابعت طريقي غير مكترث لها. ومع أنّني كنت قلقًا في تلك الدقائق من انفجار لغم تحت قدميّ، إلّا أنّ اللّه قدّر لي أن أخرج من وادي النيران ذاك سالمًا. في حقل الألغام ذاك، دست فقط على لغم مضيء، لم يكن له أيّ تأثير في ضوء النهار. وصلتُ إلى ساتر ترابي وأنا أشعر بلطف العناية الإلهية.

كنت قد أوصيت صادق بأن ينتظرني عند الإخوة في «برمنديه»، فَرُحْتُ أبحث عنه، وسرعان ما وجدته. وجدته على ما يرام، يتناول مع أصدقائه السمك المعلّب والبطيخ، وقد استقبلوني بحفاوة. بعد ساعة، انسحبتُ ومن بقي من عناصر كتيبة الشهيد مدني إلى الخلف. لقد حلّ الليل، وكنّا نعلم أنّه ستنفّذ في الغد عملية لاستعادة تلّة «سلمان كشته».

◘

في الصباح علمنا أنّه سيلتحق بكتيبة الشهيد مدني حوالي 85 عنصرًا قدموا للتوّ من تبريز. فقد أوكلت مسؤوليّة قيادة الكتيبة إلى الأخ «صادق آذري» بعد إصابة السيد أحمد موسوي في المرحلة الأولى من عملية «مسلم بن عقيل»، وقيل لنا إنّه سيُعاد تنظيم الكتيبة من جديد عند الثانية ظهرًا، وننطلق مجدّدًا للهجوم على تلال سلمان كشته. كان لدينا حتّى الظهر وقت للراحة. نمت ذلك اليوم بعد صلاة الصبح نومًا عميقًا إلى أن أيقظني الإخوة قائلين: «قم، لقد حلّ الظهر!». استيقظت فرأيت مائدة الغداء قد مُدّت. تناولت القليل من الطعام وخرجت. منذ انسحابنا بالأمس بتلك الطريقة وأنا أبحث عن فرصة لأغسل ملابسي التي امتلأت كلّها بالدماء، لكن التعب قد أخذ منّي كلّ مأخذ، وها أنا الآن قد استعدتُ قوّتي ونشاطي. ناديت صادق وقلت له: «أريد أن أذهب لغسل ملابسي». فرافقني كعادته. انطلقنا نحو أرض مسوّرة حيث توجد حفرة تجمّعت المياه فيها، وقد احتشد الشباب هناك للاستحمام وغسل

الملابس. كنّا كلّما اقتربنا من الماء، ازدادت حرارة الرمال تحت أقدامنا. فجأةً، ظهرت طائرة عراقيّة في سماء المنطقة، خطر ببالي أنّها جاءت لتقصف المكان. قلت لصادق: «ستقصف هذا المكان الآن!».

- هل أنت خائف؟

- لا، لكن..

وكنت قد سمعت أنّه في كلّ قصف واسع النطاق، تأتي في البدء طائرة وتضع إشارة على المنطقة المراد قصفها، ثمّ تأتي طائرات أخرى وتقصف المكان. سرح فكري في السماء، وأنا أنظر في المشهد أمامي، والمكان مزدحم بالناس. عدد كبير من شباب طهران داخل الماء، كما كان بعض مجاهدي تبريز في تلك النواحي.

إلى جانب البركة عالمُ دين يتحدّث إلى بعض الإخوة. ما زلت أذكر إلى الآن حرارة الرمال تحت قدميّ. قلت للسيّد صادق: «لا تخف! تعالَ نغسل ملابسنا..». وفيما كنت أنظر في الدماء التي تجمّدت على ملابسي، أحسست فجأة بأنّني أترنّح، وكأنّ دوارًا أصابني، ورحت أدور حول نفسي... كنت أدور وأحسّ بالشظايا الحامية تخترق بدني الواحدة تلو الأخرى... الغريب أنّني لم أشعر بأمر سيّئ. بل أحسست بأنّني أسبح في فضاء ساخن ومبهم... ثم وقعت أرضًا على وجهي. لقد اختلطت الأصوات والروائح وطعم التراب والدماء... وفيما كنت أسقط حاولت جهدي أن أعرف ما الذي حصل. رفعتُ رأسي بصعوبة بالغة عن الأرض، لم أرَ شيئًا. رفعت يدي لأمسح الدم والتراب عن عيني، فغرقت يدي في وجهي! لقد تبلّلت أصابعي بسائل دافئ ومائع، وهوى قلبي من مكانه. أوَيمكن أن يكون وجهي قد سُحق؟ للوهلة الأولى فقدت الأمل في عيني اليمنى، فيما كانت عيني الأخرى ممتلئة دمًا بحيث لم أعد أستطيع رؤية ما حولي. استجمعت كلّ قواي في أصابعي لأمسح الدماء عن عيني، أردت معرفة ما حصل، ويحصل. بعد جهد جهيد أزلت الدم والتراب

عنهـا، وما رأيته في اللحظـة الأولى، بدا لي وكأنّه ضباب، عاصفة رمليّة وصلَتِ الأرض بالسماء. كنت أسمع أصوات الشباب، وأرى الخيام تتفجر وتتطايـر في الهواء. تذكّرت حينهـا أنّ ذخائر الأفراد كانت في خيامهم، فـزاد انفجارها النـيران أضعافًا مضاعفة. ارتفـع الصراخ والأنين من داخـل الماء، والأرض تهتزّ من حولي. كنـت واعيًا بعض الشيء لكنّني لم أستطـع إبقاء رأسي مرفوعًا... فجأة، أحسست وكأنّ صاعقة صدمتني، تذكّـرت أنّنا كنّا نفرين؛ أنا وأخي صـادق. وهنا حاولت النهوض للبحث عـن صادق. يعلـم الله أيّ مشقّة كابدت وأيّ حالة عانيتهـا لأرفع رأسي بحثًـا عن أخي... رأيته ملقىً إلى جانبي مباشرة. وقع نظري في البداية علـى رجله، رأيتها قد جُرحت وأُدميت، ثمّ رحت أمرّر نظري صعودًا إلى سائر أنحاء جسده إلى أن وصلت إلى وجهه؛ لقد تدفقت الدماء من فمه كنبـع صغـير، ما جعلني أفقد الأمـل ببقائه على قيد الحيـاة... كأنّ كلّ شيء قد توقّف! كان صادق ساكنًا، فتيقّنت أنّه استشهد... فقدت وعيي، كنـت أنتظر اللحاق بصادق وباقي الإخوة. لم أعد أرى شيئًا لكنّني كنت أسمع أصواتًا تتكرّر على مسمعي، وتأخذني معها إلى فضاء غامض...

- انقلوا هذا!
- هذا استشهد... خذوه...
- فليأتِ أحدكم للمساعدة، هذا لا يزال حيًا...

3

عندمـا استعدت وعيي، سمعت صوتًـا عاليًا وغير مألوف بالنسبة لي شغل كلّ تفكيري. استغرق الأمر لحظات حتى استجمعت حواسي وفهمت أنّنـي داخل مروحيّة. ومـن شدّة النزف والجرح كنـت أغيب عن الوعي وأصحو، وعندما أفتح عينيّ أجد نفسي في مكان مختلف عن الآخر!

ومرّة أخرى استعدت وعيي. وجدتني موضوعًا على حمّالة وينقلونني

داخل كبينة. ثم غبت عن هذا العالم!

◘

بعد ثلاثة أيّام استعدت وعيي على سرير المستشفى. طال الأمر حتّى انتبهت إلى أنّ أكثر المواضع في جسدي قد ضُمّدت؛ بطني، يدي، رجلي، ووجهي. وبصعوبة بالغة، سألت الممرّضة التي كانت في الغرفة: «أين أنا؟»، أجابت: «في مستشفى كرمانشاه.. لقد أُجريت لك عمليّة. بل عدّة عمليات... وأنت فيها جميعًا في غيبوبة...».

كنتُ مشتّتَ التفكير، وما زلت لا أعي جيّدًا ماذا حصل لي. شيئًا فشيئًا علمت أنّني أُصبت بما يقارب الـ 24 شظيّة من تلك القذائف العنقوديّة، وبعض هذه الشظايا أصابت المكان نفسه ما تسبّب بجراح عميقة؛ فخضعت لعمليات جراحيّة متكررة في كلّ من بطني ورجلي ويدي ووجهي، وقد فهمت ذلك تدريجيًا. كانت يدي العضو السليم الوحيد في بدني، وحالي سيّئة، ويغمى عليّ من وقت لآخر. في ذلك اليوم قالت الممرّضة إنّه سيتمّ نقلي إلى تبريز. لم يكن عقلي يعمل جيّدًا، أحيانًا كنت أتذكّر صادق وأقول: «أين هو صادق الآن؟».

ليلًا، كنت في تلك الغرفة نفسها. لم يكن الزمن يمرّ عليّ بنحو منتظم. لم أعلم كم مضى من الوقت، كلّ ما أذكره هو أنّ الوقت كان ليلًا، عندما استفقت ووجدت نفسي في المطار، أُنقل إلى الطائرة. كان الأشخاص الذين ينقلونني على الحمّالة يتحدّثون الفارسيّة، من لهجتهم عرفت بأنّهم طهرانيّون. سادت جلبة كبيرة داخل الطائرة. فوضعوا حمّالتي فيها، فوق أحد الرفوف التي نُصبت وذهبوا. بات صوت المحرّك يؤذيني، والعطش يضجرني أكثر من أيّ جرح. كان الطبيب أوّل من جاء لتفقّدي. سألني: «كيف الحال؟»، وبصعوبة بالغة أجبت: «جيّدة، لكنّني أريد أن أشرب». فقال: «لقد أُجريت لك عمليّة في بطنك ولا يمكنك الشرب».

– بالحدّ الأدنى، بلّلوا لي شفتيّ... أنا عطشان يا عميّ...

كنت فعلًا ألتهب مـن شدّة العطش، فبلّل قطنة صغيرة ووضعها على شفتيّ، وكان ذلك غنيمة كبرى بالنسبة لي.

اهتزاز الطائـرة، ونورها الضعيف، والأمصـال المعلّقة فوق الأسرّة، وأنـين الإخوة الذين كانت أحوال معظمهـم سيّئة... في ظلّ هذه الأجواء سمعنـا صوتًا يقول: «وصلنـا إلى مطار تبريز». ثم ما لبثـوا أن قالوا إنّ المنـاخ غـير ملائم هناك ولا نستطيـع الهبوط! فطالـت رحلتنا الجويّة. ارتحت قليلًا لأنّني لم أعد مضطّرًا لرؤية والديّ بهذه الحال وبعد شهادة صادق. ظننت أنّهم لا بدّ متجهون إلى طهران. فقدت وعيي مرّات عدّة، وفي كلّ مرّة أستعيد فيها وعيي كنت أرى أنّنا ما زلنا في الطائرة. أخيرًا، سمعنـا صوتًا يقول: «وصلنا إلى مطار مشهـد». كنت حينها نصف واعٍ، وحـين سمعت باسم مشهد، قلت في نفسـي: «خيرًا حصل، لقد أتينا إلى مكان جيّد...».

وفيمـا كنت على الحمّالة، علمـت من حديث الـكادر الطبّيّ أنّني في عـداد الجرحى السيّئـي الحال، لكنّني بِتُّ أعلم بعـد تجربة الإصابة في كردستان، أنّني لن أموت بهذه السهولة! نُقلت مع الجرحى الآخرين إلى مستشفى الإمام الرضا عليه السلام. وما إن وصلت إلى المستشفى حتّى أُدخلت إلى غرفة العملية، فخُدّرت وأجريت لي عمليّة جراحيّة.

▫

عندمـا فتحت عينـيّ وجـدتُ نفسي وحيـدًا في إحدى الغـرف. كان الممرّضـون يراقبونني على مدى 24 ساعـة، والطبيب يتفقّدني من وقت لآخر. لم يكن يُسمح لأحد بالدخول إلى الغرفة سوى الطبيب والممرّضين الذيـن يتناوبون على تمريضي. فيما بعد علمت أنّه توجد في هذا القسم سبع أو ثماني غرف عزل على غرار غرفتي، وقد نقلوا إليها من الجرحى من كانت أوضاعهم سيّئة. كان على الممرّضين أن يغيّروا ضمادات جراحي كلّ يوم. مرّت الساعـات ثقيلة عليّ؛ فمن جهة كنت مغمومًا لشهادة أخي

صادق، ومن جهة أخرى، أكابد آلامًا مبرّحة. لا أذكر أنّني عانيت يومًا كما عانيت في تلك الأيّام التي كنت فيها وحيدًا في تلك الغرفة. ومع أنّني لم أكن من أهل الولولة والعويل، كما هي عادتي منذ الصغر، وسعيت جاهدًا لتحمّل كلّ تلك الآلام، إلّا أنّ حالي كانت أكبر من الاحتمال يومًا بعد يوم. لقد أدخلوا أنبوبًا من حلقي إلى معدتي كان يضايقني كثيرًا. وكأنّ وظيفة أحشائي تغيرت جرّاء الشظايا الكبيرة التي أصابتها. شيئًا فشيئًا علمت أنّ أعصاب عيني اليمنى قد تلفت وأصبح من الصعب علاجها. أمّا حرارتي فقد ارتفعت لعدّة أيّام، إلى درجة لم تعد تنفع معها الأدوية، فغطّوا جسمي بالنايلون، ووضعوا فوقه ثلجًا، فيما قُيّدت يداي ورجلاي، ويا لها من معاناة! أحيانًا كنت حين أستعيد وعيي، وتقع عيناي على الثلج، أسعى جاهدًا لأرفع رأسي لعلّي أستطيع أن أبلل لساني به! وبعد جهد جهيد تمكّنت من لحس قطعة ثلج مرّة واحدة، ففرحت وكأنّني ربحت في تلك الظروف القاسية جائزة كبيرة! كان هذا الحلّ الوحيد لرفع العطش الذي لم يفارقني لحظة.. العطش.. العطش.. وقد كرّرت هذا الأمر ما استطعت إلى ذلك سبيلًا. أحيانًا كنت أيأس، وأفكّر أنّ لا أحد يعلم بألمي؛ ألم العطش الذي أضيف إلى آلام جراحي كلّها..

كانت حالي تزداد كلّ يوم سوءًا. وقد جاءت السيّدة التي أتت إليّ في اليوم الأوّل لدخولي مستشفى الإمام الرضا عليه السلام طالبة منّي رقم هاتف لتخبر عائلتي بما جرى لي، وألحّت عليّ بذلك: «لمَ لا تريد أن تهاتف عائلتك؟! أعطني رقم الهاتف، لأخبرهم بالحدّ الأدنى أنّك هنا». أخيرًا، خرجت عن صمتي وقلت لها: «إنّ أخي كان معي حين القصف، وقد استُشهد حتمًا، ولا بدّ أنّ جسده قد وصل الآن إلى المنزل، وهم مشغولون بمراسم تأبينه وإقامة التعازي عن روحه. لا أريد لهم أن يعانوا أكثر من ذلك.. إنّهم يظنّون أنّني معافًى سليم، فإن علموا بإصابتي سيتركون المراسم ويأتون إلى هنا.. لا أقبل..»، وعادت للمرّة

الثانية خالية الوفاض.

جريحًا فوق سريري، كنت كثيرًا ما أذكر صادق، وأفكّر أين هو؟ ومع مـن؟ أحيانًا أبـدأ أتكلّم معه: «بهذه السرعة رحلت يـا صادق!»، وفي كلّ مـرّة يشتـدّ فيها وجعي أفكّر بـأنّ أخي قد ارتاح بالحـدّ الأدنى من آلام الدنيا وهمومها. أحيانًا كان الألم يشتدّ عليّ لدرجة أن أطلب من الطبيب طلب العاجز بأن يخدّرني ويغيّبني عن الوعي لأرتاح من الألم لساعات.

كان يجيبني: «لا يمكن. إن غيّبناك عن الوعي ستموت!». في مثل تلك الدقائـق، أحببت الموت أكثر من تحمّـل الألم الذي كنت أعانيه. إلا أنّني شعـرت، كأنّ قـدري هو الصبر على تحمّـل كلّ الآلام؛ ألم الجراح، وألم البقاء وعدم الالتحاق بركب الشهداء...

كان مـن بين الممرّضين المناوبين ممرّض مسيحـيّ، يؤدّي عمله بدقّة وجديّة تامّـة. أحيانًا عندما يأخذ الوجع مني كلّ مأخذ وهو يقوم بتغيير ضمـاد جراحي، كنت أرجـوه قائلًا: «باللّه عليك، برويّـة وهدوء أكثر!»، فيجيبنـي: «أنا أؤدّي عملي. مهما فعلت أو قلت لن يؤثّر ذلك على عملي. لـذا مـن الأفضـل لـك أن تتحمّـل إلى أن أنتهي من تضميـد جراحك». ومـع أنّني كنت أتـألّم كثيرًا عند تضميده جراحـي، إلّا أنّني كنت معجبًا بـه لكونه دقيقًـا في عمله وودودًا. فيمـا بعد، سمعت أنّـه وبسبب خبرته ومهارتـه في التمريض، وضع الحرس سيّارة تحـت تصرّفه ليستخدمها في ذهابه وإيّابه إلى المستشفى والعناية بجرحى الحرب.

◘

مضـى شهر وأنا علـى هذه الحال، وعـادت الممرّضة للمـرّة الثالثة. أصرّت عليّ أن أتّصل بعائلتي، وأقنعتني أخيرًا بالقول: «إنّ مراسم تأبين أخيـك قد انتهت الآن». وعند حوالي العاشرة صباحًا، جاؤوا بهاتف إلى غرفتـي، فطلبت رقم محافظة تبريـز حيث يعمل ابن خالي «محمّد علي

نمكــي»، لكن من حسن حظّي، قيل لي إنّه ليس موجودًا. تركت له رسالة بأن يتّصــل حال مجيئه بمستشفى الإمام الرضــا ﷺ في مشهد. أصرّ علــيّ المجيب بــأن أُعرّف عن نفســي، فذكرت له اسمي، وقلــت له بأنّني أُصبت إصابة بسيطة!

بعــد ساعة، أحضروا الهاتف مــرّة ثانية إلى غرفتي، وكان ابن خالي هــو المتّصــل. رحت أتحــدّث إليه بهــدوء ورويّــة، وهو يســأل بين الحين والآخر: «مــاذا حصل لك؟» فأجيبه: «لا شيء»، لكنّــه انفجر بالبكاء... سألته: «هل انتهت مراسم التأبين؟».

- تأبين من؟

- صادق!

أراد أن ينكــر الأمــر، ولعلّــه أراد مداراة وضعي. قــال: «لا، لم يصب صادق بخطب... لقد عاد إلى البيت».

- لقد استُشهد صادق بالقرب منّي... أنا رأيته بأمّ عيني!

وانفجــر بالبــكاء مرّة أخرى. أمّــا أنا فقد ضاق صــدري واسترسلت بالبــكاء الــذي كان يخفّف عنّــي. كان هو يبكــي وأنا أبكــي. إلى أن قال أخيرًا: «أجل، لقد انتهت مراسم تأبين صادق، ونحن بانتظار الأربعين». لم أعد أستطيع الكلام. استودعته الله وارتاح بالي.

▫

في صباح اليوم التالي، وأذكر جيدًا أنّه كان يوم الخميس، بدأ الزوّار يأتــون لعيادتي. أوّل من حضر لزيارتي هي أمّي، لكنّها ما إن رأتني حتّى رجعت، وتناهى إلى سمعي صوتها وهي تقول: «هذا ليس جريحنا!».

- وكيف لا يا حاجّة؟! أوَلم تطلبي زيارة السيّد نور الدين عافي؟

- بلى، لكن...

ومرّة أخرى رأيت والدتي واقفة في الباب. لم تعرفني! ناديتها: «ادخلي

يا حاجّة!»، دخلت وانكبّت عليّ وأنهار الدموع تجري من مقلتيها. والتفّ حولي أيضًا أخي السيّد مير رحيم وصهري وراحا يبكيان.

– إي يا عمّ! لمَ كلّ هذا البكاء؟! ما الذي حصل؟...

أخيرًا، توقّفوا عن البكاء، وراحوا يتبادلون أطراف الحديث ثم يضحكون. ومع أنّني كنت خجلًا تمامًا من أمّي، إلّا أنّني سألت عن صادق. في البداية قالوا لي: «إنّه بخير ولم يصبه مكروه». قلت: «لقد رأيت كلّ شيء بأمّ عيني، وكنّا معًا حتّى اللحظة الأخيرة». كنت أفكر فيما قاسته أمّي وعانته في هذه المدّة. قالوا لي: «أنت رجل قويّ جدًّا!»، وراحوا يمدّونني بالمعنويّات. فأجبتهم: «ليس الأمر كما تتصوّرون! بالمناسبة، كيف يبدو وجهي؟».

– ألم تره حتّى الآن؟!

– لا! لم أغادر السرير طوال هذه المدة.

بادرت أمّي، ومسحت بيدها على رأسي وقالت: «ليس به أيّ مكروه! كلّ شيء جيّد!». بالفعل، لقد أحسست، برؤيتهم، أنّ حالي تحسّنت، خاصّة أمّي التي بدت قويّة متماسكة مع أنّها كانت مفجوعة بشهادة ابنها الشابّ صادق. أخبروني بأنّهم سيبقون في «مشهد» ليومين، إنّه بالفعل الخبر الأجمل بالنسبة لي في تلك الأوضاع.

◻

بعد يومين، قال لي الطبيب أثناء الزيارة الصباحيّة: «يبدو أنّ حالتك قد تحسّنت». قلت: «أشعر أنّني بحال أفضل».

– لقد كتبت في ملفّك اليوم، أن يقدّموا لك نصف كوب من الحليب، ونصف كوب من الشاي.

– يا له من خبر جيّد!

وما هي إلّا دقائق، حتّى كان كوبا الحليب والشاي على الطاولة بجانب

سريـري طبقًا لتعليمـات الطبيب. فمنذ 34 يومًا وأنـا أتغذّى عن طريق المصل فقط، وطالما انتظـرت هذه اللحظة. غدوتُ فرحًا ومسرورًا، لكن سرعان ما انقضت فرحتـي، فقد جاءت لتبديل ملاءة سريري ممرّضة جديدة أراها للمرة الأولى. قلت لها: «دعيني أوّلًا أتناول الحليب والشاي ومن ثمّ تبدّلينها».

- لا! قم لأبدّل ملاءتك، ومن ثمّ تأكل ما تريد.

- أيّتهـا السيّـدة! إلى الآن لم أنهض من سريـري، وأنت الآن تطلبين منّي النهوض لتبديل الملاءة!... إن أنا نهضت سينفجر بطني.

- مـا هذا الذي تقولـه، لقد أُجريت لك العمليّـة منذ أكثر من شهر، وتقول إنّك إن تحرّكت ينفجر بطنك!

- البطن بطني، وأعلم أنّني إن نهضت سينفجر!

ومهما حاولت معها، لم تعِ الأمر. كما إنّ جرح رجلي لم يكن قد التأم بعـد، إلّا أنّ أسلوبها بالكلام جعلنـي أنفذ ما تريد، خاصة أنّ أمي وأخي كانـا قد ذهبا في ذلك الوقت لزيـارة حرم الإمام الرضا عليه السلام، ولم يكن معي أحد آخر ليساعدني في إقناعها!

- ساعديني بالحدّ الأدنى لأنزل!

ذهبـت وأحضرت الدّرجات التي توضـع تحت سرير المريض لتسهيل مغادرتـه. سحبـت نفسـي إلى جانب السريـر بصعوبة، ودلّيـت قدميّ. أزعجنـي تعاملهـا الجـافّ معـي وعـدم اكتراثهـا، وكأنّها ممّـن يقمن مرغمات بتمريض جرحى الحرب في المستشفيات، ولم يكن في قلبها ذرّة رحمة وتعاطـف. أخيرًا، وضعت قدميّ على الأرض، لكن دوّارًا أصابني. بدأت أرتجـف، فتمسّكت بالطاولة والحائط بقوّة كـي لا أقع! مرّت ثوانٍ عـدّة، خطر ببالي الذهـاب إلى المرحاض بما أنّني نزلـت عن السرير، وكان يبعـد عني مسافة متر ونصف، إذ لم يغسلـوا يديّ بشكل جيّد إلى

ذلـك الحين، وقد يبست الدماء والتراب بين أصابعي. فكّرت أن أذهب، فأغسـل يـديّ وأنظر إلى وجهـي في المرآة. رحت أجرّ قدمـيّ بهدوء وأنا أتكـئ إلى الحائـط إلى أن وصلت إلى المرحاض. وما إن نظرت في المرآة حتّى أصابني الذهول! إلهي ماذا أرى؟

– من أنت؟... نور الدين؟!

كانت ملامح وجهي قد تغيّرت تمامًا؛ وجه متلاشٍ، ضعيف ومجروح، وعـين قد تعطّلت تقريبًـا، فيما العين اليمنى تغـيّر شكلها بسبب الجرح العميـق في وجنتـي، هذا بالإضافـة إلى جراح ذقنـي الوخيمة... ها قد بـدأت أفهـم لِمَ لم تتعرّف إليّ أمّـي. وكان أمرًا طبيعيًـا أن أشعر بضيق في صـدري: «لِمَ أصبحـت هيئتـي هكذا؟! هـل يستحيـل أن أُشفى؟...» وتوقّفـت عـن الكلام. لقد انهـارت معنويّاتي. إنّ سنـوات عمري كلّها لا تتجـاوز الثماني عشـرة، ولم أكن أفكّر أبدًا بأنّ الحـرب ستوقع بي بلاءً مثل هذا... وسرعان ما أعرضت بوجهي عن المرآة وفتحت صنبور المياه. وفيمـا كنت أغسل الدم المتيبّس بـين أصابعي رحت أؤنّب نفسي: «لا تكن جحـودًا! اشكـر الله أنّك بقيت حيًـا وتقف على رجليـك! ولا بدّ لوجهك بالنهاية أن يتعافى بحال من الأحوال... سوف تعتاد على الأمر».

– تعالَ وتمدّد على سريرك!

نادتنـي فسرت بهدوء نحو السرير. كان الحليب والشاي قد بردا إلى جانبـه. قلت للممرضة: «لا أستطيع الصعود بسهولة!». حدّقت في وجهي مـن دون اكتراث وبقيت تنتظر. لم تكن تعلم بأنّ الدرجات التي وضعتها إلى جانب سريري لا تشكّل لي أيّ مساعدة. بقيت دقيقتين أو ثلاثًا واقفًا لا أعرف ماذا أفعل؟! كيف سأصعد؟! وشيئًا فشيئًا بدأت أشعر بأنّ حالي تسـوء. شعرت ببطني يحمى ويسخن. كانـت سخونة بطني تزداد بحيث شعـرت بأنّهـا تريد الانبعـاث إلى الخـارج! كان لبـاس المستشفى الذي

أرتديه مفتوحًا من الجهة الأماميّة. ألقيت نظرةً وصرخت: «أسرعي وأخبري أحدهم! إنّ بطني يتمزّق!».

- ما الذي سيحدث؟!

لم تدرك حالي. اتّكأتُ على رجلي المصابة التي لم تشفَ بعد، واستخدمتُ كلّ قوّتي لأضع رجلي الأخرى فوق السرير. قلت بعجز وغضب: «تعالي وساعديني بالحدّ الأدنى لأرفع رجلي». فجثت مكرهة ورفعت رجلي عن الأرض، لكنّني... أطلقت صرخة من أعماق قلبي؛ لقد انفجر بطني بالفعل، ورأيت أحشائي بوضوح تامّ، وقد سقطت فوق ملابسي! راحت المرأة تصيح بنحوٍ لم أسمع له مثيلًا. تركتني وولّت هاربة. أحسست براحة! فبعد حالة الالتهاب والسخونة التي كانت في بطني، صرت أشعر بالليونة والخفّة. كان كوبا الحليب والشاي يتراقصان أمام ناظري، وصوت المرأة يطنّ في أذنيّ. نُقلت بسرعة إلى غرفة العملية، وكأنّ كلّ شيء قد حدث خلال ثوان. لم أفقد الوعي، لكن لم يبقَ فيّ رمق؛ لا للنظر، ولا للكلام، ولا حتّى للإحساس بالوجع الغريب الجديد!

◘

عندما استعدت وعيي، وجدت أربعة أسياخ معدنيّة خارجة من بطني وقد أوثقت بعدد من البراغي. كما أُدخل أنبوب إلى بطني الذي انتفخ فصار بحجم ثلاث طابات بلاستيكيّة! قيل لي إنّه بسبب إصابة الكبد بالشظايا، فقد أجروا عمليّة ترميميّة للحاجز الحاجب والأمعاء، لكنّهم بعد حادثة الصباح، اضطّروا إلى قطع جزء من أمعائي، ووضعوا الأسياخ لتبقى الجراح ثابتة وتلتحم القُطَبّ.

بعد الظهر، حضر زوّاري ليتفاجَأوا بالمستجدّات. كانت أمّي قلقة: «بني! ما الذي أصابك؟ بالأمس كانت حالتك جيّدة!».

- لا شيء! لقد ساءت حالي قليلًا!

أخبرتهم بما حدث، فاستاؤوا كثيرًا. أراد أخي أن يشكي هذه السيّدة إلى ممثّل الحرس في المستشفى فقلت له: «دعك منها! هي نفسها لا تدرك شيئًا. إنّ بطني هو الذي كان على وشك الانفجار وهي لم تكن تصدّق». لم تنتهِ القضيّة عند هذا الحدّ بالطبع، فقد جاؤوا من مؤسّسة الشهيد وسألوني عمّا جرى. قالوا إنّهم لن يبقوها في قسم جرحى الحرب، ونقلوها للعمل في مستشفى آخر، إلّا أنّ خدمة هذه الممرّضة انتهت بدفعي ثمنًا باهظًا؛ ومجدّدًا، مُنعت من أيّ نوع من أنواع الغذاء سوى المصل. بعد أيّام، حلّت أربعينيّة صادق وكانت العائلة مضطّرة للذهاب إلى تبريز لأقاسي من جديد عذاب الوحدة.

ضاق صدري بشدّة. كنت أعدّ الأيّام والليالي... فإلى ذلك الوقت أمضيت 42 يومًا في مستشفى الإمام الرضا عليه السلام، ولم أخرج من غرفتي سوى إلى غرفة العملية! طلبت منهم التحدّث إلى ممثّل مؤسّسة الشهيد. لقد بحت له بما في داخلي وقلت: «مضى على وجودي هنا 42 يومًا، أريد أن أذهب اليوم إلى حرم الإمام الرضا بأيّ ثمن كان». قال: «ينبغي أن نستأذن طبيبك المعالج». ولم يأذن الطبيب لي بالذهاب. أصررتُ وقلت: «ينبغي أن أذهب اليوم للزيارة، فما لم أذهب إلى الحرم لن أسمح لأحد أن يمسّني ويداويني!». أخيرًا، رقّ قلبهم لحالي، ووافق الطبيب بشروط، ووعدوني بأن يأخذوني في الليلة نفسها إلى الحرم. كانت ليلة جمعة، فانتظرت حلول الليل بفارغ الصبر.

عند الغروب نُقلت وعددًا من الجرحى على الحمّالات إلى باحة المستشفى، وضعونا في سيّارات الإسعاف وتوجّهنا إلى المقام. وعجبًا، كم بثّت زيارته في النشاط. وصلنا الحرم، وطبقًا للتنسيق المسبق، جرى نقلنا بسيّارات الإسعاف إلى أحد الصحون، ومنه نُقلنا على الحمّالات إلى الداخل. ويا لها من زيارة! كانت مشاعري لا توصف. فُتح لنا طريق إلى الضريح، فتعلّقنا به. وفيما استهلّت دموعي جارية من مقلتيّ،

ألصقت به وجهي بعينه المجروحة، ورحت أناجي الإمام... شعرتُ براحة كبيرة في قلبي. لقد أخلوا ما حول الضريح ولم يبقَ سوانا نحن الجرحى وخدّام الحرم. كنت في تلك الدقائق الملكوتيّة العشر إلى جانب ضريح الإمام الرضا عليه السلام أحلّق في فضاء غير عاديّ، وكانت تلك من أجمل زيارات عمري. حين أخرجونا أمسيت مسرورًا جدًّا ومفعمًا بالحيويّة، لدرجة شعرت معها أنّني أستطيع أن أقضي أيّام نقاهتي بسرعة وأقف على رجليّ. كما أقيم دعاء كميل في أحد الصحون فشاركنا الزوّار الدعاء وعدنا إلى المستشفى. لقد شعرت بتحسّن كبير.

في اليوم التالي، سمحوا لي بتناول السوائل، فتناولت القليل من الحليب؛ عدّة رشفات في اليوم الأوّل. ثمّ أدخلوا في الأيّام اللاحقة تدريجيًا الطعام المتضمن للسوائل إلى لائحة طعامي. صرتُ أطالبهم دومًا بأن يزيدوا لي الكمّيّة، وأقول: «لمَ تقدّمون لي القليل منه!».

– لمَ أنت مستعجل لتناول الطعام؟

– مرّ أربعون يومًا ونيّف لم آكل فيها شيئًا، ألا يجب أن أعوّض ما فاتني؟

بدأت حالي النفسيّة والجسديّة تتحسّن بوضوح، فأخبروني أنّه يمكن نقلي إلى مستشفى تبريز، وكان هذا أجمل خبر سمعته. أخيرًا، وفي اليوم الثامن والأربعين لإصابتي، تركت مستشفى الإمام الرضا عليه السلام، ونُقلت بالطائرة تحت المراقبة الطبيّة إلى تبريز.

◘

عندما ترجّلنا من طائرة الركّاب – وقد رُفعت أيدي ثلاثة من مقاعدها مدّدوني عليها – كنت أشعر بالوهن حقًّا. وبما أنّني اتّصلت في مشهد عبر مؤسّسة الشهيد بعائلتي وأخبرتهم بأنّني في طريقي إلى تبريز.. فقد رحت أبحث عن أحد أعرفه، وسرعان ما وجدته. توجّه خالي نحوي مباشرة. وكنت ممدّدًا على الحمّالة في قاعة المطار.

وسألني: «هل أتيت بهذه الطائرة من مشهد؟!».

- أجل!

- كان من المفترض أن يأتي جريح آخر عبر هذه الطائرة من مشهد، هل رأيته؟

- ما اسمه؟

- سيّد نور الدين عافي!

المسكين لم يعرفني. لا بدّ أنّ التعب والإرهاق قد غيّرا حتّى صوتي. قلت: «خالي! أنا نور الدين. ألم تعرفني؟!»، تغيّرت ملامح وجهه، أخذ رأسي في حضنه وراح يبكي. لم يكن يصدّق بأنّ هذا نور الدين وقد حلّت به هذه المصيبة. بكى كثيرًا، فقلت له: «خالي! لا تبكِ. إنّني أتضوّر جوعًا، أحضر لي شيئًا لآكله». فذهب فورًا وأحضر من أحد محلّات المطار علبة بسكويت. بعد دقائق، وصلت سيّارة الإسعاف ونقلتنا إلى مستشفى الإمام الخميني في تبريز.

▫

تحسّنت حالي أكثر في مستشفى الإمام الخميني. وبدأ الأهل والأصدقاء والمعارف منذ وصولي إلى هناك يتوافدون يوميًّا لعيادتي. لكن، كلّ من رآني للمرّة الأولى منهم، كان يندفع للبكاء بنحو لا إراديّ. فأقول لهم: «ما الذي حصل لتبكوا هكذا؟ أيّام قليلة، وما ألبث أن أستعيد عافيتي، ونعود معًا إلى الجبهة!». كنت وابن خالي «حسن نمكي»[1] صديقين حميمين، نقضي أوقاتنا معًا منذ الصغر إلى حين التحاقنا بالجبهة. فرؤيته من ناحية، وتحسّن جراحي، والتغذية التي كنت أحصل عليها من ناحية أخرى، جعلتني بحال أفضل، وقد تبلسمت جراحي ما عدا تلك التي أصبت بها في بطني، فلم أمكث في مستشفى الإمام طويلًا. أردت الخروج،

1 - وقد التحق بركب الشهداء في ما بعد.

وصرت أؤكد باستمرار على الإخوة في مؤسّسة الشهيد الذين يأتون لعيادتي بأن يستكملوا أوراقي وينقلوني إلى البيت. لكنّهم كانوا يجيبون بأنّ وضع بطني سيّئ، ولا ينبغي لي مغادرة المستشفى! لكنّني واقعًا، كنت قد مللت أجواءه، فرحت ألحّ عليهم لشراء مشدّ للبطن، وإقناع الطبيب بخروجي. وبعد أسبوع جاءت موافقة الطبيب. أعطوني التعليمات الصحية وأدوات التضميد ومشدّ البطن، وتحرّرت من المستشفى.

▫

في طريق العودة إلى المنزل، وصلنا إلى مزار «الشيخ أبي دجانه». كان شهداء القرية يُدفنون في جوار مزار الشيخ منذ اندلاع الحرب، وكنت أعلم بأنّ صادق دُفن هناك. أشرت بيدي للسائق أن يتوقّف لأزور قبر أخي. لم يوافق من معي وقالوا: «ليس وأنت على هذه الحال... فلنذهب إلى البيت!». لكن كان من المستحيل أن أذهب إلى البيت من دون أن أزوره.

توقّفت السيّارة إلى جانب الطريق، وتوجّهت بمساعدة الأهل إلى قبر أخي الشهيد. شرع الكلّ بالبكاء، إلّا أنا! رحت أنظر إلى شاهد قبر أخي ورفيقي في الجهاد «الشهيد السيّد صادق عافي»، الذي سلك معراجه بالقرب منّي وأقول: «لمَ تبكون؟! في النهاية لقد حصل صادق على مراده. علينا أن نبكي لحالَنا، لا على الشهيد». حقًّا، كنت وما زلت أؤمن بهذا الأمر.. وبعد زيارة الشهداء، أكملنا طريقنا. كان الوصول إلى البيت بعد كلّ هذه الحوادث، بمنزلة الوصول إلى مركز الأمان.

▫

بدا الوضع في البيت مختلفًا. ففي أقلّ من تسعة أشهر، جُرحت مرّتين، وها أنا الآن أعود لأوّل مرّة من الجنوب حاملًا معي إلى جانب

الخطر الجدّي الذي يتهدّد عيني اليمنى، جراحًا عميقة وكبيرة في جسدي. كان لقائي بأبي المكسور الخاطر في هذه الفترة ، صعبًا جدًّا. ومع أنّني رأيت ما حلّ بوالديّ بعد شهادة صادق وإصابتي، إلا أنّني كنت أتعاطى معهما بنحو يمنعهما من التفكير ببقائي في القرية وأن أصبح من سكّانها المستقرّين!

كان جميع من في البيت مستعدًّا للقيام بخدمتي، وأخجلوني كثيرًا من محبّتهم. لقد ازدادت شهيّتي إلى الطعام بنحو لا يعرف الشبع. بالطبع، فأنا منذ البداية أحبُّ الأكل والشرب، والآن وبعد إصابتي وضعف جسدي، أصبحت محطّ اهتمام الجميع، فكان يؤتى إليّ بالغذاء من كلّ ناحية؛ لحم الكبد الطازج، الحليب، الفاكهة و.. والحاصل أنّني عشت في نعيم تامّ.

كانوا يأخذونني إلى المستوصف لتغيير ضماد بطني. وبقيت على هذه الحال حتّى ذهب عنّي الضعف والوهن، ونسيت جراحي ومراجعة الأطباء وبتّ أفكّر في العودة إلى الجبهة. شيئًا فشيئًا تشجّعت وطرحت أمام الأهل قضيّة عودتي إلى الجبهة ورحت أختلق الحجج لإقناعهم: «لقد ضقت ذرعًا.. وانقبض قلبي من هذا المكان. إن عدت إلى الجبهة سيتحسّن وضعي الجسدي... لم أعد استطيع البقاء». خالفني الجميع في ذلك، وكانوا يرون بأنّه عليّ في ذلك الوضع أن أزيل فكرة الجبهة من رأسي تمامًا: «ماذا ستفعل إن ذهبتَ في هذا الوضع إلى المحاور. ما زلت حديث العهد بالسير على قدميك، وتريدُ أن تذهب إلى ساحة القتال؟!»، لكنّني كنت قد اتّخذت قراري، واستغرق الأمر مدّة لإقناعهم.

بعد مضيّ ما يقارب الستّة أو السبعة أشهر من إصابتي، وضّبت حقيبتي، وودّعت الأهل الذين ظلّوا قلقين بشأني، وانطلقت إلى الجبهة.

الفصل الخامس

# جرح فوق جرح

1

كان عدد من العناصر الذين انتهت إجازتهم، عائدين إلى الجبهة، فركبت و حسن ابن خالي معهم الحافلة نفسها، وعشت جوًّا حميميًّا ومريحًا لطالما انتظرته. رحنا نحدّث الشباب ونمازحهم. فبعد إصابتي في عملية مسلم بن عقيل حيث تبدّلت ملامح وجهي وتغيّر شكل عيني، صرت أستخدم نظّارة سوداء خارج البيت. وفيما كنت أضع هذه النظّارات غفت عيني، ولم أجدها حين استيقظت. سألت حسن الذي كان يجلس إلى جانبي: «ماذا حصل لنظّارتي؟».

- كسرتها!

- إِ.... لماذا؟!

- عندما كانت لك عينان لم تكن تروقني، فكيف الآن وقد صرت تملك أربعًا؟ ما هذا الذي تضعه على عينيك؟!

جعلني مزاح حسن أزيل من رأسي نهائيًّا فكرة استخدام النظّارة.

▫

ما إن وصلت الحافلة إلى «كيلان غرب»، حتّى توجّهنا إلى ثكنة كانت مقرًّا للقوّات. وقد أُعيد تشكيل لواء عاشوراء ليتحوّل إلى فرقة قبل عملية «والفجر التمهيديّة» في شتاء العام 1983م. كان مركز الفرقة يقع في منطقة تُعرف بـ «كاسه كران» على مسافة ستّة أو سبعة كيلومترات من «كيلان غرب»، وهو عبارة عن وادٍ محاطٍ من نواحيه الأربع بالجبال

المكسوّة بالأشجار، وقد نصب عناصر الكتيبة الخيام فيه. أراد حسن أن ينتقل إلى كتيبة الإمام الحسين عليه السلام التي كان فيها إبراهيم نمكي، فوافقته فورًا وانتقلنا إلى هناك، فهي كتيبة شجاعة يقودها «علي أكبر رهبري» ويعاونه فيها «محمّد باقر مشهدي عبادي». وكما هي العادة، بدأنا بالعمل معهم بعد ثلاثة أيام على تسليم أسمائنا للكتيبة.

□

كان شهر محرّم على الأبواب. قبل أيام من بداية الشهر تقام عادة الهيئات ومجالس العزاء في الجبهة، وقد بدأنا هذه المراسم في مسجد كتيبة الإمام الحسين عليه السلام وكان قسم منه يقع تحت الأرض، وقد بنيت جدرانه من الحجر. أمّا القسم الواقع منه فوق الأرض، فكان من دون سقف، فأضحت مجموعات العزاء تُنظِّم فيه حلقات اللطم.

ذات يوم، رأيت في المسجد وجهًا مألوفًا. دقّقت النظر، فإذا به «حسن شيرافكن» الذي كان معي في غرفة المستشفى أيّام إصابتي الأولى في كردستان ويشكو من ألم في كليتيه، وها هو الآن يقف أمامي بروحيّة عالية! سُررت كثيرًا برؤيته بعد مرور كلّ ذلك الوقت. لم أكن أعلم أنّه عُيّن مسؤولًا لمركز المحلّة بعدما أنهى دورة في العلوم العسكريّة في تبريز، وأنّه لم يحتمل البقاء في المدينة فالتحق بالجبهة. وبمقدار ما سعدت لرؤيته حزِن هو لرؤيتي على هذه الحال. كما التقيت في المسجد بأصدقاء آخرين، من جملتهم «صمد نيكبيران»، الذي كان وأخوه يعقوب صديقين لي من قبل.

مع ابتداء برامج الكتيبة، قيل لنا إنّه علينا التدرّب على تسلّق الجبال[1].

1.علمت لاحقًا بأنّ العملية القادمة ستكون في منطقة تُسمّى «بمو»، وهي عبارة عن منطقة جبليّة واسعة تقع على الحدود الإيرانيّة–العراقيّة، كانت القوّات العراقيّة تستقرّ فيها وتشرف علينا. كانت المرّة الأولى التي أسمع فيها باسم «بمو» وتعجّبت كثيرًا عندما رأيتها؛ جبل شاهق وعظيم شكّلت الصخور الكبيرة جدًّا والمتّصل بعضها ببعض، الطريق الوحيد للصعود إلى أعلاه. وعندما سألت كيف سننفّذ العملية في هذا المكان، قيل إنّ على الشباب أن يصعدوا الواحد تلو الآخر على سلالم

لا شــكّ أنّ اجتيــاز الصخور وتسلّق الجبال كان أمــرًا شاقًّا بالنسبة لي. سعيــت جاهــدًا للمشاركة في التدريبــات، وبالطبــع، لم يصعّبوها عليّ. ومــع أنّنــا في كردستان كنّا نتسلّــق الجبال من وقت لآخــر، إلّا أنّها المرّة الأولى التي أصعد فيها جبلًا بهذه الطريقة، حيث يمسك الشباب بحبال مدّوهــا من أعلى الجبل ويتسلّقون بجهــود جبارة. لقد عمل الأخ رهبري على تدريب الكتيبــة تدريبًا جيّدًا، فمن المفترض أن تصعد كتيبة الإمام الحسين عليه السلام الجبل في العملية القادمة قبل بقية الكتائب، لذا ظلّ قادة الكتيبــة حسّاسين وجدّيّين في تدريب الشباب. يقول الأخ رهبري: «إنّ كلّ من يستطيع اجتياز هذه المنطقة من دون جلبة، سيتمكن من تسلّق الجبل ليلة العملية من بين ظهراني الأعداء ومباغتتهم».

كانت التماريــن تُجرى كلّ يوم، ومنذ الدقائــق الأولى، يبدأ الشباب بإطلاق الشعارات الحماسيّة لتتردّد أصداؤها في الفضاء: داغدا داشدا كذر اسلام اردوسى اسلام اردوسونونيوخدى قورخوسى.

غالبًــا ما كان أحــد العناصر ويُدعى رسول هو مــن يطلق الشعارات، فيردّدهــا الإخــوة وهم يتقدمــون إلى القمة على شكل طابــور. ما انفكّ الشبــاب مرحــين ويتحلّــون بخفّــة الــدم، ونسيــت بينهم أيّــام جراحي الصعبة، إلى أن عرض لي يومًا حادث آخر.

ذات مــرّة ارتفعنــا عــن سطــح الأرض ما يقــارب الكيلو مــترًا، وقد دأب العناصــر علــى الاجتماع بعــد قطع مسافة معيّنــة في نقاط محدّدة للاستراحــة والاستعــداد لإكمــال المرحلة اللاحقــة. وبينما كنّــا نتسلّق الجبــل، وقبل أن نصل إلى نقطة الاستراحة، انزلق حجر من تحت رجل «مير محمّــد ستّاري»[1] الذي يتقدّمني، وارتطم برأسي. أصابني دوار في رأســي، ورغم ذلك استطعــت الوصول إلى الشبــاب بطريقة أو بأخرى.

مــن الحبال ويشتبكوا مــع العدوّ! كانت «كيلانغرب» تشبه «بمو» كثيرًا من حيث الموقع الجغرافي، وكنّا نتدرب هناك على تسلق الجبال استعدادًا للعملية.

1. وقع ستّاري فيما بعد أسيرًا، وبقي في الأسر لمدّة من الزمن.

لم أكمـل على ما يُرام. فبعد إصابتي صـار التعب يحلّ عليّ بشكل أسرع مـن البقيّة. في الحقيقة كنت أحتاج إلى مدّة من الزمن لأعود إلى حالي الطبيعيّـة. وعندمـا عاود الشبـاب الصعود ووصل الـدور إليّ، لم أشعر أنّنـي بحالة جيّدة، فنـاداني علي أكبر رهبري وهـو واقف على صخرة: «نور الدين! هيّا اصعد!».

– اسمح لي بالبقاء، سأصعد بعد أن يصعد الجميع.

– لا! هيّا اصعد!

– لقد ارتطم حجر برأسي ولست على ما يُرام، دع...

– لا تختلق الأعذار... هيّا اصعد!

لم يكـن ليدعني وشأني. وضعت يدي على حبل الاحتياط الذي غالبًا مـا نلفّه علـى وسطنا، حتّى لا نسقط إذا ما حدثـت مشكلة ما في الحبل الذي نمسكه. لكـنّ الأخ رهبري كان يراقبني بدقّة فقال: «لا! اصعد من دون حبـل الاحتياط!». لم أتفوّه بكلمة... انتابني شعور بأنّ شيئًا ما لا بدّ سيحصل لي اليوم.

أمسكـت بالحبل، ورحت أصعد، ولم أكد أرتفع عدّة أمتار حتّى انتهى كلّ شـيء بالنسبة لي... عندما أفقـت وجدت نفسي في الدشمة. أدركت أنّنـي هويـت، وكان مـن لطف الله بـي أن توقفت عن السقـوط في قسم مـن الجبل ينخفض قليلًا عن المنطقة التي انطلقنا منها، ولم أعلم كيف أنزلنـي الإخوة عن مسافة كيلو متر من أعلـى الجبل؛ على بغل، أم على أكتافهـم! فطوال تلك المدّة كنت غائبًا عن الوعي. وعلمت في الدشمة أنّ جـرح بطني قد فُتح مجدّدًا. نُقلت إلى الطـوارئ، وهنـاك شخّصوا فورًا وجـوب نقلي إلى المستشفـى وخضوعي لعمليّة جراحيّـة. وفي تلك الليلة نفسهـا، نُقلت إلى كرمانشـاه ومنها إلى تبريز، فنلـت بهذا حصّتي من الجراح قبل بدء العملية وقفلت راجعًا[1].

1. أُلغيت العملية في منطقة «بمو»، لكن شاركت فرقة عاشوراء في عمليات والفجر 2 و4.

▫

بقيتُ ما يقارب الأسبوعين في مستشفى الإمام في تبريز. كُنت أتغذّى عن طريق المصل فقط وحالي تزداد تدهورًا يومًا بعد يوم. في المرّة أو المرّتين التي تناولت فيها السوائل أُصبت بألم شديد في بطني وتقيّأت مباشرةً كلّ ما تناولته. كان الجرح الذي أصبت به في بطني في عملية مسلم عميقًا، وقد ساء وضعه بعد حادثة تمزقه السابقة في مستشفى الإمام في مشهد، وحادثة الجبل هذه، ولم يظهر فيه أيّ أثر للتحسّن، حتى يئس الأطبّاء من شفائي. أذكر أنّ طبيبي المعالج راح يشرح لتلامذته الذين تحلّقوا حولي، أنّ القسم الفلاني من أمعائي قد اهترأ وأصبح على هذا الشكل. وردًا على سؤال أحدهم: «كم من الوقت يمكن أن يبقى هذا المريض على قيد الحياة؟»، أجاب بصراحة: «ليومين أو ثلاثة». سمعت بدوري وفهمت ما يقولون، وما باليد حيلة، فأنا عاجز عن أيّ فعل. حتّى إنّهم واجهوني بهذا الأمر عدّة مرّات وقالوا: «لا نستطيع أن نفعل لك شيئًا، أنت تحتضر!». كان كلامهم يؤذيني، لكنّني لم أفقد الأمل. ذات يوم، جاءت أمّي لزيارتي فأخبرتها بما يقول الأطبّاء. فقالت واثقةً تمامًا من نفسها: «لا! لن يصيبك مكروه، فما رأيك أنت؟».

– برأيي أنّني لن أموت بهذه السرعة!

مثّلت أمّي الأمل الأكبر بالنسبة لي. بعد مرور يومين أخبرني إخوة من الحرس جاؤوا إلى المستشفى، بأنّ قائد المنطقة الخامسة في الحرس، الأخ «حميد تشيت تشيان» سيزور قسم جرحى الحرب في المستشفى وكان يعرفني من قبل. ولمّا جاء لعيادتي أخبرته بما قال الأطبّاء وأنّني لن أعيش لأكثر من ثلاثة أيّام.

– من قال؟!

– الطبيب...

وفورًا استدعى الدكتور طوفان رئيس مستشفى الإمام حينها وقال

له: «افعل ما يمكنك فعله لهذا الجريح». تداولا في المسألة، وتقرّر إجراء عمليّة لي كمحاولة في صباح اليوم التالي.

في الصباح، اجتمع حولي الأهل، والأقارب، والممرضون و... وقد أتى أكثرهـم قاصدين وداعي الوداع الأخير. كان الأطبّاء ما زالوا متردّدين، ويقولـون إنّنـي لـن أخرج مـن العمليّة حيًّـا، والجميع قلقـين. ومع هذه المعمعة انتابني شعور بأنّ الأمور ستنتهي إلى خير. انطلقوا بي إلى غرفة العمليات. وأوّل من التقيته هناك كان طبيب التخدير، وهو رجل دزفوليّ يعمل في تبريز. يبدو أنّ قلبه شُحن غيظًا من المجاهدين، فأقبل يحقنني بالمخـدّر ويقول: «هل تعلم بأنّك لن تخرج من هـذه العمليّة حيًا؟!»، لقد فاجأني فعلًا.

– ما هذا الكلام الذي تقوله وأنا على وشك أن أغيب عن الوعي؟!

وقبـل أن أفقـد وعيي بلحظات توجّهـت إليه قائلًا: «أتعلـم ماذا؟ أنا أعرف دنياي هذه جيّدًا، وأعرف ماذا فعلت. بإذن الله ومشيئته، أنا أعمل للّه، ومصيري في ذلك العالم معلوم أيضًا. أمّا أنت، ففي جهنّم، هنا وفي ذلك العالم!». لقد كسر كلامه قلبي، لكن، لم يكن عالم التخدير سيّئًا!

▫

عندمـا أفقت، كانت حالي جيّـدة وشعرت بتحسّـن. مضى يومان أو ثلاثـة على العمليّـة، كانت حالي العامّة أفضل، لكـن التهب الجرح وبدأ يفـرز القيح على كلّ ضمـاد، برائحته الكريهة التي تثـير فيّ القلق. قيل لي: «نريـد نقلك ثانيةً إلى غرفة العملية». لكنّني لم أقبل ومهما فعلوا لم أوافـق. كنت أشعر بالإعياء بمجـرّد ذكر اسم غرفة العملية! إلى أن قال الممرّض الذي كان يغيّر لي ضمـادي: «لأنّهم في العمليّـة السابقة ظنّوا بأنّـك ميّت لا محالة، فقد استخدموا في تقطيب أمعائك خيطانًا عاديّة. وإن لم تذهب إلى غرفة العملية ليغيّروا القطب ستموت بالفعل!».

قلـت: «إن كان الأمر يتعلّق بتغيير القطـب، فأنا مستعدّ ليقوموا بهذا

العمـل هنا». حقيقة، لقد تدهورت حـالي النفسيّة في غرفة العملية آخر مـرّة لدرجـة أنّني كنت مستعدًا لأن أتحمّـل ألم العمليّة من دون تخدير، ويقومـوا بعملهم هنا. سألوني: «وهل تحتمـل الأمر؟!»، لم يكونوا يعلمون أيّ مصائب تصبّرت عليها سابقًا.

استجابـوا وهيّأوا المكان، نقلوا المرضى الآخرين إلى مكان أنسب لهم وفتحـوا الجرح، فملأت رائحـة الالتهابات النتنة الغرفـة. وهناك تقرر إبقـاء السطح الخارجي للجرح مفتوحًا، لأنّ بطني أصبح يرفض القطب بسبـب العمليات المتعدّدة التي أُجريـت لي، ولم يعد جرحي يلتحم. ومن حينها صاروا يريقون كلّ يوم زجاجة من الأكسيجين على الشقّ، ويضعون عليه غاز الإستيريل، فكان هذا الأمر مفيدًا، وبدأت أتعافى شيئًا فشيئًا، لكن لم يأتِ أحد بعد على ذكر الطعام.

ذات يوم شكوت لأحد الأصدقاء ما جرى مع طبيب التخدير في غرفة العملية. وفي اليوم التالي جاءني هذا الطبيب، وراح يعتذر لي. قلت: «أيّها الدكتـور! لي إليك سؤال. لقد نهضنا من تبريـز وذهبنا إلى خوزستان، قاتلنا وجُرحنا هنـاك. وإن كان كلامي فيه شيء من التعصّب، لكن من غـير الإنصاف أن تُكلّم بهـذه الطريقة أنت الدزفـولي، إنسانًا جُرح في منطقتك. وذلك خاصةً في غرفة العملية وعند التخدير...».

– لا تغتمّ، كانت مجرّد مزحة!

– أهكذا يكون المزاح؟!

مكث قليلًا إلى جانبي وحاول إرضائي. فسامحته لجهله. لكن سمعت بعد مدّة بأنّه طُرد من المستشفى.

ومـرّة أخرى، ضاق صدري مـن جوّ المستشفى. وبـدأت «إلحاحاتي» للخـروج منـه، فجاء الجـواب: «ما زال جرحـك مفتوحًا». ولكـن لأنّني اعتـدت على الجراح، علمـت أنّ حالي ستتحسّن بعيـدًا عن هذا المكان. أخـيرًا، عدت إلى البيت. فكانـوا يأتون كلّ يوم من قبـل الحرس لتغيير

ضماد جرحي، ذلك الجرح الذي آذاني لشهور، ولم يكن «يفكّر» في التعافي. من ناحية أخرى، كنت قد اشتقت إلى الجبهة.

بدأت أردّد نغمة العودة إلى المحاور مجدّدًا. فقلقت أمّي لذلك وقالت: «يا عمّ! ماذا ستفعل هناك بهذه الحال؟!».

– يا حاجّة! إن أنا بقيت هنا، لن يصحّ بطني أبدًا، أمّا إن ذهبت إلى هناك، فإنّ روحيّتي ستتحسّن أوّلًا، وسيتعافى هذا الجرح ثانيًا!

لم يستطيعوا إقناعي والتغلّب عليّ! شددت الحزام خاصّتي حول بطني، ووضعت أدوات التضميد في حقيبتي الصغرى، وتوجّهت إلى مكان إيفاد المجاهدين إلى الجبهة. وهناك أقنعوني بعدم الذهاب إلى الجنوب وأنا في هذه الحال، واقترحوا عليّ الذهاب إلى «بيرانشهر». قالوا: «يمكنك في بيرانشهر البقاء في المقرّ، وكلّما شئت يمكنك التقدّم إلى الخطوط الأماميّة والمشاركة في المعارك!». كان الأمر سيّان عندي بين الجنوب والغرب. ففي كلّ الأحوال، أيّ جبهة هي أفضل بالنسبة لي من الجلوس في البيت.

## 2

توجّهت مع عدد من العناصر التبريزيّين إلى بيرانشهر[1]. بقيت الخمسة عشر يومًا الأولى تقريبًا في المقرّ، ولم يكن هناك الكثير من العمل، لكن الإخوة دأبوا على الذهاب كلّ يوم لنصب الكمائن، فذهبت معهم في الأيّام الأخيرة. كنّا ننطلق في ساعات متأخّرة من النهار، وننصب الكمائن في طريق القوّات المعادية للثورة الموجودة في المنطقة. تسبب الذهاب والأيّاب بأذيّتي، خاصّة أنّنا صعدنا غالبًا الجبال هناك، وعند كلّ عودة كان ألم جرحي يتضاعف. كنت كلّ يوم أغيّر الضماد، ومن كثرة ما غسلت الجرح بالأكسجين نبت عليه لحم زائد، وصارت

1. كان حميد وباقر من بين هؤلاء، وهما من محلة «شنب غازان»، وقد استُشهدا في إحدى المواجهات.

تخــرج أشياء من الجــزء المفتوح منه، عرفت لاحقًــا أنّها الخيطان التي خاطوا بهــا أمعائي، وكنت قد سمعت أنّ نوعيّــة الخيطان التي تُرتق بها الأحشاء، تكون بنحــو يمتصّها الجسم حين التعافي ولا حاجة إلى فكّها، كما إنّها لا تلتهب. لكن يبدو أنّهم استعملوا الخيطان العاديّة في عمليّتي، وها هي الآن، بدل أن تُلحق بي أكثر ممّا حلّ بي، تخرج -بلطف اللّه- عند تغيير كلّ ضماد، وكان نصيبي منها خَيْطين في كلّ يوم! وقد خرج الكثير مــن القيــح وخرجت معه الخيطــان إلى أن لاحظت بــأنّ سماكة الطبقة التي غطّت الجرح بدأت تزداد تدريجيًّا، مما يُعتبر علامة إيجابيّة. لقد ساعدني «باقر نيكي»، وهو أحد عناصر المقرّ، في تضميد جرحي كثيرًا.

بقينــا هناك قرابــة الشهريــن والنصــف. كانت منطقــة بيرانشهر شبيهــة بـ«مهاباد» التي قضيت فيهــا أيّامي الأولى في الجبهة - من حيث تعدّد المراكز، والمواجهات المختلفة والمتفرّقة فيها، والجبال المحيطة بها. معظم الاشتباكات وقعت في الكمائن التي نُصبت في أطراف المدينة وفي الطــرق التي يسلكهــا الديمقراطيّون. وقد التفتوا إلى هــذه المسألة، لذا صــاروا يقومون بالاشتباكات خارج المدينــة أكثر منها داخلها. وبالطبع، لأنّ مشكلــة كردستــان قد حُلّــت إلى حدّ ما، لم تحصــل المواجهات يومًا مــن حيث العدد والشدّة كما كانت في مهاباد، ومع هذا، ظلت المواجهات في تلــك المنطقة مستمرّة ومتواصلة بسبب وقــوع بيرانشهر على الحدود الإيرانيّة-العراقيّة، وعلى الخطّ الدفاعيّ الأوّل للعدوّ.

◘

وقعــت في المقرّ بــين جموع الشباب أحــداث بقيــت في أذهاننا لوقت طويــل. حينــذاك، كان في المقــرّ عنصرٌ حديــث عهد بالجبهة، بــدا أنّه يخــاف من بعض الأشياء خوفًا كبيرًا. قال الشباب إنّه لا يذهب ليلًا إلى المرحاض -الذي يقع على بعد مئة متر من المقر- ونتيجةً للخوف، يقضي حاجته على بعد أمتار مــن المقرّ! كان يخشى العتمة، والوحدة، والهجوم

المفاجئ للديمقراطيّين! فقرّرت أن أضع حدًا لخوفه.

ذات يوم فرّغت جميع الأباريق المعدنيّة ما عدا واحدًا ملأته نفطًا. وحيث كان الشباب يعلمون بالأمر، فقد بدأوا منذ حلول الليل بالمزاح والضحك. قرابة العاشرة ليلًا، خرج هذا الأخ من المقرّ، وفيما كنّا نراقبه تحت نور الكشّاف الضوئي الذي أضاء المحيط، لاحظنا أنّه لم يتوجّه نحو المرحاض، فارتفعت أصوات قهقهات الشباب. مرّت خمس دقائق وإذ بصوته يعلو من الخارج. خرجنا مسرعين: «ماذا حصل؟»، فقال وهو يقفز من مكانه ويشتعل غيظًا: «لا شيء!». عدنا إلى المقرّ. وحين عاد سألنا: «متى يمكن للشخص الاستحمام هنا؟».

– عليك الانتظار إلى الصباح وتذهب إلى مقرّ القيادة، فالحمّام هناك!

حين استيقظنا في الصباح، كان قد جّهز نفسه للذهاب، ولكنّه ذهب ولم يعد!

كانت الأيّام في بيرانشهر تمرّ بشكل وبآخر. وكان من بين الشباب أربعة أشخاص من محلّة «شنب غازان»، أحدهم يُدعى حميد، كبرت شهيته على الطعام، لذا أصرّ عليّ بسبب وضع بطني والطعام القليل الذي أستهلكه، أن آخذ حصتين من الطعام وأعطيهما له!

في الفترة التي قضيتها في بيرانشهر، نُفّذت عملية «والفجر4»[1]، وشُغلت العائلة بمراسم تأبين شهيدها الثاني في تلك العملية[2]، ابن

1. نُفّذت عملية (والفجر4) في 1983/10/19م على مدى عشرين يومًا في منطقة «دره شيلر» شمال «مريوان» و«بنجوين».

2. فيما بعد حدّثني أحد عناصر كتيبة الإمام الحسين عليه السلام السيّد علي أكبر مرتضوي (بابا)، عن بطولات حسن نمكي في عملية والفجر4 فقال: قبل العملية كان العراقيّون يواصلون هجماتهم علينا، وقد وقع اشتباك قبل يوم على العملية. كانت ليلة ظلماء، والجميع ينتظرون في مضيق جبليّ ليتقدّموا بعد عملية استطلاع أخيرة لعناصر المعلومات. وفي تلك الأثناء، غفا بعض العناصر من شدّة التعب. وأكملت القوّات التي في المقدّمة طريقها، وبقي في المضيق ما يقارب الخمسة والعشرين شخصًا، من بينهم حسن نمكي. وحين أفاقوا وعلموا بما حصل، قال حسن: أنا أعرف المنطقة جيّدًا، لا نستطيع

خالي ورفيقي القديم حسن نمكي. وخلافًا لليالي مهاباد، راح الشباب في معظم الليالي يجتمعون في المسجد المحاذي للمقرّ، ويصلّون صلاة الليل. كما كانت تُقام مجالس العزاء والأدعية. وبهذه الأحداث انقضت مدّة وجودي في بيرانشهر [كأنّها فترة نقاهة] وعدت إلى تبريز لأبدأ بعدها رحلة جديدة [لم أتنبّأ بما خبأته لي].

---

الوصول إلى القوّات المتقدّمة. كان من المقرّر لهذه المنطقة أن تُحرّر بعد المواجهات ومن دون تدخّل قوّاتنا، ثم نبدأ بعملنا. (كان حسن يعمل دومًا مع قائد الكتيبة علي أكبر رهبري، ويعلم جغرافيّة المنطقة). بدأوا بالتحرّك، وبعد أسر حارسين عراقيّين طهّروا المنطقة. كانت القوّات التي تحرّكت قبلهم قد وصلت إلى أعلى المرتفع، ورأت أنّ مجموعة تشتبك مع العراقيّين في أسفل التلّة وقد فرّقت جمعهم. لم يكن أحد إلى ذلك الوقت يعلم من الذي يقاتل في المضيق. في صباح اليوم التالي، شنّ العراقيّون هجومًا معاكسًا. وأرادوا أن يحاصروا المنطقة بالدبّابات، لكنّ المقاومة تواصلت بشدّة. وشنّ العراقيّون هجومًا أو هجومين على المضيق، ولم يستطيعوا السيطرة عليه. أحيانًا كان أحدهم يقف في المضيق ويطلق قذيفة «B7» على الدبّابة فيحرقها. أخيرًا، مع اشتداد المقاومة واشتداد نيران العدوّ، صعدت مجموعة من المضيق إلى الأعلى. كنّا نظنّ أنّ عددهم كبير، ولكن تبيّن لنا أنّه يتراوح بين العشرة والاثني عشر شخصًا. أمّا الباقون فقد استُشهدوا في المضيق! لقد اسودّت وجوههم من شدة الاشتباكات، بحيث لم أتعرف من بينهم حتّى إلى حسن نمكي الذي قضيت معه عامين. سألني حسن: أين كتيبة الإمام الحسين عليه السلام؟ قلت: ماذا تريد منها؟ قال: «نحن من عناصر الكتيبة. أنا حسن نمكي». يقول بابا إنّه إلى تلك اللحظة لم يعرفه. بعد تلك الملحمة، أستشهد في العملية لاحقًا جرّاء عصف انفجار قذيفة دبّابة.

الفصل السادس
# مخيّم شهداء خيبر

1

في تبريز، بدأ شباب الجبهة يتحدثون عن العملية، وسرعان ما تركتْ وجوهٌ معروفة المدينةَ، الأمر الذي اعتُبر وكأنّه بشارة باقتراب الموعد. أمّا أنا فلم أحتمل البقاء في المدينة، فتوجّهت في أواسط شباط العام 1984م إلى الأهواز. وهناك سمعنا بخبر بدء تنفيذ عملية «خيبر» في جزر «مجنون»![1] كانت تصلنا أخبار الأيّام الأولى منها؛ المعارك العنيفة في الجزر، وشهادة عدد كبير من عناصر الفرقة البارزين نتيجة محاصرة الأعداء لهم، ووقوع عدد آخر منهم في الأسر. جاء خبر استشهاد «حميد باكري» و«مرتضى ياغتشيان»، اللذين كانا نائبين لقيادة الفرقة. حوّل النبأ أيّامنا إلى مأتم، ودلّ أنّ فرقة عاشوراء خاضت في عملية خيبر حربًا ضروسًا، ارتفع خلالها الكثير من قادتها شهداء.

بعد عدّة أيّام، واتتني الفرصة، لأنطلق مع بعض الإخوة من الأهواز إلى جزيرة مجنون مباشرة. تزامن وصولنا إلى الجزيرة مع استلام كتائب القدس للجبهة، فانسحبَ باقي عناصر كتيبة الإمام الحسين عليه السلام وسائر القوّات العاملة هناك. أمّا أنا وقد وصلت لتوّي، فبقيت بين الإخوة التبريزيّين في كتائب القدس التي جمعت متطوعين من كافّة

1. بتاريخ 1984/2/22م وبنداء يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدأت عملية خيبر في جبهة «هور الهويزة» و«جزر مجنون»!

أنحــاء البــلاد. لكن هطلت في تلــك الفترة أمطار غزيــرة غمرت مكان استقرار الكتيبة، فأعادونا جميعًا إلى الأهواز.

▫

بعد عملية خيبر، استقرّت فرقة عاشوراء في منطقة تقع ما بين الأهواز وسوسنكــرد، فتوجّهنا إلى هناك نحن أيضًا. تبعــد هذه المنطقة خمسة كيلومترات عن جــادّة الأهواز- سوسنكرد، وحــوالي الأربعة كيلومترات عــن الجادّة الرئيسيّة، وقد انتقى لها الإخــوة اسمًا على مسمّى، ألا وهو «توبــراق آباد». كانــت أرض «توبــراق آبــاد» رمليّة يحرّكها الهــواء بكلّ سهولة. فعلًا! لقد انتقى الإخوة اسمًا مناسبًا لهذا الموقع الجديد.

وصلتُ برفقة عناصر كتائب القدس إلى «توبراق آباد»، ورحتُ أبحث هنــاك عــن الإخوة في كتيبة الإمام الحســين عليه السلام. كان قد استُشهد من هــذه الكتيبــة أكثر من مئــة عنصر بعد ملحمة بطوليّــة في عملية خيبر، وبقيــت معظم الأجساد في أرض المعركــة، ووقع عدد كبير من الإخوة في الأســر، وجُرح عدد آخر. كان من بــين الأسرى ابن خالي إبراهيم، ومن بين الشهداء قائد الكتيبة «محمّد باقر مشهدي عبادي»، وقد بقيت جثّته كما كثير من الشهداء على أرض جزيرة مجنون[1]. لذا فقد أُعطي من بقي مــن عناصر [هذه الكتيبة] إجــازة. أمّا أنا، ولأنّني جئت لتوّي فقد بقيت. في تلــك الفــترة، كان «محمود دولتي» مســؤولًا للسريّــة الأولى، و«صمد زبردســت»[2] مســؤولًا للسريّــة الثانية، و«خليــل نوبري» مســؤولًا للسريّة الثالثــة. التحقت بالسريّة الثانيــة وكان «صمد قنبري» المعاون فيها. وفي

1. تــمّ العثور على الأجساد المطهّرة للشهيد عبــادي، ومرتضى ياغتشيان وعدد آخر من الشهداء بعد سنــوات على عملية خيبر أثناء عمليــة التقصّي والبحث، وشيّعوا ودُفنوا إلى جانب الشهداء في مقبرة «وادي الرحمة».

2. بعــد فتــرة، أُصيب صمــد زبردست إصابة أدّت إلــى شلله، وفي العام 1995م قضــى في حادث سير مؤسف، وكان يشغل موقع رئاسة مؤسّسة الجرحى في تبريز.

«توبـراق آباد»، أُعطيتُ إجازة أيضًـا لعناصر كتيبة سيّد الشهداء، وكان قائدها «أصغر قصّاب».

◘

بالتزامـن مع عـودة العناصر، انتقلـت الفرقة إلى منطقـةٍ مواجهةٍ لـ«توبراق آبـاد»، بالقرب من مخزن الذخيرة الكبـير في المنطقة. كانت المنطقة حرجيّـة وتختلف عن «توبراق آباد» من جميع النواحي، فسمّاها الإخوة «جنكل آباد"[1]. كما انتقلت كتائب القدس إلى هناك، وبعد التوجيه وإعطائها التعليمات اللازمة، التحقت هذه الكتائب بباقي كتائب الفرقة. طـوال تلك المدّة، بقيتُ في إحدى مجموعات كتيبة الإمام الحسين عليه السلام، وحيث كنت أخاف عودة الأوجاع إلى بطني، لم أكن أشارك الإخوة كثيرًا في أعمالهـم، وبـتّ أشعر أنّني «تعطّلت» ولم أعد أقوم بالعمل كما يجب. فبعـد حادثة سقوطـي، أصبحتُ بالفعل أشعر بالرعـب. في تلك الفترة، توطّدت معرفتي بـ"عبـد الحسين أسدي»، «يوسف فداكار»[2] و «فرج قلي زاده»، وصرت أقضي معظم أوقاتي برفقتهم.

بعـد تبديل القوّات بدأت التدريبات، وخضعتُ حينها لأوّل مرّة، لدورة تدريبيّـة حول مواجهة السـلاح الكيميائي استمرّت شهـرًا؛ التعرّف إلى القناع، التدابير التي ينبغي اتّخاذها في حال القصف بالسلاح الكيميائي و... الشـيء اللافت حينذاك كان قلّة الطعام، وبدل الخبز العاديّ، كانت تصلنا أكياس من الخبـز اليابس، فلم يجد الإخوة بدًّا من الاكتفاء بهذه الكسـرات! أحببتُ أن أكون في جمع الفصيل أكثر من أيّ مكان آخر. ففي الفصيـل، لـكلّ فرد عمل يقوم بـه. أحدهم يغسل الأطبـاق، وآخر يجلب

---

1- تقـع «جنـكل آباد» من الناحية الجغرافيّة تمامًا في الجهة المقابلـة لمنطقة «توبراق آباد» الرمليّة. ومن أجل الحؤول دون وصول الرمال إلى المزارع والقرى، كان الأهالي يزرعون الأشجار التي تنمو في الرمال، فتشكّلت تلك المنطقة الحرجيّة في قلب المنطقة الرمليّة.

2- استُشهد قبل عدّة سنوات متأثّرًا بإصابته بالسلاح الكيميائي.

الطعام، وثالث يحضّر الماء، وشخصان آخران يفرشان البطّانيّات للنوم، ليجمعهما شخصان آخران عند الصباح، والمحصّلة، أنّ مسؤوليّة كلّ فرد تكون محدّدة ومعلومة في الخيمة، وهذا الجوّ جعلها شبيهة ببيت تسوده الألفة الشديدة والمحبة. أمّا أنا، فقد أخذت على عاتقي إعداد الشاي الذي يسهل تحضيره في تلك المنطقة، لكثرة الأشجار وتوافر الحطب لإشعال النار. كنت عندما يختمر الشاي، أصبّ لنفسي أوّلًا في فنجاني الخاصّ- وهو عبارة عن مرطبان مربّى قد فُرّغ من محتواه- فيَفْرَغ نصف الإبريق! ويعلو صوت الإخوة: «سيّد، لقد صببت الشاي كلّه لنفسك!».

في الفترة التي كنّا فيها في تلك المنطقة، كان الإخوة يمزحون ويمرحون كثيرًا. ذات يوم ظهرت غنمة في محيط الكتيبة، فأخذها الإخوة واحتفظوا بها، وراح كلّ شخص يدلي برأيه حول الموضوع، وظننّا أنّ الغنمة لأهالي إحدى القرى المحيطة. قال أصغر قصّاب الذي استلم قيادة كتيبة الإمام الحسين عليه السلام بعد شهادة الأخ مشهدي عبادي: «احتفظوا بها، فلربّما أتى صاحبها للبحث عنها». في اليوم التالي، وحينما كنت أصليّ فريضة العصر، سمعت جلبة كبيرة في الخيمة والمحيط. لقد دخل فناء خيمتنا ثلاثة أشخاص غرباء يلفّون أنفسهم بملاءات بيضاء، وما إن رآهم أحد الأشخاص حتّى أُغمي عليه! لقد حدثت فوضى عارمة في الخيمة. يبدو أنّ هؤلاء الثلاثة تكلّموا مع الإخوة بضع كلمات باللغة العربيّة، فابتعدوا عنهم بسرعة، وحمل أحدهم الـ(B7)، وآخر الكلاشينكوف و... هرعوا إلى خارج الخيمة. وحين رأى هؤلاء الثلاثة أنّ الإخوة حملوا السلاح، لاذوا بالفرار. خرج الجميع من خيامهم وراح كلّ شخص يدلي بدلوه: «من المؤكّد أنّهم أصحاب الغنمة».

- لا يا عمّ!... لكن كائنًا من كان، فقد ميّزتهم قاماتهم الطويلة جدًّا!

- لا نعلم من أين جاؤوا وأين اختفوا!

انتشـر الإخوة في المحيط بحثًا عنهم، لكن، مهما فعلوا لم يجدوا لهم أثـرًا. دار اللّغـط حول المسألة، وسـرت شائعة تقول إنّهـم وجدوا ثلاث نساء في الكتيبة! سرعان ما وصلت سيّارة الإسعاف ونقلت ذلك المسكين الذي أُغمي عليه. بدأت أرجّح أنّ هذا العمل هو من صنع الفصيل الأول، وحـين قلت ذلك للإخوة اعترضوا وقالوا: «على أيّ أساس تبني كلامك، وهل هكذا يكون المزاح؟!».

- لا يوجد هنا عربيّ أو غريب. أيًا كان من فعل ذلك فهو أحد منّا. وإلّا كيف يمكن أن يختفوا في ظرف دقيقة واحدة؟!

في صبـاح اليـوم التـالي، استدعانـا السيّـد أصغـر إلى المراسـم الصباحيّـة، وأنّبنـا كثيرًا: «أيّها الإخـوة! ما حدث بالأمـس، كان عملًا شنيعًا! لقد ساءت حال أخ من الإخوة و...». طأطأنا رؤوسنا إلى الأرض، ونحن نستمع إلى كلامه، لكنّني كنت واثقًا بأنّ الفصيل الأول هو من قام بذلك الفعل، وفكّرت في ردّ الصاع إليهم. فيما بعد، تبيّن أنّ ظنّي وقع في محلّـه، وأنّ ذلك الشخص الطويل ما هـو إلا واحدٌ من عناصر الفصيل الأول ويُدعـى «حسين ركبار». أمّا العنصر الذي فقد وعيه فكان مسعفًا، ولم يعد بعد تلك الحادثة إلى كتيبتنا!

◘

في الفترة التي كنّا فيها في «جنكل أباد» أحببت طبيعة المنطقة، وصرت أقضـي أوقاتـي في تلك الأنحاء بعـد الفراغ من التدريـب الذي يستغرق أربـع أو خمس ساعـات يوميًا. عاشت بين الأشجـار هناك طيور كثيرة، أحببت صغارها، وجلبت عدّة أعشاش إلى الأشجار المجاورة للمجموعة، ورحـت أضـع لها كلّ يوم ما يتبقّـى من الأرزّ، وأستمتـع بمنظر الأمّهات وهـنّ يطعمن فراخهـنّ. ذات يوم سمعت السيّد أصغـر يقول: «إنّ بعض الإخـوة هنا أصبح لاعبًا بالحمام!» [كشّاش حمـام]. ليأتِ الآن وليقسم،

يا عم! أنا لست لاعبًا بالحمام، أنا فقط أقدّم لهذه الطيور ما يتبقّى من طعـام الإخوة. وبسبـب كلام السيّد أصغر، صرت قلّمـا أذهب إلى هذه الأعشاش، ما جعلها في النهاية تترك المكان.

◘

كانت المشاركـة في المراسم الصباحيّة الزاميّة، لكن أحد الإخوة راح يتهـرب من المشاركة فيها وفي التدريبات، ويصرّ عليّ أن يعدّ الشاي بدلًا منّـي بشـرط أن أعمل كي لا يلحظ أحـد تغيّبه أثناء تعـداد الأسماء في المراسـم الصباحيّـة! وافقت على الأمر، وفعلت ما طلـب منّي ليومين أو ثلاثـة. صرت عندما أعـود، أرى الشاي مُعـدًّا والفناجين مصفوفة بكلّ ترتيـب، أمّـا هو فلا أثـر له. وقـد اتّضح فيما بعـد أنّه وأثنـاء المراسم الصباحيّـة، يصعد فوق أشجـار البلّوط ـالتي سمّاهـا الإخوة «البالوت» بحيـث لا يراه أحـد من بين أغصانها وأوراقهـا، ويدخّن السجائر بعيدًا عن أعين قادة الكتيبة! وقد فتّش الإخوة عنه مرّات عدّة ولم يجدوه.

اعتدنـا الذهاب بعد تناول الفطـور إلى التدريب. ولأنّنا من العناصر القدامـى، ومعظـم التدريبات مكرّرة بالنسبة لنا، كنّـا نكثر من المزاح، الأمر الذي لم يرق بعض المدرّبين. كان «التحرّف»[1] أحد تمارينا في مادة الطبوغرافيـا، فدأب قائـد سريّتنا السيّد صمد وقبـل تحرّك العناصر، علـى السير مـع عنصر أو عنصرين طبقًا لانحـراف محدّد. على سبيل المثـال، خمسمئة مـتر بانحراف معـين، وألف متر بانحـراف آخر، وفي نهاية كلّ انحراف، يتـم وضع الماء وعصير الفاكهة المعلّب، والبسكويت، لكـي يتناولهـا العناصر الذين يصلـون ليلًا إلى تلك المناطـق. عادةً ما كان يُعلـن بعد الانطلاق من خلال الجهاز مقـدار المسافة التي علينا أن نقطـع وبأيّ انحراف. كان تمرينًا جيّدًا، لكنّه أوقعنا ذات ليلة في مشكلة

1- أو «الانحراف بزوايا»؛ (التدرب على المسير مع توجيه البوصلة في زوايا وتحرفات محددة).

كبـيرة. انطلقنا، وبعد قطع مسافة من الطريق، تمّ الإعلان عبر الجهاز اللاسلكـي بأنّه يجب علينا التقدّم بانحـراف 45 درجة. سرنا على هيئة طابـور مسافة كيلو متر، وأنــا بقرب عنصرين هما ابن خالي علي نمكي و«السيّـد علي أكبر مرتضـوي» من أهالي هريسـ، وكان الإخوة ينادونه بـ «بابـا» مع أنّه من جيلنـا. تقدّمنا قليلًا وإذا بـي أرى صندوقًا مملوءًا بقذائـف الـ(B7) قلـت: «بابا! أتعلـم، إمّا أن نكون قـد أخطأنا بتطبيق درجـات الانحراف، أو أنّهم اشتبهوا فيها، هنا يوجد مخزن ذخيرة، ولا يسمـح لأحد بالاقتراب، فكيف أخذوا هذا الانحراف و...». لم أكد أنهي جملتي حتّى علت الأصوات في المكان: «توقّف!... توقّف!».

يبـدو أنّ حرّاس مخزن الذخيرة كانوا يتناولـون الطعام حين سمعوا أصواتنـا ورأوا طابـورًا مـن العناصـر يدخل محيط مخـزن الذخيرة! فتأهّبـوا مباشرةً، وراحوا يصيحون بنا: «توقّف... توقّف»، وقطعوا علينا الطريق وحاصرونا.

- لا تتحرّكوا! إن فعلتم ستنفجر الذخيرة!

- ألقوا بأسلحتكم إلى الأرض!

كانـوا يتكلّمـون الفارسيّة، ومهما قلنـا لهم إنّنا منكـم ودخلنا خطأً إلى المنطقـة، لم يقبلوا منّا. تقدّموا نحونا بحذر، وراحوا يركلون الإخوة ليباعـدوا بين أرجلهم. فتّشـوا الجميع جيّدًا، أخـذوا الأسلحة، ومن ثمّ راحـوا يسألوننا من نحن ومن أين أتينـا؟ بعدها، اتّصلوا بالمقرّ ليتبيّنوا صحّـة أقـوال مسؤولنا. بقينا تلك الليلة هنـاك، إلى أن تمّ الاتّصال من المقرّ بفرقـة عاشوراء، ومـن الفرقة بكتيبة الإمـام الحسين عليه السلام، ومن الكتيبـة بالسرية واتضحـت المسألة. مع انبلاج الصبـح عدنا إلى نقطة تمركزنـا. وفيما كنـت أمرّ من أمـام دشمة الأخ «صمـد زبردست» وقع نظري عليـه فقلت له: «أخ صمد، سأمشي بانحراف 45 درجة!» ،وانتشر

كلامـي بين الإخوة. ومنذ ذلك الوقت صرت كلّما قلت هذه العبارة للأخ صمد يستاء ويقول: «باللّه عليك يا سيّد لا تقل هذا الكلام بعد!».

في تلك الظروف التي استمرّت قرابة الشهرين، شعرنا بالوقت يمضي بنحو أسرع مع هذه الأحداث والمشاكسات؛ بينما كانوا في وحدة المعلومات والاستطـلاع والمقرّ يعملون على جمع المعلومات وإعداد الخرائط للعملية القادمة، فيما انتظرنا جميعًا أوانها.

◘

تـرك عدد مـن العناصـر المنطقة الحرجيّـة وذهبوا في إجـازة، أمّا نحـن الذين انتقلنا حديثًا إلى الأهواز، فقـد علمنا بإنشاء مخيّم جديد لفرقـة عاشوراء يقع بالقـرب من مثلّث الحسينيّة علـى بعد 35 كلم من «خرّمشهر»؛ وقد أُطلق عليه اسم «مخيّم شهداء خيبر».

تزامنت تلك الفترة مع أيام شهر رمضان المبارك، وكي لا يبطل صيام الإخوة تقـرّر نقلهم إلى المخيّم عند العصـر، ليعملوا طوال الليل، وعند الفجـر يرجعونهـم إلى الأهـواز. وخاصة أنّه لا يمكـن تحقيق إنجازات أفضـل في تلـك الأجواء الحارة جـدًّا سوى في جوف الليـل، حيث للعمل تحـت النجوم رونقه وصفاؤه الخاصّ. كانت المنطقة عبارة عن صحراء ممتـدّة، عملت الجرّافات فيهـا من قبل على حفر أماكـن للدشم بعمق متريـن ونصف، وأبعاد مترين بثلاثة أمتـار. وتوجّب علينا تعبئة أكياس التدشيـم بالرمل وبناء الجدران بهـا، وغطّينا سقف الدشمة بألواح من الخشب، وثبتنا عمودًا في وسط الدشمة كدعامة للألواح، ثمّ وضعنا على الألواح عوارض خشبيّة وغطّيناها بالنايلون، لنهيل بعدها التراب عليها. استمررنـا في هذا العمل عدّة ليالٍ متتاليـة، إلى أن كان التعب يحلّ على الإخـوة ما بين الثانية والثالثة بعد منتصف الليل فيلتقط كلّ واحد منهم بطانية ويأوي إلى زاوية لينام فيها.

ذات ليلــة استفقــت من نومــي إذ سمعت هديــرًا عاليًــا. صعب عليّ الاستيقاظ من شدّة التعب، لكنّ الهدير بات يشتدّ كلّ لحظة. فكّرت انه لا بد ســوف ينقضي وينتهي. لكنّه لم ينقضِ وينتــهِ. رفعت البطانية عن وجهي وأنا نصف نائم، وأدرت وجهي وإذ بي أمام عجلات جرّافة! أطار الرعب النوم من عينــيّ! وفي ثانية واحدة نهضت ولذت بالفرار فتوقّفت الجرّافة بعد لحظات! بعد عدّة دقائق علمنا ما حدث. كان بين العناصر شخــص يُدعى «محمّد» وهو مــن شباب الإعلام، ومســؤول التنسيق في [الجنة] بناء المسجد، لكنّه لم يكن ينسّق مع أحد، لا فيما يتعلّق بالمسجد، ولا حتّــى فيما يتعلّق بدشمته، وحين نسأله عــن الأمر يقول: «سآتي يومًا ما بجرّافة وأقوم بعملي». وعلى ما يبدو، فقد قرّر تلك الليلة القيام بعمله وجــاء بالجرّافــة! كان سائقها من أهالي «بناب»، وحــين رأى البطانيات منتشــرة على الأرض ظــنّ أنّ الإخوة قد تركوها وذهبــوا، وحتى محمّد نفســه الجالــس إلى جانبه، لم يعلم بأنّ تحــت كلّ بطانية ينام وأحد من الإخــوة. قــال السائــق: «أسفت لفكرة تمــزّق البطانيــات تحت عجلات الجرّافــة، ففكّرت بأن أمرّ من فوقها بحيــث لا تدوسها العجلات وتبقى سالمــة، وأتمكّن مــن رفعها». صــادف أنّ البطانيات كانــت متناثرة هنا وهنــاك، لكنّــه بالفعل، تفنّن في المــرور فوق ثلاثة منهــا كانت مصفوفة وراء بعضهــا البعض! والمحصّلة، أنّ سائــق الجرّافة ذُهل حين اتّضح له الأمــر ، فترجّــل من الجرّافة مــن دون أن ينبس بنت شفــة، أو يأتي بأيّ حركــة. لم يصدّق الإخــوة الذين مــرّت الجرّافة من فوقهــم ما حدث، وجُــرح فقط رأس ابن خــالي علي نمكي عندما لامسته عجلات الجرّافة المطّاطيّــة. بلطف اللّه وعنايتــه، لم يحدث شيء للإخــوة في تلك الليلة، ولكنّهــم أطلقوا لقبًا غير ملائم على عنصر الإعلام بسبب تصرّفه غير المسؤول، وناديناه به لمدّة طويلة!

كان مخيّم شهداء خيبر كأرض كربلاء؛ صحراء قاحلة وحارّة. يُقال إنّ درجة الحرارة هناك فاقت الـ 55 درجة، فاحتجنا نسمات مُرطّبة كي تلطّف الأجواء، وقد وجدناها. كان الجوّ حارًّا لدرجة أن يذوب قالب الثلج أثناء نقله من مقرّ التجهيزات إلى الدشمة التي تبعد عنه مسافة مئة متر، لتبقى منه قطعة صغيرة فقط، فنعمد إلى وضعها في البرّاد البلاستيكي الموجود في الدشمة. أمّا مياه الخزّانات فكانت تسخن إلى درجة لم يكن من الممكن استعمالها بسهولة طوال النهار حتّى للوضوء. يقولون لو أنّ بيضة وضعت في الخارج لنضجت! كنّا نمضي الوقت في الدشم التي بُنيت تحت الأرض، لأنها كانت أبرد نوعًا ما. استهدفت قذائف العدوّ المدفعيّة، المصنّعة فرنسيًّا، المخيّم مرّات عدّة، وتسبّبت لنا بخسائر، لذلك كنّا نتجنّب التجمّع قدر الإمكان. كانت جميع كتائب الفرقة مستقرّة هناك ما عدا قسم التجهيزات، والمواقع يتصل بعضها ببعض عبر الطرق الترابية. أحيانًا، كانت تمرّ سيّارة من أمامنا ونحن عائدون من الحمّام، فتعفّرنا بالتراب من رأسنا إلى أخمص قدمينا. أمّا المراسم الصباحيّة، فتقتصر على قراءة آيات من القرآن الكريم خوفًا من مدفعيّة العدوّ، ثم تتفرّق السرايا الواحدة تلو الأخرى، لتعدوَ في المسار المحدّد لها. كانت المسافة بين مدخل مخيّم شهداء خيبر وطريق الأهواز ـ خرّمشهر لا تتجاوز الكيلومتر الواحد، أمّا مكان استقرار الكتائب فيبعد عن الشرطة العسكريّة للمخيّم قرابة 5كلم. اضطررنا كلّ صباح لقطع هذه المسافة ركضًا حتى نصل إلى الطريق فنعود، وهكذا وصلت المسافة التي نقطعها إلى قرابة الاثني عشر كيلومترًا. وبالطبع، يتراجع عدد الإخوة في طريق العودة إلى النصف، فبسبب الحرّ الشديد، وطول المسافة، كان البعض يُصاب بالإعياء، أو يُغمى عليه...

في تلـك الظـروف وجدنا لعبة كـرة القدم أحد الأنشطـة التي نشغل بها أنفسنا. فعدا المراسم الصباحيّة، والتدريبات، بتنا نلعب كرة القدم يوميًّـا، وكان لهـذه اللعبة معـي حكاية أخرى! لم أكن منـذ البداية أحبّ الحـذاء العسكري، وحتّى في العمليات كنت أفضّـل انتعال حذاء كتّانيّ، لأتحـرّك بنحو أسرع وأخفّ. وفي المخيّم أيضًا كنت غالبًا ما أتنقّل حافي القدمـين، لذا، صار الإخوة ينادونني «اياق يالين»[1]. ومن شدّة ما مشيت في الجـوّ الحارّ وعلى الرمال اللاذعة، أصبحت قدميّ قويّتين وقاسيتين. اعتـدت لعب كرة القدم حافيًا، لكنّني أحيانًا كنت أركل الإخوة بضربات تهشّم أقدامهم داخل الحذاء العسكري! بالطبع، لم نكن نجيد اللعب على أصولـه، ما عدا علي نمكي فقط، فيما صـرتُ أغشّ في اللعب إلى درجة ترتفـع فيها صيحات اللاعبين! عادة ما كنـت وعلي نمكي، و «علي رضا فغاني» و «علي قره»[2] نلعب في فريق واحد، وجميعنا نغشّ في اللعب. ذات يـوم، ارتكبنا عمـلًا مشينًا. فقد تقدّم حارس مرمانـا إلى الأمام وترك المرمـى خاليًا! ومـا هي سوى لحظـات، حتّى توجّه شخـص من الفريق الخصـم نحو مرمانا. فورًا، ركلت رِجْله لآخذ الكرة منه، فسقط أرضًا. بعـد لحظات، نهض وتوجّه نحوي مندهشًا. كان يرمقني بنظرات ظننت معها أنّه جـاء ليضربني! لكنّه نظر إلى قدمي الحافية بتعجّب وقال: «يا فتى! لقد كسرت رجلي داخل الحذاء العسكري، كيف هي رجلك هذه؟!».

▫

في السريّـة كنّـا فصيلين جيّديـن؛ شباب حذقين وأذكيـاء انسجمت عقولنـا فيما بينها، وبين فـترة وأخرى كرّرتُ وبعضـ الإخوة الفرار من المخيّم. وحيث نُصبت الأسلاك الشائكة حوله، فقد حدّدنا مكانًا حفرنا

---

1- حافي القدمين.

2. كان الإخوة ينادونه «علي سياه» [علي الأسود]، لأنّه كان داكن البشرة.

فيه تحت هذه الأسلاك ليكون مهربًا سهلًا لنا. أحيانًا كنت أغادر خلسة مع علـي نمكي، وعبـد الحسين أسـدي، و«علي رضا فغـاني»، و«يعقوب نيكبـيران» من المخيّم، ونذهـب إلى الأهواز حيث نبقى ليـوم أو يومين. ولأنّ المراسـم الصباحيّة كانت مختصـرة، لم يلفت الأنظار نقص عدد العناصر وازدياده. ورغم انتبـاه مسؤول فصيلنا «يوسف»، إلا أنّه تعامل معنـا بنحو جيّد واحترمنـا لكوننا أقدم منه في العمـل، ولم يتوقّف عند المسألة كثيرًا.

ولـو قبض حارس المخيّم علينا متلبسين، لكنّـا عوقبنا عقابًا شديدًا. لكـنّ الشباب كانوا حذقين لئلا يلتفت أحـدٌ لهروبهم. حتمًا، عندما كنّا نعـود إلى المجموعة، يشرع الإخوة بالتعليق على ذلك ممازحين: «الحمد للّه على السلامة» و«أهلًا وسهلًا».

◘

أحمـل آسفًا ذكريات مؤلمة أيضًا من «مخيم شهداء خيبر». ذات يوم خرجنـا من المخيّم قاصدين الأهـواز. وقفنا إلى جانب الطريق بانتظار سيّـارة تقلّنا، ومهما لوّحنـا بأيدينا للسيّارات المارّة، لم يكن ذلك يجدي نفعًـا، لأنّها إمّا تكون ممتلئة بالركّاب، أو أنّ السائقين يمتثلون لتعليمات القيادة بعدم التوقّف للعناصر على الطريق لأسباب أمنيّة. وفيما ننتظر إلى جانب الطريق الترابيّة، وإذ بآلية «إيفا» تظهر من بعيد. وما إن مرّت بالقرب منّا، حتّى رجعـت فجأة نحونا وباغتتنا! قفزت وأحد الإخوة إلى الخلف، وصدم السائق ثلاثة إخوة ولاذ بالفرار. شعرت بدمائي تغلي في عروقي. وقع الجرحى من شباب تبريز، لكنّني لم أعرف أيّ واحد منهم، واستُشهد منهـم في نفس اللحظة أخ سُحق جبينـه، وأُصيب الشخصان الآخـران بجـراح عميقة. حزنـا في أمرنا وكنّا غاضبـين، إلى أن وصلت سيّارة تويوتا من فرقتنا، ومباشرةً وصلت سيّارة الإسعاف. وضعنا جسد

الشهيد والجريحين داخل سيّارة الإسعاف، وانطلقنا بسيّارة التويوتا نفسها. وفي الطريق تراءت لنا آلية الـ«إيفا» من جديد، وفجأة انحرف سائق سيّارة الإسعاف عندما تفاجأ بسيّارة أمامه، فانقلبت عن الطريق أمام أعيننا ثلاث أو أربع مرّات.. يا لها من مصيبة! لم نتوقّف وأسرعنا لنلحق بآلية الـ«إيفا»، ومن خلفنا أتت السيّارات لنجدة من في سيّارة الإسعاف. في النهاية، وصلنا عند نقطة التجهيزات إلى آلية الـ«إيفا»، وهي النقطة المحددة لتوقّف السيّارات. اعتقلنا الشخصين اللذين كانا يركبان السيّارة، وتركناهما عند نقطة الحراسة، وعدنا مباشرة إلى مكان الحادث الذي وقع لسيّارة الإسعاف. وجدنا أنّ الجريحين سُحبا منها، ولحسن الحظّ لم يصابا بإصابات جديدة. عدنا من جديد إلى مكان التجهيزات، وأحضرنا راكبي آلية الـ«إيفا» إلى مقرّ الفرقة، وسلّمناهما إلى مركز القيادة. كنّا نعلم أنّ مركز القيادة وجريًا على العادة، سيحوّلهم إلى قيادة الأركان لينالوا جزاءهم. لم يغب عن بالي لمدّة طويلة، مشهد ذاك الجرم الشنيع، وشهادة ذلك الشهيد المظلوم. كانت الجبهة ملأى بالعناصر المخلصة والمضحّية، لكن كان فيها أيضًا منافقون يندسّون بين الإخوة، ويتحّينون الفرص لبثّ سمومهم.

◘

بقيت مسؤوليّتي في الفصيل إعداد الشاي كما في السابق، وأقبلَ الإخوة على شربه لرفع عطشهم والتعويض عن قلّة ماء الشرب وشحّه في تلك الصحراء. أحبّ جميع الإخوة في الفرقة الشاي، لكنّ إعداده في مخيّم شهداء خيبر لم يتيسّر بسهولة نظرًا لقلّة وجود النفط. أعددت إلى جانب دشمتنا موقدًا صغيرًا من الطين، ووجدت خرطومًا، مددته إلى داخل الموقد ليتقاطر منه النفط نقطة نقطة، وصرت دائمًا أوقد النار في هذا الموقد لأعدّ الشاي. وحيث طبيعة المنطقة صحراويّة، ليس

فيها شيء من العشب والحطب لإشعال النار، فقد ازدادت أهميّة النفط عندنـا، خاصّة أنّـه كان يوزّع بكميـات قليلة أيضًا؛ ثلاثـة غالونات لكلّ الكتيبة. لكن لم نقصّر نحن أيضًا، وسعينا لتأمينه لفصيلنا بأيّ طريقة. دأب الإخـوة في التجهيزات على توزيع النفط على شكل حصص، وذلك أوّلًا لمـلء المصابيح والمدافئ [ببّور عـلاء الدين] التي احتجناها ضروريًا لتسخـين الطعام، ومن ثمّ تنـال السرايا ما يتبقى منـه لتقوم كلّ سرية بتوزيـع النفـط على فصائلهـا. وبالمحصّلة كانت حصّتنـا لا تكفي حتى لتحضير الشاي، لذا، فكّرنا أن نؤمّن النفط بأنفسنا.

شكّل بضعة شبّان مع «علي ذو الفقاري»، «يونس بهجت نيا»، «محمّد ميـلاني» مجموعـة الشغب، فقامت بـكلّ شيء على الأصـول؛ شقاوتها، قتالها، وأيضًا عبادتها. قرّرنا وهـؤلاء الأصدقاء غزو خيمة التجهيزات وسرقـة النفـط منها. هذا والحـال أنّ التجهيزات كانـت تحت إشراف أشخاص أمثـال «حسن باتك» و«أيّوب عمـو اوزوم سويي»[1]، اللذين كانا أقوى منّا في الهجوم المضادّ بأضعاف مضاعفة! بالإضافة إلى ذلك، تميّز حسن باتك بالشجاعة، وقصص هجوماته المضادّة جديرة بالسماع!

ذات يوم وبينما كنّا نبني دشمة، رأيت حسن يتوجّه نحونا. ومن شدّة إتقانه للهجوم المضادّ، صار الإخوة ينادونه بلقب خاص. قال لي الإخوة: «انتبـه! إنّه آتٍ ليأخذ العربـة النقّالة منّا». قلـت: «إنّ العربة النقّالة في يـدي! فليأتِ لنرَ كيف سيأخذهـا منّي!». وصل حسن ونظر إلى الدشمة. أثنـى على عملنـا وساعدنا قليلًا، فملأ عدّة أكياس رملًا، ونقل بعضها مـن مكان إلى مـكان، وأنا لا أعلم من أخـذ العربّة النقّالـة! بل انتبهت فجـأة إلى أنّها ليست معي ولا مع الإخوة، ورأيناها بعد ساعات في خيمة التجهيزات.

---

1- «عمو أيّوب عصير العنب»! رحم الله السيّد علي أكبر مرتضوي الذي أطلق عليه هذا اللقب في شعر له، فصار الإخوة ينادونه بهذا الاسم!

ولي مـع حسـن باتـك ذكريـات مشتركـة. ذات يوم كنـت وحيدًا في طريـق العودة من إجازة، وقـد أزعجتني مـن أوّل الطريق فكرة ذهابي من تبريز إلى الأهواز وحدي، وخاصّة أنّهم أوصوا جميع المجاهدين بأن لا يُشرّعـوا الأبواب للأحاديـث الجانبيّة عندما يكونون وحدهم في المدن وعلى الطرقات، إذ من الممكن للطرف المقابل أن يأخذ من هذا الحديث معلومـات قد تشـكّل خطرًا على العملية. باتت هـذه التوصية واحدة من وسائـل حفظ المعلومات وحمايتها، وكنّا جميعًا ملتزمين بها. ظننت أنّني سأظـلّ بلا رفيق إلى أن أصـل إلى الأهواز. وفيما أنـا أفكّر بهذا الأمر، وإذ بي أرى حسن باتك جالسًا على المقعد الأمامي فانفرجت أساريري. بـدّل حسن مكانـه وجلس إلى جانبي، فتيقنـت حينها بأنّنـي سأقضي وقتًـا ممتعًا حتّى وصـولي إلى الأهواز. وفي الطريـق، تعرّفت إليه أكثر. سألتـه عن عمله في المدينة، فقال إنّه سائق حافلة في شركة النقل العام، وإنّـه يعمل على خطّ «مـارالان». عندما توقّفنا في أحـد المطاعم لتناول الطعام، قدّموا لنا طعامًا بائتًا ورديئًا. فعلًا، دفعنا المال لقاء طعام غير صالـح للأكل، لكن لم تكن باليد حيلة، وأكلنـا منه مكرهين لسدّ جوعنا قليلًا، وقمنا لنصلّي. وفي الأتوبيس قال لي حسن: «ظنّنا صاحب المطعم أغبياء!». فسألته: «كم كانت خسارتنا؟!»

– مئة تومان! لكن اصبر!

قـال هذا، ومدّ يـده إلى جيبه وأخرج منها ملعقـة، سكّريّة، مملحة، وفنجـان و.. وكان يصفّهـا واحـدةً واحـدةً علـى ركبتيه ويقـول: «هذه السكّريّـة بعشر تومانات، وهـذه الملعقة بخمسة تومانـات، و..»، قلت له بتعجّب: «إذًا، لم نتكلّف أيّ خسارة!».

◻

حين كنّا في «جنكل آباد»، عانينا نقصًا في التجهيزات إلا في الذخيرة.

علـى سبيل المثـال، عانى الإخوة نقصًا في الأحذيـة العسكريّة، وحتّى في الخبـز والطعام. يومـذاك، ركب حسن باتك سيّـارة تويوتا قاصدًا مقرّ فرقـة أخرى، وهو يبتغـي الصلاة في المسجد. بعـد الصلاة، وحين كان خارجًـا، التفت إلى أنّه لا أحـد سبقه، فباشر العمل؛ أحضر التويوتا إلى جانب المسجد، ونقـل كلّ الأحذية العسكريّة إلى صندوق السيّارة! وحين أتـى إلى الكتيبـة، حُلّـت مشكلة الأحذيـة العسكريّة! صـادف أن شاهد تلـك الليلة أيضًا في ذلك المـكان حمّامًا متنقّلًا، فذهب لاحقًا لاستطلاع المنطقة، وفي الليلة التالية ذهب بسيّارة التويوتا إلى هناك، وربط الكبينة بصنـدوق السيّارة. وفيما هو خارج من ذلك المقرّ، اعترضه عناصر من الجيشـ وقالوا له: «حسنًا فعلت! نحن أيضًـا نريد نقل الحمّام إلى هذه الناحيـة مـن الطريق، تعـالَ الآن لنتكلّم معًا!»، ردّ حسـن عليهم قائلًا: «حاضر»، ومشى خلفهم. كان عناصر الجيش يسيرون أمامه ببطء وهم يشغّلون المصباح الكاشف، وما إن وصلوا إلى الطريق العام، حتّى ضغط حسن على دوّاسة البنزين! وابتعد بسرعة عن المكان، وجلب الحمّام إلى كتيبتنـا. لم يعرفـه أحد تلك الليلة، ولم يعلمـوا لأيّ فرقة ينتمي ليتابعوا القضيّـة. وإنّما أُضيفـت ذكرى أخرى إلى ذكريـات هجوماته المضادّة، وسهّل الحمّام علينا أمورنا.

الخلاصـة، أنّ حسـن باتك في تلك الفـترة، كان يخدم الإخـوة جيّدًا بهـذه الطريقة. ذات مـرّة أخبرنا بنفسه القصة التاليـة. قال: «كنت آتيًا من طريق مقـرّ خرّمشهر، فرأيت السيّارات قـد اصطفّت هناك. وجّهت صندوق التويوتا باتّجاه صفّ السيّارات، ترجّلت منها، ووضعت المفاتيح على السيّارة. وفورًا ملأوا صندوق السيّارة ونادوا على السائق، لكنّني لم أجب! عندمـا رأوا أنّه لا أثر للسائق والسيّـارات الأخرى منتظرة، جرّوا السيّارة باتّجاه الطريق وتابعوا عملهم. ولمّا انشغلوا كلّيًّا، أدرت السيّارة وابتعدت من هنـاك! لا زلت أذكر أنّ مقدار الزبدة بعد ذلك المقلب، كان كبيرًا جدًّا في

مركز التجهيزات، بحيث صرنا نأكلها مع كلّ وجبة غذائيّة!».

مـع كلّ تلك الأحـداث التي عرفناهـا، قرّرنا أن نغـزو أمثال «حسن باتك»!

في البداية وضعنا خطّة، وانتظرنا إلى وقت استراحتهم لننجز مهمّتنا. لم يكن عناصر التجهيزات عادة يشاركون في المراسم الصباحيّة، وكانوا ينامـون من بعد أذان الصبـح إلى حين موعد تقديم الفطور. بقينا حول الخيمـة منتظريـن نراقبهـم واحـدًا واحـدًا، إلى أن حملنـا غالونًا من الغالونات التي خبّأوها تحت الخيمة، وابتعدنا عن المكان مسرعين، وإذا بمسؤول الدعم في السرية ينبت أمامنا! كان شخصًا قويّ البنية وضخمًا مـن أهالي «خسروشهر». ما إن رأى الغالون في يدنا حتّى فهم كلّ شيء: «أين تأخذون هذا الغالون؟».

- إنّه لنا!

- لا، إنّـه يخصّ أحـد السرايـا. بالمناسبـة، في كلّ سريـة قيـادة، اتّصالات، تجهيزات و.. وبعدها يأتي دور فصيلكم..

قلـت: «انظـر إليّ واسمع مـا أقول لك. إنّنـي لن أسلّم هـذا الغالون لأيّ شخـص كان! لا إلى السريـة! ولا إلى الكتيبـة! إمّـا أن آخذ الغالون إلى دشمتنـا أو أريقـه هنـا على الأرض!». كان تهديدًا كبـيرًا، لكنّه لم يصدّق. قال: «لا تستطيع أن تريقه على الأرض»، ومن أجل أن أريَه أنّني مصرّ على موقفـي، فتحت سدّادة الغالون، وأرقت قليلًا من النفط على الأرض، فارتفع صراخه: «لا! لا! لم أقصد.. خذه واذهب!»، نقلنا الغالون بـكلّ عزّة واحترام إلى دشمتنـا، وهيّأنا له مكانًا جيّدًا. وليكون في مأمن مـن هجمات الآخريـن وأطماعهم، كنّا نراقبه مـداورةً! أستطيع القول، وبكلّ جرأة، أنّنا كنّا الوحيدين في مخيّم شهداء خيبر الذين لم يعانوا في إعـداد الشاي. في أوضاع المخيّم الصعبـة، لطالما رفعت تلك المشاغبات

عنّا رتابة الأيّام إلى حدّ كبير.

◘

إنّ حرّ المنطقة الذي لا يُطاق من جهة، وعدم الانشغال بأيّ شيء سوى التمرينات نفسها من جهة أخرى، حبسنا نحن الخمسة والعشرون نفرًا في دشمة مساحتها (2،5 م × 3،5 م). طوال النهار لا نستطيع الخروج لشدّة الحرّ، وطوال الوقت لا نستطيع التحرّك داخلها. كثيرًا ما زادت الأزمة حين يتساقط التراب من سقف الدشمة على رؤوسنا أو في طعامنا وشرابنا! مع أنّنا وضعنا عليه شراشف النايلون. ولليل حكاية أخرى أيضًا، فنظرًا لضيق المكان الشديد، كان بعض الإخوة ينامون على حقائبهم الشخصيّة، أو على وسائل التجهيزات، حتّى على الثلّاجة! ولكن معظم الشباب يؤدّون صلاتهم جماعة في مصلّى الكتيبة. أمّا بالنسبة لصلاة الليل فقد بات من الواضح جدًّا أنّه لا مجال لأدائها في الدشمة.

ما أثقل الأيّام وهي تمضي ببطء! فإلى متى يستطيع المرء أن يستمر في سرد القصص والأحداث، ويستمع إلى الذكريات ويلعب كرة القدم؟! إضافة إلى ذلك كلّه، كان الحضور الإلزامي في صفوف التمارين، عقابًا فعلًا، وتحمّله أصعب من سائر الأعمال[1]. فمن أجل التخفيف عن أنفسنا رحنا نشاغب أحيانًا كما أطفال المدارس، ونشاكس ونضحك ونقوم بأعمال تضطرّ المدرّب لإخراجنا من حلقة التدريب والتخلّص منّا..! أشار أحد المدرّبين إليّ مرارًا مكرّرًا: «عندما يحضر هذا السيّد في الصفّ، يثير الفوضى!»، وكان يطلب منّي دومًا إمّا أن لا أحضر التدريب،

1.عادةً ما كان يأتي بعد كلّ عمليّة عناصر جدد إلى الكتائب، فكان تدريبهم أمرًا ضروريًّا. أمّا بالنسبة للعناصر القدامى في الجبهة فكان هذا التدريب مكرّرًا ومملًا. لقد كرّرنا التدريبات التي خضعنا لها لأوّل مرّة في «خاصبان» ربما ثلاثين مرّة. كان المدرّبون عندما يروننا يقولون لنا: «إنّنا نخجل من تعليمكم كيفيّة استعمال القنابل والـ(B7) وقد استخدمتموها مئات المرّات». بقيت نفس التدريبات إلزاميّة للعناصر القدامى إلى حين انتقال الفرقة إلى ثكنة «الشهيد باكري» في دزفول حيث اتُّخذ القرار بوضع برامج تدريبية لهم تختلف عن تلك الخاصة بالجدد.

أو أن أهدأ وأدع الآخرين يسمعون.

التدريبات الوحيدة التي حملها حتى العناصر القدامى على محمل الجدّ، كانت الوقاية من السلاح الكيميائي «NPC»، فالاستعداد والتجهّز لمواجهة الهجوم الكيميائي يتطلّب مهارة عالية لا يكفي برأيي لتحققها تكرار الدورة ولو لثلاثين مرة. أحد التمارين في هذه الدورة هو وضع القناع الواقي في ظرف ستّ ثوانٍ، في حال أنّ معظم الإخوة لم يكونوا يستطيعون وضعه في ظرف ستّ دقائق. لم يكن يُسمع همس أحد أثناء تلك التدريبات، فالجميع يتوجّهون بكلّ حواسهم إلى المدرّب. واقعًا، كان من الصعب التحقّق من الهجوم الكيميائي عن طريق حاسّة الشمّ، ثم حبس النفس مباشرةً ووضع القناع في ظرف ستّ ثوانٍ بحيث لا ينفذ الهواء الملوّث إلى الرئتين من أيّ منفذ! ثم يحدّثونا أيضًا حول القنابل الذريّة، وبأنّها تأتي على كلّ شيء ضمن شعاع يتراوح ما بين الـ 60 و 100كلم. قلنا لهم عندما سمعنا هذا الكلام: «إذًا ماذا نفعل نحن في هذه الحال؟!»، على الرغم من أنّ المعلومات التي أعطوها عن القنابل مفيدة، إلّا أنّ تصوّرها والتفكير فيها حقًّا أثار رعبنا. توصّلت على امتداد فترة الحرب إلى نتيجة مفادها أنّ القوّات المحاربة في التعبئة والحرس، يخضعون لتدريبات متواصلة ومفيدة، ولهذا صرت أستاء وأتألّم من الأحكام المجحفة لبعض ساكني المدن الذين كانوا يبدون رأيهم فيما يتعلّق بالحرب، ثم يختمون كلامهم بأنّ عدم خبرة قوّات التعبئة والخسائر الكبيرة في صفوفهم، إنّما تعود إلى ضعف التدريب. طوال فترة الحرب، أوجد ضعفنا الإعلامي، تصوير العدوّ عاجزًا، احتلال عناصر التعبئة لتلّة بنداء «الله أكبر»، المعارك البسيطة والخاطفة، صورةً أوّليّة (غير مكتملة) عن الحرب. لكنّ وضع العوائق الكثيرة والمعقّدة جدًّا على امتداد كيلومترات، وحقول الألغام الواسعة، والدشم المثلّثيّة الشكل و.. كانت دليلًا واضحًا على هذا الادعاء، وهو أنّ

العدوّ، كان أكثر من أيّ شخص آخر على معرفة بقدرة قوّاتنا، ولياقتهم الفكريّـة والقتاليّة، وعليه، وضع في الجبهة، بمساعدة داعميه الأجانب، كلّ ما أمكنه من العوائق في طريقنا.

▫

من برامج المخيّـم، إلى جانب التدريبات العسكريّة، حضور الدروس الدينيّـة. واستفاد منهـا الشباب غالبًـا كي يطرحوا المسائـل والأحكام الدينيّـة عندمـا يجتمعـون في مكان ما. علـى سبيل المثال، قـرأ البعض الصـلاة على مسامـع الجميع، حتّـى إذا ما وُجد فيها إشـكال يُحلّ. لم يعـيّن هناك شخـص محدّد لتصحيـح الأخطاء، بـل كلّ شخص يعرف معلومـة يبادر لذكرها لتحصـل الفائدة للجميع. ولكـي يكون الإخوة في هـذه الجلسات مرتاحين، ولا يخجلوا من الأسئلة التي قد تخطر ببالهم، لـزم أن يسـود الجمع جوّ حميمـيّ. لذا، تصدّيت وعبـد الحسين أسدي لتقليـد كلّ شخص بلهجته وطرح النكات. عادة ما اعتُبِر التكلّم في جمع الحضـور بالنسبـة للإخوة الترك أمـرًا صعبًا، عدا مـن كان منهم من الطبقة المثقفة أو قارئًا للقرآن، وهم قلّة مقارنة بأعداد المجاهدين. لذا، كنـت وأسدي نُضحـك الإخوة بلعب كلّ دور نتقنـه، فتزول الحواجز بين الإخـوة. هكذا لقي مجلس كتيبتنا إقبالًا جيّـدًا لدى الإخوة، ومن هناك بدأت قصّة «لوريل وهاردي»[1]. كان أسدي قد لعب سابقًا دورًا في فيلمين، واكتسـب معرفـة بفنون المسـرح. معظم الأوقـات، التـي استقلينا فيها الحافلة مـن الأهواز إلى دزفول، كنا ندفع أجرة النقل أوّلًا، وهي تتراوح مـا بين الاثني عشر والخمسة عشـر تومانًا، وتلافيًا للعطالة والملل طوال

1- «لوريل وهاردي» مسلسل راج كثيرًا في تلك الفترة. يمثل لوريل شخصية النحيل الذي يتميز بالغباء المفـرط، أمـا هاردي فهو البدين الذي يحاول أن يظهر بمظهر الذكي بينما هو ليس بهذه الدرجة من الـذكاء، وهما يمثلان فـي الغالب شخصيتا المواطنيـن الذين يبحثان عن عمـل ويواجهان المشاكل ويعجزان عن إيجاد الحلول السليمة.

الطريـق لساعتـين تقريبًا، يباشر هو بكتابة نصّ مسرحيّ لي وله. كان هو طويـل القامة يميل قليلًا إلى السُّمنة، وأنا حينها نحيل جدًّا، فشكّلنا الثنائيّ الكوميديّ السمـين والنحيل! وتدريجيا بدانا نقلّد بعض حركات «لوريل وهاردي» وأدوارهما، فناداني «لورل»، وناديته «هاردي». لقد كان عبـد الحسين أسدي إنسانًـا ودودًا، وهو من أهالي «بنـدر شرفخانه»[1]، ولـه أخ استُشهـد في الحرب. ورغم أنّه يكبرنا سنًّا، إذ أنّ عمره 35، فقد تحلّـى بالتواضع وحسن المعاشـرة. والنتيجة، أنّ الإخوة قد حصّلوا تعلّم الصلاة والأحكام في تلك الجلسات، وحصّلت وأسدي على نصيب اسمَي لوريل وهاردي!

في تلك الأيّام، نفّذنا مناورات على مستوى عالٍ للإبقاء على جهوزية القـوات. كنت أرى أنّ أهمّيّـة المناورات لا تقلّ شأنًا عـن أهميّة العملية، حيـث تُشـكَّل فيها بيئـة ذات موانـع كثـيرة، مشابهة لمناطـق العمليات الواقعيّـة؛ حقول ألغام، قنوات متعـدّدة وعوائق مختلفة. وما جعل العمل في المنــاورات معقّدًا هو عدم السماح لنا بإطلاق النار، فيما كانت نيران الأسلحـة الثقيلـة تنهمر علينـا، وإن لم نتحرّك في الوقـت المحدّد، فمن الممكن أن نتكلّف خسائر في الأرواح مع شروع القصف المدفعي.

لـديّ مذكّرات عن منـاورات كثيرة، لكنّ الأعجب منهـا كان المناورة التي جرت في مخيّم شهداء خيبر بأمر من قائد فرقتنا «مهدي باكري». فقـد زُرعـت منطقة بعمـق 800 مـتر بالألغـام، وكان ينبغـي على فرق الهندسـة أن يفتحوا فيها معبرًا. كانت النيران تنهمر على الإخوة بشدّة وبوتـيرة واحدة. وبعد حقـول الألغام اقتضـت المهمة أن نقتحـم ساترًا ترابيًّـا، يوجد خلفه عدوّ مفترض. وقبل الساتـر حُفرت قناة مياه بعمق وعرض ثلاثة أمتار، علينـا اجتيازها باستخدام السـلالم. شكّل المشي

1. من ضواحي شبستر في محافظة آذربايجان الشرقيّة.

علـى سلالم يتراوح عرضها بـين العشرين والثلاثـين سنتيمترًا في تلك الظروف عملًا شاقًا بحيث يعاني المرء كثيرًا ليقطع نصفها. فعلًا الأمر صعب، فإذا مـا اختلّ توازننا قليلًا سقطنا في القناة. في أثناء المناورات بـات يتّضح كم صُرف من جهد على هذا العمل، خاصّة تضحيات شباب المعلومـات الذيـن استطلعـوا مواقع الأعـداء، وصوّروا دفاعـات العدوّ، العوائق والحواجز التـي يضعها، والدشم بكلّ تفاصيلها. المعلومات التي كان يجمعها العدوّ عبر طائـرات الآواكس، والأقمار الصناعيّة، نحصل عليهـا نحن بالمقابل من خـلال عناصر معلومات العمليـة هؤلاء، الذين حملوا دماءهم على أكفّهم.

إضافـة إلى كلّ هذه المسائل، توطدت العلاقـة ما بين عناصر الفرقة وقادتهـا. لقد وقعـت لقادتنا منزلة عظيمة في نفوسنـا، اعتبرنا أقوالهم وإرشاداتهم بمنزلة أمر واجب الطاعة. ذات يوم، كان من المقرّر أن يأتي «السيّد مهدي» إلى مخيّم شهداء خيبر في زيارة تفقّديّة. انتظمنا جميعًا في صفـوف؛ الكتيبة، السريّـة، الفصيل و... حضر قائـد الفرقة؛ ها هو السيّد مهدي يسير أمام قوّات الاقتحام في كتيبته، يتوقّف أحيانًا ويتحدّث إلى العناصر؛ فيسألهم عن السلاح الذي في أيديهم وعن كيفيّة استعماله، وأحيانًـا أخرى يمسك بياقة مجاهد ملويّـة فيهندمها بلطف، ومرّة يجثو على ركبتيـه ويضيف عقدة أخرى إلى رباط حـذاء مجاهد لكونه طويلًا جـدًّا. في أيّ مـكان من العالم يمكن أن نجد أمثـال قادتنا؟! كان يعطينا درسين في آن: درس النّظـام والجهوزيّة، ودرس المحبّة والوئام بين أفراد جيش الإسلام. وفي مقابل هذه المحبّة والإخلاص يشتعل استعداد الإخوة للتضحية حتّى بأرواحهم، من أجل تنفيذ أوامر قادتهم.

◘

مع اقـتراب حلول شهر محـرّم، أضافت مجموعات العـزاء حماسة

خاصّة إلى ليالي المخيّم. فعناصر كلّ كتيبة يتوجّهون في مجموعات لطم نحو كتيبة أخرى، لتتلقاهم بالترحاب.

أمـا ليلة عاشوراء في كتيبـة الإمام الحسين عليه السلام فلها صخب خاصّ؛ في وسـط الصحـراء، وفي ظلمـة الليل وتحـت الأنوار الضعيفـة لبعض المصابيـح، يلطم الإخوة الصـدور والرؤوس على وقـع ترنيمات رواديد الكتائب، ويجعلون من خلوة الصحراء مستودعًا لدموعهم. هناك تناوب علـى قراءة المجالس كلّ من محمّد رضـا باصر صديق الكلّ ومحبوبهم، وخليل نوبري وهو قائد وقارئ عـزاء وأستاذ في الـ«زورخانه»[1]. غالبًا ما انتهـت مجالس العزاء واللطم بقراءة دعـاء التوسّل، وفي ليالي الجمعة بتلاوة دعاء كميل في مسجد الكتيبة.

▫

في فـترة من الفترات، سرَت في المخيّـم شائعة عن صدور قرار وقف الحـرب. لم يكـن أحد يملـك معلومات صحيحـة أو دقيقـة، إلّا أنّ هذه الأحاديـث انتشرت بسبب سير الحرب والفـترات الزمنيّة المتباعدة بين العمليـة والأخرى. وحينها، قالوا إنّ فريقًا من المراسلين الأجانب قدموا إلى المخيّـم؛ يـتراوح عددهم بين الـ40 والـ50 شخصًـا، بينهم نساء لم يكنّ يرتدين الحجاب، لذا بقين في السيّارات إلى أن جاؤوا لهن بكوفيّات وضعنها على رؤوسهنّ، ثمّ توجّهن نحو الإخوة. في البداية جرى الحديث بيننا وبينهم عبر مترجم مرافق لهم، لكن سرعان ما تدخّل أحد الإخوة ويُدعـى «موسى غفّاري» وكان معلّمًا في اللغـة الإنكليزيّة، وشرع بالحوار معهم. التفّ جميع المراسلين حوله وراح هو يجيب عن أسئلتهم بطلاقة، ما زاد من معنويّات الشباب، فأقاموا من جديد حلقات اللطم فيما هؤلاء

1. رياضـة إيرانيّـة قديمة لها أصولها ومكانها الخاصّ الذي تُجرى فيـه. ورد تعريف لها في كتاب أولئك 23 فتى.

يكملــون حواراتهم. كانــت مراسم عظيمــة؛ الشباب يلطمــون الصدور ويرددون المراثي والأشعار، والمراسلون ينظرون إلينا بتعجّب، وكأنّهم قد أتــوا ليروا قوّات أصابهــا الفتور والخمول، وها هــي حماسة الإخوة الآن تخالــف توقّعاتهم. في نهاية العزاء رحنا نــردّد شعارات «الموت لأمريكا، الموت لصدّام، سلام إلى الخميني، حربًا حربًا حتّى النصر»، وبعد ذلك أطلق المعلّم المجاهد فينا عدّة شعارات باللّغة الإنكليزيّة.

إنّ الإنجــاز الــذي حقّقه ذلــك الأخ المجاهد وقتها، يــوازي من حيث الأهمّيّــة السياسيّــة تنفيــذ عملية. ذلك أنّــه أوصل الرسالــة وتكلّم عن معنويّــات الإخوة ودافعيتهم من دون أيّ تكلف. وبعد ذلك قام المراسلون بتفقّــد الدشــم والمعاقــل، ليتفاجأوا بالجــوّ الحميمي بــين الإخوة. ففي منطقة تبلغ درجــة حرارتها 57 درجة، ومع الإمكانيّات المحدودة في تلك المنطقــة الصحراويّة، كان هناك سرّ موجود بيننــا، لم يتوقّع المراسلون الأجانب رؤية ملامحه أبدًا.

الفصل السابع

# موقع زيد

1

بدأت أخبار العمليات المرتقبة تنتشر في منطقة الجنوب، لقد وجّهت وشُرحت خريطة عمليات موقع زيد، واتُّخذ القرار بإرسال قوّات الاقتحام في كتيبة الإمام الحسين عليه السلام إلى الخطوط الأماميّة لإطلاعها عن قرب على بعض التفاصيل. أثار خبر التحرّك، الحماسة في المخيّم بعد توقف طويل عن تنفيذ العمليات. جمعنا أغراضنا، سلّمنا اللوازم الشخصيّة كما هي العادة إلى الـ«تعاون»* ، ووضعنا اللوازم الضروريّة في حقيبة الظهر. انطلقنا قرابة الظهر بسيّارات التويوتا إلى منطقة زيد، ومن مخفر زيد توجّهنا بالسيّارة نفسها على فترات متباعدة إلى المنطقة الهدف، وما إن وصلنا إليها حتّى استلمنا الخطّ من فرقة أخرى. مرّ اليوم الأوّل من دون أيّ حادث يُذكر، غير أنّه تمّ تعيين الحرّاس وإعطاء التعليمات العامة. في اليوم التالي، وُضّحت لبعض الإخوة تفاصيل المنطقة، بما فيها النقاط الهامّة، والنتوءات والمنافذ التي يمكن للعدوّ أن ينفذ منها و...

في الليل، كنّا نحرس المنطقة بالتناوب، لكنّ الشباب لم يكونوا مستعدّين لأن يقوموا بالحراسة إلى جانبي، ذلك لأنّني لم أكن أستطيع البقاء هادئًا من دون مشاكسة العراقيّين والتحرّش بهم. كنت أضع

---

* أو «الشؤون» هو المركز الذي يعنى باستلام الأمانات من سلاح وأغراض خاصة بالمقاتلين والشهداء، وأيضًا يؤمّن الخدمات الطبية اللازمة، إضافة إلى تسلّم أجساد الشهداء تمهيدًا لتسليمها إلى أهلها.

خوذة علـى فوّهة البندقيّة وأرفعهـا، ليبدأ العراقيّـون مباشرةً بإطلاق النيران ناحيتها، ثم أغيّر مكاني وأعيد رفعها ليبدأوا من جديد بإطلاق النـيران عليها. تعب «علي فغاني» مـن تصرّفاتي، وكان يقول لي: «سيّد! في النهاية، أنت بأعمالك هذه تقتصّ منّي أنا!».

كنـت أؤمن بأنّه لا ينبغي لنا أن نـدع العراقيّين يرتاحون. بعد ساعة، وعندمـا نشعـر بأنّهـم أُنهكوا تمامًا، نرمـي عليهم قليلًا حتّـى نستكمل إزعاجنـا لهم! بالطبع، مكّنتنا هذه المناوشـات من معرفة مواقع أسلحة الأعـداء، خاصّة مكان تموضع الدوشكا، والثنائي، والمدفعيّة، كما إنّ ردّ العدوّ كان يكشف حتّى موقع دشمة الحراسة، وكان هذا أمرًا مفيدًا.

◽

لم تتعـدّ المسافـة التي تفصلنـا في منطقة زيد عن خـطّ العدوّ الأوّل الكيلومـتر الواحد. لـذا تعذّر جمع القوّات في مـكان خاصّ، ومع هذا لم نترك أيّامنا تمضي من دون مرح ومزاح. غالبًا ما كنّا نشاكس العراقيّين، فمثـلًا عندما أريد الذهاب إلى المرحاض، أمرّ من فوق الساتر الترابي، فيرمـون في تلـك الأثنـاء، وإلى أن أصـل إلى المرحاض، عـدّة قذائف! وبسبـب تلك الأعمـال، لم يكن أحد مستعدًّا للخـروج معي من الدشمة. أمّـا مساحة الدشمة الداخليـة فكانت ضيّقة بحيث لـو ضغطونا جميعًا فيـه كالفواكـه المعلبة لمـا اتّسعت لأكثر مـن ستّة أشخاص. هذا وكانت الدشـم التي بنيت على شكل حُفَر ووُضعت الألـواح الخشبيّة والعوارض علـى سطحها، تبقى سليمة حتّى لو سقطـت عليها قذيفة هاون 60 ملم. وفي تلك الأيّام الخمسة التي قضيناها هناك، سقطت قذيفة على سطح دشمتنا، فانهارت إلّا أنّ أحدًا لم يُصب بأذىً.

◽

امتاز حَفْرُ الأقنية بأنّه العمل الأهمّ في منطقة العملية. كنّا نبدأ بالحفر

من وراء ساترنا الترابي، ونضع تحته أنابيب ضخمة يمكن للأفراد العبور مــن خلالها. وحيث إنّه لا يمكن للقوّات ليلــة الهجوم التوجّه إلى منطقة العملية من أعلى الساتر، فقد امتدّت القنوات من الجهة الأخرى للساتر نحــو الخطّ الأمامي للعدوّ. تمّ حفر ما يقــارب الثماني قنوات من خطّنا حتى خطّ العدوّ، وأوكلوا إلينا مهمّة حفر القناة السادسة. وصرنا نذهب بالتناوب لحفرها على مدى ثلاثة أو أربعة أيّام بنهاراتها ولياليها. كانت القنــاة قليلة العرض، حــوالي الـ35سم، أمّا عمقها فيبلــغ 1،5م، أي إذا أراد شخصــ السير داخلها فعليه أن يسير منحنيًا، وبسبب قلّة عرضها، كان عليــه الهرولة بنحوٍ جانبي. والسبب في جعل القناة قليلة العرض هو التقليل من إمكانيّة سقوط القذائف فيها. تتفرّع من كلّ قناة عدّة قنوات صغــيرة، بحيث إذا ما قوبل أحد أثنــاء السير فيها بشخص آخر، يمكن لأحدهمــا الدخول في القنوات الفرعيــة، ثمّ يكمل مسيره بعد عبور ذلك الشخص. بدا أنّ العدّو كان يعلم بالتحرّكات الجارية في منطقة العملية، وبأنّ القوّات الإيرانيّــة باشرت العمل بحفر القنوات، لكنّه لم يتمكن من تحديــد مكانهــا، لأنّنا دأبنا علــى رمي التراب الناجم عــن حفر الأرض خلف ساترنا الترابي، فتعذر عليه رؤية شيء واضح من البعيد.

بلــغ طــول القنــاة السادسة حــوالي الــ120 م. وقد أنجــز التصميم بحيث تتّجه كلّ القنوات الأساسيّة نحو قنوات العدوّ. أمّا الفرعيّة فكانت بمنزلة شِعَب إلى جانب هــذه القنوات، يمكن لكلّ مجموعة التوجه منها نحو محورها.

كانت منطقة غير عاديّة. سهلٌ واسع، تشكّل فيه سواتر العدو الترابيّة المثلّثيّة الشــكل التي صمّمها الإسرائيليّون وضعيــةً خطيرة بالنسبة لنا. فإذا ما سقــط ضلع من تلك السواتر، أمكــن للساترين الآخرين حماية القــوّات فــورًا، والوقوف أمام تقدّمنــا. لذا، فقد طُرحــت فكرة إحداث القنــوات لتجنّــب المواجهة المباشرة لهــذه السواتر، إذ كنّــا نستطيع من

خلالهـا الاقتراب من سواتر الخـطّ الأمامي للعدوّ بأقلّ خسائر ممكنة. كان أمامنـا عمليـة صعبة، وفي الوقت نفســه، يبدو أنّ العـدوّ كان يفكّر في خطّـة لمواجهة فكرة القنـوات، فوضع في المكان الكثـير من الأسلاك الشائكـة المعقّـدة، وربطهـا بالحبال، حتّـى إذا ما تقدّمنـا، سحب تلك الحبـال لتسقـط الأسلاك الشائكة داخـل قناته، وتسـدّ علينا طريقنا. الحلّ الوحيد بالنسبة لنا كان السرعة في العمل.

كنّـا نذهـب كلّ يوم لحفـر القنـاة، وأحيانًا نواصل العمـل في الليل. حيث يسهل أكثر من النهار، إذ كان العدو يمطر المنطقة بوابل من نيران رشّاشاته، أو يرمي القذائف بمجرّد رؤيته لخوذة تلمع تحت نور الشمس. أمّا في الليل فلم نكن نواجه مثل هذه المشكلة.

ذات يـوم، ذهـب أحد عناصـر المعلومات إلى إحـدى القنوات لشرح الخريطـة، فسقطـت قذيفة هناك أدت إلى استشهـاد جميع من كان في القنـاة. ومع أنّه نادرًا ما كانت تسقط القذائـف في القنوات، إلّا أنّ هذا الحادث كشف بأنّها لم تشكّل الحلّ الأمثل لجميع المشاكل.

كان من المفترض قبل يوم أو يومين من بدء العملية، أن يأتي مسؤولو السرايا، والفصائل، ومعاونوهم إلى الخطوط الأماميّة ليطّلعوا عن كثب على التفاصيل اللازمـة، وهذا ما حصل، وأُعطي كلٌّ منهم -بالاستعانة بمنظـار الكاتيوشا- التعليمات اللازمة بمـا يتناسب مع مهمة عناصره. في اليوم التالي، ذهبت بعد صلاة الصبح في الموعد المحدّد وبدأت أراقب عـبر منظـار الكاتيوشا مـا يفعله العراقيّـون. حينذاك، كانـت الشمس تشـرق من جهتنا، فتعـذرّت عليهم رؤيتنا بشكل واضـح، بينما كنّا نرى مواقعهـم بكلّ سهولة. وهو أمر مهمّ بالنسبة إلينا أنّ نراقب ماذا يحدث هناك، خاصّة في تلك الليلة المقرّرة لبداية تنفيذ العملية. لمحت شيئًا غير عاديّ؛ شيئًا يلمع، لم أكن قد رأيت مثله إلى حينها. دقّقت النظر، إلى أن

تأكّـدت أنّ ما أراه حتمًا ماء! ذهبت بسرعة أبحث عن «حسين كربلائي» الـذي كان مسؤول المحور، وأخبرته بالأمر. ذهب وألقى نظرة، ومباشرةً أطلـع المقرّ بالأمر. تبـيّن أنّ العراقيّين عزموا على غمـر المنطقة بالماء. جاء الإخوة من المقرّ أيضًا، وألقوا نظرة، ليصدروا الأوامر بعدها، بنقل كلّ ما وضع داخل القنوات إلى خارجها بأسرع وقت ممكن، ومنها بعض الرفوشـ والمعاول والأهـمّ من ذلك كلّه، الذخائـر المهيّأة ومن المفترض استخدامهـا في العملية. باشرنا العمل فـورًا، وأخرجناها من القنوات. استغـرق ذلك ساعةً من الوقت. في نهاية الأمـر، بدأت المياه تصل شيئًا فشيئًـا إلى قنواتنـا، وملأتها بالكامل! كان من الواضـح أنّه تمّ اكتشاف أمـر العملية[1]. استمرّ جريان المياه، فباشرنا العمل للحؤول دون وصولها إلى ما وراء سواترنا الترابيّة. وبتعاون الجميع، تمّ سدّ الأنابيب الضخمة التـي وضعناها تحـت سواترنا الترابيّة كمدخل للقنـاة، بأكياس الرمل، ليتوقّف جريان الماء خلف السواتر.

قرابة الثانية من بعد الظهر، جاءتنا الأوامر بالانسحاب. لم يكن إلى جانـب القـوّات الأصفهانيّة من فرقة عاشـوراء في منطقة العملية سوى كتيبـة الإمام الحسين عليه السلام، والمفروض أن تعود إلى مخيّم شهداء خيبر وتسلّم الخطّ إلى كتيبة أخـرى. وفي تلك الأثنـاء، سقطت قذيفة مدفعيّة وسـط الإخوة، فجُرح بعضهم، بمن فيهـم المسعفون. إلى ذلك الوقت لم أكـن قـد تناولت شيئًا من الطعـام ما أشعرني بجـوع وعطش شديدين. ركبنـا سيّارة التويوتا وهي على وشك التلاشي بفعل الرصاص والشظايا والحفـر والفجـوات في الجبهة، لذا أطلق عليها الإخـوة اسم «داشقا»[2]. ظهرت من الجهة الأخرى سيّارة تجهيزات تابعة لفرقة أصفهان، وزّعت

1. يبـدو أنّ العراقيّين بـدأوا قبل عدّة أيّام ضخّ المياه من قناة السمك إلى منطقة العملية. إذ لا يمكن في ظرف يوم واحد ضخّ ذلك المقدار الهائل من المياه إلى المنطقة.
2 ـ بالتركيّة وتعني عربة نقل البضائع التي تجرّها الحمير أو البغال.

الخبز والأرزّ والبطّيخ على الإخوة. وبينما دارت التويوتا، أردت أن آخذ من سيّارة التجهيزات بطيخة، لكنّها انطلقت مسرعة وكدت أسقط أرضًا، فالتقطني الإخوة وجذبوني إلى داخلها بعناء، فيما كنت أمسك بالبطّيخة بكلّ ما أوتيت من قوّة! راح الإخوة يصيحون بي: «دع البطّيخة، أنت تكاد تقع على الأرض!»، وعندما استقررنا في أماكننا داخل السيّارة، أسعفتنا البطيخة وخفّفت من عطشنا قليلًا.

عندما وصلنا إلى موقع زيد، انتقلنا بواسطة سيّارات أخرى إلى مخيّم شهداء خيبر. ولم يكن أحد هناك قد علم بعد بأمر انكشاف العملية، فصار كلّ من يرانا يسأل: «لِم عدتم؟».

كان خبر انكشاف العملية ينتشر بين الإخوة ولا أحد يصدّق بذلك. واستولى القلق علينا جميعًا ممّا سيحدث. بعد يومين أو ثلاثة، جاء الأخ «مهدي باكري» وخطب في جمع الإخوة. الجميع أحبّوه من أعماق قلوبهم، وكانت كلماته كعادتها تستقرّ في أرواحنا وعقولنا. وفيما شرع الأخ مهدي يتكلّم عن الاستعداد للعملية القادمة، وعن انكشاف أمر العملية، علا صوت الإخوة بالبكاء. فكلّنا يعرف حجم الجهد الذي يُبذل للتخطيط للعملية ولتنفيذها. كما إنّ عناصر الكتائب يقضون أشهرًا من التدريب ويعيشون ظروفًا قاسية لبلوغ مرحلة التنفيذ. وفي تلك الظروف وقع خبر انكشاف أمر العملية وقعًا كارثيًّا بالنسبة للكلّ. في نهاية كلامه، قال الأخ مهدي: «فلتذهبوا الآن في إجازة لخمسة عشر يومًا، وحين تعودون، سننتقل بإذنه تعالى من مخيّم شهداء خيبر إلى منطقة أخرى».

أثّرت بي هذه الحادثة كثيرًا، وبقيت لفترات أفكّر في انكشاف أمر هذه العملية. رحت أحلّل أنّنا لم نعمل بشكل جيّد على حماية المعلومات، وكان يمكن للقوّات الموجودة في مختلف المناطق الجنوبيّة والغربيّة، أن تخمّن بسهولة، من خلال الدورات التي تخضع لها، أين ستكون العملية

القادمة. وليس بعيدًا أيضًا، أن يكون البعض من بين آلاف الأشخاص الذين يهاتفون ذويهم قبل العملية، قد تحدّثوا إليهم أو إلى أصحابهم عن حدسهم وتخمينهم فيما يتعلّق بالمنطقة التي ستجري فيها العملية. وقد قيل لنا أيضًا، إنّ العدوّ بإمكانه من خلال وسائله المتطوّرة التنصّت على مكالماتنا، هذا عدا عن الطابور الخامس الذي لطالما كان فعّالًا، ويوصل أدنى المعلومات للعدوّ. وعلى أيّ حال، لازمتنا مرارة انكشاف أمر العملية مدّة من الزمن.

تجهّزنا جميعًا للعودة. توجّهنا نحو محطّة القطار، وركبنا القطار في ظلّ ازدحام القوّات الخانق. ومع أنّ بعض العناصر كانوا يركبون الحافلات حين عودتهم، إلّا أنّ إعطاء الإجازات لفرق أخرى أدّى إلى حدوث فوضى وازدحام في المحطّة تحديدًا. انطلقت الرحلة والكلّ يسعى لأن يكون مع أصدقائه في نفس المقصورة. كانت مجموعتنا معروفة أيضًا، وهم جماعة «المشاغبة» في كتيبة الإمام الحسين عليه السلام: «عبد الحسين أسدي، علي نمكي، فرج قليزاده، مصطفى بيشقدم[1]، بابا و...»، في تلك الأيّام، راح «بابا» وهو صاحب قريحة شعريّة، يلقي على مسامع الإخوة أشعارًا جميلة، صارت تُتناقل على الألسنة. وقد بدأ بـ«مصطفى بيشقدم» وهو عنصر حرّ، ولكونه داكن البشرة، فقد وصفه «بابا» في بيتين ضمن قصيدة شعريّة طويلة كان يلقيها على الإخوة:

بو كوردإندا كزر آزاده بير شخص
سياهى دان قارا جايدانه بنزر![2]

---

1. فيما بعد أصبح مصطفى بيشقدم مسؤول السرية بدلًا عن صمد زبردست، فيما كان قائدًا لكتيبة الإمام الحسين عليه السلام حين استشهد في عملية (كربلاء5).

2. للأسف لا أذكر كلّ أشعار بابا. كان بابا (السيّد علي أكبر مرتضوي) من الرجال الأشاوس في كتيبة الإمام الحسين عليه السلام، وقد أظهر ذلك جيّدًا ليلة شهادته في عملية بدر. الترجمة الفارسيّة للمقطع: يجول في هذه الكتيبة طيف [رجل] حرّ، من شدّة سواده يشبه إبريق الشاي!

طـوال الطريق عمّت الجلبـة أغلب المقصـورات والصالة. فلم نتورّع في ظلمـة الليل عن أن نهجم علـى المقصورة المجاورة، ونطفئ المصابيح ونشـرع بضـرب بعضنا البعضـ؛ كان اجتماعنا ممتعًا جـدًّا. لم ندع أيّ فرصـة للقيـام بالشغب. أمّـا الطعام الـذي قُدّم لنا، فهـو ساندويشات الهمبرغر مع المرطّبات، وبـدت قطعة اللحم كالمطّاط، فأسماها الإخوة «تايـر»[1]، كثيرون انزعجوا مـن أكلها. ورغم ما وجدناه من صعوبة مضغ هذا الطعام، إلّا أنّنا وبهدف الشغب أخذناه مجدّدًا. كانت الأيّام تمضي مع هذه المجموعة بعذوبة ولطف.

أخـيرًا، وصلنـا إلى تبريـز. لكـنْ، قبـل توقّـف القطـار راح شبـاب تبريـز يخـبرون بعضهـم البعض بمواعيـد جلسـات مقـرّات المساجد: ليلـة الثلاثـاء في محلّـة سيـلاب، الثلاثـاء في مسجـد كـزران و... أمضينـا أوقاتًـا سعيـدة في فترة الإجـازة وبقينا على تواصـل مع شباب الجبهـة. حافظ شباب الجبهة القدماء على هـذه العلاقة فبقي الشباب معًا في المدينة وصار المسجد مضافة لجموع التعبويين الطاهرين. المساجد الرائـدة في هذا العمل كانت تستقبل أحيانًا عناصر كتيبة بأكملها لتناول طعـام العشاء، والأهالي أحيانًا يشاركون في تنظيم هذه الدعوات، وسُفر الطعام التي يلتفّ حولها الإخوة تنقل المرء إلى أجواء الجبهة.

ذات ليلـة، كان الموعـد في مسجد مخفر شـارع عبّاسي. دعاني كريم قربـاني- وهو من أعضاء المقرّ هناك- وقـال لي: «أنا أوصلك الليلة إلى حيـث تريد». جـرت العـادة أن تُقام بعد تنـاول العشاء مجالـس العزاء واللطم، وبعد انتهاء المراسم ينسّق كلّ شخص مع صديق يملك سيّارة أو درّاجة ناريّة، ليقلّه إلى منزله، وذلك كي لا يواجه مشكلة في إيجاد وسيلة نقـل. في تلك الليلة أيضًا، مُدّت الموائد، وبعـد تناول الطعام الجيّد الذي

---

1. الإطار المطّاطي الذي يلفّ الدولاب.

عمل الأهالي والإخوة في المسجد على إعداده، أُقيم مجلس عزاء، ومن ثمّ أُعلن عن زمان المجلس اللاحق ومكانه. في تلك الليلة، أشرت لكريم مرّات عدّة بأنّني قد تأخّرت وأريد الانصراف، لكنّه ظل يقول: «لا! أنا أوصلك». أخيرًا، استعار درّاجةً ناريّة من أحد الأصدقاء ليوصلني. وكنت حينها أنوي الذهاب إلى بيت أخي في شارع بهار، الذي يبعد مسافةً طويلة نسبيًّا عن تلك المحلّة. انطلق كريم، وسار مسرعًا. حتمًا لم أخف من سرعته، رغم احتمال أن تؤثّر على وضع كلينا الصحي، ذلك أنّه هو أيضًا، كان قد فقد إحدى عينيه جرّاء إصابته بشظيّة. تجاوزت الساعة الثانية عشرة ليلًا، ونحن نسير في الطرقات مسرعين. قلت له عدّة مرّات: «لا تسرع يا صاح! ماذا ستفعل إن فوجئت بسيّارة على مفترق طرق؟».

– لا تقلق! فقط أعلمني قبل أن أصل إلى مفترق طريق بمئة متر، لأخفّف من سرعتي!

ذكّرته في أوّل شارع البازار بأنّنا نقترب من مفترق طرق، ليخفّف من سرعته، ولكنّه بقي مسرعًا! وعبَر مفترقين أو ثلاثة بالسرعة ذاتها. فصحت فيه: «توقّف! توقّف! لديّ عمل!».

– ماذا لديك؟

– كفى، أريد الترجلّ!

– كيف ستذهب سيرًا... قلت لك قل لي قبل أن نصل إلى مفترق الطرق بمئة متر لأخفّف من سرعتي!

– لقد عبرنا مفترقي طرق!

– لم أرَ شيئًا!

المسكين كان محقًّا. استشطت غضبًا وقلت له: «لقد قلت لك، أمامنا مئة متر...! وأنّى لك أن ترى يا فتى!». بلطف الله أوصلني كريم قرباني تلك الليلة سالمًا إلى منزل أخي، لكن منذ ذلك الحين،

ولفترة طويلة، صرت كلّما ألتقي به أقول: «كريم! بقي أمامنا مئة متر!».

▫

مع أنّني كنت أحبّ اجتماع الشباب، إلّا أنّني لم أكن أستطيع الخروج من القرية كلّ يوم، وإرباك شخص ما بإرجاعي، لذا صرت أقضي معظم أوقاتي مع الإخوة في مركز القرية. في تلك الفترة طُرح بين الشباب الذين سبق والتحقوا بالجبهة برنامج باسم «أصغر قصّاب»، لأنّهم استوحوا فكرة هذا البرنامج من كلماته؛ «كلّ شخص يرجع إلى الخطوط الخلفية، عليه أن يحضر معه ثلاثة أشخاص بالحدّ الأدنى إلى الجبهة». وقد عمل الإخوة على هذا الأمر كثيرًا. وحيث إنّ الإعلانات التلفزيونيّة لم تكن مباشرة، فلم تُنشر أحداث الجبهة بنحو صحيح أحيانًا. كنّا نتحدّث بين شباب المقرّ عن الجبهة، العدوّ، قوّاتنا، أوامر الإمام وكلماته، مشاكل الحرب، وضرورة التحاق العناصر بها: «يا أخي! قد يستطيع البعض البقاء في الجبهة لمدّة من الزمن. لكم من الوقت أستطيع أنا البقاء في الجبهة؟ قد أُصاب بالنهاية، أو أستشهد، فيبقى مكاني خاليًا، عليكم أنتم سدّ الفراغ الذي يتركه الشهداء...». كنّا نلقي مثل هذا الكلام على مسامع الإخوة لمرّات. لسنا من أهل الموعظة، لكنّنا أدركنا بأنّ الحديث عن وقائع الحرب بنحو عفوي صادق يترك أثره. توافرت في قريتنا خلجان، وهي القرية الأكبر في المنطقة، ويتراوح عدد سكّانها ما بين السبعة والثمانية آلاف نسمة، عدّة مراكز نشطة. ضم مركزنا قرابة الثمانين عنصرًا التحق معظمهم بالجبهة. وقرّرت لشباب المركز أنشطة أخرى. فعلى سبيل المثال، يقومون بالحراسة الليليّة في القرية، فلا تجد تلك الليالي في المنطقة لصًّا أو من يرتكب عملًا مخالفًا للقانون، لكن أحيانًا، تصلنا أخبار بأنّ البعض يشربون الكحول في البستان الفلاني. وحيث إنّ معظم الإخوة تدرّبوا في الجبهة،

فقد كان بإمكانهم الذهاب إلى تلك الأمكنة بسهولة، والتصدي للأعمال المنكـرة. مثل هذه المبادرات والرعاية التـي قدّمناها أثّرت جدًّا في الجوّ العامّ للقرية، ولطالما تعاون الناس معنا أيضًا.

▫

على امتداد أسبوعَيّ الإجازة خصّصنا ليلتين أو ثلاثًا لبرامج القتال الليلـي. نظـرًا لأنّ قريتنا ذات طبيعـة جبليّة، ولأنّني ماهـر في المعارك الجبليّة، رحت في البدء أرسم على لوح أسود خريطة تبيّن موقعنا وموقع العـدوّ المفترض، وأرشـد الإخوة إلى الطريـق الذي ينبغـي سلوكه: «لا تسـيروا إلى الأمام مباشرةً، فذلك يوصل إلى الأعداء. عليكم أن تعبروا المنحـدرات والأودية. والعـدوّ أيضًا لـن يدعكم تجتازون هـذه الأماكن بسهولة، وهو حتمًا قد فخّخ المنحدرات...».

فكنّـا ننقل تجربتنـا عبر تسلّق هـذه الجبال، فيمـا أدلّ الإخوة على الأماكـن التي يمكـن أن تُزرع فيهـا الألغام المضادّة للأفـراد، والمضادّة للـدروع، والمضادّة للآليّات. لقد سعينـا في تسلّق الجبال لإيجاد النقاط العمياء التي تكون في مأمن من مرمى نيران العدوّ المفترض، أو الأماكن التي يمكن أن تكون خالية من العوائق.

كان الحرسـ قـد نظّموا، من قبـل، دورات عسكريـة لشباب المركز، وتوافـرت مع الجميع بطاقات عسكرية. لذا عندمـا كان هؤلاء يلتحقون بالجهـة لم يكونـوا قوات خـام*، بل كانـوا مطّلعين إجمالًا علـى أوضاع الجبهة. كنّا بعد كلّ إجازة نأخذ معنا بعض هؤلاء العناصر إلى الكتيبة. وقـد سمحـت الفرقـة أن يُحضِـر الشخصـ إلى كتيبته الأفـراد الذين يستقطبهـم. بالطبـع، كان يتمّ فرز هـؤلاء لاحقًا، بعـد أن يتعوّدوا على الأجـواء، وقد يتـمّ نقلهم إلى كتيبة أخرى. وأحيانًـا تُشكّل كتيبة جديدة

* – عبّروا عنها: قوات صفر كلم.

مـن العناصر الجـدد الملتحقين بالجبهـة. لأنّه من غير الممكـن للكتيبة التـي تتألّف مـن 300 عنصـر أن يضيفوا إليها أفـرادًا ليصبح عديدها 600 عنصـر. لكنّنا بعد هـذا الفصل، لم نكن نترك الإخوة الجدد، وكنّا نتفقّدهم من وقت لآخر.

وعليـه، حفلت أيّام الإجازة بالعمـل. عدا عن ذلك، كان لدينا برامج ليليّـة. وهي زيـارة جرحى الحرب في تبريـز أو في قريتنا، وزيارة عوائل الشهداء، فرحنا كلّ ليلة نزور عائلتي شهيدين بالحدّ الأدنى. كانت تلك الزيـارات تمدّنا، كما أهـالي الشهداء، بالمعنويّات؛ كانـت علاقتنا بهم حميميّة وودية إلى درجة أصبحوايعاملوننا كأولادهم، ويستضيفوننا من دون مجاملـة على العشاء، وقد دُعينا لمرّات لتناول الفول: «تفضّلوا، لقد وضعنـا الفول على النـار!» ، فكنّا نجلس مـن دون أيّ تكلف، ونتكلّم عن الجبهـة، والمجاهدين، وذكرياتنا مع الشهـداء، وأنّ عشرات الأشخاص سيمـلأون الفـراغ الـذي تركه الشهـداء، فنستمـدّ بذلك منهـم العزم ونمدّهم بالمعنويّات.

علـى الرغم مـن حقي في الإجازة، إلّا أنّني كنـت أنشغل كثيرًا بحيث تأتـي أمّي أحيانًا إلى المقرّ وتقول للشبـاب: «يا عم! بالحدّ الأدنى، دعوا نـور الدين يعـود إلى منزله ليلًا لينـام!». المسكينة كانـت دومًا تشتكي. فطـوال فترة الإجازة هذه لم أتناول الطعام في البيت لأكثر من مرتين أو ثلاث. كنت أقول لهـا: «ليطمئنّ بالك، فهؤلاء الذين أخرج معهم شباب جيّـدون»، فتجيبني: «أعلـم، لكن فلتأتِ أيضًا إلى منزلـك!». كانت أمّي محقّـة في قولها. أحيانًـا كنت أعود عند الساعـة الواحدة بعد منتصف الليـل، في الوقت الذي يقفـل فيه جميع الأهـالي الأبـواب بالجنازير بين العاشـرة والحادية عشرة ليلًا. إضافة إلى ذلـك، بقيت الإجازة موعدًا ثابتًا لمتابعة علاج جراحاتي التي كُتب عليّ أن تلازمني إلى الأبد!

أصبحت طريقة وجودي في المنزل عاديّةً بالنسبة للجميع، سوى أمّي التي ترغب ببقائي فيه مدّة أطول، ولم أكن أستطيع ذلك. وعندما يحين وقت الذهاب إلى الجبهة، كانت الوحيدة التي تأتي لتوديعي. لربّما ازداد قلقها عليّ بعد شهادة صادق. كانت تقول لي: «حذارِ أن تعود هذه المرّة وقد أَصابك مكروه و...».

– لا! لن يصيبني شيء. قد أُصاب بجروح. سأهاتفك قبل ذلك أيضًا!

كانت قصّة عجيبة؛ إذ كان يخطر ببالي دائمًا قبل أن أُصاب بإصابة ما، بأنّ شيئًا ما سيحدث، وكنت أعلم بأنّني لم أصل بعد إلى الدرجة التي يقبلني الله فيها بالكامل. بعد مضيّ أربع سنوات على الحرب، صرتُ خبيرًا في تحديد من سيلتحق بقافلة الشهداء. ليس فقط في الجبهة والعمليات، بل حتّى عند لحظة الانطلاق، حيث يبدو واضحًا من الذي يودّع الوداع الأخير؛ من طريقة توديعهم، ونظرات أمّهاتهم، و...

كانت أمّي تقول: «عندما ركب صادق القطار، علمت بأنّه لن يعود! وكأنّ «صادق» أيضًا كان يعلم شيئًا ما، لأنّه صار يعود بين الفينة والأخرى، ينظر إليّ، ويودّعني من جديد». أحيانًا تبادلت الحديث وأمّي عن صادق، وكيف تغيّرت أحواله قبل شهادته بمدّة، فكان يسعى لأن يكون طعامه كطعام الفرقة، حيث كنّا أحيانًا، نعاني نقصًا في الطعام، وكان الشباب لرفع جوعهم، يأكلون فتات الخبز اليابس الذي لا ينظر المرء إليه في المدينة ولو بقي مئة يوم من دون طعام. وأخبرتنا والدتي: «طوال العشرة أيّام التي كان فيها صادق في إجازة، لم أستفق ليلةً إلّا ووجدته يصلّي صلاة الليل». أساسًا، العقل يقول إنّ المسافة بين الأرض وأمثال صادق تزداد شيئًا فشيئًا!».

على هذه الحال انتهت إجازتي، وعدت بالقطار إلى الجبهة. المنطقة التي أصبحت في زمن الحرب وطننا الحقيقي.

الفصل الثامن

# الحياة في الحرب

1

بقينا عدّة أيّام في «مخيّم شهداء خيبر» إلى أن بدأت عمليّة نقل الفرقة إلى منطقة جديدة، وبدأ المخيّم يخلو تدريجيًّا من العناصر. كانت كتيبة الإمام الحسين عليه السلام أوّل كتيبة تنتقل إلى المنطقة الجديدة أي «دوكوهه»، وهي منطقة جبليّة تقع بالقرب من طريق عام أنديمشك - دزفول. شُقّت في مقابل ثكنة للجيش تمامًا - والتي كانت مقرًّا لفرقة «27محمّد رسول الله» طريقٌ تؤدي إلى المقرّ المؤقّت لفرقة «31عاشوراء».

تمتاز هذه المنطقة بخصائص عدّة، من ضمنها طبيعتها الجبليّة التي تحدّ من إمكانيّة استهدافها بالقصف الجوّي وعدد الخسائر الناجمة عنه. كما إنّ دفاعات الجيش الثكنة كانت قويّة، فبتنا ننعم بالهدوء بالقرب منها ونطمئن لناحية عدم تعرضنا للقصف. كان الهدف الأساسي في «دوكوهه» هو إبقاء القوات في حال الجهوزية لتنتقل الكتيبة إلى منطقة العملية القادمة بمجرد تحديد مكانها.

بعد ثلاثة أو أربعة أيّام قضيناها في نصب الخيام وبعد أن استقرّت الكتائب، انطلقت البرامج كما هي العادة. تفتتح المراسم الصباحية دومًا بتلاوة آيات من القرآن الكريم وتفسيرها، ثم يتحدّث قائد الكتيبة إذا ما كان لديه شيء يقوله قبل تسلّق الجبال. وأحيانًا، يُختتم البرنامج بأداء بعض حركات الليونة، لتبدأ التدريبات بعد تناول الفطور.

في تسلّق الجبـال، كلّ فصيـل كان يذهـب في اتّجاه معـيّن، ذلك أنّ تحـرك كتيبـة* بأكملهـا أو حتّى سريّـة على شـكل طابور، أمسـى أمرًا مشـكلًا ويستغرق وقتًا. يطلق الإخوة عند تسلّقهم الجبل شعارات تتردّد أصداؤها في أعماق الجبال؛ شعارات تبثّ فينا المعنويّات، وتُفرح الجميع، وغالبًا ما كانت عبارة عن تلك الأناشيد القديمة والمعروفة في كردستان. أحيانًا، كنـت أحدّثهم عن تجربة شهور من المعارك في جبال كردستان، عـن مميّـزات الحرب في المناطـق الجبليـة ومعرفة العـدوّ بالمنحدرات والمعابـر المناسبة في الجبال، وأنّهم يضعون حتمًا الموانع والعوائق، وعلى العنصـر الجيّد إيجاد الطرق الفرعيّة بسرعـة. وأشدد على ضرورة أن يصبـح العناصر ماهريـن في تسلّق الصخور والتحـرك في المنحدرات، بحيث يستطيعون اتّخاذ القرار بسرعة وإيجاد المنافذ.

بقينـا في «دوكوهـه» ما يقـارب الشهريـن. وفي تلك الفـترة استمرّت المراسم الصباحيّة والأدعية ومجالس العزاء التي نقيمها بحلة رائعة تبعث الطمأنينـة في النفوس. أحيانًا، ينبري عناصر كتيبة الإمام الحسين عليه السلام لتناول الفطور وحدهم، من دون أن تخلو جلساتهم هذه من الشغب والمزاح، كمغافلة أحدهم للجالس إلى جنبه، ووضع الملح في فنجان الشاي خاصّته، ومراقبة وجهه وهو يشرب الشاي المالح والحلو في آن!

◘

مع احتمـالات قيام العدو باستخـدام السلاح الكيميائـي في العملية القادمـة، باتوا يركّـزون في التدريبـات اليوميّة بشكل كبـير على كيفية مواجهة هذا السلاح، وإلى جانب تكرار الدروس السابقة، صار التدريب هذه المـرة عمليًّا. فأحيانًا يلقون القنابل المسيلـة للدموع، ويتوجب علينا وضـع القناع في ظرف 6 أو 8 ثوانٍ، ونحـن ملزمون بوضعه لمدة ساعة أو

*- تسلسل التشكيلات: فرقة/كتيبة/سرية/فصيلة أو فصيل/مجموعة/عنصر.

ساعتـين، الأمر الذي يصعب تحمّلـه لأنّ التنفّس مع القناع مختلف كليًّا عن التنفّس الطبيعي. الهدف من هذه التدريبات كان تعويد القوّات على الوضعيّة؛ كيف يتابعـون أعمالهم والقناع على وجوههم في الوقت عينه. وحتمًـا، تميّزت كلّ هذه البرامـج بجانب تمويهي لحماية المعلومات حول العمليـة القادمـة، لأنّ العناصـر يلاحظون من خلال نوعيّـة التدريبات والتماريـن، ويخمّنون أين ستكون العملية التاليـة، في منطقة سهليّة، أم جبليّة، أو مائيّة؟!

أقيمت وتعدّدت هناك أصعب المناورات أيضًا، ذلك أنّ طريقة الحركة تختلف في السهول عنها في الجبال. ففي السهل يمكن قطع مسافة كبيرة عـدوًا وبسرعة، أمّا في الجبال فكنّا نُصـاب بضيق التنفّس بعد قطع 20 إلى 30 مترًا، حيث لا يمكن للأفراد السير بشكل متوازٍ، وإنّما في طابور، وهذا ما كان يصعّب المناورات الجبليّة. وبحكم خبرتي السابقة في حرب المناطـق الجبليّة في كردستان، التفتُّ إلى أنّ الإخوة في المناورات الحيّة، ربّضـوا المدفعيّـة بنحو متقـن وجيّد كمـا في العملية الحقيقيّـة. كنّا في إحدى المناورات، نجتاز في عتمة الليل منحدرًا يجري نهر تحته بسبعة أو ثمانيـة أمتار. وهناك، طلبوا أن يتمدّد عدد من العناصر على الحمّالات ليتدرب الشباب علـى نقل المصابين في الظروف الطارئة. وبينما مشينا لنجتـاز ذلك المنحدر، بدأ وابـل الرصاص ينهمر علينـا، فاستتر بعض الإخـوة خلف الصخـور وانبطح آخرون أرضًـا اتّقـاءً للرصاص. وهنا، انزلقـت قدمي ورحت أنحدر إلى الأسفـل! كان الوضع سيّئًا، لم أدرِ إلى متـى سأبقى أنزلق، ولم أستطع التمسّك بشـيء حتى ارتطمت بعد وقتٍ بالأرض فعليًّا... لكـن من حسن الحظّ، وقعت علـى الرمال، ولم أُصب إصابة تذكر. وحده الله يعلم ماذا كان سيحلّ بي لو وقعت على الصخور والحجـارة. كما زلّت قدما شخصـين آخرين مثلي، وسقطا أرضًا، وكان نصيبنا القليل مـن الأوجاع والكدمات وحسب. في تلك العتمة، لم أسمع

سوى أصوات الرصاص، ولم أشاهد سوى أضواء الانفجارات المتتالية. انتقى المخطِّط للمناورات مكانًا جيّدًا لمسير القوّات؛ فالمنحدر ينتهي بباحة رمليّة خالية في أسفله، ويحتمل بشكل كبير سقوط العنصر فيها إذا ما زلّت قدمه.

على أيّ حال، في نهاية المناورات، وعندما بدأ الإخوة ينقلون الجرحى المفترضين، قيل لهم إنّ ثلاثة من العناصر سقطوا من المنحدر، فجاؤوا إلينا ووجدونا بحال جيّدة. كان أمرًا عجيبًا أنّ أحدًا منّا لم يُصب بأذىً كبير في تلك الحادثة. في اليوم التالي، ذهبت مع «حاجي ميلاني» و«بهجت نيا» إلى المكان، وعاينّا الارتفاع الذي سقطنا عنه والباحة التي ارتطمنا بها، فازداد إيماني بالعناية الإلهيّة التي شملتنا في تلك الحادثة.

▫

كان «دوكوهه» مكانًا مفعمًا بالصفاء، وذا طبيعة خلّابة؛ أحيانًا يتقاطر الماء من جوف الصخور قطرة قطرة، فيشكّل نبعًا صغيرًا. في أوقات الفراغ، كنت وبعض الإخوة نذهب إلى الجبل، ونأخذ معنا البطّانيّات والطعام والشراب، ونبيت هناك إلى جانب صخرة يتقاطر منها الماء بهدوء. لقد أحاطتنا حقًّا طبيعة رائعة، وكلّ شيء هناك ظهر جميلًا. الماء الخارج من الصخور ينحدر عن علوّ مترين أو ثلاثة أمتار، فعمدنا إلى إعداد مجمع للمياه من خلال تبديل أماكن الحجارة، فتنعّمنا بشرب الماء العذب منه، وإعداد الشاي. تناولنا الفطور هناك أحيانًا. تشاركنا في تلك الفترة الأفراح والأتراح، مع أقرب المقرّبين إلينا، نضحك ونبكي معًا، ونتحدّث عمّا يحصل معنا من أمور. أحيانًا كنّا نتذكّر الشهداء من رفاقنا، أو نتحدّث عن مستقبلنا و...

في ذلك الجوّ الحميمي، المفعم بالمحبّة والودّ، لم نكن ننسى الأعياد. وافق ذات مرّة، أن مرّ عيد الغدير ونحن في «دوكوهه»، وجريًا على

العـادة، فكّـر السـادة في الكتيبـة في إعـداد الحلوى. وفيمـا جلست مع آخريـن في خيمـة، بدأ عناصـر الكتيبة يتوافـدون إلى داخلهـا فصيلًا فصيـلًا. وضعنا أيدينا في أيدي بعضنا بعضًا، وشرع أحد العلماء هناك بتلاوة صيغة التآخي... أحيانًا كنت أتذكّر كلام أفراد عائلتي: «إلى متى ستبقـى في الجبهة!»، وأفكّر أنّ الـذي يشهد كلّ هذا الصفاء والخلوص، حقًّا لا يمكنه ترك تراب الجبهة وتحمّل المدينة.

▫

كمـا هو متوقّع، كنّـا أحيانًا في «دوكوهه» نهرب مـن المخيّم، ونذهب غالبًا إلى «دزفول»، إلّا أنّني قرّرت و«حاجي ميلاني» و«يونس بهجت نيا» في إحدى المـرات، بأن نتوجَّه إلى ما وراء «دوكوهـه» لنستكشف المنطقة هنـاك. في الصباح انفصلنا عن الإخوة. حتمًا، كان كلّ شخص منشغلًا بأمـر مـا، فكان ذهابنا أمرًا طبيعيًّـا. بدأنا بتسلّق الجبـل، إلّا أنّنا كلّما تقدّمنـا وجدنـا معابـر ومنحدرات جديـدة، إلى أن أخذ التعـب منّا كلّ مأخـذ. كاد الماء ينفد منّـا ولم نصل إلى أيّ مكان بعـد. وطوينا مسافةً طويلـة، فلم نكن مستعدّين للعودة من الطريق نفسه. أردنا إيجاد طريق مختصر والالتحاق بالإخوة بأسرع ما أمكن، لكن زاد العطش من تعبنا. كان يونـس يقول بـكلّ جوارحه: «باللّٰه عليكم أسقـوني قطرة ماء!». لقد أصابـه الإعياء حقًّا وفقد القدرة على الحـراك. قرّرت وحاجي ميلاني الانفصـال عنه والبحث عن المـاء. وأخيرًا وجدنا بعضـه بين الصخور. لم يكن بحوزتنـا شيء نملأه، فقد تركنا قواريرنـا الفارغة في منتصف الطريـق لشـدّة تعبنا وإعيائنـا. بلّلنا الكوفيّات بالمـاء وعدنا إلى يونس. عصرنا الكوفيّات في فمـه، فارتدّت روحه إليه قليلًا من هذه القطرات. في الواقـع، لم نفكّـر نحن بالانفصال عن الإخوة مـن أجل القيام بجولة ويحلّ بنا ما حلّ. بل مضينا على جهل بالطريق أمامنا، ولأنّ طريق العودة

طويـل جدًّا، وخامرنا شعور بـأنّ الليل يكاد يجنّ، قلت وأنا بحال مزرية: «إذا ما وصلت إلى المخيّم فلن أعود إلى حالي الطبيعيّة قبل ثلاثة أو أربعة أيّام». كان الطقس في فترة ما بعد الظهر حارًّا جدًّا، وقد علقنا نحن بين الصخـور! وشيئًا فشيئًا، أضعنا حتّـى طريق العودة. قرّرنا أن يذهب كلٌّ منّا في اتّجاه، وبمجرّد أن يرى أحدنا شيئًا جديدًا، ينادي البقية. تفرّقنا كلٌّ في جهـة، وسرعان ما وجد الحاج ميـلاني الماء، فنادانا، وأتينا إليه. كان المـكان هنـاك يؤدّي إلى وادٍ يجري فيه نهـر. وبينما نحن نهبط من الجبل، أحسست بغشـاوة في عينيّ، فصرخت في صاحِبَيّ: «انتبها، أكاد أسقط!». وبحالة مـن الضعف، رحت أسير بين أيديهما نحو النهر. بعث الوصول إلى الماء فينا الأمل. ما إن شربنا حتّى تذكّرت أنّنا نفّذنا المناورة علـى ضفّة هذا النهر وفي هذا الوادي بالذات، وخطر ببالي لو أنّنا سرنا بمـوازاة النهر لوصلنا إلى الكتيبة. كانت الشمس تميل إلى الغروب شيئًا فشيئًا، أملنا أن نصل إلى الإخوة قبل حلول الليل. وصلنا إلى أنبوب كبير للميـاه، ورأينا شباب التجهيزات جاؤوا إلى المكان للتعبئة منه. كم كانت فرحتنـا كبيرة! ومن دون أن نشعر ألقينا بأنفسنا ونحن نرتدي ملابسنا إلى الماء! وضعنا رؤوسنا تحت أنبوب الماء! ورحنا ننثر المياه على رؤوسنا ووجوهنـا ونضحك! فيمـا غدا شباب التجهيزات ينظـرون إلينا بتعجّب ويتساءلـون: «ما هذا العمـل؟ ولِمَ تفعلون ذلك!». لم يعلمـوا بأنّنا ضللنا طريقنا في الجبل منذ الصباح.

لم يصدّقـوا بـأن أتيهَ أنـا أيضًا رغـم تجربتي في المناطـق الجبليّة: «سيّد! حتّى أنت تهت أيضًا؟!».

نعم! فالجبل مكان قد يضيع فيه الخبير وغيره!

ذهبنـا مـع شبـاب التجهيزات نحـو المخيّـم. المسافة ما بـين النهر والمخيم تبلغ كيلومترًا واحدًا. وحتّى في ذلك الوقت من النهار حين كانت

الشمس تميل إلى الغروب، كان الجوّ حارًّا جدًّا، بحيث وصلنا ـ نحن المبلّلين بالماء من أعلانا إلى أسفلنا ـ وقد جفّت ملابسنا تمامًا. لم يكن أحد في الفصيل يعلم ما حلّ بنا. فبعد المراسم الصباحيّة انشغل معظم الإخوة بشيء ما، ولم يكونوا معًا سوى في الليل. أمّا نحن الذين عُرفنا بما لدينا من سوابق في الفرار من المخيّم، فلم يُثر غيابنا قلق أحد.

لم تجعلنا هذه الحادثة نقلع عن فكرة الهروب من المخيّم نهائيًّا. فاستمررنا كلّما شعرنا بالملل نهرب إلى دزفول، وأحيانًا نبقى هناك ليومين، نسبح في نهر «دز» الذي تميّز بمياهه الصافية والرقراقة كمياه ينابيع القرية، نأكل، ونمرح. ذات يوم، وحين كنت أسبح وقعت في دوّامة قرب جسر. ومهما حاولت جاهدًا لم أتمكّن من الإفلات منها وكادت تبتلعني. نزلت تحت الماء مرّة أو مرّتين وابتلعت الكثير منه. إلى أن رفعت رأسي بالنهاية وصحت: «أكاد أختنق!». كان «رحيم افتخاري»[1] وعلي نمكي على ضفّة النهر. فقفز علي نمكي بنفسه في الماء وسحبني. خفت فعلًا. قال لي: «انتبه، فللفرار من المخيّم أضراره أيضًا». بعد تلك الحادثة لم أعد أسبح في نهر دز. وكان الإخوة كلّما ذهبنا إلى هناك يقولون لي: «هيّا، تعالَ لنسبح»، فأجيبهم: «يكفيني هذا!».

واظبنا على زيارة محمّد بن موسى الكاظم عليه السلام الملقّب «بسبز قبا»[2]، وكنّا في حال بقينا في دزفول، نقصد المكان الذي خصّصه الحرس للإخوة المجاهدين، ونعود بعد يوم أو يومين إلى «دوكوهه»، فنخجل من الإخوة للحفاوة التي يستقبلوننا بها!

ترك الصفاء الموجود في نفوس الإخوة أثره في البيئة المحيطة بهم. كانوا يفرشون الأرض خارج خيامهم بالرمال، ويزرعون العشب والورود. وفي ذلك الجوّ، سرعان ما تنبت البذور من تحت التراب، وتخضرّ،

1 ـ كان رحيم من الإخوة الطيّبين في محلّة (قره آغاج) في تبريز، وقد نال بعد مدّة مقام الشهادة.
2 ـ لُقّب بذلك لارتدائه الدائم للرّداء الأخضر كما جرت عليه عادة السادة.

لتضيف إلى المكان جمالًا خاصًا. الجميع شعروا بالمسؤوليّة إزاء البيئة المحيطة بهم. أحيانًا، كنت حين أرى مدى اهتمام المجاهدين بنظافة دشمهم وعنايتهم بالورود الصغيرة، أتذكر دشم العراقيّين وخيامهم التي يشمئزّ المرء من رؤيتها، ويدرك مدى انهيار معنويّاتهم من الفوضى والقذارة المحيطة بهم، في أجواء مثل جهنّم، بينما تحلّ الجنّة أينما حلّ شبابنا، وذلك بفضل حسن الخلق، والمودّة، وأيضًا الجمال الذي كان يُصنع في محيطنا. كنّا إذا ما عانينا يومًا نقصًا في الطعام، وبقينا جائعين، نأخذ الموضوع على محمل المزاح كما لو أنّ النقص في أيّ شيء آخر، ولا يشتكي أحد من ذلك.

بقينا مدّة شهرين في «دوكوهه»، إلى أن صدرت الأوامر بالانتقال إلى جزيرة مجنون، فحملنا أسلحتنا، وكّنا قد جهّزناها ونظّفناها، وحزمنا حقائبنا لننتقل بالسيّارات إلى هناك. قبل ذلك، لم يسبق لي أن رأيت جزيرة مجنون سوى لمرّة واحدة وذلك في دفاع عملية خيبر، ولم أبق كثيرًا حينها، أمّا الآن، فكانت رؤية الجزيرة مجدّدًا تبعث فيّ الشوق والحماسة.

## 2

يبدو أنّنا سلكنا طريق بستان نحو جزر مجنون، وقد لفتت نظري في طريق الذهاب الأسماء الجميلة التي وضعها الإخوة للأماكن. ما إن دخلنا الجزيرة الشماليّة حتّى وصلنا إلى التقاطع الأوّل، ألا وهو «تقاطع الإمام». ترجّلنا هناك وفُرزنا في اليوم نفسه. استقرّت كلّ سريّة في تحصينين «2بد[1]». وكانت فصيلتنا في الـ «بد» الخامس. كلّ «بد» عبارة عن طريق ترابيّة تتشعب من الجانب الرئيسي للجزيرة، وتمتدّ أحيانًا مسافة كيلومترًا أو كيلومترين داخل الهور. بعض هذه الإنشاءات تتحوّل

1 – البد هو نوع من التحصينات المائية والإنشاءات التي تقام قرب الماء وفي محيط الجزر والمستنقعات.

في نهايتها إلى ميدان تجتمع فيه القوّات. المياه وحقول القصب تحيط بالـ «بد»، وكان الإخوة يعيشون هناك حياتهم العادية.

قبل كلّ شيء توجّب علينا ترتيب وتنظيم دشمتنا. وفي تلك المنطقة، كانت الدشم عبارة عن حفرٍ صففنا في جوانبها أكياسًا رمليّة، ولم تكن تتّسع لأكثر من خمسة أشخاص. إلى جانب الحفرة يوجد نقطة حراسة، يتناوب العناصر على البقاء فيها. لم تكن تفصلنا في مياه الهور مسافة كبيرة عن العراقيّين، فتوجّب علينا مراقبة حقول القصب والقنوات المائيّة بشكل دائم. حينذاك تولّى الحاج «غلام علي بور» قيادة فصيلنا، وهو إنسان مؤمن، وقد تعطّلت إحدى يديه جرّاء إصابتها بشظيّة[1]. ومع أنّه مسؤول الفصيل، إلّا أنّه كان أقلّ خبرةً من الناحية العسكريّة من بعض الإخوة. وبالطبع، لم يسبّب هذا الأمر أيّ مشكلة بين الإخوة. والمسألة تختلف تمامًا من هذه الناحية عن الجيش، وليس بيننا من يتوقّف كثيرًا عند هذه العناوين. فكلّ شخص يؤدّي العمل الذي يتقنه بالتنسيق مع مسؤوله. كنت في دشمة واحدة مع الحاج غلام علي بور، و«همّت آقايي»، وهو من شباب «مراغه»، ومجيد الذي استُشهد اثنان من إخوته، و«محمود مونسي». لم أكن موافقًا كثيرًا على انضمام محمود إلينا لأنّه تهرّب من العمل أكثر من مرّة. ففي أيّامنا الأولى هناك حيث انشغلنا ببناء الدشمة، واستلزم ذلك وضع الأكياس الرمليّة على سقف الحفرة وفي جوانبها، لم يشاركنا العمل، وراح يقول: «لن أبقى هنا، أريد اللحاق بأحد الأصدقاء في تلك الحفرة»، ويذهب، لكنّه عاد بعد أن أنهينا ترتيب الدشمة والعمل بها ليقول: «سأبقى هنا!».

في بداية الأمر، لم تتوافر للحاج غلام معرفة جيّدة بي، ليعلم بأنّني إلى تلك اللحظة من الحرب، لم أكن قد مكثت لساعتين في مكان واحد

1 – شُفيت يد غلام علي بور في مشهد المقدّسة ببركة أهل بيت العصمة عليهم السلام، وربّما نال هناك أيضًا صكّ شهادته، ليلتحق فيما بعد بقافلة الشهداء.

وأدّيت نوبة من الحراسة! قال لي يومًا: «سيّد! عليك اليوم القيام بالحراسة مع أحد الإخوة من الساعة 12 إلى 2!».

ـ لا يا حاجّ! يمكنني أن أجول من الليل إلى الصباح وأحرس المكان، لكن لا يمكنني أن أحرس بالطريقة التي تريدها!

وقعت كلماتي ثقيلة عليه. فقال: «بالنهاية يتوجّب عليك قانونًا أن تقوم بالحراسة أيضًا!». فقلت: «لا أحبّ أبدًا المكوث في مكان واحد والقيام بالحراسة! إن أردت سأجول حتى الصباح في الـ«بد» و...». تعقّدت المسألة. المسكين لم يكن يعلم أنّه لا يمكنني البقاء هادئًا أو التسمرّ من دون حركات، وإلّا لما أصرّ كلّ هذا الإصرار. أحسست بأنّ الإخوة قد ينزعجون من هذا الأمر، لذا تراجعت عن رأيي. وفي النهاية قال الحاج غلام: «قم الليلة بالحراسة هاتين الساعتين، وغدًا نتداول في المسألة». فلم أتناقش معه أكثر من ذلك ووافقت.

أوّل عمل قمت به تلك الليلة بعد مرور دقائق عدّة على وقوفي في نوبتي، هو التوجّه نحو همّت آقايي، وكان مسؤول الدعم في أحد الإنشاءات(بد)، وقد استلم كيسًا صغيرًا من النقولات، ليوزّعها بين الإخوة الذين يحرسون، ولا يصيبهم النعاس بأكلها. لكنّه ربط الكيس بإحكام واكتفى بتسليح العناصر، حتّى صار معروفًا بين الإخوة بـ«البخيل». تكلّمت تلك الليلة مع «بابا» الذي كان لديه أيضًا نوبة حراسة، وقرّرنا في البدء أن نتّجه صوب همّت. كان جميع من في الدشمة، بمن فيهم همّت، نائمًا براحة وهدوء بال. وصلنا بسهولة إلى كيس النقولات، وملأنا جيوبنا بقدر ما تتّسع. وفيما كنّا نأكل خارج الحفرة، خطر ببالي، بما أنّ الجميع نيام الآن، أن نغتنم الفرصة ونذهب لنأخذ زادنا من تلك النقولات للأيّام القادمة. وهذا ما حصل، ثم عدنا إلى موقعنا. كان الوقوف في بقعة صغيرة واقعًا، عملًا شاقًا بالنسبة إليّ. وكانت أصوات

أنفاس الإخوة الذين غطّوا في نوم عميق تُسمع خارج الدشمة. قلت لبابا: «لا يصحّ هذا الأمر، من غير الإنصاف أن يناموا هم فيما نبقى نحن مستيقظين، علينا القيام بعمل ما!».

- مثل ماذا؟

- تعالَ لأخبرك!

عند نهاية الـ«بّد» كان هناك مكان فسيح، وقف حارس في أوّله فقط، وتُـرك القسم الأكـبر منه خاليًا. شكّلـت تلك البقعة مكانًـا خطرًا، لذا حرصـوا علـى أن تُحرس ليلًا ونهـارًا، وأقيم فيها أيضًا بـرج للمراقبة. إلّا أنّ المـكان كان واسعًـا بحيـث لا يمكن لعـدّة حرّاس تغطيته. فكّرت بأن نذهـب لتفقد تلك البقعة هناك، وعند عودتنـا نشرع بالصراخ بأنّ العراقيّين يتقدّمون! مشـى «بابا» خلفي فيما كنت أبرّر له ما سأفعل: «لا يصـحّ لهؤلاء أن يناموا هكـذا في الخطوط الأماميّة، فقـد نبدأ في الغد بتنفيـذ العمليـة..»، وبعد أن قمنا بجولة في الـ«بـد»، هرعنا إلى الدشمة ورحنا نصرخ: «العراقيّون! انهضوا! قوموا من نومكم!». استيقظ كلّ من في الدشـم المجاورة علـى صراخنا، وهرعوا إلى الباحـة: «أين هم؟ من أين أتوا.. ومن رآهم؟..».

ـ نحن رأيناهم، كانوا يصعدون من تلك الناحية من الـ«بد».

تجافـت أعين الجميع عن النوم. سمّـر الحاج غلام نظراته في عيني وقال بهدوء: «تقدّم أنت رويدًا رويدًا، وسنتبعك». فأجبته بصوت متمتمًا: «إن لم يكن في الأمر مخاطرة، فلتتقدّم أنت!».

عندمـا رأى الحـاجّ بأنّنـي لم أتقدّم، تقـدّم بنفسه، حامـلًا في يديه قنبلتـين يدويتين، وسار بحـذر في الاتّجاه الذي أشرنا بـأنّ العراقيّين قد جاؤوا منه! كنت قد أوصيت «بابا» بأن لا يتفوه بأيّ كلمة قد تكشف كذبتنا. شيئًا فشيئًا اقتربنا من آخر الـ«بد»، وعمدتُ أحيانًا لرمي بعض الحصى

في المـاء وأقول: «ها هم! كأنّنـي أرى أحدهم هناك!»، فخاف بعضٌ فعلًا، وصار يتنصّت ليسمع صوتًا. وهكذا، فقد ذهبنا إلى آخر الـ«بد» ولم نجد شيئًا. اشتعل الحاج غلام غضبًا، وتوجّه إليّ وقال: «لا إشكال في ذلك، غدًا سأتكلّـم مع السيّد صمد بشأنـك!». وكان يقصد بذلك «صمد زبردست» مسـؤول السريّة. لم أتراجع أو أستسلم فقلت: «لم يأتِ العراقيّون إلى هنا ليحتلّـوا المكان، بل جـاؤوا لجمع المعلومات، الذيـن رأيناهم كانوا مئة في المئة عناصر معلومات.. نحن الذين لم نشتبك معهم».

عـاد الإخوة إلى دشمهـم، وكان علينا البقاء في موقعنـا. وما هي إلّا دقائق حتّى سألت صاحبي: «بابا! لمَ لا يحرس عناصر الجيش هؤلاء؟!»، وكنـت أقصد أولئـك العناصـر الثمانيـة أو التسعة مـن الجيش الذين يتمركـزون في باحـة تشبه الـ«بـد»، وقد وضعوا فيهـا أكوامًا من التراب أوقفـوا آليّاتهـم عليهـا، كما ثبّتـوا أيضًا المدفـع والشيلـكا، فكانت تلك النقطة الأكثر أمنًا في الـ«بد».

- يقولون يكفي أن تقوموا أنتم بالحراسة! ولا حاجة معها إلى حراستنا!

- هكذا إذًا؟! ينبغي لهذا الخطّ أن يُطهّر الليلة!

أظـنّ أنّ قوّاتنا التـي خدمت هنا قبلنا، عـوّدت عناصر الجيش على الغنـج والدلال! فلم يقوموا بالحراسة إلى تلك الليلة، وحصروا مهمّتهم في إطـلاق المضادّات باتّجـاه الطائـرات العراقيّة المغـيرة. فكّرنا ماذا سنصنـع معهـم. التفتنـا في البـدء إلى الشيلـكا؛ كان لمدافـع الشيلـكا قبضـات، إذا ما فُكّت تعطّلت تلك المدافع. لقد وصل الشغب إلى ذروته. قال «بابا»: «تعالَ نفكّ مدافعهم ونضع الأخشاب مكانها!».

- لا يا عمّ، إنّ في الأمر مخاطرة، قد تأتي الطائرات العراقيّة فجأة، ماذا سنفعل حينها؟ علينا أن نجد فكرة أخرى!

خطـرت على بالنا الصفائـح المعدنيّة التي تُستخـدم في بناء الدشم

والخنادق. وضعنا واحدة منها أمـام باب دشمة عناصر الجيش، وقفت عليهـا ورحت أقفز في الهواء، فعلتُ ذلك عدّة مرّات، فهرع أهل الدشمة علـى أثر طنينها مذعورين إلى الخارج! خرجـوا بالشورتات والفانيلّات مسرعـين نحـو الشيلكا! فرحنـا نضحك على مناظرهـم! وما هي سوى لحظات حتّى انتبهوا لما يجري.

- لمَ فعلتم هذه الفعلة؟!

- أَنتم قولوا لي، لمَ لا تقومون بالحراسة؟!

- آها! هذا يعني أنّك أنت من تقوم بالحراسة؟!

- أجل... هكذا هي حراستنا!

لم نتوصّـل معهـم إلى نتيجة، وتوجّهوا إلى دشمتهـم ليكملوا نومهم. لكنّني أيضًا لم أتراجع، إذ أسندت الصفيحة إلى مكان ما، ورحت أرمي عليها الحجارة من وقت لآخر... وهكذا، إلى أن أنهيت ساعتي الحراسة.

في صبـاح اليـوم التـالي، ذهب ثلاثـة أشخاص مـن بينهم «محمود دولتـي»، إلى الأخ صمد واشتكوا إليه أمرنـا. يبدو أنّ هؤلاء ذهبوا الليلة الماضيـة بالتزامـن مع أعمال الشغـب التي قمنا بهـا، ليستطلعوا مواقع العـدو، وعند العـودة ضلّوا طريقهـم وجاؤوا من جهة الـ«بـد» خاصّتنا، ليجدوا أن لا أحـد يقوم بالحراسة هناك، فخرجوا من الماء وانصرفوا. بالطبع، من لطف الله وعنايته أنّنا لم نرهم حينذاك، وإلا لظننّا أنّهم من الأعداء، ورميناهم بالنيران. قـال محمود دولتي للأخ صمد: «بالأمس، عنـد الواحدة بعـد منتصف الليل، كنّا بالقرب مـن الـ«بد» الخامس ولم يكن هناك من يحرس المكان!». نادانا الأخ صمد، واستوضح المسألة، فلم نستسلم بدورنا وادّعينا أنّنا رأيناهم أيضًا وعرفناهم ولذلك لم نرمهم! قلنـا ذلك بنحـو جعلهم يصدّقوننا، وبدل الشكايـة راحوا يعتذرون منّا: «أي والله، لقـد عرفتمونا ونحن داخل المـاء و...». من ناحية أخرى جاء

همّـت مشحونًا غيظًـا، وراح يشكونا إلى الأخ صمـد: «لقد سطا أحدهم البارحة على المؤونة، وهذان من فعلا ذلك!». كان يقول هذا ويصلّب على صـدره كما يفعل المسيحيّون! تعبـيرات غريبة تلك التي رأيناها في همّت فرحنا نضحك. لكن قبل أن يكشف هو حقيقة خداعنا، لم يصدّقه أحد. راح يتوسـل الجميع ليصدّقوه ويقول: «إنّ بابـا والسيّد أكلا البارحة كلّ الفستـق الذي كان بحوزتي!». فأجابه الأخ صمـد: «قبلك جاء أيضًا من يشتكي منهما، وتبيّن أنّ الحقّ معهما. وتريد أنت أيضًا تحميل هذا السيد مسؤولية تقصيرك!». ورحت أتظاهر بالمظلوميّة. وحان دور الحاج غلام الذي توجّه إلي وقال لي: «سيّد، لم أعد أريد منك أن تقوم بالحراسة!». كان صباحًا رائعًا!

بنـاءً على قـول مسـؤول فصيلنا، أُعفيـت من الحراسة مـا دمنا في الـ«بـد»، إلّا أن أتطّـوع أنا بذلك. وبالطبع، بـادرت لذلك وتطوعت فقط للحراسة بدلًا عن أحدهم.

◘

تختلف الجزيرة عن سائر خطوط العملية. فهنا، لم تحصل المواجهة مـع العـدوّ وجهًا لوجه، بل فقط في المعابر المائيّـة وحقول القصب. ذلك أنّ مساحـة اليابسة صغيرة، ولـولا المزاحات والعلاقـات الحميميّة بين الإخوة، لثقل علينا تحمّل الظروف الصعبة.

إحـدى تسـالي الإخـوة في الجزيرة كانـت اصطياد السمـك. مضى ثلاثـة أيّام علـى مجيئنا إلى الجزيـرة ولم أستطـع إلى حينها اصطياد سمكـة واحـدة. وحيث كنّا قد علمنـا سلفًا بأنّنا قادمـون إلى الجزيرة، فقـد أحضرنا معنـا شباك الصيـد والمعدّات اللازمة لذلـك، لكنّني في هـذه الأيّام القليلة لم أستطع أن أصطاد شيئًـا بهذه الشبكة. وحين رأى الإخـوة معاناتي، قالـوا إنّه يمكننـي الاصطياد بسهولة عـبر استخدام

القنابـل الصوتيّة التي بالطبع لم تكن حينهـا مورد حاجة، وباتوا أحيانًا يستخدمونهـا في صيد السمك. رفعت شبكتـي وتعلّمت كيفيّة الاصطياد بواسطة القنابل الصوتيّة. فعندما نلقي إحداها مباشرة إلى الماء، تنزل إلى القعـر ولا تفيـد كثـيرًا في تحقيق الهدف المطلـوب. أمّا حين نسحب عتلـة القنبلة ونعدّ بضع ثواني ثـمّ نرميها، تنفجر على مسافة قريبة من سطـح المـاء. في المرّة الأولى التـي اتّبعت فيها هذه الطريقـة، لم أصدّق عينـيّ، إذ رأيـت السمك يطفـو بكثرة على سطح المـاء! وهو يتخبّط من عصـف الانفجـار، ويبقى طافيًا على المـاء لدقيقتين أو ثـلاث، ومن ثمّ يشـرع بالحركة ويلوذ بالفـرار! أصبحت ماهرًا في الأمـر! فكنت أباشر العمـل فـورًا بعد انفجار القنبلـة، وأجمع ما يقرب مـن نصف كيس من السمـك الحيّ، فأطبخه وأتناوله مع الإخوة، أو أعطيه لسائقي شاحنات التجهيزات وعناصر الإشارة.

ذات يـوم، ذهب «مونسـي» إلى الأخ «صمد زبردست» وأخبره بقضية الصيد. فما كان منه إلا أن جاء إليّ للتحقيق، وسألني: «سيّد! أخبروني أنّك تستخدم القنابل الصوتيّة في صيد السمك!».

- من قال هذا؟!

- مونسي!

- لا يقول الحقيقة!

نظـر الأخ صمد إلى كـمّ السمك الكبير الذي اصطدتـه وقال: «إذًا، كيف اصطدت كلّ هذا السمك؟».

- لقد ألقى العراقيّون قذيفة وسقطت هنا، واستغللت أنا الفرصة!

حدّق بي الأخ صمد وقال: «مضى شهر على وجودي هنا، ولم أرَ قذائف العـدوّ تسقط في هـذه الناحية، فيما لم يمضِ على وجـودك هنا يومان، وتقـول لي إنّ قذيفـة سقطت هنـا!». لم أنثنِ وقلت: «سيّـد صمد، أنا لم

آخذ وعدًا من العراقيّين بقصف المكان أو عدمه! ها هم الآن قد قصفوا المـكان واصطدت..!». كان خندق الأخ صمـد يبعد عنّا قرابة الخمسمئة متر، وواقعًا أنّ القذائف العراقيّة سقطت أحيانًا على بعد خمسين مترًا، لكنّهـا لم تسقـط أبـدًا في المكان الـذي اصطدت فيـه. لم يجادلني الأخ صمـد كثيرًا، وابتعد عنّـي والبسمة تعلو شفتيـه. وللإنصاف، كان كثير مـن الإخوة يقفون إلى جانبي في مشاغباتي. بعد ذهابه، وبينما انشغلت بتنظيـف السمـك، وإذ بـي أرى مونسي واقفًـا أمامي. قـال لي: «سيّد! أعطني سمكة من فضلك...».

- لا يمكن، فهذه السمكات قد قُصفت يا صاح!

انتهزت الفرصة المناسبة لتسوية حسابي معه. إلى أن قال المسكين في النهايـة: «لن أتدخّل في شؤونك بعد اليوم يا صاح! ومهما فعلت لن أخبر أحدًا!». لكنّني لم أتراجع، وبعد تلك الحادثة أخرجناه من دشمتنا.

◘

في الجزيـرة، كنّا نبقى مبلّلين من شدّة الرطوبة. لذا، وكي لا نصاب بالروماتيـزم، قدّمـوا لنا غالبًا اللـبن والثوم كوجبة غذائيّـة. لكنّني لم أقتنـع بذلك، وطوال الفـترة التي قضيتها في الجزيـرة لم آكل من طعام الفرقـة إلّا قليـلًا! فبالإضافة إلى السمك، لفتت نظـري أحيانًا، الطيور والبـطّ البرّي الـذي يعوم على وجه المـاء أو يتنقّل بين حقـول القصب، فوضعـت خطّـة لاصطيادها. جمعـت شرائط التلفـون القديمة وربطت طرفهـا بالقضيب (المعدني) الموجود في المكان الذي تُنظّف فيه الأواني. كنّا هناك نستخدم قطعًا كبيرة من الكاوتشوك بمنزلة جسور، فأعددت لنفسـي قاربًا هو عبـارة عن قطعة كبـيرة من الكاوتشـوك فرّغتها من الداخل بمساحة متر تقريبًـا، بحيث يمكنني الجلوس فيها براحة. وبعد أن أصطاد الطير، كنت أركب القارب وأمسك بطرف الشريط، وأتقدّم

في الماء إلى حيث سقوط الطير، آخذه ثم أمسك من جديد بطرف الشريط وأسحب نفسي نحو الـ «بد».

وكنت بعد تنظيف الطيور وطبخها أعدّ سفرةً معتبرة. كان الأخوة في أغلب الأوقات يعدّون البطاطا المطبوخة للفطور.

أمضينا أوقاتًا جميلة في الجزيرة، وأصبحت العلاقة بين الإخوة أكثر وديّة. ومع أنّ طبيعة المنطقة الجميلة قد حدّتنا قليلًا، إلّا أنّ سكون حقول القصب والماء الذي لم يكن يكسره سوى أصوات البطّ البرّي والطيور، كان ينسينا قساوة الحرب. أمّا السباحة في ذلك الجوّ فطالما بدت ممتعة جدًّا إلى جانب فراخ البطّ التي ما إن يقترب المرء منها حتّى تغوص مباشرة في الماء وتظهر من ثمّ على بعد خمسين مترًا. كم راقتني شقاوتها ولعبها.

ذات يوم، وبينما كنت أسبح، وإذا بأحدهم يقطع عليّ صمتي وهدوئي.

– سيّد! أسرع، نريد أن نقصف!

كانت في المكان ثلاث مدفعيّات، تباشر القصف كلّما لاحت لها آليّات الجيش العراقي. سبحت مسرعًا باتّجاه الـ«بد»، وبدأت نيران المدفعيّة تعمل، ليتبعها ردّ المدفعيّات العراقيّة. ما إن خرجت من الماء وتمدّدت على الجسر، حتّى سقطت قذيفة مدفعيّة في المكان الذي سبحت فيه تمامًا. ولو كنت واقفًا حينها لنلْتُ نصيبي عددًا من الشظايا. قمت بعد لحظات، وركضت نحو دشمتنا. العراقيّون يمطرون المنطقة بنيران مدفعياتهم، ولم تتسنّ لي الفرصة حتّى لأرتدي السروال والقميص، فظهرت مثارًا للضحك. وقد رأى بعضهم للمرّة الأولى جسدي المشظّى بنحو كارثيّ [جرّاء الإصابات السابقة]، فصار يحدّق بي مذهولًا.

مرّ ذلك اليوم على خير، لكن بعد يوم أو يومين وقعت حادثة أخرى حيّرتنا جميعًا؛ على الرغم من أنّني تهرّبت مرات من الحراسة، إلّا أنّني

برعت في تنظيف الأواني. وكنّا نغسلها في ناحية من الجسر حيث تتجمّع فيها المياه النظيفة نسبيًّا. وبينما استغرقت في أحد الأيام بالجلي هناك، وإذ بقذيفة تسقط إلى جانب الطريق، فارتميت بنحو عجيب في الماء، وكأنّ أحدًا أو شيئًا دفعني بقوّة. حرت في أمري، وكذا الإخوة. اجتمعوا حولي متسائلين: «ماذا حصل؟!»، وحين خرجت من الماء، وقع نظري على شظيّة كبيرة، هي التي ارتطمت جهتها الملساء بظهري، ورمتني بقوّة في الماء. حملتها ورحت أتأمّلها فيما تناهت أصوات الإخوة إلى سمعي: «ماذا فعلت مع الله حتّى دفع عنك البلاء؟!». حقيقةً، لو أصابتني تلك الشظيّة بحجمها الكبير من الجهة الأخرى لمزّقت كلّ ظهري، ويعلم الله ما كان سيحلّ بي!

◘

لم نتخلَّ عن شغب الفرار من المنطقة. وكان علينا للذهاب إلى الأهواز اجتياز خمسة إلى ستّة حواجز، لم يكن عبورها بالأمر الهيّن، ما يجعلنا نحتاج إلى تصاريح، فصرنا نعبر كلًّا منها بحجة معيّنة. فنركب مثلًا آليّات الفرق الأخرى، فيظنّ هؤلاء بأنّنا في عداد قواتهم. عندما نصل الأهواز، نمكث هناك يومين أو ثلاثة ومن ثمّ نعود. ذات يوم، لفت انتباهي غياب «بابا». فتّشت عنه كثيرًا فلم أجده. علمت أنّه ذهب وحيدًا إلى الأهواز. مرّ يومان وإذا به يعود حاملًا معه خمسة كيلوات من الرّمان. ما إن اقترب منّي حتّى ضحك وقال: «تعال كلّ الرمّان، فلهذه الرمّانات حكاية». سألته عمّا جرى، فقال: «أردت أن أشتري رمّانًا من بائع بسط بضاعته على صينيّة بالقرب من نهر كارون، وكان الاتّفاق على أنّ الكيلو بخمسة وعشرين تومانًا. فأراد أن يتحاذق عليّ وبدأ يضع في الكيس كلّ رمّانة متعفّنة ولم أرَ حبّة واحدة جيّدة. اعترضت عليه وعلا صراخنا. قلت: «لم أعد أريدها!». فقال: «إن لم تعد تريدها، سأحملك وأرميك في الماء!». كان الجوّ متوتّرًا، وكنت وحيدًا، ورأيته حقًّا يغوص في

الخيال. أفرغت الرمّانات على الصينيّة، فراح يلاحقني، صرت أدور حول الصينيّة وهو يلحق بي. وجدت أنّه لن يعتقني. فرفعت الصينيّة بوجهه، ووقعت جميع الرمانات على الأرض. وهنا، بدأ جميع الباعة يلاحقونني. تملّكني الخوف. ومن بعيد رأيت عددًا من عناصر الجيش قد تدخّلوا ووقفوا بجانبي. عندها شرع الباعة برشقنا بما لديهم من الفاكهة، وواجهناهم بالمثل أيضًا! حدثت فوضى عارمة، ولو وصلوا إلينا لكانوا أبرحونا ضربًا! في النهاية، وصل شباب من الهيئة وخلّصونا من بين أيديهم. وهذه الرمّانات اشتريتها من مكان آخر! كل الآن...».

▫

كان لعناصر الجيش دشمة بالقرب منّا، ونصبوا منصّة لصواريخ الكاتيوشا في أوّل الـ «بد» إلى جانب بئر النفط، التي تبعد مسافة كبيرة عن دشمتهم. لقد اطمأنوا بأنّهم وبعد إطلاقهم لصواريخ الكاتيوشا، سيكونون ودشمتهم في مأمن من مدافع العدوّ التي تمطر المكان بوابل نيرانها، ما يعرّضنا لسقوط شهداء وجرحى في صفوفنا، الأمر الذي جعلنا ننزعج منهم.

ذات يوم وفيما كنت عائدًا للتوّ من الأهواز، رأيت بالقرب من دشمة قيادة السريّة وسط الـ «بد» عبد الحسين أسدي - هو نفسه الذي توطّدت علاقتي به في مخيّم «شهداء خيبر»، ومن أداء دور «لوريل وهاردي»، وغالبًا ما شاكسنا بعضنا بعضًا. حين رآني ناداني ضاحكًا: «سلام سيّد! من أين قدومك؟!»، قلت: «من الأهواز». بعد السلام والسؤال عن الأحوال توجّهت إلى دشمتنا. دقائق وسمعت صوت إطلاق صواريخ الكاتيوشا بالتزامن مع رفع أذان الظهر. كنت في الدشمة وشعرت بأنّ قذيفة سقطت بالقرب من منصّة الكاتيوشا. لم أكترث للأمر، وما هي سوى لحظات حتّى رنّ جرس الهاتف أن: «أرسلوا لنا مسعفًا بسرعة، فقد أُصيب أحد الإخوة»، قلقت وسألت : «من هو؟!».

- أسدي!

خرجـت مسرعًا من الدشمة وركضت إلى أوّل الـ «بد»، فرأيت أسدي وقد أُصيب إصابـة بالغة وهو يتوضّأ. ضمّد المسعفون جراحه ونقلوه إلى سيّارة الإسعاف. نظرت إليه بقلق. لم تكد تمضِ فترة حتّى سمعنا بخبر استشهاده وهو في المستشفى. تذكّرت صفاءه وحميميّته ولحظات السرور التي كان يبتدعها من أجل الإخوة. انقبض قلبي بشكل غير عادي، لكنّني حاولت جهدي إخفاء غمّي عن الإخوة لكي لا يؤثّر ذلك على معنويّاتهم. دائمًـا ما كان قلبي ينفطر لشهادة الإخوة، لكنّني أبذل وسعي لئلّا يظهر ذلك عليّ، وأقول: «هذه هي الحرب، وقد حقّق الشهداء مرادهم».

◽

لم يكـن عناصر الجيش يحرسون في الخطـوط الأماميّة. فكنّا نعتبر عـدم مساعدتهم عـادةً سيّئة. في البدايـة، عندما رأيناهـم ينامون في الملابـس الداخليّة (شورت وبروتال) ضحكنـا عليهم، لكن، شيئًا فشيئًا وجدنا أنّهم اعتادوا على الأمر ولم يعودوا يكترثون للمسألة، والحال أنّنا اعتبرنـا النوم على تلك الحال في الخطوط الأماميّة أمرًا غير مستساغ. لذلـك صرنا نعمل على إزعاجهم، ونطلـق أحيانًا الرصاص بالقرب من دشمتهـم لنعكّر عليهـم صفو نومهم فـلا يشعروا بالراحـة التامّة! بعد مـدّة اتّخذوا قرارًا آخر. كان يوم الجمعة حين رأيناهم ينقلون وسائلهم تاركين الدشمة. سألت قائدهم: «أين تذهبون على بركة الله؟!».

- لمَ؟! وهل تريد اللحاق بنا؟!
- لَا يا عمّ...
- حسنًا نحن ذاهبون إلى أوّل الجادّة!

لم أكـن لأصدّق أنّهم انتقوا أوّل الجادّة للاستقرار هناك، وكلّنا نعلم بأنّ الجادّة، وبسبب تـردّد السيّارات والآليّات عليها، كانت دومًا عرضة لقصـف المدفعيّـات العراقيّـة. لكنّ تحديـد مواقعهـم كان بيدهم، وقد

اختاروا أسوأ الأماكن بنظرنا. أمّا بالنسبة إليهم، فقد اعتبروه مكانًا جيّدًا لأنّه قريب من كبينة الاستحمام، كما إنّ الطعام يصل إلى هناك بوفرة، فيما تقلّ كميته عند وصوله إلينا. ومهما قلنا لهم إنّكم مخطئون في التموضع هناك، لم يقتنعوا، فذهبوا واستقرّوا على طرف الجادّة.

بعد يومين أو ثلاثة، قرّرت و«بابا» الذهاب للاستحمام. خرجنا من الـ«بد» ووصلنا إلى الجادّة. لقد دأب العراقيّون على رميها بالنيران، لكنّ القصف اشتدّ ذلك اليوم. بدأنا نزحف حينًا وننهض حينًا. ليس باليد حيلة، فقلت لبابا: «لنعد أدراجنا! فمع دويّ الرصاص هذا لا يمكن الوصول إلى الحمّام، فضلًا عن الاستحمام براحة وهدوء!». لكنّ «بابا» رفض: «لقد قطعنا كلّ هذه المسافة، لتقول لنعد أدراجنا، عمّا قريب تنتهي المسألة!». تابعنا مسيرنا، لكن، كلّما اقتربنا أكثر اشتدّ القصف أكثر! وصلنا إلى نقطة قريبة من دشمة عناصر الجيش، وفجأةً رأينا الدشمة تطير في الهواء جرّاء قذيفة مدفعيّة سقطت عليها مباشرة! واجهنا مشهدًا مريعًا. فالعناصر الخمسة أو الستّة الذين كانوا نائمين في الدشمة سقطوا شهداء بنحو مفجع! آلمنا ذلك المشهد جدًّا، فرجعنا من هناك منزعجين وغاضبين. لم ينتهِ ذلك اليوم بحادثة الدشمة. فعند الظهر، ذهب الأخ «علي شكوهي» السائق في تجهيزات الكتيبة، ليحضر الطعام إلى الإخوة. وهو أيضًا مسؤول التسليح في الكتيبة، ونشطٌ في قسم التجهيزات. ولأنّ أمّه طبيبة متخصّصة في طهران، تكفّل بحقن الإخوة عند الحاجة والمرض، والاهتمام بأمورهم من جميع النواحي، من دون أن يُقلّل ذلك من شأنه كشخص مرح ومصدر سعادة للإخوة. كان برفقة مونسي وأحد الإخوة الآخرين يسيرون مسرعين على الجادّة، فجأة سقطت قذيفة مدفعيّة أمام سيّارتهم. وصادف أنّ سيّارة أخرى كانت قادمة من الجهة المقابلة، ففقد السيطرة على السيّارة لتسقط في الماء مباشرة! بعد جهد جهيد، وكسر زجاج السيّارة تمكّنوا من الخروج

والوقـوف على ظهـر السيّارة، وراحت بمـا فيها من قـدور الطعام تغرق في المـاء! قالوا لنا فيما بعد: «بدأنا نصرخ ونصـرخ إلّا أنّ أحدًا لم يسمع استغاثتنـا، كنّا واقفين على ظهر السيّارة والمـاء قد وصل إلى ركبنا. من حسـن الحظّ أنّ السيّارة توقّفت عن الغـرق. صحنا كثيرًا إلى أن التفتت إلينـا إحدى السيّارات التي كانت تعبر الجـادّة...». في النهاية جاؤوا من الكتيبة برافعة وانتشلوا السيّارة من الماء، وانتهى اليوم بتسجيل مثل هذه الحوادث.

◘

في الجزيرة أمضى الشباب أيّامًا صعبة بسبب شدّة الرطوبة وطبيعة المنطقـة الجغرافيّة؛ لـذا، وبعد قرابة الخمسين يومًـا من استقرارنا في الـ«بـد»، جاءت الأوامر لنا بترك المنطقة. مضينا حاملين معنا ذكرياتنا الحلـوة والمرّة عنها، وسرنا بالحافلات الصغيرة إلى الخطوط الخلفيّة، لكنّ حادثةً أخرى وقعت في أثناء العودة. قبل وصولنا إلى تقاطع الإمام، شاهدنـا طائرة عراقيّة، تحلّق وتجـول وكأنّها تتحـيّن الفرصة المناسبة لقصف الحافلة التي كنّا فيها. قلنا للسائق: «توقّف لنختبئ في مكان ما، ومـا إن تذهب الطائـرة، نكمل طريقنا». قال: «اصـبروا حتّى نصل إلى تقاطع الإمام وهناك نتوقّف!». وقبل أن نصل إليه، مالت الطائرة نحونا بسرعة، وانخفضت علـى مقربة منّا، وفي تلك الأثنـاء، أُطلق صاروخ من مضادات الــ«x.1»[1]، التي كانت قد نصبت حديثًا في المنطقة. وقف شعر بدننا من الخوف، داس السائق على المكابح وترجّلنا جميعًا من السيّارة. لقـد مرّ صـاروخ الـ«x.1» فوق رؤوسنا على علوّ بضعـة أمتار. دوّى صوته قويًـا بحيث ظننّا بأنّه ارتطـم بالحافلة! قلت لـ«بابـا»: «طوال هذه المدّة

1. علـى الرغم من أنّ لدفاعـات«X.1» الآليّة قائدًا، إلّا أنّها تعمل على الكهرباء بشكل آلي، وبمجرّد أن تصبـح الطائرة في مرمـى نيرانها، تطلق تلقائيًا صاروخًا نحوها. كانـت مهمّة القائد تتمثّل فقط في توجيه الآلة نحو الطائرة، وليس له أيّ دور في الاستهداف والإطلاق.

التي قضيناها في الجزيرة لم يحصل لنا شيء، أخاف أن يصيبنا مكروه الآن ونحن خارجون منها!». لم تدعنا الطائرة وشأننا، وبقيت تحلّق فوق رؤوسنـا، فهي إمّـا قد جاءت للاستطـلاع، أو لتغير علينـا ولم تستطع. تابعنـا مسيرنا، وتابعت الطائرة تحليقها فـوق رؤوسنا من دون أن تأتي بأيّ فعل إلى أن خرجنا من الجزيرة.

◽

انتقلنا من الجزيرة إلى ثكنة تقع بالقرب من مصفاة «الأهواز». بقينا هنـاك ثلاثة أيّام إلى أن جاءت الأوامر بذهـاب القوّات في إجازة. غالبًا مـا كانت القـوّات في الجبهة تنقسم إلى ثلاث فئـات. فئة تحضر فصليًّا كالمزارعين الذين يلتحقون في فصل الشتاء، وطلّاب المدارس والجامعات الذيـن تغصّ بهم الجبهـات في فصل الصيف، وفئـة تحضر في الجبهة صيفًا وشتاءً وقـد أصبحت الجبهة شغلهم الشاغل وكلّ حياتهم. تأخّرت العمليـة، ولم يرق للعناصر الذين يحضرون في الجبهة فصليًّا الانسحاب إلى الخطوط الخلفيّة من دون أن يشاركوا فيها، فبقي بعضهم في الجبهة توقًـا للمشاركـة في العملية ولتُكتب لهم الشهـادة. في ذلك الوقت، انتاب جميـع الإخوة إحساس غير عـاديّ. شهور مرّت على عملية خيبر، كُشِفَتْ خلالها ثـلاث عمليات، وكانـت دعايات العـدوّ المغرضة وأخبـار وسائل الإعلام الأجنبيّة ظالمة ومحبطة. لقـد تحمّل المجاهدون ضغوطًا كبيرة، فقـد بقـوا في الجبهة لفترات ولم يتمّ تنفيذ أيّ عمليّة! ولهذا ومع كلّ هذه الأحـداث التي وقعت في تلك الفترة، والأعمال التـي قمنا بها، كنّا نظنّ، بأنّنا لم نفعل شيئًا، وذهبنا في إجازة بهذه الحال المعنوية.

◽

ما إن تحرّك القطـار حتّى بدأ المزاح والشغب. كانت الوجهة طهران،

ولكلٍّ منّا برنامجه فيها. أراد بعضٌ زيارة حرم المعصومة في قم، وبعضٌ آخر أراد زيارة الشاه عبد العظيم الحسني، فيما عزمتُ وآخرون على التوجّه إلى «بهشت زهراء» [روضة الشهداء]. لدينا فرصة إلى العصر؛ موعد تحرّك القطار نحو تبريز، فأحببت في هذه الفترة أن أذهب لزيارة «بهشت زهراء» التي تمدّني بالمعنويّات كما لو أنّني شاركت في عدّة عمليات؛ قبر الشهيد بهشتي، الشهيد مصطفى شمران، آية اللّه طالقاني، والشهداء المجهولين و... حيث إلى جانب قبور أولئك الشهداء العظام يمكن استلهام الكثير من القوة والعزيمة والمعنويات للمضي قدمًا في الجهاد والمقاومة... ومع أنّ الشهداء كانوا يسقطون في الجبهة أمامنا، إلّا أنّني أعيش شعورًا من نوع آخر عند زيارة قبورهم في المدن، ورؤية ردود فعل أهاليهم الذين يجسّدون مشاهد رائعة هناك. طالما اعتبرت أنّ السنوات الطوال التي قضيناها في الجبهة والجهود التي بذلناها تصغر أمام صبر الأُسر والعوائل، وتضحيات الشهداء وعظمة الحرب. رأيت هناك والدة شهيد أعدّوا لها غرفة صغيرة وضعت فيها بعض الأغراض لتعيش إلى جانب قبر ولدها. كان عوائل الشهداء عندما يروننا ويدركون من ملابسنا وهيئاتنا أنّنا مجاهدون، يغمروننا بالمحبّة ويخجلوننا بكلامهم. يبحثون فينا عن ذكرى من أعزّائهم، فتقوى عزيمتنا برؤيتهم. من أجل كلّ هذه الأمور، عشقت زيارة قبور الشهداء دومًا.

كنت حينها برفقة «أيّوب ضربي»، «حسن باقران» وبعض الأصدقاء الآخرين، إضافة إلى شخص آخر تعرّفت إليه حديثًا، ولم أعلم وقتها إلى أين ستصل هذه الصداقة. يُدعى «أمير مارالباش».

3

بالنسبة إليّ، لم تكن هذه إجازة بالمعنى الصحيح، فبالكاد ذهبت

حتّى أردت العودة. أكثر ما كان يدعوني للمجيء في إجازة هو رؤية العائلة والأصدقاء، رغم عدم امتلاكي الكثير لأخبره للإخوة في المقرّ (في المدينة)، فلم ننفّذ أيّ عملية في تلك الفترة، واعتقدتُ أنّنا لم نفعل شيئًا يستحق الذكر. أردت فقط التحدث إلى أولئك الذين التحقوا بالجبهة منذ ثلاثة أشهر ويريدون الآن إنهاء خدمتهم. قلت لهم إن قرّرتم العودة بعد ثلاثة أشهر إلى المدينة فستخلو الجبهة، شاركوا بالحدّ الأدنى في عمليّة من العمليات ثمّ عودوا إن أردتم. أحيانًا كنت أحدّث الإخوة عن ذكرياتنا في الجزيرة وعن معنويّات المجاهدين وشغبهم. هناك، بدأت ألتقي بأمير مارالباش أكثر من ذي قبل، وبدأت أكتشف معدنه. سبق ورأيته مرّة واحدة في صلاة الجمعة، بصحبة فرج قليزاده، وأراد أن نصبح أصدقاء، لكنّني لم أهتمّ لذلك. لم أعتد اتخاذ الأصدقاء بتلك البساطة، أمّا حين يصبح أحد ما صديقًا لي، أخلص له حتى النهاية. حينذاك لم أكن ودودًا مع أمير، لكنّنا تعرّفنا إلى بعضنا بعضًا أكثر في القطار أثناء العودة إلى تبريز، وبقينا على تواصل في المدينة. ذات يوم اصطحبني إلى منزلهم، وهناك أخبرني قصّة حياته. قال إنّ والديه تجمع بينهما صلة القرابة، وإنّ خاله كان من رجال السافاك [المخابرات الإيرانيّة زمن الشاه]، فاستغلّت أمّه موقعيّة أخيها، واستولت على أموال أبيه وممتلكاته كلّها ثم انفصلت عنه. أمير الذي كان يبلغ من العمر خمس سنوات يذكر جيّدًا الأيّام القاسية التي قضاها برفقة أبيه وأخيه، ويقول: «بعد تلك الحادثة، استأجرنا غرفة، وضعنا سريرًا في زاوية منها كنّا ننام نحن الثلاثة عليه. أمّا أبي، فأضحى يعمل في حياكة السجّاد لتحصيل لقمة العيش، ويتدبّر أمورنا بالأجرة الزهيدة التي كان يتقاضاها».

انقلبت أحوالي عند سماع ذكريات طفولة أمير، وقصة الهبوط من القمّة إلى درجة الحاجة للُقمة تسدّ الرمق. لكنّ الصبر والحياة العزيزة ليسا شأن الجميع. بكيت تلك الليلة وحدي.. ورحت أفكّر في أمير

الـذي اسمه في الهوية «هوشنك»، وقد التحـق بالجبهة منذ سنّ الرابعة عشـرة؛ كم كان إنسانًا عظيمًا وجديرًا بالصداقة. لقد عانى كلّ صنوف الحرمان، ورغم ذلك عندما أصبح شابًّا يافعًا وقف نفسه للجبهة. ليس أمير وحده من عاش حياةً قاسية، فمعظم شباب الحرب القدامى، تدرك عندمـا تتحدّث إليهـم أيّ حياة شديدة وصعبـة أضنتهم. على كلّ حال، أصبـح أمير وعائلته أصدقاء عزيزين علـيّ، وتوطّدت علاقتي بهم أكثر مع مرور الأيام، وسرعان مـا سرت هذه الصداقة إلى عائلتي، فصاروا كلّما رأوني يسألون عن أمير مباشرةً.

▫

كنـت في الفـترات الفاصلة بين العمليات وفي الإجـازات، أتابع علاج جراحاتـي الحديثة والقديمة. فبعد إصابتـي في عملية مسلم بن عقيل، حدثت لي مشاكل جمّة. إضافة إلى جراح بطني ورجلي العميقة، تغيرت تقاسيم وجهي؛ فشظية شوّهت أنفي، وأخرى سحقت عظام خدّي وفكّي الأيمن بالكامل، أمّا عينـي اليمنى فقد ضعفت قدرتي على الإبصار بها بسبـب الرضوض التي أثّرت على أعصابهـا. كان وجهي قد تشوّه، بفعل هـذه الجـراح، بنحـو كان كلّ من يراني للمـرّة الأولى يتسمّـر في مكانه مدهوشًـا! لم تكن القضيّة قضيّة جمال الوجـه، بل ابتُليت بمشاكل أكثر أهميـة؛ فقد تعطّـل أنفي عن العمل، وصرت أعـاني حتى من مشاكل في التنفّـس. كمـا إنّ فكّي الأيمن راح يتـورّم مع الوقت عندمـا كنت نحيلًا في البدايـة، وصرت أعاني عنـد التكلّم والأكل. وبالطبـع، ومع استمرار الحرب، تغيّرت طبيعة هذه الأزمات، وسأتكلم عنها.

بعد إصابتي، أُجريت العمليّة الأولى في وجهي في مستشفى كرمانشاه، ولا أذكـر شيئًا عنهـا. وفي مشهد أيضًا أُجريت عمليّـة ثانية لوجهي، لم تـأتِ بنتيجة، فبقيتُ كما كنت، أعاني مشاكل كثيرة بسبب فقدي لأنفي.

لم يكـن ممكنًــا أن أذهب في إجازة ولا أذهـب إلى عيادة الطبيب أو إلى المستشفى. في تلك الفترة كنت قد تعرّفت حديثًا إلى أمير عندما أعطاني الأطباء في تبريز بطاقــة لإجراء عملية جراحية لأنفي في طهران. كانت البطاقــة باسمــي، لكن من غـير الممكن أن يبقى أمـير في تبريز في تلك الظروف وأغادر إلى طهران وحدي.

ذهبنــا معًا إلى طهــران، وكان من المقرّر أن ننزل في فندق قريب من مؤسّســة الشهيــد، لا يمكن الدخـول إليه سوى من خــلال البطاقة التي أعطـوني إياها، فحاولت وأمير بكلّ الوسائل عبور مداخل الفندق. غالبًا مــا كنت أصعد إلى غرفتي، وأرمي لــه البطاقة ليدخل بدوره بواسطتها. لم تكن تحدث أيّ مشكلة في ذلك بسبب عدم وجود صورة على البطاقة، فظـلّ أمير برفقتي دومًــا. احتوت الغرفــة على سرير إضــافيّ، ذلك أنّ معظــم المجاهدين الذين يأتــون إلى طهران للعلاج، كانــوا ينزلون عند أقاربهــم. المشكلة فقط في الطعــام، حيث يقدّمون وجبــةً واحدةً مقابل كلّ بطاقــة، ثــم يضعون علامةً عليهــا. أحيانًا كان السطـو على الطعام غـير ممكــن، فصرنا نخرج ونشــتري الطعــام بأنفسنا. بعد عــدّة أيّام مــن الذهاب والإياب والمعاينات الأوّليّــة وإجراء التحاليل اللازمة، تقرّر إدخــالي في جامعــة طهران إلى مستشفى صغــير متخصّص في عمليات الأنــف والأذن والحنجــرة. أخبروني هنــاك أنّهم سينزعــون قطعة من عظــم الرجل وقطعة مــن لحم الجبهــة ليزرعوهما في أنفــي المعطوب، فيرتفع قليلًا ويبرز.

عندما دخلت المستشفى، بطل مفعول العمل بالبطاقة تلقائيًا، فقصد أمــير منزل أحــد أقربائه ليبيت لياليه هناك، ويأتــي في الصباح الباكر ينتظــر أمام البوابة حتّى يحين موعد الزيارة، وذلك في تمام الثانية بعد الظهــر. أصبح يشتري لي طعــام الفطور ويعطيه للحارســ ليسلّمه لي، وعنــد الثانيــة ظهرًا أراه على بــاب غرفتي حاملًا معــه الطعام مجدّدًا.

اعتدت وجوده إلى درجـة صرت أشرع بالتذمّر بمجرد أن يتأخّر لدقيقة أو دقيقتـين عن الساعة الثانية، وأقول: «أمير! أين كنت إلى الآن؟!؟». لم أذق بعـد تلـك الأيام شيئًا من لحم الكبد والمرطبـات ألذّ طعمًا من تلك التي كان يحضرها أمير.

أخـيرًا أُجريت لي العمليّة لتبدأ مشاكل ما بعـد العملية. الجزء الذي أُخـذ منـه العظم في رجلي، بـدأ يؤلمني أكثر من أنفـي وجبيني بأضعاف مضاعفة، وكان جرحي يُفتح وأتلوّى من شدّة الألم عندما أسعل، وقد أكّد عليّ الممرّضون بأن أتجنّب السعال، وألّا أتحرّك لعدّة أيّام. حاولت جاهدًا تحمّـل كلّ شيء على أمـل أن تؤتي العمليّة ثمارهـا، ويصبح لديّ أنف في وجهـي. في اليوم الخامس أُذن لي بالخروج مـن المستشفى. كانت نتيجة العمليـة مرضية، وقـد ظهر مكان الأنف في وجهي إلى حـدٍّ ما. قام أمير بكلّ الترتيبـات لنعود إلى تبريز. خرجنا مـن المستشفى المجاور لجامعة طهـران، واتّجهنـا نحـو «ميدان انقـلاب». لم تقـدّم في ذلـك الوقت أيّ تسهيـلات للجرحى بعد خروجهم من المستشفى، فلزم أن نركب الحافلة أو أيّ وسيلـة أخرى للعودة إلى مدينتنـا. كان أنفي مضمّدًا، وبينما سرنا في «ميدان انقـلاب» في طهـران لنركب سيّـارة أجرة تنقلنـا إلى موقف الحافلات، لفتنـي شخص يركض نحونا بسرعة، لا أعلم لمَ كان مسرعًا إلى هـذا الحدّ، وفي ظرف ثـوانٍ وصل إلينا، ومن دون أن يلتفت إلى أنفي المضمّـد ضربني بمرفقه ضربة قويّة على وجهي! كدت أغيب عن الوعي. لم أعـد أرى أمامي، وبدأت الدموع تنهمر مـن عيني، أمّا وجهي فشعرت وكأنّ نـارًا هبّت فيه. أمسكت برأسي لدقائـق وجلست على معبر المشاة. صفعني عديم المروءة بقوّة على أنفي المزروع فهشّمه من جديد وبدأ ينزف بشدّة. أعادني أمير إلى المستشفى وهو مضطرب وخائف، وذلك من دون أن يلتفت أحد في زحمة المستديرة إلى ما حدث لنا!

أخبرنا من في المستشفى بما حدث، فعاينوا جرحي لكنّهم لم يوافقوا

علـى دخولي مـن جديد. قطعـت الأمل مـن كلامهم: «لقـد تهشّم هذا العظم من جديد! ولا يمكن إجراء عمليّة ثانية لك قبل أن يتحسّن القطب ويتعافى جرحك قليلًا، بعدها نرى ما نفعل...».

انقبضـت أحوالنـا جـرّاء الألم والتعـب والإرهاق، إضافـة إلى هذه الحادثـة السيّئة. وعلـى تلك الحال، عدنـا أدراجنا لنركـب سيّارة إلى موقف الحافلات. المسكين أمير بات من فرط محبّته وعاطفته أكثرَ قلقًا منّي. غادرنا طهران على وقع تلك الصدمة العنيفة.

▫

وجهتنـا الأولى في تبريـز كانت المستشفـى. لم يتمكّنوا من فعل شيء سـوى تغيـير الضماد. عدت إلى البيـت وبقيت فيه عشـرة أيّام بتمامها طريـح الفراش. أجواء أواخر الخريف في تبريز بـاردة وقارسة فلم أبدِ استعـدادًا حتّى للذهاب إلى الطبيب. وعند تغيير ضمادات جرحي كنت أرى مـا حلّ بالعظـم وكيف ظهر من تحت الجلد! غيّرتُ كلّ يوم ضمّادي بنفسـي، وعاينـتُ لون العظم وهـو يتغـيّر ويتـآكل، إلى أن سحبته يومًا ورميتـه بعيدًا! قال الطبيب إنّه عليّ الانتظار خمسة أشهر لإجراء عمليّة أخـرى. وتحرّرت مـن التفكير بأنفي لمدّة، وخطّطـت وأمير للذهاب إلى الجبهة مجدّدًا.

▫

عـدت وأمير إلى الفرقة. قيل لنا إنّ العملية على الأبواب، وستُرسلون إلى منطقة ما من أجل التدريب، ومن هناك تذهبون مباشرة إلى منطقة العمليـة. لم يخبرنا أحـد عن مكان التدريب. فقـد كُشفت عدة عمليات بعـد عملية خيبر وإلى ذلك اليـوم، لذا صار شبـاب الاستطلاع يعملون جاهدين وبجدّيّة على حفظ المعلومات، كما إنّنا بدورنا لم نكن نصرّ على

تقصّي مكان التدريب.

بعـد يومين أو ثلاثة، ركبنا الحافلات في عتمـة الليل. أُسدلت ستائر النوافـذ، كما أُسدلت ستارة فيما بيننا وبـين السائق وذلك حتّى لا نرى الطريق. كان الذهاب إلى التدريب أمرًا سارًّا ومفرحًا بعد انقطاع طويل عن العمليات.

مـع طلوع الفجـر ترجّلنا من الحافلات. قـال صديقنا الحبيب علي أكبر مرتضوي مباشرة: «هنـا الهور!»، كان محقًّا، فبعد قليل علمنا أنّنا في منطقة في هور الهويزة تُدعى «كَسور». على بعد خمسة عشر كيلومترًا من «بستان» هناك جادّة تؤدّي إلى منطقة بعيدة عن الاشتباكات، مغطّاة بالقصب والأشجار الصغيرة، يمرّ فيها نهر جارٍ. المنطقة واسعة وخالية من القوّات، وكان «بابا» واثقًا بأنّه يعرف المنطقة ولا أحد غيره يعلم أين نحن. لم يكن الصباح قد أسفر عن وجهه بالكامل، عندما بدأنا نتموضع في أماكننا، وإذا بنا نسمع صوتًا غريبًا.

- إنّها أصوات بنات آوى!

ومهمـا حاولنا العثـور عليها بين الشجيرات لم نفلـح. بعد قليل ظهر قطيـع مـن الأبقار، يبـدو أنّهـا كانت تخصّ مزارعي القـرى المجاورة «لبستان»، وتركوها خلال الحرب فبدأت تصبح وحشية تدريجيًّا. الوقوف وجهًـا لوجه أمام قطيـع من البقر الوحشي بلا شك أمر خطر. فيما بعد طلـب الإخوة إجـازةً لقتل هذه الأبقار، فجاء الجـواب: «لا تقتلوها، لكن يمكنكم الاستفادة من حليبها!»، لم يكن لذلك معنى، حيث لم نجرؤ على الاقتراب من تلك الأبقار، فكيف بنا نحلبها ونستفيد من حليبها!

بدأنا العمل منذ اليوم الأوّل. فقبل انتقال كتيبة الإمام الحسين عليه السلام إلى منطقـة التدريـب، جاء عدد مـن الإخوة لاستطلاع المـكان وتحديد أماكـن السرايا، ونُصبت الخيـام بسرعة. وهناك علمنـا أنّنا سنخضع

لدورة في التدريب على الغطس. عدد قليل من الإخوة بيننا يعلمون كيفيّة الغطس، وقد خضعوا سابقًا في عملية خيبر لدورة مختصرة فيه.

نحن في أواخر خريف 1984 وبداية فصل الشتاء، والجوّ بارد جدًّا إلى درجة أن طبقات من الجليد غطّت الأرض في ساعات الصباح الأولى. بدأت التدريبات. أرعبونا في البداية. قالوا سنذهب إلى داخل حقول القصب لنتعلّم السباحة، ومن ثمّ نتعلّم الغوص وقيادة الزوارق في مكان أوسع. من المقرّر أن يخضع كلّ عناصر الكتيبة لدورة في التدريب على الغطس، لكنّ مجموعة قليلة منهم فقط ستشارك في العملية كغوّاصين.

دخلنا الماء عن طريق رصيف الميناء الذي بني مع جسر خيبر. برودة الماء تنخر العظام. بدأت أسنان الجميع تصطكّ من شدّة البرد، أمّا أنا فشعرت بأنّني أُصبت بالشلل. بعد ساعة أو ساعتين كنّا نخرج من الماء، وندخل خيمة أعدّها شباب التجهيزات على رصيف الميناء نفسه، ودفّأوها بالمدافئ النفطيّة، ليباشر الإخوة في قسم التجهيزات العمل، حيث يستقبلوننا بالتمر المحشوّ بالجوز. كنا نبقى فترة على تلك الحالة حتّى نعود إلى حالتنا الطبيعيّة. خلال يوم أو يومين بدأت جراحي تؤلمني من جديد، تأذّيت، إلّا أنّني لم أكن لأتخلّى عن هذه الدورة. فقد كنت أجيد السباحة، إلا أنّها تختلف عن الغوص الذي أردت تعلّمه بإصرار. لم يتشدّد المدرّبون معي عند التفاتهم إلى وضعي الجسدي، أمّا أنا فقد نحّيت جراحي وآلامي جانبًا لأبقى مع الإخوة إلى آخر الدورة وأشارك في العملية.

خلال فترة التدريب اهتمّوا بنا جيّدًا من الناحية الغذائيّة. وفّروا كلّ شيء بكثرة؛ خاصّة الأغذية الغنية بالطاقة. فراح الإخوة يقولون مازحين: «إنّهم يهتمّون بنا جيّدًا ليستهلكونا جيّدًا!». تحت ذلك المطر الشديد، وفي ظلّ البرد القارس، والتدريب على الغوص، تلعب التغذية الجيّدة بلا شك

دورهـا، فتتقوّي إلى حدٍّ ما أجساد الشباب، وإلّا فكلّنا يعرف بأنّه لا يمكن تحمّل تلك الظروف إلّا من خلال قوّة الإيمان وقوة الدافعية.

حينـذاك كان البيض متوافرًا إلى درجـة أنّ الإخوة صاروا لا يأكلون منـه سوى الصفار. وقد علّمنا علـي شكوهي كيف نخلط البيض بالسكّر ونأكلـه، وكان لذيـذًا ومغذّيًـا. أمّه طبيبـة، فعرف هو أيضًـا كيف يهتمّ بالوضـع الصحّي للإخوة، فمن احتاج منهـم إلى حقنةٍ أخذه إلى خيمة وُضع في وسطها حرام وحقنه هناك. كان إنسانًا ودودًا وأكنّ له المحبّة.

وكانـت أُعـدّت في المنطقة خيمـة خاصة للطبابة، يوجـد فيها طبيب يعالـج عوارض الإخوة الصحّيّـة، ويداوي مـن كان بحاجـة منهم إلى التـداوي، لكـن أحيانًا كانـت تسوء أحـوال بعضهم من شـدّة الصقيع، فيضطرون إلى إرسالهم مـع حارس إلى الخطوط الخلفيّة، ليعودوا بعد أن يتلقوا العلاج اللازم. إلى ذلك اليوم لم أكن قد رأيت مثل تلك الدقّة والمراقبة من قبل معلومات المنطقة.

الشـيء الوحيد الـذي كان ينقصنا ونحتاجه بكثرة هـو الحمّام. بدأ الإخـوة العمل، فلحّمـوا بعض قطع الحديد وصنعوا منهـا موقدًا وضعوا فوقه برميلًا مكشوف السطح، وأوقدوا النار تحته. كما ابتكروا خرطومًا مـدّوه إلى الحمّام، فأصبح بإمكاننـا الاستفادة منه عند الضرورة، لكن بقيـت مسألة تأمين الماء، إذا كان يجري بالقرب من تلك الناحية بشكل موحل وغير صالح للاستحمام، فكنّا غالبًا ما ننقل ماء المطر المتجمّع في حفرة ونفرغه في برميل، ونسدّ حاجتنا به.

انقضـت خمسة عشـر يومًا من التدريب هنـاك. ذات يوم استيقظنا مـن نومنا، فقيل لنا إنّ علينـا الذهاب في إجازات لمـدة أربعة أو خمسة أيّام. بدا الوجوم والقلـق على الجميع: «لعلّ الأمر...!». بقينا حتى الليل حيث قالوا لنا إنّنا سننتقل بالطائرة. كان خبرًا سارًّا ومطمئنًا، فلم نعد

مجبريـن على المكوث ثمانيَ وأربعين ساعـةً في القطار! ركبنا الحافلات ليـلًا، وخرجنـا مـن المنطقة كمـا دخلناهـا، تحـت إجـراءات مشدّدة للمعلومات. طلبوا منّا أن لا نرفع ستائر النوافذ، وللإنصاف، فقد امتثل الإخوة لهذا الأمر. حتمًا، كنّا نسمع في المنطقة التي تدرّبنا فيها أصوات القذائـف المدفعيّة العراقيّة التي تسقط على «بستـان»، وعلمنا أنّنا على مقربة منها. كما استطعنا التخمين من نوعيّة التدريب بأنّ العملية الآتية ستكون برمائيّة، لكنّ احتمـال القيام بتنفيذها قد ضعف بنظرنا بسبب مغادرتنا المنطقة.

توقفنـا في ثكنة للفرقة[1] أنشئت حديثًا في دزفول، وأطلقوا عليها اسم «شهـداء خيبر»، منتظرين تحرّكنا نحو المطار والسفر إلى تبريز. مكثنا هنـاك ليومين مـن دون أن نقوم بأيّ عمل محـدّد، إلى أن أُبلغنا بوجوب التحـرّك نحو مطار دزفول فهببنا جميعًا وانطلقنـا. لم نعلم أيّ رفاهية تنتظرنا!

فوجئنـا بزحمة المطـار. فمعظم كتائـب الفرقة سبقتنـا إلى هناك؛ علي الأصغر، علي الأكبر، الإمـام الحسين عليه السلام، الهندسة، التجهيزات العسكريّـة و... وكانـوا يقولـون لنـا باستمـرار: «يُمنع حمـل الرصاص والقنابـل وكامـيرات التصويـر و...»، وقفنا في صفـوف طويلة متعرّجة أحيانًـا بغية التفتيش الجسدي، وحين رأيت ذلك الصـفّ المتعرّج علت صرختـي: «لا أستطيـع الوقوف كلّ هـذا الوقت في الصـفّ!». فكنت في الأماكن التي تتعرّج فيها الصفوف وتقترب من بعضها، أندسّ في الصفّ الأمامي، ويتبعني بعض الأشخاص ويندسّون خلفي، ليعلو صراخ الإخوة: «يـا سيّد! قف في الصفّ». ومـع كلّ ذلك الاحتيال والغش، بقيت منتظرًا منـذ وصولنـا في الصبـاح، إلى قرابة الظهر! بـدأ الإخـوة بالاستهزاء

1. لقـد غُيّـر اسم هذه الثكنة بعـد شهادة قائد فرقة عاشوراء المحبوب فـي عملية بدر ليصبح «ثكنة الشهيد باكري».

والسخرية خلال وقوفهم في الصف، وكانت سخريتهم ممتعة. أحدهم قال إنّه صفّ الحليب، آخر قال: «صفّ الخبز، و...». ضقنا ذرعًا من الزحام والحرّ. أخيرًا جاء دورنا للتفتيش، وحيث لم نكن نحمل أيًّا من الممنوعات، عبرنا بسرعة. دخلنا قاعة المطار، لنجد هناك صفًّا آخر بانتظارنا: «صفّ الدخول إلى الطائرة». لم أصدّق أنّ كلّ هذه الجموع ستنتقل إلى تبريز في طائرة واحدة، لكن القرار بأن يحشر الإخوة أنفسهم مهما أمكنهم على متنها. أخيرًا كُحّلت أعيننا برؤية جمال الطائرة. وأيّ طائرة! لم تكن تشبه من الداخل الطائرات في شيء. لم يكن فيها مقاعد ولا أيّ وسائل أخرى، لقد نُزع حتّى غلاف هيكلها الداخليّ. أمّا المسارب الهوائيّة التي تسرّب الهواء منها أحيانًا بشدّة، فمنحتنا انزعاجًا كافيًا! هذا مضافًا إلى الأرضية المليئة بالقضبان المعدنيّة، ولا يمكن الجلوس عليها.

بعد الأمطار التي انهمرت صباحًا في دزفول، ووقوفنا في المطار تحت أشعّة الشمس الحارقة، خلعنا جميعنا ملابسنا وبقينا في الفانيلات. لقد تعرّقنا من شدّة الزحام واقعًا. فيما كان قائد الطائرة يطلق نداءه دومًا: «لحفظ الإمام وسلامته، صلوات على محمّد وآل محمّد!».

- صلوات ليُفتح طريق للإخوة الذين لم يدخلوا بعد!

الوضع يشبه يوم القيامة. حُشرنا جنبًا إلى جنب بحيث يصعب علينا التنفّس، فكيف بالتحرّك من أماكننا وإطلاق الصلوات! وقائد الطائرة يقول: «أريد أن أوصلكم إلى تبريز في ظرف ساعة وأربعين دقيقة. زحزحوا الآن أنفسكم كيفما كان ليتّسع المكان للجميع!». صعد الإخوة بعضهم فوق أكتاف بعض، إلى أن أُقفلت الأبواب. كانت حركة الطائرة مثل شخص بدين يتأرجح مع كلّ خطوة إلى هذه الناحية وتلك، ما جعل ذلك سببًا لسخرية أكثر الإخوة: «لإقلاع الطائرة صلوات على محمّد وآل محمّد!».

أقلع الطائر الحديدي فملنا جميعًا إلى الوراء، وعلا أنين الإخوة: «آخ لقد متُّ! انغرز القضيب في ظهري!... لا أستطيع التنفّس!...».

أحيانًا كان الإخوة يبالغون في الأمر، ضحكنا كثيرًا إلى حدّ آلمتنا خواصرنا. برأيي إنّها كانت طائرة خاصّة بشحن الذخائر ونقل الحمولات، وربّما تصلح لنقل الجرحى، أمّا أن يركب فيها عدّة كتائب بتلك الحال، فهي حادثة لن تتكرّر، لكنّها أصبحت لنا ذكرى، بقينا لفترة طويلة ما إن نتذكرها يُغشى علينا من الضحك! رافقتنا طوال فترة تحليقنا ثلاث أو أربع طائرات حربيّة، إلى أن دخلنا بالنهاية سماء تبريز سالمين. انخفضت الطائرة. ولكنّها لم تستطع الهبوط. كانت حالنا تشتدّ سوءًا مع كلّ حركة وتجنيح؛ الأجساد المبلّلة عرقًا، والمحشورة جنبًا إلى جنب، وأصوات الأنين أو الضحك... إلى أن حطّت الطائرة بعد دورة فوق سماء المدينة.

ما إن فُتح الباب حتّى جرى تيّار هوائي مثلج إلى داخل الطائرة. وراح كلّ من يخرج منها يجري بسرعة نحو الباب الخارجي للمدرج. وعلى ما يبدو، فقد أبلغوهم من دزفول بأيّ وضع أتينا، لذا، فقد هيّأوا الحافلات، لكن كان يفصلنا عنها حاجز حديديّ ذو قضبان كثيرة، لم يُفتح قبل مجيئنا. ركض الجميع نحو الحاجز، وكنت من أوائل الواصلين إليه، لكنّ الحارس لم يتمكّن من فتح قفله. تدريجيًّا ازدادت الجموع واحتشدت كلّ لحظة عند الحاجز لتشكّل ضغطًا كبيرًا عنده. تعرّضتُ لكبسة شديدة بجانب قضبان الحاجز بنحو أحسست بأنّ قفصي الصدريّ سينكسر! ودخل رأسي بين قضيبين من شبك الحاجز؛ نور على نور! وكانت المسافة بين هذه القضبان لا تتّسع لأعبر بجسدي من خلالها. علقت حقًّا: «أكاد أموت! لا تدفعوني!.. أكاد أموت!». صرخت بقوة، لكن من كان ليصدّق كلام نور الدين عالي في المشاغب؟ رحت أستنجد بالواقفين أمامي في الجهة المقابلة وراء الحاجز أن يدفعوا برأسي إلى الخلف لعلّي أتحرّر.

وبلطـف الله وعنايته خرجت من تلك المعركة سالمًـا. فُتحت الحواجز.. توجّهـتُ نحو الحافلات وأنا أرتجف خوفًا مـن الاختناق ومن برد تبريز القارسـ. ركبـت الحافلـة العاملـة على خطّ شـارع بهار قاصـدًا منزل أخـي، ووصلـت إليه بعد ساعة. وكنـت عازمًا على المكـوث هناك ساعةً أيضًـا، ومن ثمّ أتوجّـه إلى القرية، لكن، لحسن الحـظّ، وجدتُ العائلة كلّها مجتمعة هنـاك، وفرحوا جدًّا لقدومي. بعد السلام وتقبيل الجباه، سألتني الوالدة قبل الجميع: «هل أتيت بهذه الطائرة؟».

- أجل!

- لاحظت أنّها غريبة، لقد استغرقت وقتًا حتّى حطّت!

وبحضـور الوالـد، قصصت على الجميع ما جـرى معنا في الطائرة، فضحكوا وضحكوا. وحين أنهيت حديثي وانتهى الضحك، بدأوا بتأنيبي، كأنّ الكيل كان قد طفح منّي. تحدّثوا عن مشاكل البيت، وقال والدي لي: «بني! لا يصحّ أن تبقى في الجبهة إلى الأبد!».

- ما الذي حصل؟

- يـا أخـي ذهبت إلى هناك ولم ترجع. إنّ مـدّة «خدمة العلم» أربعة وعشرون شهرًا، وقد قضيت إلى الآن هناك أربع سنوات!

- أجـل! سأبقـى ما دامت الحـرب قائمة. لا تحدّثنـي في هذا الشأن أبدًا، وفيما عدا ذلك، فأنا حاضر لتنفيذ كلّ ما تطلبه... بالمناسبة، هذه ليست «خدمة»، إنّها شيء آخر!

بتنـا في الفـترات الأخـيرة نخوض في مثل هـذه الأحاديـث في أيّام إجازتـي، فصـرت أحدّث نفسي حينذاك بأنّ حتّـى عوائل المجاهدين لا يعلمـون بما يـدور في الجبهة. أمّا نحـن الذين خُضنـا في قلب الحدث، ووعينا وضع الجبهة بكلّ وجودنا، فلم نكن نستطيع نسيانها. وكلّما سرنا قدمًـا وعرفنا المزيد مـن الأمور، كبرت مسؤوليّتنـا وتضاعفت. أساسًا،

اعتبرنـا أنفسنا مُلكًا للجبهة، بينما لم ينظر الناس في المدن إلى المسألة بهـذا الشكل. لم تكن تلك الأسئلـة والأجوبة جديدة، لكن أسلوب الكلام اختلف. ثم إنهم تكلّموا وتكلّموا إلى أن قالوا: «أنت لا تريد أن تتزوّج؟!».

– لمَ لا، هذه فكرة جيّدة!

أذهَـل جوابي الجميـع. كأنّهم كانوا يتوقّعون أنّنـي سأتهرّب من هذا الأمر. هـذه المرّة، حين سمعـوا ردّي الإيجابي، تصـدّى والدي للحديث قائلًا: «إن أنت تزوّجت، ماذا تريد أن تفعل؟ وأين ستبقى؟...».

– يا أبي، الله كبير، أي ألا يمكنه تهيئة مكانٍ لي؟!

كنـت أعلم جيّـدًا، أنّهم أرادوا جميعًا من خـلال زواجي أن يلزموني بالعيشـ في المدينـة. ويبـدو أنّهم قـد تداولـوا في المسألـة، وكانوا فقط ينتظرون عودتـي. عندما رأيتهم جادّين فيما يقولـون، ذهبت إلى قائد كتيبتنـا أصغر قصّاب، وأخبرته بأنّ أمرًا ما قد حدث، وعليّ أن أبقى في تبريز لخمسة أو ستّة أيّام إضافيّة. فقال الأخ أصغر: «لا إشكال في ذلك! عند عودتك، تعال إلى مقرّ الفرقة».

◘

في البيـت، وُضـع الحديـث عـن شـروط الـزواج علـى نـار حامية. لكنّنـي أيضًـا لم أنثـنِ، وقلـت أنـا مـن ينبغـي أن يضـع الشـروط، لا أنتـم ولا العروس. أنتـم اسعـوا أن تجـدوا مـن توافق علـى شروطي. يومهـا، أخبرت أمير مارالباش بما حدث. ورغـم أنّه كان يصغرني سنًّا إلّا أنّـه أصبح من أقرب المقرّبين إليّ، ولم نعد نحتمل الابتعاد أحدنا عن الآخر في أيّام الإجازة، فإمّا أن أكون في بيته أو يكون في بيتنا. قال أمير: «لا إشكال في ذلك، أعطني صورةً من صورك». كما أخبرت اثنين آخرين بالأمـر، أحدهما صديقـي «حسن خوشبو» الذي طلـب أيضًا صورةً لي، وقـال إنّه يعرف فتاةً قد تقبل بشروطـي. انتقيت من بين صوري، الأسوأ

منها وأعطيتها له؛ الصورة التي تُظهر تمامًا وجهي المهشّم. فيما انتقت أمّــي صورةً لي قبل الإصابة. أيّ قلب تمتلكه الأمّهات...! حقًّا، كيف كان وجهي، ولم أكن قد لحظت ذلك إلى حينها. تمنيت أن لا تقبل بي أيّ فتاة بتلـك الهيئة. لقد خفـت فعلًا من أن أنشغل في المدينة، ولا أدرك العملية التـي تعبت لأجلها ستّـة أو سبعة أشهر! ومع أنّني قبلـت بأمر الزواج في الظاهر، إلا أنّني في قرارة نفسي كنتُ ما أزال متردّدًا وكنت واثقًا من أنّ الـزواج سيضاعف من مسؤوليّتي. تذكّرت كلام أحد الإخوة الذي يقول: «هنــاك حالتان في الالتحاق بالجبهة لا ثالثة لهما؛ إمّا أن تعود أو تموت. وإن مـتَّ فهناك حالتان، إمّا أن يعود جسدك أو تصبح مفقود الأثر. وإن عـدت فهناك حالتان، إمّا أن تعود سالمًــا أو معطوبًا...»، وهكذا، كان هو يسترسل في الكلام ونحن نضحك. لكنّني بتّ الآن أفكّر في الأمر. عندما رأى حسن تردّدي قال: «أنت الذي تريد البقاء في الجبهة؛ إن استشهدت غـدًا، فلن يكون هناك من يخلفـك ويكمل طريقك...»، يا لها من ورطة! فأمّــي والعائلة شرعوا بالتفتيش بشوق وحماسة عن الفتاة المناسبة لي، فيمــا أقنعت نفســي: «صحيح، أنّ الله لـن يتركني وحيـدًا، لكن لا بأس بوجود أحد يخلف الإنسان...».

عندمــا تحدّثتُ إلى أمّي وعلمتْ في أيّ عالم أنا، غضبتْ منّي. أحيانًا كنت أعاندها وأستفزّها إلى أن ننفجر أخيرًا بالضحك. الجميع يسعون في زواج السيّــد نور الديــن الذي لا يملك فلسًا واحدًا. فإلى ذلك الحين، لم أعمـل سوى في الجبهة، والـ(2200) تومان التي أتقاضاها، أنفقها في التنقّـلات أو في الإجازات على الطعام والمصاريف الضروريّة، ولا أدّخر منها شيئًا. كان أبي غارقًا في عمله ولم أتوقّع منه شيئًا. لكنّ أمّي بادرت بعملهــا بـكلّ اندفاع. جاءني بعض الإخوة الذين عرفـوا بالأمر وأخذوا صورًا لي ومشوا. بلغ الأمر حدًّا علت فيه صرختي: «إن كان من المفترض أن يأخذ كلّ واحد صورة لي، سأجد أمامي في النهاية كتيبة من الفتيات!».

والحـال أنّ واقع الأمر لم يكن بهـذا الشكل. ذات مرّة جاءت أمّي وقالت رأينـا فتاةً جيّـدة وأعجبتنا، لكنّك أنت لن تقبل. قلـت: «وكيف ذلك؟». قالت: «بشرطك الذهاب إلى الجبهة فلن تسير الأمور كما ينبغي».

– إذًا، دعكِ من هذا الأمر. شرطي الأوّل هو: ما دامت الحرب قائمة، سأظلّ في الجبهة!

فكّرت يومها أكثر في تلك المسألة؛ سأجنّ فعلًا إن نُفّذت عملية وأنا في المدينة! فقد أصبحت قصّتنا مع الحرب كقصّة السمكة والبحر. لم أكن مستعـدًّا لأستبدل مشقّات الجبهة كلّها، بجوعهـا، وقلّة نومها، وحزنها، بيوم واحد في المدينة أقضيه براحة بال.

لم تطل المـدّة حتّى أخبروني بأنّ فتاةً قد قبلـت بكلّ شروطي وتُدعى «معصومة أشرفي». جاءني حسن قائلًا: «تعالَ يا سيّد لقد قبلت بك!».

– قل لي من هي التي قبلت بي وأنا بهذا الوضع؟!

وجاء إليّ أحد شباب المعلومات وقال: «أرى أنّك ستصاهرنا!».

– إذًا، هي من عائلتك!

– أجل، إنّها ابنة عمّي... والآن، كيف تقيّم أنت نفسك؟

أخذتني الضحكة. عرفت أنّه جاء من أجل التحقيق. قلت: «كما ترى! بالمناسبـة، صحيح أنّك من عناصر المعلومـات، لكن، تفتقد إلى الخبرة قليلًا، حيث أتيت تسألني عن نفسي. اذهب واسأل الناس عني في القرية والمحلّة».

– لا، أريد أن أسألك أنت وأعرف كيف تعيش حياتك... وماذا تعمل؟

– حياتي في الجبهة، وكلّ عمل دونها غير مهم بالنسبة إلي. كما إنّني لا أملـك شيئًا، حتّى قرشًا واحدًا. وما دامت الحرب قائمة هكذا سيكون وضعي!

بالنهاية، تقرّر أن أذهب شخصيًا لرؤية الفتاة التي قبلت بي بشروطي الصعبة. علّموني في البيت ماذا أفعل وأقول، لكن، ما إن وصلت إلى هناك حتّى نسيت كلّ شيء. ومع أنّني كنت في قلبي أثني عليها لكونها قبلت بالزواج من جريح مثلي، لكنّني لم أكن مستعدًّا لأعدها بشيء. وصادف أن ضخّمت لها مشاكلي شيئًا ما وقلت: «قد أبقى أحيانًا في الجبهة لستّة أشهر من دون أن آخذ إجازة، ولا أنسحب من العمليات إلا إذا أصبت، أو إذا غيروا مهمتي. لا أملك شيئًا في أرض الله الواسعة، لقد خرب بدني ، وسأبقى ـ وأنا على هذه الحال إن أمدّني الله بالعمر ـ حتّى النهاية في خدمة الجبهة. بعدها نفعل ما يقدّره الله لنا، ونهتمّ بحياتنا!».

للإنصاف، لقد قبلت بكل ما ذكرت. ومع أنّها كانت تبلغ من العمر ستّة عشر عامًا، إلّا أنّها كانت مستعدّة لأن تقِفَ نفسها وحياتها وأمانيها للجبهة. لم يبقَ من كلام يُقال، وفي ظرف ثلاثة أو أربعة أيّام تمّت مراسم الخطوبة ومقدّمات العقد، وذلك بمبلغ قدّره 4500 تومان استدنته من أمير، وتمّ العقد بتاريخ 1984/12/31م. وعلى الرغم من تأخّري أربعة أو خمسة أيّام على الإخوة، إلّا أنّني تقدّمت خطوة عندما وجدت شريكة حياتي.

عندما رآني والدي الذي كان يصرّ على زواجي أكثر من الجميع، أودّع خطيبتي وأذهب إلى الجبهة، وكان يظنّ أنّني بالزواج سأتمسّك بالحياة والعمل، لم يعد يتكلّم معي أبدًا بشأن البقاء في المدينة.

## الفصل التاسع

# كربلاء بدر

❶

انطلقت إلى الجبهة وحيدًا. في دزفول اشتريت 3 كلغ الحلوى لأكشف لغزاً للإخوة الذين كانوا على علم بشأن خطبتي، ولأولئك الذين شاركوا بالموضوع عبر أخذهم صوري. استقبلني الإخوة في مخيّم شهداء خيبر في دزفول بالمزاح قائلين: «كهنه اِئولره قاريشدون آسيد...»[1].

- اعذروني! من الآن فصاعدًا سيتبيّن من الذي توازي قوّته قوّة عدّة رجال!

بعد حديث الإخوة ومزاحهم، أخذني أمير جانبًا وأصرّ عليّ لأخبره من هي خطيبتي. وعندما سمع باسمها انفرجت أساريره، وعرفت أنّ بينهما صلة قرابة، وها هي الآن العلاقة العائليّة تزيد صداقتنا العميقة قربًا وحميميّة.

في صباح اليوم التالي، هطلت أمطار غزيرة في المنطقة. وعلى الرغم من أنّنا اعتدنا على الأمطار الموسميّة الشتائيّة في منطقة خوزستان، إلّا أنّها جادت هذه المرة مصحوبة برياح وأعاصير قلبت المخيّم رأسًا على عقب. كانت سرعة الرياح شديدة بحيث قلعت الخيام وحملت معها كلّ ما بداخلها. ولكي لا تقلع خيمتنا فقد فتحنا جانبيها بالكامل وعلّقناهما بالعمود المنصوب في وسطها بنحو أفقي. وهنا فعلت الرياح فعلها! فحملت الحقائب والملابس والبطّانيّات وكلّ شيء، كبيرًا كان أم

---

1. من الكنايات التركيّة، وتعني أنّك رتّبت أمورك وصرت في عداد المتأهّلين.

صغـيرًا، فيما أصررنا نحن وبكلّ صلابة على الحفاظ على خيمتنا حتّى لـو خسرنا كلّ أغراضنــا! في تلك الأثناء، جاء أخ وقـال ما عدا خيمتنا، لم يبـقَ من الخيام سالمًــا سوى خيمة مصطفى بيش قـدم، الذي أصبح بعد انتقال صمد زبردست إلى الوحدة البحريّة، مسؤول السريّة الثانية. تعجّبت لهذا الأمر، فقال الإخوة إنّ خيمته كوريّة الصنع![1]. ما إن سمعت هـذا حتّى قلـت: «اصبروا، ها أنــا ذاهب الآن لأجعـل خيمتهم تطير في الهـواء أيضًا!». كان من المفترض أن تثمـر مشاغباتنا في ظلّ هذا المطر والعواصـف. ذهبت إليهــم متحجّجًا بالتفتيش عن أعـواد ثقاب. وقفت أمام باب الخيمة وناديتهم، إلى أن سمعوا صوتي وفتحوا السحّاب ليروا من أكون وماذا أريد، وما إن فُتح السحّاب حتّى طارت الخيمة. الآن وقد حصـل ما أردته، لذت بالفرار قبل أن يروني. يعلم الله كم كنت سأتلقّى من الصفعات واللكمـات فيما لو عرفوني. وهكذا، بقيت خيمتنا الخيمة الوحيـدة السالمة في الفرقة. بالطبع، لقـد اعوجّت عواميدها جرّاء تعلّق عشرين شخصًا بها، وحمل الهواء معه كلّ أمتعتنا.

بعد أن هدأت العاصفة، ركب الإخوة الحافلات متوجهين إلى مساجد دزفول. كانت ليلـة صاخبة. استمرّت العاصفة قرابـة الثماني ساعات، ضاعت فيها أغراض الجميع.

في هـدأة صباح اليوم التالي، بـدأ البحث عن الأغراض. طارت بعض الخيـام والحقائب والشنط وقد حُملت إلى جانب الساتر الترابي، وبعض الملابـس علقت بأجباب الشوك، ولكنّنا لم نجد الكثير من أمتعتنا. وحين لملمنــا ما وجدنا من أغراضنا من بين الوحــول، أرسلونا جميعًا في إجازة إلى دزفول لتنظيفها وغسلها وهندمة أنفسنا. بقينا هناك قرابة اليومين، ليأتي الأمر بالإستعداد للمسير. توجّهنا هذه المرّة نحو منطقة التدريب.

---

1 ـ لم يكن ممكنًا تسرّب الهواء إلى داخل الخيمة الكورية من أيّ منفذ كان في حال إغلاق سحابها.

تغيرت أحوال الإخوة مع احتمال تنفيذ العملية ودبّ في الجميع العزم والحماسة. ركبنا الحافلات وتوجّهنا إلى منطقة التدريب تحت حماية مشدّدة، وعرفنا لاحقًا أنّها منطقة «كسور».

▫

نُصبت الخيام بالقرب من نهر متصل بالهور، يغطي ضفّتيه القصب والأشجار الصغيرة. كانت تلك هي المنطقة الأفضل التي تحمينا من عيون مروحيّات العدوّ واستطلاعاته الجويّة، وقد أصبحت مقصدًا لحيوانات أليفة تُركت في سنوات الحرب فاكتسبت طباعًا وحشيّة. لذا، وجدنا أنه لا بّد لنا من القيام بالحراسة الليليّة حول الخيام، خاصة مع تربّص بعض الحيوانات التي تُشكّل خطرًا حقيقيًّا كبنات آوى.

كان من المقرر أن تخضع كتيبتا الإمام الحسين عليه السلام وسيّد الشهداء عليه السلام لتدريبات على قيادة القوارب. وللذهاب إلى المكان المخصّص للتدريب، ركبنا الزوارق السريعة من أمام الخيام، وذهبنا مع اتّجاه الماء إلى الهور، حيث أُعدّت باحة في قسم منه موصولة بجانب من الجسر، نُصبت فيها الخيام. ما إن وصلنا حتّى رأينا القوارب. كانت تلك المرّة الأولى التي نرى فيها القوارب، والمرّة الأولى التي تخضع فيها القوّات لدورة في التدريب على قيادتها، وقد شكّل استخدامها بهدف كسر خطوط دفاع العدوّ طرحًا جريئًا. إنّها عبارة عن مراكب سريعة يتّسع كلّ منها لثلاثة إلى خمسة أشخاص؛ اثنين أو ثلاثة في الوسط حيث يبلغ عرض المركب المتر الواحد، فيما يجلس شخص في كلّ من المقدّمة والمؤخّرة وهما أقلّ عرضًا. أعطونا في الأيّام الأولى دروسًا نظرية حول قيادة القوارب. كان المدرّبون من شباب الكتيبة، وقد اختفوا عن الأنظار لمدّة قبل جمع الإخوة، وذهبوا لتعلّم قيادة القوارب. شرحوا الدروس النظريّة عن الجسر، فيما نحن نستمع إليهم غير مصدّقين: كيف يمكن

لنــا ركــوب القارب مــن دون أن يسقــط أو يختلّ توازنــه، كيف يمكن لنا التجديـف والسيطـرة عليـه في آن واحد، مــاذا ينبغــي أن نفعل في حال اهتــزازه... كلّ هذا كان مجرّد كلام، وما إن تقــرّر أن نصعد القوارب، حتى صار كلّ من تطأ رجلاه أرضها، يسقط مباشرة في الماء! كنّا نسقط ونبدأ بالضحك. لم يستطع أحد منافسة القارب، وعدّة قليلة استطاعت السيطرة عليه للحظات! عجبًا يا لها من صعوبة في تعلّم قيادة القوارب! فالقــارب خفيف إلى درجة أنّه ينقلب بمجرّد القيام بأيّ حركة إضافيّة، ليمتلـئ سريعًا بمياه الهور الباردة ويغرق، فيضطّر راكبوه إلى السباحة! وعمق الهــور متفاوت من مكان لآخر، لكن لم يكن في تلك البقعة يتجاوز المتريــن، فانتفـت إمكانيّة الغــرق، وكان بإمكان الإخـوة الذين خضعوا قبـل الإجازة لــدورة تدريبيّــة في السباحــة، أن يسبحوا باتّجــاه الجسر أو الــزوارق السريعة الموجــودة في المكان ويخرجوا من المــاء، هذا إن لم تتجمّد أيديهم وأرجلهم من شدّة الصقيع. وقد أُعطيت لجميع العناصر سترات واقية تشكّل لهم حماية جيّدة من الهواء اللاذع ما لم يتبلّلوا، أمّا بعد التبلّل فصار الصقيع ينخر العظام. ولم يكن وقوعنا في الماء ليعفينا مــن الاستمرار في التدريب. استمرّ العمل بهذه الطريقة إلى أن أصبحنا ماهرين في قيادة القارب والحفاظ على توازننا داخل الماء.

كانــت أيّام شتاء العام 1985م غير عاديّة. كلّ يوم بعد صلاة الصبح تُقــام المراســم الصباحيّــة، ثم نمارســ الرياضة من أجــل رفع مستوى اللياقــة البدنيّــة. وكان التدريب علــى قيادة القــوارب أحيانًا يُجرى قبل الظهــر، وأحيانًا أخرى بعد الظهر، وقد استغــرق في الأيّام الأولى قرابة الأربــع ساعــات. شيئًا فشيئًــا بدأت ساعــات التدريب تــزداد، فامتدت قبــل الظهــر وبعده. ونحن الذيــن كنّا نعدّ عدم انقــلاب القارب في الماء عند ركوبه نجاحًا كبيرًا، بــدأوا يضعوننا في أجواء التدريبات اللاحقة. فالتجديــف والحفاظ على توازن حركة القارب في الماء له حكاية أخرى،

مصحوبة بمشاهد وقوعنا المتتالي.

عندمـا سمعنـا بأنّه من المفترض بنا السيطرة على هـذه القوارب، والتجديف بها مسافة كيلومترات في أرض العدو، واختراق خطوط دفاعه بها، وأنّنا قد نضطّر للاشتباك معه من على متنها، ضحكنا تعجّبًا: «وهل يمكـن ذلك؟!»، أحيانًا كنت أفكّر شخصيًّا في هؤلاء المجاهدين، وهم في الأغلب شباب تـتراوح أعمارهم ما بين الستة عشر والتسعة عشر عامًا، كـم يمتلكون مـن الاستعداد والقـدرة ليتدرّبوا تدريـبً قاسيًا مثل هذا، ويبلغـوا حدًّا من المهـارة يمكّنهم في حال الضرورة مـن إطلاق النيران وصواريخ الـ(B7) من على متن القارب، وكم يستطيع المرء إذا ما سقط في ميـاه الهور البـاردة، أن يتحمّل ذلك من دون أن تتخـدّر أطرافه من الـبرد، فـلا يستطيع تحريك أصابعـه لمدّة من الزمن، هـذا إضافة إلى عـدم تمكّنه من أخذ قسط من الراحـة والنوم. أَوَيمكن... كنت أفكّر في هـذه الأمور، ولكنّنـي أنّبت نفسي عند رؤية أحـوال الإخوة: «نعم يمكن. يستطيع هؤلاء التعبويّون ذلك!».

أحيانًـا، استوجبت الضـرورة استمرارنا في التدريـب لثماني عشرة ساعـة في اليوم. مع مضاعفة التمرينات، واشتداد برودة الطقس، تتغيّر أحـوال الإخـوة أيضًا، فعندمـا أستيقظ في منتصف الليـل أحيانًا، أجد نفسـي الوحيد النائم بينهم، وأراهم مع تلـك الأوضاع والظروف يؤدّون صلاة الليل بعشق...

في تلك الأثنـاء، أيقنت أنّ حال بعض الإخوة الذين أصيبوا مثلي أكثر مـن مـرّة هي أسـوأ حتمًا. ولأنّ شـرط الانضمـام إلى الصفوف الأولى لقـوّات الاقتحام هـو المهـارة في قيادة القـوارب -ورغبت بـأيّ ثمن أن أكون في عداد هذه القـوّات- فقد حاولت تناسي آلامي وأوجاعي، وعدم التخلّف عن التدريبات. وقد حصل أن سبحت في مياه الهور الباردة، فلم

أعد أشعر سوى بوخز قاتل يلفّ كلّ أنحاء جسدي، وكنت عندما أخرج من الماء بجسدي المرهق والمبلّل، أشعر وكأنّه قد تيبّس، ويكاد الهواء البارد يكسره مع كلّ هبّة لاذعة من هبّاته. والأسوأ من هذا كلّه، تشنّج عضلات فكّي. فبعد الإصابة، تلك هي المرّة الأولى التي يحصل لي مثل هذا الأمر. أحيانًا أشعر أنّني نفسي لا أعلم ماذا يحصل لي؟ أسناني تصطك بعضها ببعض فأشعر بألم شديد في الفكّ، ما يتسبّب بخلل في قدرتي على تناولي الطعام، فأضطر إلى تناول الأطعمة السائلة. بعض الإخوة عندما رأوا وضعي ووضع المجاهدين الجرحى الآخرين الذين لم يفكروا بالتراجع أبدًا، استمدّوا منّا المعنويّات وازدادت قوّتهم على الصمود. كنّا نسعى جاهدين إلى عدم التخلّف عن ركب قوات الاقتحام السعيد، والمساهمة في إنجاح العملية القادمة، وراح صفاء الإخوة وإخلاصهم يزداد مع ازدياد المشقة والصعوبة. راجت في تلك الفترة مزاحات ومصطلحات جديدة بين الإخوة، من جملتها «جورهک سودان جيخئر!»[1]. اتّخذنا المزاح رفيقنا دائمًا، لتمضي الحياة في أيّام التدريب الباردة بحلوها ومرّها.

تقرّر تشكيل قوّات الاقتحام من سريّة من كتيبة الإمام الحسين عليه السلام وأخرى من كتيبة سيّد الشهداء عليه السلام. فانتُخب من السريّتين نخبة العناصر للتدرّب على الغوص، كانوا بمنزلة رأس الحربة في الهجوم، توجّب عليهم الخضوع لتدريبات قاسية في تلك الظروف.

في تلك الأيّام، تبدّى للمناجاة لون آخر أيضًا، فأحيانًا أدّينا صلاة الظهرين جماعة على جسر خيبر وسط الهور. وربما لا يتّسع الوقت

1 ـ ويوازيه في الفارسيّة «نان از آب در مى آيد!» أي «يخرج الخبز من الماء» وهو كناية عن صعوبة الحصول على لقمة العيش المتمثّلة في الخبز. وفي مراحل التدريب القاسية، غيّر الإخوة هذا المثل تغييرًا لطيفًا ليصبح «نان از سنگ درمى آيد»، أي «يخرج الخبز من الحجر». فكما أنّ الخبز من ضروريّات الحياة ولا يتأمّن إلّا بالكدّ والتعب، فقد قادتنا ضرورات العملية إلى الماء وتلك الأحداث التي وقعت معنا.

لتـلاوة دعـاء التوسّل ودعـاء كميـل بنحو جماعـيّ أو لقـراءة مجالس العـزاء، لكن حين يشعر القادة بالحاجة إلى ذلك، لم يكونوا يتوانون عن إقامتها مختتمةً باللطم لترتفع معنويّات الإخوة. أمّا على مستوى الخيمة والفصيـل، فـكان الإخـوة ينشغلون ببرامجهـم الفرديّـة أو الجماعيّة، ويقضون ساعات استراحتهم القليلـة بالصلاة وقراءة القرآن، وأحيانًا بالخلوة ومحاسبة النفس.

▫

مـع تقدّم التدريبات والتمارين صـار بإمكاننا السيطرة على القارب بسهولـة. ثـم بدأنا نتدرّب بحسب قول المدرّبين علـى القيادة والتجديف مـن دون إحـداث أيّ صـوت أو حركة حول القـارب، ولا حتى صوت الماء أثناء التجديف...

ذهبنا مرات عدّة على شكل طابور، نتقدّم في المجاري المائيّة، وبمجرّد أن يصدر أدنى صوت عن قارب من القوارب، نعود ونبدأ من جديد. كان ينبغي للمجداف أن لا يصطدم بجسم القارب، وأن لا يصدر عنه صوت حـين احتكاكه بالمـاء، كما ينبغـي للمجدّفَين اللذيـن في مقدّمة القارب ومؤخّرتـه أن يحافظا علـى التناسق فيما بينهمـا، وينبغي الحفاظ على المسافـة بين القـوارب و... انتظمنا جدّيّين ودقيقين طـوال مدّة التدرّب علـى هذه الأمور، لكـن، عُدنا نشرع الأبواب للمـزاح والشقاوات بمجرّد اكتسـاب المهارة في الموضوع الذي نتدرّب عليه، ونطمئنّ إلى قدرتنا على ممارسته بالنحو الأفضل. تارة نضرب القارب الأمامي بمجدافنا عمدًا ليرتفع صراخ المدرّب والآخرين، ونبدأ حركتنا من جديد! وطورًا نَرِدُ من المجرى الفرعـي إلى مجرى القوارب التي تتمـرّن بجدّيّة وتتقدّم، لتبدأ القوارب بالدوران في المجرى ونبدأ نحن بالضحك...

في الأسابيع الأخـيرة، واظبنا على التمارين من الصباح إلى الظهر،

وبعد الصلاة وتناول الغداء على منصّة نُصبت وسط الماء، نتابع تمارييننا إلى الغروب. وبعد أداء صلاتي المغرب والعشاء وأخذ قسط قليل من الراحة، نعود إلى التمارين التي تستمر أحيانًا إلى الثانية بعد منتصف الليل. وإذا ما حسبنا أوقات الاستراحة والصلاة والطعام طوال اليوم والليلة، لم تكن تتجاوز الخمس أو الستّ ساعات.

◘

مع تقدّم التدريبات والتمارين، كانوا أحيانًا يأتون من المقرّ لتفقّد حركة القوارب والاطمئنان إلى درجة جهوزية العناصر. ذات ليلة، جاء الأخ مهدي باكري بصحبة أصغر قصّاب وآخرين، ليشاهدوا عن قرب مناورات القوارب واشتباكها مع العدوّ الافتراضي. أثناء المناورات، وفيما كان أحد رماة الـ(B7) يتهيّأ لإطلاق قذيفته، تحرّك القارب فانحنت القذيفة نحو الماء، وما إن اصطدمت بسطح الماء حتّى استدارت وتوجّهت مباشرة إلى المكان الذي يقف فيه القادة. في لحظة واحدة، رمى كلٌّ منهم بنفسه إلى ناحية. انفجرت القذيفة، إلّا أنّ أحدًا منهم لم يُصب بأذًى لقيامهم بردّ الفعل المناسب في الوقت المناسب. وقد رأيت قبل ذلك في جزيرة مجنون للمرّة الأولى، كيف تستدير الطلقة وترجع. فحيث كنّا هناك نقعد «عاطلين من العمل» لأيّام متوالية، كنّا نعلّم الإخوة الرماية، ونستخدم الرصاص الصدئ الذي نجمعه وننظّفه بزيت الكاز وبمواد أخرى. ذات يوم، وفيما كنت واقفًا أنظر إلى الإخوة وهم يرمون هدفًا على بعد خمسين مترًا على سطح الماء، لفتت نظري أجسام تمرّ بسرعة خاطفة بالقرب منّي مطلقةً أزيزًا؛ حرت في أمري: «ما هو هذا الشيء؟»، لم أكن أعلم أنّها رصاصات ترتطم بالماء على زاوية معيّنة، وتستدير لتعود في الجهة التي أُطلقت منها! بلطف اللّه وعنايته، مرّت كلّ تلك الرصاصات من جانبي ولم تصبني. وبعد تدقيق كبير فهمنا

القضيّة. ومن أجل التثبّت من هذه الواقعة، جرّبنا الأمر ثانية من داخل الدشمـة، فأدركنا أنّ الرصاصة إذا ما ارتطمـت بسطح الماء بانحراف معين، فإنّها ترجع وتعود.

◘

كنّـا في بعض الليالي عندما نستيقظ ليلًا من أجل القيام بالتمارين، نقـف في صفوف منتظمـة حوالي النصـف ساعة، ونستمـع إلى حديث المدرّبـين والمسؤولـين حول عملنـا، ولا يصـدر عنّا أدنى صـوت في هذه النصف ساعة. راقـب المسؤولون من خارج الماء طريقة تحرّكنا وعملنا، ولفتونـا إلى نقاط ضعفنا وقوّتنا. وكنّا حينهـا قد اكتسبنا مهارةً عالية، إلى درجـة أنّنـا عندمـا ندخـل الماء، نسير بهـدوء تـامّ، بحيث لا يمكن إطلاقًا إدراك أنّ أحدًا هناك. مع علوّ نقيق الضفادع وأصوات الكائنات المائيّـة لا يصـدر عن الإخوة ما ينمّ عن حضورهـم ولو بهمسة.. لقد قلّ حتّى كلامنا، واعتدنا على التكلّم بهدوء وعند الضرورة فقط.

استغرقت التدريبـات خمسة وأربعين يومًا. وفي هـذه الأيّام الصعبة لم نتخـلّ عـن المزاح. ذات يـوم جاء إليّ أمـير مارالباش قائـلًا: «تعالَ ليتلـو علينا أحدهم صيغة التآخـيّ»، ذهبنا إلى أحد العلماء، وكان رجلًا طويل القامة من أهل زنجان، فتلا علينا صيغة التآخي. بعدها توجّه إليّ قائـلًا: «تعالَ لنتآخى معًا!»، قلت: «باللّه عليـك، إنّ التآخي مع المعمّمين أمـر صعب جدًّا!». لم يكن أحد غيري هناك يشاكس الجميع ويمازحهم، فإضافة إلى شكلي المضحك، كنت أنا نفسي مرحًا!

كنّـا في تلك الظروف نحافظ على معنويّاتنـا أحيانًا بالمزاح، وأحيانًا عـن طريق مجالس العزاء، ومرّات أخـرى عن طريق الفطور الجماعي. فهمنا أنّ مشاغل الأخ مهدي في تلك الفترة كثيرة، وقد منعته من المجيء لتفقّدنا سوى مرّات معدودة مفاجئة، إذ يأتي بغتة، ويراقب سير التدريب

عن كثب، ويبدي رأيه حوله. لم يحدث يومًا أن قيل لنا إنّ الأخ مهدي أو أفرادًا آخرين سيأتون الليلة لمراقبة المناورات والتدريبات، لأنّه كان من الطبيعي حينها للجميع أن يتوّخوا الدقّة أكثر، وستختلّ عندئذ درجة انتباهنا وانتظامنا خلال فترة التدريب. فقط كانوا يقولون: «افرضوا أنّ الليلة هي ليلة العملية». أصبح الإخوة يقومون بعمل رائع، يجدّفون بنحو جيّد، ويتحرّكون بدقّة ومن دون إصدار أيّ صوت. قيل لنا عدّة مرّات: «لقد أتوا الليلة الماضية من المقرّ. سلمت أيديكم! فحيث كنتم تعبرون من ذلك المجرى المائي لم يكن يظهر أبدًا بأنّ هناك قاربًا أو عناصر. بوركت أيديكم!».

▫

كانت القوارب مختلفة الأحجام. منها ما يتّسع لثلاثة أشخاص، ومنها لخمسة. ويستقرّ في بعضها حاملو الرشّاشات (BKC)، وفي بعضها الآخر رماة الـ(B7)، وحين تنصب الدوشكا فوق القوارب، تكون السيطرة عليها غاية في الصعوبة، والحفاظ على توازنها يتطلّب مهارة عالية.

في تلك المدّة التزم الجميع بمراعاة الإرشادات الوقائيّة. فلم يهرب أحد من المنطقة، حتّى أولئك الملتزمون بالاتّصال بعوائلهم، ويستطيعون الذهاب من هناك إلى سوسنكرد، لم يقوموا بهذا الأمر. وفي تلك الفترة، حيث أدركنا حساسيّة الوضع، لم نعد نفكّر في الهروب أبدًا. انحصرت صلة الوصل الوحيدة بيننا وبين العالم الخارجي، بأحد عناصر التجهيزات الذي يحضر الرسائل إلى الإخوة. ذات يوم، جاء وجلب معه رسالة إلى أحد الإخوة، تضمّنت خبر وفاة والده، لكنّه لم ينسحب في تلك الظروف حتّى لإجراء اتّصال هاتفي. إلى هذه الدرجة سعى الإخوة جهدهم للمحافظة على سرّيّة العملية.

وأخيرًا انقضت أيّام التدريبات، وتقرّر أن نطبّق ما تدرّبنا عليه

في مناورة. سعوا لإنشاء بيئة محاكية لبيئة عملية بدر، لكن بسبب إحساسهم بأنّ العراقيّين لاحظوا تحرّكاتنا، ونظرًا لضيق الوقت، لم يفلحوا في إنجاز إنشاء منطقة تحاكي منطقة العدوّ بنحو جيّد. فأُجريت حينها مناورة صغيرة وسهلة مقارنة بالمناورات السابقة.

▫

بعد إنهاء التدريبات، وبسبب قلّة القوارب، نُقلت تلك التي استخدمناها في التدريب إلى جزيرة مجنون ليلًا، ليستفاد منها في العملية. وفي هذه المدّة تمّ شرح الخريطة وأطلعونا على وضعية المنطقة ومهامنا. كان علينا التحرك قرابة التسعة كيلومترات في منعطفات الممرّات المائيّة إلى أن نصل إلى المحور الذي سنهاجم منه الخطوط الأمامية للعدوّ. نصب العدوّ في تلك المنطقة ما بين 40 و50 كمينًا، تراقب قوّات الرصد البعثيّة من خلالها حركة الممرّات المائيّة في المنطقة ووضعيّتها. ومن هناك سرعان ما تُرى أدنى حركة في المياه بسهولة، مع تماوج الماء أو تحرّك القصب، لذا، قلّما كان عناصر المعلومات يذهبون إلى تلك المنطقة مراعاة للجوانب الوقائيّة. قيل لنا إنّ آخر استطلاع أُجرِي هناك قبل خمسة عشر يومًا، وإنّ الإخوة تقدّموا حتّى وصلوا إلى مقربة من محاور الاشتباكات. كان عددٌ من المسارات المحدّدة في تحركنا هو تلك الممرّات المائيّة نفسها التي بقيت من عملية خيبر، وقد مضى الآن أكثر من سنة على تلك العملية، مع اختلاف واحد وهو أنّ العراقيّين نصبوا الكمائن في بداية الممرّات. وقد جرى التأكيد علينا في المناورة وفي تعليمات العملية أن نسعى جهدنا للعبور من جانب الكمين بهدوء ومن دون اشتباك. ومع هذا كلّه، كانت مهمّة بعض الأشخاص إسكات الكمائن. لقد نُصبت هذه الكمائن قبل كيلومترين تقريبًا من خطّ الدفاع الأوّل للعدوّ، وإذا ما جرت مواجهة هناك، سيصعب علينا بلوغ الخطّ أضعافًا مضاعفة.

وقد طلبوا منّا حتى الدخول فورًا في حقول القصب، إذا ما لمحنا قوارب العدوّ، وقالوا إنّنا لا نملك الحقّ في الاشتباك قبل البدء بتنفيذ العملية.

▫

بعد التذكير بكلّ هذه الأمور، أُعطينا مدّة 24 ساعة لمتابعة أمورنا الشخصيّة؛ آخر الأعمال قبل العملية. أراد بعضٌ الاغتسال، وراح آخرون يكتبون رسالة أو وصية، هؤلاء انهمكوا بتنظيف سلاحهم، وأولئك انشغلوا بالصلاة والدعاء والتوسّل بأهل البيت عليهم السلام. كنّا لا نزال في منطقة التدريبات في الهور بين بستان وسوسنكرد، وما زلت أذكر جيّدًا الوصيّة الوحيدة التي كتبتها طوال فترة الحرب، تلك التي كتبتها هناك. قال لي أمير الذي أصبحت صداقتي الحميمة به على كلّ لسان: «تعالَ لنكتب وصيّة واحدة لكلينا». كانت الساعة حوالي التاسعة صباحًا حين جلسنا إلى جانب الماء ورحنا نتبادل الرأي في شأن كتابة الوصيّة.

– يا عمّ، ماذا سنكتب! لا نملك شيئًا نورّثه لأحد، ولا طلب لنا لنطلبه من أحد...

أخيرًا، كتبنا رسالة، وأوصينا فيها الوالدين بالصبر، وعدم الحزن إذا ما استُشهدنا وأمثال هذه الأمور. ورحت أضحك.

– لِمَ تضحك يا سيّد؟!

– يا عمّ، أنا مطمئنّ أنّه لن يصيبني مكروه هذه المرّة، وسأعود.

– ومن أين تعلم ذلك؟

– أعلم فقط!

كان إحساسي الداخلي يقول لي إنّني سأعود هذه المرّة سالمًا، لكنّ وضع العملية الصعب يشكّكني قليلًا. كنت عندما أتذكّر خطّة العملية، أفكّر فيما بيني وبين نفسي بأنّ الوصول بسلامة إلى خطّ الدفاع الأوّل

للعـدوّ هو معجـزة من المعاجز! ومـا الذي يمكننا فعله في قلـب الماء إذا لا قـدّر اللّه ووقـع اشتبـاك قبل 500 متر مـن خطّ الدفـاع الأوّل للعدوّ؟ لقـد خضنا قبل ذلـك مواجهات عدّة على اليابسـة، وكان هناك حفرة، ساتـر ترابي، منخفض أو مرتفع يمكن الاحتماء بـه، أمّا الآن ونحن في وسط الماء، في قوارب تحتاج إلى قوّة السواعد لتتحرّك، ماذا سنفعل إن اضطُررنـا لإطلاق النار؟... ماذا سنفعـل إن أُصيب أحد المجدّفين؟... إن تبلّلـت أسلحتنا بالماء ولم تعد تعمـل؟... إن... حينها سنصبح هدفًا ثابتًا للأعداء!

كلّ هــذه الأسباب، ومئات الأسباب الأخرى المشابهة، جعلت من هذه العمليـة عملية غير عاديّة، آمنّا أيضًا بـأنّ كلّ شيء بيد اللّه تعالى، وأنّه يفعل ما يشاء، وبتنا مسلّمين لأمره ومشيئته.

2

بـدأت تهبّ نسائم العمليـة. وأُقيم مجلس عزاء رائع بمشاركة الحاج «صادق آهنكران». أقول رائع لأنّ مجالس العزاء تختلف فيما بينها. فمرّة تقيـم مجلس عزاء عـن روح شهيد، لكن مرّة أخـرى تشارك في مجلس عـزاء إلى جانب أشخاص لا تشـكّ أبدًا بأنّ عددًا منهـم سيُستشهدون بعد بضعة أيّام. أساسًا، كنّا عندما ننظر إلى وجوه بعضنا بعضًا تأخذنا العـبرة. أحببـت أن أحدّق كلّ تلـك الساعة في وجوه الإخـوة، وكان هذا شعور الجميـع. فخلافًا للعملية السابقة لم نكـن متكافئين مع العدوّ من حيث الوضعيّة، ومن المحتمل أن تُستشهد كلّ قوّات الاقتحام، فكنت أدعو كمـا سائر الشبان: إلهـي لا تخيّبنا، أنت تعلم أنّنا نعمل من أجلك فقط، فأعنّـا ليس للبقاء سالمين، بـل لننجح في اقتحام خطّ الدفاع الأوّل للعدوّ بأيّ ثمن كان، ونكمـل العملية، فتتمكّن قوّات الدعم من التقدّم. في تلك

الليلة، علمنا من خلال مرثيّة الأخ آهنكران بأنّ اسم العملية هو بدر.

هيّـأ الإخوة الحنّاء، كما جرت العادة ليلـة العمليات. وبينما كان من عـادة أهل القرى وضع الحنّـاء على أصابعهم ليلـة العرس، راح الإخوة يحنّـون رؤوس أصابعهم بشوق وفرح كبيريـن ليلة الأنس. أنارت الدموع وجـوه بعضـ، والضحكة أشرقـت على وجوه بعض آخـر. فكان الضحك والبكاء يبثّان المعنويات في نفوس الإخوة، كلّ وما يتناسب مع حاله.

تقرّر أن ننتقل بالشاحنات إلى منطقة العملية عند حلول الليل.

▫

بعـد الغـروب أتت الشاحنـات، وكان القرار بأن تحمل مـا أمكن من العناصـر تلافيًـا للتردّد المتكـرر إلى المنطقة. كان الزحـام خانقًا حين ركب الإخوة في مؤخّرة الشاحنات، لدرجة أنّ سلاح الواحد منهم انغرز في جسد الآخر. عـلا صراخهم: «اختنقت!.. مُتّ!». وكان الجواب يأتي: «لـو اضطُرّ الأمر بـأن تجلسوا بعضكم فوق بعضـ، فافعلوا، وذلك حتّى يتّسع المكان للبقيّة». وُضع شادر على الشاحنة فكان تحمّل ذلك الضغط والزحـام أمرًا صعبًا. طوال الطريق، كان بعض الإخوة من شدّة الخناق يرفعـون طرف الشـادر قليلًا لنتنشّـق بعض الهواء. وعلـى تلك الحال، وصلنا قرابة منتصف الليل إلى جزيرة مجنون الشماليّة؛ نقطة الافتراق الأولى. وكان علينا البقاء هناك إلى ظهر اليوم التالي.

والآن، يجـب على كلّ واحد منّا إعادة توضيب أغراضه التي سيحملها معـه للمرّة الأخيرة. فمـن أجل الحفاظ على توازن القـوارب، كان يجب تحديـد عدد أفـراد كلّ فريـق وأوزانهـم، إضافة إلى العتـاد والأغراض التـي سيحملونها. تمّ هـذا الأمر، وقبـل الانطلاق تفقّدنـا عتادنا للمرّة الأخـيرة. سرنا قرابـة العاشرة والنصف صباحًا، علـى شكلِ طابور إلى الـ«بـد» رقم (6)، ومن هناك ركبنا القـوارب لتقلّنا إلى باحة أُنشئت على

بُعد مسافة من وسط الماء، بالاعتماد على الحلقتين السابعة والثامنة من جسر خيبر، ليتمّ إعطاء التعليمات للقوات لآخر مرّة، ثم يركبوا القوارب. وصلنــا سريعًــا إلى هناك، وكان لدينــا متّسع من الوقــت إلى حين حلول موعــد الجلسة. ولمّا كان عدد من الإخوة لم يغتسلــوا غسل الشهادة بعد، فقد ذهبوا إلى جانب القوارب واغتسلوا. ذهبت أنا معهم، فلم أشأ أن أرد هذا الطريق من دون غسل الشهادة. كان الماء باردًا جدًا، نويت نيّة الغسل وغطست. حين عــدت إلى صفوف الإخوة كنت كما الكثير منهم، أرتجف من شدّة البرد، ولم أعد إلى حالي الطبيعيّة حتّى بعد ساعة.

نــادوا علينــا أن تجمّعوا سريّــة سريّة في مكان واحد، نريــد أن نتكلّم معكــم. وقفنــا بقيادة الأخ مصطفــى بيش قدم إلى جانــب سرايا كتيبة الإمــام الحسين عليه السلام الأخــرى. كان جسدي يرتعش من شدّة البرد، ولم تستطــع شمس العاشــر من آذار من العــام 1985م الباهتــة، أن تمدّني بالــدفء. من ناحية أخرى كنت قلقًا على أمير الذي لم يستطع الالتحاق بالسريّــة بسبب نقص في القوارب. بعد دقائق، شرع بالكلام قائد كتيبة الإمــام الحسين عليه السلام أصغر قصّــاب الذي سرى نبــأ بطولاته في عملية خيــبر ومواجهــات جزر مجنــون على كلّ لســان. تنــاول في حديثه وضع المنطقة وأهمّية المهام التي سنقوم بها. كانت الخريطة قد شُرحت سابقًا بما فيــه الكفاية، فراح يوصينا بالمداومة علــى الذكر والدعاء من بداية تحرّكنا حتى الشروع بالمواجهات، ذلك أنّ الشيء الوحيد الذي يوصلكم سالمــين إلى محاوركم هو الذكر والدعــاء لا غير. وما لم تصلوا إلى تلك المحــاور، لا يجب أن تتوقّعوا دعمًا من الخلــف و... بعد ذلك خطب فينا علي تجلّايــي. تغيّرت أحوال الجميع. إلهي! أيّ محشر هي بدر! أيّ قادة عظــام جــاؤوا إلى هنــاك، وأيّ معنويّــات تحدّثوا بها في هــذه الساعات بخطاباتهــم الحماسيّــة؟ تحــدّث قادتنا الشجعــان عن أهميّــة اقتحام

خطّ الدفاع الأوّل للعـدوّ. وكان ينبغي علينا اقتحام سدّ (حاجز) [1] جُهّز بمختلف أنـواع الأسلحة، وبعبارة أخرى، غير قابـل للاختراق، بواسطة عدد مـن السرايا حيث ستهاجم الخطّ بالقـوارب، ومن هناك يقوم كلّ شخـص بالمهمة المنوطة بـه. كانت مهمّة ثمانية عناصر مـن بينهم أنا، الهجـوم على المقـرّ بعد اقتحام خطّ دفـاع العدوّ. ولهـذا الهجوم قصّة عجيبـة. حين سألت عن عـدد العناصر في المقرّ؟ جـاءني الجواب إنّهم يقاربـون الألف ونيّفًا! وبالطبع، ضحكت لهذه الظروف التي كانت مبكية مـن ناحية أخرى. فكّرت، ماذا يمكـن لثمانية أشخاص أن يفعلوا مقابل مقـرّ بهـذا الحجـم؟! أولئك الثمانيـة أشخاص أنفسهم الذيـن قادوا القوارب أيضًا مسافـة كيلومترات، وبعد اجتياز الموانع هجموا على خطّ الدفـاع الأوّل للعـدوّ. كنّا نعلم، أنّـه وبسبب اتّساع رقعـة منطقة العملية والنقص في عديـد قوّات الاقتحام، أصبح تطهـير كلّ قسم من المنطقة بعهـدة بضعة أفراد، ثم يكملـون مهمتهم، لكنّ احتلال مقرّ مجهّز بعدد من الشيلكا، من قبل عدّة أشخاص كان بالفعل أمرًا محيّرًا. [2]

طـوال هـذه المدّة كان فكري مشغـولًا بتخلّف أمير. فقـد استبعد من سريّتنا أربعة أشخاص عن المشاركة في المرحلة الأولى من العملية بسبب نقصـ في القوارب، ومن بينهم صديقي الحميم أمير. كنت منزعجًا من الأمـر تمامًا بقدر انزعاجه. لم أترك بابًـا إلّا وطرقته. حتى لقد ذهبت

1 ـ الحاجـز أو السدّ وهـو يشبه الساتر الترابي، أنشئ في منطقة الهور مـن أجل الفصل بين اليابسة والمـاء. وكان العدوّ في عملية بدر قد أنشأ على ضفّتـه ساترًا ترابيًّا بارتفاع ثلاثة أمتار، امتدّت فوقه جادّة بعرض ستة أمتار.

2 ـ فيما بعد، حين ذهبت إلى المقرّ، رأيت عن كثب وبغضّ النظر عن أي شيء آخر، وحدتَي اتّصالات مجهّزتيـن بمختلف أنواع الرادارات. كان عناصر الاتصالات وحدهـم في ذلك المقرّ يناهزون الـ200 عنصـر. عندمـا رأى الخبراء تلك الـرادارات الحسّاسة قالوا إنّها تلتقط أدنـى الأصوات والحركات، ويمكنهـا التقـاط حركـة القـوارب وحتّى الأصـوات الخفيفـة. بلطـف الله وعنايته، لـم تستطع تلك الرادارات الحسّاسة في عملية بدر الأسطوريّة أن تقدم أيّ مساعدة للعدوّ.

إلى مصطفى بيش قدم، الذي كان من المقرّر أن يجري قرعة على هؤلاء الأربعة حيث أصبح هناك مكان لواحد منهم فقط في أحد القوارب. أردت التلاعب بالقرعة لتأتي باسم أمير مارالباش، فلم تأتِ[1]. انتفت إمكانيّة مجيء أمير معنا ليكتمل انزعاجنا من الأمر.

ارتفع صوت المرثيّات الحسينيّة من الجهة الأخرى. جاء الأخ «منافي» من قبل إعلام الفرقة، للتوسّل بأهل البيت عليهم السلام قبل انطلاق القوارب. لقد أقيم مجلس غير عاديّ في تلك المنطقة المحدودة، على الجسر، وسط الماء وعلى مقربة من ضفّتنا. فطأطأ كلّ من كان حاضرًا هناك رأسه إلى الأرض وراح يبكي. قبل بدء المرثيّة، كانت دموع الكثيرين تجري من امتلاء القلوب أو من ليونتها. لحظات غير عاديّة مرّت. وتقرّر أن ننطلق بالقوارب بعد أداء صلاة الظهر.

◻

بدأ تحرّكنا. وركب عناصر الاقتحام في فرقة عاشوراء القوارب واحدًا واحدًا. رفع الأخ «منافي» الأذان بنحو بثّ فينا حماسةً مختلفة. كان يرفع الأذان بحالة معنويّة لا توصف، ويشرح معاني عباراته. لا أظنّ أنّني سمعت طوال حياتي أذانًا أثّر في جسمي وروحي كذاك الذي سمعته ظهيرة يوم عملية بدر. لم يبقَ أحد إلّا وبكى[2]. ركب عناصر الاقتحام القوارب، وكانوا يرتدون سترات واقية من المطر، خضراء أو رماديّة اللون، فيما كان الأخ مهدي والقادة وقوّات الدعم يودّعوننا بأنظارهم. لم يكد يأتي دورنا للركوب حتّى سمعنا هدير الطائرات العراقيّة، بادرنا فورًا للاستتار منها بالطرق المتاحة. استترت القوارب التي بدأت تحرّكها بين حقول القصب، فقلت في نفسي: «لا تكفينا مشكلتنا، حتّى

1. وقعت القرعة على عنصر آخر، استُشهد في تلك الليلة نفسها.
2. لقد تمّ تصوير تلك اللحظات من قبل إعلام الفرقة، ولا أعلم إن كان الفيلم لا يزال موجودًا أم لا.

تأتـي الطائرات أيضًا!». وشيئًـا فشيئًا حان دورنا. جاء أمير إليّ: «سيّد! أأنت ذاهب؟».

- نعم.
- هل تظنّ أنّك ستستشهد أم ستعود؟
- لا، بل أظنّ أنّني سأعود!
- أنّى لك أن تعلم هذا؟!
- أعلم، سأعود!
- فلتحدّد لي موعدًا ألقاك فيه هناك!
- أنتظرك غدًا عند التاسعة صباحًا، على الطريق المؤدّية إلى المقرّ!

قلت ذلك باطمئنان. تعجّب أمير قائلًا: «سيّد! تتكلّم بثقة وكأنّك إلى الآن ذهبـت ثلاثين مرّة إلى المقـرّ، واستطلعته وعرفـت الطريق المؤدّي إليـه!». فقلت من جديد: «تعالَ غدًا، عنـد التاسعة صباحًا، إلى الطريق المؤدّي إلى المقرّ. وسأكون ما زلت سالمًا حتى تلك اللحظة!».

عندما انسللت من أحضان أمير لم أعد أفكّر سوى بالانطلاق. ابتعد قاربنـا عن حلقات الجسر. كنت أنا وبابـا وشخصان آخران في القارب نفسه. شيئًا فشيئًا بدأنا نبتعد عن صوت الأذان وهمهمة الإخوة، ولم نعد نسمع سوى همسات الأدعية المنبعثة من شفاه مرافقينا. ارتفعت معنويّات الإخـوة عاليًا؛ فبعضهم راح يمـزح ويمرح، وبعضهـم راح يفكّر بهدوء. كنت بدوري من بين الذين يمزحون، فرحت أنثر الماء في وجوه الإخوة في القارب المجاور. لربّما وجدتُ هذا الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يخفّف في ذلـك الزمان والمكان الغريبين من وطـأة الجوّ. الطريق أمامنا طويل للوصـول إلى مكان الاشتباك. وطبعًا لنا محطّـات كثيرة خلاله. أحيانًا توقّفنـا لنحصل على معلومات جديدة عن الكمائن الموجودة في طريقنا. عنـد الغروب، كانت تفصلنا عن خطّ الدفـاع الأوّل للعدوّ حوالي الأربعة كيلومترات، فقرّرنا التوقّف هناك لأداء صلاتي العشاءين.

لم يصاحب صلاتنا إلّا اهتزاز القارب الهادئ على وجه الماء. وبقلوب ملؤها الإخلاص أدّينا صلاتنا في القارب من جلوس. تناولنا وجباتنا الغذائيّة، وهي عبارة عن معلّبات التونة والقليل من البسكويت، أبعدت عنّا الجوع حتّى الصباح. في تلك العتمة كنت أختلس النظر أحيانًا إلى وجوه رفاقي وأفكر؛ ماذا قدّر الله سبحانه لنا في هذه الليلة!

كنّا من وقت لآخر نتبادل الأحاديث بهدوء، لكنّنا في كلّ الأحوال لم نغفل عن هذا الذكر؛ إلهي لا تخيّب أملنا، وساعدنا كي نخترق خطّ الدفاع الأوّل للعدوّ بنجاح. إلى ذلك الموقع، ظل احتمال المواجهة مع دوريّات العدوّ أو كمائنه ضعيفًا، أمّا الآن فأصبح كلّ قارب يذكّر القارب الذي يليه بالخطر الذي صار يتهدّدنا مئة في المئة من الآن فصاعدًا. لقد نصب العراقيون ما يقارب العشرين كمينًا في طريقنا، ومواجهة أيّ واحد منها تعرّض العملية للخطر. سبق ونبّهونا إلى إطلاق النار العشوائي الذي يقوم به العدوّ في تلك المنطقة، وقيل لنا، من المحتمل أيضًا أن تطلق دوريّات القوارب النار بشكل عشوائي، وفي حال أُصيب أحدكم لا ينبغي أن يصدر عنه أيّ صوت[1]. مرّت لحظات مرعبة، لكنّ الهدوء علا وجوه أصدقائي بوضوح.

مرّت نصف ساعة تقريبًا على انطلاقنا، وإذ بأصوات القوارب العراقيّة تتعالى. كانت تسير في الممرّ المائي الأساسي، ومن حسن حظّنا أنّنا دلفنا حينها في ممرّ فرعي غطّت أطرافه حقول القصب. أردنا الدخول في الممرّ الأساسي، لنعبر منه إلى ممرّ فرعي آخر، لكن لم نكد نصل إلى هناك، حتّى ظهرت قوارب الدوريّة العراقيّة وهي تُعمل الكشّافات الضوئيّة. رأيناهم يكملون طريقهم ويمضون وقد خيّم الهدوء والسكون. كانت سائر القوارب في مكان آمن. دخلنا الممرّ الأساسي كما

1ـ كان العدوّ يغطّي منطقة واسعة بنيرانه العشوائيّة المتفرّقة، وفي حال توجيهه الرماية إلى مكان خاصّ، فذلك يعني أنّه احتملَ وجودَ قوّاتٍ في تلك المنطقة، لذا لم يرمِ نيرانه بنحو عشوائيّ.

ورده عدد من القوارب. تبادلنا الأدوار عدّة مرّات مع المجدّفين خلال هذا المسير الطويل، حتّى لا يبطئ التعب حركتنا. وفي تلك اللحظات، انتبهنا مـرّة ثانية إلى وجود قارب لدوريّة عراقيّة فدخلت كلّ القوارب في حقول القصـب، لكن... فجـأةً اضطرب مجدّفونا واختـلّ التنسيق بينهم. وفي لحظة واحدة، بدأ القارب يدور حول نفسه وسط الممرّ. حُبست أنفاسنا! توجه القـارب العراقي ناحيتنا بنوره الكاشف، فيما نحن حائرون وسط الممـرّ لا نـدري ما نفعل. فكّـرت للحظة أنّ كلّ شيء قـد انتهى. اختنقت بغصّتي. لم يكـن أمامنا من مفرّ؛ القارب العراقـي يقترب أكثر فأكثر، ونحن عاجزون. في اللحظة الأخيرة استطعنا نقل القارب من وسط الممرّ إلى ناحية ما، كانت حالًا غير عاديّة ولا مثيل لها. وكأنّ كلّ ذرّات وجودي بادرت تناجي الله تعـالى: «إلهي، اعمِ هذا النور واعمِ أبصارهم عنّا!»، كنّا نسمـع أصوات العراقيّين بوضوح. حين وصـل القارب إلى محاذاتنا أحنيت رأسي، وأحسست مباشرة بنور الكشّاف يمرّ من فوق رأسي. حتّى لقـد اصطدم قاربهم بزاوية قاربنا، إلّا أنّنـا لم نبدِ أيّ ردّ فعل. سبحان الله! شـيء لا يُصدّق، أن يمرّ القارب مع نور الكشّاف ولا يروننا. عندما رفعت رأسي ورأيتهم يبتعـدون، كاد قلبي يطير من الفرح. رحت أنادي: «كـم أنت عظيم يا رب، وكم أنت كريم!..». أحسست بكلّ وجودي بعظمة الله وقربه منّا؛ وكان ذلك الشعور معتمدنا الوحيد في تلك اللحظات، ولم نجد وسيلة لشكر هذه النعمة سوى متابعة الطريق وإخلاص النيّة. شعر رفاقنا في القوارب الأخرى الذين شاهدوا ما حدث بهذا الإمداد الغيبي أيضًا. وفيما بدأنا نعبر من هناك لندخل الممرّ المائيّ الفرعي تمنّيت من أعمـاق قلبي أن أقع في الأسر -كعنصـر استطلاع- وأُعذّب وأُقتل، بشرط أن يتمكن الإخوة من الهجوم في الوقت المناسب، وأن تؤتي العملية أُكلها. شـقّ القارب طريقه في الممرّ المائي، ولم أرد أبـدًا التخلّي عن الإحساس بالحماية الإلهيّـة، وفكرت أنّنا لن نستطيع أداء حقّ تلك اللحظات مهما

فعلنــا، خاصّــة ذلك الهدوء الــذي أبداه كلّ واحد منّــا، فلم نقم في تلك اللحظات الحسّاسة بأيّ عمل، وبقينا منتظرين.

شيئًــا فشيئًا وصلنــا إلى النقطة التي ينبغي للقــوارب أن تتفرق فيها بعضهــا عن بعضٍ، ويتوجّه الإخــوة كلٌّ إلى المكان الــذي سينفذون فيه المهام الموكلة إليهــم. وحيث إنّ الخريطة شُرحت لنا مرّات ومرّات، فقد استطعنــا التكيّف مع المنطقــة بسهولة. كانت القــوارب تسير على شكل طابــور، والإخــوة في القــوارب المتقدّمة يطلعــون القوارب التــي خلفهم علــى المنطقة التــي وصلوا إليهــا. أمّا عناصر المعلومــات الذين يسيرون في المقدّمــة، فقد وضعــوا في الاستطلاع الأخير للمنطقــة قطعًا صغيرة من الكاوتشوك، كعلامــات تُحدّد محور كلّ شخص. وعند الاقتراب من الكمائــن كانوا يحــذّرون الإخوة، ليراعــوا جوانب الدقّــة والحذر أكثر. أحيانًــا صغرت المسافة بين القوارب والكمائــن لدرجة أن نسمع أصوات العراقيّين الذين تابعوا أعمالهم من دون علم بما يجري حولهم. اطمئنّ قلبــي للإحساس بالحماية الإلهيّة. فحيث كانــت كلّ مخطّطاتنا عرضة للفشــل لو أنّ صوت مجــداف ارتفع أو عطس أحدهــم عطسة، كان هذا الإيمان فقط ما يبعث فينا سكينة لا توصف.

تجاوزنــا النقــاط الحسّاســة واقتربنــا مــن منطقــة المهمّــة الموكلة لسريّتنا. عند الحادية عشرة والنصف ليلًا، بدأت المواجهات في المحاور الأخــرى. كنت بجانب قارب قائدنــا فسألته: «سيّــد أصغر! هل انكشف أمــر العملية؟ وكأنّ الإخوة قد بدأوا بالمواجهــة!». أجابني بكلّ طمأنينة: «لا! إنّهم يطلقون الرصاص العشوائي!». ظننت أنّ بعض عناصرنا بدأوا بالمواجهة حين سمعــوا إطلاق النار العشوائي للعدوّ، لأنّ الأصوات كانت عالية. ومباشرة صدر الأمر: «تحرّكوا بسرعة».

أحسســت براحة كبــيرة كوننا اجتزنا أكثر المناطــق حساسيّة، وحتّى لــو كُشف أمــر العملية الآن، فلــن يشكّل ذلك مشكلة كبــيرة. صدر نداء

العمليـة حين وصلنـا إلى المكان المحـدّد للكتيبة، وهنـاك أُبلغنا بوجوب افـتراق الفصائل. ابتعدت القوارب بعضهـا عن بعض وانتشرت في الماء بمـوازاة سدّ العـدوّ، ولم يكن العدو إلى حينها قـد التفت إلى شيء بعد. وصلنا إلى موقعنا المقـرّر في الوقت المحدّد، فيما لم يكن بعض العناصر مـن الجناحين قد وصلـوا إلى أماكنهم بعد. الإخوة الذيـن تواصلوا مع المقـرّ سمعوا باستمـرار نداء: «لا تبـدأوا بالمواجهة حتّـى تصل القوّات الأخرى». في هذه الأثناء بدأ عمل غوّاصي قوّات الاقتحام الذين اقتربوا بقواربهـم قرابة العشرين مترًا من السدّ ونزلوا هناك في الماء. كانت قد وُضعـت عدّة صفوف من الأسـلاك الشائكة والموانـع الأخرى من داخل المـاء إلى دشـم العدوّ، ولـزم علـى الغوّاصين قطع هـذه الأسلاك وفتح الطريـق لعبور الباقين. لم يُسمع في منطقتنا سـوى أصوات الاشتباكات التي بدأت تشتدّ في المحـاور الأخرى. تموضعنا تمامًا أمام الشيلكا التي ينبغـي علينـا تدميرها قبل أيّ شـيء، وفيما تقدّمنا بهـدوء أمامها نحو السـدّ، اختلّ من جديـد التنسيق بين المجدّفين، ليبـدأ القارب بالدوران وسـط الماء! وفي هذه الأثناء لفـت انتباهي أكثر من أيّ شيء آخر حديث جنديـين عراقيّين يقفان فوق السدّ، يبـدو أنّهما من عناصر الشيلكا. في تلـك الليلـة كان القمر قد نثر نـوره الفضّيّ فوق الهـور، فيما راح قاربنا يـدور وسط الماء ومقابل الأعداء. ولو لم نستطـع قيادته إلى جهة معيّنة ورأونـا تحـت نور القمـر، لقُضي علينا. ومـع أنّ الإخـوة في كلّ القوارب المستقرّة مقابل الضفّة ورماة الـ(B7) كانوا جميعًا مستعدّين للرمي، إلّا أنّ أعصابـي ثارت في تلك الحال المقلقة. تسمّرت عيناي على الجنديّين العراقيّـين اللذيـن أشعل أحدهمـا سيجارة، وما إن اشتعلـت السيجارة حتّـى علا صياحه. لقد رأونا! ركض مسرعًا نحو الشيلكا، لكنّ الفرصة لم تؤاته سوى لرمية واحدة، إذ إنّ قذيفة (B7) أُطلقت من أحد القوارب وأصابت دشمته إصابة مباشرة وأسكتتها. بدأت المواجهات رسميًّا.

أُصيب نتيجة الرمي بالشيلكا عنصران من قوّاتنا، إلّا أنّ نيران شبابنا الشديدة بدأت. أمّا قاربنا؛ فقد استطعنا السيطرة عليه بعد أربع أو خمس دورات. كان كلّ همّنا أن نرمي، وليجدّف العنصران الآخران مهما أمكنهما ثم يوصلاننا إلى الضفّة. سريعًا بلغنا الأسلاك الشائكة، لكنّها لم تكن قد أُزيلت في ذلك المكان. توقفنا ولم نعد نستطيع إكمال تحرّكنا. بقي أمامنا إلى الضفّة متران فُرشا بالأسلاك الشائكة، وكانت القضبان التي نُصبت في الماء لمدّ هذه الأسلاك عليها، تعلو نصف متر عن سطح الماء. نزلنا من القوارب في الماء وقفزنا من فوق الأسلاك الشائكة. انتبهتُ هناك إلى وجود ألغام لم ينفجر منها لحسن الحظّ سوى لغم واحد. توجّه كلّ همّنا في تلك اللحظة لاجتياز الأسلاك الشائكة وصعود السدّ. صعدنا من دون الاكتراث لتلك الأسلاك التي تجرح وتمزق كلّ ما يحتكّ بها. كانت المواجهات قوية، ولأننا قاب قوسين أو أدنى من الجنود العراقيّين، فقد حال ذلك دون استخدامهم لبعض أسلحتهم[1].

اشتدّت المواجهات فوق السدّ. عملنا ما في وسعنا لاتّخاذ موطئ قدم لنا وتطهير السدّ سريعًا. أردنا أن نستفيد بالكامل من ورقتنا الرابحة، ألا وهي مباغتة العدوّ، لأنّنا كنّا نعلم أنّ دشم الإسناد الموجودة خلف السدّ جاهزة، وستباشر العمل إن واتتها الفرصة. من ناحية أخرى، فإنّ المسافة بين السدّ والمقرّ حيث تتمركز معظم القوات، هي حوالي الـ(500) م، وقد جاء العدوّ إلى هناك بحوالي الـ(200) دبّابة، وحتمًا لم نرد لها أن تباشر العمل. لذا، فقد انصبّ كلّ جهدنا على التطهير قبل أن يستجمعوا قواهم ويباشروا العمل. إضافة إلى ذلك، علمنا بأنّ قوّاتنا قد وصلت في زوارق «الكوثر» و«عاشوراء» السريعة إلى مقربة من كمائن العدوّ حيث قادها المجدّفون إلى المكان بعد أن أطفأوا محرّكاتها، وبقوا

1ـ إطلاق نيران من بعض الأسلحة كالدوشكا والشيلكا لا يأتي بنتيجة عن مسافة قريبة جدًا (بسبب الزاوية الدنيا).

منتظرين هناك، ليقوموا بدورهم ما إن تبدأ مواجهاتنا مع العدوّ. وصل الأمـر إلى درجـة، كانت المنطقة فيهـا تهتزّ مـن دويّ القذائف المدفعيّة وأزيـز الرصاص وهدير محرّكات الـزوارق. وفي تلك المعمعة، عدت من أعلى السدّ نحو الهور، إلى المسار الذي سلكناه الليلة الماضية. كان الهور غارقًا في النيران. ظننت أنّ قوّاتنا اشتبكت مع الكمائن. للحظات عزلت نفسـي عن الدخـان وأصوات الانفجارات والجلبـة من حولي ودخلت في الاشتبـاك الدائـر بين زوارقنا السريعـة والكمائن. فجـأةً صحت مؤنّبًا نفسي: «يا فتى! احتلّ أوّلًا المكان جيدًا وبشكل كامل، ومن ثمّ..!».

كانـت المواجهة شديدة. لقد أصبح الاشتباك على التراب أمرًا سهلًا ونحن الذين خاطرنا مسافة كيلومترات وعبرنا بقواربنا إلى هنا من قلب حصـون الأعداء، وراح الإخـوة يقاتلون بشجاعة وجـرأة عالية. أربكتنا إحدى الدوشكات التي كانت تقاوم بشدّة، فقال الإخوة، لا يمكن إسكاتها من بعيد، علينا أن نقترب أكثر ونرميها بقنبلة. سرعان ما تصدّى ثلاثة أشخاص للمسألة، فاقتربوا منها وأسكتوها برمي قنبلة عليها. فكّرت أنّه حـان الوقت لأتوجّه نحو جادّة المقرّ. وفيمـا أنا ذاهب إلى هناك التقيت بمصطفـى بيش قدم. ما إن رآني حتّى قال لي: «سيّد! لقد خرجت قوّات فرقة النجف[1] من الماء، ولكنّهـم عالقون هناك ولا يستطيعون الصعود، اذهـب بأقصى سرعة مع عدد من العناصر لمساعدتهم!». كان يوجد في المـكان الـذي أشار إليـه الأخ مصطفى مبنى للعدو مؤلّـف من طبقتين، يقـاوم بشدّة، ويمنع تقدّم الإخـوة وانتشارهم. لكنّني كنت منجذبًا أكثر إلى القيام بالمهمة التي أوكلتها لنفسي.

– لكن يا أخ مصطفى، أنا ذاهب إلى تلك الناحية...

– إلى أين؟!

– المقرّ!

1 ـ كانت فرقة النجف قد دخلت الاشتباك في الجناح الأيسر لفرقة عاشوراء.

- مع من؟
- حقيقة لا أحد، أنا ذاهب وحدي!
- سيّـد! دع الآن فكـرة الذهاب إلى المقـرّ. علينـا أوّلًا أن نطهّر هذا الخطّ، أمّا فيما يتعلّق بالمقرّ فستأتي قوّات من الخلف!

عـدت أدراجـي متوجّهًا إلى المكان الـذي أشار إليـه الأخ مصطفى. بلغـت المنطقـة التي ينبغـي علينا تطهيرهـا هناك حوالي الـ500 متر. ركضنـا بسرعـة ورمينا القنابل داخـل دشم العدوّ. أردنـا عندما يصل الإخـوة إلى الضفّـة أن يتمكّنوا من الصعود سريعًـا ويستكملوا العملية. بعـد نصـف ساعة مـن بـدء المواجهات، أطلّـت القوارب مـن كلّ حدب وصـوب ورست علـى الضفّة. اجتاز الإخوة الأسـلاك الشائكة وصعدوا. من الجهة الأخرى، كان قد تأكّد لخطّ الدفاع الثاني للعدوّ ـ قوّات الدعم وتلـك الموجودة داخـل المقرّ ـ بأنّـه تمّ اختراق خطّ الدفـاع الأوّل، وربّما التفتـوا إلى وصول قوّات الدعم خاصّتنا. لذا، بدأوا يطلقون النار نحونا بكثافة. كانت نيرانًا ثقيلة تصعُب مواجهتُها بالسلاح الذي بين أيدينا.

في تلـك اللحظات، وقعت عيني على ثنائي* أسفل الجادّة موجّه نحو الماء. توجّهت فورًا نحوه. كان سالمًا وجعبة ذخائره جاهزة للإطلاق أيضًا. تساءلت في نفسي: «ماذا لو أمكننا سحبه إلى أعلى الجادّة وتوجيهه نحو المقـر...». وخلال لحظات لحقني اثنان مـن الإخوة. دائمًا ما يحدث في العمليـات أن يبذل المرء كلّ ما يستطيعه مـن دون الاكتراث لمؤازرة أحد إلى جانبـه أم لا. كنّا ثلاثة أشخاص أردنا سحـب الثنائي صعودًا قرابة الثلاثـة أمتار وتركيزه فوق الجادّة. قلنا «يا علي» وسحبناه. لم أدرِ كيف أُمكـن لثلاثة أشخاص قادوا المراكـب لساعات، واشتبكوا مع العدوّ حتّى أُجهـدوا، أن يقومـوا بهذا العمل الشـاقّ. أدرنا فوّهـة الثنائي نحو المقرّ وتجهّزنـا للإطلاق، لكن المكان الـذي تمركزنا فيه كان سيّئًا؛ فهو وسط

*- رشاش متوسط ذو فوهتين، يظهر أن العراقيين تركوه وانسحبوا أو قتلوا.

الجـادّة مـن دون أيّ تحصين أو دشمـة، وتقريبًا في مرمـى كلّ النيران التـي يتمّ إطلاقها من المقرّ. لم أفكّر أساسًا في هذه الأمور. حقيقةً، لقد اجتـزت المرحلة الأصعب من العملية: عنـد الانطلاق والوصول إلى خطّ الدفـاع الأوّل واعتـلاء السـدّ. والآن أصبح كلّ عمل مهمـا صعبَ، سهلًا علـيّ. جلستُ بنفسي خلف الثنائي، وأصبـت المتراس الموجود أمام المقرّ من أوّل طلقة. لم يستطع أحدٌ أن يرفع رأسه في مواجهة تلك الطلقات.

شكّلـت نيران الثنائي رادعًا كبيرًا لرمايـات قوّات العدو الموجودة في المقرّ. شرعت أرميهم برصاصهم، وأشعر بحماسة كبيرة، ومع كلّ طلقة ثنائـيّ نرى وبشكل ملحوظ أنّ رماياتهم تهدأ وتقلّ. في تلك الأثناء، أراد عناصـر الكتائـب الأخرى التي وصلت للتوّ، التقـدّم نحو المقرّ. قلت لهم بكلّ ثقة: «تقدّموا!».

- قد يرموننا!

ومجـدّدًا قلـت: «لا تخافـوا! سأرميهم من هنا! فقـط عليكم التقدّم وأحنوا الظهور كي لا تصيبكم نيران الثنائي».

تقدّمـوا فيما واصلت رمـي المقرّ بالثنائي. وسرعـان ما طوى الإخوة مسافة 500 متر ودخلـوا المقرّ. كنت أحيانًا عندما أسمع أزيز الرصاص يمـرّ بالقرب منّي أفكـر «إمّا أنّهم لا يستطيعـون الرماية بشكل جيّد، أو ليس من المفترض لرصاصاتهم أن تصيبني!».

غمرتنـي الفرحـة بسبب وجـود ذلـك الثنائي في تلـك المنطقة. بعد دقائـق عدّة، أرسل العراقيّون من ناحية دجلة لواءً قوّات الدعم المجهّزة إلى المنطقـة. تقدّمت هـذه القـوّات بالآليّات، وكان يفصلنـا عنها 700 مـتر. عرفنـا أنّ وصولهم سالمـين سيصعّب الأمر علينـا. أدرت والإخوة الثنائـيّ نحوهم هذه المـرّة. توافرت لدينا ذخائر كافيـة، ويعلم الله أيّ نـيران انبعثت من الشاحنات بفعل هـذه الطلقات! كانت موقعيّة الثنائي بالنسبـة إلى طابور الآليّات، بحيـث تشملها كلّها زاوية رميه. كنت أرمي

فقط، ولا أرى أبدًا ما يحدث أمامي في عتمة الليل وبين كلّ هذا الدخان والغبار. عرفت أنّ ذلك اللواء يريد دخول منطقة فرقة النجف، وها هي الانفجارات المتتالية والنيران تتصاعد منه إلى السماء. احتشد عدد من الدبّابات التي تقاوم، فأراد الإخوة في فرقة النجف عبور المنطقة وتدميرها. لقد ارتفعت معنويّات الشباب وهم يرون احتراق الآليّات الآتية إلى تلك الناحية، الواحدة تلو الأخرى. يبدو أنّ تلك الشاحنات حملت الذخائر إضافة إلى العناصر، لأنّ نيرانًا غير عاديّة انبعثت منها. أعاق تدمير الآليّات المتقدّمة حركة الآليّات خلفها، فضمنّا هدفنا في هذه الحال؛ واستطعنا تطهير المنطقة في وقت سريع والوصول إلى مشارف دجلة. لقد أُسكت المقرّ مع وصول قوّاتنا، فاستطاع بعض العناصر التقدّم إلى ما بعد المقرّ والوصول إلى دجلة. أصبحت الساعة قرابة الثالثة بعد منتصف الليل، وأنا لا أزال في الجادّة جالسًا خلف «الثنائي»، الذي كان وجوده في تلك الظروف بالفعل يبعث على التفكّر[1].

على كلّ حال، تم القضاء على لواء الدعم العراقي، ويبدو أنّ أفراده قُتلوا من دون أن يأتوا بأيّ فعل[2]. عرفنا أنّه من الطبيعي للعدوّ أن يفكّر بالاستفادة من قوّات الدعم المستقرّة على ضفاف نهر دجلة، حيث تموضعت على مقربة من المقرّ حوالي 25 مدفعيّة فرنسيّة، ترمي طرقاتنا بنيرانها.

قرابة الفجر توقّفت الاشتباكات في المنطقة. فقد دُمّر عدد كبير من

---

1 - لاحقًا رحت أفكّر: لِمَ لمْ يرم شبابنا عند تطهير المنطقة بقنبلة على ذلك الثنائي؟ ففي ذلك الخطّ، كان الثنائي هو السلاح الوَحيد الذي تغاضى عنه شبابنا، وصادف أنّه كان من الأسلحة التي لم يغتنم العراقيّون فرصة وجوده ويستخدموه ضدّنا. أساسًا، كان سحب الثنائي إلى أعلى الجادّة يحتاج إلى آليّة، فيما قام ثلاثة أشخاص برفعه. ورغم علمي بأنّ الأعمال الصعبة تتيسّر بفعل خلوص النيّة، إلّا أنّ فكرة استخدام الثنائي هناك كانت أيضًا عناية إلهيّة. لهذا السبب أقول إنّ وجوده هناك يبعث على التفكّر.

2 - كان لواءً مجهّزًا، ويمكنه تعقيد الأمور علينا في تلك الأوضاع، حيث لم نكن نسيطر سوى على ساتر ترابيّ والماء من خلفنا، ولم يكن لدينا حتى مكان ننسحب إليه ولم نكن نستطيع حتى تغيير مكاننا.

الدبّابات، ولا يزال يقاوم عدد آخر في الخلف. توجّه الإخوة إلى مكان وجودها. مع انبلاج الصبح مضيتُ نحو المقرّ، وكنت أعلم أنّ الإخوة دخلوه بالأمس، وذهبوا بعد تطهيره نحو نهر دجلة الذي كان يجري خلف المقرّ، لذا، كنت أسير بطمأنينة. دخلت أوّلًا إلى دشمة القيادة. كانت عبارة عن بناء بمساحة (7×9) م، مجهّز بكنبات وتلفاز ملوّن وإمكانات كثيرة، إنّه أشبه بغرفة استقبال في بيت أكثر منه بدشمة في الخطوط الأماميّة للحرب. وحدها الخرائط التي نُصبت على الجدار أوحت بأجواء الحرب. أمّا قسم الاتصالات فكان لافتًا؛ دشمة بطول 20 مترًا مجهّزة بأجهزة اتّصالات شبيهة بقسم مراقبة في مصنع ضخم، إضافة إلى رادارات قيل إنّها تلتقط أدنى الأصوات والحركات. عندما سمعنا بأنّ 200 عنصر يعملون في هذا القسم، تيقنّا أكثر من أنّ العناية الإلهيّة حلّت علينا ليلة بدر، وأوصلتنا إلى ضفّة العدوّ بقوة. غمرنا جميعًا الفرح بالنصر الكبير الذي أحسسنا به بكلّ وجودنا. مع طلوع الشمس قامت وحدة إعلاميّة تابعة لإحدى الفرق بفعل غريب؛ راحت تبثّ عبر مكبّرات الصوت نشيد «خجسته باد اين بيروزى» [مبارك هذا النصر]. ومع أنّني لم أكن أحبّ الأناشيد، لكن، كان لهذا النشيد وقع كبير في قلبي![1]

في صباح اليوم الأوّل لعملية بدر، وبعد أن نجحنا باختراق خطّ الدفاع الأوّل للعدوّ واحتلال المقرّ، ظل هذا النشيد يُبثّ في المنطقة وتمامًا عند ارتفاع الشمس في الأفق. وعند حوالي التاسعة صباحًا، سمعت إيقاعه وأنا أسير فوق ساتر ترابي. أحسست بشعور لا يوصف؛ كلّ فقرة منه كانت

1 ـ أدّى هذا النشيد محمّد رضا كلريز، وقد أحببته إلى درجة أن سجّلته على شريط تسجيل. ومن أجل هذا النشيد، حملت مسجّل الصوت من البيت إلى الجبهة، ليمكنني حينما أشاء سماع نشيد الانتصار هذا. حين كنّا متوجّهين بالحافلة إلى جزيرة مجنون، أدرت مسجّل الصوت خاصّتي ورحت أستمع إليه. وصادف بعدها، أن أصابت شظيّة مسجّل الصوت فتعطّل كليًّا. كان الصوت ينتشر في أرجاء الحافلة: «هذا النصر... مبارك هذا النصر خجسته باد اين بيروزى»، فيتساءل الإخوة ممازحين: «أيّ نصر يا أخي؟!»، فأجيبهم: «ذلك النصر الذي ينتظرنا!».

تتناغـم وتنسـاب مع طلوع الشمس التي راحت تصعـد في السماء لترى بوضـوح مشهد نصرنا؛ آليّات العدوّ المحروقـة وتلك الآخذة في الاحتراق مـن ناحية، ومجاهـدو الإسلام مـن ناحية أخرى وهـم يقومون بتطهير المنطقة. في ذلك الصباح، شاهدت أجمل مشاهد سنوات الحرب.

▫

ضجّـت المنطقـة من جديـد بأصـداء القصـف الشديـد للطائرات العراقيّة. وعلى الرغم من استمرار المواجهات العنيفة في بعض المناطق، إلّا أنّ منطقة مهمّتنا كانت عرضة فقط للغارات الجويّة. في البدء، جاءت طائرات التوبولوف وقصفـت المنطقة ثمّ ابتعدت. ويبدو أنّهم أدركوا أنّ القصـف في هذه المنطقة المليئة بالمستنقعـات، لن يجدي نفعًا. فسقطت فيهـا أغلب الصواريخ ولم تنفجر. عندما خرجتُ من المقرّ رأيت الأرض حوله أشبه بالمزرعة. لقد سقط خلال ساعة واحدة قرابة الألفي صاروخ في المستنقعات حول المقرّ ولم تنفجر. شابهت قواعد الصواريخ المغروسة بالأرض الألعاب الناريّة، بجوانبها البيضاء اللون، فبدت المنطقة من بعيد وكأنّهـا أرض مزروعة. فهم العراقيّون أيضًـا أنّهم لن يحقّقوا أيّ نتيجة بهـذا الأسلوب، لـذا، أرسلوا هذه المرّة إلينا بطائـرات أخرى، سمّيناها «تختـه تاباق» [التابوت الضخم]. كانت بطيئة الحركة، لكنّ هديرها كان عجيبًـا، وصواريخها صغيرة إلّا أنّها تصيـب الهدف بدقّة، ومهما رمينا عليهـا لم يكن ذلك ليؤثّر على عملها. بعد أن أفرغت الطائرات حمولتها مـن الصواريخ على المنطقـة، عادت أدراجها لتتجهّـز بالذخيرة وتحلّق مجدّدًا للإغـارة. تسبّبت لنا غاراتهم الجوّيّـة بخسائر كبيرة. وفي تلك الأثنـاء، ناداني أحدهم: «سيّد! أحدهم يبحث عنك».

- كم الساعة الآن؟

- التاسعة والنصف!

قفـزت من مكاني! ركضت مسرعًا نحو جـادّة المقرّ، وقلت في نفسي: «لقـد مضى نصف ساعة على موعدي مع أمـير، قد يظنّ الآن أنّ خطبًا مـا حدث لي». وفيما كنت أركض رأيته. في تلـك المعمعة اكتملت فرحتي برؤيـة أعـزّ صديق على قلبي. لم يكن قد عرفنـي بعد. انتظرت ليقترب منّـي أكثر. وحين صار على بعد أقدام منّي، عرفني. ارتمينا في أحضان بعضنا. راح يقبّلني ويسأل: «أأنت نور الدين حقًا؟»، فبقائي سالمًا في قلب تلـك النيران التي رآها بالأمس من بعيد، جسّد بالنسبة له أمرًا عظيمًا. وأمير الذي يتمتّع بذكاء حادّ، كان يسأل دومًا عن موقعيّة المنطقة: «أين المقـرّ؟»، دللته عليه. تعجّب وقال: «سيّـد! بثمانية عناصر تقدّمتم الليلة الماضية إلى هناك؟!».

- لا يا عمّ! لا يمكن ذلك بثمانية عناصر! لقد أتى عناصر من السرايا الأخرى.

– وأين كان العراقيّون؟ هل بدأوا بالمواجهة؟

– لا، لم تكن قوّاتهم قد باشرت العمل بعد!

قلت ذلك عالمًـا أنّه لو وصلتنا قوّات دعم، لكنّا تساوينا مع العراقيين مـن حيث العدد حين وصول قوّات الدعـم إليهم. أراد أمير أن يستوضح عـن كلّ شيء، وأخبرته بدوري كلّ مـا أعلم. أريته منطقة فرقة النجف، الفرقـة الوحيدة التي أعرف منطقة مسؤوليتهـا، ولم أعلم أيّ شيء عن الفـرق الأخـرى. لفتت نظر أمـير الآليّات التي لا تـزال تحترق. أخبرته بقصّــة الثنائيّ، وما فعلناه به الليلة الماضية. كما أخبرني هو بما شاهده في الساعات نفسها من بعيد. قال: «حين بدأت المواجهات، كانت مدفعيّات الطرفـين تعمل بشدّة. كمـا إنّ صواريخ الكاتيوشيـا لم تهدأ للحظة. في تلـك الأثناء لم تؤمّلني سـوى كلماتك حيث قلت إنّك ستنتظرني في تمام التاسعـة صباحًـا. وفي كلّ لحظة كنت أقول في نفسـي، من ذا الذي بقي

سالمًـا إلى الآن تحت تلـك النيران؟ ومن ذا الذي وصـل؟ لم أكن حينها أعلـم إن خرجتم من المـاء أم لا. فيما بعد حين سمعنا عبر الجهاز أنّكم صعـدتم فوق السـدّ، شعرنا وكأنّنـا ملكنا الدنيا. فرحـت كثيرًا وقلت لا ضير إن استشهد السيّد إذا ما اختُرق خطّ الدفاع الأوّل للعدوّ!».

أراد أمـير أن نقـوم معًا بجولـة في المقرّ. ذهبنـا، وأوّل ما وقع نظرنا علـى منظار ليليّ، كما لفـت نظرنا جهاز لاسلكي صغـير فأخذناه. كان مـدى الجهـاز يصـل إلى 24 كلـم، ويفوق مـدى الأجهـزة الكبيرة. ولم يحضـر أحـد بعد لاغتنام وسائل المقرّ. بعـد أن جلنا لدقائق في دشمته، ذهبنـا إلى المنطقة التي أقبل طابور الآليّـات بالأمس منها. كان بعضها ما زال يحـترق؛ سيّارتا الجيب الخاصّتان بالقيـادة، تتقدّمان الطابور، ثـمّ شاحنة الذخائر، التي تسبّـب انفجارها بخسائر كبـيرة في الآليّات التـي تلتها. وفي آخر الطابور شاحنات أخرى محمّلة بالذخائر، انحرفت عـن الطريق وسقطـت في منحدر على انخفاض متريـن تقريبًا، وانقلب بعضهـا رأسًا على عقب، لكـنّ الذخائر بقيت سالمـة، فاستخدمناها في المراحـل التالية من العمليـة. لم يبقَ منهم عنصر حـيّ وسقط قتلاهم هنـاك. بعـد هذه الجولة في تلـك الناحية، جاء دور أمـير ليطلعني على بعض الأمور. فقال: «لقد رأيت مشهدًا في الخلف، هيّا بنا لأُرِيكَه». عدنا، وطـوال مسيرنا طالعتني مشاهد مؤلمـة لم أكن قد رأيتها في عتمة الليل؛ الإخوة الجرحـى الذين أُصيبوا الليلة الماضيـة نتيجة القصف الشديد، ولم تتوافـر حتى تلك اللحظة، أي العاشـرة صباحًا، إمكانيّة نقلهم. وما إن اقتربنـا من الهـور حتّى لفتت نظري جثّة عائمة على وجه الماء. كانت جثّة شهيد تتحرك مع تموّج الماء.

– جسد من هذا يا أمير؟

قلب جواب أمير أحوالي: «همّـت. همّت آقايي الذي اعتاد أن يصلّب

علـى صدره كما يفعل المسيحيّون، وقـد أُصيب في المكان نفسه الذي كان يصلّب عليه، أي وسط صدره تمامًا». قال أمير: «عندما كنت آتيًا، رأيت جثّـة حملها المـاء إلى الضفّة، وتعرّفـت إليها. كانت جثّـة همّت، وعيناه ما تـزالان مفتوحتين، فأغلقتهما». في لحظة واحـدة، مرّ أمامي شريط ذكرياتي معه... سقط شهداء آخرون فوق السدّ أيضًا، وكان أحدهم قد غُطّي ببطّانيّة. سألت عن اسمه فقالوا: «محمّد زاهدي».

- أيّ محمّد زاهدي منهم؟

لم يكونوا يعلمون بـأنّ هناك شخصين باسم «محّمد زاهدي». رفعت البطّانيّـة عن وجـه الشهيد فعرفته. إنّـه نفسه ابن أحـد علماء الدين. حالتـه لافتة؛ كان ممدّدًا بهدوء كمن يضع رجلًا فوق أخرى أثناء النوم. غطّيـت وجهه مجـدّدًا ونهضت. رأيت بين الجرحـى «عباسقلي أحمدي زاد» أيضًـا، وقد أُصيب برجليه، وكانت أجساد عدد من الشهداء طافية علـى وجه الماء. تفطّر قلبي لرؤيتهـم. انشغل بعض الإخوة بجمع أجساد الشهداء ونقل الجرحى، فلم أقدر على المكوث هناك طويلًا.

توجّهـت وأمير نحو دشم خطّ الدفـاع الأوّل للعدوّ، وقصدنا مباشرة الصناديـق التي نُقلـت للتوّ إلى جانـب الساتر. فتحنا الصنـدوق الأوّل فوجدنا فيه مدافع شيلكا ملفوفة بأكياس النايلون. ووجدنا في الصندوق الآخر قطعًا أخرى للشيلكا. من الواضح أنّ العراقيّين توقّعوا قرب حدوث عملية لذا أحضروا إلى المنطقة عدّة قطع من الشيلكا والدوشكا والثنائي لزيادة عتادهم، لكن الوقت فاتهـم لإخراجها من الصناديق وتركيبها. نادينا: «كلّ من يعرف كيفيّة تركيبها، فليأتِ وليقم بذلك».

طـوال تلك الفترة، كانـت قوّاتنـا تتوافد إلى المنطقـة من الخطوط الخلفيـة، إلّا أنّ الجسر لم يكن قد نُصب بعد، وتعذّر الاستمرار بالعملية نهـارًا، لذا، بقينا عاطلين من العمل تقريبًـا، بعكس الطائرات العراقيّة

الصغيرة الشغّالة تمامًا، ومهما أطلق الإخوة نيرانهم نحوها، لم يحققوا نتيجة تُذكر، ولم يصيبوها في النقاط الحسّاسة لتسقط. في تلك الأثناء، لفت نظري «محمّد تجلّايي» الذي تقدّم نحونا وقد وضع صاروخ سهند[1] على أكتاف ثلاثة من الأسرى العِراقيّين يبدو أنّه عثر عليهم خلف المقرّ. وصادف أن آتت خطّة محمّد أُكلها؛ فقد استهدف الصاروخ إحدى طائرات التوبولوف التي ظهرت في سماء المنطقة، ومع أنّه لم يصب الطائرة، إلّا أنّه جعل التوبولوف تبتعد عن سماء المنطقة لساعات.

كانت «تخته تاباق» لا تزال منهمكة بالقيام بعملها بكلّ راحة. فبنيت وأمير دشمة لأحد الرشاشات العراقية، وما عدا الستين طلقة، فقد خلّف العراقيّون وراءهم عدّة صناديق كبيرة من الرصاص. استخدمنا الرصاص الخطّاط أيضًا لنعلم المدى الذي تصل إليه طلقاتنا، وكنّا نقصد استهداف الطائرات. عكفت على المراقبة بالمنظار فيما راح أمير يطلق النيران. أقبلت هناك حوالي ثماني طائرات وجالت في سماء المنطقة، وكلّما اقتربت واحدة منّا أطلقنا عليها النار. بين زخّات الرصاص أصيح: «أمير... اضرب!...»، فيضع أمير الطائرة في دائرة محدّدة، ليحاصرها بالنيران ويصيبها بالحدّ الأدنى بعدة رصاصات. نالتها أحيانًا طلقة واحدة من بين ذلك الكمّ الهائل من الرصاص، من دون تأثير يذكر... إلى أن توجّهت إحدى الطائرات نحونا، فتمتمت قائلًا: «إلهي! ساعدنا لنسقط هذه الطائرة بالحدّ الأدنى». أخيرًا، وبعد إطلاق نار كثيف عليها، انبعث الدخان منها، فابتعدت عن المنطقة على تلك الحال. بعد هذه الحادثة، ارتحنا لمدّة معتبرة من تحليق الطائرات في أجواء المنطقة.

---

1. صواريخ «سهند» سلاح خفيف كالبازوكا، يمكن إطلاقها عن الكتف نحو الهدف. ولهذه الصواريخ في مؤخرتها حبل طويل يستخدم لتوجيه الصاروخ نحو الهدف. وبالطبع، كانت تلك الصواريخ حسّاسة للصوت، فعلى سبيل المثال، إن أطلقت الصاروخ نحو طائرة ما، وكانت آلية تمرّ في المكان، فإنّ هذا الصاروخ سيغيّر مساره ويتجّه نحو الآليّة.

كانت الساعة قرابة الحادية عشرة صباحًا، عندما دخل عناصر التجهيزات إلينا. كلّ من وصل يسأل عن الموقع. تراءى شكلي غريبًا للناظر؛ ففي الليلة السابقة، وبينما كنت أعبر من فوق الأسلاك الشائكة، تمزّقت ثيابي وتلطّخت بالدم. أما حذائي فما عاد يوصف، وفوق تمزّقه تمرّغ ليلًا بالوحل والتراب ولم يعد صالحًا للاستعمال. لذا بدّلت ملابسي ببنطال وقميص خاصّين بالقوّات العراقيّة، وخلعت نعليّ وسرت حافي القدمين. صارت هيئتي أشبه بالأسير العراقي! كنت وأمير نجيب عن أسئلة الإخوة الوافدين ونحن نحمل جهاز اللاسلكي والمنظار الليلي، والرشّاشات. كلّ من يصل إلينا يسأل: «كيف هو حال الموقع؟ أين الإخوة؟ وكيف هي الأوضاع؟..».

كنّا نعلم بأنّ شباب الاقتحام تقدّموا مسافة 1500 متر تقريبًا، من خطّ الدفاع الأوّل إلى نهر دجلة حيث ثبّتوا خطّ دفاعهم هناك تقريبًا، وتلك هي المرحلة الأولى من العملية. ومع أنّ بعض الجنود العراقيّين المنتشرين في المنطقة كانوا يطلقون النار أحيانًا، إلّا أنّ معظمهم انسحب إلى ما وراء الساتر الترابيّ الكبير عند نهر دجلة. وقد اكتسب ذلك الساتر أهمّيّة كبرى بالنسبة إلينا، فهو فعلًا في ذلك الوضع شكّلَ الحاجب الأكبر لنا عن أعين العدوّ. وقد تمركزت خلفه قوّاته ولربّما استعدّت للهجوم. امتدّ الساتر الترابي إلى منطقة الدبّابات؛ حيث المعركة، وأوسع تجمّع للقوات. وكان الاشتباك في تلك المنطقة حيث محور فرقة النجف، بين العدو وعدد من عناصر كتيبة الإمام الحسين عليه السلام، فسقط من عموم الكتيبة ما يقارب الـ150 عنصرًا ما بين شهيد وجريح، من بينهم «داوود نظافت»، وقد رأيت فيما بعد صورته شهيدًا مظلومًا. أمّا من بقي من عناصر الكتيبة، فقد تقدّم بعضهم إلى الأمام، وعمل بعضهم الآخر على إسعاف الجرحى، فيما شرعت طائفة ثالثة أمثالنا بتطهير المنطقة وإرشاد الإخوة الواردين إليها للتوّ. فرحت كثيرًا عندما

رأيت السفن الكبيرة تعمل على نقل الجرّافات من الخطوط الخلفيّة إلى المنطقة؛ ما دلّ على تهيئة المقدّمات لنصب جسر شغل أحاديث الجميع، فالمتوقـع أن يُمدّ فوق الهور ويصل ما بين الجزيـرة والخطّ الأوّل للعدوّ. قلت لأمير: «هيّا بنا نذهب ونشاهد»[1].

كان بإمكاننـا وضـع دفاعات إلى جانب الجسـر، فنسهّل بذلك أكثر عمليـة انتقال القـوّات والتجهيزات. مضينا قرابـة الظهر باتّجاه دجلة. طـوال هذه المـدة، لم أرَ الأخ مهدي باكري، وكنت أعلـم فقط بأنّه تقدّم هـو والأخ علي تجلّايي وعدد من القادة الكبـار، وأنّهم يرتّبون مقدّمات المرحلة الثانية من العملية. عندما وصلنا إلى دجلة قيل لنا: «ابنوا دشمة هنا وابقوا فيها. سنتقدّم ليلًا بهدف استكمال العملية».

لقد تقـرّر الذهاب ليلًا لاصطياد الدبّابـات الجاهزة للبدء بالعملية عند أوّل فرصة، لذا، تقرّر أن يتقدّم الإخوة ليلًا لتدميرها.

◘

وضعـتُ وأمير رشّاشاتنـا في الدشمـة، وتمدّدنا داخلهـا. لقد مرّت أكـثر مـن 24 ساعة لم أذق فيها طعـم النوم. تعبتُ بالفعـل، وتمنّيت لو أستطيـع أخذ قسط من الراحة. لكن، كأنّ مدفعيّـة العدوّ علمت بنيّتي، فـراح قصفها يشتّـد كلّ لحظة على المكان بمعدّل أكثر من مئة قذيفة في الدقيقـة الواحدة! كان من الواضح أنّ العدوّ أدرك مرادنا، وعلم بتجمّع القـوّات إلى جانـب الجادّة وعلـى ضفّة نهر دجلـة. ولأنّ المنطقة ترابيّة ونظرًا لموقعيّة الدشم، فقد لحقت بنا بعض الخسائر جرّاء هذا القصف، لـذا قرّرنا تغيير هذه المواقع. أضـف إلى ذلك فقد قالوا إنّه من المحتمل أن يهاجمنـا العراقيـون بالـزوارق من ناحية دجلة، لذا مـن الأفضل أن

---

1. بنـي الجسـر من قطع جسور خيبر التي وُصلت فيما بينها. رأينا فيما بعد أنّ هذه القطع قد صُمّمت ونُصبت بحيث إذا ما تعرّض جزء منها للقصف وتضرّر، يمكن ترميمه أو تبديله سريعًا.

تنتقلـوا إلى الساتر الترابي الذي أنشئ إلى جانب نهر دجلة وتتموضعوا هناك[1] . أعرضنا عن فكرة الاستراحة وتركنا الدشمة. وبينما كنّا نسير على شكل طابور نحو الساتر الترابي، تذكّرت أنّني تركت المنظار وجهاز اللاسلكي اللذين غنمناهما من المقرّ داخل الدشمة. خرجت مسرعًا من الطابور، فسألني الإخوة: «سيّد! إلى أين أنت ذاهب؟».

– نسيت شيئًا داخل الدشمة، سأعود حالًا.

عندمـا خرجـت مـن الطابور، أسـرع مـن كان خلفي مـن العناصر ليأخـذوا مـكاني ولا ينقطـع الطابور. مـا إن ابتعدت قليـلًا عنهم حتّى تسمّـرت في أرضي لسماعي دويّ انفجـار قذيفتي 120 ملم. لقد سقطت هاتـان القذيفتـان تمامًا في مـكاني في الطابور، فتقطّعـت أشلاء ثلاثة من الإخوة بنحـو مرعب؛ ويبدو أنّ جسد أحد الشهداء شُقّ من الوسط. حزنـت جدًا عندما رأيت مظلوميتهم وشهادتهم بهذه الطريقة المفجعة. وكأنّـه قُـدّر لي أن لا أُصاب بـأيّ شظيّة أو جرح في عمليـة بدر! على كلّ حـال، وعلى الرغم من ذلك المشهد المؤلم، تابع الإخوة طريقهم من دون توقّـف. كانت المدفعيّة والقاذفات تعمـل بشدّة، فسقط إلى حين وصولنا إلى الساتـر الترابـي ثمانيـة أو تسعة شهـداء. حين وصلنـا إلى الساتر الترابـي، تحسّن الوضع قليـلًا ، لأنّهم على ما يبدو، لم يستطيعوا تحديد زاويـة المكان هنـاك. وطوال تلك المـدّة، كانت الدبّابـات التي تُركت في المنطقة تقينا بشدّة من نيران مدفعيّاتهم.

– بالنهاية سيكون لنا الليلة حساب معهم.

عندمـا انتشرنـا وراء الساتر الترابي، عاد النـداء من جديد: «ابنوا دشمًا لأنفسكم!»، وتسمر الحرّاس فوق الساتر الترابي يراقبون المنطقة، حتّـى إذا ما تحرّك الجنود العراقيّون أخبرونا بذلك. انشغلنا كما سائر الإخوة بالبناء؛ فأسرعنا نملأ الأكياس بالرمال، ونصفّها حولنا. عملت

1ـ وهو الساتر الترابي نفسه الذي بُني بأمر قائد فرقتنا الشجاع الأخ مهدي باكري.

وأمير بإتقان، وبنينا دشمة تتّسع لشخصين. أعددنا بجذوع الشجر مكانًا أسفل الساتر الترابي، بحيث إذا ما انهار ظلت جدران الدشمة قويّة كفاية وبقينا آمنين. علمت أنّه كلما صغرت الدشمة، أصبحت محكمة أكثر. عندما فرغنا من العمل وجدنا صندوقًا لحفظ المثلّجات وضعناه داخلها. ثم ذهبت وأمير إلى المقرّ وأحضرنا فانوسًا وبعض اللوازم القديمة. من حيث الطعام والتجهيزات، كان كلّ شيء مؤمّنًا وانشغل شباب التجهيزات بتوزيع العصائر ومعلّبات الفاكهة والتونة، والخبز، وأحضروا لنا أيضًا المرطّبات بعد الظهر. والآن أصبح من الممكن لنا أن نضع رجلًا فوق أخرى ونستريح قليلًا. بدأت جولة ثانية من إطلاق نار متبادل وراح يشتدّ. كنّا نتناول العصائر وننظر أمامنا من فوق الساتر الترابي، لنرى هل ينوي العراقيّون الهجوم أم لا. بقينا لساعات عاطلين من العمل في تلك الليلة العجيبة ولم نعلم شيئًا عمّا جرى!

تمدّدت قليلًا لكن لم أستطع النوم. توقّعت أن يكون لقيلولة صغيرة أثرٌ سحريٌّ يمدّنا في تلك الدقائق براحة الدنيا، ولم يحدث ذلك.

3

عصرًا، تمّ إعطاء التوجيهات المتعلّقة بمنطقة العملية؛ الموقع الذي توجد فيها الدبّابات، والمهمّة التي سيقوم بها الإخوة ليلًا. جاؤوا إليّ أيضًا وقالوا: «سيّد! أنت أيضًا ستذهب معنا!».

- لا، أنا تعب، أريد الليلة أن أنام، غدًا آتي معكم!

كان من المفترض أن تذهب من كتيبة الإمام الحسين عليه السلام سريّة مصطفى بيش قدم لصيد الدبّابات. كنت منهكًا وأردت أن أنام تلك الليلة لعلّ جسدي يرتاح قليلًا، لكنّ مصطفى بيش قدم قال لي: «لا! تعالَ الليلة، وغدًا تستريح!».

- عندما يأتي الغد تقول أيضًا، تعالَ الآن وغدًا تستريح، لو تعفيني...

بالنهاية، غلب إصرارهم رفضي. والحقيقة أنّ معظم الإخوة أصابهم النعاس مثلي، واحمرّت عيونهم من شدّة الإرهاق وعدم النوم، وجاهدنا كي نبقيها مفتوحة.

عند الغروب، جهّزنا أغراضنا؛ فحملت رشاشًا، كلاشنكوف، وحقيبة ظهر مملوءة بالرصاص. وحمل أمير معه قاذف (B7)، مع أربع قذائف إضافيّة. طوال تلك الفترة، وإضافة إلى تعبي الجسدي، كنت أفكّر كيف سنقف بهذا العتاد القليل أمام مئتي دبّابة، لم ندمّر طوال النهار سوى القليل منها؟!

◘

عند حوالي الواحدة بعد منتصف الليل، صدرت الأوامر بالتحرّك فانطلقنا. شرعت الدبّابات تقصف المنطقة بشدّة، فتهتزّ من دويّ الانفجارات. وقد أضاءت مصابيحها المكان وبدّلت ليلها إلى نهار. تحوّلت المسألة إلى شيء من السخرية، وراح الإخوة يسألون ممازحين: «إلى أين أنتم ذاهبون يا شباب؟!

- ليس إلى مكان! هناك دبّابات تزعجنا، ونحن ذاهبون لتصفية حسابنا معها!

تقدّمنا إلى أن وصلنا إلى مكان يشبه القناة. ومن هناك استلزم الأمر عبور القناة والساتر الترابي القريب منها، لنصل بعدها إلى أرض سهلة مواجهة للدبّابات. كنّا قرابة الخمسين عنصرًا، وبحوزتنا سبع أو ثماني قاذفات (B7)، وكان يجب على الباقين التقدّم بالقنابل إلى مقربة من الدبّابات.

- استعدّوا جميعًا! ثبّتوا أقدامكم في الأرض بقوّة. سأطلق زخّة من

الرصاص، نتقدّم بعدها جميعًا وبسرعة نحو العدوّ!

قال مصطفى بيش قدم هذه الكلمات. ضحكت لا شعوريًّا. وكأنّنا لسنا في حرب حقيقيّة قاسية، إنمّا أمام لعبة صبيانيّة. وربّما صغر «الموت» في أعيننا بحيث لم نعد نخشى اقتحامه.

تسمّرت أعيننا على سلاح قائدنا، وتجهّزنا. ما إن أطلق زخّة حتى قفزنا من أماكننا. ركضنا من القناة... ومع أصداء التكبيرات، انتشر الإخوة على امتداد السهل، وراحوا يركضون باتّجاه الدبّابات؛ وكان علينا الاقتراب منها إلى أن نطمئنّ بأنّ قذيفة الـ(B7) ستصيبها. أحاطت بنا أنوار كشّافات العدو، وبدأوا يطلقون الرصاص الخطّاط علينا من كلّ ناحية. في منتصف ذلك الليل الملتهب، تلاشى الخوف والعتمة قبل أيّ شيء! المسافة بيننا وبين الدبّابات تقلّ عن الألف متر، وهي مسافة لا تُقطع ركضًا؛ مع حقيبة الظهر المملوءة بالذخيرة، وبأقدامنا المتعبة. الأرض كأنّها حُرثت بالجرّار الزراعي، والدبّابات كأنّها ستظل حاضرة لاستقبالنا لنشرع بتدميرها! في تلك الأوضاع لم يفكّر أحد بنفسه، بل انصبّ كلّ تفكيرنا بأنّنا الآن إذا ما دخلنا في قلب النيران، فإنّنا سننجز مهمّتنا، حتمًا! إضافة إلى سريّة مصطفى بيش قدم، كان هناك علي تجلّايي، وقائد كتيبتنا أصغر قصّاب، وعدد قليل من عناصر السرايا الآخرين. وكلّ منّا يسعى بكلّ ما أمكنه من طاقة وسرعة لأن يقطع هذه المسافة المجهدة، والوصول إلى الدبّابات. كانت حقيبة ظهري ملأى بالرصاص، وكلّ همّي محصورًا في العبور من هذه الأرض الصعبة بسرعة. فجأة علقت رجلي في مدرة فتعثّرت. لم أستطع السيطرة على نفسي مع تلك السرعة التي كنت أعدو بها ووقعت أرضًا. ويا له من سقوط! طار الكلاشنكوف في ناحية وأنا في ناحية أخرى. تكرّر وقوعي مرّتين أخريين. هذه المشاكل من جهة، وصوت أمير الذي يناديني باستمرار من جهة أخرى! كان يتقدّم حاملًا الـ(B7) مع أربع قذائف

إضافيــة، فثقــل عليه أن يجارينــا في العدْو، وهو الفتــى الغضّ ذو البنية الجسديّــة العاديّة والذي لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر. كنت كلّما ابتعدت عنــه أسمع صوته ينـاديني: «سيّد! تروًّا! تــروَّ ريثما آتي!»، آنسني سماع صوته المحبوب، وحاولت التمهّل قليلًا حتّى يصل إليّ، لكنّه بحالته هــذه، صعّــب عليّ الأمــور. إلى أن علت صرختي: «أخــي! أنت هنا تتودّد إلي! من الآن سنفترق! اذهب باتّجاه دبّابة أخرى... أنا ذاهب...»[1].

ناديت يا علــيّ ونهضت من جانب أمير. عندما سمعت أصوات تكبير الإخــوة علمــت أنّهم وصلوا إلى الدبّابات. وأثناء هــذه الجلبة، لم ألتفت إلى أنّ دبّابتــين تصوّبان عليّ، فما إن قمــت من مكاني حتّى سلّطتا عليّ كشّافـات النــور! كان مشهدًا عجيبًــا؛ فهدير الدبّابــات المرعب، وحمم مدافعها التي استمرّت تنهمر علينا من كلّ صوب، والآن، هاتان الدبّابتان اللتان جعلتاني هدفًا مشتركًا لهما. لم أكن أرى سوى الرصاص الخطّاط ينهمر عليّ من كلّ ناحية ويمرّ من جانبي[2]. كانت كمّيّة الرصاص كبيرة جـدًا، بحيث كنت مع كلّ خفقة قلب أقول: «لن أبقى سالمًا!». مع كلّ هذا، ومــن دون أيّ تأخير، زدت مــن سرعتي بقدر ما استطعت ورحت أجري. ابتعدت قرابة الـ 60 مترًا عن أمير، فأجبرني صراخه ونداؤه لي بـ«أخي» على التوقّف. كان ينـاديني باستمــرار: «سيّد... سيّد... بالله عليك...»، وقفت: «يا عمّ! لا تنادِني كثيرًا!».

– سيّد! هل أُصبت؟!

– لا! لم أُصب!

– لا أصدّق!

1 ـ دائمًــا مــا كنت في الاشتبــاكات أتجنّب أن أكون إلــى جانب عزيز لأنّه سيشغــل تفكيري دومًا، ولن أستطيع التركيز. فلم أكن أرضى حتّى بكون أخي صادق رحمه الله إلى جانبي.

2 ـ عــادة ما كانت تُرمى رصاصة خطّاطة واحدة من بين كلّ خمس رصاصات، ومن خلالها كان يمكن تقدير عدد الرصاصات التي أُطلقت نحونا.

حينما وصل إليّ، راح يحملق بي مذهولًا: «من كلّ تلك الرصاصات، لم تصبك أيّ واحدة؟! أنت لا تعلم أيّ مشهد كان، لقد دخلت في أتون النار...»[1].

قلت: «رأيت؟ إنّ خطبًا لم يصبني؟! والآن هل ستفارقني أم لا؟ اذهب ودعني أتابع عملي...».

أصرّ أمير على ذهابنا معًا نحو الدبّابات. اشتدّت المواجهات، وكان أوّل من رمى دبّابة هو «بابا». سمعت صراخ الإخوة: «هذه هي، اضربها...».

- يا رامي الـ(B7)! اضرب تلك!

بشجاعة قلّ نظيرها، أحرق «بابا» الدبّابة الأولى. لكن حين أراد التوجّه إلى دبّابة أخرى ورميها بقنبلة، أُصيب بقذيفة من دبّابة أخرى فسقط شهيدًا[2]. حقًّا ما انفكّ الإخوة يقاتلون بعشق ويستشهدون حاملين معهم مظلوميتهم. الجميع انبرى للقتال، وقد نفعتني رصاصات الرشّاش هناك. ظلّت الدبّابات تناور في منطقة العملية، وأضيف هديرها الكبير والغبار الذي تثيره، إلى أزيز الرصاص ودويّ القذائف المدفعيّة التي تنهمر علينا من كلّ صوب. انتشر الإخوة في السهل، وانقطع التواصل فيما بيننا تقريبًا. كان يلفت انتباهي أحيانًا تدمير دبّابة أو سقوط شهيد. وقد دُمّر إلى تلك اللحظة ما يقرب من 20 دبّابة، في واقعة مثيرة للعجب، حيث بتنا تحت نظر الدبّابات قبل أن نصل إليها بكيلومتر تقريبًا... لم أرَ في تلك المعركة شخصًا ضعف بسبب شدّة النيران، واستطعنا ببسالة الإخوة إرباكهم، وحققنا هدفنا بتدمير جزء من دبّاباتهم، وجاء القرار

---

1. كان أمير يتكلّم باستمرار عن ذلك المشهد ويقول: «عندما نهضت أنت، رأتك الدبّابات». كان يقسم ويقول: «لقد كنت تحترق بالرصاص والنيران!». كان مذهولًا كيف خرجت من تلك المعركة سالمًا.

2. بقي جسد الشهيد علي أكبر مرتضوي هناك. بعد سنوات من انتهاء الحرب جاءت عائلته إليّ، كانوا يظنّون أنّه أُسر، بينما كنت متيقّنًا بأنّه فارق الحياة على ضفاف نهر دجلة، وأكّدت لهم ذلك.

أن ندمّـر أكبر عـدد ممكن منها[1]. قرابـة الفجر بـدأوا هجومًا مضادًّا برتـل الدبّابـات. كنّا قد هاجمنا ليـلًا تجمعها من القلـب، وقد انفصل الآن بعضهـا بهـدف التقدّم نحو خطّ دفـاع كتيبتنا الذي هـو في الواقع خـطّ فرقة النجـف. وهدفت مجموعة أخـرى إلى الانقضاض علينا من الخلف. وحيث رأينا تحرّكاتهم بوضوح، فقد علمنا مرادهم. سقط عدد مـن الإخـوة شهداء وجرحـى، ولم يتمكّن أحد في مثل تلـك الظروف أن يسعف الجرحى فبقـوا في أرضهم. كما تقدّم بعض الإخوة كثيرًا فوقعوا أسـرى بأيـدي الجنود العراقيّين. لم نكن نعلم بعـدُ بأنّ «مصطفى بيش قـدم» وعددًا آخـر من الإخوة قد رجعـوا فور تدمير عدد مـن الدبّابات إلى الساتـر الترابـي الذي انطلقنا منـه. انتشر الإخـوة في المنطقة من دون إمكانية تواصـل بيننا. كنت أنا واثنا عشر عنصرًا تقريبًا جنبًا إلى جنـب في تلـك الأوضاع، وأذكر منهـم جيّدًا «علي أكـبر بافنده» و«أمير مارالباشـ». اجتمعنـا في مـكان بعمق متر تقريبًـا، شبيه بقنـاة الريّ، وأرضه شبيهة بساقية جافّة ومتشقّقة، وبحوزتنا ثلاثة قواذف (B7) مع قذيفة لكلّ واحد منها، ورشاش، وعدة قطع كلاشنكوف.

في تلـك اللحظات الحسّاسة التفتنا إلى تحرّك قوّات المشاة العراقيّة قلت للإخـوة: «شباب! إن كنتم تريدون المواجهـة فلنبدأ على اسم الله، لكـن إن توجّهنا نحو الدبّابات فلن نستطيـع أن نفعل شيئًا. وإضافة إلى ذلك، سندمّر ثلاث أو أربع دبّابات ومن ثمّ يرموننا. أمّا إن أردتم العودة إلى ساترنـا الترابي فهذا هو الوقت المناسـب». توجّب علينا الإسراع في

1 ـ لأنّ الدبّابات كانت على جسر يربط ضفّتي دجلة ببعضها البعض. كان طريق عام البصرة ـ العمارة لا يـزال بأيدي العراقيين، وكانت وحدة المدفعيّة تتّصل عبر هذا الجسر بالطريق العام وبالعراقيين. وعـدا عن هذا الجسـر كان هناك جسر آخر على نهر دجلة، بحيث إذا مـا دُمّر هذان الجسران، فإنّ العـدوّ سيُحاصَـر من جهة البصرة والعمارة. وإذا ما قُطعت الطريق ستنتفي إمكانيّة نفوذ القوّات من ذلـك الجانـب بالكامل. لأنّ أحـد جانبي الطريق كان أرضـ مستنقعات لا يمكن النفـوذ من خلالها، والجانب الآخر كان بيد شبابنا. كما سقط مدرج الطائرات المروحيّة الذي كان في المنطقة، فانتهى أمر العراقيّين تمامًا في تلك المنطقة. كان العراقيّون يعلمون هذا، لذا، كانوا يقاتلون بشراسة.

اتّخـاذ القرار. أوّل مـن تكلّم أمير فقال: «لا! عودوا أنتـم، أمّا أنا فأريد التوجّه نحو الدبّابات!».

– أمـير! لا مكان هنا للقول أنا سأبقى واذهبوا أنتم! البقاء هنا يعني إمـا أن نقـع في الأسر بعد نصـف ساعة، وإما أن نقاتـل ونستشهد! لكن يمكننا من الآن أن نقوم بعمل يحول دون محاصرتهم لنا!

رأينا قوّات المشـاة العراقيّة تركض مسرعة نحو القناة التي اجتمعنا فيها. وبدا أنّ سبيلنا الوحيد للخروج من ذلك المكان جادّة تقوم الدبّابات بالمنـاورة فيهـا. ولو أنّ رتلها أغلـق تلك الطريق، لتمّـت محاصرتنا من جميـع الجهات. حسنًا، لا بدّ أن نخرج مـن القناة، ونعبر الجادّة لنسير من ثمّ في الجانب الآخر منها في قناةٍ دخَلَ العدو منها إلى المعركة! صرنا أينمـا توجّهنا رأينا الدبّابات وقوّات العـدوّ. صاح بعض الإخوة: «يا عمّ! كيف سنتمكّن من عبور هذه الجادّة؟».

– إن استهدفنا دبّابتين، فإنّ الدبّابات الأخرى لن تتقدّم. سيحاولون التصويـب علينا مـن بعيد، ثم يرسلون قـوّات المشاة إلينـا. ألا نستطيع مواجهة قوّات المشاة ودحرهم؟!

استمـدّ الإخوة المعنويّات من كلامي. لم يكـن من سبيل آخر أمامنا. استعـدّ اثنـان من رماة الـ(B7)، وأطلقـا في وقت واحـد وأصابا دبّابة ودمّراها، فتوقّفت الدبّابات الأخـرى، لتبدأ نيران مدفعيّاتهم بالانهمار علينـا. في تلـك الأثناء، انبرت قـوّات المشـاة العراقيّـة إلى القناة التي كنّـا فيها واتّجهـت نحونا مسرعة. لم يكن أمامنا وقـت. قلت: «سأذهب أنـا أوّلًا. وابـدأوا أنتم بالرمـي، وعندما أصل إلى الناحيـة الأخرى من الجـادّة، أبدأ أنـا بالرمي لتعبروا أنتـم». وخلال لحظة، قمـت مسرعًا وعدوت نحو ثلاثين مترًا في ظلّ رماية الإخوة المتزامنة بعضها مع بعض،

وعبرت الجــادّة، ورحت أرمي من تلك الناحية نحــو جنود العدوّ. صرنا الآن نرميــه من الجانبــين، وفي ظرف دقائق معــدودة عبرنا نحن الاثنا عشــر عنصــرًا الجادّة بســلام. في ظل الظروف المعقّــدة؛ كنّا في مقابل قــوّات مشاة العــدوّ ونسير باتّجاه بعضنا البعض. في تلــك الأثناء شملنا لطــف الله وعنايته، إذ سقطت ثــلاث قذائف مدفعيّــة للجيش العراقي داخل تلك القناة نفسها وسط جنوده! فاضطربوا وتشوّشوا جرّاء انفجار القذائــف وإصابتهــم بخسائــر في الأرواح. اشتبكنــا نحــن أيضًا معهم وأجبرناهــم على الفرار من تلك الناحية. كانت القناة تؤدي إلى ساترنا الترابــي، وليس لنا إلا الجري للوصــول إليه. وتوجد هناك القناة نفسها التي انطلقنا منها الليلة الماضيــة باتّجاه الدبّابات، والوصول إليها يعني ابتعادنــا عن مركز الخطر. وصلنا إلى ساترنا لاهثين، شعثًا غبرًا، فيما كانــت ثيابنا ملطّخة بالدماء ومبلّلة بالعــرق. رأيت هناك أصغر قصّاب يراقبنــا بنظره. كان نــور الصباح يشــقّ وجه الأفق، ولم أكــن قد أدّيت صــلاة الصبح بعد. ومــا إن وصلت إليه حتّى قــال: «سيّد! خذ خمسة أو ستّة عناصر وتقدّموا باتّجاه الدبّابات...».

- يــا عــمّ! لم أؤدِّ صلاتي بعــد! بالمناسبة، عن أيّ تقــدّم تتكلّم؟ لقد وصلــت الدبّابــات إلى خلف الساتــر. وهذا هو الوقــت المناسب لنشتبك معها من هنا، لا أن ترسل عدّة عناصر إليهم...

مضــى أقلّ من ساعة على خروجنــا من حصار الدبّابات، ومن لطف الله وعنايتــه أنّنــي لم أسقط أرضًا حتى تلك اللحظة مــع كلّ تعب الليلة الماضيــة. كانت قوّات المشاة العراقيّة تتقدّم. فضربت بكفّي على التراب وتيمّمت. لم أعرف اتّجاه القبلة، والعدوّ يكاد يصل فيما قصف الدبّابات العشوائــي يشتدّ كلّ لحظــة. أدّيت صلاتي بسرعة بمــا أحمل في حقيبة الظهر؛ لقد كنت مع ربّ لُذتُ بحماه.

في الصباح، بدأ أقوى هجوم للقوّات العراقيّة. وكأنّ كلّ الدبّابات في تلك المنطقة هجمت بكلّ قوّتها لتخترق ذلك الساتر. اشتدّت النيران بحيث ضاع الجميع في الغبار الناجم عن انفجار القذائف، ومدفعيّات العدو تدكّ ساترنا بدقّة وقوّة شديدتين، بمعدل عشرات القذائف في آن معًا! لم يكن بالإمكان رؤية أحد في ذلك الدخان والغبار. وقد تجرأت بعض الدبّابات واقتربت بالكامل من الساتر. الشيء الوحيد الذي لم نكن نفكّر فيه هو التراجع إلى الوراء. استشرس الإخوة بقتالهم. فجأة صاح أحدهم: «لا تسمحوا لتلك الدبابة بالتقدّم، ارموها...».

فقام أحدهم ورماها بقذيفة (B7)، مع احتراق كلّ دبّابة حاولت الاقتراب، كان الرتل الآخر يُصاب بالذعر فيتوقّف عن التقدّم لدقائق. أرادوا إرهاقنا من خلال قصفهم الكثيف بالقذائف المدفعية، لكنّنا كنّا عازمين على الحفاظ على الساتر حتى آخر نفس. علمنا فيما بعد أنّ «الفرقة 27» التي كانت على ميسرة «فرقة النجف» لم تُوفّق بشكل كامل، لذا أصبحت فرقة النجف بنفسها في المقدّمة وفي الجناح الأيسر، تقاتل العدوّ، وقد ركّز كلّ ضغطه على تلك المنطقة. وفي شمال منطقة العملية أيضًا، أخفقت بعض الوحدات في الوصول إلى دجلة، وبقيت في جادّة الخندق. لذا، سعى العدوّ بكلّ طاقته إلى اختراق خطّ دفاع فرقة النجف بالقرب من قرية «همايون»، كي ينتهي أمر معركة بدر بالنسبة لنا من الأيّام الأولى. هكذا، قاتلنا نحن بأسناننا وأظفارنا كي لا نسمح لقوّات العدوّ بالنفوذ من هناك. كانت النيران تنهمر علينا من الأرض والسماء. وفي تلك الأثناء، بتّ أركض على امتداد الساتر وأوصل الذخائر للدشم، فأعطي أحدهم الـ(B7)، وآخر الشرشور و... وصل الأمر إلى درجة أنّه لم يعد الواحد منّا يفكّر بالسير منحني الظهر أو الاحتماء عند سماع صفير قذيفة مدفعيّة وغيرها من القذائف، بمعنى، إذا ما أراد

أحدنا التفكير بهذه الأمور، فعليه أن يختبئ ولا يرفع رأسه أبدًا. استبسل الإخوة في القتال، في كلّ دقيقة يُضرّج ثلاثة أو أربعة منهم بدمائهم. ومع أنّ قوّات الدعم تصلنا من وقت لآخر، وذلك حتّى لا يسقط الساتر، إلّا أنّ الحفاظ على خطّ الدفاع في تلك الأوضاع، كان في كلّ لحظة يزداد صعوبة. بذل العدوّ قصارى جهده لتشديد الضغط على الساتر الذي يبلغ طوله 500 متر، فيما أخذتنا المروءة والحميّة للحفاظ على الخطّ. في تلك الأثناء، اجتمع من بقي من كتيبة الإمام الحسين عليه السلام في مكان واحد، وكانوا للإنصاف، من نخبة قوّات فرقة عاشوراء وأكثرهم تجربة. قرّرنا أن نقفز جميعًا من فوق الساتر ونتّجه مباشرة نحو الدبّابات لعلّنا نجبرها على الفرار. ذلك أنّ سائقيها قد علموا أنّ قذائف الـ(B7) لن تصل إليهم من المسافة التي تفصل بيننا وبينهم. ومن حين لآخر، كانت النيران تشتعل في كلّ دبّابة تتجرّأ وتتقدّم. كان صعبًا في تلك اللحظات التصديق بأنّ قرارنا سيحلّ المشكلة. وفي لحظة واحدة، انطلقنا جميعًا من نقاط الساتر المختلفة وتوجّهنا نحو الدبّابات. كلّ شخص يرمي بالسلاح الذي يحمله، وهنا، وبيد رماة الـ(B7) حلّت مشكلة الدبابات التي اختلّ نظامها والتنسيق فيما بينها. صُمّت أذناي من دويّ الانفجارات. ومن بين هذا الدويّ والغبار والدخان المتصاعد رأيت الدبّابات تنسحب إلى خلف السواتر. ويا له من منظر هو الأحبّ إلى قلبي في ذلك اليوم، واتتنا الفرصة لسحب الجرحى الذين سقطوا بالأمس وبقوا في الميدان، كما سحبنا إلى خلف الساتر ما استطعنا من أجساد الشهداء.

لم يعد الساتر الترابي يتّخذ شكل الساتر، فسقوط مئات قذائف المدفعيّة والدبابات هناك بدّل المكان إلى كومات متداخلة من التراب. ما جعل البقاء في قلب تلك النيران العنيفة، والتي قلّما شهدت مثلها إلى نهاية الحرب حدثًا أشبه بالمعجزة. بعد انسحاب الدبّابات سيطر الهدوء على الخطّ، فمنحنا ذلك فرصةً لأخذ نفس جديد. سررنا بالشمس

ترتفـع في الأفق لعلّها تخفّف قليــلًا من برودة الجوّ. وسرعان ما صدرت الأوامــر بالاستعداد للتحرّك. طلب إليّ قائد كتيبة الإمام الحسين عليه السلام أصغـر قصّــاب بأن أقف في مقدّمــة الطابور وأعيد القــوّات إلى منطقة وجودهــا سابقًا. طوال تلك الأحداث غالبًا مــا رأيت الأخ أصغر الأقرب إلينــا من باقي القادة. هنا يطلــق قذيفة (B7)، وهناك يرمي برشّاشه. كلامــه وحديثه يمدّان الإخوة بالمعنويّات دومًا، وفي ظلّ النيران الكثيفة، كان يعتلــي الساتر الترابي ويخاطبهم قائلًا: «أيّها الإخوة لا تبقوا طويلًا أسفـل الساتــر! تعالــوا إلى الأعلــى!». كنّا نشعــر بأنّنا نحيــا من جديد عندمــا نراه. لقد أضرم العراقيّون طوال تلك الليلة نارًا قلّما شهدنا لها نظــيرًا... وكان ميــدان القتال خطيرًا إلى درجــة، تطّلب الوقوف هناك قلبًــا شجاعًا. والحقّ يُقال: «إنّ وجود قادة كعلي تجلّايي وأصغر قصّاب في تلــك المنطقة جسّد المشجّع الأكبر لنا». فيمــا يتعلّق بالأخ مهدي، فلم أره، لكنّني سمعت أنّه في خطوط المعركة الأمامية، وكنت متيقّنًا من ذلك من خلال معرفتي به.

تحرّكنا بناءً لأمر قائد الكتيبة. سرت في مقدّمة الطابور نحو الساتر الترابــي القريــب من نهر دجلة، ومــن دون أن ألتفت إلى الــوراء. بدأت مدفعيّة القوّات العراقيّة العمل من جديد، وراحت تقصف المكان بشدّة. كنت أريد إيصال الإخوة إلى الساتر السابق بأسرع ما يمكن.

عندمــا قطعنا نصف المسافة، ألقيت نظــرةً إلى الخلف وتعجبت إذ لم أجــد سوى بعضـ العناصر خلفــي وتفصلنا عن الباقــين مسافة مئة متر تقريبًــا. لقد سقط عدد من الإخوة شهــداء وجرحى بفعل القصف العنيــف، وبقي كلّ واحــد منهم حيث سقط. قلــت في نفسي: «لقد تفرّق الجيش!». انتظرنا قليلًا إلى أن وصل الإخوة وأكملنا طريقنا. بعد دقائق وصلنــا إلى مكان ظننت أنّ العدوّ استهدفــه بالأسلحة الكيميائيّة. رحت أبحث مسرعًا هنا وهناك عن القناع الواقي وأصرخ: «القناع... القناع».

قال لي أمير، وكان أقربهم إليّ: «ماذا تريد بالقناع؟».

- يبدو أنّهم قصفوا بالكيميائي!

- سيّد! هو الوحل الذي تناثر عليك!

عندهـا التفـتّ إلى أنّ قذيفـةً مدفعيّـة سقطت في المستنقـع فتناثر الطـين والوحل علينا بحيث أحسسـت وكأنّهم فعلًا قصفونا بالكيميائي! وصلنا إلى مقصدنا متفرّقـين بعضنا عن بعض ومنهكين. وهناك أيضًا لم نسلـم مـن نيران مدفعيّـة العدوّ التـي راحت تقصـف بنحو جنوني. والآن، لم يبـق من كتيبة الإمام الحسين عليه السلام واقفًا على قدميه أكثر من 40 نفـرًا. هناك تعجّب الإخوة الذين رأوني للمـرّة الأولى وقالوا: «سيّد! حـاذر، قد يرمونك! لقـد أصبحت تشبـه العراقيّين إلى حـدّ كبير...». كنـت لا أزال أرتدي البزّة العراقيّة، وبالطبع لم أبقَ حافي القدمين، فقد أمّـن لي الإخوة عصـر الأمس حذاءً من الكتان، وكان بالنسبة لي أفضل مـن الحذاء العسكري. معظـم الإخوة هناك، لم تصلهـم أخبار معركة الأمس ومواجهتنا للدبّابات ولنيران مدفعيّاتها. قلت: «إن أرادوا الآن أن يقصفـوا، فليقصفوا!»، لقد أنجزت المهمّة التـي أوكلها إليّ الأخ أصغر، ولم أعد أريد البقاء هنـاك. قلت لأمير: «دع الإخوة يذهبوا، ولنعد نحن إلى الخلف لنرى ماذا يحدث هناك!».

- من أين يجب أن نذهب لنختصر الطريق؟

- من المقرّ! فالطريق من هناك أكثر أمنًا، وأقصر!

صحيـح أنّ المنطقة مزروعة بالألغام، لكنّني كنت واثقًا من نزعها في الطريق المؤدي إلى المقرّ، وحين وصلنا إليه، رأينا عناصر الفرقة سبقونا وبـدأوا بإخلائـه؛ قلت لاثنين منهـم كانا يخليـان الأجهـزة اللاسلكيّة ممازحًا: «نعم، اخلوها! نحن نعلم بأيّ ثمن أُخذت!». فراحوا يشكروننا، ويثنـون علينـا. كانـت المـرّة الأولى التـي أرى فيهـا مثل هـذه الأجهزة

اللاسلكيّة الغريبة العجيبة، وها هي الآن قد أصبحت بين أيدينا. عندما خرجنا من المقرّ رأيتهم قد ربّضوا المدفعيات في المنطقة للتوّ. وفيما كنت متّجهًا نحوها، لفت نظري أحدهم وهو يراقبني بدقّة. يبدو أنّ لباسي وهيئتي العجيبة جعلته يشكّ بي. توجّهت نحوه: «نعم؟!». حدّق بي مجدّدًا وسألني: «من عناصر أيّ كتيبة أنت؟».

- من كتيبة الإمام الحسين عليه السلام، هل من إشكال؟

- يا عمّ، أنت تشبه العراقيّين كثيرًا!

- لا إشكال في ذلك!

- حاذر على كلّ حال! فخلفنا توجد قوّات من الجيش، قد يطلقون النار عليك إن لم يعرفوك!

- لا يا عمّ! أَوَلا يرون أين هو خطّ دفاعنا؟

تركته غير مكترث لتحذيراته، ولكن لاح لي من بعيد شخص يطلّ برأسه ويختبئ. واقعًا أثار شكّنا. اقتربت، فرأيت عددًا من عناصر الجيش موجودين هناك. كنت وأمير نسير على الجادّة، وإلى جانب الجادّة توجد قناة أنشئت حديثًا قد استقرّوا فيها. حين دنوت منهم صحت فيهم: «حسنًا لمَ أنتم مختبئون؟ لا يوجد شيء هنا!». سأل أحدهم وقد علمنا فيما بعد أنّه قائد سريّة: «هل تعلم أين يتواجد العراقيّون الآن؟».

- العراقيّون بعيدون جدًا من هنا!

أراحه جوابي نوعًا ما. قلت له من جديد: «لدينا في مكان متقدم أكثر عن مركزكم ساتران ترابيّان مليئان بالعناصر. لماذا تصدر منكم مثل هذه الأعمال وأنتم هنا؟!».

عند ذاك بدأوا يصولون ويجولون، وأحاط بي بعضهم وراحوا يسألون من نحن؟ وما الذي حصل؟ حدّثتهم باختصار عن الليلة الأولى للعملية وعن القوارب، وهم ينظرون إلينا غير مصدّقين. أخذني قائدهم جانبًا

وسألني: «باللّه عليك قل لي ماذا يحدث في الخطوط الأماميّة؟!».

- واللّه، ليس من أخبار الآن...

رأيته مصرًّا جدًا ليعلم ماذا حدث. أخبرته قليلًا عمّا جرى الليلة الماضية وتدمير الدبّابات. فقال: «كيف ذهبتم لمواجهتهم. وبأيّ قلب وأيّ جرّأة!».

- بنفس القلب والجرأة اللذين أتينا بهما في الليلة الأولى لتنفيذ العملية، وهاجمنا خطّ دفاع العدوّ في تلك الظروف!

أخبرته عن قصف العدوّ الشديد وتفاني الإخوة[1]. بعد الحديث شعرت بالارتياح تجاهه. سألني: «ماذا سيحصل في الخطوط الأماميّة؟ ماذا قرروا؟ من الذي سيذهب إلى الجهة الأخرى من دجلة؟!».

- الأمر بسيط! اليوم لدينا عملية أيضًا. وإن شاء اللّه نحن سنعبر دجلة ونذهب إلى الجهة الأخرى!

- أنتم؟ يا عمّ! بأيّ قوّات؟

- إن لم تأتِ قوّات جديدة سنذهب بأولئك الثلاثين أو الأربعين عنصرًا الباقين!

ثمّ أحضروا لنا الطعام والفواكه المعلبة، وأصبحت وقائدهم أصدقاء حميمين. وبعد أن أخبرته عن أوضاع الجبهة، عاد ورمقني من رأسي إلى أسفل قدمي وقال: «ما هذه الهيئة؟ اذهب بالحدّ الأدنى وجِد لك سروالًا آخر ترتديه!». كان محقًّا، فقد كان شكل ملابسي الخاصّة بالجنود العراقيّين مضلِّلًا. فبدل الحذاء العسكري، انتعلت حذاءً من الكتان، وقد ارتفع قميصي من فوق السروال، وتركت سلاحي في الخطّ

1 ـ أخبرني لاحقًا أحد الإخوة المجاهدين في الفرقة ويُدعى كريم محمّديان بأنّه رأى فيلمًا للأخ منافي صُوِّر أثناء الاشتباكات في عملية بدر. كان يقول: «كنتَ آتيًا من دون أن تكترث لانفجار القذائف المدفعيّة التي كانت تتساقط على جانبيك الواحدة تلو الأخرى».
فيما بعد، حاولت العثور على الفيلم ولكنّي لم أجده.

الأمامـي، ولم أكن أحمل سـوى قنبلتين. برّرت للمسكـين، فله كلّ الحقّ ليتعجّـب من مظهـري. وحيـث أصبحنـا الآن أكثر حميميّـة جاء دوري لنصيحتـه: «لا تُضعِـف معنويّات عناصرك!... وبمـا أنّكم بقيتم هنا في هذا الوضع، فاطلب منهم على الأقلّ أن يتقدّموا وينتشروا في المنطقة... فالمسافة بيننا وبين العراقيّين كبيرة. يجب أن نموت قبل ان يتمكّن العدوّ مـن العـودة إلى هنا مجدّدًا. ومـا دمنا أحياءً، لن يملكـوا الحقّ بالنظر إلى هـذه المنطقـة!... كمـا إنّ قـوات الدعم تـكاد تصل مـن الخطوط الخلفية...». وبالمحصّلة، فقـد شجّعتهم قليلًا بهذه الكلمات. بعد تناول الطعـام والفاكهة المعلّبة التي قدّموهـا لنا، قمت وأمير بتوديعهم وتابعنا طريقنـا. حـين كنّا عنـد عناصر الجيش وصلنا خـبر استشهاد محمّد زاهـدي. هذا هو «محمّـد زاهدي» الثـاني الذي فارقنـا في عملية بدر. سمعت بأنّه استُشهد في الليلة الأولى من العملية في ذلك المقرّ، ولم أعرف بذلـك قبل تلك اللحظة. أحزنني الخـبر. كان رجلًا غير عاديّ؛ مؤمنًا، خلوقًـا وعاملًا. من مميّزات الشهيديـن «زاهدي» خبرتهما وتجربتهما، فتركـت شهادتهمـا في الحرب ثغرة كبيرة لن تُسـدّ بسهولة. كانت دماء الشهداء الذين سقطوا في الليلتين السابقتين غضّة طريّة على الأرض في كلّ ناحيـة. عجيبة هي لحظـات تأملنا لأشلاء شهيد أو لدمائه المتجمدة علـى الأرض... كنّا نحزن لعلمنا بأنّ هـؤلاء الإخوة المؤمنين والمخلصين رحلـوا عنّـا إلى الأبد، ونُسرّ لكوننا ما زلنـا إلى تلك اللحظة ثابتين، ولم نـترك جهودهم وتضحياتهـم تذهب هدرًا، ولأنّ العمليـة لم تكن لتسير قُدمًـا من دون إيثارهم وتضحياتهم. كان الزحام يشتدّ كلّما اقتربنا من ضفّـة الهـور. فقد وصل إلى المنطقة بعد اختراق خـطّ الدفاع ما يقارب الثـلاث عشـرة أو الأربع عشرة كتيبةً من فرقة عاشـوراء. لكن يبدو أنّه لم يكـن قد أوعز إليهم بعد التقـدّم إلى الخطوط الأماميّة والمشاركة في المراحل المتبقية من العملية. استقرّ معظمهم هنا وراء السواتر الترابيّة.

وصلنا في مسيرنا إلى النقطة التي خرجت فيها بالأمس من الطابور، واستُشهد اثنان أو ثلاثة من الإخوة جرّاء سقوط قذيفة 120 ملم. كانت أشلاؤهم لا تزال ملقاةً على الأرض حتى قدما أحد الشهداء. تألّمت أكثر لرؤيتهم. بعض أنواع الشهادات تقلب أحوال المرء. فشهادة شخصين بعد ثوانٍ من خروجك، وفي المكان نفسه الذي كنت واقفًا فيه وبالوضعيّة ذاتها... قلت في نفسي: «نور الدين! أُنظر ماذا يريد الله منك فما زال يمهلك إلى الآن!».

تابعنا مسيرنا، وإلى الأمام قليلًا شاهدنا عناصر التجهيزات، وقد حملوا إلى المنطقة قطعًا كثيرةً من آليات الشيلكا، ورشّاشات الدوشكا وقذائف الـ 120 و 60 و81 ملم، والكاتيوشا و... واستقرّوا هناك. استخدموا أيضًا المدافع التي غنمناها من العراقيّين، وقد انهمكوا بشدّة في تحديد زاوية الرمي، وكان من الواضح أنّ أمامهم ليلة صعبة ومجهدة. تابعنا مسيرنا من جديد. أردت الذهاب إلى دشمتنا، تلك التي بنيناها أنا وأمير. وقبل أن نصل إليها التقينا بعالم الدين ذاك الذي تلا علينا صيغة التآخي، وقد جاء بلباس رجل الدين إلى المنطقة، وراح يوزّع العصير على الإخوة. كان حضوره يمدّهم بالمعنويّات. وما إن رآني حتّى سألني بكلّ لطف ومحبّة: ماذا أعطيك؟

- أقبل بكلّ ما تقدّمه لي!

وهناك وقع نظري على محمّد، ذاك الذي ارتكب تلك الغلطة بالجرّافة أثناء حفر الدشم في مخيّم شهداء خيبر. كان يوزّع الطعام والفاكهة على الإخوة، لكنّنا تلك الثلّة التي عادت من المعركة، لم نكن نرغب بهذه الأمور، فقد سقط الكثير من شباب الكتيبة ومن أصدقائنا شهداء، وانقلبت أحوالنا لذلك.

وصلنا إلى ما وراء الساتر، وإذ ما يقارب العشر طائرات توبولوف

جـاءت لتقصـف المنطقة. مـا إن رفعت رأسـي حتّى رأيتهـا ترمي عدّة صواريخ فوق رؤوسنا! صاح أمير: «انبطح أرضًا!».

- دعك منها!

- لِمَ؟

- إن كان مـن المقـدّر لهـذه الصواريـخ أن تنفجـر، فسنمـوت سواء انبطحنا أم لا. هيّا بنا نذهب!

بالفعـل كنّا قد رأينا سابقًا بأنّ الصواريـخ لا تنفجر في المستنقعات، فارتاح بالي نوعًا ما. وهذه المرّة أيضًا، لم ينفجر منها سوى ثلاثة، فيما غرقـت البقيـة في المستنقع. على امتداد البصـر، [كما في مشهد سابق] استقـرّت الصواريخ في الأرض بحيث يُخيّل للرائي من قواعدها الخلفيّة البيضاء اللون بأنّ نباتًا ما مزروعًا هناك!

أخيرًا وصلنا متعبين ومنهكين إلى دشمتنا لنرتاح قليلًا، فصُدمنا بأنّ أحدهم قد عبث فيها. كنّا بالأمس قد ملأنا صندوق حفظ المثلّجات بعلب العصير ومعلّبات التونة، وتركنا البطانيات وأغراضًا أخرى، لكن يبدو أنّ الدشمـة تعرّضت لسطو من جانب قوّاتنا، وأُخليت من محتوياتها! وقفت مذهولًا. ثم خرجت معترضًا: «أيّها الإخوة! من الذي أخذ أغراضنا؟».

أحدهـم قال: حسنًا! لا بـدّ أنّها كانت تلزمهم حتّـى أخذوها، والآن، قـل ماذا تريد لنعطيك إيّاه!». بالطبع، كان هذا الأمر عاديًّا في مثل تلك الظـروف، وأيّ شيء في خضمّ العملية أفضل من دشمة مجهّزة بالطعام والشـراب والوسائل الأخـرى! ومجدّدًا، رحنا نبحث عـن بطانيات وعن وسائـل أخرى لنستخدمهـا في الليل. كان مصباحنا لا يـزال في مكانه، فرحنـا نبحث عـن البطانيات والطعام والمتوافرين بكـثرة في ناحية ما. كان عـدد العناصـر مقارنـةً بالتجهيـزات قليلًا، وعلاوةً علـى هذا، لم يكن أحـد يفكّر بالاستزادة من الطعام، انصـب كلّ همّنا في المواجهات

والعملية التي سنستكملها في الليل.

▫

استمرّت المعارك العنيفة في محور فرقة النجف لليلتين أو ثلاث. وساعدتها من فرقتنا كتيبتا «الإمام الحسين وعلي الأكبر عليهما السلام»، فكانوا كلّ ليلة يعملون على إرباك عمل دبّابات العدوّ. إلى أن قرّر القادة أخيرًا عبور دجلة من أحد الجيوب وتفجير الجسر العراقي هناك، وبذلك نتمكّن من كسر صمود العدوّ في تلك المنطقة.

عصرًا، عاشت المنطقة أكثر لحظاتها هدوءًا في تلك الأيّام. فمن ناحية، كان العدوّ يستعدّ للهجوم، ومن ناحية أخرى، كانت قوّاتنا تستعدّ لعبور دجلة ودخول الجيب، حيث تعرّج نهر دجلة في منطقة مأموريّة فرقة عاشوراء، واتّخذ شكل جيب. امتدّ في تلك المنطقة بستان نخيل دَخَلَتْهُ منذ اليوم الأوّل، بعد عبورها دجلة، كتيبة سيّد الشهداء عليه السلام بقيادة «جمشيد نظمي»، ونعموا حينها بالهدوء الكامل، بينما خضنا نحن معارك شديدة في محور فرقة النجف. وقد تقرّر الآن أن يدخل من تبقّى من كتيبة الإمام الحسين عليه السلام وعناصر آخرون الجيب ويستكملوا مهمّتهم...

قبيل الغروب، كنّا عندما نصعد أحيانًا فوق الساتر، نسمع أصوات «السيمينوف» التي يطلقها العراقيّون من الضفة الأخرى لدجلة. فهمنا تلك الأصوات بمنزلة تحذير لنا بأنّ القنّاص العراقي يرى كلّ شيء. وخاصة أنّ المسافة التي تفصلنا عن الجسر تقارب الـ(1500م)[1]. دلّت القرائن مجتمعة على أنّهم بذلوا كلّ طاقتهم ليحافظوا على الجسر، الذي يقع إلى الجنوب من منطقة العملية ويمرّ فوقه «أوتوستراد».

---

1. لم يكن للعراقيّين في الجانب الآخر من نهر دجلة خطّ دفاع خاصّ، ذلك أنّهم قد تفاجأوا بهذه العملية، ولم تؤاتهم الفرصة لإحداث خطّ دفاع قويّ في تلك الناحية من النهر، لكن، كان لهم ساتر ترابيّ هناك يطلقون منه النار علينا.

أمّا نحن فقد قرّرنا هدمه، لأنّنا علمنا بأنّنا في حال عدم تفجيره، لن نستطيع الصمود هناك كثيرًا، وسنُجبر على الانسحاب.

كان غروب العشرين من آذار العام 1985م غروبًا مقلقًا. أدّينا الصلاة، وبعد تناول كميّة قليلة من الطعام، أردت أن أنام. وفيما رحت أتقلّب داخل الدشمة ولم أغطّ في النوم بعد، جاء خليل نوبري إليّ وقال: «الليلة قرابة الحادية عشرة سنتحرّك من أجل القيام بالعملية».

- لن آتيَ، أنا تعب!

وصل إرهاقي إلى درجة ظننت فيها أنّني لن أستطيع الوقوف على قدميّ، فكيف بي بالذهاب والمشاركة في العملية. جعل جوابي المختصر «خليل» يعود من حيث أتى. وضعت رأسي على الأرض ولم أعلم متى استسلمت للنوم.

▫

عندما أيقظوني، كنت مشتّت التفكير. إنّه «خليل نوبري»، جاء مجدّدًا وناداني. تكلّم كثيرًا، ولم أجبه سوى: «أنا تعب». لم ألتفت إلى شيء من كلامه، ولم أرى سوى حالي المزرية، حيث لم أكن أقوى على الوقوف على قدميّ والمشي: «إن أنا أتيت معكم على هذه الحال، فلن أستطيع أن أخدمكم كفاية. أنا لا أعي شيئًا عن نفسي من شدّة التعب، فكيف بأن أشارك بالعملية. اسمح لي بالبقاء هنا، وسأكون مستعدًّا في الصباح لتنفيذ كلّ ما تأمر به».

قلت لأمير الذي كان يراقبني بنظراته: «اذهب أنت معهم، أمّا أنا فسأبقى هنا!». فقال أمير بفرح وسرور: «حسنًا أنا سأذهب!».

ومجدّدًا، وفي حالة تشوّش بين النوم واليقظة تركتهم، لكنّهم عادوا وجاؤوا يطلبونني. وهذه المرّة جاء خليل نوبري بنفسه أيضًا، ليدلي بآخر

ما عنده من كلام: «أتعلم يا سيّد؟! هذه الليلة تشبه ليلة عاشوراء! نفس الحكايــة، الليلة التي قلّ فيها الناصر، والآن عددنا قليل أيضًا. قليل إلى درجة جعلت حتّى القادة يحملون سلاحهم ويلتحقون بالعملية... الجميع تعب، ولكنّهم الليلة استعدّوا للعملية...». بهذه الكلمات جعلني هذه الليلة ألتحق بمن بقي من الرفاق.

خرجت من الدشمة. والتحقت بجمع الإخوة الذين تهيّأوا لتنفيذ أقسى مراحـل العملية وأهمّها، ويا له من جمع! عظماء فرقة عاشوراء كانوا في ذلك الجمع الذي لا يتجاوز الأربعين نفرًا؛ علي تجلّايي، محمّد تجلّايي، أصغـر قصّاب، محمّد رضـا باصر، قاسم هريسي، علـي أكبر بافنده، محمود دولتي، علي بهلولي الذي كان عنصر الإشارة في الكتيبة و... أي وصل الأمر «بفرقـة عاشوراء» في عملية بدر إلى مرحلة، اجتمع فيها كلّ العناصر، بدءًا مـن مسؤولي الفصائل والسرايا إلى قادة الكتائب، ومن هـم أعلى مستوى، وذلك لينهـوا كلّ شيء بالسيطرة علـى «أوتوستراد» البصـرة ـ العمارة وهـدم الجسر الصغـير الذي يمـرّ الأوتوستراد من فوقـه. بالطبع، كانـت مهمّة بعض العناصر بقيـادة محمود دولتي الذي قـاد إحدى سرايا كتيبـة سيّد الشهداء، تختلف عـن مهمّتنا. فهؤلاء قد ذهبـوا من قبل إلى قرية «الحريبة» الواقعـة في الجانب الآخر من دجلة واشتبكـوا مع القوّات العراقيّة، لكـنّ القرية لم تكن قد سقطت بعد. وفي تلـك الساعات كان العراقيّـون في بعض بيوت وأزقّـة القرية، وقوّاتنا في بيـوت وأزقة أخـرى. والتهبت المواجهـات هناك عنيفة ومهمّـة، فإن لم تسقـط المنطقة هناك بيـد قوّاتنا، لسوف يمنعنـا العراقيون من تدمير الجسـر والسيطرة علـى الأوتوستراد. لذا كانـت مهمّتهم، بالتزامن مع تحرّكنا، التوجه إلى قرية الحريبة والسيطرة عليها.

ما أعجب تلك الليلة! لم يتجاوز عددنا عدد عناصر القنّاصة في كتيبة مـا، لكنّنا عزمنا بذلك العدد القليل من العناصر على كسر ظهر العدوّ.

وعلى ما أظنّ، لم يكن لدينا معلومات كثيرة عن خطّ دفاعه، وجلّ ما كنّا نعلمـه هو أنّ العدوّ يتموضع أمام الأوتوسـتراد. تقرر لقوّات من الجيش أن تتقدّم بالتزامن مع تحرّكنا[1]، ومن ناحية أخرى، أن ترد فرقة النجف الميـدان عـن يسارنا. واقتضت الخطّـة أن يتمّ التنسيـق فيما بيننا وبين سريّة من عناصر الهندسة، لتقوم بتدمير الجسر بعد تثبيت أقدامنا في الأوتوستراد. يومذاك حضرت سريّة الهندسة إلى المكان، لكنّ الطائرات التـي حامت في سمـاء المنطقة إلى الظهـر، قصفـت الشاحنة الحاملة للمواد المتفجّرة[2]. بعد تلك الحادثة طلب عناصر الهندسة مجدّدًا الموادّ المتفجّرة، واستغرق الأمر مدّة لتصل إليهم الذخائر التي يحتاجونها. في النهايـة، تبدّلت الكتيبة من عناصر هندسـة يباشرون عملهم بالتزامن معنا، إلى سرية تباشر عملها بعد احتلالنا للأوتوستراد.

ذُكّرنـا بسرعـة بمهمّتنا، واستعددنا للانطـلاق. طلبت من أمير بأن يضع مقدارًا مـن الفاكهة المعلّبة والعصير في برّادنا البلاستيكي المملوء ثلجًـا. راح أمير يحدّق بي. فقلت له مجـدّدًا: «إذا بقيت الأمور كما هي، سنحتاج الطعام في الغد! ضع هذه في الدشمة، فعندما نعود غدًا سنكون عطاشى وجوعى!».

- انظروا هذا! ترك كلّ شيء ولم يفكّر إلا في بطنه!

وعـلا صراخـه قائـلًا: «يا عـمّ! أنّى لـك أن تعلـم أنّك ستعـود غدًا صباحًا؟...».

---

1. سيطرنـا حينها على مدرج للطائرات المروحيّة، فأوكلـت مهمّة المحافظة عليه إلى قوّات الجيش، لكنهم للأسف لم يستطيعوا الحفاظ عليه، وانسحبوا في اليوم التالي ليشكل ذلك ضربة كبيرة لنا.

2. سقـط في هذا الانفجار أحد عناصرنا، الذي كان قد بقي في ذلك القسم من الساتر الترابي. وقد قـال الليلـة الماضية كما قلت، إنّه تعب ولن يشارك في هذه المرحلة، وإنّه سيلتحق غدًا بالقوّات. لكنّه استُشهـد في ذلك الانفجار المهيب هو وبعض الإخـوة الذين كانوا في الشاحنة. في اليوم التالي حين عاينت المكان، التفت إلى شدّة الانفجار. لقد كان ارتفاع الساتر الترابي في ذلك المكان قرابة الثلاثة أمتـار، وفوقه تمتـدّ طريق بعرض ستّة أمتار. فنُسف ذلك القسم مـن الساتر والطريق كليًّا، وسقطت بقايا الشاحنة في حفرة بعمق مترين!

- إن شاء الله نعود، ضع هذه في الثلّاجة، ستلزمنا في الصباح!

كنت أشعر بأنّني سأعود وحسب!

جهّزنا أمتعتنا وانطلقنا. توجّه محمود دولتي وعناصره نحو قرية الحريبة. لم أعلم شيئًا عن الباقين، لكنّ أكثر من التقيتهم، كانوا من الذين قاتلوا في الليلة الأولى من العملية في ميادين مختلفة. لفتت حالي الأنظار؛ فمن شدّة التعب وقلّة النوم، ثقل الحمل الذي على ظهري عدّة أضعاف، ولم يعمل ذهني بنحو جيّد، وكلّ ما علمته هو أنّني سأسير في هذا الطابور وهذا ما حدث، إلى أن وصلنا إلى ضفّة نهر دجلة. والآن جاء دور العبور فوق جسر رفعه عناصرنا فوق النهر.[1] وكان عبارة عن جسر «نفررو»[2] طويل، اتصل طرفاه بضفّتي النهر، يهتزّ بمجرّد أن تسير عليه. مشينا عليه باسم الله. أحيانًا صار يهتزّ إلى درجة أخال أنّني سأقع حتمًا في النهر. كنّا لا نزال فوق الجسر حين قال علي تجلّايي: «لقد وجّه الإمام بيانًا إلى كلّ المقرّات يطلب فيه من الجميع التقدّم والسيطرة على المكان بأيّ نحو كان"[3]. وكأنّ هذه العبارة بثّت في طاقة جديدة بكلّ كلمة من كلماتها. تغيّرت أحوالي! ولم أعد أشعر بالتعب، أو حتّى أفكّر بأنّني لم آخذ قسطًا من الراحة منذ ثلاثة أيّام بلياليها. أنا نفسي لم أصدّق كيف تغيّرت أحوالي دفعةً واحدةً. رحت أعبر الجسر مسرورًا وبمعنويّات عالية، وكأنّني أشارك للمرّة الأولى في عملية. كما زاد من شجاعتنا حضور القادة. وإضافة إلى كلّ ذلك، استحقّت الثناء الميني كاتيوشا التي قصفت منطقة العدوّ بدقّة فائقة. ومن المحتمل أن تلك المجموعة التي رأيناها في النهار كانت تحاول تحديد زاوية المنطقة.

---

1 - وقد نصب هذا الجسر صمد زبردست وعناصره، وكان حينها في الوحدة البحريّة.

2 - نفررو اسم الماركة.

3 - لا أعلم إن كان هذا الأمر صحيحًا أم لا، لكن كلّ ما أذكره تلك الطاقة المضاعفة التي سرت في روحي إثر السماع بأمر هذا البيان.

استهدفت الميني كاتيوشا خطّ الدفاع العراقي، الدشم والمناطق التي يُحتمل وجود الكمائن فيها ويمكن أن تشكّل مانعًا أمام تقدّمنا. تساقطت الصواريخ أحيانًا بالقرب منّا وتطايرت الشظايا من جوانبنا. قلت أكثر من مرّة للأخ أصغر: «أخ أصغر! ستقتلنا هذه الميني كاتيوشا!». أجاب بكلّ ثقة: «لا! لقد تمّ التنسيق فيما بيننا من قبل. وهي تحاول أن تقصف الطريق أمامنا بالتزامن مع تقدّمنا، لنفاجئ العدوّ!». أسكتني جوابه، لكن لتلك الميني كاتيوشا وقع عجيب، وقلّما رأيت مثل هذه الدقّة في الرماية طوال سنيّ الحرب. ورسمت النيران المتعالية من دشم العدو حين إصابتها بالصواريخ مشهدًا لا ينسى في عتمة الليل.

قطعنا دجلة وباشرت الطائرات العراقيّة العمل فورًا، وخلال لحظات ألقت عددا هائلًا من القنابل المضيئة، بحيث يُخيّل إليك بأنّ السماء تشتعل! ولأسباب عديدة، من بينها قلّة العدد، كان علينا الانتظار لتنطفئ القنابل المضيئة. لقد أربكتنا قوّات العدوّ بالكاتيوشا بحيث أصبحوا وكأنّهم لا يفكّرون سوى بالحفاظ على أرواحهم. بلطف الله، لم يحدث لنا أيّ شيء في ظلّ كلّ تلك القنابل المضيئة، وكنّا على يقين بأنّهم لا ينظرون إلى منطقة العملية أبدًا. تابعنا طريقنا داخل الجيب. كنّا أحيانًا نتوقّف ثمّ نتابع حركتنا من جديد، حتى لم تعد المسافة التي تفصلنا عن الأوتوستراد تزيد عن الكيلومتر الواحد تقريبًا. وجدنا العراقيين تموضعوا عليه وفي قرية قسموها نصفين وذلك لتثبيت سيطرتهم. ما إن تقدّمنا أكثر باتجاه الأوتوستراد، حتّى توجّه أصغر قصّاب وعلي تجلّايي وبعض العناصر الأخرى نحو القرية. من المقرّر أن يأتي عناصر الهندسة بعد أن نهيّئ نحن المكان. و قاسم هريسي هو المسؤول عن بقية العناصر الذين يُفترض أن يواصلوا تقدّمهم. تابعنا مسيرنا، وبعد دقائق مررنا من جانب الأوتوستراد، ولم يعد يفصلنا عن هدف مهمّتنا الأساسي سوى خمسين مترًا.

صاح بنا قاسم: انتظموا... وتعالت أصوات الإخوة كأنها صدًى لصوته: «انتظموا... انتظموا...». ضحكت لا إراديًّا: «ما به هذا؟! وكيف للعراقيّين أن لا يسمعوا أصواتنا!». انتظمنا كما يُقال وتقدّمنا قليلًا، فصاح قاسم هذه المرّة: «لقد اشتبهنا في الأمر! فلنعد إلى هذه الناحية!». يبدو أنّنا وبدل أن نتّوجه نحو الأوتوستراد، عدنا باتّجاه القرية. مرّت لحظات ملؤها الاضطراب. وإضافة إلينا، فقد سمع العراقيّون صوت قاسم وعلا صراخهم: «قف! قف!»، وفتحوا النار. رميت بنفسي إلى الأرض فورًا. لم نكن مستعدّين بعد للقتال، قبل أن ننتظم ثمّ نبدأ بالمواجهة. وها هي الآن النيران الشديدة وصواريخ الـ(B7) تنهمر فوق رؤوسنا. واضح أنّهم لم يُتمّوا نصب الأسلحة الثقيلة كالدوشكا والشيلكا هناك، فراحوا يرموننا بكلّ ما في أيديهم من سلاح. عندما رميت بنفسي إلى الأرض، ارتطم رأسي بشيء، أمعنت النظر فإذا به كومة تراب ناعم. فهمت القضيّة. كنّا نظنّ أنّنا نبعد مسافة 50 أو 60 مترًا من نقطة المواجهة الأساسية، والواقع أنّنا أصبحنا إلى جانب الأوتوستراد تمامًا. وهم حفروا حديثًا قناةً أمام الأوتوستراد، فقد كان التراب ناعمًا وجديدًا والقناة قليلة العمق. وربما لم تتسنَّ لهم الفرصة الكافية للعمل أكثر. رفعت رأسي لأرى أين يتموضع العدوّ. فوجدت أنّ كلّ النيران تنطلق من مكان واحد؛ نيراننا ونيران القوّات العراقيّة! نظرت ودقّقت من جديد فالتفتّ إلى الوضع أكثر؛ كنّا على مقربة نصف متر من الجنود العراقيّين! وعندما اهتزّ جبّ الشوك القريب منّي تمامًا، رأيت فوّهة بندقيّة مركزة عليه وجاهزة للإطلاق. تراجعت فورًا إلى الوراء. لم أكن من قبل قد اقتربت من العدوّ إلى ذلك الحدّ! كان بإمكاني أحيانًا رؤية وجوههم أثناء المواجهات؛ والعجيب أنّني وجدتهم مسنّين وتفوق أعمارهم الأربعين عامًا! والتعب بادٍ على وجوههم، إلّا أنّهم يقاتلون بشراسة. تراجعت مترين، وإذ بي أسمع صوت جهاز اللاسلكيّ، يبدو

أنّـه كان خليل نوبري: «اخترقوا الخـطّ! اخترقوه لتباشر فرقة الهندسة عملهـا». لكن، بأيّ قوّات؟! لقد انتشرنا على الخطّ وعددنا محدود، وكلّ منّـا الآن يخوض معركـةً في مكانه. الوضـع لا يسمح لنا بالمبـادرة بأيّ عمـل. مرّت عـدّة دقائق على المواجهات. فكّرت أنّـه لا بأس برمي بعض القنابـل، لأفتح الطريق أمامي بالحدّ الأدنـى. كان بحوزتي أربع قنابل، رميت بالأولى وفورًا رميت بالثانية فيما كنت خائفًا من وصول شظاياها إليّ. مـع انفجار القنبلتـين، ارتفع صوت من تلك الناحيـة، وفهمت بأنّ بعضـ الأمتار أمامي قد تمّ تطهيرها. لكنّني لم أجرؤ على دخول القناة، لأنّ ذلـك كان يعنـي الالتحام مباشـرةً مع العدوّ المتموضـع في جانبيها. وبالتـالي فمـن الضروري وجود الحـراب بحوزتنا لكنّنـا لم نكن نملكها للأسـف. وهنا أسكت انفجار القنابل المتتالية في القناة نيران العدوّ إلى حـدّ ما، من دون أن يتراجعوا، ولم يفصل بيننا وبينهم سوى كومات من الـتراب. كان العراقيّـون قد بنـوا لأنفسهم دشمًا صغـيرة داخل القناة منحتهـم وضعيّة جيّـدة. أينما جلت بنظري كانت قلّـة العناصر بالمعنى الحقيقي للكلمة تؤلمني، وقد كلّفتنا هذه المسألة هناك غاليًا.

كان أحد شباب المعلومات ويدعـى مهدي، بالقرب منّي. سحب أمّان قنبلته وصاح بي: «اذهب إلى تلك الناحية!».

- أيّ ناحية؟

- تدحرج على التراب هناك!

ثـارت أعصابـي. فصحت بـه والقنبلة لا تزال بين يديـه: «والآن، لمَ تحتفـظ بالقنبلة في يدك؟ ارمها!». هدّأ انفجار القنبلة المكان لعدّة ثوانٍ فقـط. كان العراقيّون يحاربون بشدّة، وليس مـن سبيل أمامهم للفرار. فـإن تراجعوا إلى الخلـف وصلوا إلى جهة الأوتوسـتراد التي يقع خلفها المستنقـع، لذا فقـد استماتوا في القتال. في تلك الأثنـاء، جاءنا شخص

يمشـي القرفصاء؛ كان محمّد رضا باصر. أصبحنا الآن في تلك النقطة أنا وحسن نوبري أخو خليل، وباصر. لم يكن باصر قد شارك من قبل في مثل هذه المواجهات العنيفة، لكنّ إيمانه وشجاعته قاداه إلى هناك. قال: «سأعدّ إلى الثلاثة، وندخل بعدها القناة بنداء الله أكبر!».

– الأفضل أن نرمي أوّلًا ما تبقّى معنا من القنابل، ثمّ ندخل القناة!

اتّخذنا قرارنا: واحد، اثنان، ثلاثة، رمينا القنابل وبعد ذلك... كان باصر الوحيد الذي وقف وما لبث أن سقط! كان الجنديّ العراقي مجهّزًا سلاحه، فأطلق أربع رصاصات متتالية نحوه. مزّقت الرصاصات نحر صديقنا فسمعت خرير الدماء التي فارت منه. لم نستطع القيام بشيء من أجله. الأوضاع معقّدة. والنداء من الخلف دومًا: «اخترقوا الخطّ... أسرعوا»، أمّا نحن الذين لم يتجاوز عددنا عدد أصابع اليد الواحدة، فقد حرنا في أمرنا كوننا رمينا كلّ ما بأيدينا من قنابل في القناة المشؤومة. ولا نعلم عدد الجنود المتموضعين فيها. وها هو أمير الآن قد عاد إلينا بعد أن سار على امتداد الساتر الترابي[1]. ومعي أيضًا حسن نوبري ومهدي، فاتّخذنا قرارنا: «ليحصل ما يحصل، فلنتوكّل على الله وندخل القناة!».

الخرير لا يزال يُسمع من نحر محمّد رضا باصر المضرج إلى جانب الساتر الترابي على هيئة القرفصاء[2]. دخلنا القناة معًا، بعد أن خفّت حدّة النيران لثوانٍ في تلك الناحية. طالعنا منظر القناة المحيّر؛ فجثث القتلى مكدّسة بعضها فوق بعض، أمّا من بقي من الجنود العراقيّين فراحوا يلوذون بالفرار من تلك الناحية. توزّعنا نحن الأربعة على جانبي القناة ومشينا فوق أجساد القتلى. وسرعان ما عادت المواجهات لتبدأ

---

1. فيما بعد حدّثنا أمير مارالياش عمّا جرى معه تلك الليلة وقال: «لقد خضت مواجهة شديدة تلك الليلة، فألقيت قنبلة على أحدهم، وأطلقت النار على آخر». حتّى إنّه رأى جنديًّا عراقيًّا شاهرًا سلاحه نحوه على بعد سنتيمترات منه، يريد رميه، فأمسك بالسلاح من فوهته وأخذه من قبضة الجندي العراقي!

2. بقيت أسمع هذا الصوت كلّما مررت بجانب باصر، إلى أن خمدت أنفاسه مع طلوع الصباح.

مـن جديد. حينـذاك، بدأنا الرمـي عليهم بقذائف الــ(B7) خاصّتهم التــي أعدوها للإطلاق؛ من على بعد ثلاثين مــترًا تقريبًا! تبدّلت القناة إلى جحيــم جرّاء ازدحام الجثث وصوت السلاح المصمّ للآذان. واصلنا الرد باستهداف كلّ مكان تطلق النيران منه علينا. أساسًا لم يكن الوقت يسمـح للتفكير باحتمال أنّ عناصرنا هم من يوجدون في القناة... أردنا أن نفتــح الطريق لعبور عناصر الهندســة بأيّ ثمن. وها قد حان الوقت. صــرخ خليل نوبري: «أخ أصغر، ائتونا بعناصــر الهندسة... فليأتوا...». كانــت المسافة بين الأوتوســتراد والنقطة التي تمركزنــا فيها من القناة تبلغ قرابة الثمانية أمتار، والمسافة بين الأوتوستراد والجسر الذي نقصد تدميره تتراوح بين الـ40 والـ50 مترًا. إلّا أنّ هذا الطريق المختصر تحوّل تلــك الليلــة إلى جحيم لا يمكن عبــوره! لم يعد من الممكــن الذهاب إلى الجســر عن طريق الأوتوستراد. وقــد أدرك العراقيّون جيّدًا مثلنا تمامًا خطورة الموقف، ففتحوا النار على كلّ من يأتي بحركة في نواحي الجسر. والمحصّلــة: الجســر لا يزال تحت سيطــرة العدو. مــن الناحية الأخرى للجسر تقع قريــة، يطلق العراقيّون منها نيرانهم الكثيفة على منطقتنا. في تلــك المعمعة كنّا قد حرّرنا فقط منطقة بطول 30 مترًا، ستكون محلًّا لعبور عناصر الهندسة. لم يستغرق الأمر طويلًا حتّى وصل أصغر قصّاب إلينــا مع عناصــر الهندسة. توجّهت إلى الأخ أصغــر قائلًا: «يا أخي! لم يبقَ شيء من القنابل، قل لهؤلاء أن يعطونا قنابلهم». وكانت القنابل هي الســلاح الأمضى لتطهير القناة. في ظرف عدّة ثــوانٍ، ترك لنا عناصر الهندســة ما يقارب الثلاثين قنبلة وهم يمرّون من جانبنا. مرّوا بسرعة وتقدّموا حاملين معهم مادّة الـ«TNT.» عندما عبروا من جانبنا ومددت يدي لألتقط قنبلة، شعرت بأحدهم يقف خلفي! وفيما تركزت كلّ حواسي إلى الأمــام، شعرت وكأنّني صُعقت بالكهرباء! استدرت بسرعة وشهرت سلاحي نحوه. كان فتىً داكن البشرة يتكلّم الفارسيّة!

- من تكون؟

- لا تطلق؟ أنا من عناصر الجيش... لا تطلق؟

أدخلته بسرعة داخل القناة؛ إلى المكان الذي كان حينها تحت سيطرتنا. قال إنّ عناصر الجيش قاموا بعملية في منطقة الدبّابات ومدرج المروحيّات، لكنّهم اضطُرّوا للانسحاب. سقط عدد منهم شهداء، وهرب ذلك الشابّ في تلك المعمعة باتّجاهنا، ووصل إلى مقربة من القناة، وها هو الآن يسأل: «أين يقع هذا المكان؟!»، قلت: «جيّد أنّك أتيت؟ تعالَ إلى هنا!». لم يكن يجيد التكلّم بالتركيّة، وأنا أيضًا لم يكن بي حيل ولا طاقة للتكّلم بالفارسيّة. وبخليط من التركيّة والفارسيّة أفهمته بأنّنا في قلب منطقة العدوّ. قلت: «تعالَ وخرّب دشم العراقيّين، وابنِ لي بتلك الأكياس دشمة مؤلّفة من ثلاث طبقات في المنحدر الواقع إلى جانب الأوتوستراد». فهم أنّني أريد دشمةً تحيط ثلاثة أكياس رمليّة بها من جميع الجوانب. كنت أعلم أيّ قيامة ستقوم في الصباح. وفي اللحظات هذه، وصل هذا العنصر الأفضل لبناء دشمة معتبرة لي. باشر هو بعمله، وذهبت أنا لتطهير القناة.

عندما رأى العراقيّون بأنّنا بدأنا بتطهير المنطقة، وأنّنا نفجّر كلّ شيء، حاولوا التذاكي، فوضعوا فيلداتهم العسكريّة فوق وجوههم وتظاهروا بالموت؟ بعضهم كان قد ذهب إلى الجحيم فعلاً. تحرّكنا بصعوبة من كثرة القتلى، لنطهّر المكان الذي يُرمى علينا منه فقط، وذلك بسبب قلّة عتادنا وعديدنا. عند طلوع الفجر وصل إلينا خبر محاصرة الجنود العراقيّين للأخ أصغر وعناصر الهندسة؟ كانت الأمور تتعقّد وتزداد صعوبة مع مرور الوقت[1]. ارتفعت إلى جانب الأوتوستراد والجسر سحب من النار والدخان. عناصر الهندسة عرضة لنيران العدوّ، ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم لأنّهم لا يحملون السلاح

1 ـ بالمناسبة، تذكّرت الآن وأنا أسرد ذكريات تلك الليلة، بأنّني لم أؤدِّ صلاة الصبح يومذاك.

اللازم. توجّه محمّد تجلّايي وحسن نوبري برفقة خمسة أو ستّه عناصر نحوهـم، وبعد مواجهـات عنيفة استطاعوا فكّ الحصـار عنهم، ليصل من بقي منهم حيًّا إلينا. سقط عدد من عناصر الهندسة شهداء، وأسر بعض آخر لم يتمكّنوا مـن الخروج من الحصار، فيمـا عاد عدد منهم برفقة أصغر قصّاب. كما أصيب علي بهلولي برصاصة في البطن وهو في طريق العودة، لكنّه استطاع الوصول إلينا بطريقة وبأخرى.

عنـد شـروق الشمـس، وصـل إلينا خـبر محاصرة الأخويـن مهدي باكـري، محمود دولتي وعدد آخر من العناصر في قرية الحريبة. القرية التـي كان علينا السيطرة عليها لتستمرّ العمليـة وتحقق أهدافها، وهذا مـا كان يعلمـه الأخ باكـري أكثر مـن الجميع. فـورًا، توجّـه الأخ أصغر وعـدد من الإخوة نحو الحريبة. وهناك، رأيـت علي تجلّايي لآخر مرة، وفي طريقـه نحو القرية قـال: «إن كنتم تريدون البقـاء فابقوا، لكن من الأفضـل أن لا تطيلوا المكوث هنا، وأن تسحبوا الجرحى إلى ضفّة دجلة، وتقهقروا، فسرعـان ما سيصل العراقيّون إلى هنـا!». توالت الأحداث. ونفـد الرصاص منّـي. تذكّرت أنّ باصـر كان الليلة الماضيـة يلفّ حول صـدره شرشورًا من الرصاص. ذهبت إليـه، وإذ به قد خمدت أنفاسه. مددت يدي لأفكّ الشرشور من حول جسده، فهوى جسده الذي كان على هيئة القرفصـاء، إلى الأرض بمجرّد أن لمسته. تأثّرت كثيرًا. لا أعلم لِمَ يبس جسده بهـذا النحو. ومهما فعلت لم أستطع فكّ الشرشور من حول جسده. عدت إلى الإخوة خالي الوفاض وخائبًا.

كانـت المروحيّـات العراقيّـة الواحدة تلـو الأخرى، تنـزل الجنود في المنطقـة، ووضعنا يشتـدّ سوءًا لحظة بعد أخـرى. والآن جاء دور محمّد تجلّايـي ليخبرنـا بأنّ بعض الجنود بقوا سالمـين وأخفـوا أنفسهم بين جثـث القتلى للنجاة بأرواحهم. فإذا مـا باشر الجنود العراقيّون الجدد العمل، نهضوا وبثّوا سمومهم. عندما اطمأننّا نوعًا ما إلى أنّ المنطقة قد

طهّرت، اجتمعنــا حول رفاقنا الجرحى؛ قاســم هريسي، صمد قنبري، علــي بهلولي، حســن نوبري الذي أُصيبت يــده، والشهداء الذين سقطوا للتــوّ في تلك الناحية من دجلــة. على امتداد تلك المنطقــة الواسعة، كنّا فقط ثمانية أو تسعة أشخاص نقف على أقدامنا وحائرين!

- أنرجع؟! كيف؟

- أنبقى؟! كيف ذلك؟! وبأيّ عدّة وعتاد؟

العقــل يقضي بإرسال الجرحى الذين يستطيعــون المشي إلى الخلف مــا دام هناك فرصة لذلــك. ساعدناهم على النهوض وأرسلناهم إلى الخطــوط الخلفيّة، فيما بقي بعض الجرحــى الذين لا يستطيعون المشي عندنــا. وحيث لم يتخطّ عددنا أصابع اليديــن، أصبحنا عرضة لمختلف أنــواع النــيران، والتفــت العراقيّون إلى قلّتنــا أيضًا. حامــت الطائرات المروحيّــة فــوق سمــاء المنطقة، ووصــل الأمــر لدرجــة أن يستهدفوا كلّ شخص بصاروخ! لكنّنا لم نكن في وضع يسمح لنا بالاكتراث للمروحيّات وصواريخهــا. أصبحــت الدشمة التي بناها لي عنصــر الجيش جاهزة. أدخلــت قــاذف (B7)، وقطعتــي رشاشــن، وقطعتــي كلاشينكــوف إلى الدشمــة، وأذنت للفتــى بالانصــراف: «إن سرت في هــذا الاتّجاه بنحو مستقيم ستصل إلى خطوطنا الخلفيّة».

حقيقــةً، كان بقاؤنــا متحيّريــن في مثل تلك الظــروف أصعب من أيّ شــيء، فتوجب علينا اتّخاذ القرار والاختيــار؛ أنبقى؟ وربّما تصل قوّات الدعــم إلينا ونستطيــع الحفاظ على المنطقة... لكن مــع هذه الأوضاع، حتّــى الجســر الذي نُصب فوق نهــر دجلة لعبور الإخــوة ـ وعبرناه الليلة الماضيــة ـ تلاشى بفعل نيران الأعداء الغزيرة. في المقابل، أصبح الجسر الذي خاطرنا الليلة الماضية بحياتنا واستبسلنا في القتال من أجل تدميره معبـرًا للدبّابات العراقيّة القادمة من جهــة القرية، لتدخل الأوتوستراد وتتقــدّم نحونا. في تلــك اللحظات مــن الصباح، كنت كلّمــا نظرت إلى

الأوتوستراد، تتسمّر عيناي على جريحين من عناصرنا أصيبا هناك. لم أكن أعلم أهما من عناصر الهندسة أم لا، لكنّني واثق أنّهما من شبابنا، وأعلـم أنّهما ما زالا حيّين لكن لا يستطيعان الانتقال. ولم يكن الاقتراب منهما ممكنًا في تلك الظروف أبدًا.

جاء إليّ أمير: «سيّد! ما رأيك؟ ما الذي يجب علينا فعله؟!».

- لا أعلـم! لقد بقينا الآن هنا من دون ناصر! قيل لنا أن ننتظر قليلًا ثم ننسحب!

كنـت أتذكّـر كلمات علـي تجلّايي الذي ذهـب لمسانـدة الأخ مهدي والإخـوة المحاصريـن. في اللحظة عينها، وقع نظـري على ثلاث دبّابات للعدوّ تناور لعبور الأوتوستراد. ولو نجحوا في ذلك لانتهى أمرنا، ولَوصلوا إلينـا بسهولة. وصلت إحدى الدبّابـات إلى الأوتوستراد وراحت تتحرك بسرعـة، فلـم نستطـع ضربهـا. كانت عينـاي تتنقّلان بـين الجريحين المرميّين على الأوتوستراد، وقلبي يكاد ينقلع من مكانه. فالدخان والغبار والـتراب المنبعث جرّاء حركة الدبّابة، وصـوت مدفعها المتكرر وحركتها السريعـة علـى الأوتوستراد، كلّهـا أحداث تتالت أمـام ناظري. تقدّمت وتقدّمـت... ومـرّت على جسـدي جريحينا! علت الآه مـن أعماق قلبي. أحسسـت وكأنّني وحيد مقابل تلك الدبّابة اللعينة التي تقصف كلّ كائن حيّ تـراه. ركضت نحو الدشمة. شاهدتني الدبّابـة، فراحت ترمي عليّ مـن رشاشها المتوسط بنحو متواصل. كنـت أرتجف من الغضب والقلق، وأقسمـت أن أصيـب تلك الدبّابة. ثبّـتُّ الصاروخ في قـاذف الـ(B7) ، وتهيّـأت داخل الدشمة ورحت أنتظـر. انحرفت الدبّابة عن الأوتوستراد قليـلًا لتدكّ الدشمة فـوق رأسي. كانت زمجـرة الدبّابة من جهة، وكان صراخ أمير والإخوة الآخرين الذين كانوا من بعيد يراقبون المناكفة بيني وبينها من جهة أخرى. كاد أمير يقتل نفسه. راح يصيح: » سيّد! اتجهت نحوك... حاذر... لقد جاءت!«.

كنت ألهث. ضغطت قاذف الـ(B7) على صدري. لم تستطع الدبّابة أن تتقدّم من جانب الأوتوستراد وإلّا انقلبت. عادت إلى الجادّة وهي ترمي نحوي برشاشاتها. هنا أحسست بلذّة أن يكون حول الدشمة ثلاث طبقات. فلو أنّها دشمة عاديّة، بطبقة واحدة، لنُسفت من الزخّة الأولى. وها أنا الآن أنتظر مركزًا كلّ حواسي على تلك الدبابة، وأعلم أنّه عليّ الصعود في اللحظة المناسبة فوق الدشمة ورميها، وإلّا فمن المحال أن أبقى سالمًا من نيران مدفعيّتها. كانت الدبّابة تزمجر على الأوتوستراد وتتقدّم نحوي. تقدّمت ورأيتها تعبر من جانب إحدى الدشم. وفي لحظة، أراد رامي الرشاش توجيه فوّهة سلاحه نحوي فنهضت وأطلقت صاروخ الـ(B7) نحوه، لكن من سوء الحظّ، مرّ الصاروخ من جانب الدبّابة. تأوّهت؛ لقد عبر الصاروخ من جانب الدبّابة وأصاب دشمة في الجانب الآخر من الأوتوستراد، وفي لحظة واحدة هزّ انفجار مهيب الأرض من حولنا.

حيّر الانفجار طاقم الدبّابة. لم نكن نعلم حتى تلك اللحظة بوجود مخزن للأسلحة في الجهة الأخرى من الأوتوستراد، لكن شاء الله أن تصيب القذيفة ذلك المخزن، لتتفجر الذخائر خلال ثوان معدودة مصدرة أصواتًا مهولة. في تلك الأوضاع الحرجة، دبّت هذه الحادثة فينا الحياة من جديد. عدت من جديد لصيد الدبّابة. كنت على عجلة من أمري، ولم أستطع التهديف جيّدًا. أطلقت الصاروخ، فأصاب هذه المرّة العادم وانفجر. توقّفت الدبّابة عن الزمجرة، فصعد طاقمها من البرج محاولين الفرار. لم أشأ أن أدعهم يخرجون من الدبّابة وقد مرّوا لتوّهم بدبّابتهم فوق جسدي جريحينا. رميتهم جميعًا بالكلاشينكوف ولجأت مجدّدًا إلى الدشمة. وهنا هدأ صوت أمير. وضعت صاروخًا آخر في القاذف ورحت أفكّر أين أطلقه. فتّشت من حولي، وإذا بنظري يقع على خزّان للمياه قد نُصب فوق عدد من القضبان على مسافة عالية عن الأرض. يقع ذلك الخزّان على مقربة من قرية الحريبة، وكان يتجمّع

تحتــه عدد مــن الدبّابات والجنــود لإجراء تبديــل. أمّا طائــرات العدوّ المروحيّــة فما خفت قوتهــا وهي تمطرنا بالصواريــخ والرصاص من كلّ حدب وصــوب. استدرت نحو القرية، نقلت الــ(B7) من كتف إلى آخر، وهدّفــت بعيني السليمــة وأطلقت. انطلق الصــاروخ مباشرة واستقرّ في الخـزّان تمامًــا! تلاشى خـزّان المياه ورأينــا من بعيد انهمــار قدر كبير مــن الميــاه إلى الأسفل. بهذه الحادثة، تحسّنت معنويّــات شبابنا خاصّة الجرحى إلى جانبنا. تركت دشمتي وتوجّهت نحو الإخوة.

أربكتنــا المروحيّــات العراقيّــة، إذ كانــت ترمــي علينــا بالصواريــخ والأسلحــة الرشّاشة وبكلّ مــا بحوزتها من أسلحــة. في النهاية، اتخذنا قرارًا حاسمًا بالانسحاب، فالبقاء هناك بمنزلة الانتحار.

كان علــى كلّ عنصــر سليــم سحب واحدٍ من الجرحــى معه. هذا ما علّمتنــا إيّاه الحرب، مــا أصعبها من لحظات. رحت أنظر إلى الجرحى: «إلهــي أيًّــا من هؤلاء أنقل؟ صمــد قنبري، علي بهلــولي، قاسم هريسي أو...»، كلّما مررت من جانب جريح أرغب بأن أحمله معي. حيرة قاسية.

بقينــا ستّة أشخاص والنيران تنهمر علينــا من كلّ صوب، فيما نحن نتجمّــع استعــدادًا للعودة. كنّا المجموعــة الأخيرة التــي لم تنسحب بعد مــن المنطقة. فكّرت أن أحمــل معي صمد قنبري. توجّهــت نحوه، وكأنّه فهــم قصدي، فلاحت على محيّاه المتألّم ابتسامة. إلى جانبه كان قاسم هريســي، فلــم أرضَ بأن أنقل أحدًا غيره للحــال التي كان عليها. حملت قاسمًــا على ظهري وقلت لصمــد: «سأعود إليك مجــدّدًا!»، وكانت تلك الكذبة الأكثر مرارة التي يمكن أن تُقال في الحرب! ففي تلك الدوّامة، لم أستطع سحب سوى شخص واحد، وكان ذاك قاسم هريسي![1].

نقلت قاسمًا من كتف إلى كتف وانطلقت. لم يكن أمير بذلك الجسد

1 ـ بقــي صمد قنبري هنــاك، واستُشهد بعد أن وقع أسيرًا بيد العــدوّ، ليُسجّل اسمه الطاهر في عداد قافلة شهداء بدر.

ليستطيع أن يكون مساعدًا جيّدًا في حمل جريح، لكنّه وقف إلى جانبي وحمى ظهري برماياته. بدأنا الجري بسرعة. إلى أن وصلنا إلى المكان الذي بدا وكأنّه أرض محروثة، يصعب المشي عليها، فكيف بالركض وبتلك الحال أيضًا. عمل أمير على تشتيت انتباه العراقيّين، لأتمكّن أنا من الجري براحة. كنّا في دائرة نظر الرشّاش الهادف إلى قتلنا، والنيران تنهمر علينا بشكل متواصل من جهة القرية ومن المروحيّة. ركضت بما تبقّى فيّ من قوّة بعد كلّ تلك الأحداث. تارةً كنت أنظر إلى الأرض، وأخرى أمامي. رأيت القمح قد نبت من قلب التراب، ووصل ارتفاع السنبلة إلى مفصل القدم أحيانًا في بعض الأماكن. تذكّرت قريتنا! خفّفت رمايات أمير إلى حدّ ما من رمايات العدوّ الأرضيّة نحونا، لكنّها لم تستطع منافسة المروحيّة التي استمرّت بالتهديف علينا. كانت تحوم فوق رؤوسنا وزخّات نيرانها المتواصلة تفلح الأرض في قطر سنتيمترات حولنا، والصواريخ تتساقط من وقت لآخر على بعد عدّة أمتار منّا. كنت متيقّنًا أنّ الله سبحانه لم يشأ أن أُصاب بشظيّة أو رصاصة. أمّا طلقات السيمينوف الآتية من جهة قرية الحريبة، فقد زادت الطين بلّة، وأصابني طرق رصاصها بالتوتر. المسكين أمير، تبلّل عرقًا وتلطّخ بالتراب، إذ راح يجري ويطلق النار كي أسير في ظلّ رماياته براحة بال. جرينا من دون توقّف إلى أن وصلنا إلى جانب لوحة. وهناك أحسست بالعجز! كأنّ عضلاتي اشتعلت بأكملها، ولساني قد يبس، وكاد نفسي ينقطع. كانت لوحة عراقيّة كُتبت عليها كلمات باللغة العربيّة. ناديت أميرًا: «أمير! أسرع، علينا أن ننزع هذه اللوحة». وفورًا كسرنا رجلي اللوحة ومدّدنا قاسمًا عليها وقد شحب وجهه. حملت اللوحة من جانب وحملها أمير من الجانب الآخر. أصبح كلّ همنا الآن الوصول إلى ضفّة دجلة. ركضنا بما تبقّى فينا من قوّة، وإذ برصاصة قنّاصة تصيب قاسمًا في ضلعه. علا أنينه: «آخ يا أمّي! لقد متّ!».

- لا تخف! لا زال هناك وقت طويل لتموت!».

كنّا نجري من دون توقّف، وعندما تطلق المروحيّات صاروخًا باتّجاهنا، ننبطح ونضع قاسمًا على الأرض. يعلم الله كم عذّبَنا أن نلملم أنفسنا في تلك الظروف وننهض من جديد. اقتربنا من خطّ دفاعنا ولم يكد يبقى فينا رمق، وارتحنا من صلافة المروحيّة العراقيّة. أثار دهشتي عند ضفّة دجلة ازدحام قوّات الجيش وعدد من عناصر فرقة النجف. لقد تلاشى الجسر الذي نصبناه فوق دجلة لعبور الأفراد، بفعل الشظايا والقصف المتكرر له. وكانت القوارب الوسيلة الوحيدة المتاحة لنقل العناصر إلى الجانب الآخر من دجلة، جماعات جماعات. تحرّك القارب الأوّل من دون أن يسمع أحدٌ صوتنا وصوت جريحنا. أصابني الذهول، فهنا لا يعرف أحد أحدًا. توجّهت إلى أمير قائلًا: «أمير! اذهب وفتّش لنا عن قارب!». أردت أن أعبر بقاسم من دجلة بأيّ ثمن. كان بإمكاني وأمير عبور دجلة سباحةً، لكن ليس من اللائق إيداع جريحنا الذي كابدنا كلّ هذا العناء لإيصاله، لدى الغير.

- سيّد! يوجد هناك قارب، لكن كأنّه متروك منذ وقت طويل!

ذهبنا في الاتّجاه الذي أشار إليه أمير. كان محقًّا، فقد تُرك القارب منذ عملية خيبر واهترأ. مددنا أيدينا لنسحبه، فتلاشى بينها! أكثر ما آلمني حينها كان أنين قاسم. بقينا هناك قرابة الخمس أو الستّ دقائق، ولم يُسمح لنا بالاقتراب من القارب الثاني الذي يُملأ بالعناصر.

- لقد أتيتم بعدنا، لذا ستركبون بعدنا!

استشطتّ غضبًا. ومهما قلت لم يسمعني أحد. من شدّة الانزعاج والتعب لم أعد أستطيع الكلام، فكيف بالبحث والجدل. اضطُررت لأن أشهر سلاحي في وجوههم: «هذا جريح! ينبغي لنا العبور بأسرع ما أمكن!».

ألقوا نظرةً علينا، وتنحّوا جانبًا عند رؤيتهم لحالنا. وضعت وأمير

قاسـم في القارب وانطلقنا. المسكين قاسم علت صرخته، لكنّه كان يعلم هـو نفسه أيضًا أيّ حالـة نعانيها. لم يفكّر أحد بالاحتياط ومراعاة حال الجريـح. لم أستطـع تحريـك لساني في فمي مـن شدّة العطش. وكلّما أردت الماء من أحـد أجابني: «لا تشرب من ماء دجلة، فقد سمّموه!». لم أشرب وعبرت النهر عطشـان وتعبًا. ما إن وطِئَتْ أقدامنا الضفّة، حتّى مزّقنا لباس قاسم. كان المسعفون هناك منهمكين جدًّا في عملهم في تلك الزحمـة. توجه نحونا شخصـان، وفورًا قاما بتضميـد جراحه ووضعوه في سيّـارة الإسعـاف إلى جانب بعض الجرحى. شعـرت بالراحة عندما انطلقـت سيّـارة الإسعاف لإنجـاز نقلنا جريحًا من أرضـ المعركة. وما علمنا في تلك الأثناء أنّ الشهادة قد كُتبت لقاسم هريسي في عملية بدر. أخبرني الإخوة بعد ساعة، أنّه لم تكد سيّارة الإسعاف تبتعد قليلًا، حتّى قُصفـت بصاروخ من مروحيّة عراقيّـة، فاشتعلت النيران بها واستُشهد كلّ من بداخلها...

◘

اتّجهنا نحو دشمتنا متعبين، شعثًا غُبْرًا، ملطّخين بالدماء من رأسنا إلى أخمص قدمينا. كنت فرحًا لكوني تركت الليلة الماضية بعض العصير ومعلّبـات التونة في الدشمة، وهي الآن تنتظرنا لنتناولها. لكن تراءت ليَ الدشمـة مـن البعيد بشكل آخـر. لقد تدلّت منها جثـة شخص ضخمة. ومن شدّة ضخامة ذاك الشخص، فإنّه لم يستطع دخول الدشمة، بل مدّ رأسـه داخلها فقـط وأكل منها كلّ ما أراد أكله. بلـغ غضبي مداه. أردنا أن نزيل التعب والعناء عن أنفسنا، ونستردّ طاقتنا المتلاشية إلى حدّ ما. قبـل كلّ شيء ركلته ركلتـين على ظهره. فراح يتكلّـم بصوت غليظ وهو نصف نائم!

- لا! لن أخرج!

وهنـــا وجّهت سلاحي نحوه، وأطلقــت زخّة من الرصاص بين قدميه. أراد الخــروج من الدشمــة بسرعة، فــإذا برأسه يرتطــم بسقفها. كان يسأل خائفًا: «ماذا؟! ماذا حصل؟!...».

- من أذن لك بالدخول إلى هنا؟

- وما الذي حصل الآن؟!

ألقيــت نظــرةً إلى داخــل الدشمة؛ فرأيته قــد أكل كلّ شــيء، ورمى بالعلــب داخل الدشمة. اشتدّ غضبي أكثر. نظــرت إليه ثانيةً. لم أعرف اسمــه، لكنّه من شباب كتيبتنا الذين تخلّفــوا الليلة الماضية عن العملية وبقــوا هنــاك. ضغطت فوّهة بندقيّتي في صدره وقلــت له: «لديك خمس دقائــق لتنظّف المــكان ولتأتي بمثل ما أكلت وتضعــه في مكانه!». أشفقت عليه لقلّة تفكيره: «يا عمّ! اصبر لأذهب وسأحضر لك كلّ ما تطلبه».

- انظــر! إن هربــت، سأجــدك وأقتلك! أكاد أسقط مــن شدّة التعب والجوع. اذهب بسرعة و...

أدرك كــم أنا جدّي. وفورًا، أخرج كلّ النفايات من الدشمة، وفي ظرف عدّة دقائق، أحضر لي كيسًا مليئًا بالخبز وعلب التونة والمرطّبات و... وضعه أمامــي وقال: «تعال يا سيّــد! كلّ ما تريد!». انهمكت وأمير بتناول الطعام، فيمــا هو جالــس إلى جانبنا. وهذه المــرّة جرّنا هو إلى الــكلام وأصبحنا أصدقاء: «ماذا هناك من أخبار عن الخطوط الأماميّة يا سيّد؟».

- إن أردتَ، اذهبْ بنفسك واكتشف!

أمضيتُ أوقاتًا مريرة. فمنذ أن عدنا التقيت بشخصين أو ثلاثة ممن قــد تخلّفــوا عن الالتحاق بنــا ولا زالوا هناك. عاتبتهــم بغضب: «إذا لم تأتــوا معنا، فاذهبوا بالحــدّ الأدنى وأحضروا الجرحــى». لكن لو كانت القضيّــة قضيّــة كلام، لسمعــوا كلام قائدنا أصغر قصّــاب الذي ألقى عليهــم الحجّة بالأمس. فمــع أنّنا جميعًــا عانينا التعــب، إلّا أنّ البعض

تخـاذل واعتـبر أنّه أدّى واجبه، وهـا أنا الآن أتأذّى بشـدّة حين أراهم. استعـدتُ شيئًا من قوّتي بتناول القليل من الطعام والشراب. بقيت أفكّر فيمـا حصل معنا: «إلهي! مـا الذي حصل للأخ مهدي، والأخ علي، والأخ أصغر؟ وماذا يجري الآن في الجانب الآخر من دجلة؟!».

وبالرغـم مـن أنّني لم أُصـب في كلّ تلك الأحداث بـأيّ جرح، لكنّني أشعر وكأنّ رصاصـة حامية تشتعل في حنجرتي وقلبي. قلقتُ وأحسست بأنّ أحدًا لن يراهم ثانيةً.

صـار لدينا إلمام بوضع المنطقة الأماميّة، لكنّ الكثير من العناصر لم يعرفـوا شيئًا عن الأوضاع هناك وما حصل معنا. لقد قصف العراقيّون المنطقة بشدّة، ووثقنا بأنّهم أصبحوا أكثر جرأةً وسيتقدّمون. لم أستطع أن أفهـم، لمـاذا بقينـا وحدنا الليلة الماضيـة والعمل كان يحتـاج لسريّة أو حتّـى لفصيـل ليُنجز؟! فكّـرتُ فيما بيني وبين نفسـي، فقط لو تقدّم عناصر التجهيزات هؤلاء للقنص، لاستمدّينا القليل من القوّة، ولو دُمّر الجسـر لقضي الأمـر؛ ولأمكن حينهـا لعشرة أشخاص أن يقفوا بوجه العدوّ، بسبب قطع الاتّصـال فيما بين القوّات العراقيّة، وطبيعة المنطقة المليئة بالمستنقعات...

شـرع العدوّ يقصف خطوطنـا الخلفيّة بشدّة. اختـلّ التنسيق بيننا، ولم يعـد واضحًا من هو المسؤول ومن هو غير المسـؤول؟ تقدّمت القوّات العراقيّـة ووصلت إلى الساتر الترابي الذي انطلقنا منه لتدمير الجسر. اشتـدّ الوضع سوءًا كلّ لحظة. فالكتائب التي كانت في الخطوط الخلفيّة قُصفـت. وما صبّ الزيت علـى النار أنّ العدوّ العـديم المروءة استخدم الأسلحة الكيميائيّـة، فاستُشهد جمع كبير من الإخوة. اضطّرت القوّات الموجـودة في الخطوط الخلفيّة إلى استعمال الأقنعة الواقية فيما لم نكن نحن الموجودين في الخطوط الأماميّة نعلم شيئًا أبدًا.

كنـت وأميرًا إلى جانـب دشمتنا مع ما يقارب الثلاثـين شخصًا من عناصـر التجهيزات. غاب عنهم قبـل عودتنا كلّ ما يحدث في الخطوط الأماميّـة، ويظنّون بأنّنـا سيطرنا على المنطقة؛ وكأنّـه من المفترض أن ننتصـر في كلّ مكان نتوجّه إليه مع قادتنا! تحدّثت إليهم فقط عن جرح الإخـوة، ومحاصـرة الأخ مهدي وعلي تجلّايي وعدد آخـر من مقاتلينا. كـدت أُجنّ من مجـرّد التفكير بأنهـم ربّما استشهدوا! مـا أثقل انتظار أيّ خـبر قطعي! حثثت قدر الإمكان الشباب، وقلـت لهم إنّه لا ضير من التقـدّم ومساعدتهم، ويمكننا بالحدّ الأدنى نقـل الجرحى إلى الخلف، لكنّنـي أحسست بأنّ لا كلام مثل الرؤية بأمّ العين، لن يدرك الإخوة هنا فحوى كلامي، حتى يتلمّسوا حساسيّة الوضع.

لقد فقدنا للتوّ سيطرتنا على الأوتوستراد، ولم تكن القوّات العراقيّة قد استقرّت فيه بشكل تامّ. بل تشتّتت وكذا قوّاتنا، والرابح في هذه الأثناء هو من يتّخذ زمام المبادرة بنحو أسرع. لقد شاهدنا قلّة العناصر في الخطوط الأماميّة، وها نحن الآن نشاهد كثرة القوّات في الخطوط الخلفيّة، والذين لم يكن لديهم إلى الآن تصوّر واضح عن مشهد المواجهة. كان العراقيّون يُنْزِلـون قوّاتهـم إلى أرض المعركة بنحو قتالي، أمّا مـن جانبنا فلم يُرى أيّ تحـرّك جدّي لنقل العناصر إلى الميدان. لا شك وجدت عوائق لوصول الإمـدادات كما توقع سابقًا أحد القـادة حين هيأنا للمعركة. ونظرًا لبعد المنطقـة، لم تكن رمايـات مدفعيّتنا فعّالة كفاية، فيمـا لم تكفّ المدفعيّة العراقيّة عن قصف المنطقة بشدّة بغطاء من الطائرات تحوم فوق رؤوسنا وتغير علينا. مـا إن يدمّر عناصرنا ناقلة جند، حتى تأتي مروحيّة أخرى على الفور وتنزل مجموعة أخرى من الجنود. لقد باشر العدوّ العمل بجرأة وتنسيق غريبين، وأنا أتآكل من الداخل وأتساءل لِمَ لا تُرسَل قوّات الدعم إلينـا؟! على كلّ حال، لم تنفع الحسرة، لقـد خسِرنا المنطقة الحسّاسة، التـي ثبت أنّ الحفاظ عليها صعب، ولم يكن خـطّ دفاعنا في هذه الجهة

من دجلة مهمًّا كثيرًا، حيث سيلزم القوات العراقية بعض الوقت لعبور النهر إذا ما أرادت التقدّم، وفي هذه الأثناء نكون قد تهيّأنا للمواجهة... بالطبع، هذه الأمور كلّها عبارة عن تقديري وانطباعاتي عن أوضاع المنطقة كجنديّ مقاتل، ولربّما كان لدى القادة في الإدارة العليا محاذير تمنع نقل القوّات، وربّما عشرات الاحتمالات والأسباب الأخرى...

توجّهت وأمير إلى الخطوط الخلفيّة متعبًا وخائبًا. لا زال الجسر الذي نُصب من جزيرة مجنون إلى اليابسة مرفوعًا، والآليّات لا زالت تتردّد عليه. توجّهنا نحو الجسر، والقصف المدفعي والجوّيّ لا يزال مستمرًّا. لقد قُصف المكان هناك بشدّة حتى تداخلت الدشم بعضها ببعض. استأت بشدة عندما رأيت منظر الدبّابات المحمّلة بالجنود وهم في حالة جهوزيّة؛ لدينا كلّ هذه الدبّابات والقوّات ولا يرسلونها إلى الخطوط الأماميّة! تحدّثت إلى شخص أو شخصين من عناصر الجيش، وسألتهما: «لمَ أنتم هنا؟!».

– طُلب منّا أن نبقى هنا! كيف هو الوضع في الخطوط الأمامية؟

– ليس لدينا قوّات هناك! هذا كلّ شيء!

لم أستطع أن أصف بلغة أخرى ما شاهدته. أردت وأمير العودة مجدّدًا إلى منطقتنا في الخطوط الأمامية، لكن، لم نكد نبتعد عن الجسر قليلًا، حتّى ظهرت الطائرات العراقيّة وقصفت المكان؛ وبالسلاح الكيميائي هذه المرّة. لم يكن لديّ أنا وأمير قناع. فتّشتُ حولي عن قناع فلم أجد. كلّ ما فعلته هو أن بلّلت سجّادة صلاتي بماء القناة ووضعتها على وجهي. مع ذلك، استنشقت كمّيّة من الغاز السامّ. بدأت حالي تسوء، فركضت هذه المرّة وأمير إلى الخلف إلى أن وصلنا إلى سيّارة إسعاف وركبناها لتأخذنا إلى إحدى غرف الطوارئ. وعلى الفور، أعطونا حقنة، ثم نقلونا إلى الأهواز. وبهذا، خرجنا من منطقة عملية بدر وجزيرة مجنون. ▫

أُجريت الإسعافات اللازمة للمصابين بالسلاح الكيميائي في مستشفى يقع على جادّة خرّمشهر - الأهواز. جُرّدنا هناك من ثيابنا، وبعد الاستحمام، أعطونا محلولًا لنغسل به بدننا، ثمّ ألبسونا ملابس جديدة. من هناك أرادوا ترحيلنا إلى طهران عبر الطائرة، فلم نذهب. رأينا أنّ إصابتنا ليست سيّئة لهذه الدرجة، ولأنّ قاعة المستشفى غصّت بالجرحى أيضًا، قرّرنا من تلقاء أنفسنا تركها والفرار إلى قيادة الفرقة في قاعدة الدفاع الجوّي في الأهواز. هناك وضع تحت تصرّف فرقة عاشوراء عدد من الوحدات السكنيّة من مبانٍ جاهزة كانت مقرًا للجيش، وكان فيها عدد من عناصرنا، وقد اصطحبَنا بعضُ معارفنا الذين التقيناهم هناك إلى غرفهم.

في المستشفى، ظننّا أنّنا بخير حين شاهدنا حال الإخوة الذين أُصيبوا إصابات بالغة جرّاء القصف الكيميائي. لم أصدّق بأنّ استنشاق كميّة قليلة من المواد الكيمائيّة يؤثّر في الإنسان إلى هذه الدرجة. فقد بقينا لأيّام نتقيّأ كلّ ما نأكله، ولم يدعنا الدوار نتحرك من مكاننا، ولم توصف حالتنا بغير جيّدة بالمطلق. كلّ من سمع بقصّتي من الإخوة كان يأتي لزيارتي، ويصرّ عليّ لأذهب إلى المستشفى. قلت لهم إذا أردتم إرسالي إلى الخطوط الخلفيّة، فخذوني إلى تبريز، فهناك يوجد مستشفيات سأتعالج فيها. لو وضعت هذه الإصابة في كفّة، وغمّ بدر وغصّتها في كفّة أخرى لرجحت الثانية. وقد حوّل خبر شهادة قادة فرقة عاشوراء: الأخ مهدي باكري، علي تجلّايي، أصغر قصّاب، محمود دولتي، أكبر جوادي و... في أواسط آذار من العام 1985م، أيّامنا جميعًا إلى مأتم وعزاء[1].

فيما بعد سمعنا بأنّهم تمكّنوا من الحفاظ على منطقة فرقة الإمام

1- عاد جسدا الشهيدين أصغر قصّاب ومحمود دولتي إلى أحضان الوطن بعد سنوات من الغربة، ودُفنا في وادي الرحمة. أمّا الجسد المطهّر للشهيد مهدي باكري فقد دُفن للأبد في مياه دجلة، فيما بقي الجسد الطاهر لعلي تجلّايي مجهولًا إلى الأبد. دامت ذكراهم منارة في حياتنا.

الحسين عليه السلام إلى حدّ ما، فيما انسحبوا من باقي المناطق[1]. وسط هذه الظروف، كانت هناك حافلة متوجّهة إلى تبريز، فطلبوا منا أن نركبها ونترك المنطقة. بكلّ ما حملناه عدنا إلى المدينة وانفصلنا عن عملية بدر. العملية التي كانت بمنزلة عاشوراء ثانية لفرقة عاشوراء!

عندما وصلنا إلى تبريز، بقينا أربعة أيّام في المستشفى؛ وتحسّنت أحوالنا إلى حدّ ما[2]. لكن، أَوَ هَل يمكن للوعة شهداء بدر أن تتحسّن؟ شهادة «علي أكبر مرتضوي» الذي يناديه الصغير والكبير «بابا»، في تلك الليلة التي وقفنا فيها وجهًا لوجه أمام الدبّابات، وشهادة «باصر» والحنجرة التي كانت تقرأ مجالس عزاء أهل البيت (عليهم السلام)، شهادة «أصغر قصّاب»، شهادة «قاسم هريسي»، «خليل نوبري»، «علي تجلّايي» الذي كان من أدمغة الحرب وأدمغة مقرّ الخاتم [خاتم الأنبياء]، وحضر بيننا في عملية بدر كتعبويٍّ مجهول، وشهادة قائد فرقة عاشوراء الباسل الأخ «مهدي باكري» و... أَوَيمكن لأحد أن يسدّ مكانهم في الفرقة؟

1ـ علمنا فيما بعد أنّهم أحدثوا طريقًا ترابيّة فوق الماء، بواسطة الجرافات التي نقلت الرمال والتراب من جانبي النهر وردموا فيها جزءًا من المياه ليصبح طريقًا. وبذلك تأمّنت تلك الناحية من الجزيرة التي كانت بأيدينا بشكل أفضل.

2ـ ما زلت إلى الآن أعاني من آثار الإصابة بالسلاح الكيميائي. فعندما أسعل يصيبني الغثيان ويزعجني كثيرًا. أحيانًا يصل الأمر إلى درجة أن تلتهب حنجرتي وتؤلمني بشدّة، لكنّني كنت غالبًا ما أنشغل بجراحاتي الأخرى التي كانت أشدّ بمرّات من عوارض الإصابة بالكيميائي.

الفصل العاشر

# كتيبة «أبو الفضل»

1

كان «وادي الرحمـة» المكان الوحيد في المدينة الذي يسـكّنني ويهدّئ خاطـري. لم أنجـذب إلى هناك للبـكاء، ولم أرده أساسًـا. أكثر ما كان يدفعني للذهاب هو رؤية صـور الإخوة، واستذكار العهود السابقة برؤية صورهـم. أردت عند زيارتهم أن أتذكّر مـن رافقتهم ذات يوم، وهنا في محضـر أصـدقائي الشـهداء، أتذكّر أيام الجبهة التي قضـيناها معًا، الأحاديث، المزاح، مجالس العزاء والعمليات...

بدأت تردِ أخبار عن عودة الأصـحاب. لقد أُدخل أغلب الجرحى إلى مستشفياتِ المدن الأخرى، وحان الآن موعد عودة الشهداء[1]. ويا لها من عودة لشـباب الكتيبة! كنّا نشـيّع يوميًّا ما بين الـ40 والـ50 شـهيدًا، دُفن أغلبهـم في وادي الرحمة. حزينة هـي آخر أيام آذار عام 1985م*. كنت وأمير نشـارك يوميًّا في مراسم تشـييع الشهداء. الشهداء الذين تدرّبنا وإيّاهم جنبًا إلى جنب، وضـربنا معًا العدو في قلبه، وتشـاركنا معًا أكثر التفاصيل خصوصية و... وها نحن الآن نودّعهم إلى قلب التراب. في كلّ مرّة أذهب فيها إلى وادي الرحمة، أزداد خجلًا من بقائي. أشعر كأنّني لا أملـك شـيئًا أقدّمـه لله، وأنّ الله لم يعتبرني أهلًا للشـهادة، ولكن ما أسـعدني هو بقاء «أمير» سـالمًا، فبالرغم من أنّ الكثيرين ذهبوا، إلا أنّ

---

1 - تم تشـييع شـهداء عملية بدر شيئًا فشـيئًا، عدا أولئك الذين استشـهدوا في المرحلة الأخيرة من العملية شرق نهر دجلة قرب الأوتستراد أو في القرية، وبقيت أجسادهم الطاهرة هناك.

* - إيام بداية السنة الإيرانية الجديدة (فرفردين 1366).

وجود «أمير» لا يزال مؤنسًا. سنعود إلى الجبهة، ونكون معًا. لقد عشتُ هذه الحال مرّات عدة خلال سنوات مشاركتي في ساحات الحرب، وكنت أعلم أنّ الهمّ والحزن الذي ينتابني خلال تشييع الشهداء ودفنهم، لا يساوي شيئًا أمام ما نقاسيه عند العودة إلى منطقة العمليات، حيث نجد خيام الكتيبة خالية من الأحبة ومحيطها ساكنًا! خصوصًا بعد عملية بدر. كيف يمكن البقاء في كتيبة الإمام الحسين عليه السلام؟ كيف يمكن البقاء، والتحدّث إلى القادمين الجدد عن شجاعة وغيرة الأصدقاء الذين كانوا بحسب قول قادتهم يقتحمون قلب النار. كيف يمكن البقاء، وانتظار أن يأتي عناصر جدد ويأخذوا مكان الأصحاب الذين رحلوا، ويصبحوا معارف لنا. كانت سعادتي الوحيدة في بقاء «أمير» سالمًا وإلى جانبي.

تكاد المساحة المخصّصة لدفن الشهداء في القسم السفلي من وادي الرحمة تمتلئ. فجأة التفت إليّ «أمير» وسألني: «هل يمكن من الآن شراء قبر في هذا المكان؟».

– كلا! القبر هو قبر. لا فرق، سواءٌ كان في الأعلى أو في الأسفل!

قلت هذا مع علمي أنّه ثمّة فرق بالنسبة إلى أمير. فغاية مناه أن يدفن – بعد شهادته – بين صفوف الضرائح في القسم السفلي من وادي الرحمة ليكون إلى جانب أصدقائنا، وقد صرّح بهذا مرارًا. ومع أنّ كلام «أمير» لم يأتِ بجديد بالنسبة إليّ، إلا أنّ فؤادي أصبح فارغًا لسماعه، فحتى ذلك الحين لم يستوطن أحدٌ قلبي كما فعل هو. كنّا قد جلسنا في خلوة إلى جانب مزار أحد الشهداء عندما قال ثانية: «سيّد! عليك أن تؤكّد في وصيتك بأن أدفن إلى جانبك إن استشهدت قبلي!». قاطعته قائلًا: «هيا بنا يا أمير!... إن أنا استشهدت، فأملي ألّا يبقى منّي شيء ليُوارى في الثرى! أضف إلى هذا... أنا أعرف نفسي، وآسِفٌ لأنّني لست من أهل الشهادة». بهذه الكلمات غادرنا وادي الرحمة. ولكن أنّى لي أن أعلم أنّ «أمير» سيحقّق مراده قبل نهاية العام الجديد!

▫

كان يضيق صدري من المدينة، وأنفر منها مع أنّني عقدت قراني حديثًا، ولم آتِ في إجازة إلى المنزل خلال فترة التدريب التي سبقت عملية بدر سوى مرّة أو مرّتين، في ازدحام من الأعمال لإنجازها خلال يومين على الأكثر. كان أبي منشغلًا ببناء منزل على قطعة الأرض التي أعطِيَت لي بعد عملية خيبر، وقد اكتمل حتى ذلك اليوم بناء جدران الطَابق الأول. بالطبع فإنّ قصة هذا المنزل جديرة بالاستماع.

في صيف العام 1984م، وبعد انكشاف أمر العملية المقرّر تنفيذها في منطقة «زيد»، اضطررنا لأخذ إجازة، في الأيام نفسها حيث كانت عائلتي تصرّ عليّ للزواج. وحدث ذات مرّة أن تحدّثت مع أخي في هذا الموضوع. سألني أين سأسكِن زوجتي إن تزوجت، فسألته إن كان باستطاعته أن يمنحني إحدى غرف منزله لمدّة، وجاء جوابه سلبيًّا. لكنّ الشيء الذي أحزنني كثيرًا أنّه قال: «نور الدين! حاول أن تفكّر بمعيشتك كي لا تصبح غدًا –بعد انتهاء الحرب– عاطلًا من العمل أو عيلة على أحد!».

صدمني كلامه بشدة. كان ذاك ما يعتقد به أكثريّة الناس، وقد أتى الآن من يخبرني بصراحة عمّا يتصوّره القاعدون عن حال المقاتلين بعد الحرب. أدليت بجوابي الوحيد آنذاك: «أنا لا أصدّق أنّ الذي ضحّيتُ بنفسي في سبيله، سوف يسمح بأن يأتي يوم أكون فيه عاطلًا من العمل، أو عيلة على أحد». لقد تضاعف حزني؛ فمن جهة غصّة افتضاح أمر عملية منطقة زيد، والآن هذا الأسى...

في ذلك الوقت، عدت إلى الجبهة. ومهما فعلت لم أستطع أن أجد حلًّا لمشكلتي هذه. بل كنت أزداد حزنًا مع مرور الأيام. في إحدى الليالي لم أستطع النوم بالرغم من محاولاتي الكثيرة. أحسست وكأنّني أختنق. خرجت من الدشمة. توضّأت وذهبت إلى مصلى الكتيبة. وقفت للصلاة. وأيّ صلاة كانت تلك الصلاة! فمنذ التحاقي بالجبهة كانت تلك المرّة الأولى التي أغتمّ فيها من أجل مسائل مادية. توجّهت إلى اللّه

باكيًا: «إلهي، أنا راض بقضائك، وأبذل روحي في سبيلك، لكن لا تتركني وحيدًا... والطف بي في جميع الأمور...».

بعد أن فرغت من صلاتي، شعرت بالخفّة (الراحة) لفرط ما بكيت. عدت إلى الدشمة. لم يكن قد طلع الصبح بعد، لكن كان عدد من الإخوة لا يزالون مستيقظين، وقد رأوا حالي ومآلي: «أجل، سيّد، تقبّل الله أعمالك، نراك عائدًا من صلاة الليل؟».

- كلا! فأنا لست من أهل صلاة الليل.

- إذًا أين كنت وقد بكيت كلّ هذا البكاء؟!

- لا شيء! إنّني لم أطلب من الله حتى الآن شيئًا ماديًّا. ذهبت الليلة لأطلب منه أن يعطيني شيئًا... منزلًا...معيشة!...

أصبحت موضع جدل بين الأصدقاء: «اُنظر يا هذا! الجميع يفكّرون بالعملية وبالشهادة! والسيّد يفكر بقطعة الأرض والمنزل!».

- إنّ طَلبَ المنزل والأرض هذا ليس بدون سبب!

نظرًا إلى حالي الجسدية حيث عانيت منذ العام 1982م من جراح بنسبة 70%، فقد أخبروني في قسم الإسكان في مؤسسة الشهيد أنّه يجب أن أتمّ الـ25 سنة من عمري، أو أكون متزوّجًا كي يعطوني قطعة أرض. قلتُ: «دعك من الزواج! افرض أنّ عمري 25 سنة!».

- لا! هذا قانون.

كان عمري آنذاك 20 سنة. قلت لهم إنّني سأعمل على استصدار هوية جديدة أغيّر فيها تاريخ ميلادي!

- هذا لا يمكن! اذهب وتزوّج، وأعدك أنّه في اليوم الذي تُحضر فيه وثيقة زواجك، سأرسل كتابًا بشأنك إلى الدائرة العقارية.

- كأنّ الزواج بهذه السهولة! أنا لا أملك مالًا ولا عملًا! من سيزوّجني ابنته والحال هذه؟ كما إنّني أقضي معظم أيامي في الجبهة.

في ذلك اليوم، أكّد لي مهندس قسم الإسكان أنّه بمجرد تقديم وثيقة الزواج سييسّـر أمري[1]. مضت أشـهر عدّة حتى ركبت الطائرة المعهودة متوجّهًـا إلى تبريز، وطُرح هناك موضوع الـزواج، وتذكّرت كلام ذلك المهندس في مؤسسـة الشهيد. عندما قدّمت له وثيقة زواجي عرّفني إلى الدائرة العقارية بكلّ محبّة وسرور. رافقني «أمير» في هذه المراحل أيضًا، وقد أمنّا المسـتندات والوثائق معًا، وقدّمناها إلى الدائرة العقارية. كان أحد المهندسـين في غاية اللطف معنا، وقال إنّه سيعطينا قطعة أرض في أيّ مكان نطلبه. وبما أنه نشـأنا وعشنا بالقرب من محطة القطار، فقد اقترحت مكانًا قريبًا من هناك.

عـدت وأمير إلى الجبهة. في الإجازة التالية، تلقّينا كتابًا من الدائرة العقاريـة مفاده إنّ قطعـة الأرض جاهزة، وعلينا اسـتكمال الإجراءات اللازمـة. ذهبنـا إلى الأرض وتفقّدناها. وبالفعل فبعد مضـيّ 45 يومًا تمامًـا علـى طلبي من الله تعالى في مصلـى الكتيبة، كنـت قد تزوّجت، وحصلـت على قطعـة أرض أيضًـا! ذهبت وأمير لاسـتلام الأرض. كان سـعر المتر الواحد 70 تومانًا، وقد حصلـت على حسـم بسـبب إصابتي، وحصلـت على الأرض بمبلغ 5 آلاف تومان، اقترضتها من أمير، واتفقت معـه على أداء الدَّيـن في الموعد المحدّد. عندمـا رأى أخي قطعة الأرض قـال: «أنا أعطيك منـزلي في مقابل هذه الأرض!». لم أقبل. بعد أشـهر عدّة، أصـبحت المنطقة أكثر عمرانًا. اقـترح أخي أن أتنازل عن الأرض في مقابل بيته وسـيارته، فلم أقبل بهذا الاقتراح أيضًا. تدريجيًا، بسعي والـدي وهمّته، بدأت أعمـال البناء. مرّة أخرى تحـدّث إليّ أخي وقال: «سأعطيك منزلي وسيارتي في مقابل طابق واحد من هذا المبنى». أجبته هـذه المرّة قائلًا: «حـان الوقت الآن كي نتحدّث قليـلًا. هل تذكر عندما قلت لي – قبل أشـهر عدة – إنّه من غير المعلوم كيف سيكون وضعي بعد

1 – لقد وفى بوعده. وقد استشهد في الجبهة لاحقًا، رحمه الله.

الحـرب. أنا الذي لم أكن أملك 5 آلاف تومان لأدفعها للدائرة العقارية، رزقنـي الله منـزلاً كهذا. أريد أن تعلم أنّ الله الذي جاهدتُ في سبيله، لم ولن يتركني لحظة واحدة ويذلّني بين خلقه». بالطبع أكّد لي أخي أنّه إنّما قال ما قال محبة لي وقلَقًا عليّ... لقد ثبت لي مرات عدّة أنّ رحمة الله ولطفه أكثر ممّا نتصور.

▫

كان الكفـاح في بنـاء المنـزل على عاتق والـدي. لقد جهد كلّ سـعيه لأحصـل على الراحة والطمأنينة، الشـيء الذي لم أكن أفكّر به أساسًا. لقـد أخجلتني جهود والدي، سـواء في الأيام التي كنـت أتعالج فيها من إصـاباتي، حيـث زادت متاعـب عائلتـي أضـعافًا مضـاعفة، أو في أيام إجازتي حيث كنت أفكّر في العودة إلى الجبهة قبل أن أصـل إلى المنزل، ليعلّـق والدي قائلًا: «لقد تربّيتَ في الجبال، وسـتعيش هناك أيضًـا. إنّ طبيعتـك تتأقلم مـع الجبال!»، وأكمـل أنا مزاحه هذا فأقـول: «والدي! أسـأل الله أن لا يُبدّلني هذه المدينـة بتلك الجبال. إنّ تلك الجبال وتلك الصـحراء، تعادل عندي ألفًا من هذه المـدن!». كانت جراحاتي الدائمة التي أُصـاب بها في كلّ سنة في الجبهة، تشـكّل القلق الأساسي له! وكان محقًّـا. لقد تعب من أجلنا لسـنوات في ظروف الحياة الصـعبة والزمن الصـعب، لكي يأتي يوم نكون فيه عونًا له في حياته. لكنّ الحرب خلطت جميع الأوراق. لم يقتصـر الأمر على بُعْدِي عنه وحسـب، بل إنّهم بذلوا كلّ ما يملكون من أجلي، وانشغلوا دومًا بمشاكلي وجراحاتي.

أحيانًا، كان بعض أفراد العائلة والأقرباء يسألونني عن الأعمال التي نقـوم بها في الجبهة، وينظرون إليَّ بدهشـة واسـتغراب عندما أحدّثهم عن العمليات وتفاصـيلها. على سـبيل المثال، عندما أخبرتهم عن الليلة الثانيـة من عملية بدر، وعن غزارة نيران العدو آنذاك، سـألوني بحيرة

وريبة: «إذًا، لمَ لم تُصب بسوء؟». عندما نتحدّث بتلك الأمور كان قلبي يخفق شوقًا إلى الجبهة، المكان الذي كنّا فيه قريبين من الله سبحانه، إلى درجة أن صرنا ندرك بكلّ وجودنا، بأنّه إن شاء، سينقذنا من النار كما أنقذ إبراهيم الخليل عليه السلام!

كنت كلّما تداولنا مثل هذه الأمور، أشعر بغربة عجيبة، وأعلم أنّ الناس في المدينة لا يعون بشكل جيد ما يجري في الجبهة. كانوا يعتقدون أنّنا لا نعرف لذة الحياة، والعائلة الهانئة والهادئة والسعيدة، والجسم السليم والرفاهية، ولا نعرف أنّه يمكن البقاء في المنزل، والنوم على الفراش والسجّاد، بعيدًا عن أصوات الانفجارات. لم يدركوا أنّ للحياة في الجبهة نكهة أخرى، وأنّ في الجبهة إخوانًا، يمكن أن ننال الشفاعة في الآخرة بسبب محبتنا الخالصة لهم في هذه الدنيا!...

تعدّدت مثل هذه الأحداث والحوارات عندما كنّا نأتي إلى المدينة أثناء الإجازة، في ظروف ومواقع مختلفة. غالبًا ما كنت بعد مضيّ أيام عدّة من الإجازة، أحضّر نفسي إما للعودة إلى منطقة العمليات، أو لأتابع علاج جراحاتي، فأتوجّه إلى عيادات الأطباء، ونتبادل أحاديث أكثر جاذبية. كنتُ عندما أقصدهم لعارض ما، وما إن أنزع ثوبي للمعاينة، حتى يقول أغلبهم على سبيل المزاح أو الجدّ: «إنّ مشكلتك هذه لا تذكر مقابل هذا الجسم المشظّى!»، حتى قال لي أحد الأطباء يومًا في مستشفى الإمام في تبريز عندما رأى حالي: «هل تعلم أنّ أعضاء الجسم تتكلم يوم القيامة وتشتكي، ويجب أن نعطي جوابًا لها؟».

- أجل، أنا أعلم! ولكنّني لا أظنّ أنّ هذا الجسم سيشكوني. لأنّني لم أوصله إلى ما وصل إليه باللعب واللهو. يعلم الله قصة كلّ جرح في جسمي. أين جُرحت، وماذا كنت أفعل حين جُرحت. إذًا فهذا الجسم لن يمتنع عن الشكوى وحسب، بل يجب أن يشكرني كثيرًا.

مضـت أشهر عدّة على الحادثة التي تسبّبت بفشل العملية الجراحية لأنفـي. وقد سـعيت لإجـراء عملية جراحيــة جديدة، على أمـل أن تُحلّ مشـكلة التنفّس عندي إلى حدٍّ ما. بعد انتظار طال خمســة أشهر مضت في التدريب لعملية بدر وفي تنفيذها، توجّهت وأمير إلى طهران، ووصلنا إلى هنـاك في الصـباح الباكر. ذهبنا مباشـرة إلى المستشـفى. عاملنا الطبيـب بلطـف، وكتب لي تقريرًا لإدخـالي إلى المستشـفى. لم نكن أنا وأمير مسـتعدّين لأن يبتعـد أحدنا عن الآخر، فقرّرنـا أن يبقى معي في طهران ما دمت هنا. لا تزال هذه الصـورة -عند ذهابنا إلى مستشـفى فاطمـة الزهراء عليها السلام- عالقة في ذاكرتي دائمًا. كان هناك شـارع خلف المستشـفى قليلًا ما يسلكه الناس، يبعد حوالي 200 إلى 300م عن بوابته الرئيســة، وكان أمامه حديقة تزهو بطلّتها الجميلة. في تلك الأيام، كان منظر الشـباب الذين يلبسون لباسًا غير تقليدي يطلق عليه اسم بانكى، لافتًا وغريبًا. في ذلك الشـارع بالتحديد، وجّه أحد الشبان كلامًا مشينًا لإحدى الفتيات. لم نسـتطع أنا وأمير أن نتغاضــى عن الموضـوع. وقفنا بوجهـه: «ماذا قلت؟»، شـحب لونه! وعندمـا عرفت أنّ عمـره 20 عامًا وفي مثل سـنّي، نصحته قائلًا: «أمثالك في الجبهة الآن يديرون عشرات الأفـراد من العناصـر! بينما تقوم أنـت بمثل هذه الأعمال المشـينة!؟»، وأمير يقول لي: «دعه وشأنه، فهو لا يدرك شيئًا!».

اتفقـت وأمير أن يأتي كلّ يوم إلى المستشـفى في موعد الزيارات، عند تمام الثانية ظهرًا. ووعدني المسكين قبل العملية أن يشتري لي طعام الفطور يوميًّا. وكما في المرّات السابقة، صار يبيت ليله في منزل أحد أقاربه.

دخلت المستشـفى، وكان لي يوميًّا برنامج مع أمير. ففي الصباح نمدّ سـفرة طعام الفطور في الفناء، وسـريعًا أصبحنا أصدقاء مع الحرّاس. قضـيت ثلاثة إلى أربعة أيام قبـل العملية في إجـراء التحاليل المخبرية والصـور المختلفـة. كان للغرفة التي أقمتُ بها وضـعها الخاصّ، فهناك

أربعة مرضى غيري. أحدهم من «زنجان»، وقد أصيب بشظيّة في كتفه، وآخر طالب علوم دينية من قم، وشخصان آخران من مدينة «كرج»، وقد أدركنا لاحقًا ما الذي كانوا يخفونه!

أخيرًا، حان الوقت، وذهبت إلى غرفة العمليات. عادة ما أشعر بالبرد هناك، لكنّها كانت المرّة الأولى التي شعرت فيها أنّ الغرفة دافئة. ذهبت مشيًا إلى غرفة العمليات، ورأيتهم يقطّبون وجه أحد الأشخاص هناك. بالرغم من أنّ الذهاب إلى تلك الغرفة أصبح أمرًا عاديًّا بالنسبة إليّ، إلا أنّني شعرت بالقلق هذه المرّة. كنت أعلم أنّه ينتظرني عملية جراحية صعبة جدًا لترميم أنفي ووجهي، وهذا ما حصل فعلًا. ولا تسأل عن الآلام التي عانيتها في تلك العملية. غدا جسمي حسّاسًا لأدوية التخدير، فتعسّر غيابي عن الوعي. وللأسف فقد أفقت من التخدير أثناء العملية الجراحية، ومهما حاولوا - بعد ذلك - تخديري لم يفلحوا! فوضعوا منديلًا على عينيّ واستمروا في عملهم مجبرين. كنت أسمع صوت أدوات الجراحة، صوت الطبيب، وصوت فريق غرفة العمليات، وهم يقولون لي: «أنت إنسان صبور جدًّا...». لم أتحرّك أساسًا. فقط كنت أعدّ الثواني حتى تنتهي هذه العملية المؤلمة! وأفكر أنّه لو أصيب الإنسان مئة مرّة بشظيّة أو رصاصة، لن يدرك ذرّة من هذا العذاب. استمرّ الأمر حوالي النصف ساعة على هذا المنوال. كادت روحي تفارق جسدي من شدّة الألم والقلق، وكأنّ هذا الألم كفارة عن كلّ ذنوبي... راحوا يقطعون لحمي ويقطّبونه.. وأخيرًا، أنهوا عملهم، ووضعوني على سرير آخر. تبيّن أنّني بقيت في غرفة العمليات لمدّة ثلاث ساعات. وخلافًا لجميع المرضى الذين يبدأون بالشكوى والأنين بعد خروجهم من غرفة العمليات، فقد شعرت بالراحة!

وضعوني في قسم العناية الفائقة. لم يمضِ وقتٌ طويل، حتى جاء طبيبي الجراح، وجلس فوق رأسي. انتهت عمليتي عند الغروب، وظلّ

الطبيب يراقبني حتى الصباح، ويعالج النزف الشديد الذي أصابني. يبدو أنّ نتيجة العملية كانت مهمة بالنسبة إليه أيضًا كما اتضح لاحقًا. لقد اهتمّ بي بكلّ عطف وحنان. أمّا أنا، فقد التقطت كتابًا لأطالعه، لعلّ ذهني ينصرف قليلًا عن الألم. كان يسألني باستمرار عن حالي، فأجيبه: «أنا بخير!». حتى الصباح كانوا قد أعطوني عدّة وحدات من الدم، ومع أنّني كنت أشعر بكثير من الألم والتعب، إلا أنّ حالي قد استقرّت نسبيًّا.

أخيرًا، طلع الصباح، وعرفتُ أنّ عائلتي جاءت من تبريز للقائي. المسكينة زوجتي، مذ دخلت إلى حياتي، كان قسمٌ من لقاءاتنا في المستشفيات. جاءت برفقة أبي وأخي. وأثارت عجبي رؤية والدي لأنّه حتى ذلك اليوم، لم يكن قد أتى لرؤيتي في المستشفيات[1]. لم يستطع زوّاري المكوث عندي طويلًا لأنّني بدأت أنزف من جديد، ما اضطرّ الطاقم الطبي إلى القيام بإجراءات خاصة. تحسّنت حالي في اليوم التالي، وجاءت عائلتي لعيادتي، وأحضروا لي الكباب معهم. كم كان الكباب لذيذًا في ذلك الوقت... ذهبت مع «أمير» والعائلة إلى فناء المستشفى الأخضر. هناك، أدركت أنّ والدي لم يأتِ إلى طهران لزيارتي فقط، إنّما جاء لحضور عقد قران وعرس أحد الأقارب... هنا بدأ المزاح. قلت له: «أصبح واضحًا لماذا أتى والدي لرؤيتي!». كانت علاقتي به منذ البداية قائمة على الصداقة. كنّا نتصارع ونستعرض قوانا في وجه بعضنا البعض... ومع أنّه لا يأتي لوداعي عند ذهابي إلى الجبهة، لكنّ والدتي تقول إنّه يبقى دائمًا مشغول البال عليّ، ولا ينام ليلًا لكثرة تفكيره بي.

1 – خلال جميع عملياتي الجراحية التي زادت عن الـ25، لم يأتِ والدي سوى مرتين لعيادتي؛ مرّة في طهران والأخرى في مستشفى الإمام في تبريز. في كلّ مرّة لم يكن يبقى أكثر من 5 دقائق! السلام عليكم، كيف حالك وإلى اللقاء! بالطبع لم يكن سبب ذلك أنّ والدي لا يحبني أو... بل كان لا يحب الطبيب والدواء والمستشفى. لم يزل هكذا حتى الآن أيضًا، ولم يحقن بإبرة طوال عمره! وإن ذهب إلى المستشفى تسوء حاله. لقد اهتمّ بي في ذلك اليوم، وله دين وحقّ كبيران في عنقي!

طوال مدّة بقائي في المستشفى، ظلّ «أمير» يأتي لزيارتي كلّ يوم، ويبقى إلى جانبي من الصباح حتى العصر. بقيت في ذلك المستشفى حوالي 40 ليلة. لطالما كرهت الإبرة ومللتها، وخاصّة تلك الإبرة الغليظة التي كانوا يحقنوني بها في الوريد يوميًّا، ويعطوني المصل من خلالها. لذا كنت دائمًا في المستشفيات أعطي مالاً لمندوب مؤسسة الشهيد وأقول له: «بالله عليك، اشترِ لي إبرًا ذوات رؤوس صغيرة». فيجيبني ضاحكًا: «سنحضرها بأنفسنا ولا حاجة لتقسم علينا!». كان مضحكًا بالنسبة إلى بعضهم أن أخاف بهذا القدر من الإبرة، مع كلّ تلك الجراح التي أصابت جسدي!

كان «أمير» يشتري لي لحم الكبد دائمًا، وكان وضعي جيّدًا من ناحية التغذية. لكن كان عليّ أن أتناول يوميًّا عددًا كبيرًا من حبوب الدواء، وأن أحقن بعدد من الإبر. في تلك الأيام، كان المسلسل المعروف «السلطان والراعي» يُعرض على التلفاز، وقد نال إعجاب الناس آنذاك، أما أنا فحملت عنه ذكرى سيئة. كانت الحلقة الأخيرة من المسلسل، وقد اجتمع المرضون حول التلفاز ليشاهدوا ماذا سيحصل في نهاية القصة؟! كان عليّ أن أُحقن كلّ 6 ساعات بإبرتين، وكان تحمّلها بالفعل أمرًا غاية في الصعوبة. كنت عندما يحقنونني أشعر وكأنّ أوردتي تحترق. من سوء حظي أنّ الممرضة المناوبة في تلك الليلة، كانت طريقة حقنها للإبرة قاسية كقسوة خُلُقها. أتت هذه السيدة على عجلة من أمرها. رأت أنّهم نزعوا إبرة المصل من يدي، وبالتالي عليها أن تضعها في الوريد مرّة أخرى. تذمرتُ قليلاً، لكنّني لم أهتمّ لها كثيرًا. كانت تُظهر بعضًا من خصل شعرها، ولا تراعي حرمة الجرحى. أرادتْ أن تُنهيَ عمَلَها بسرعة وتذهب. ربطتْ ساعدي، وحاولتْ مرتين تثبيت إبرة المصل، لكنّها لم تفلح في ذلك. كرّرت ذلك خمس مرات. فقدتُ السيطرة على أعصابي. وبدلاً من أن أكون أنا من يعترض، بدأت هي بالكلام: «ما هذا! منذ متى

ونحن مشغولون بحقن إبرتين لهذا، والآن يكاد المسلسل أن ينتهي!».

استأتُ منها. رأيتُ أنّ المريض أساسًا لا قيمة له عندها. أخذتُ الإبرة من يدها ورميتها بعيدًا، وصحتُ في وجهها: «اُغربي عن وجهي... ولا تأتي إلى هنا مرّة أخرى! إن أتيت سأكسر رجلك!». ذهبتْ وجاءت ممرضة أخرى، ولكنّني كنت قد استَشطتُّ غضبًا. قلت: «اغلقوا الباب ولا يأتينَّ أحدٌ! أساسًا لن أسمح لأحد أن يحقنني بالإبرة. وصباحًا سأُطلع الطبيب على مكان وخز الإبر الثماني هذه، لأرى هل أن قيمة المريض لا تساوي قيمة المسلسل!؟». لم يستطيعوا تهدئتي في تلك الليلة.

جاء الطبيب صباحًا، كان رجلًا رائعًا. قال بهدوء: «سمعت أنّك لم تأخذ إبرك البارحة! أعهدك رجلًا قويًّا. لماذا لم تحقن الإبر...». أخبرته بما حدث، وأكدت له أنّني لم أغضب بسبب الإبر، وإنّما أفقدني أعصابي كلام السيدة حين قالت إنّ المسلسل يكاد أن ينتهي! استاء الطبيب، وأنّب الممرضة وأرسلها إلى قسم آخر. بعد ذلك، أتت تلك الممرضة إليَّ تطالبني. قلت لها: «أنا لا دخل لي، ولست سوى مريض. أنت المقصّرة إذ إنّ الفيلم بالنسبة إليك أكثر أهمية من المريض». بالنتيجة لن أنسى مسلسل «السلطان والراعي» أبدًا لأنّني بسببه حُقنت بالإبرة مرات عدّة بشكل سيّئ!

بغضّ النظر عمّا ذكرت، فإنّ مستشفى فاطمة الزهراء عليها السلام كان مكانًا جيدًا جدًا. أولًا بسبب اسمه، وثانيًا بسبب أخلاق الجرّاح العالية. وعرفت أنّ عمليتي هذه كانت الأولى من نوعها في ذلك الوقت، لذا اهتمّوا بي كثيرًا. بعد حوالي ثلاثة أيام من إجراء العملية، أتت مسؤولة اللجنة الطبية للجرحى السيدة «كروبي» إلى المستشفى. تفقّدت جميع الجرحى، وأقبلت أيضًا إلى غرفتي... سألتني عن أحوالي، وشرح لها الطبيب عمليتي، وواستني بقولها إنّها كانت ناجحة وسوف أصبح أفضل حالًا. في تلك العملية، قطعوا جزءًا من جلد ولحم ساعدي

ورجلي، ووضعوه في وجهي. راحت رجلي تؤلمني بشدة، أكثر من الوجع الاعتيادي لأيّ جراحة. كانوا يقولون: «أنت إنسان محظوظ إذ نجحت عمليتك». أغلبهم لم يعلموا كم عانيت حتى ذلك اليوم، وإلا لما قالوا إنّني محظوظ! أعطوني سشوارًا لأستعمله لجرح رجلي؛ نصف ساعة يوميًّا حتى يجفّ الجرح وينمو الجلد في مكانه من جديد. بعد أيام عدّة، ومن شدّة العطالة من العمل، رحت أعبث بالشاش الذي غطّوا به الجرح، وبدأت أسحب خيطانه. آلمني ذلك، ولكنّني كنت في كلّ يوم أنزع عددًا من الخيطان، حتى سحبت كلّ خيطانه وبقيت أنسجته. بعد أيام عدة، رأى الطبيب ذلك فقال: «ماذا فعلت بالضمادة؟ كيف عبثت بها ولم يعد مكانها معروفًا أساسًا!». شرحت للطبيب ذلك. قال: «لو كنت نزعتها مرّة واحدة لتضرّر الجرح. والآن تعلمت منك ذلك أيضًا!».

نزل في غرفتنا جرحى آخرون، لكلٍّ منهم طباعه الخاصة. على سبيل المثال، كان يوجد أخ من قم، صاحب دعابة، أصيب بشظيّة في ذقنه، ولم يعد يستطيع فتح فمه. لذا، صاروا يضعون في كلّ يوم صفًّا من عيدان البوظة بين أسنانه، ويضيفون إليها عودًا كلّ يوم. عندما وصل عدد هذه العيدان إلى 17، أعجبه المنظر! حتى إنّنا التقطنا له صورًا وهو على تلك الحال. اضطرّ أن يتحمّل تلك العيدان في فمه لمدّة ساعة كاملة. المسكين كان يتألم، ولا يستطيع بعد نزعها أن يتكلم لمدّة ساعة أيضًا. وإذا ما حرّك فمه أو ضحك، ازداد ألمه. في تلك الحال أيضًا كنّا نشاكسه ونضحكه، وهو يتوسل إلينا أن لا نتفوّه بكلام مضحك. كان هناك جريح من زنجان أيضًا، وقد سُحقت ذقنه تمامًا، وأجريت له 7 عمليات جراحية ليضعوا له ذقنًا! كان والداه يعودانه دائمًا. كانت أمه عطوفة، وتحضّر له الطعام والمأكولات المتنوعة، فيصلنا نصيب منها أيضًا. عندما كنت في المستشفى، ولأنّ أحدًا عدا «أمير» لم يأتِ لزيارتي سوى مرّة أو مرتين، كنت أحسب نفسي غريبًا هناك. كنّا نقول لذلك الأخ الزنجاني: «بالله عليك، لا

تتحسّنّ حالك! إن تحسّنت وغادرت المستشفى سنبقى نحن وحيدين!».

كان في الغرفة أيضًا – غير أولئك المجاهدين – شخصان من مدينة كرج، كُسرت عظام ذقنيهما في حادث سير. لقد خدعانا بشكل كبير. بحسب الظاهر تعاملا معنا بشكل جيد، لكنّنا أدركنا لاحقًا أنّهم يُحضّرون لهما الأفيون في أوقات الزيارة. لم يكونا مدخّنين، لكنّهما كانا يذهبان إلى الأسفل، ويدخّنان الأفيون. وعادة ما يأخذان معهما الراديو الخاصّ بطالب العلم. أثارا شكّنا. لم أكن أرى أنّهما من الأتقياء حتى يستخدموا الراديو على النحو الصحيح. في تلك الأيام أنا أيضًا كنت أملك مسجلة صغيرة، أستعملها عادة في الاستماع إلى أشرطة الخطابات والعزاء. لم يدم الأمر طويلًا حتى أثارت رائحة تلك المواد التي يستخدمانها الشكّ عندَ الجميع. ولما علمت إدارة المستشفى بالموضوع قامت بطردهما.

بقيت حوالي 40 يومًا في مستشفى فاطمة الزهراء عليها السلام، حتى أُنهكت. لم أعد أريد البقاء هناك أكثر. أصررت على الطبيب حتى يعطيني إذنًا بالمغادرة، وأخيرًا وافق على ذلك. ولكنّه أكّد عليّ أن أنتبه جيّدًا لنفسي حتى لا يذهب كلّ هذا التعب سدى كما في المرّة السابقة.

أذكر أنّه كان يوم خميس؛ عندما غادرتُ المستشفى وذهبتُ إلى منزل أخي في «خافران». في اليوم التالي، ذهبت إلى محطّة سكّة الحديد لأرجع من هناك إلى تبريز. كنت في تلك الأيام أستطيع الحصول على تذكرة طائرة بسبب جراحاتي، لكنّني آثرت الرجوع بالقطار، متنعّمًا بصحبة أفضل صديق لي.

▣

كانت إجازتي لمدة شهرين، وقد اكتمل انزعاجي في الفترات التي أمضيتها في المستشفى، وتلك التي بقيت فيها جليس المنزل. عندما تحسّن جرحي قليلًا، قرّرت وأمير العودة إلى الجبهة. أردت هذه المرّة أيضًا أن

أصطحب دراجتي النارية، وهي درّاجة قفازة من نوع هوندا، وقد أخذتها سابقًا إلى الجبهة، وعادت علينا بالنفع الكثير[1]. أنجزنا الإجراءات اللازمة، وبعد أن سلّمنا الدراجة للقطار، ذهبنا نحن إلى الجبهة.

بعد عملية بدر، قرّرت عدم الاستمرار في كتيبة الإمام الحسين عليه السلام. كانت هذه الكتيبة مشهورة في الجبهة وفي الخطوط الخلفية، بسبب تاريخها وإيمان عناصرها وشجاعتهم. لكنّها بعد تلك الملحمة البطولية في بدر، وشهادة أكثر الإخوة في المراحل المختلفة من العملية، تغيّرت، وأصبح من اللازم إعادة تنظيمها.

- إذًا، بأيّ كتيبة نلتحق الآن؟

بحثت قليلًا، ولم أمانع من الالتحاق بكتيبة «أبو الفضل» التي شاركت في إحدى العمليات سابقًا. كان قائد الكتيبة آنذاك السيّد «أجدر مولايي». لم أعمل معه قبل الآن، إنّما عرفته من بعيد، وقد سمعت عنه الكثير من الإخوة. وأخيرًا اتفقت مع «أمير» على الذهاب إلى تلك الكتيبة.

## 2

عندما وصلنا إلى دزفول، قصدنا مباشرة مقرّ القيادة. لم يكن الانتقال من كتيبة إلى أخرى بالأمر السهل، فلكلّ فرقة نظامها الخاصّ، ويتوجّب علينا أن نقنع لجنة القيادة في الفرقة ليوافقوا على انتقالنا إلى كتيبة أخرى. كان عديد القوات في كتيبة الإمام الحسين عليه السلام في منطقة العمليات قليلًا، وقد عُيّن قائدًا لها الأخ السيّد «حسن شكوري» بعد استشهاد أصغر قصاب، وشرع يعمل على إعادة تنظيم الكتيبة. لم

1 – كانت الإجراءات الإدارية لعملية النقل متعبة وتستغرق وقتًا طويلاً، لكن تكلفتها قليلة وتتراوح بين 100 و130 تومانًا. فبداية كان علينا الذهاب إلى اللجنة ليدوّنوا رقم الدراجة ويكتبوا كتابًا يفيد بأن هذه الدراجة ستخرج من المدينة. يكتبون هذه الرسالة لمحطة القطار، وأثناء العودة كان الأمر يستغرق ساعات عدّة حتى يجدوا مستنداتنا هذه. كان هذا الروتين سائدًا ومتعبًا.

أظنّ أنّ كتيبة الإمام الحسين عليه السلام هي نفسها التي شاركت في عملية بدر، وقد ضمّت من العناصر أشجعهم وأكثرهم خبرة.

حصلت على كتاب من مكتب الفرقة لأسلّمه إلى كتيبة «أبو الفضل» وذهبنا. رأينا من بعيد شخصًا منهمكًا بالعمل. يبدو أنّهم بدأوا يمهّدون لبناء مصلّى للكتيبة. ولما اقتربنا أكثر، وجدنا أنّه السيّد أجدر مولايي نفسه. راح السيّد أجدر -قبل أن يستلم رسالتنا- يحدّثنا عن أحوال كتيبته ووضعها الحالي والمشاكل الموجودة، وقال لنا إنّه يجب أن لا نترك الكتيبة في منتصف الطريق، لأنّه من الممكن أن نكون من كتائب الدعم. بعد هذا الكلام، أخذ رسالتنا وقال: «تفضّلوا إلى خيمتنا لأنّنا حتى الآن لم ننصب خيامًا كافية».

ذهبنا إلى خيمة قيادة الكتيبة. كان صديقي القديم «كريم قرباني» هو المعاون، وقد أحسسنا بالطبع براحة أكثر في الكتيبة الجديدة لوجوده هناك. بعد يومين أو ثلاثة تذكّرنا أنّنا لم نستلم الدراجة من محطة القطار. ذهبنا إلى أنديمشك واستلمناها وعدنا أدراجنا إلى الكتيبة.

▫

لم يكن البقاء في خيمة القيادة أمرًا مرغوبًا بالنسبة إلينا؛ المكان الذي يسوده النظام ويتردّد إليه القادة، ومنهم الأخ «أمين شريفي» القائد الجديد للفرقة. في تلك الخيمة كان علينا أن نستيقظ من النوم في وقت محدّد، وأن ننجز الأعمال في موعدها المعيّن لها أيضًا، وأحيانًا كانت تعقد فيها الجلسات. وبالخلاصة، رأيت البقاء في تلك الخيمة مصدر عذاب بالنسبة إليّ. تحدثت مع السيّد أجدر حوالي خمس أو ست مرات، وكان يجيبني: «اصبر حتى مجيء القوات وتشكيل السرايا، ثم التحق بالسرية التي تريد». لم يكن باليد حيلة سوى الرضوخ للوضع القائم. آنذاك، كان قد تمّ تشكيل طاقم سرية واحدة، واتفق أنّهم مشاغبون

وغير منظّمين، ويشعرون بالاستقلال الذاتي في الكتيبة، ويفعلون كلّ ما يحلو لهم. على سبيل المثال، يأخذون سيارة الكتيبة ويغادرون إلى الأهواز، أو إلى سدّ «دز» وبدون إجازة من أحد. ذهبوا ذات مرّة إلى بائع سندويشات في دزفول. هناك، وبسبب حرارة الطقس العالية وقلّة المرطّبات، لم يكن يباع أكثر من قنينة واحدة مع كلّ ساندويش، لكنّهم طلبوا أكثر من ذلك. ولمّا لم يستجب البائع لطلبهم، وقع بينهم نزاع شديد إلى أن وصل أفراد من اللجنة، واعتقلوا الطرفين. ثم أخبروا الفرقة بذلك، فأرسلوا شخصًا في أثرهم وجاؤوا بهم. وبعد أن اتضح تسلّط وطغيان هؤلاء الشباب، قام السيّد أجدر بإخراجهم من الكتيبة، ما سبّب تفكّك الكادر الوحيد لتلك السرية أيضًا. بعد هذا، أصبح جميع عناصر كتيبة «أبو الفضل» عبارة عن والد وعمّ السيّد أجدر وهما من عناصر التجهيزات، أنا وأمير، والسيد أجدر نفسه ومعاونه كريم قرباني، بالإضافة إلى شخصين آخرين.

الشيء الوحيد الذي كسرنا به رتابة تلك الأيام، هو تجوالنا أنا وأمير على دراجتنا النارية. كنّا نذهب إلى دزفول بها، ونسبح في مياه نهر (دز). أثناء صولاتنا وجولاتنا، اكتشفنا بستانًا كبيرًا يقع في أطراف مدينة «شوش» بالقرب من مصنع الثلج. ولعلّه كان ملكًا لـ«فرح»[1] في زمن الطاغوت. لقد أضفت أشجار الفاكهة -المزروعة بتنسيق وغاية في التنظيم- إلى البستان صفاءً خاصًّا، إضافة إلى الطرق المستحدثة فيه ونطاق (مهبط) للمروحيات. كان ذلك المكان في عهدة مؤسسة جهاد البناء، وقد أحاطوه بشريط شائك. لكنّ حجم البستان الكبير وكثرة أشجاره حالت دون تمكّن طاقم جهاد البناء من جني الثمار في وقتها، وكادت أكثر الحمضيات تجفّ. على كلّ حال، استطلعت وأمير المكان،

1 - فرح ديبة زوجة الشاه المخلوع.

وقطعنـا جزءًا من الشـريط الشـائك في إحدى النقـاط الآمنة، بمقدار يسـمح بمرور الدراجة النارية. صـرنا ندخل البستان بدراجتنا النارية، ونأكل من أنواع الحمضـيات المختلفة حتى نشـبع، ثم نأخذ كيسًا ونملأه بالفاكهة ونحمله إلى الشـباب في الكتيبة. أصـبح الذهاب إلى البسـتان وقطف الفاكهة وسيلتنا الوحيدة للتسلية لمدة من الزمن.

▫

في ذلك الجمع الصغير، دار الحديث حول العملية القادمة في منطقة الهور. لم تكن القوات قد وصلت بعد، وربّما كان ذلك هو سبب ما سمعته يومًا من السـيّد أجدر مولايي بأنّه عازم على الذهاب إلى تبريز. مضـى هو، وبقينا وحيدين في الكتيبة التي لم يصل عديد قواتها إلى 10 أشخاص! آذتنـا العطالة من العمل، وكان علينا أن نُشـغل أنفسـنا بعملٍ ما. بدأنا بأعمـال البناء. قمنا أولًا ببناء مكان للوضـوء مـن قطع الألواحٍ والطّوب المتوافرة. بعد ذلك فرشنا الرمل أمام الخيام حيث كانت الأرض تصبح موحلـة بعد المطر، ثم صـببنا الإسـمنت فوقهـا. أحيانًا كنّـا نذهب إلى الأهواز ونشتري «الكراعين»[1]. الأهوازيون لا يرغبون كثيرًا هذا النوع من الطعام لذلك كان رخيص الثمن. كنّا ننظفها ليلًا، ونقدّمها على مائدة الفطـور. بالطبع، لم يُلحظ أيّ نقص في التمويـن، والإمكانات الموجودة كانت تكفي لكتيبة كاملة، ولا حاجة إلى الإغارة في هذا الأمر.

بعد مرور أيام عدّة، عاد السـيّد برفقة عدد من العناصـر، وبشّـرنا بأنّ الحاج «قلي يوسـف بور» سـيلتحق بكتيبتنا أيضًا. عرفت الحاج قلي من كيلان غرب، وهو من رفاق الدكتور «شمران». شهد له الإخوة الذين عملوا معه عن قرب وتحدّثوا عن شـمائله. كانـوا يقولون: «كان الدكتور شـمران نموذجًا يُقتدى به وكذلـك كان تلامذته». حتى ذلك الحين، لم

1- صنف طعام يحضّر من رأس الذبيحة والمقادم.

أكن قد رأيت الحضور القويّ للحاج قلي في ساحة المعركة.

تم تعيين «رسول طالبي» مسؤولًا للسرية الأولى وهو من العناصر الشابّة، وعُيِّن الحاج قلي يوسف بور مسؤولًا للسرية الثانية، و«علي مددي»، وهو من شباب «جلفا»، مسؤولًا للسرية الثالثة، لكن لم يكن ثمّة خبر عن عديد السرايا. في تلك الأيام، جاؤوا في طلبنا من كتيبة الإمام الحسين عليه السلام مرّات عدّة. كانوا يبحثون عن عناصر أيضًا، وأتوا ليقنعونا بالعودة إلى الكتيبة، ولكنّنا أنا وأمير، لم نبدِ أيّ شهامة، ولم نرجع! كان «علي تشرتاب» أحد الذين يعرفونني بشكل جيد. جاء مرارًا في طلبي وسعى لإقناعي بالعودة. صحيح أنّه لا يزال هناك أشخاص في كتيبة الإمام الحسين عليه السلام تربطني بهم صداقة قديمة، لكنّ رؤية الخيام الساكنة والخالية، ما برحت تجدّد ألمي ووجعي. مع هذا، تردّدنا كثيرًا إلى كتيبة الإمام الحسين عليه السلام، وكنّا نلتحق بها فقط في لعبة كرة القدم، لأنّ فريقهم هو الأقوى من بين كلّ الفرق. ورغم كلّ ما مرّ، لم أفكر أبدًا بالعودة إلى كتيبتهم بأيّ شكل، وكذلك لم أتحمّل أيّ مسؤولية في كتيبة «أبو الفضل» عليه السلام.

في أحد الأيام أتى إليَّ السيّد «أجدر مولايي» عائدًا للتوّ من مدينة تبريز وقال لي: «من المقرّر أن يأتي الحاج قلي والشباب بالقوات من المدينة. جهّزوا أنتم الخيام لسرية الحاج قلي حتى إذا ما وصل الشباب نعموا بالراحة». قررت وأمير أن نبدأ العمل في الصباح الباكر. كان عملًا شاقًّا. استوجب أن ننصب نحن الاثنان 9 خيام جديدة استلمناها، ولكن كلّما ثبّتنا عمودًا زَحزح عمودًا آخر من مكانه، وأعدنا العمل من جديد. كنّا عندما تجهز الخيمة نأخذ أطرافها ونهيل التراب عليها حتى لا ترفعها الرياح بسهولة. كلّ هذه الأشغال في كفّة، وتحمُّل الرائحة المؤذية للخيام الجديدة في كفّة أخرى. إذ علينا في ذلك الطقس الحارّ، أن نلتجئ إلى الخيمة، ونتحمّل الأمرَين معًا؛ حرارتها ورائحتها الكريهة.

انتهى عملنا عند حوالي الثالثة بعد الظهر بعد جهد جهيد. لم نكد نأخذ قسطًا من الراحة حتى بدأت أحوال الطقس تتغير.

قلت: «أمير! ستهبّ العاصفة ليذهب كلّ تعبنا سدى!».

- يا هذا، لا تكن نذير شؤم!

لم تُعر العاصفة أهمية لكلامي، وراحت تقترب بسرعة، ونحن نرى عظمتها وهيبتها. صرخت: «اقفز داخل الحفرة!»، ونزلت أنا إلى حفرة بجانبنا نضع فيها النفايات. لم يكن «أمير» يتصوّر أنّ الزوبعة يمكن أن تؤذينا، لكن عندما رأى أنّ الطقس سيّئ جدًّا قفز إلى جانبي. لقد اقتلعت الزوبعة جميع الأوتاد والخيام وكلّ ما وجدته، وحملته معها. تغيّرت معالم المكان في لحظات قليلة. بعد ذلك أطاح الهبوب بكتيبة الهندسة، ثمّ خيام الشرطة العسكرية، والإسناد، وكتيبة سيد الشهداء عليه السلام. تحوّلت الكتيبة إلى خرابة بالفعل، وما كان علينا سوى أن نشكر اللّه (سبحانه وتعالى) لأنّنا لم نتعرّض لأيّ سوء في تلك العاصفة. تبادلت أنا وأمير النظرات اليائسة. كفّارة أيّ ذنب ارتكبناه يا ترى هو تحمّلنا للرائحة الكريهة للخيام الممزقة الرثّة؟! لم تعد أيٌّ من تلك الخيام صالحة للاستعمال. ومنذ ذلك اليوم، أصبح نقص الخيام في الفرقة ظاهرًا بشكل جليّ.

لم يمضِ وقت طويل حتى وصل الحاج قلي مع عدد من الشباب، فأجبرنا على الإغارة على تجهيزات الفرقة المستقرة بعد كتيبة الإمام الحسين عليه السلام! وريثما نحصل على الخيام الجديدة، غطّينا سقف المصلّى بالخيام الممزّقة، وأقمنا هناك.

◻

وصل العناصر الجدد الذين سينضمّون إلى سرية الحاج قلي. كانت الساعة التاسعة صباحًا، ولم ينجز الحاج قلي والإخوة تجهيز أكثر من خيمتين فقط حتى ذلك الحين. أحضرنا القضبان والخيام التي استولينا

عليها حتى ينصب القادمون خيامًا لهم. كان هؤلاء من مدينة «أردبيل». يتميز أغلب شباب أردبيل بهذه الخصلة، وهي أنّه في حال كان مسؤولهم من بينهم عملوا بكلّ جوارحهم، وإلا، فلن يستطيع أيّ كان التعامل معهم. لفتني وضع هؤلاء العناصر الذين يأتي أكثرهم لأوّل مرّة إلى الجبهة. لقد خلعوا ملابسهم في هذا الطقس الحارّ حيث كانت عواميد الخيام تحمى لدرجة أن تحرق أيدينا عندما نلمسها. خلعوا قمصانهم، وقاموا بعملهم مرتدين الفانيلات. تمزّق مصراننا من الضحك، في حين كان السيّد أجدر الذي يولي أهمية كبيرة للانضباط يشاهد ما يحدث ويستشيط غضبًا. وصل به الأمر أن اتصل بالمقرّ غاضبًا، وقال: «أيّ عناصر أعطيتموني؟»، وعلا صوت الحاج قلي أيضًا: «أنا لا أريد هؤلاء». مضى ذلك اليوم، ولكنّهم أثاروا الفوضى أيضًا في الأيام التالية. كان يحضر في البرنامج الصباحي فقط ما يقرب من نصف العدد الإجمالي للسرية البالغ حوالي 90 فردًا. استمرّت الحال على هذا المنوال، وثبت للجميع أنّ شباب أردبيل شأنهم شأن شباب أرومية الذين يتقنون عملهم عندما يكون شخص من مدينتهم في الكادر القيادي للسرية. أرسلوا آنذاك إلى كتيبتنا أحد أفراد المقرّ يدعى «كنجكاهي»، وكان أردبيليًا، وعُيّن نائبًا ثانيًا لمسؤول الكتيبة. مع مجيء هذا الأخ حدث تحوّل في سرية الحاج قلي، وأصبح شباب أردبيل على قدر من النظام والفاعلية لدرجة أنّهم صاروا يحضرون جميعًا في الباحة، بل وحتى يركضون دورة كاملة قبل البرنامج الصباحي، ثم يتهيّأون لبدايته. وهكذا صارت رؤيتهم تبعث البهجة في القلوب. تدريجيًا، ومع التحاق عناصر جدد بها، أصبحت كتيبة «أبو الفضل» من الكتائب المنظّمة والجاهزة في الفرقة.

◘

كنت قد قرّرت سابقًا أن أبقى إلى جانب الحاج قلي وفي سريته،

لكنّني أعرضت عن هذا الأمر لأسباب مختلفة، وأهمها أنّني لم أرد أن أتولّى أيّ مسؤولية، وقد لاحظت أنّهم في قيادة الكتيبة يفكّرون بإعطائي مسؤولية ما منذ أن أتيت إلى الكتيبة. لم أرغب بذلك وشئت البقاء كعنصر حرّ[1]. فبالرغم من أنّني في العمليات أقوم بكلّ عمل أقدر عليه، لكنّ قبولي للمسؤولية سيحتّم عليّ مراعاة النظم والنظام في حين أنّني لست من أهل النظام. مثلًا، كنت من الأشخاص الذين يشكّل انتعال الـ«بوتين» مصدر عذاب لهم، ودائمًا ما وجّهوا لي الملاحظات في هذا الشأن. عندما وضعوا قانونًا في الكتيبة يقضي بأن يأتي الجميع إلى الباحة منتعلين الـ«بوتين»، ألزمت نفسي، احترامًا لهذا القانون، بأن أنتعل على الأقلّ حذاءً كتانيًا عندما أذهب إلى الباحة ولا أبقى حافي القدمين! وهكذا الحال أيضًا في بقية الأمور. ربّما استطعت الانضباط والالتزام بالقوانين لمدّة محدودة، لكن كان من الصعب عليّ، وأنا أقضي معظم أيامي في الجبهة، أن أراعي هذه القوانين دائمًا. ولو أصبحت مسؤول فصيل، فمن المؤكد أنّه عليّ التصرّف بطريقة تعكس للعناصر التزامي بالقوانين، لأستطيع التأثير عليهم فيما بعد.

لم أبقَ عند الحاج قلي أيضًا. تحدّثت مع السيّد أجدر بالموضوع، وطلبت منه أن يخصّص لنا إحدى خيام التجهيزات الصغيرة، لكي أبقى فيها أنا وأمير إلى حين البدء بتنفيذ العملية. وللإنصاف، فقد وافق السيّد بكلّ رحابة صدر وارتاح بالنا.

◻

بدأ عهد استثنائي بالنسبة إلينا. كنت وأمير نقضي أيامنا وحدنا في

---

1 - لم أقبل أيّ مسؤولية حتى نهاية الحرب باستثناء 15 يومًا قضيتها مسؤولَ فصيل. ذات مرّة خلال عملية «يا مهدي» ولما كان هناك فعلاً نقص في عديد كتيبة الإمام الحسين عليه السلام، قلت بنفسي للقائد لا تسمّني مسؤول فصيل، لكن إن لزم الأمر أستطيع قيادة فصيل، وإن استوجبت الظروف أستطيع قيادة سرية أيضًا، وقد تحقّق ذلك عمليًّا.

خيمتنا الصغيرة. أيضًا لم نستفد كثيرًا من طعام الكتيبة، وكنّا نشتري البندورة والبيض من دزفول ونقوم بإعداد الـ«أوملت»[1]. كنّا نذهب معًا إلى البرنامج الصباحي. كان كلّ فصيل يقف في مكان، كنت وأمير نقف وحدنا في مكان آخر وكل فصيل يركض عناصره بعضهم إلى جانب بعض. ونحن يركض أحدنا إلى جانب الآخر! كانت تلك أفضل أيام عمري. لم نستمتع أبدًا بهذا الشكل في أيّ كتيبة سوى كتيبة «أبو الفضل»، من جهة كوننا معًا وتنفيذنا البرنامج الذي نريد.

خلال هذه المدّة، أصبحتْ علاقتنا بالسيّد أجدر مولايي أكثر حميمية. لم يكن السيّد شخصًا مغرورًا، ورغم أنّه قائد كتيبة، لم يكن يرى عيبًا أن يسأل عن شيء لا يعلمه. أحيانًا، كنّا نجتمع معه ونتحدّث عن مشاكل الكتائب والحرب. وأحيانًا نحلّل عمل الكتائب في العمليات المختلفة، وكان كلامي يقنعه في بعض الموارد. تمحور أكثر كلامنا في تلك الأيام حول عملية بدر.

في تلك الأيام أصبح الكلام عن الذهاب إلى سدّ (دز) والتدرّب على السباحة أكثر جدية. كان السيّد أجدر يقول، وهو صاحب السريرة النقيّة، إنّه ولرفع الجهوزية لدى العناصر، يجب أن يذهبوا إلى سدّ (دز) مشيًا على الأقدام. لإنجاز هذا العمل كان علينا السير حوالي 35 ساعة في منطقة جبلية وصخرية، والاستراحة مرّة كلّ 6 ساعات. واقترح السيّد وضع خزّان مياه وموادّ غذائية في النقاط المحدّدة لاستراحة العناصر، وذلك قبل البدء بالتحرّك. أقنعْنا السيّد أنّه لا يمكن تنفيذ برنامج صعب كهذا مع عناصر لم يخضعوا بعد لأيّ تدريبات، واقترحنا إرجاء ذلك الأمر إلى حين العودة. طبعًا قلت لهم بصراحة إنّني لن أمشي لا في طريق الذهاب ولا الإياب!

1 - عجّة: نوع طعام يعدّ من البيض والطحين.

بعد أيام عدّة، جمعنا عتادنا وانطلقنا بالسيارة إلى سدّ (دز). كان وضع مياه السدّ آنذاك جيّدًا. وقد سمعت سابقًا أنّ الاختلاف في مستوى الماء بين الفصول الباردة والحارة يصل إلى 70 أو 80 م. قال الشباب إنّ عمق المياه يصل في بعض النقاط إلى 300 م وربما أكثر. وكان هذا الكلام يزيد من الخوف لدى من لا يجيدون السباحة.

■

استقرّت كتيبة «أبو الفضل» بالقرب من قرية لا يزال أهلها يزاولون حياتهم العادية. في الظروف العادية، كان من الصعب انتقال كتيبتين إلى ذلك المكان، لكن، عملت الجرافات على إحداث باحة يمكن أن تستقرّ فيها ثلاث أو أربع كتائب. في تلك الأيام، بالإضافة إلى كتيبة «أبو الفضل»، كان عناصر الإسناد أيضًا يتدرّبون، وتقرّر أيضًا أن ينتقل عناصر كتيبة الإمام الحسين عليه السلام إلى هناك. كان قرب الكتائب بعضها من بعض مصحوبًا بالمشاكل، وأتاح ذلك إمكانية هروب الشباب من التدريب والاندماج مع العناصر الآخرين، لكنّهم كانوا يعلمون أنّهم بحاجة إلى هذه التدريبات، وتصرّفوا بمسؤولية حيالها.

بدأ التدريب الذي تمركز في أكثره على السباحة. صعدنا الجبال أحيانًا كجزءٍ من البرنامج الصباحي، وكان الشباب يستمرّون في تسلّقها لمدّة ثلاث إلى أربع ساعات، ما ساعدهم ليصبحوا شيئًا فشيئًا أكثر قوة وجهوزيّة. أمّا في أيام التمرين على السباحة، وبعد تلاوة آيات من القرآن الكريم، كانت الطوابير تنتظم وتتحرّك باتّجاه الماء. وقبل النزول فيه كان على الجميع ارتداء السترة الخاصّة بالسباحة. سمعنا في الأيام الأولى الكثير من الأسئلة والأجوبة حول هذه السترة. كان أغلب العناصر يجهلون فائدتها، وعندما قيل لهم إنّ وزن الإنسان يخفّ بارتدائها ويطفو على وجه الماء، لم يصدّقوا ذلك. ارتدى بعضهم لخوفهم سترتَين

إحداهمـا فوق الأخرى! وتكفّل الزمن بتحطيم هذا الخوف حتى يتمكنوا من السباحة. كان «حسين التبريزي»، أحد الذين نمازحهم كثيرًا بسبب أعمالهم، نظرًا لسمنته وخشيته الغرق حتى مع سترة النجاة. وكم قفزنا بأنفسـنا في المـاء كي نثبت للعناصـر أنّه بارتداء السـترة لا يمكن لأحد الغرق. أحيانًا اضـطررنا لدفع الشـباب إلى الماء بغتةً لإزالة توجّسـهم، لكن استغرق الأمر وقتًا حتى بدأوا يتقدّمون في التدريبات.

كان التدريب في قسـم من الماء إلى جانب الجبل وتمّت إحاطته بعدد من الجسـور فصار المكان أشبه بحوض سـباحة، واستوى التدريب على عاتق ثلاثة مدرّبين. شـيئًا فشـيئًا، تحسّـن أداء الإخوة بشـكل ملحوظ، ووصـل الأمـر لدرجـة أن أصـبح جميع العناصـر متمكّنين من سـباحة الضـفدع، وقادرين على البقاء في الماء ثلاث أو أربع ساعات على الأقل. باتت التدريبات المستمرّة والصعبة على السباحة وتسلّق الجبال الصعبة فعّالة، وقد آتت ثمارها.

بعد حوالي ثلاثة أسـابيع، أضـحى الشباب يسـبحون بدون سترة في مياه سدّ (دز)، حيث تصل المسافة بين الضفّتين هناك إلى حوالي 5 كلم. وقد وصـل مزاح الإخوة في الماء إلى أوجـه في تلك الأيام؛ حيث يقتربون من أحدهم بهدوء، ولا يكاد ينتبه لهم حتى يكونوا قد أغرقوه في الماء.

في تلـك الأيام، جاء والد «أمير» إلى منطقتنا. إنّه «علي آغا» نفسـه، سائق الشاحنة التي تحمل صهريج الماء! وقد أتى إلى المنطقة منذ حوالي 45 يومًـا، ولم نعلـم بذلك إلّا عندمـا جاء لرؤية أمير. لقـد فرح باللقاء الأب والابـن معًا، ولم تكن سـعادتي بأقلّ من سـعادة أمير. أراد السـيّد «علـي آغـا» أخذ إجازة والذهاب إلى تبريز، وكانت فرصـة جيدة لي أنا أيضًـا لأذهب إلى المدينة لمدّة 4 إلى 5 أيام، فقد أخبرتني عائلتي آنذاك بأنّهم يواجهون أزمة في الحصول على قرض لاستكمال بناء البيت، وأنّه

عليّ الذهاب شخصيًّا إلى المصرف لحلّ المشكلة. تشوّش ذهني. فمن جهة كنت أعلم أنّ أيام التدريب شارفت على نهايتها وقريبًا سيطلعوننا على تفاصيل منطقة العملية، ومن جهة أخرى، كانت عائلتي في محنة. تحدّثت إلى السيّد أجدر وطلبت منه إجازة، وحصلت عليها. في ذلك اليوم ركبت إحدى حافلات الفرقة برفقة الأب والإبن أعزّ أصدقائي، وانطلقنا من دزفول نحو تبريز.

علمت في تبريز أنّ المال الذي خصّصه والدي لبناء المنزل قد نفد، وأنّه ذهب إلى مصرف الإسكان ليستحصل على قرض مقداره 220 ألف تومان، لكنّ المصرف لم يعطهم سوى 50 ألف تومان. استفدنا كثيرًا من هذا المبلغ في استكمال بناء المنزل، لكنّنا كنّا مجبرين من جديد على تأمين المزيد من المال. ذهبت في أوّل فرصة إلى رئيس مصرف الإسكان في مستديرة «ساعت»، وطلبت إليه أن لا يضغط علينا فقد كنّا غارقين في همّ الجبهة والحرب حين أخبرونا من تبريز بهذه المسألة، علمًا أنّ الحصول على قرض هو أمر قانوني أيضًا. سارع رئيس المصرف إلى متابعة مشكلتي وحلّها، وحصلت على المال وسلّمته لوالدي. ولمّا لم يكن لديّ أيّ عمل آخر في المدينة، قفلتُ وأمير في اليوم التالي عائدين إلى مكان استقرار فرقتنا.

◘

عندما وصلنا إلى سدّ (دز)، وجدناهم يتحدّثون عن تنفيذ مناورة في الليلة نفسها. كان علينا الانطلاق بالقوارب باتجاه التلال، والنزول إلى الماء قبل 700 م من الشاطئ، ثم السباحة باتجاه التلال التي تبدو كجزيرة في وسط المياه، لنسيطر على منطقة العدو المفترض.

تهيأت السرايا والفصائل للانطلاق كلّ إلى المحور المحدد له. وما إن حان وقت التحرك حتى نزل الجميع إلى الماء. كان الطقس باردًا،

وقـد نزلنا بملابسـنا إلى المياه التي كانت نسـبيًّا أكثر دفئًا من الخارج. أثناء السـباحة، وقع نظري على «حسين» ذلك الشابّ السمين. لقد أتقن السـباحة لكنّه لا يزال بطيء الحركـة، وقد تخلّف عن الآخرين. ناديته: «أسـرع!»، أجابني: «لا أسـتطيع القدوم! لقد تعبـت!». كان متأخرًا عنّي مسـافة 40 م تقريبًا. ناديته مرّة أخرى: «هيا، سـوف يطلقون قذائف الـ (B7) من الأعلى على هذا المكان!»، وما إن سمع بهذا الكلام، حتى سبح بسرعة ووصل قبلي إلى الشاطئ!

كان الخـروج مـن الماء عملًا شـاقًّا في ظلّ برودة الطقس الشـديدة. بدأت المناورة. لقد فكّر الإخوة سابقًا بجميع التفاصيل، وبدأوا يمطروننا بوابـل نيرانهم الغزيرة. أمّا نحن، فقد انتظمنا وفقًا للخطة التي تدرّبنا عليها، وسـيطرنا على المكان الذي نريـد. لقد أنجزت جميع الأمور على خير وسـلامة. ومع بزوغ الفجـر، تجمّعنا في ذلك المـكان لنتناول طعام الفطور، في لحظات ملؤها الصفاء وراحة البال، وقد خرجنا من التدريب والمنـاورة مرفوعي الرأس. ركبنا في القـوارب، وتوجّهنا إلى مقرّنا. لقد انتهى كلّ شـيء. كان علينا أن نجمع أغراضـنا وتجهيزاتنا، ونرجع إلى مقرّ الفرقة. لكن، أراد قائد الكتيبة تنفيذ اقتراحه بعودة العناصر سيرًا على الأقدام.

عرفت القوات بموضـوع العودة سـيرًا على الأقدام. وقد قلت سـابقًا إنّنـي لا أسـتطيع أن أمشـي كلّ تلك المسـافة، لكنّ «أمـير» أراد الرجوع راجلًا مع القوات. تحرّك عناصر الكتيبة صباحًا. جمعتُ وعدّة أشخاص آخريـن تجهيزات الكتيبة، وانطلقنا باتجاه مقرّ الفرقة. انطلقت أيضًـا سيارتان أخريان لكي تضعا الماء والغذاء للعناصر الراجلين، في الأماكن المحدّدة مسبقًا.

وصـلنا ظهرًا إلى مـكان تمركز الفرقة. كانت خيمـة القيادة وخيمتنا

الوحيدتين اللتين بقيتا على حالهما، وقد وُضّبت الخيام الأخرى ونُقلت إلى جانب سدّ (دز)، لأنّ عدد الخيام كان قليلًا، ومن غير المسموح أن تنصب كتيبة واحدة خيامًا لها في مكانين منفصلين. في تلك الليلة نمت لوحدي في غياب الكتيبة.

بعد صلاة الصبح، بدأت طلائع الإخوة تصل شيئًا فشيئًا وهم مرهقون، بعد حوالي 30 ساعة من السير على الحجارة وبين الصخور، لذا منحوا جميع العناصر استراحة لمدّة يومين. رحتُ أجول بين الشباب، وأرى كيف أنّ أحذيتهم تمزّقت وظهرت البثور في أرجلهم. قال «أمير» إنّه عندما كان يصعد الجبل ليلًا، غلبَ عليه النوم وكاد يسقط إلى الأسفل. على كلّ حال فقد نفّذ السيّد مشروعه، ولم يكن سيئًا لاختبار القوات.

3

حدّثني السيّد أجدر ذات مرّة عن الهور وقال: «من المقرّر أن نذهب إلى مكان حيث البعوض فيه يلدغ من فوق الأحذية!».

بعد ذلك أراني علبة كبريت، جعلها نعشًا لبعوضة ضخمة! إضافة إلى إخلاصه في العمل وإيجابياته الأخرى، كان السيّد أجدر صاحب دعابة، ما جعلنا نمضي في كتيبة «أبو الفضل» أيامًا جميلة. بعد يومين من الراحة، تقرّر أن نتحضّر للانطلاق إلى الهور.

إنّها المرّة الأولى التي نذهب فيها إلى ذلك الجزء من الهور. ذهبت قبل ذلك إلى جزيرة مجنون، ولكن للهور طبيعته الخاصة. لقد رأيت إحدى بعوضاته، وسمعت عن أسماكه ذات الشارب، فئرانه وحيواناته الأخرى. كالعادة، بعد الغروب، ركبنا الشاحنات[1] وانطلقنا ويفصلنا عن الجبهة (الخط) مسافة حوالي 100 كلم. انتقلت كلّ سرية وعديدها حوالي 100

1 - كنّا نستخدم الشاحنات اتقاءً من رصد طائرات استطلاع العدو «آواكس».

عنصر، في شاحنة واحدة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أغراض كلّ شخص وذخائره، يمكن أن نتوقع كم سيكون ضيّقًا المكان الذي سنقضي فيه عددًا من الساعات. كان من الطبيعي أن لا يشعر أحد بالراحة، ويرتفع صياح الإخوة. هذا عطشان ويريد الماء في تلك الظروف، وذاك يريد الذهاب إلى المرحاض، وآخر يثير الفوضى ويشاكس الشخص الجالس إلى جانبه. وأنا من عادتي أن تزداد مناوشاتي في ظروف كهذه. جلس «أمير» إلى جانبي، وتلاه «أيوب يلدوغي» الذي يصغرنا سنًّا، وكان كذلك مشاغبًا ومحطّ أنظار الجميع، ومن ثمّ «علي نمكي» الذي تميّز بأسلوبه الخاصّ في المزاح أيضًا[1]. كان الحاج قلي الأكثر شغبًا من بين مسؤولي السرايا. ركب مسؤولو السرايا أيضًا، إلى جانب السائق، وكان لكلّ شيء حسابه معهم.

أخيرًا، توقفت الشاحنة. ترجّلنا فوجدنا أنفسنا إلى جانب الماء. كان ذلك في الصباح الباكر. ذهبت مباشرة باتجاه الدشم التي بدا من الواضح أنّها دشم الإشارة والإسعاف. كنتُ عطشًا. استيقظ الإخوة من نومهم، وطلبنا منهم الماء، ثم تحدّثنا قليلًا إلى أن ترجّل كلّ العناصر. كانت المخافر تبعد حوالي 6 كلم عن خطّ العراق الأمامي. لم يعد المكان هناك مستويًا مثل مواقع الـ«بد»، إذ أصبحت بعض المناطق التي سيطرنا عليها في عملية بدر أكثر ارتفاعًا من غيرها بسبب كومات التراب التي رماها العراقيون هناك[2].

شيئًا فشيئًا، أصبحنا على معرفة جيدة بالمنطقة. كان الخطّ

1 – عام 1982م قطعت إحدى يديه من المعصم، ولكنه لم يترك الجبهة.

2 – كانت تلك المنطقة أبعد نسبيًّا عن الخطوط الأمامية، وقد استقرّ فيها عناصر الإسناد إضافةً إلى سلاح الهاون 60، 80 وغيره من الأسلحة. كان إطلاق قذائف ثقيلة كالهاون 120 يحدث ضغطًا على الأرض. لأنّ الأرض هناك لم تكن صلبة، بل كانت عبارة عن تراب حمل بواسطة القوارب ووضع في تلك المنطقة، لم تكن مُحكمة كما يجب لتوضع عليها مدفعية هاون 120ملم. لهذا فقد ربضوا مدافع الهاون 120 والميني كاتيوشا على جسور كبيرة من نوع «خيبر»، وكانت الدشم التي بنيت على الجسور –بواسطة أكياس التدشيم– إلى جانب المدافع وأسلحة الهاون تشاهد بوضوح.

الدفاعي للعراق في تلك المنطقة في اليابسة، أما خطّنا الدفاعي، فكان عبارة عن كمائن على الجسور وبين القصب. لقد بنينا دشمًا على جسور قليلة العرض، ويتراوح طولها من 50 إلى 100 م. أحيانًا ارتفع بعضها على شكل تقاطع طرق أو ساحة صغيرة. على كلّ حال، كان أيّ تحرك فوقها ممنوعًا خلال النهار بسبب وضع المنطقة، لذا أصبحت حركة نقل العناصر والتموين والذخائر تتم ليلًا تفاديًا لأيّ خطر محتمل. مع هذه الحال، كان المكان هناك خطيرًا، والعراقيون يستطيعون أن يقلبوا الأمور رأسًا على عقب باستخدام 5 أو 6 قوارب. عندما تمركزت القوات على اليابسة، تقرّر أن تبقى سريتان فيها لتعمل كسرايا دعم قتالي، وأن تتقدّم سرية إلى الأمام وتتمركز في ثلاثة كمائن، أُعدّت سابقًا في الهور.

بسبب ظروف المنطقة الصعبة، لم تكن القوات المتقدّمة تستطيع البقاء أكثر من 15 يومًا في المكمن. وقالوا، أساسًا يجب أن لا نخرج من الدشمة خلال النهار، وعلينا أن نقوم بالحراسة ليلًا على الجسور. كان عمل الشباب في الكمين صعبًا. تقدّمت في البداية سرية الحاج قلي. لم نكن أنا وأمير قد التحقنا بأيّ سرية حتى ذلك الوقت. كان من المقرّر أن يستلم عناصر سرية الحاج قلي مكان شباب زنجان الذين تمركزوا هناك من قبل. للإنصاف، عرفنا شباب زنجان كعناصر جيدين، وإحدى حسناتهم أنّ 7 أو 8 أشخاص منهم بقوا في الكمائن (المتقدّمة) لأجلنا مع رغبتهم بالرجوع إلى الخطوط الخلفية، وذلك ليطلعوا العناصر القادمين حديثًا على تفاصيل وأحداث المنطقة. أدركنا سريعًا أنّه يجب علينا دائمًا التحدّث بهدوء وبصوت منخفض، تلافيًا لإمكانية أن يسمعنا العراقيون. كما وعند الذهاب إلى الكمائن، علينا أيضًا إطفاء محركات القوارب قبل 200 م من المكمن، والتحرّك بواسطة التجديف حتى لا ينتبه العدو إلى أصواتنا. وقد حصل مرّات عدّة أن سقطت بعض قذائف الهاون في النقطة التي تُطفأ فيها المحركات، بعد

لحظات من إطفاء المحركات.

بناءً عليه، كان العيش في ظلّ ظروف كهذه بالفعل أشبه بالإقامة في سجن اختياري. لقد عرّفنا شباب زنجان إلى النقاط التي يحتمل نفوذ العدو منها بشكل كبير، وكذلك عرّفونا إلى المناطق المزروعة بالألغام، وعلى النقاط الحساسة أيضًا. رجعت وأمير برفقة السيّد إلى جانب خيمة الطوارئ وبقينا هناك. نُصبت هذه الخيمة على الجسور داخل الماء، حيث تمركزت الدفاعات الجوية أيضًا. عدا عن المكامن ودشمها، أمسى بقيّة الشباب يقضون أوقاتهم في نقاط مختلفة من الهور على الجسور، أو داخل الخيام المنصوبة على اليابسة.

▫

كان لذلك الجزء من الهور، والمعروف بـ«شطّ علي» طبيعته الخاصة. فطول القصب يفوق حتى طول الدّفاعات الجوية، ليُشكّل ساترًا جيّدًا من رؤية العدو لنا، ويمنعه من إصابة أهدافه بدقة. أمّا الحيوانات التي اتخذت من منطقة الهور موئلًا لها، فكانت حقًّا عجيبة أيضًا. فئران ضخمة، لا تخاف من الإنسان وعددها كبير، ما استلزم دائمًا اتخاذ تدابير لازمة ضدّها. فوجئنا بهذه الفئران تغير على طعامنا وتأكل من كلّ ما نملك! لم نجد أيّ وسيلة لمواجهتها، ولم نجد أمامنا خيارًا سوى وضع تموينا داخل حقيبة الظهر، وفي علب محكمة الإغلاق ليكون بمأمن من سطوتها. أحيانًا، كنّا نستيقظ ليلًا على صوت تحركها. وقد حدث مرّات عدّة أن فتحنا أعيننا ورأينا فأرة تقبع فوق رأسنا وتحدّق بوجهنا، أو أخرى تثب وتقفز فوق أرجلنا. إذا ما استيقظ شخص ما ليلًا للذهاب إلى المرحاض، أمكنه رؤية 30 إلى 40 فأرة تجلس خلف بعضها البعض في صفّ واحد. في تلك الظروف شاهدنا للفئران في كلّ يوم قصة. كانت تكثر ليلًا، وتعمل عند الضرورة برشاقة وحذاقة وسرعة. لقد شكّلت

هذه الفئران سببًا لخوف وانزعاج غالبية الشباب.

كان في الهور أيضًا أسماك مخيفة أكثر من الفئران وأخطر منها. من المستحيل أن لا تأتي هذه الأسماك أثناء غسل الأطباق. صار الشباب يطلقون عليها اسم «بوغلي باليغ»[1]، حيث يوجد على طرفي وجهها شيء كالشارب، إذا ما اصطدم بيد الإنسان شقّها! لذا بات غسل الأطباق مصحوبًا بالخوف. ويبدو أنّ تلك الأسماك كانت تأتي لتأكل ما يتبقى في الأطباق من طعام. بالطبع عرفنا أنّها تأكل أيضًا الفضلات البشرية. كانت مجاورتها مصيبة. ومع أنّنا كنّا نعيش وسط الماء، فقد وصل بنا الأمر إلى أن نلجأ إلى مصدر آخر للمياه لغسل الأطباق، لننجو من تلك الأسماك الخطيرة. جعلت هذه الحيوانات الحياة في الهور وبالأخصّ في دشم المكامن أكثر صعوبة. آنذاك وحيث لم يكن لدينا شيء آخر نُرفّه به عن أنفسنا، كانت - الفئران أحيانًا - تصنع قصة ما، تكسر بها رتابة الأيام قليلًا. وقد تعلّم الشباب كيف يتكيفون مع تلك الأوضاع.

▫

لم نجد في الهور ما اعتدنا عليه في الجزيرة سابقًا من تنوّع الأعمال وطبيعة الحياة. لم يُسمح لأيّ أحد بالذهاب إلى دشمة الكمين المجاور، أو الخروج من الدشمة والوقوف على الجسر. كان اجتماع القوات ممنوعًا لأيّ سبب كان، وهذه الأسباب زادت من احترامي وإعجابي بالشباب الذين أمضوا أوقاتهم في الكمين في تلك الظروف. تم وضع قارب أو قاربين تحت إمرة هذه الكمائن المسمّاة بأسماء الشهداء المقدّسة، وتعود فلسفة وجودها إلى نقل الإخوة في حال جرحهم؛ فلا يخسرون حياتهم بانتظار وصول قوارب من الخلف، أو للتمكّن من التراجع بسرعة في حال جاء أمر بالانسحاب. جُهّزت هذه القوارب بدوشكا، ليستخدمها الشباب

1 - الأسماك ذات الشارب.

فقط في الحالات الاضطرارية.

حصلت اشتباكات مباشرة قليلة مع العدو في منطقة الهور، لكنّ احتمال تقدّمه في المعابر المائية أو مواجهته فيها لم يكن معدومًا. قال الإخوة إنّ عناصر المعلومات في الجيش العراقي، أتوا إلى المنطقة بواسطة القارب قبل وصولنا بعدة أيام، واقتربوا من خيمة الطوارئ حيث لم يكن لدينا دشمة حراسة، بل قوارب مناوبة فقط، كانت حينها تقوم بدوريات في الممرات المائية. كان من الواضح أنّ القارب العراقي عبر من المساحة الفاصلة - وقد وصلت أحيانًا إلى 1 كلم - بين دشم الكمين إلى ذلك المكان. بالطبع، لم يأتوا من أجل الاشتباك، لأنّه في هذه الحال كان سيتمّ أسرهم أو قتلهم بكلّ سهولة! ولكنهم أقبلوا بهذه الجرأة لجمع المعلومات. قبل تمركزنا بيوم واحد بالضبط في الهور، اشتبكت دورية من قاربين للإخوة من زنجان مع دورية عراقيّة في وسط الممر المائي، فقتلوا أفرادها، وأخذوا قواربهم أيضًا.

تولّت ثلاثة فصائل من قوات سرية الحاج قلي المسؤولية عن الكمائن الثلاثة التي تشكل خطّ دفاعنا الأول. كان الحاج قلي نفسه موجودًا في دشمة كمين آخر، يقع على بعد 2 كلم خلف تلك الكمائن. وكانت خيمة الطوارئ أيضًا تبعد حوالي 2 كلم عن دشمة الحاج قلي، وتتقدّم على باقي الدشم بحوالي 1300 م. استقرّ سائر عناصر كتيبة «أبو الفضل» في مكان يبعد حوالي 4 كلم عن الخطّ الدفاعي الأول، وغالبًا ما كنت أبقى في خيمة قرب الطوارئ برفقة 5 أو 6 أشخاص من الإخوة، بعضهم من عناصر الوحدة البحرية، ومن هؤلاء «كريم قرباني»، و«رضا إسكندري»، وشخص آخر عنصر إشارة، بالإضافة إلى ثلاثة آخرين، أما «أمير» فكان في دشمة الكمين. عملت واثنان آخران كبريد، وقد وضعوا تحت تصرّفنا ثلاثة إلى أربعة قوارب استخدمناها في إيصال التجهيزات والذخائر والتموين إلى الإخوة المتمركزين في الكمائن، وأحيانًا في

تسليمهم الرسائل التي تصلهم من المدينة. كنت أحيانًا أبقى مع الإخوة في الكمين، وأحيانًا أخرى أذهب إلى الخلف حيث تمركزت الكتيبة. بقي الإخوة في الكتيبة عاطلين من العمل أغلب الأوقات، ومن فرط البطالة رحنا نركب أحيانًا على متن الزورق، ونذهب بعيدًا قليلًا ونسبح لنتسلّى. لم يكن هناك أيّ وجود للأسماك في المكان الذي نسبح فيه. هنا أدركنا أنّ أكبر تجمّع للأسماك والفئران هو في منطقة الكمائن نفسها. لعلّ السبب في ذلك هو بقايا طعام الإخوة التي لا مناص من رميها في الماء.

في صباح أحد الأيام، كنت قد ذهبت إلى دشمة الحاج قلي، حين بدأت أصوات قذائف هاون العدو تصل إلى مسامعنا، الأمر الذي قلّما حدث صباحًا. بعد دقائق قليلة سمعنا الخبر على اللاسلكي، وأحضرت قوارب الكمائن عددًا من الجرحى إلى خيمة الطوارئ. لقد استشهد ثلاثة أشخاص في مكانهم، أحدهم أيوب يلدوغي. احترق قلبي كثيرًا لأجله. كان من بين الشهداء أيضًا مسعف من «مرند» وأحد الإخوة من تبريز. إضافة إلى ذلك، فقد جرح أربعة من الإخوة من بينهم «عيسى غيور» و«لطفي» الذي تولّى مسؤولية أحد الكمائن. حتى ذلك اليوم، لم تكن خيمة الطوارئ التي كان يؤمّنها دائمًا عناصر حراسة، قد شهدت هذا العدد من الشهداء والجرحى في الوقت نفسه. اتصلوا من الكتيبة وسألوا عن الموضوع. قلت لهم لا أعلم. في الواقع لم أرد أن أخبرهم بما حدث. جئت إلى الطوارئ ووجدتهم قد قاموا بالإسعافات الأولية اللازمة لعيسى والجرحى الآخرين، وشرعوا في نقلهم إلى الخطوط الخلفية. في تلك اللحظات، وصل قائد الكتيبة السيّد أجدر مولايي. كان الغضب باديًا في وجهه وسلوكه. لقد أكّدوا مرارًا وتكرارًا من قبل على الإخوة في الكمين أن لا يتجمّع بعضهم إلى جانب بعض، ولكن كان من الواضح أنّ عناصر من كمينين مختلفين اجتمعوا لسببٍ ما، ويحتمل أنّ العدو رأى تحرّكهم وقصفهم بالهاون.

لم يلتفت السيّد أجدر إلى الجرحى. توجّه مباشرة ناحية الشهداء وكنّا قد غطّينا وجوههم ببطانية. جلس وأزاح الغطاء عن وجوههم بهدوء. أوّل شهيد رأى وجهه كان هو الشهيد أيوب الذي طالما حظي بمودة ومحبة كلّ الإخوة والسيد أجدر أيضًا. ازداد حزنه. قال لي بغضب: «ألم أقل إنّه لا يحق للإخوة أن يتجمعوا نهارًا في مكان واحد!».

– سيّد! أنا لم أكن هناك! كنت هنا إلى جانبكم!

– اذهب بسرعة وأخبر العناصر الموجودين في الكمين أنّه لا يحق لهم من الآن وصاعدًا الخروج من دشمهم لأيّ سببٍ كان!

كان قرار السيّد في الواقع تأكيدًا لقرارٍ أُبلغ إلى عناصر الكمين منذ البداية. وبسبب حساسية المنطقة، وجب التحقيق فيما إذا كانت قذيفة الهاون قد سقطت صدفة إلى جانب الإخوة، أم أنّ العدو استهدف المكان. ولو ثبت أنّ العدو قد حدّد مكان الكمائن بدقّة، فعلينا تغييرها فورًا. كان على عناصر الكمين والجرحى أيضًا تقديم تقرير عمّا حدث. بقيت هناك بعد مغادرة السيّد المكان لأساعد في نقل أجساد الشهداء. وصل أحد القوارب. أودعناهم عليه، ورافقتهم إلى الخلف لإجراء التسليم. كنت دائمًا موسوسًا في مسألة تحديد هوية كلّ شهيد[1].

عندما عدت علمت أنّ السيّد عقد جلسة لعناصر الكتيبة عصرًا. أكّد القائد علينا أن نُنزل خسائر في صفوف العدو غدًا. أُبلغ الأفراد بواجبهم وأصبحت المهام محدّدة. كان على بعضهم أن يجهّز رشاشات

1 – كانت إحدى مشاكلنا خلال الحرب الأخطاء التي تحصل أثناء إرسال أجساد الشهداء إلى مدنهم. أحيانًا، كان يرسل جسد شهيد من تبريز مثلاً إلى مشهد وبالعكس... وكانت عملية التعرف إلى الشهداء ونقلهم من جديد تستغرق أيامًا. ومهما قاموا بعمليات لتنظيم هذه العملية للتقليل من مشاكل كهذه إلا أنه بقيت مثل هذه الأمور تحدث حتى آخر الحرب، خاصة أن بعض العناصر كانوا يذهبون أحيانًا إلى مراكز أخرى ويستشهدون فيها، ولم يكن ممكنًا تجنّب مثل هذه الأمور في العمليات فكان يتكرر وقوع مثل تلك الأحداث.

الدوشكا، وعلى عناصر الإسناد توجيه صواريخ الكاتيوشا بدقّة، بينما مهمتنا أنا وأمير وعنصرين آخرين إحضار الذخائر ليوم الغد. أعدّوا قائمة بالذخائر المطلوبة وسلّموها: 40 قذيفة هاون 120ملم، 60 قذيفة هاون 60ملم، قذائف B7، قنابل يدوية، ذخائر للـ«ميني كاتيوشا» و... فلضرب مواقع العدو، يجب عدم استخدام الذخائر المجهّزة مسبقًا للأسلحة، وفي حال استخدامها لأيّ سببٍ من الأسباب، يجب تأمين بديل عنها من الخطوط الخلفية فورًا.

إلى الخلف بحوالي 60 كلم، إلى جانب الجادّة التي تصل الجزيرة بالأهواز مرورًا بسوسنكرد وخرّمشهر، كان يوجد مخافر قديمة تعود إلى زمن ما قبل الحرب، وكان في المنطقة أيضًا مخزن للذخائر. قطعنا أنا وأمير جزءًا من الطريق بالقارب، والجزء الباقي بالسيارة حتى وصلنا إلى المخزن. لم يكن المسؤول الأساسي عنه هناك، وبدا الشخص الذي وجدناه هناك حديث العهد بالعمل، ولا علم له بالأسماء والتواقيع. خطر على بالنا أن نزوِّر كتاب السيّد للحصول على كمية من الذخائر أكبر من تلك التي طلبها في كتابه. احتفظنا بالكتاب الأساسي وكتبنا رسالة جديدة بأرقام أكبر. كانت الذخائر التي سلّمونا إيّاها أقلّ من الكمية المذكورة في الرسالة! نسّقنا سريعًا مع ثلاث سيارات تويوتا وحملنا فيها الذخائر. اتفقنا على العودة لتحميل بقية الذخائر بعد تفريغ الحمولة الأولى. فكرنا أنّه إذا جاء المسؤول الرئيسي للمخزن عند عودتنا سينكشف أمرنا لأنّه يعرف إمضاء السيّد، وفي هذه الحال لن يمتنع عن إعطائنا الذخائر وحسب، وإنّما سيعتقلوننا بسبب الكذب، وستسوء الأمور. لذا، بعد أن أفرغنا حمولة الذخائر ورجعنا، أرسلنا أحد الإخوة ليستطلع لنا الأوضاع. جاء صديقنا هذا وقال إنّه شرب كوبًا من الشاي مع المسؤول الرئيسي للمخزن وتبادل معه أطراف الحديث. أدركنا أنّه يجب أن لا نكمل طريقنا ورجعنا من فورنا!

انشـغلنا حتى عصـر ذلك اليوم بنقل الذخائـر، وبعد أن فرغنا من عملنا أخذنا صورة تذكارية أنا وأمير إلى جانب الشيلكا، الثنائي والميني كاتيوشا.

في تلك الأيام كنّا نتحدث مع السيّد لنقل عناصـر سرية الحاج قلي الموجودين في الكمين إلى الخلف وإعطائهم إجازة. كان الإخوة يعيشـون ظروفًا صـعبة. نحن أيضًا بدأنا نشعر بالملل مع أنّ ظروفنا كانت أفضل، وكان لنا الحقّ في التردّد بين المكامن والجزيرة لنقل الطعام والتجهيزات. بعد حوالي 20 يومًا طرح موضـوع حصول عناصر سرية الحاج قلي على إجازة. كان لدينا في المنطقة سرية أخرى للدعم والمؤازرة، وبالتالي فإنّ تبديل العناصـر أمرٌ سـهل. أنا أيضًا أردت الحصـول على إجازة شأني شأن سـائر عناصر السـرية. أقنعنا السـيّد بذلك بعد انقضاء 20 يومًا من مدّة الشهر المحدّدة لنا في المنطقة، وكان يمكن لعناصر سرية أخرى البقاء في المنطقة في الأيام العشرة الأخيرة. عندما تجهّز عناصر سرية الحاج قلي للرحيل، جئنا نحن أيضًا برفقتهم إلى قائدنا:

– سيّد، نحن ذاهبون معهم أيضًا، بعد إذنك!

كان الأخ مولايـي لـيّن الجانـب ووافـق. وقـرر إعطـاء الذخائر إلى المجموعة التي ستستلم المنطقة بعدنا.

تركنا الهور في تلك الظروف وصعدنا جميعًا إلى الشاحنة. كان من المقرّر أن ننطلق ليلًا، لكنّ الطقس كان ماطرًا لذا تحركنا في الصـباح. لقد لبست المنطقة ثوبًا عجيبًا بعد هطول الأمطار لفترات متواصلة؛ فلم تسـتطع الأرض الجرداء ابتلاع الماء، وأصـبحت أشبه ببحيرة أو حوض كبير. رأينا في الطريق عناصـر فرقة أخرى وأحيانًا عناصـر من فرقتنا وقد علقوا في الماء. لقد بدت السواتر الترابية وكأنّها فواصل في الحوض. غلبنا الضحك ونحن نرى هذه المناظر من الحافلة، مع أنّ المسألة كانت

مبكية بالنسبة إلى العالقين في المياه.

عندما وصلنا إلى مقرّ الفرقة أسرعنا إلى الحمّام. كان الصفّ أمامه، كالعادة، مزدحمًا والمسؤول يرسل كلّ خمسة أشخاص إلى الحمّام الواحد، لأنّ المقرّر هو تسليمه بعد ساعتين للسرية. لقد مضى أكثر من 20 يومًا لم يستحمّ فيها عناصر سريتنا. خصّصوا لنا أيضًا في ذلك اليوم حلّاقًا، حمّامًا، بريدًا، خياطًا، سكافًا، و... كلّ شيء جاهز وبالمجان (صلواتي)! لكنّ الصفوف كانت في كلّ مكان، والجميع يريدون حلاقة شعرهم، ولكي يصل الدور إلى الجميع سهّلوا الأمر وبسّطوه بوضع آلة الحلاقة في جهة من الرأس وجزّ الشعر من منبته. عدد قليل من أمثالي رفضوا الظهور بذلك المظهر، لذا اختاروا أن ينتظروا فرصة أخرى. وبالنتيجة فقد أصبح أغلب أفراد السرية صلعًا.

▫

وقعت المفاجأة بإبلاغنا قرار إلغاء الإجازة خصوصًا بعد مجيء الحافلات لنقل القوات. كان هذا الأمر - بعبارة موجزة - بمنزلة إعلان جهوزية لتنفيذ عملية في وقت مبكر. عملية في منطقة الجنوب في مكان لا يخطر على بال أحد، وقد قامت وحدة الوقاية في معلومات وعمليات المنطقة بإنجاز عملها بشكل جيّد للحفاظ على سريّة العملية بالكامل.

ورغم إصدار أمر إلغاء الإجازة لم نعدل أنا وأمير وثلاثة آخرون عن فكرة الذهاب إلى المدينة. لقد تورّط والدي بسبب أعمال البناء في المنزل، بمشاكل لا تُحلّ إلا بحضوري أنا شخصيًّا، وقد أرسل رسالة إليّ حول هذا الموضوع وأردت الذهاب إلى تبريز لعدّة ساعات بأيّ شكل من الأشكال. أعطونا إجازة لمدة يومين، قضينا أكثرها في الطريق. وصل خبر ذهابي إلى مسامع الإخوة الذين انتقلوا إلى حال الجهوزية، وقد تقرّر إرسالهم إلى منطقة العملية. جاءني «رحيم افتخاري» وهو من حيّ

«قره آغاج» في تبريز وقال لي: «سيّد! أنت ذاهب إلى تبريز!».

- نعم إن شاء الله!

- جيّد، رجاءً أسدني هذه الخدمة. اذهب إلى منزلنا وأحضر لي صورة طفلي لأراه! لم أره حتى الآن!

هزّ كلام رحيم هذا كياني. لست ذلك الشخص الذي يتأثّر سريعًا في مقابل الجراح أو أجساد الشهداء، لكن كان قلبي ينكسر بشدّة في بعض المواقف. لقد حدّثني رحيم عن عائلته سابقًا، لكنّني لم أعلم أنّه أصبح أبًا مؤخرًا.

- بكلّ تأكيد يا رحيم... سأحضر لك صورة طفلك!

ما إن وصلنا إلى تبريز حتى ذهبت إلى محطة القطار قبل أيّ شيء آخر، واستلمنا دراجتنا النارية التي أرسلناها إلى تبريز بالقطار، وبقيت في المحطة منذ مغادرتنا مع قوات الكتيبة إلى الهور.

- أمير! لنسرع أولًا إلى منزل رحيم وننفّذ ما طلبه!

كنّا قد حصلنا على عنوان منزله؛ في منطقة «منتش» بالقرب من محطة القطار تقريبًا. بحثنا في كلّ الشارع ولم نستطع أن نجد منزله. صحيح أن منتش ناحية صغيرة، لكنّ بيوتها صغيرة وعدد سكانها كبير، وكلّ من سألناه لم يعرفه. اجتزنا الطريق بطوله مرات عدّة، ولكن من دون نتيجة. كانت هناك امرأة تقف منذ البداية عند أول الزقاق وتنظر إلينا بتمعّن. لقد اتكأت إلى الحائط وشعرتُ أنّها ترمقنا بنظرات خاصة.

- لماذا يا ترى تنظر إلينا هذه العجوز بهذه الطريقة؟!

غامرنا، وتقدّمنا هذه المرّة منها بالدراجة وتوقفنا عندها. انتابني شعور أنّني وجدت ضالّة رحيم. كان دفء صوتها ولحن كلامها يؤكّد في داخلي هذا الشعور. هي من بادرت بالسؤال: «كيف حالك يا بنيّ؟!». قلنا لها إنّنا نبحث عن أحد الأشخاص، وما إن ذكرنا لها اسم رحيم حتى

أشـرق وجهها: «رحيم هو ولدي!». آنذاك غمرني إحساس عجيب. فاض مـن عينيّ أمّ رحيم شـوق وانتظار أمهات جميـع المجاهدين. أعطيناها رسـالة رحيم، لكنّها أصـرّت على استضـافتنا في منزلها. لقد أخرست ألسنتنا بلطفها. لم أقل لها إنّنا لم نذهب بعد إلى بيتنا وإنّه لدينا القليل من الوقت. مشـينا في أثرها حتى وصـلنا إلى آخر الزقـاق، ودخلنا إلى منزل صغير لا تصل كلّ مساحته الإجمالية إلى 40 $م^2$.

راودني شعور عجيب. لقد أثّر بي كثيرًا صدق ولطف أهل ذلك البيت. لم أر والده، ولم أعلم أساسًا إن كان حيًّا أم لا. تأمّلت الغرفة التي بناها رحيم له ولزوجته فوق السـطح، وكيف لا يتمّ الوصول إليها إلا بالصعود على درج أشبه بالسلّم. خنقتني العبرة. حاولت أن أتمالك نفسي وأنهض بسـرعة من مكاني. كانـت حال «أمير» كحالي أيضًـا، وبقينا سـاكتين. قلت: «سـيدتي! يقول السـيّد رحيم إنّه لم ير طفله بعد، فإن اسـتطعتم أن تحضّـروا صـورة له حتى نأخذها له، سـيكون ذلك جيدًا!». يعلم اللّه كم صـعب عليّ التفوّه بهذا الكلام. كنت أعلم أنّه ليس من السـهل على عائلة تعيش في ظروف كهذه، أن تهيِّئ صـورة للطفل خلال وقت قصير. لكـن، اتفقنـا على أن نمرّ بهـم في طريق عودتنا لأخذ الصـورة. ذهبت على تلك الحال إلى منزلنا واستمعت لكلام عائلتي. لم تكن مشاكلي أقلّ من مشاكل بقية الإخوة. بالرغم من أنّني ظننت أنّ بلائي ليس بمستوى بـلاء عائلة رحيم والكثيرين، لكنّني لم أكن مرتاح البال. لقد انتهى أبي من بناء أساسـات البيت، لكن نفد ماله أيضًا. وقد تعرّضت موادّ البناء للسـرقة مرّات عدة ما اضـطرّ أبي في تلك الأيام إلى الانتقال إلى تبريز والبقـاء في المنـزل الجديد. المنزل الذي لم تكتمل فيه إلى حدٍّ ما سـوى غرفة واحدة. جدران من الطوب غير مجصّصـة، أبـواب ونوافذ بدون زجاج، وقد وضـعوا على النوافذ النـايلون للحؤول قليلًا دون دخول الهواء البـارد، وعلى الباب أكياسًـا ليتمكنوا من الإقامة فيـه. انزعجت كثيرًا

عندما رأيت هذا الوضع. لا أنا أستطيع البقاء في المدينة سوى يوم واحد، ولا أملك مالًا أعقد الأمل عليه ولو 100 تومان. قلت لوالدي سأتدبّر المبلغ من الإخوة صباحًا ونقوم بتركيب زجاج النوافذ. طلبت منه أن يجد نجارًا ليقوم بالحدّ الأدنى بصناعة باب للغرفة. بقيت أرتجف في تلك الليلة تحت اللحاف حتى الصباح، وأفكر باستمرار كيف يقضي والدي ووالدتي الليالي في ظلّ هذه الظروف؟ خصوصًا ليالي شتاء تبريز المعروفة بثلوجها وعواصفها.

قال لي والدي في الصباح إنّه يعرف نجارًا. تقرّر أن يتحدّث معه لعله يستطيع أن يصنع بابًا للغرفة على أن ندفع التكاليف في العيد. استاء النجار عندما أتى إلى العمارة غير المكتملة بعد، وعلم أنّني مقاتل وجريح. قال ليس من الإنصاف أن تحيطك هذه الشدّة. وقرّر أن يصنع جميع أبواب المنزل، وفي المقابل نعطيه ثمنها عندما يتوافر لدينا. ذهبت إلى عدد من الأصدقاء أيضًا واقترضت منهم مالًا استخدمته في تركيب الزجاج ليرتاح بذلك بالي نوعًا ما فيما يتعلق ببرودة المنزل. أخذت الأمانة التي أرادها رحيم من منزله، وانطلقت وأمير بالحافلة إلى دزفول.

## الفصل الحادي عشر

# وداعًا «أمير»

1

وصلتُ وأمير إلى دزفول. لم نجد أحدًا في مقرّ الفرقة. كنّا نتوقع ذلك؛ فقبل ثلاثة أيام عندما غادرنا في إجازتنا كان الجميع يتحضّرون للانطلاق. لقد مضت الكتيبة إلى منطقة العمليات. قررنا أن نذهب إلى المركز، إذ يمكننا ركوب سيارة من هناك والالتحاق بالكتيبة. في الطريق رأيت الحاج «بيوك آقا أسايش». بعد التحية والسلام قال إنّهم يقصدون الموضع الجديد. على الفور، ركبنا معهم في سيارة المقرّ.

كان التموضع الجديد في قرية قريبة من «كارون». التحقنا هناك بكتيبة «أبو الفضل» وأدركنا أنّ العملية جديّة. حتى ذلك الحين كنّا نبقى مع السيّد أجدر في خيمة القيادة، مع أنّنا كنا نفضّل أن نكون بين القوات خلال العملية العسكرية. ذهبت وأمير إلى رحيم افتخاري، وقد عُيِّن للتوّ مسؤول فصيل. أعطيته الرسالة وصورة طفله. فرح كثيرًا. منذ تلك اللحظة تغيرت نظرتي لـ«رحيم» عن السابق.

بقيت في سريّة الحاج قلي، وتحديدًا في فصيل رحيم. حصل عدد من المناقلات خلال تلك الأيام الثلاثة. استقال عدد من الأفراد من مسؤولياتهم لأسباب مختلفة بعد سماعهم خبر العملية وعادوا إلى المدينة. وفي المقابل، تهافت آخرون إلى الجبهة للمشاركة بعد أن سمعوا بالخبر نفسه، من بينهم أربعة أشخاص من عناصر اللجنة[1].

1 – وقد التحق اثنان منهم بقافلة الشهداء في ذلك اليوم، هما رحيم غفاري ورضا كلوليان.

من تشـكيلة الفصـيل، كنت أعرف شخصـين أو ثلاثـة فقط: رحيم افتخاري، «صمد إقدام نيا» وصديقيه «رضا كلوليان» و«مهدي محمدي». كان لقاء الإخوة والاجتماع بهم على الدوام سـببًا لسـعادتي، وخصوصًا أنّ رائحــة العمليــة بدأت تفوح في المنطقة، ومــرور كلّ أولئك المجاهدين في الأزقّة أضـفى على القرية وقعًا خاصًّــا، مع بيوتها التي أعطتها شكلًا طوليًّا. وجدنا كلّ شيء هناك: أوانٍ كبيرة على شكل براميل ملأى بالتمر، لعلّهــا كانت مؤونة الأهالي السـنويّة. الحقول زرعـت بالبندورة، الخس والفجل وغيرها من الخضار، وقد آتت المنتجات أكلها. سألنا قادتنا عن إمكانيــة المجاهدين الإفادة منهــا، فأجابوا أنّ ثمنها مدفوع ولا إشـكال في ذلـك. لذا رحنــا نأكل من كلّ ما نريد وما تصـل أيدينا إليه مرتاحي البال، خاصّــة البندورة الطازجة بينما الثلج يتسـاقط في تبريز ويستبدّ الصـقيع. كانت البيوت نظيفة ومجصّصــة من الداخل مع أنّها صُـنعت من الطين. تموضــع فصـيل من الإخوة في كلّ بيت، وبعضهم نزل ضيفًا في منازل أصـدقائهم! مشـكلة القرية الكبيرة كانت في مياه الاستخدام المالحــة التي لا يمكن اسـتعمالها للشـرب، فأجبرنا على إحضــار المياه الحلوة بواسـطة المخازن النقّالة. ليلًا، كنّا نضــيء المصابيح، وأتاح لنا توافــر الكهرباء الاسـتماع إلى الأشــرطة التــي نحبّ، وأغلبها أشــرطة الخطب والقرآن والعزاء. كنّا نمدّ سفرة الطعام ونجلس جنبًا إلى جنب لتناوله. كالعادة، كان هناك اهتمام بتغذية القوات في الأيّام التي تسـبق العملية. وعندما تجهز السـفرة، لا يمدّ أحد يده إليها رغم الجوع، حتى يتأكد من أنّ الطعام وصل للشخص الجالس بجانبه. وكان كلّ واحد من الإخوة يقدّم غيره على نفســه للجلوس إلى السـفرة بسبب قلّة الملاعق. لم يكن هذا التصــرّف مجاملات فارغة أو رياءً، وإلّا لما استمرّ أكثر من يومين، بل إنّ نفوس الإخوة عجنت بهذا الخلق الجميل من الإيثار الدائم وتقديم الآخرين على النفس.

للأيام الحلوة في القرية قبل العملية صفاؤها الخاصّ. كان الشباب يغيرون على بيوت بعضهم البعض، وغالبًا من فوق أسطح المنازل، ولا يستثنى من هذه الهجمات إلّا قلّة قليلة.

لم تكن ظروف العمليات تلائمني، حيث إنّني أتأذّى من الغبار والتراب وأحيانًا من الحرّ. لم أعتد على اعتمار القبّعة أيضًا، سواء الخوذة المعدنية أو أيّ قبعة أخرى، وأحيانًا أضعها مكرهًا! كنت دائمًا أقصّ شعري قبل العملية. لم أكد أطرح هذا الموضوع حتى بادر رحيم افتخاري قائلًا: «أنا أجيد الحلاقة». ذهبنا معًا إلى ظلّ نخلة. بدأ رحيم يحلق رأسي بآلة الحلاقة التي يستخدمها، وراحت تلك الآلة تنزع الشعر أكثر ممّا تقصّه. بعد قليل اقترب أحد أفراد اللجنة قائلًا: «سيد رحيم، أنت لا تجيد الحلاقة، أعطني هذه الآلة!». أخذوا ينزعون شعري ويرمونه على معطف المطر الأزرق من تلك المعاطف التي سلّموها للجميع. بعد ذلك، دخل أحد شباب التعبئة ساحة المعركة ليقوم بما لم يستطيعوا فعله ولكنّه لم يبدّل شيئًا. وددت لو بقي شعري على حاله فالنتيجة مزرية: شعر طويل وقصير تكوّم على رأسي، ما جعل كلّ من يرى منظري يضحك حتى تكاد خاصرته تتمزق من الضحك. وختامًا، أحضروا مقصًّا وقصّوا ما استطاعوا من الشعر الطويل، قبل أن أفرّ من بين أيديهم مفضّلًا وضع القبعة على رأسي كي آمن من مزاحهم!

قبل بدء العملية بحوالي 4 أو 5 أيام، تجهّزنا جميعًا بناءً لأمر السيّد، للتدرّب على المعركة في بستان النخيل. وقد جاء عناصر من وحدة التدريب العسكري لهذه الغاية. بدأ البرنامج، لكن تحوّلت الساحة من مكان للتدريب إلى ساحة لشغب الشباب. قال المدرّب: «تقدّموا بمقدار أربع أو خمس نخلات، واحتموا هناك وأطلقوا النار». بدا ذلك عملًا سهلًا، لذا

رحنا نقضي وقتنا بالمزاح. لم يكن بالإمكان فعلًا إقامة مثل هذه التدريبات لعناصر يعيشون حال الحماسة والشوق التي تسبق العمليات. عندما رأى المسؤولون أنّنا لا نستجيب لهم في التدريب، أكّدوا علينا أن نأخذ الموضوع على محمل الجدّ، لكن استمرّ الشباب بفعل ما يحلو لهم.

▫

استقررنا في قرية قريبة من كارون على مسافة حوالي 50 كلم من الحدود مع العراق. وضع الشباب قرب النهر براميل بسعة مئتي ليتر كأهدافٍ راحوا يطلقون الرصاص وقذائف الـB7 عليها، وعندما تتحرك من مكانها بسبب الانفجارات، يعيدون ترتيبها. الهدف من هذه الرمايات هو أن نتعوّد على أصوات الانفجارات. لم أكن في تلك الظروف ناشطًا في الرماية، ولم أذهب إلى بستان النخيل للتدرّب، بل قضيت معظم أوقاتي في الحقول! وبما أنّني أحبّ البندورة، رحت أجول في الحقول باحثًا عن حباتها التي بقيت في مأمن من أيدي الشباب. أحيانًا كنت وأمير أو بعض الإخوة نمشي حوالي 3 كلم بحثًا عن البندورة والخس و... على كلّ حال كنّا دائمًا نظفر بالبندورة. لم تكن المحاصيل الصيفية بالنسبة إلى بعض الإخوة الذين أتوا إلى الجنوب من المناطق الحارة أمرًا مرغوبًا، أمّا نحن القادمين حديثًا من ثلوج وصقيع تبريز، فكنا حقًّا نتلذّذ بأكل البندورة.

▫

ملأت وحدة التجهيزات المنطقة بأنواع المأكولات المختلفة: عسل، فواكه معلّبة، وأشياء أخرى كثيرة. انشغل بال الشباب بفكرة توفير حمّام كي يستطيعوا الاستحمام بسهولة في الأيام المعدودة التي سيكونون فيها هناك. سبق فصيلنا الجميع في العمل على بناء حمّام، وبذل الشباب جهدًا كبيرًا لتحويل المكان الذي كان فيما مضى إصطبلًا إلى

حمّام: وضعنا على سطحه برميلًا بسعة مئتي ليتر، وثبّتنا تحت البرميل مصدرًا للحرارة يعمل عند ضخّ المياه. وصلْنا حنفية بالبرميل لتصل المياه الدافئة عبرها إلى الحمّام. بقي علينا ملء البرميل باستمرار، ولم تكن مياهه ساخنة أبدًا، لكنّها أفضل من لا شيء. بادر الشباب أيضًا إلى وصل كيس من النايلون برأس الحنفية، جعلوا فيه ثقوبًا كثيرة ليصبح شبيهًا بالدوش، وكان يؤدي دوره عندما يمتلئ! أحطنا الحمّام بالبطانيات. هيّأنا مرحاضًا في زاوية أخرى من ذلك المكان، وبالطبع كان على الشباب أن يحجزوا دورهم. بعد هذه المبادرة، قامت بقية الفصائل ببناء حمّام لها أيضًا. لم تمضِ دقيقتان على دخولي ذلك الحمّام في المرّة الأولى حتى علا صياح الشباب: «اسرع، هيّا إلى الخارج». آنذاك، كان خمسة أشخاص يقفون جنبًا إلى جنب بين خزان المياه وبرميل الحمّام، ويتناقلون الماء يدًا بيد ليملأوا البرميل. لذا لم يكن أحدٌ يستطيع البقاء في الحمّام لأكثر من بضع دقائق.

من الأنشطة المشتركة التي أقيمت في القرية صلاة الجماعة. كان الإخوة يفرشون السجاد إلى جانب النخيل لجميع عناصر الكتيبة. عجيبة هي مشاهد صلوات الجماعة تلك. عادة ما يخجل الإخوة من أن يظهروا حالات العشق والقرب من الله تعالى أمام الناس، لكن لهذه الصلوات حال أخرى. مع حلول الظلام، قلّة لم تكن تضجّ بالبكاء في فريضتي المغرب والعشاء؛ بكاء سببه إمّا الشوق إلى الله تعالى وإمّا طلب الحاجات منه والتوسل بأهل البيت عليهم السلام.

عندما اطّلعتُ على خطّة العملية، اعتقدت أنّ العمل بها سيكون أصعب بمرّات من العمليات السابقة، حتى عملية بدر، تلك التجربة العظيمة! أن يعبر الغواصون نهر «أروند» بطبيعته القاسية ويخترقوا خطّ دفاع العدو و... أخذ الشباب يمزحون أحيانًا قائلين: «لقد أخذت بدر كلّ ما لدينا». إضافة إلى القادة، فقدنا في عملية بدر عناصر التحق

أكثرهم بالجبهة وبقوا فيها منذ بداية الحرب. كنت دائمًا أحدّث نفسي: «مـن الذي سيسـدّ الفراغ الـذي خلّفه مهدي ؟.... وهـل يمكن لأحد أن يملأ مكان أصـغر قصّـاب في الفرقة؟»، وأقارن العناصـر الحاليين مع عناصـر عمليـة بدر، وأفكـر أنّ قوة هؤلاء وخبرتهم هـي الآن أدنى ممّا كانت عليه لدى شهداء تلك العملية. مع هذا، كان الإيمان والأمل برحمة اللّه سـبحانه مبعث طمأنينتي إلى أنّه لا وجود في الجبهة لشـيء اسـمه مستحيل. أعتقد أنّ هذه المسائل راودت أكثر القدامى في الفرقة.

مع اقتراب وقت العملية، صـرنا نفكر أكثر في مسألة عبور الغواصّين مـن قلب نهر أروند والهجـوم على خطّ الدفاع العراقي المتين مع كلّ تلك العوائـق والموانـع المحكمة التي زرعوها. في ذلـك الوقت من العام أي في شباط عام 1986م، كان على غوّاصي قوة الاقتحام العبور في المياه حيث التيـار قـويٌّ، والمدّ والجزر مشـهوران في المنطقة، ثم ضـرب الهدف في الضـفة الأخرى. لم يمرّ يوم أو ليلة من دون أن أفكّر بهذه الأمور، وأعلم أنّ إمكانيـة القيـام بهذه الأمور منوطة بالتوكل على رحمة اللّه سـبحانه وتعالى، فأبدأ بطريقة عفوية بالتوسّل من أعماق كياني.

في تلك القرية، تشاهد تعبويين يبدأون بالبكاء من بداية صلاة الجماعة إلى نهايتها، ويبقون ساجدين لأكثر من عشر دقائق. تراهم يرتجفون حتى تشـعر وكأنّ الأرض ترتجف معهم. كنت أعرف بعضـهم. بينهم أشخاص كـ«رحيم افتخاري» الذي رضـي بصـورة مولوده الجديد، وبقي في الجبهة ليعوّض، قدر ، النقص الحاصل في القوات. وأمير؛ كم تغيّرت أحواله. مع أنّه صغير السنّ وفي مقتبل العمر، إلا أنّه أمضى سنوات في الجبهة، وقطع (اختصر) في تلك الليالي مئة عام من طريق العارفين.

كانـت الأيام التي تسـبق العملية جميلـة ومليئة بالضـحك، ولياليها حافلة بالمشـاهد الممتعة. كان البيت الذي نستريح فيه صغيرًا لدرجة أنّ

أرجلنا تقع فوق بعضها البعض عندما نذهب كلّنا للنوم. بدايةً كنّا ثلاثة أشخاص في تلك الغرفة، ولاحقًا عندما أتت قوات جديدة إلى المنطقة، أضافوا إلينا ثلاثة من عناصر الهندسة والإسعاف، فلم يعد ممكنًا الإتيان بأيّ حركة عندما نستلقي جنبًا إلى جنب، نظرًا لضيق المكان.

كنّا نخلد للنوم في تلك الظروف، لتفرُغ هذه الغرف بعد ثلاث أو أربع ساعات. أحدهم يصعد إلى السطح، وآخر إلى خارج الغرفة، بينما يأخذ أغلب الشباب بطانية ويذهبون إلى بستان النخيل، وتستمرّ الحال هكذا حتى السحر. كنت أغبط بعض الشباب إذ استطاعوا التحرّر من كلّ علائقهم الدنيوية.

▫

في أحد الأيام جاء نداء: «تجمّعوا جميعًا في مكان واحد، يريد السيّد أمين التحدّث إليكم». إنّها المرّة الأولى التي يتحدث فيها قائد الفرقة الجديد أمين شريعتي بعد استشهاد «مهدي باكري». كانت لحظة وصوله لحظة خاصّة بالنسبة إلينا. لقد أحيت فينا ذكرى مهدي. من جهة كنّا نشعر بغيابه، ومن جهة أخرى، كان وجود أمين الذي بدأ الحديث عن مهدي يرفع من معنوياتنا. تجمّعنا وسط بستان النخيل. قال أمين: «قائدكم هو السيّد مهدي باكري. أنتم عناصر السيّد مهدي. أنتم من الفرق البارزة... ولهذا فقد أُعطِيَتْ أيضًا واحدة من أكثر المناطق حساسية لقوّات الاقتحام في فرقة عاشوراء...!»[1]. لقد رفع أمين بشكل كبير الروح المعنوية للشباب بذكره لمآثر فرقة عاشوراء: «لقد أثبت شباب فرقة عاشوراء حضورهم المميّز في عملية بدر. أنتم الذين سطّرتم ملحمة بدر تلك و...». وصل الدور إلى الحديث عن محور

1 – كانت فرقة عاشوراء تسيطر دائمًا على المحاور الموكلة إليها بتوجيهات قادتها الشجعان، وتساعد الفرق على جناحيها (الايسر والايمن). ودائمًا ما كانت الفرق العاملة في هاتين الجهتين راضية عن العمل إلى جانب الفرقة، وقد أشار الأخ أمين إلى هذه المسائل مرّة أخرى.

العمليات. الجميع أصـغى بدقّة. كانت الأوضــاع معقّــدة لدرجة أنّه بين ألف قد لا تجد شخصًــا واحدًا يستسـهل هذه العملية. هذه المرّة أيضًــا بتنا في مواجهة الطبيعة، طبيعة نهر أروند القاسـية. كانت سـرعة المياه في النهر مربكة. كيف يمكن بناء جسر على النهر مع هذا التيار القوي؟ الجسر الذي يعتبر صلة الوصل الوحيدة مع الخطوط الخلفية، وإن تمّت إزالته بالقصـف أو بأيّ عوامل أخـرى، ماذا بإمكان القوات المتقدّمة أن تفعل؟ طُرحت جميع المشـاكل، وخلصــنا إلى نتيجة مفادها أنّه: «عندما يقرّر الإنســان أن يحلّ مشـكلته فسـوف تحلّ. لا يوجد مشـكلة ليس لها حلّ، والأمر مرتبط بدافعية المرء وإرادته، ومدى جديّته وثباته». شـكرَنا السـيّد أمين في نهاية كلامه، ومن جانبنا نحن أيضًا، أحطنا به وأطلقنا شـعارات التأييـد والتقدير لقادتنــا. كنّا عندما يأتـي الأخ مهدي لإلقاء محاضـرة أمام عناصر الفرقة، نسـتقبله بكلّ حماسة وشوق بشعارات: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، أهلًا وسهلًا بنصير الإمام، أو يا قائد فرقتنا، جاهزون، جاهزون». إذ يتوجّب علينا نحن أيضًــا أن نتفاعل مع حال حماسة قادتنا وإظهار شـجاعتنا وثباتنا. أطلق الشباب شعاراتهم هذه المرّة أيضًا، وأظهروا للقائد الجديد جهوزيّتهم وشوقهم على أعتاب العملية الكبرى «والفجر8». حُدّد موعد الهجوم ليلة 9 شباط.

◘

انتهــى الـكلام، ليبدأ التحــرّك بعد سـاعات. كان الشـباب فرحين ومبتهجين وراح كلٌّ واحد منهم يُظهر مشاعره بطريقة ما. كانت المسافة بين مكان الاجتماع والقرية حوالي 1 كلم ونصف. في طريق العودة، أخذ بعض الإخوة يلاحق بعضـهم بعضًا ويشـاكس بعضهم بعضًا. لقد أثاروا الصخب في القرية. كلّما نظرتَ إلى أحدٍ ما، يخطر على بالك أنّك قد لا تراه في الغد! لذا لم تكن لتشبع من رؤيتهم والبقاء معهم.

كالعادة، مرّت ساعات ما قبل العملية ثقيلة عليّ. رحت أنظر إلى الإخوة؛ إلى أكلهم، إلى جلوسهم وقيامهم، احترام بعضهم لبعض، مناجاتهم مع الله، شكواهم ومزاحهم... وأشعر بالأسى أنّه إن أنا بقيت حيًّا كيف سأرى مكان الشهداء خاليًا عند عودتي. وحدهم أولئك الذين تذوّقوا طعم هذا الألم يدركون عمّا أتحدّث.

▫

كما جرت العادة في آخر ليلة لنا في القرية، أقمنا مراسم العزاء ومواكب اللطم. في تلك الليلة بعد الصلاة، ألهب البكاء الحزين لأحد الإخوة مشاعر الجميع، فارتفع صوت البكاء من كلّ مكان. عادة ما ينضمّ الحاج «صادق آهنكران» إلى جمع عناصر فرقة عاشوراء ليالي العمليات، ونراه في مجلس العزاء الذي نقيمه قبل العملية. لكن، لم يكن موجودًا هذه المرّة. انطلق الإخوة بمواكب العزاء التقليدية شاخسي[1]. وكأنّ هذه المواكب كانت بيعة لقائدنا الأساس.

ابتلّت الأرض بالندى، وأصبحت موحلة وزلقة كما أذكر جيدًا تلك الليلة، وكنت في منتصفها مسحورًا بمظهر الشباب. في الحقيقة لم يكن هناك من حاجة لقارئ العزاء. فالكلّ يصرخون من أعماق قلوبهم وا حسيناه، وا حسيناه، وا سيدّاه، وينوحون. كان الأخ «قادر منافي» يقرأ العزاء في كتيبتنا التي تفتخر باسم «أبو الفضل»عليه السلام، وعندما يصل إلى اسم العباسعليه السلام تتغير أحوال الجميع، ويردّدون بصوت واحد: «يا أبا الفضل، يا من هو بدون يد وبدون ساعد...». تذكّرت آخر وصايا السيّد أجدر قائد كتيبتنا حين قال: «علينا أن نقاتل كأبي الفضل، حتى لو اقتضى الأمر أن نقدّم أيدينا في هذا الطريق و...».

انتابني شعور غريب في تلك الليلة بحيث صرت أتمنّى مع انطلاق

1 - نوع من مواكب العزاء التقليدية في تبريز.

العمليات والمشاركة والدخول في قلب المعركة أن أنفصل عنهم. إنّه شعور البعد عن أعزّ الناس عليّ. استحضرت ذكرى الشهداء الذين بقيتُ سنوات إلى جانبهم، أمّا الآن... كلّهم أحياء في قلبي، لكنّني لا أراهم. أكاد أجنّ عندما أتذكّر الشهداء.

▫

حان موعد التحرّك. تجهّزنا للانطلاق في ضوء النهار بعد أن استمعنا إلى آخر كلام لقائد كتيبتنا. كان السيّد أجدر مولايي - كأيّ قائد آخر- يتوقع الملاحم من عناصره، ويعلم جيّدًا كيف يؤجّج معنويات الشباب.

وصلت الشاحنات سريعًا، حيث من المقرّر الانطلاق بها إلى الخطّ. في هذه اللحظات الأخيرة وُزِّعت العصائب على الإخوة. عصائب حمراء كتب عليها أسماء أهل البيت عليهم السلام الجميلة: «يا مهدي يا حسين ويا أبا الفضل...». انقلبت أحوالي وبدأتُ بالبكاء بشكل جعل «أمير» يحدّق بي ويسألني: «سيّد! سيّد نور الدين! كأنّك ذاهب لتستشهد؟!».

- لا يا عمّ! أنا لن أستشهد!

- إذًا، لماذا تبكي هكذا؟

كان «أمير» يسأل وأنا أجيبه أنّنا عندما نرجع لن نرى هؤلاء الشباب هنا. وأنا من الآن أبكي لتلك اللحظات!

عجيبةٌ هي مشاهد الوداع. راح الإخوة يطلبون المسامحة بعضهم من بعض بسبب أصغر الأخطاء، حتى تلك غير المتعمّدة! كم أصبحت أرواحهم لطيفة، وكم ستصبح الحياة خاوية برحيل هذه الورود من جمعنا.

كان بكائي عجيبًا بالنسبة إلى الذين يعرفونني، فهم يعلمون أنّني لست إنسانًا رقيق القلب، وأنّني أبكي بصعوبة. لكن، انتابني شعور أشبه بشعور الوالد الذي يرى ولده، ثمرة فؤاده، لآخر مرّة ويودّعه. كنت أعلم

أنّنا سنتكبد خسائر كبيرة، ولكن من هم الأشخاص الذين سنخسرهم؟ أيّ واحد سيُقطف من بين هؤلاء الأصدقاء؟

بدأ التحرك مع صوت الأذان. كان أحدهم يرفع الأذان ويشرح معناه في نفس الوقت. وللأذان عند لحظة الانطلاق أثرٌ عجيب. كنت والكثيرين ممن لا يعرفون العربية جيدًا نستمتع بالأذان وتفسير معانيه. تناهى إلى أسماعنا أيضًا من مكان بعيد صوت القارئ آهنكران عبر شريط تسجيل أُحبّه:

لمرّات من هجوم البعثيين عملاء الشيطان

أصبحت مئات البيوت والأكواخ في دزفول خرابًا

وعندما يصل إلى هذا المقطع، تنقلب أحوالي:[1]

هنا تسقط أمٌّ على الأرض وقد قطعت يدها

وهناك طفل يسقط على الأرض ولا رأس له

جلس الإخوة تدريجيًّا في مقاعدهم الخلفية في الحافلات ليبدأ التحرك. جلست هذه المرّة في المقدّمة إلى جانب السائق، غير مكترث لحال الإخوة ووضعهم وضيق المكان عليهم! كان هدفنا شاطئ أروند.

في الطريق، فرحت برؤية المدافع والدبابات وسائر الأسلحة الثقيلة. رأينا عمليات نقل التجهيزات وأحيانًا نقل عناصر الفرق الأخرى. من الواضح أنّهم أعدّوا كلّ شيء وبشكل جيّد لعملية «والفجر8». وصلنا إلى بساتين نخيل قرب أروند وتوقّفت الآلية.

- سوف تكملون من الآن سيرًا على الأقدام!

ترجّلنا من الحافلة وبدأت الكتيبة بالتحرّك. كان على كلّ فرقة أن تتموضع في المنطقة المحدّدة لها. في الطريق كنّا نرى المقطورات

1 - تكررت في دزفول مثل هذه المشاهد مرات عدة، وكنت كلّما سمعت هذه اللطمية أشعر بعبء المسؤولية الملقاة على عاتقي. كان هذا الشريط من أشرطة التسجيل القليلة التي أحملها دائمًا.

التي تحمل القوارب، وضاعف من عزيمتنا رؤية مشهد نقل الرافعات والدبابات. الآن، وقد مضى على البكاء والنحيب ثلاث ساعات أصبح الجميع يفكّرون بالعملية.

انتقلت القوات في صفوف منظّمة من جهة إلى أخرى. نحن أيضًا انطلقنا في طابور حتى وصلنا إلى قرية مجاورة لنهر أروند محاطة بالنخيل. حدّدوا لنا ثلاث غرف هناك لتكون مكانًا لاستقرار الكتيبة بأكملها. دخل الإخوة إلى الغرف التي لم تتّسع للجميع، فبقي عددٌ منهم في الخارج. لكن جاء أمر بأن لا يخرج أحد. كان الوقت بعد الظهر والجو ما زال مشمسًا. لكن هل كان السيّد نور الدين -في تلك الظروف- ليقبل بالبقاء في البيت ولا يتحرّى عن الأحوال والأوضاع؟! عزمت على الخروج. في الواقع كان لديّ عمل آخر أيضًا. ناديت «أمير» أيضًا كما العادة: «لنذهب خارجًا ونرَ ما الخبر!». كان هناك جداول وممرات مائية متفرّعة عن نهر أروند، تمّ سحبها إلى داخل بستان النخيل، ووضعت فيها قوارب كثيرة. في ذلك المكان رأيت أحد شباب التعبئة في الفرقة مختليًا بنفسه قرب نخلة. أعرفه. ما إن اقتربنا أكثر حتى رأيته يبكي. كان ينظر إلى صورة ويكتب شيئًا ثمّ يتوقف أحيانًا عن الكتابة ويبكي. وقفت بعيدًا عنه قليلًا وبقيت أنظر إليه. ظننت أنّه يكتب وصيّته، لكنّني انزعجت لأجله[1]. اقتربت منه، وضعت يدي على ظهره وقلت له ممازحًا: يا أخي، لا تكترث. نظر إليَ وقال: «سيّد، أريد أن أكتب وصية!».

- ما لك وللوصية، ماذا تريد أن تفعل بها! سوف تعود إن شاء اللّه...

نظرت إلى الصورة التي في يده. رأيت فتاة صغيرة جميلة جدًا!

---

1 - مع أنّني كنت عاقدًا قراني حينها وأفهم إلى حدٍّ ما أحوال الإخوة المتزوجين. الكثير من الأصدقاء لم يعلموا حتى آخر الحرب أنّني متزوج! كنّا لا نسمح للمتزوجين والذين عندهم أولاد بالتقدّم في ساحة المعركة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، لكن كنّا نقصّر في ذلك أحيانًا أو تقع أمور خارجة عن السيطرة.

- من هذه؟

حدّق بالصورة وقال: «ابنتي!». أحبطتني نظراته تلك بشدّة. قلت له: «إن أردت، تستطيع أن تترك الصورة معك!».

- سيّد! أخشى أن تفسد صورتها في الماء!

- لا، لن يحدث ذلك.

قلت هذا، لكن لم أكن واثقًا و...

كان من المقرّر أن نهجم على العدو بالزوارق بعد أن يخترق الغوّاصون خطّه الدفاعي، ومن المحتمل أن نقع في الماء. من جهة أخرى كان يمكن أن نعبر نهر أروند بسهولة ونصل إلى شاطئ العدو. قلت له: «اكتب وصيّتك وأحضر الصورة معك!»، سأل ثانية: «سيّد! هل من الممكن أن أراها ثانية!».

تبدّلت أحوالي: «لِمَ لا! قطعًا تستطيع أن تراها!».

كان هذا الأمل الوحيد الذي أستطيع أن أقدّمه له. ودّعته وذهبت لأكمل عملي. في الواقع أردت وأمير البحث عن جعبة. كان لدينا جعبة جيدة تُحمل على الصدر لا نملك غيرها، لذا أردت أن نجد واحدة أخرى. حاول «أمير» إقناعي بالتراجع عن هذا الأمر مكرّرًا: «من أين لك أن تجد جعبة؟».

- أنت تعال ولا تشغل بالك!

عزمت على أن أجد واحدة من ذلك النوع بأيّ طريقة. كانت رؤية بستان النخيل وتفقّده أمرًا ممتعًا بالنسبة إليّ أيضًا. وصلنا إلى مكان بدا أنّه محلّ تموضع عناصر فرقة مشهد. رأيت الجميع يحملون من تلك الجعب. كمنّا هناك وتحينّا الفرصة حتى يخلع أحدهم جعبته. لم يمضِ وقت طويل حتى خلع أحدهم جعبته وذهب لكي يتوضأ. سريعًا أبدلتَ جعبتي التي تربط بالخصر بجعبته، وبدّلت المخازن وابتعدت

بسـرعة عن المكان. على مسـافة قريبة تحقّقت من الجعبـة فالتفتّ أنّه وضـع وصـيّته تحت أحد المخازن. لم يكن من الإنصـاف أن آخذ وصيته بهذا الشكل. رجعت سريعًا برفقة «أمير» ووجدنا أنّه لم يعد بعد. وضعت الوصية تحت أحد المخازن وبقيت أراقب إن كان سيراها أم لا. وأقول في نفسي: «لا بأس بالجعبة! ولكن إن لم يأخذ وصيّته سيصبح الأمر سيّئًا!». كانت كتيبتهم أيضًا جاهزة للانطلاق. جاء ولم يجد جعبته. ركض قليلًا إلى هذه الجهة وتلك ثم عاد، ولكن لم يكن ليجدها!

أخـيرًا، انتبـه إلى المخازن والتقط حزامـه. كان وهو على تلك الحال يتلفّـت حولـه كي يـرى إن كان أحد ما يراقبه! من جهة أخـرى كان قائده يناديه كي يتحرّك سريعًا. أخيرًا أخذ ذلك المجاهد المظلوم الجعبة وربطها على خصره. للإنصاف، فقد تفقّد مخازن الرصاص، وعندئذ رأى وصيته. ارتاح بالنا. ذهب راكضًا باتجاه طابوره ونحن بدورنا ذهبنا لنتابع عملنا.

أراد «أمير» أن نرجع إلى القرية، لكنّني أردت أن نجول قليلًا في تلك الأطراف. قال لي: «لكن أين تريد أن تجول؟!».

- المكان هنا رائع! هيا بنا لنذهب!

حـدث أن ذهبنـا باتجـاه مجموعة من العناصـر المشـغولين بتلحيم الجسـور، تلك التي يسـتخدمها أكثر عناصـر الجيشـ. كانت محرّكات الكهرباء تعمل بشـكل دائم، والدبابات تنـاور، وعدد من الأفراد ينقلون القوارب إلى الماء بواسـطة الآليـات الثقيلة. كانت الحركة والضوضـاء كثيرة هناك. لم يحلَّ الظلام بعد، لكن من الواضح أنّ الأصوات لا تصل إلى شـاطئ العدو، وقد وضـع الإخوة سـاترًا بارتفاع متر واحد على بعد يمكـن تحديده بالعين المجـرّدة من النقطة التي كنّا فيها، وعلى مسـافةٍ أمتـار من نهر أروند. تموضـعت فرقتنا على مسـافة حـوالي 200 م عن النهـر في نقطة تحيط بها بسـاتين النخيل مـن كلّ جانب. مع هذا كانت

زاوية الرؤية عند العراقيين أفضل من زاويتنا، وتفوّقوا علينا من حيث الموقعية الجغرافية. لذا، مع كلّ هذه الظروف، أثار تعجّبنا أنّ العراقيين لم ينتبهوا إلى وجودنا، ولم يقوموا بأيّ عمل. كان الجوّ صاخبًا هنا؛ بعضهم يحضّر أجهزة اللاسلكي، والجرافات تعمل بسرعة على نقل التراب وتجهيز الطرقات. في زاوية أخرى كانوا يعملون على تجهيز المستوصف. كان هناك عدد كبير من العناصر الذين ينادون بعضهم بعضًا بالصياح عاليًا ليُسمع صوتهم في تلك الأجواء التي تضجّ بأصوات الآليات الثقيلة. قلقتُ من أن ينتبه العدوّ إلى وجودنا هنا، وإذا ما حصل ذلك -لا سمح الله- وقُصف المكان ستكون خسائرنا فظيعة.

قرابة الغروب انطلقنا باتّجاه منطقتنا، وصدى الأذان ينتشر بين أشجار النخيل. لم يكن ممكنًا إقامة الصلاة جماعة، فصلّى كلّ واحد من الشباب في زاويةٍ ما، وربّما كانت تلك الصلاة الأخيرة لكثيرين.

فجأة، بدأت قاذفات الهاون العراقية بالعمل. سألت الإخوة الذين كانوا سابقًا في المكان: «ماذا حصل»، فأجابوا إنّ العراقيّين يضربون أطراف أروند في هذا الوقت منذ مدّة، وهذا ليس بشيء جديد.

تفقّدنا الأسلحة ومخازن الرصاص مرّات عدّة. لقد كتبنا وصايانا فيما مضى ونحن مطمئنّو البال لجهة ما نملك! وزّعوا علينا الطعام. تناولناه وجلسنا ننتظر الأوامر. مرّت لحظات صعبة. وحده الله يعلم في ذلك الجوّ العاصف، ما هي ظروف الغواصّين الذين يعبرون نهر أروند. فالطقس بارد، والنهر هائج. كانت كتيبتا سيد الشهداء عليه السلام وولي العصر عجل الله فرجه من فرقة عاشوراء، هي كتائب الغوص في الاقتحام، بينما كتائب الدعم هي الإمام الحسين عليه السلام، أبو الفضل عليه السلام وعلي الأصغر عليه السلام. تموضع الجميع كلٌّ في المحور المحدد له. وتقرّر أن تعمل فرقة «25 كربلاء» إلى جانبنا، وأن تكون مدينة الفاو ضمن نطاق عملها.

في الطـرف الآخر لنهـر أروند حيث من المقـرّر أن نعبر، يوجد مزار لأحد الأوليـاء. بالطبع يرتبط ذلك العبور بنجاح الغواصـين في اقتحام خطّ الدفاع العراقي. لم نكن قد رأيناهم حتى تلك السـاعة، ولكن رحنا ندعـو الله من أعماق قلوبنا أن ينصـرهم في اقتحام أروند وأخذ موطئ قدم لهم هناك.

بـدأت الاشـتباكات حوالي العاشـرة ليلًا. من الواضـح أنّ الشـباب وصـلوا إلى خطّ الدفاع العراقي. في نفس الوقت أيضًـا بدأ إطلاق النار من مدافعنا. اختلطت أصـوات إطلاق صـلية من 40 صاروخ كاتيوشا في لحظة واحدة مع أصوات زمجرة المدافع والدبابات. كانت بساتين النخيل تهتز من هذه الأصـوات والانفجارات. في تلك اللحظات صدر أمر التهيؤ للحركة. لم نكد نتحرك من أماكننا حتى علا صـوت يقول: «لقد قصف العراقيـون بالأسـلحة الكيميائية!». تفرّق الطابـور وركض الجميع بحثًا عن أقنعتهم. بعد دقائق اتّضـح أنّ ليس ثمة قصف كيميائي. علا النداء مرّة أخرى: «اركضـوا نحو الزوارق». ركضـنا مسـرعين باتجاه شـاطئ أروند. صعدنا بسرعة على متن الزوارق ما تسبب بخلل في انتظامنا، ولم يعد واضـحًا هل الشباب الذين يصـعدون على متن قارب واحد هم من الفصـيل ذاته أم لا؟ تحرّكت الزوارق بأقصـى سرعة ممكنة كي توصِل القوات إلى الضـفة الأخرى. كان الإخوة الذين يعملون على الزوارق من عناصر المعلومات ويتقنون عملهم.

رأينا عظمة الواقعة في نهر أروند. وقعت اشتباكات شديدة عند ضفّة العدو. القذائف المدفعية من جهة، ورمايات الشيلكا والأسلحة الرشاشة و.. مـن جهة أخـرى. كانت الزوارق تتعرّض للإصـابة برصـاص العدو ضمن نطاق محدّد، وأصبح واضحًا أنّ خطّ العدو لم يسقط بكامله. كان قـارب الكمين الكبير في ضـفة العدو يمطر المياه بنيرانـه الغزيرة، لكن تابعت الزوارق التي تقلّ المجاهدين تقدّمها من دون تلكّؤ. وصلت طلائع

الزوارق إلى شـاطئ العدو. كان المشـهد عجيبًا والعـدو يمطرنا بزخّات متواصلة من الرصاص من أعلى التلال المستحدثة على ضفّة النهر حيث ربّض أسلحة الشـيلكا والثنائي. يظهر أنّ هذه التجهيزات أُعدّت للدفاع الجـويّ، ولكنهـم وجّهوها الآن إلى الماء (في مسـتوى) بحيث لا تصـيب قواتهم، وفي الوقت عينه تغطّي قسـمًا عظيمًا من الماء. وصلنا سالمين في رعاية اللّه، وتوقفت القوارب على بُعد ثلاثة أو أربعة أمتار من اليابسـة. قفزنا سريعًا إلى الماء. لقد حالت العوائق الحديدية المتشعبة دون وصول القوارب إلى اليابسـة، وصار من اللازم علينا أن نعبر الشريط الشائك بـأيّ طريقة كانـت. كان الجوّ بـاردًا، ورأينا الغوّاصـين في الوحل وعلى الشاطئ وقد استشهد بعضهم ظلمًا، أو وسط الماء وفي الرّمق الأخير من شدّة الجراح والنزيف[1].

كان حاجز (سد) العدو بمحاذاة الماء، ودشمه خلف العوائق الحديدية. كما اسـتحدث بعض الدشم أيضًا بين القصب بحيث لا تُرى واضحة من النظرة الأولى. بنى العراقيون أيضًـا دشـم رصـد يشـرفون من خلالها على المنطقة. وكان خلف الحاجز سـاترٌ ترابيٌّ ضخم ليس له تحصينات وتدشيم بالطبع[2].

تحسّـن وضعنا مع وصـول طلائع الدفعة الثانية من القوات. يبدو أنّ العراقيـين الموجودين هنـاك إمّا جبناء وإما ضـعفاء، لأنّهـم كانوا بعد رمايات قليلة، يخرجون من دشـمهم بشـكل جماعي ويسلّمون أنفسهم. عندما اجتزت الساتر، ذهبت باتجاه دشمة الرصد. كنت أعلم أنّه يمكن

1- سـمعنا فيما بعد من الإخوة الغواصـين أنّهم وصلوا إلى منطقة العدو قبل الموعد المقرّر وانتظروا حتـى يحيـن وقت الاشـتباك. في هـذه الدقائق، أصـابهم العدو في إطلاق نار عشـوائي مـا أدى إلى استشـهاد 7 أو 8 أفراد منهم هناك. كما جرح بعضـهم في الماء وغرقوا. على أيّ حال فقد وصـل قليل منهم سالمين إلى خطّ العدو، وقام هؤلاء برغم قلّة عددهم بعمل كبير عندما فتحوا معبرًا لنا هناك.

2- هذا السـاتر هو من أقدم السـواتر الترابية في تلك المنطقة. وربما استحدث قبل عشر سنوات كي لا تجتاح المياه اليابسة عندما ترتفع نسبة المياه في نهر أروند.

لنا أن نجد منظارًا يعمل على الأشـعة تحت الحمراء في المراصد. وفعلًا فقـد وجدت واحدًا هنـاك، وكان ذلك رائعًا بالنسـبة إلي، ورحت أنظر مـن خلاله - في عتمة الليل - إلى كلّ مكان وأطّلع على الأوضـاع. خلال أقلّ من سـاعة واحدة قام عناصـر كتيبة «أبو الفضل» بتطهير المنطقة، وإسكات آليات الشـيلكا الموجودة على التلال. وصلت أيضًا كتيبة الإمام الحسين عليه السلام من الخلف. لم تكن مهمّتها الاشتباك عند الخطّ الدفاعي الأوّل، بـل كان علـى أفرادها أن يذهبوا سـريعًا باتجاه طريق البصـرة المعبّدة. لم تكن المسافة كبيرة بين ذلك المكان ومصنع الملح، حيث قاعدة العراق الصاروخية أيضًا، وتقرّر أن نتحرّك إلى هناك في المرحلة الثانية من العملية. أثناء حركتها اسـتُهدِفت الكتيبة من بسـاتين النخيل، ذلك لأنّه لم يتمّ تطهير المحور بشكل كامل، وكانت الدبابات والقوات العراقية متناثرة في المنطقة خصوصًـا في البسـاتين. لقد استحدث العدو هناك سواتر ترابية مثلّثة الشكل، رأينا نموذجًا منها في منطقة زيد. بنيت هذه السـواتر بالقرب من الطريق على شـكل منحنٍ وبمساحة 200 م. تجمّع القسـم الأعظم من عناصر العدو هناك، ليشـكّل ذلك المكان في الواقع مركزًا لدعم قواته. لم يحدث شـيء مهم أثناء تطهير المنطقة المحاذية للمياه، لكن، أثار تعجّبنا فقط منظر الأسرى العراقيين، فأغلبهم كان في مقتبل العمر، بشـرتهم سـمراء، ونحفاء البنية، ولا يشبهون العدوّ الذي رأيناه في أغلب العمليات، في عناده وقوّته.

تقدّمت كتيبة الإمام الحسـين عليه السلام إلى الأمـام، ولأنّ الأوامر تمنعها من الاشتباك تحت أيّ ظرف من الظروف، فقد تعرّضت لإصابات أيضًا. نحن أيضًـا كنّا عنـد الخطّ الدفاعي الأول للعـدو، الذي بقي عدد لافت من عناصـره متموضـعًا بين كتيبتنا وكتيبة الإمام الحسين. بزغ الفجر، فأصبح المشهد أكثر وضوحًا. لقد تهدّمت مصفاة الفاو، وغطّت النيران وسـحب الدخان سـماء المنطقة. كانت أصـوات كثيرة تتعـالى من جهة

الفاو، ويبدو أنّ عناصر فرقة «25 كربلاء» وصلوا إلى المدينة ويقومون بالتطهير. كانت لحظات عجيبة. وفيها لفتت انتباهنا سيارة جيب عراقية تنطلق مسرعة باتجاه الفاو. استهدفناها مباشرة بالرشاشات والـB7، وما نحمل من أسلحة. تعجبنا إذ لم يستطع أيّ سلاح إيقاف ذلك الجيب، وتابع السائق -وهو الراكب الوحيد في السيارة- تقدّمه باتجاهنا غير مكترث بكلّ هذه النيران!

- عجبًا يا له من رجل لا يعرف الخوف!

كنت أفكّر بهذا عندما توقف الجيب أخيرًا بعد أن أصيبت عجلاته برصاص ثقبها. لم ندرك أنّ السائق واحد منّا إلا بعد أن ترجّل من الجيب! تقدّم منّا أكثر وعرّف عن نفسه. كان من قادة الصفّ الأول في فرقة «25 كربلاء»، ويريد الذهاب باتجاه قواته المشغولين بتطهير مدينة الفاو. حقًّا لقد شملته عناية الله سبحانه إذ خرج سالمًا من بين كلّ ذلك الرصاص. لم يتأخر عندنا، ولمّا تأكد أنّ السيارة لن تصلح، انطلق نحو المدينة ركضًا.

▫

عند التاسعة صباحًا جاء أمرٌ يقضي بأن تذهب سريّتنا لتأمين الطريق التي كانت بعهدة كتيبة الإمام الحسين عليه السلام. بالطبع، قام عناصر فرقة «25 كربلاء»، وعناصر فرقة أخرى كانت في جناحنا الآخر، إضافة إلى عدد من عناصر فرقة عاشوراء، قاموا بإغلاق الطريق من الأمام وطهّروها. لكن، لم تسمح الظروف لعناصر التجهيزات بالتقدّم إلى الأمام، إذ كان العراقيون يضربون بشدّة ذلك الجزء من الطريق. لذا تقرّر أن تذهب سريتان لتأمين المكان؛ سريّة الحاج قلي، وسريّة رسول طالبي.

تقدّمنا حتى المزار الذي أعلمونا بوجوده في المنطقة من قبل. كان مرقدًا لأحد أصحاب «أمير» المؤمنين عليه السلام، ذا قبّة وبناء صغيرين، وقد حافظوا على نظافته كثيرًا. رأينا إلى جانب هذا المزار قناة كبيرة حُفرت

حديثًا، تشبه القنوات التي نحفرها في مدننا لجرّ المياه أو لنقل الكهرباء، ولم يكن لها أيّ استخدام عسكري. بدأ التحرك من هذا المكان. بناءً لطلب الأخ مولايي، بدأت سريّة الحاج قلي بالحركة والتطهير من جهة اليمين، في حين كانت سريّة رسول طالبي تقوم بعملها في اليسار. كانت المنطقة مليئة بالنخيل، وتوجّب على الإخوة أن يتقدّموا من تلك القناة ليصلوا إلى مقربة من الطريق. لم يُظهر العراقيّون مقاومة تذكر على جهة اليمين حيث اتجاه مدينة الفاو، وبدأ يقلّ عددهم من جهة فرقة «25 كربلاء»، لذا لم يكن تطهير تلك الجهة بتلك الصعوبة، واستطاع عناصر سريّتنا الوصول إلى هدفهم والانضمام إلى فرقة «25 كربلاء». طبعًا، بقيت أنا إلى جانب المزار، ولم أذهب مع الإخوة إلى الأمام. بعد أن طهّر الإخوة أطراف الطريق، عادوا إلى جانب المزار، لكن، كانت الاشتباكات أكثر تعقيدًا في جهة اليسار؛ فعديد القوات العراقية في الجهة اليسرى للقناة أكثر بكثير، ومنعت مقاومتهم الشديدة الإخوة في سريّة رسول طالبي من التقدّم أكثر إلى الأمام. امتلك العراقيون أيضًا دبابات في ذلك الجزء من المنطقة، فبدأوا بضرب شبابنا بشدّة. في الواقع اضطررنا في ذلك الجزء أن ننتشر في وجه العراقيين على شكل خطّ لكي يستطيع عناصر التجهيزات العبور. في تلك الأثناء وصلت مروحيتان من جهة العراقيين. وعندما بدأ الشباب بالرماية عليهما علا صوت يقول: «لا ترموا، المروحيّتان تابعتان لنا!». دقّقنا النظر، وما إن اقتربت المروحيّتان أكثر حتى وجدنا أنّهما تابعتان لقواتنا الجويّة. بالفعل، قامت القوات الجويّة بعمل عظيم في عملية «والفجر8»، إذ بدأت عملها عند العاشرة من صباح يوم العملية، في حين أنّ المروحيات في العمليات السابقة، كانت تبدأ باصطياد الدبابات بعد يوم أو يومين من بدء العملية العسكرية. كان لافتًا مشهد إطلاق المروحيّتين للصواريخ من وسط بساتين النخيل، ثم خروجهما من هناك. لقد علقت الدبابات

العراقية في بستان النخيل بأيدي عناصرنا وانتهى أمرها.

أردت في تلك الظروف الذهاب إلى بيت الخلاء، وهو بالقرب من منطقة الدبابات، لكن، يبدو أنّ العراقيين يصوّبون على ذلك المكان! ولم أكد أصل إلى هناك حتى سقطت حولي عشرات الرصاصات. ضحكت! ذهبت ورجعت على نفس الحال. تعجب أمير: «ما الذي حدث حتى بدأت بالضحك يا سيّد؟».

– لا شيء! لا يسمحون لنا حتى بالذهاب إلى المرحاض!

أصبحت الأطراف المحيطة بالمزار أكثر ازدحامًا. كان في تلك النواحي أيضًا، ثمة أماكن كالمخازن، ذهب بعض الإخوة خلسة إليها بحثًا عن سيجارة! التدخين ممنوع في الفرقة، ولكن، كان هذا القانون يُنقض في أيام العمليات، ليفتضح أمر المدخنين بدءًا من القائد وصولًا إلى العنصر البسيط! عندما انخفضت حدّة الاشتباكات قرابة الظهر، ذهب عدد من الشباب نحو المخازن بحثًا عن سيجارة. أعتقد أنّه عندما فتح رحيم باب صندوق الذخائر وجد عراقيًّا هناك! اضطرب المسكين. لا يتوقع أحد أن يخرج عنصر من عناصر العدو من داخل صندوق ذخائر! وصل الشباب لمساعدته في الوقت المناسب، وأخذوا العنصر العراقي أسيرًا. رأيت هناك أيضًا «علاء الدين نور محمد زادة» وبعض الشباب يدخلون إلى دشم ومتاريس القيادة العراقية، وغالبًا ما يبحثون عن معلومات. في ذلك الوقت كان علاء الدين مسؤول المحور ومسؤول التّخطيط في الفرقة، وقد جمع قادة الفرقة بالقرب من المزار وأعطاهم التوجيهات اللازمة حول المراحل التالية من العملية.

جميلًا كان ذلك اليوم. لقد أُنجزت بنجاح العملية التي بدأت ليل 9 شباط، وتضاعفت فرحتنا في الحادي عشر منه يوم انتصار الثورة. كان من المقرّر أن نهاجم القاعدة الصاروخية العراقية يوم الحادي عشر،

لكن، سيطر الإخوة في فرقة قم على تلك المنطقة في الليلة السابقة، ولم يعد لدينا أيّ عملية حينها. تحقّق وعد الله سبحانه وتعالى أنّه إن أراد فسينصر الضعيف على القوي، إلى درجة أنّه تمّ من المرحلة الأولى السيطرة على النقاط المتوقع سقوطها في المرحلة الثالثة من العملية. باستثناء عناصر الاقتحام من الغوّاصين الذين قدّموا تضحيات كثيرة، كانت خسائرنا قليلة جدًا. أصيب اثنان من شبابنا بجروح طفيفة وجرح 4 أو 5 أفراد من كتيبة الإمام الحسين عليه السلام. لكن، كان للغواصّين قصّة من نوع آخر، وكلّما سمعنا المزيد عنهم ارتفع شأنهم ومقامهم في أنفسنا[1].

تموضعنا ليلة 11 شباط في القناة القريبة من المزار، وكنّا بوضع جيّد بعد أن طهّرنا الأطراف المحيطة بنا. كان لدينا فترة استراحة في تلك الليلة. لكن، هل يمكن النوم في ذلك الصقيع؟ تكدّسنا داخل القناة الضيّقة بعضنا إلى جانب بعض، وتقرّر أن يقوم الإخوة بالحراسة على طرفي القناة. في أول الليل، ذهبت أفتش بين تجهيزات العراقيين، ووجدت مدفأة نفطية «فالر» التي تضيء بأربعة أو خمسة أنماط من الضوء الأزرق. أحضرت أيضًا بطانية عراقية وأشعلت المدفأة داخل القناة. وضعت البطانية على الأخشاب التي أحضرناها إلى هناك سابقًا، فأصبح المكان أشبه بمقعد صغير. تناولنا طعامنا هناك، وكان متوافرًا بكثرة وسهل المنال.

تقرر أن يحرس الإخوة المكان ليلًا بالتناوب ويراقبوا الأطراف.

---

1 - سمعت عن أحد الغواصين هو عبد الله شكوفه، أنه عندما كان يركض على الطريق خلف الحاجز وصل إلى جندي عراقي فطعنه بسكين. في تلك اللحظات وصل عراقي آخر وطعن شكوفه ليسقط على العراقي الأول. ثم أتى شخص آخر من شبابنا وطعن العراقي الثاني ليقع هو الآخر أيضًا فوق شكوفه، لكن لم ينزع السكين من جسم شكوفه! وبقوا على تلك الحال حتى الصباح، واعتقد الجميع أن شكوفه استشهد في اللحظات الأولى. عندما أخلوا الجرحى ووصل الدور إلى الشهداء، وبعد أن رفعوا جسد العراقي عن شكوفه وجدوا أنه ما زال به رمق! أخرجوا السكين من ظهره وحملوه إلى الخلف ليستشهد أثناء عبور نهر أروند. في كلّ مرّة يجري الحديث عن الشباب الغواصين أرى أنه يستحيل أن يحلّ أحد في الفرقة مكان هؤلاء العظماء.

وذلـك بأن نقف في مكانٍ ما، ونرفع رأسـنا خارج القنـاة ونراقب جميع الأطراف دون الحاجة للسـير وما شـاكل. قالوا لي إنّ نوبة حراستي من الثانية وحتى الرابعة، لكنّني نمت ليلًا واسـتيقظت عند صـلاة الصبح. لم يوقظني أحد من أجل الحراسـة، وأدركت أنّ صـديقي العزيز «أمير» تحمّل عناء الحراسة عنّي وتركني نائمًا. بات الكثيرون في القناة، لكنّني بقيت إلى جانب «أمير» ورحيم افتخاري ورضا كلوليان، وتغطّينا ببطانية واحدة. في تلك الأيام أصـبح «أمير» يعاملني بشكل مختلف. صار يتودّد إليّ أكـثر من السـابق، ويدور حولي كثيرًا ويقول: «سـيّد! رأيت في المنام أنك استشـهدت، وبقيت أنا وحيـدًا وكنت أبكي بشـدة». في تلك الأيام، اسـتيقظ في إحدى المرات من النـوم خائفًا وقال لي: «سـيّد! أنت اليوم ستصبح شهيدًا!»، قلت ضاحكًا: «لا أصدّق». لكنّ «أمير» أصرّ على ذلك ثم نزع شـعرات عدّة من رأسي ليضعها بين أوراق دفتره. علا صراخي: «يا عمّ، كفّ عن نزع شـعري! أعلم أيّ نـوع من الناس أنا. لن يحدث لي شيء... قم واذهب لشأنك!».

لكنّه ظلّ يكرر: «ستستشـهد يا سيّد! لقد رأيت ذلك في عالم الرؤيا». وضـع شـعراتي بين دفّتي دفـتره. الدفتر الذي يحملـه دائمًا في حقيبته ويكتب فيه ذكرياته وما يخطر بباله.

◻

حـلّ اليوم الثالث للعملية، والمنطقة هادئة نسـبيًّا. لم يسـتطع جيش البعـث حتـى ذلك اليـوم أن يقوم بالتوجيه بشـكل صـحيح وكامل، لكن بقيت طائراته تحوم في سـماء المنطقة منذ اليـوم الأول للعملية، هادفة إلى ضـرب قواربنا في مياه أروند، من دون أن تجد فرصـة لذلك. ذلك أن أسـلحة الشـيلكا والثنائي خاصّـتهم وقعت سـالمة في أيدينا، وهي في أفضـل موقع للدفاع الجـوي، وكلّ طائرة تتجه نحو أروند صـارت هدفًا

لنا. لحسن الحظّ بقيت هذه الأسلحة سالمة في الليلة الأولى للهجوم، وقد ربّضـها العراقيون على ارتفاع 20م من سطح الماء، وصنعوا لها ما يشبه المتراس، فكانت آخر وسيلة لدينا لاستهداف الطائرات. استفاد الشباب أيضًا من هذه الغنائم بالشكل اللائق والمطلوب. بتنا في كلّ مرّة نرفع فيها رأسنا، نرى طيّارًا يقفز خارج طائرته المحترقة! أذكر أنّه في عملية «والفجر8» سقطت في المنطقة حوالي 65 طائرة، وكان للأسلحة التي جهّزها العدو لمواجهتنا الدور الأهم في هذا النجاح الكبير. باستثناء حوالي عشر ناقلات جند، وقعت باقي التجهيزات سالمة في أيدينا عند الخطّ الدفاعي الأول للعراقيين. ومع أن عجلات الآليات ثُقبت، لم يُعرِ الإخوة اهتمامًا لهذه المسألة، واستخدموها بالحال التي هي عليها.

في تلك المنطقة، كانت النقطة الوحيدة التي تُسبّب لنا القلق هي مكان أشبه بالمنقار[1]، وقد تقدّمت قواتنا من جناحيها الأيمن والأيسر وبقي ذلك الجزء بأيدي العراقيين. استغلّ العدو الفرصة وأحضر إلى هناك ليلة 11 شباط قوات النخبة من الحرس الجمهوري. كان هؤلاء على اتصال مع الخطوط الخلفية، وكانوا يدعمونهم بشكل جيد، وعُرفوا بالقوة والشجاعة، وتجسّد على أرض المعركة في اليوم التالي كلّ ما سمعناه عنهم.

في ذلك اليوم، انشغلتُ بتجهيز مدفع هاون 120ملم. لقد صدر الأمر بالتحرك ليلة الثاني عشر، بينما أنا منهمك منذ العصر بترتيب ذخائر الهاون في مخزنٍ تبلغ مساحته 9 أمتار. في قلب المعركة هذه، ذكّرني هذا المخزن بالبيت الموجود قرب بستاننا! حدّدتُ زاويةَ الهدف، وعندما أردت تجهيز القذائف رأيت أحد عناصر الهندسة يسحب معه أسيرًا عراقيًّا إلى الخلف. كان هذا البعثي طويل القامة وضخم البنية، ويضع في فمه

1 - «المنقار»، هو في الواقع ساتر جاهز يبلغ طوله حوالي 2 كلم، ولأنّ هذا الطول يعتبر قليلاً نسبة إلى المساحة الإجمالية للمنطقة، أطلقنا عليه اسم «المنقار».

علكة يمضغها من غير اكتراث! ما إن اقتربا مني حتى وجدت أنّه أسير ذو رتبة عالية. أردت أن أستفيد منه قليلاً. قلت للأخ: «أين تأخذ هذا؟ أعطني إيّاه ليحمل لي الذخائر وينقلها». أجابني: «لا! لديّ عمل معه».

– أيّ عمل هذا؟! دعه هنا يعمل قليلًا. ثمّ أنا آخذه إلى الخلف!

– كلا! يجب أن يذهب إلى الخلف الآن! ليلة البارحة أرسلنا أربعة من الإخوة على جرافة، بعد مدّة عرفنا أنّهم قطعوا رؤوسهم! هذا اللعين هو من تسبّب بهذا البلاء لشبابنا!

لم أقل شيئًا بعد أن سمعت هذا الكلام. لقد بدا لي كآكلي لحوم البشر وهو يمضغ تلك العلكة!

عزمت تلك الليلة على العمل بالهاون، لذا قلت للسيّد أجدر إنّني لن أذهب إلى الأمام الليلة.

– لماذا؟

– حدّدت زاوية الرمي ووجّهت الهاون، أريد أن أضرب منطقة المنقار.

لقد نسّقت مع عنصر الإشارة الموجود في نقطة أمامية، ورميت عدّة قذائف لتصحيح الرماية، وأخبرني بمكان وقوعها. جعلني السيّد أعدل عن ذلك إذ قال: «دع هذا الهاون هنا، يمكن أن تصيب هذه القذائف شبابنا أثناء تقدّمهم ليلًا! الأفضل أن تتجهّز للعملية». صرفت النظر عن الهاون.

تحدّثت حينذاك مع السيّد عن منطقة العملية. قال: «نحن ذاهبون الليلة إلى تنفيذ العملية». وبما أنّنا طهّرنا الأطراف الأربعة للطريق في الليالي السابقة وتموضعنا فيها، سألته: «لقد سيطرنا على المحور بالكامل، إذًا أين نقوم بالعملية؟!».

– كلا! لم نسيطر بعد على المنقار. ستتحركون عصر اليوم. يوجد هناك ساتر ترابي يصل ارتفاعه إلى ثلاثة أمتار. ستعبرون بالقوات ذلك الساتر وتشتبكون مع قوات العدو المجتمعين في المنقار.

لم يقل السـيّد أيّ كلام آخر. ظننّا جميعًا أنّنا سنهاجم العدو ليلًا في المنقـار، انطلاقًا من ذلك السـاتر الترابي. بينمـا لم يكن الأمر كذلك! لقد اقتضت الخطّة العامة أن تحمِل فرقتان من قواتنا من الجهتين على قـوات الحرس الجمهـوري العراقي في منطقة المنقـار، بينما نقوم نحن بإلهائهم فقط. شيءٌ أشبه بالطعم!

2

منذ الصباح بدأ العراقيون بالتحرك شيئًا فشيئًا. مع أنّهم لم يقصفوا الطريق كثيرًا في اليوم والليلة السابقين، إلا أنّهم الآن استقدموا المزيد من العناصر وبدأوا بإطلاق نار كثيف أيضًا، لكن، لم تكن مدافعنا عاطلة من العمل، وبدأت باستهداف الحافلات العراقية التي تنقل القوات الجديدة إلى المنطقة، وكانت ترى في الطريق ركام الحافلات والقوات المحترقة.

في صـباح ذلك اليوم، كانت السـماء أكثر ازدحامًـا من قبل، وكذلك زاد مزاح الشباب ودعابتهم وخفّة دمهم. تمحور أكثر المزاح حول متابعة طائرات العدو وزمن سقوطها. لقد تميّز عمل دفاعنا الجوي بحقّ. وبينما نحن نتابع في السماء الطائرات التي يتمّ اصطيادها، تناهى إلى مسامعنا خبر القصـف الكيميائي من الخطوط الخلفية. بحثنا قليلًا عن الأقنعة، ولكن كانت المسافة بعيدة ولم يصل التلوّث إلى منطقتنا بعد. جاءنا أيضًا خبر تقدّم قوات كتيبة الإمام الحسين عليه السلام باتجاه مصنع الملح[1].

أشـغلنا أنفسـنا حتى العصـر في ذلك اليوم. بقي «أمير» إلى جانبي أينمـا ذهبت. لقد سـمع أنّ تلك الليلة هي ليلـة العملية، فراح يهمس في أذني باستمرار: «سيّد، ستستشهد أنت الليلة». وأنا أجيبه: «لا تخف! لن يحدث شيء!»، لكنّه كان يتحدّث عن الموضوع بشكل جدّي.

1 - سيطرت قواتنا على مصنع الملح بعد أن سقطت منطقة "المنقار".

- أمير! لا تزال تردّد هذا الكلام إلى درجة أنّني بنفسي سأصدّق أنّ شيئًا ما سيحدث لي الليلة... يا أخي، لن أستطيع أن أقوم بعملي أثناء العملية ونحن على هذه الحال!

كان عجيبًا أن أتذكّر مشاكلي في وسط ذلك الغمار، وأسأل اللّه تعالى أن لا يُذكِّر أيّ مقاتل بمشاكله العائلية أثناء الحرب! عندها سيدخل الشيطان ويباشر عمله، ولن يتمكّن الإنسان من العمل أبدًا كما يجب! كنت من جهة أسمع كلمات أمير، ومن جهة أخرى أتذكّر عائلتي. قلت له أخيرًا: «فلنصبر ولنر ما الذي سيحدث؟».

عند الغروب أشعلنا من جديد تلك المدفأة النفطية. كان من المقرّر أن نتحرّك بين التاسعة والعاشرة مساءً، لكن، بدأنا نسمع من كلّ الجهات أن تجهّزوا... تجهّزوا... كان «أمير» إلى جانبي. قلت له: «سأنام، وعندما يحين وقت التحرّك أيقظني». أجاب: «لك هذا». سمعت كلام «أمير» ورقدت إلى جانب المصباح. غفوت أقلّ من ساعة، وعندما استيقظت كان قلبي يخفق بشكل فظيع. رأيت في المنام أنّ «أمير» سيستشهد تلك الليلة. سيستشهد في مكان لن نستطيع إحضار جسده منه أيضًا. ذهلت عن الكلام، وراح قلبي يخفق بشدّة. أخذت أحدّق في أمير، لكنّني لم أخبره بتلك الرؤيا. أساسًا لم أكن أجرؤ على التفكير في استشهاد أمير، فكيف بالتكلّم عنه. تجهّزت للانطلاق والندم يغمرني لهذه الغفوة القصيرة.

- قوموا.... تقدّموا إلى الأمام!

وقف الإخوة في طوابير وانطلقوا باتجاه منطقة المنقار. بعد دقائق وصلنا إلى مكان تعمل الجرّافة على إحداث ساتر ترابي فيه. كانت أبراج التوتر العالي الكبيرة تلفت النظر قبل أيّ شيء آخر. وبمجرد وصولنا إلى محاذاة أعمدة الكهرباء وضعت علامة هناك. لأنّنا ذاهبون باتجاه خطّ الدفاع العراقي خفت أن نضلّ الطريق، فكانت العلامة على تلك

الأعمدة تعدّ أفضل علامة نستدلّ بها على طريقنا.

منذ بداية تحركنا، كان العراقيون يقصفون المنطقة بشدّة بالدبابات والمدافع التي أحضروها إلى ذلك الجزء الذي يشبه المنقار، لكننا لم نكترث لهذا القصف، وتابعنا تقدّمنا. في الواقع كنّا سعداء إذ سنحت الفرصة لنا للمشاركة في هذه العملية، ونكون شركاء في النصر. وحتى ذلك الحين، وباستثناء الغوّاصين من قوة الاقتحام، لم تواجَه قواتنا بمقاومة تذكر من قِبَل العدو، واقتصر عملنا على عمليات التطهير.

بقينا لدقائق خلف ذلك الساتر الترابي الكبير، وأمير إلى جانبي كالعادة. في تلك اللحظات أدركنا أنّنا نسينا أحد أسلحتنا. لا أذكر أهو سلاحي أو سلاحه. على كلّ حال بقي لدينا نحن الاثنين سلاح واحد. وجدت ذريعة لأمنع «أمير» من التقدّم أكثر. قلت له بصيغة الأمر: «أمير! ابقَ أنت هنا ريثما نرجع نحن!»، أجابني وكان كحصان ثائر لا يعرف الهدوء* : «لا! لا! عليّ أن أتقدّم إلى الأمام. أريد أن أشارك في هذه العملية! يجب...»، وقلبي يضطرب أكثر كلّما تكلم. تمنّيت من أعماق قلبي أن يحدث شيء ما فلا يذهب إلى الأمام في تلك الليلة. تذرّعت بالسلاح، لكنّه أصرّ كثيرًا بحيث إنّني لم أستطع إقناعه. ظلّ يقول لي: «سيّد! جد لي سلاحًا». توسّل إليّ كثيرًا حتى أخجلني. لم أكن أحتمل حتى رؤيته قلقًا ومضطربًا. رأيت هناك مسعفًا يحمل سلاحًا. ذهبت إليه: «يا أخي! أنت مسعف أو قنّاص!».

- أنا مسعف!
- إذًا أعطني سلاحك.

أطال النظر إليّ للحظات ثم أعطاني سلاحه. لم يكد «أمير» يأخذ السلاح حتى أصبح شغلي الشاغل. عشت لحظات عصيبة. أردت أن أصرف ذهني عن التفكير به. ابتعدت عنه قليلًا. وجدت العناصر

*- ورد في النسخة الفارسية: كبخور الحرمل المفرقع على الجمر لا يقر له قرار.

يقفـون في طوابـير وقد أصـبحوا جاهزيـن للانطلاق. كانـت وجوههم تسـحر الناظرين. كأنّها الليلة الأولى للهجـوم. عندما رجعت إلى أمير، وجدته وقـد وقف مع أربعة آخريـن جنبًا إلى جنب: «أمـير» مارالباش، رضـا كلوليـان، رحيم افتخـاري، مهدي محمـدي وشـخص آخر، وقد وضعوا أيديهم فوق بعضها البعض. ما إن رأيت أولئك الخمسة على تلك الحـال حتى انفطر قلبي! لقد رأيت من قبل مثـل هذه العهود، لكنّني في تلـك الليلة وبعـد أن رأيت ذلك المنام، لم أكن أرغب أبدًا بأن أرى «أمير» هناك. ما إن رأوني حتى قالوا: «سيّد! تعال أنت أيضًا معنا!».

– ما القصة؟

– نريد إن استشهد أحدنا أن يشفع للآخرين!

أردت أن أضـفي جـوًّا آخـر: «لم يحـدث شـيء إلى الآن وتفكـرون بالشهادة؟»، وخنقتني العبرة. إلهي ما الذي سيحصل الليلة؟...

حـان موعد الانطـلاق. تقرّر أن نتحرّك ركضًـا في طوابـير. لم نبدأ بالتحـرك بعد حتـى أتى إليّ ابن قريتي السـيّد محمد إيـزد خواه. كان يجول معي منذ مدة ولا يدعني وشـأني، قال لي: «أينما تذهب سـأذهب معك. لأنّه حيث تكون، لا يحدث شيء!».

تحـرّك الطابور من مكانه. حاولت أن أصـرف ذهني عن كلّ شـيء، وعـبرت السـاتر الترابي مـع الطابـور. إذًا نحن الآن نركض في منطقة العراق العسكرية. رافقنا الحاج قلي يوسف بور قائدًا للسريّة، وكان مقرّرًا أن تلحق بنا سـريتان من كتيبة «أبو الفضـل». كنّا نركض بسرعة باتجاه منطقة المنقار. وصـلنا بعد قليل إلى كومة من الـتراب، يمكن القول إنّها ساتر ترابي، لكن، لم يتجاوز ارتفاعها نصف المتر. عبرنا من هناك أيضًا من دون أن نتوقّف ولو لحظة، وأكملنا ركضًـا باتجاه العدو. كانت الأرض مسطّحة ومسـتوية وليس فيها أيّ مرتفعات ومنخفضات. لم يصدر أحد أيّ صـوت، وكنّا نتقدم بشـكل جيد حتى وقع الخطأ من جانب الشـخص

الذي يحمل مسدس الخطّاط. كان من المقرّر أن نرمي الرصاص الخطّاط عندما نضـرب خطّ دفاع العدو ونقتحم الساتر الترابي، لكنّه أطلق ذاك الرصـاص في اللحظة غير المناسـبة! مهما كان سـبب الخطأ، فقد أطلق رصــاص خطّاط مـن قِبَلنا نحو السـماء ليبدأ العراقيـون -وهم في تلك الظروف في حال الجهوزية- مباشرة بإطلاق نار كثيف على المنطقة. كان حجـم النيران كبيرًا إلى درجة أن وقع كلّ شـبابنا أرضًـا منذ اللحظات الأولى! ركّز العدو نيرانه على ثلاثة مسـتويات: على الأرض، وفي الوسـط وفي الهـواء. النيران الأرضـية أصـابت الأفـراد الذين انبطحوا أرضًــا، ونيران الوسـط أصابت غالبًا أولئك الذين يتقدّمون في مشية القرفصاء في بطونهم أو وجوههم، بينما النيران الهوائية أصـابت الذين يركضـون واقفـين في رقابهم ورؤوسـهم. كانت لحظة عجيبـة. اعتقدت أنّ الجميع انتهى أمرهم. التصقت بالأرض، وصوت الرصاص يدوّي ويصمّ الآذان، ولكنّني كنت أسـمع صوت نبضات قلبي العالية. نظرت حولي. لم أرَ أحدًا يتحرّك. الجميع وقعوا أرضًــا. كنت عندما أضع يدي على أحدهم يتقلّب إلى الجنب الآخر بهدوء. أصبت بالجنون. شعرت أنّه يجب أن أذهب بأيّ شـكل من الأشكال إلى «أمير» ورحيم اللذين كانا يركضان أمام الجميع. نهضـت بصـعوبة من مكاني. هل كنت ذاهبًا لأجد تفسـيرًا لمنامي؟! لم أعد أعير الرصــاص أيّ اهتمام. وكأنّ الرصـاص أيضًــا لم يكن له شغل بـي! وجـدت «أمير» في الأمـام؛ ملقى علـى الأرض، هووالذيـن تعاهدوا على الشـفاعة معًا، جنبًا إلى جنب. لماذا حصـل ذلك؟ لمـاذا يا أمير... جلسـت فوق رأسه. رحت أناديه: «أمير... أمير...»، رفعت رأسه ووضعته علـى ركبتـي. تأوّهت من الأعماق... لقد انتهى كلّ شـيء. كان خطّ رفيع من الدم السـاخن يجري من فمه. كم كنت أحبّ «أمير»... كم كنت أحبّ «أمير»... على نفس تلك الحال من عدم التصـديق رأيت «رحيم» أيضًــا ورضا و... فكّرت أنّ أولئك الخمسة لم يعودوا بعد بحاجة لشفاعة أحدهم

إلى الآخر لأنهم ذهبوا معًا. جلت بنظري في المنطقة، كنت وكأنّني أرى الرصاص الخطّاط والنار والغبار المتصاعد والتراب في المنام. شعرت بالاختناق ولم أعد أستطيع البقاء هناك. وضعت رأس حبيبي «أمير» على التراب ونهضت. رجعت إلى الخلف. هنا، التقيت الحاج قلي. بقيت أحدّق في وجهه في تلك الصحراء المنكوبة وتحت ضوء القنابل المضيئة ونيران العدو الغادرة. لقد أصيب وجهه برصاصة حطّمت وجنته، لكنّه ما زال واقفًا على قدميه، يريد أن ينظّم قواته. كان عندما يتكلّم يتناثر الدم من فمه! ماذا كان عليّ أن أرى تلك الليلة؟! في نفس ذلك المكان شاهدت عنصر البريد في سريتنا «مجيد كهتري»، وقد أحاطت به النار في رمشة عين. لقد أصيب جسمه بحوالي 20 إلى 30 رصاصة واحترق ظلمًا بالنار. كان ذلك المكان سيّئًا. لا إراديًّا رجعت إلى الخلف. حتى ذلك الساتر الصغير الذي قالوا لنا إنّ ارتفاعه ثلاثة أمتار ووجدنا أنّ ارتفاعه لا يزيد عن نصف متر! لقد تقدّمنا بعد ذلك الساتر حوالي 500 أو 600 م باتجاه المنقار، والآن رجعت هذه المسافة بحالة لا توصف. في تلك الأرض السهلة وتحت ذلك الحجم الهائل من النيران، من المستبعد أن يبقى أحدٌ منّا على قيد الحياة لو لم نلتجئ إلى خلف ذلك الساتر. تموضع العراقيون في قناة يشرفون منها بشكل كامل على المنطقة المواجهة لهم. في تلك الحال سمعت صوت أحد الشباب.

- ما الذي حصل؟

- لقد أصيبت قدمي برصاصة.

إنّه صمد إقدام نيا[1]. ذهبت إلى جانبه وسحبته على الأرض. وصلنا إلى خلف الساتر بعد جهد مضن. الشباب الموجودون خلف الساتر هم في الغالب أولئك الذين كانوا يتحرّكون في آخر الطابور، والتجأوا إلى الساتر

---

1 - عملتُ لسنوات مع الحاج صمد إقدام نيا في جامعة العلوم الطبية في تبريز.

بمجرد أن بدأت النيران. كانوا فقط يحفرون حفرة صغيرة في قلب ذاك الساتر، ويضعون فيها رؤوسهم كي يبقوا بمأمن من الرصاص. في تلك الحال، رأيت أحد مسؤولي الفصائل وقد بقي في الخلف ولم يتقدّم إلى الأمام. ما إن وصل إليّ حتى أعطاني جهاز اللاسلكي وقال لي: «سيّد! بالله عليك تحدّث إلى السيّد أجدر! لنر ماذا يقول!». غضبت منه. لقد رأيت كيف جرح الحاج قلي وكيف راح بحاله تلك يجمع عناصره وقد استشهد اثنان من مسؤولي الفصائل عنده، وعنصر البريد ومعاونوه. في حين أنّ مسؤول الفصيل هذا أخلد إلى الأرض خوفًا على روحه، والآن يرجوني بأن أتكلم مع قائد الكتيبة. لم أعره اهتمامًا وتركته. عندما ابتعدت عنه قليلًا رأيت ابن قريتي السيّد محمد ايزد خواه. كنت مضطرب الحال وغاضبًا. سألني: «سيّد! ماذا أفعل أنا الآن؟».

- ماذا تريد أن تفعل! قف وانظر إليّ!... قم وارمِ بالـB7!

المسكين كان رامي B7، وطلب مني حلًّا في وقت غير مناسب. تركته وذهبت. وبعد هنيهة سقط أيضًا على الأرض! جئت إلى فوق رأسه وما لبث أن استشهد في لحظة. كانت تلك الليلة مؤلمة في كلّ لحظة من لحظاتها. الإخوة يُبادون في مجزرة جماعية، وقلّة ترى هذه المشاهد المرّة. وجدت أنّ أقل ما يمكنني فعله هو تقديم تقرير عن الأوضاع إلى قيادة الكتيبة. صحيح أنّني كنت غاضبًا من مسؤول الفصيل ذاك، لكنّني أخذت منه جهاز اللاسلكي وتحدّثت إلى قائد الكتيبة. شرحت الموقف للسيّد وقلت له في نهاية الكلام: «سنقوم بكلّ ما تأمرون».

قال السيّد أجدر لي: «سيّد! أرسل الجرحى إلى الخلف. وليبقَ الأفراد الموجودون هناك في أماكنهم. أنت أيضًا اذهب إلى خلف الساتر. سأرسل «كنجكاهي» والشباب لترشدهم كيف يذهبون باتجاه العراقيين». بعد هذا الأمر قلت للإخوة: «ليسحب كلّ جريح نفسه إلى الخلف». ساعد

أصحاب الجراح الطفيفة ذوي الجراح البليغة حتى يتراجعوا إلى الخلف. شيئًا فشيئًا أصبح المكان خاليًا هناك. لم يعد هناك سوى ثلاثة أو أربعة أشخاص، بالإضافة إلى الشهداء المضرّجين بدمائهم والموزّعين هنا وهناك. رجعت أنا أيضًا، إلى خلف الساتر الترابي الذي بدأنا تحركنا منه. انتظرت حتى وصل كنجكاهي والآخرون. كانوا 10 أو 12 فردًا من العناصر الأقوياء في السريّتين الأولى والثانية، ومعهم أيضًا معاون قائد السريّة الأولى. كنجكاهي هو من شباب أردبيل، وكنت على معرفة به. أرادوا التقدّم إلى الأمام، وسألني عن الوضع هناك. شرحت له الأوضاع وسألته: «لماذا تذهبون والحال على ما هي عليه؟»، أجاب: «قال السيّد إنّه علينا الذهاب!». دللتهم على الطريق وانطلقوا. استبعدت أن يرجعوا أحياءً. لقد ذهبوا إلى وسط جهنم النيران تلك عملًا بأمر قائدهم وبدون أيّ نقاش[1].

بعد ذهاب كنجكاهي وعناصره بقيت هناك إلى جانب الساتر. رجع أيضًا شخص أو اثنان من الأمام. كانت النيران العراقية المباشرة ما زالت مستمرة ومدافعهم تضرب بشدّة. في تلك اللحظات أحسست أنّني لم أشبع من أمير. ظلّ يشدّني نحوه. انطلقت باتجاه المنقار وحيدًا. بلغت المسافة بين مكان شهادة «أمير» -وهو من المتقدّمين في الطابور- وبين القوات العراقية فقط حوالي 5 أمتار. كانت حالي عجيبة؛ بدون سلاح، بدون قنابل، وفي صقيع تلك الليلة المرّة، أتقدّم إلى الأمام. وكأنّ قدميّ فقط من تقوداني نحو أمير. حتى إنّني لم أعلم متى أصابت الشظية قدمي! الشيء الوحيد الذي كان مهمًّا بالنسبة إليّ في تلك اللحظات هو

1 – سمعت لاحقًا أنّهم تقدموا إلى الطريق القريبة من قناة العراقيين واستشهدوا جميعًا. لقد وصلوا إلى الطريق، لكن لم يكن لهذا العمل فائدة أيضًا. لأنه لم يكن الهدف من مهمة كتيبتنا أساسًا السيطرة على المنطقة، وقد أدركت هذا لاحقًا. لقد قمنا بعملية إلهاء للعدو لكي تحاصرهم الفرق الأخرى في «المنقار» من الجهتين، وقد تحقّق هذا الأمر، وكان ثمنه شهادة عدد كبير من عناصر كتيبة «أبو الفضل».

كيف أصل إلى أمير. وكأنّ قدميّ عرفتا الطريق أكثر من عينيّ المغشّاتين. وصلت أخيرًا. جلست على ركبتيّ إلى جانب «أمير» ونظرت إلى وجهه. كانت عيناه الجميلتان مغمضتين، إلى الأبد. شعرت أنّ العراقيين يرمون القنابل. وقعت إحداها بين الشهداء. كان رضا يحمل على ظهره حشوات B7 انفجرت مع انفجار القنبلة. وفي لحظة رأيت أحد الشهداء يحترق بالنار... في ذلك الجوّ المثقل، اختلطت رائحة اللحم المحروق مع رائحة الدم والبارود. احترت أنا العاجز المذهول ماذا أفعل؟ كيف لي أن أترك «أمير» وأرجع. وإن بقيت كيف أبقى؟ ماذا أفعل يا إلهي؟! أخذ جسمي يبرد، وشيئًا فشيئًا بدأ العذاب والألم الناتج عن جَرح رجلي ينتشر في كلّ بدني، لكن ما زال فكري منصبًّا على أمير. كم كان تفسير منامي سريعًا. أحيانًا كنت أقول كفى، فلأدعه وأرجع إلى الخلف. وبعد دقيقة أقول أين أذهب بدون أمير؟ فلأبق هنا وأرَ ماذا يريد الله أن يفعل بي؟! لقد قسا عليّ الزمن. لم أكن يومًا أسيرَ الحزن والغمّ كما أنا اليوم. وقد أصبح كلّ همي الآن أنّه لا قدّر الله أن أرجع ثم لا أجد بعد ذلك أثرًا لأمير. احتملت أن لا يكون مقدّرًا في وقت قريب نقل أجساد الشهداء الطاهرة من تلك المنطقة. والعجيب أيضًا أنّني لم أصب بشيء في تلك اللحظات. كنت عندما أنظر حولي لا أرى أحدًا. لا أرى سوى أجساد الشهداء التي لا تزال دافئة. حتى الوجود بالقرب من العراقيين لم يعد مهمًّا بالنسبة إليّ أساسًا. كأنّهم لم يروني أو ربّما رأوا شبحًا يعزّي نفسه بهدوء. وقفت ووضعت رأسي للمرة الأخيرة على وجه «أمير» العطوف. اختلطت دموعي بدمائه... كان أقسى وداع في عمري كلّه.

رجعت نحو ساترنا وأنا أسحب قدميّ. لم أكد أقطع مسافة كبيرة حتى انتبهت إلى شخص يصوّب عليّ! رجعت نحوه، وأول شيء رأيته هو العصابة الملفوفة حول رأسه. أدركت أنّه أحد أفرادنا. قلت له بصوت عال: «أنا السيّد نور الدين عافي!». بدل أن أسمع جوابه سمعت صوت

بكائه[1]. التقينا. ناداني باكيًا: «سيّد...».

- ما الذي حصل؟

- لقد ضللت الطريق يا سيّد.

- لا بأس بذلك، أنا أعرف الطريق، هيا بنا لنذهب.

لقد أصيب بجراح في رأسه، وقام بنفسه بتضميد الجرح. لم أفكّر بجرح رجلي الذي كان يزداد سوءًا في كلّ لحظة. انطلقنا معًا باتجاه قوّاتنا. لقد حفظت الطريق - قبل الانطلاق إلى العملية - من خلال علامات معيّنة، لكنّني الآن مشتّت ومضطرب ولا أستطيع تذكّر شيء. سرنا في الواقع بالاتجاه المعاكس تمامًا، وكنّا مع كلّ خطوة نخطوها، نقترب أكثر من العراقيين. قال لي صديقي الذي يرافقني: «سيّد! هل تعرف أنت هذه الطريق؟».

- نعم أعرفها.... تعال.

مشيت وسار هو خلفي. ما إن تقدّمنا قليلًا حتى لمحت ظلّ دبابة تمر من أمامنا، وقامت بإطلاق رشقات نارية علينا! جلسنا أرضًا. قال لي بهدوء وكان قريبًا مني: «سيّد! تلك الدبابة عراقية؟».

- يبدو ذلك...

- إذًا، تلك الناحية للعراقيين!

- أجل، لقد سرنا في الاتجاه المعاكس، وعلينا أن نرجع.

عدنا إلى النقطة ذاتها التي انطلقنا منها. ما إن وصلنا إلى هناك حتى قلت له: «اسمع! أنا لا أرغب بالعودة! لا أذكر الآن في أيّ جهة يتموضع شبابنا، وأيّ طريق علينا أن نسلك. سأبقى في هذا المكان». ثم أشرت إلى حفرتين سبّبتهما القذائف العراقية على أثر قصفها المكان،

1- هو الياس سبزانه، ويعمل حاليًا في مستشفى الطالقاني في تبريز. أحيانًا نلتقي ويشاكس بعضنا الآخر بسبب ما حصل حينها.

وقلت له: «اذهب أنت إلى حفرة وأنا سأذهب إلى الحفرة الأخرى». كان متردّدًا: «سيطلقون القذائف إلى هنا مرّة أخرى. ستقع فوق رؤوسنا هذه المرّة!».

– كلا. لقد قصفوا هذا المكان مرّة ولن يقوموا بذلك مرّة أخرى... وإن فعلوا فلن تقع القذيفة في هذا المكان.

لكنه لم يُرد البقاء. قال: «كلا يا سيّد. أنا سأذهب!».

– على الرحب والسعة! اذهب إلى المكان الذي تريد!

في الواقع، كنت منهكًا وأشعر بالوهن. أردت فقط أن ينقضي الوقت وأرى ما سيحدث. من جهة أخرى كان جرح رجلي ينزف وليس بي حيل حتى لأضمّده. التجأت إلى الحفرة. هو أيضًا رجع إليّ بعد أن ابتعد خطوات. قال لي هذه المرّة بحزن: «أين أذهب أنا وأنت لا تزال هنا؟».

– إذًا اجلس هنا. وعندما يسفر الصباح نعرف أين ساترنا وأين ساتر العراقيين. عندئذ ننطلق.

– سيأتون ليلًا ويعتقلوننا!

– لا تخف! لن نؤسر!

قلت هذا ثم تذكّرت أنّني لا أملك أيّ سلاح. نهضت وبحثتُ قليلاً ووجدت سلاحًا، ثم رجعت إلى الحفرة وجلست بداخلها. كان التعب والألم يغمران كلّ وجودي. استندت إلى التراب وأبقيت عينيّ على السماء. كانت النجوم لا تزال مضيئة. رحت أفكّر في الأيام الماضية. الأيام التي أصبحنا فيها أنا وأمير أصدقاء. فكّرت بذكرياتنا. ضحكاتنا وبكائنا وكلامنا. مرّت كلّ تلك اللحظات أمام عينيّ واحدة واحدة. منذ أن أصبحنا أصدقاء، لم نفترق أبدًا. في المدينة والجبهة، في كلّ مكان لدينا فيه عمل بقينا معًا. حتى في المستشفى. كم كان «أمير» عطوفًا ونجيبًا! لقد رحل سريعًا وببساطة. كان يقول لي أنا لا أطيق أن أراك

شهيدًا. ماذا عنّي أنا؟ أنا أطيق أن أراه شهيدًا؟ أيّ ليلة هذه يا إلهي!

وبينما أنا أحدّق بوميض النجوم الخافت وأناجي الله بالدموع والآلام، انحنى رأسي إلى الأسفل. لأرى أمامي مباشرة عمود كهرباء، تذكّرت أنّه عندما انطلقنا وضعت علامة على هذا العمود. وكأنّ الله سبحانه وتعالى لم يرضَ لنا أن نضيع. خرجت من الحفرة وقلت لصديقي: «قم! عرفت الطريق»، قال: «سيّد! سيكون الأمر كما في المرّة السابقة! فلنبقَ حتى يسفر الصباح».

– كلا! أنا أرى العلامة التي كنت قد وضعتها. هيّا بنا لنذهب.

هذه المرّة جاء دوره في العزف على وتر الاعتراض: «أنا لن آتي يا سيّد». لم أقل شيئًا. انطلقت وأنا أعرج، ثمّ وجدته يسير خلفي. بعد دقائق عدّة وصلنا إلى الساتر. نفس الساتر الذي انطلقنا منه في الليلة الأولى. أقلقني خلوّ المكان هناك: «لا قدّر الله أن تكون قواتنا قد انسحبت من تلك المنطقة!»، علا صوت صديقي مرّة أخرى: «سيّد! هل رأيت، هذا المكان أيضًا للعراقيين! الآن يأتون من الأمام».

– كلا! أنا متأكد أنّ هذا هو ساترنا. البارحة انطلقنا من هنا. ولكن دعني أرى أين ذهب هؤلاء؟

تقدّمنا أكثر إلى الأمام. وما إن عبرنا الساتر الثاني حتى سمعت صوت اللاسلكي. أصغيت جيدًا وإذ بي هذه المرّة أسمع صوت السيّد أجدر. لم يطل الأمر كثيرًا حتى وصلنا إلى مكان تموضع قواتنا. رأى السيّد أجدر أنّني جريح، ولكنّه بدا وكأنّه لم يلتفت إلى شدّة حزني. لقد بدا سعيدًا. قلت له بصوت ملؤه الحسرة والألم: «أجل. لقد أرسلتنا إلى الأمام، جزّر فينا الأعداء، وها أنت الآن تجلس هنا سعيدًا!».

– لا! لقد قمتم بعمل عظيم!

– نحن؟! نحن لم نقم بأيّ عمل عظيم هناك في الأمام. كلّ ما رأيته

هو أنّه عندما بدأ العراقيون الاشـتباك سقط شبابنا شهداء. لقد قدّمنا كلّ هذه الخسائر. أنت الآن...

- لكن في المقابل عزلنا العراقيين من الخلف!

عنـد ذلـك فهمت القضـية. لا أعلم. لو أنّ شـباب سـريّتنا لم يُقتلوا ظلمًـا على أيدي الأعـداء، هل كانت لتثمر خطّة عـزل العدو؟ لقد جُرح واستشـهد حـوالي 70 أو 80 فردًا من سـريّتنا من أصـل 90. لقد أبيدت سريّتنا هناك في الواقع. أكثر الذين بقوا على قيد الحياة أيضًا تعرّضوا لإصابات شديدة كقائد سريتنا الحاج قلي الذي لا أعلم أين هو الآن.

انتبه السـيّد إلى حالي، وكان يعلم كم أحب أمير. ربّما لهذا سـألني عنه بدون مقدّمات: «ما أخبار أمير؟».

- لقد استشهد أمير.

قال قائدنا: «رحم اللّه روحه».

ردّدت وراءه بهـدوء: «أجل! رحـم اللّه روح أمير...». هاجت الأحزان في قلبي ويدي قاصـرة عن كلّ شـيء، حتى عن الوصول إلى جسد أمير! في تلك اللحظات وصـلت سيارة إسعاف وضـمّدوا رجلي. أراد السيّد أن أرجع إلى الخلف لكنّني لم أقبل بذلك. كان هو والشـباب يصـرّون عليّ وأنا أرفض!

- لمَ لا تذهب إلى الخلف يا سيّد؟

- أَريد أن أبقى وأرى العراقيين. ما دمتُ لم أُحضِر «أمير» إلى الخلف أنا نفسي أيضًا لن أرجع.

مرّة أخرى أتى السيّد أجدر ووعدني أنّه سيُحضر «أمير». كنت قلقًا: «سيّد! أنا لن أذهب إلى الخلف. عليّ أن أشهد إحضار جسد «أمير» إلى الخلف. ما لم أتأكد من الأمر لن أرجع إلى الوراء».

- لا يمكن ذلك الآن! لكن، في الصـباح سـيأتي العراقيون بكلّ تأكيد

لتسليم أنفسهم. عندئذ سنحضر جميع الأجساد إلى الخلف. سنحضر أيضًا جسد أمير.

مهما حاول السيّد أجدر أن يقنعني لم يفلح. بقيت على تلك الحال مضطربًا ويائسًا، لكن، ساءت حالي أكثر عند الصباح. تعرّضت لرجفة شديدة بسبب النزيف الذي أصابني، ولم أستطع التغلب عليها. إلى أن انتهى الأمر بي محمولًا على أيدي الإخوة، ثم وُضعتُ في سيارة الإسعاف التابعة لفرقة مشهد، وأُبعدتُ مع بقية الجرحى عن منطقة العمليات، لكنّني لم أفقد الوعي حينها.

عالجونا في مستوصف إلى جانب نهر أروند، ثم أرجعونا إلى داخل الإسعاف. توجّهت الإسعاف إلى شاطئ نهر أروند. راحوا يضعون الجرحى في القوارب ويعبرون بهم النهر. قلت لهم في المستوصف: «يا أخي! ليس بي أيّ سوء! فقط احقنوني بإبرة أو إبرتين حتى أقوم وأذهب إلى الأمام».

– كلا يا أخي! يجب أن تذهب إلى الخلف.

كان الأشخاص الذين يعملون على ضفة النهر يضعون الجرحى في القوارب بحذر واحترام. بالطبع سبب كلّ هذا الاحترام، إضافة إلى كونهم يقومون بوظيفتهم، الانتصار الكبير في عملية «والفجر8» الذي انتشر خبره في كلّ مكان. قاموا بمعاينتنا مرّة أخرى نهارًا في المستوصف الواقع على ضفة أروند، ثم نقلونا من هناك إلى مهبط المروحيات في أطراف مدينة خرمشهر. غصّت مروحية «شيتوك» بالجرحى، وأقلعت متجهة إلى مستشفى يقع في أطراف مدينة الأهواز. ابتعدتُ شيئًا فشيئًا عن ساحة المعركة، لكنّني بقيت دائمًا أفكّر في الخط الأمامي؛ المكان الذي بقي فيه أمير. لم أفكّر بجرحي بالرغم من أنّني كنت ذاهبًا إلى غرفة العمليات بسبب تلك الشظية. أبعدني التخدير لساعات عن هذه الدنيا.

أفقت من التخدير وأنا مستلقٍ على سرير وُضع في صالة. وفي نفس اللحظة التي استعدت فيها وعيي تذكّرت الحادثة التي جرت في الليل!

كانوا يحضرون الجرحى بشكل متواصل والجميع منهمكون بالعمل. لقد نزعوا عني ثيابي كباقي الجرحى. مضت ساعات وأنا أقول في نفسي: «يجب أن أذهب، ولكن كيف؟ بداية يتوجّب عليّ أن أحضر ثيابًا». صدفة، وضعوا بالقرب مني جريحًا من الجيش كان سرواله جيدًا. عندما نزعوا ثيابه التقطت سرواله ووضعته تحت سريري. بعد دقائق أحضروا جريحًا آخر وكان قميصه سالمًا، فأخذت ذلك القميص أيضًا! قمت من مكاني بصعوبة، ولبست الثياب ووجدت أيضًا زوجًا من النعال فانتعلته وخرجت من المستشفى. لم أكن أملك حتى قرشًا واحدًا. كانت جيوب ملابسي الجديدة فارغة أيضًا لذلك لم أقلق على أصحابها. ذهبت إلى حارس المستشفى: «يا أخي! أعطني 10 تومانات لأذهب من هنا». أعطاني الحارس 5 تومانات وقال: «أقسم بالله لا أملك غيرها!». شكرته. أردت الذهاب إلى مدرسة «براتي» بالقرب من مدينة الأهواز حيث مقرّ فرقة عاشوراء. ركبت في سيارة أجرة وأعطيته المال وقلت له: «هذا كلّ ما أملك، خذه مني وأوصلني إلى مدرسة براتي، هناك آخذ من الإخوة مالًا وأعطيك باقي أجرتك». كان السائق رجلًا شهمًا. قال لي: «لا أريد مالًا، سأوصلك إلى المكان الذي تريد».

عندما وصلنا إلى المدرسة أعطيته الخمسة تومانات ودخلت المدرسة. أوّل من رأيت كان مسؤول النقل في الدعم وهو من مياندوآب، وقد تعرفت إليه عندما كان مسؤول «إيفاد القوات» في تبريز. سألته: «ألا يوجد سيارة ذاهبة باتجاه أروند؟»، قال: «يوجد الآن واحدة ذاهبة إلى خرمشهر». ركبت سريعًا.

عندما وصلنا إلى خرمشهر، كان واضحًا أنّ المنطقة تعرّضت للقصف بالكيميائي. لم نملك أقنعة لذا كان علينا أن نبلّل منديلًا ونغطّي به وجهنا. أخرج رفاقنا سجّادات الصلاة خاصّتهم سريعًا وأعطوني واحدة، بلّلتها بالماء ووضعتها على فمي. تابعنا تحركنا لكن من دون أن نشتمّ أيّ رائحة. كانت السيارات التي تأتي من جهة الأمام تضيء وتطفئ مصابيحها، وركابها يصيحون: «كيميائي... ضعوا أقنعتكم!».

وصلنا على تلك الحال إلى مقرّ تجهيزات الفرقة في خرمشهر. رأيت هناك «عوض محمدي». كان ذلك عند العصر، فعرض عليّ أن أبقى ليلًا في غرفتهم، لكنّني أردت الذهاب إلى منطقة الاشتباكات من دون أيّ تأخير. كان يقول: «لقد قصفوا بالسلاح الكيميائي في الأمام...»، لكن لم يلقَ منّي آذانًا صاغية. فقط كنت أجيبه: «أنت أعطني سيارة، أريد الذهاب الآن». أدرك أنّه لن يتغلّب عليّ. أوصى أحد السائقين أن يوصلني إلى قسم التجهيزات جانب نهر أروند. لم أكن أستطيع أن أثني رجلي بسهولة، وتحمّلت ألمها وحريقها، ولم يصدر منّي أيّ صوت. فضّلت أن أجلس في المقعد الخلفي من التويوتا وأمدّ رجلي. انطلقنا في طريقنا حتى وصلنا إلى بساتين النخيل. رأيت أنّ جميع السيارات الآتية من الأمام يضع ركابها أقنعة ويشيرون لنا بعلامات أنهم قصفوا بالسلاح الكيميائي. لا السائق كان لديه قناع ولا أنا. أوقف السيارة في أول بستان النخيل والتفت إليّ يقول: «أنا لن أتقدّم إلى الأمام أكثر من هذا».

– ماذا يعني أنا لن أذهب إلى الأمام؟ أنت أغلق نوافذك وقُد السيارة. أنا سأجلس في الخلف، وفي هذه الحال إن قصفوا بالكيميائي فأنا من سيتأثر لا أنت!

لم ينفع كلامي. قال: «كلا يا أخي! ترجّل أنت هنا. أريد أن أرجع!». لم يأتِ النقاش بأيّ فائدة. اضطررت وأنا على تلك الحال أن أكمل

طريقي سيرًا على الأقدام. أخيرًا، وصلت إلى مقرّ فرقة مشهد... المكان الذي غنمنا منه مخزن رصاص قبل العملية! رأيت الجميع يضعون أقنعة ويقولون إنّهم قصفوا بالسلاح الكيميائي، لكن برأيي أنهم قصفوا منذ مدة ولم يعد للكيميائي ذلك التأثير. سألت إن كان ثمة من يوصلني إلى محور فرقة عاشوراء. قال لي أحد شباب المعلومات في الفرقة بكلّ محبة: «أنا أوصلك إلى هناك». ركبت خلفه على الدراجة النارية وانطلقنا.

وصلنا إلى جانب نهر أروند. إلى القرية التي كانت قبل عدّة أيام أفضل بقاع الأرض بالنسبة إليّ والآن تحوّلت إلى بيت عزاء يثير أحزاني وشجوني. تحوّلت القرية إلى مركز للتجهيز، ومُلئت غرفها بالتجهيزات المختلفة كالأقنعة والطعام و.... ودّعت ذلك الأخ المشهدي. مهما أمعنت النظر لم أرَ أحدًا أعرفه. أيضًا لم يكن أحد يعرفني. مرّت دقائق حتى رأيت «محرم آقاكيشي بور»، وكان يعمل في التجهيز. بعد السلام والسؤال عن الأحوال، ألحّ عليّ أن أدخل برفقته إلى الداخل. قلت: «لن أدخل، عندي عمل. فقط أعطني قناعًا ومصباحًا يدويًّا». كان الليل قد حلّ.

– ماذا تريد أن تفعل؟

– أريد أن أذهب إلى الطوارئ.

– لقد قصفوا المكان هناك بالكيميائي.

كان محقًّا. لقد سمعت أنهم قصفوا الطوارئ بالكيميائي واستشهد أثر ذلك الطاقم الطبي وجميع الجرحى.

سألت: «هل أحضروا الشهداء إلى هناك؟».

– أجل. الطوارئ مليء بأجساد الشهداء!

لديّ مفقود بين الشهداء وأردت الذهاب إلى هناك بأيّ ثمن. أعطاني «محرم» قناعه ومصباحًا يدويًا. انطلقتُ نحو الطوارئ. رأيت الأجساد متراكمة بعضها قرب بعض. رحت أسلّط ضوء المصباح اليدوي

على أجساد الشهداء الطاهرة. يا إلهي! ماذا أرى تحت هذا الضوء الصغير؟! أوهل أستطيع أن أرى هذا الجمع من معارفي مضرّجين بدمائهم. كأنّني أعرفهم جميعًا! أجل جميعهم. كانوا جميعًا مجاهدين مخلصين وغير مدّعين. إنّهم شباب الاقتحام في فرقة عاشوراء. ضاق صدري إلى حدٍّ كبير. نظرت في وجوه الشهداء واحدًا واحدًا بحثًا عن ضالّتي. لقد استشهد كلٌّ منهم بطريقة ما. لم يكن أميري بينهم، الأمر الذي زاد أكثر من ألمي. مع أنّني وضعت قناعًا لكنّني بقيت أشعر جيّدًا برائحة الكيميائي. خرجت من المستوصف صفر اليدين وذهبت إلى محرم. لم أعد أقوى على الحركة. قلت له وأنا على تلك الحال من الوهن والعجز: «محرم! أريد أن أبقى هنا الليلة! هيّئ لي مكانًا». أقمت صلاتي من جلوس. قدّم لي الطعام. تناولته ونمت، ومكان العملية الجراحية في رجلي يؤلمني بشدّة.

توجّهت في الصباح أيضًا نحو المستوصف، لكن يبدو أنّني تأخّرت. كانوا يلفّون أجساد الشهداء بالنايلون ويضعونها في براد كبير وُضع هناك لهذه الغاية. كما وضعوا الأغراض التي استخرجوها من جيوب الشهداء جانبًا. كان يمكن مشاهدة الشهداء بشكل أفضل في ضوء النهار. لقد صدمني المشهد؛ هذا لا يد له، ذاك بدون رجل، وآخر لا رأس له، وهذا احترق و... كان الجوّ قاسيًا. لم يعد لعينيّ التعبتين طاقة على التحمّل. جلست هناك حوالي عشر دقائق مذهولًا بالمشهد: «...إلهي. أين «أمير» إذًا؟». قمت، ورجعت إلى القرية حيث مركز التجهيز. لقد استخدم العدو الخبيث السلاح الكيميائي من جديد! رأيت محرم من بعيد، وقد ناداني ليأخذ قناعه. عندما رأيت الوضع كذلك لذت بالفرار سريعًا! يوجد هناك أقنعة موضّبة وباستطاعته أن يأخذ واحدًا منها.

وصلت إلى ضفة أروند وركبت على متن أحد الزوارق الذي يقلّ الإخوة إلى الطرف الآخر من النهر. كانت القوارب تتحرّك من ضفة

إلى أخـرى، تنقل القـوات والذخائر والتجهيزات. أمـا القوارب الكبيرة فراحت تنقل أيضًا الدبابات وناقلات الجند. لم يكن أيّ جسر قد نصب فوق نهر أروند، لذلك نقلوا كلّ شـيء بواسـطة القـوارب. أوّل ما فكّرت به حين وصـلت إلى الضـفة المقابلة هو كم تغـيّرت معالم المنطقة. كانت الطائرات تحلّق بانتظام؛ طائراتنا وطائرات العدو. وقد بدأ العراق يغير بشـدّة على المنطقة منذ الصـباح الباكر. بحثت عن قائد كتيبتنا السيّد أجدر مولايي. رأيت رضـا إسكندري وبعض شباب الكتيبة، ثم رأيته. ما إن وقع نظره عليّ حتى قال: «عدت؟».

- أجل، ما الخبر؟!

- أرجعنـا الجرحـى، وقتلنا جميـع البعثيين الذين كانـوا في منطقة المنقار وتسببوا باستشهاد شبابنا، وأسرنا عددًا منهم.

- ماذا عن «أمير» يا سيد؟

- أرجعناه إلى الخلف.

- هل رأيته بنفسك؟

- لقد رآه رضا إسكندري.

رجعـت إلى إسـكندري. أردت أن أتأكـد. قلـت له: «رضـا! هل رأيت أمير؟»، قال: «أجل». سألته: «هل أرجعته إلى الخلف بنفسك؟».

- أجل.

- إلى أين أخذته؟

- أخذت «أمير» وثلاثة أو أربعة شـهداء آخرين إلى الضـفة الأخرى من نهر أروند، وسلّمتهم ليضعوهم في الثلاجة.

هدأت قليلًا عندما سمعتُ هذا الكلام. كانوا هم يريدون العودة إلى الطـرف الآخر مـن نهر أروند فقـد انتهت مهمتهم في منطقـة العملية. سـألوني: «ألن تعود معنـا؟»، أجبتهم بالنفـي. أردت البقاء في المنطقة.

أصـرّوا علـيّ للرجوع معهم عندمـا رأوا حالي، لكنّنـي بقيت، والتحقت بعناصـر الكتيبـة التي أتت حديثًـا إلى المنطقة وتموضـعت بالقرب من مصـنع الملح. يبدو أنّها كتيبة السـجّاد، وكان قائدها «حسـن خوشبو». يظهر أنّ جميع عناصـرها من «شهرسـتان»، ولم أكـن أعرف أيًّا منهم. ذهبـت إلى داخل إحدى الدشـم. كانـت القوات البعثيـة التي تغير منذ الصـباح قد تقدّمت إلى الأمام، والشـباب يخوضـون اشتباكات عنيفة. في تلك الأثناء سألني أحدهم: «من تكون؟»، عرّفت عن نفسي. نظر إلى رأسي ووجهي ثم سأل ثانية: «لماذا جئت إلى هنا؟».

- جئت لكي أساعدكم، ألا تريدون عناصر؟

لم يقل شيئًا. دخلتُ بين الشباب. كنت أرفع رأسي أحيانًا لأرى وضعية دبابـات العدو، فيصـرخ ذاك الـذي تحدّث معي: «اجلس يـا عم! هؤلاء يقتلون البشر!». كان يعتقد أنّني حديث العهد بالجبهة.

- لا مشـكلة! لا يستطيع هؤلاء أن يقتلوني. ما لم يحن أجل المرء بعد، لن يصيبه شيء!

الحقيقـة أنّني اكتفيت من هذه الأمـور. كنت أبحث عن ذريعة لأبقى في منطقة العمليات وأتمنى أن تضـلّ شـظية طريقهـا إليّ وتأخذني أنا أيضًـا. أحيانًا كنت أفكّر، ما الذي حصـل حتى خرجتُ سالمًا من جهنم ليلة الثاني عشـر ورأيت الإبـادة الجماعية لأصـدقائي. إن عدت، كيف سأعود؟ بأيّ وجه سأذهب إلى منزل أمير؟!

◽

بقيـت هناك حتى العصـر. بـدأت الدبابـات العراقية ليـلًا بهجوم معاكس. لقد سـعى العراقيون إلى إرسـال عدد من دباباتهم إلى الأمام لنشـتبك معهم فـلا نتقدّم أكثر، في حين لم يكن لدينـا نحن أيّ برنامج للتقـدّم. لقد تقدّمنا حوالي 4 كلم من الضـفة الأخـرى لنهر أروند، ولم

تعد وحدات الدعم تستطيع أن تصل إلى أبعد من هذه المسافة[1].

يبدو أنّ العراقيين كانوا يفكّرون باستحداث ساتر في تلك المنطقة ليقطعوا الطريق على تقدّمنا ويحافظوا على منطقة مصنع الملح.

أثناء عملية «والفجر8» ضُمّت منطقة مصنع الملح إلى محور فرقة عاشوراء، وكانت عبارة عن مستنقع موحل تصعب فيه الحركة. يبدو أنّ العراق سعى للدفاع عن تلك المنطقة والحفاظ عليها ليؤمّن لاحقًا الطريق لعمليات المدرعات بعد تجفيف المستنقع. كانت منطقة مهمّة بالنسبة إلى طرفي النزاع، وأظهر العدّو فيها مقاومة بارزة وملحوظة. تقدّمت الفرقتان العاملتان على جناحي فرقة عاشوراء إلى الأمام في حين أنّ عمل الفرقة كان صعبًا. تموضع الشباب في جادّة ملأتها الآليات بكومات التراب، ربّما لتبني فيها ساترًا ترابيًّا. وقفنا في مقابل العدو خلف هذا الحاجز. لو أراد العراق لاستطاع اقتحام منطقتنا بقوات كبيرة، لكنّهم أيضًا لم يكن لديهم القوات المؤهّلة للقيام بذلك، فاكتفوا فقط بالمناورة بدباباتهم.

في تلك الليلة استطاع شباب الكتيبة أن يحولوا دون تقدّم العدو ويجهضوا هجومه المضاد. ليلًا بقيت في تلك الدشمة، ولكن نفد صبري. دائمًا كنت أحدّث نفسي. حزني على «أمير» من جهة، وعدم قدرتي على المشاركة في تشييعه لو بقيت هنا من جهة أخرى. أخذت قراري. وفي الصباح ودّعت الشباب الذين أمضيت يومًا إلى جانبهم. كانت قوات

1 - لم يكن قد استحدث بعد أي جسر فوق نهر أروند، وكانت حركة القوارب ونقل التجهيزات والآليات عبر النهر مصحوبة دائمًا بالمشاكل. كانت سرعة التيار القاسي تصل إلى 65 أو 70 كلم في الساعة. وكان المد والجزر يؤدّيان إلى ارتفاع منسوب المياه عصرًا فكانت القوارب تواجه صعوبة في الحركة، وفي النهار ينخفض منسوب المياه إلى درجة تجعل من حركة القوارب في الوحل وعلى أطراف النهر غير ممكنة. بعبارة أخرى، باستثناء 4 إلى 5 ساعات يهدأ النهر فيها قليلاً، كانت حركة القوارب صعبة في بقية اليوم. وعندما تقصف الطائرات المنطقة كان عناصر الدعم يتناقلون الوسائل والتجهيزات يدًا بيد حتى تصل إلى القوارب وتمتلئ بها. لم يكن عملاً عاقلاً التقدّم أكثر من هذا في ظلّ أوضاع كهذه ما دام لم يستحدث أيّ جسر على النهر.

الدعم آتية إلى المنطقة أيضًا.

ذهبت إلى شاطئ أروند وقطعت النهر على متن القارب. ما إن وصلت إلى الطرف الآخر من النهر حتى رأيت «محرم». وما إن رآني حتى علا صراخه: «سيّد! أين أخذت قناعي؟!».

– أخذته إلى الجهة الأخرى من النهر. يوجد هنا كلّ هذا القدر من الأقنعة، يمكنك أن تأخذ أحدها!

كنت أعرف «محرم» من قبل. كان أخوه «مجيد» قائد كتيبة لمدّة، وقد استشهد في عملية «مسلم بن عقيل». تميّزت علاقتنا بطابعها الخاصّ بحيث إنّني بعد هذا الكلام، ولكي أنهي نقيقه قلت له: «محرم! لا تقل أيّ شيء آخر بعد، ليس لي جَلَدٌ على السماع! أعطني شيئًا لآكله وأرجع إلى الخلف». ذهب وأحضر لي طعامًا وفاكهة معلّبة. تناولت الطعام. في ذلك المكان رأيت عوض محمدي. شاهدت في تلك الأطراف أيضًا عددًا من سيارات الدعم. قلت: «عوض! أعطني سيارة أرجع بها إلى مركز الكتيبة». هو أيضًا تكرّم عليّ وأوصى أحدهم بأن يوصلني إلى الخلف. لم يكونوا في العادة يعطون سيارة في الخطّ الأمامي لأحد، ولكن كانت علاقتنا جيدة وحالي واضحة. بكلّ الأحوال رجعت إلى الخلف. وجدت أنّ السيّد أجدر موجود في «آبادي»؛ تلك القرية المليئة بالذكريات والقريبة من كارون. ذهبت إلى منزلنا (مركزنا) تلقائيًّا. المكان الذي كان لثلاثة أو أربعة أيام خلت مليئًا بحماسة وضوضاء الشباب والآن... كدت أصاب بالجنون. لقد أرّقني صمت البيوت وخلوّها. كنت وحدي فقط والبيوت الخالية. تلك الصلوات والولائم وصفاء الإخوة جميعًا. مرّ كلّ ذلك أمام عينيّ ولم أحتمل رؤية مكان كلّ أولئك الأعزاء خاليًا وأبقى أنا. خصوصًا أمير. حقًّا شعرت أنّ ظهري قد انكسر. لم أستطع البقاء هناك أكثر من 4 أو 5 ساعات. ذهبت إلى السيّد أجدر وقلت له: «اكتب لي كتابًا. أريد أن أذهب إلى تبريز!».

- نحن أيضًا نريد الذهاب إلى تبريز، اصبر حتى نذهب معًا!

- كلا! لا أريد أن آتي معكم. سأذهب بنفسي!

كنت ما أزال منزعجًا من السيّد ولم أرد أن أكون معهم. أصررت عليه أن يكتب لي كتابًا ففعل. تركت القرية بحال لا توصف، وركبت في سيارة متوجهة إلى دزفول.

وصلت إلى مقرّ كتيبتنا وهنًا ومضطربًا. كان عناصر «تعاون»[1] الكتيبة هناك، وقد سلّمناهم أغراضنا قبل العملية. كان لدينا أنا وأمير حقيبة واحدة، وحتى مالنا كان واحدًا، وقد سلّمنا الحقيبة معًا إلى الـ«تعاون». ذهبت وقلت لهم: «لا أملك مالًا. أريد جزءًا من المال الذي سلّمناه إليكم». نظر في القائمة ورأى أنّ المال كُتب باسمينا معًا. سألني: «إذًا، أين «أمير» مارالباش؟».

- لقد استشهد.

- عذرًا يا أخي! لا أستطيع أن أسلّمك شيئًا!

رجعت خالي الوفاض، لا ثياب ولا مال، ولا أيّ شيء آخر. في تلك الأيام كان والد السيّد أجدر مسؤول الدعم. فكّرت أنّه من الأفضل أن أذهب إليه: «سيّد! أعطني بدلة كاملة وجيّدة. لا أريد ثيابًا عسكرية. لا بأس إن كان السروال عسكريًا، لكن ليكن القميص عاديًا». ذهب وبحث في المستودع، وأخيرًا، وجد لي سروالًا وقميصًا. رآني أعرج فقال: «لماذا تعرج؟».

- لا شيء، وقعت على الأرض!

- حقًّا وقعت على الأرض؟

- كلا! الحقيقة أنّ شظية أصابت رجلي.

- أين تذهب بهذه الحال يا سيد؟

قلت إنّني أريد الذهاب إلى تبريز، ولهذا السبب رجعت إلى الفرقة.

---

1 - هو المركز الذي يعنى باستلام الأمانات من سلاح وأغراض خاصة بالشهداء، وأيضًا يؤمّن الخدمات الطبية اللازمة، إضافة إلى تسلّم أجساد الشهداء تمهيدًا لتسليمها إلى أهلها.

كان «محمد عارفي» هناك يعمل في النقل، وهو من عناصر مسجدنا. قلت له إنّني عازم على الذهاب إلى تبريز، وأبحث عن حافلة تقلّني إلى هناك. قال لي: «بعد الظهر تذهب حافلة إلى تبريز»، فبقيت عندهم إلى حين موعد انطلاقها. اقترضت منهم أيضًا حوالي 100 تومان. أرادوا إعطائي أكثر لكنّني لم أرَ ذلك لازمًا، إذ لم أكن أريد شراء شيء. اشتريت فقط كيلوغراماً واحداً من البندورة والخيار لكي أقتات به في الطريق إلى تبريز.

▫

انطلقنا. وأيّ عودة كانت! لم أكن أعلم ما الذي سيحصل. رحت أسأل نفسي باستمرار: «ماذا عليّ أن أقول عندما أصل؟!»، وللمصادفة كان سائق الحافلة سعيدًا خلافًا لحالي. شغّل شريطًا شكّل سماعه عذابًا بالنسبة إليّ وأنا على تلك الحال![1]. لم أستطع التحمل: «أطفئ ذلك الشريط». أطفأه وقال: «إمّا تشغيل الشريط أو الغيبة!».

– اغتب ما بدا لك.

بدأ السائق بالحديث أو بالغيبة حسب قوله مع الذي يجلس إلى جانبه، الأمر الذي كان أقل وطأةً عليّ[2]. لم ينتهِ الأمر عند هذا الحدّ، وبعد أن اغتاب السائق قليلًا، بدأ بتجاوز السيارات بشكل خطير. كنت قد جلست على المقعد الأمامي ورأيت كيف يدخل على مسار السيارات الأخرى. علا صوت الشباب: «يا أخ! قُد السيارة بشكل صحيح!».

– أنا أريد أن أقود بهذه الطريقة حتى أصل إلى تبريز!

1 - في تلك الأيام، كانت بعض الموسيقى والأفلام الممنوعة في الفرقة تذاع في التلفزيون، من بينها مسلسل "السلطان والراعي" وقد صدر تعميم من المقرّ يقضي بمنع إذاعة أفلام كهذه وبعض أنواع الموسيقى. لكن شريط ذلك اليوم زاد حالي سوءًا بالتأكيد!

2 – الحقيقة أنّه من بين كلّ أولئك السائقين الذين كانوا يأتون إلى فرقتنا كان من النادر أن نجد شخصًا مستقيمًا. كان سلوك بعضهم يغضبني، وأفكر دائمًا أنهم يستغلون طيبتنا. عندما كنّا في كتيبة الإمام الحسين عليه السلام وصل الأمر لدرجة أن نلزم السائق بإكمال المسير بقوة السلاح. ومع أنّ الحافلة وكلّ شيء تحت تصرفنا، كان السائق يقول: "سنخسر الحافلة! لن أذهب أكثر إلى الأمام!".

قاد بهذه السـرعة حتى وصـلنا إلى تبريز بعد حوالي 13 ساعة ونصف الساعة. كانت التاسعة صباحًا عندما وصلنا إلى مستديرة «ساعت». عندما أردت أن أترجّل من الحافلة قلت للسائق: «إنّ عملك هذا كان لمصلحتي لأنّ لديّ أمرًا واجبًا أقوم به، وجنونك هذا أوصلنا بسرعة!». فكّرت في نفسي أنّه في الفرصة المناسبة سأتحدّث مع محمد بشأن هذا السائق.

▫

ترجلت في مستديرة «ساعت» واتصلت بـ«قدرت أشرفي» في المعلومات، وما إن علم بوجودي هناك حتى جاء بنفسـه إليّ واصـطحبني معه. بعد السـلام والقبلات كان سـؤاله الأول هو: «إذًا، لماذا أتيـت وحيدًا؟!». كان «قدرت» يعلم جيدًا أنّني وأمير نكون دائمًا معًا. بداية قلت: «هكذا... أتيت وحدي!». ولكن بعد ذلك كأنّه لم يكن لديّ القدرة على التحمّل أكثر فقلت بهدوء: «إنّ «أمير» استشـهد!». بسـماع هذا الكلام ركن «قدرت» السيارة جانبًا وأجهش بالبكاء. البكاء وحده كان يستطيع أن يهدئنا قليلًا.

- أريد أن أذهب إلى البيت. أوصلني إلى البيت.
- كلا! لا تذهب إلى البيت يا سيّد!... الأفضل أن نذهب إلى بيت أمير.

انعطفنا وتوجهنا ناحية منزل «أمير» الذي كان قريبًا من مبنى حجري في وسـط المدينة. صـادف أن كان والد «أمير» السيّد علي في الزقاق، وما إن رآنا حتى أتى لاستقبالنا. رآني كيف أعرج، لكنّه كان ينظر إليّ بطريقة أخرى. لم يحدث أبدًا أن أتيت إلى باب منزلهم من دون أمير. بعد السلام والقبلات قال بهدوء: «سيّد نور الدين! أين أمير؟ ماذا حصل؟».

- سيّد علي!... لم يحدث شيء، لقد جرح أمير!
- جرح! لو أنّ «أمير» جريح لذهبت إليه وبقيت عنده... لم تكن لتدعه وحيدًا... لا يكوننّ...

لم أسـتطع أن أكـذب ولا أن أقول الحقيقة. فقط قلت بصـعوبة: «أجل!

سـيّد علي أمير...»، لم أسـتطع أن أرفع رأسـي. دوّى صوته في أذني بهدوء قائلًا: «أحمد الله أنّ أحدكما ما زال موجودًا! الشكر لله...». لقد أحرق قلبي صوته المرتجف ودموعه. عندما علمتْ خالة «أمير» (زوجة أبيه) بالخبر ملأ نواحها وصراخها البيت. وبدأت بقراءة قصيدة اوخشاما[1]. بكينا جميعًا أنا، أخو أمير، والده، وقدرت لساعات في ذلك الجوّ الكئيب والقاسي.

ذهبـت من هناك إلى المنـزل، حيث تكرّر المنوال ذاتـه. ما إن رأتني والدتي حتى أجهشت بالبكاء.

- يا أمي! ماذا حصل؟

بـادئ الأمر قالت: «لا شـيء». لكنّهـا نظرت ثانيـة إلى حالي ومآلي وسألت بعد مرور دقائق: «لماذا «أمير» ليس معك؟»، قلت لها: «لقد جرح أمير». لكنّها لم تصـدّق أيضًـا هـي الأخرى. أخـبرت والدتي بالحقيقة فبدأت بالصراخ والعويل على فراق أمير. في اليـوم التـالي بدأ تشـييع أجسـاد شـهداء عملية «والفجـر8». لم يكن ثمّة خبر عـن «أمير» وكانت الأيام تمضـي ثقيلة علينا ونحن ننتظـره[2]. لم نجد بدًّا من التحدّث إلى «مشهدي عبادي» الذي يعمل في الأهواز في قسم إخلاء الشهداء. أصبح واضحًا أنّ جسد «أمير» نقل من منطقة العملية إلى طهران، ومن هناك إلى مشهد، ثم إلى الأهواز. يظهر أنّ شهرة «مارالباش» أدّت إلى ارتكاب هذا الخطأ... أخيرًا، أعلمونا في أحد الأيام أنّه تمّ إرسـال «أمير» وعدد من الشهداء الآخرين إلى تبريز بواسطة القطار.

◘

كم يشيّب الانتظار الإنسان... بعد استشهاد «أمير» اختلط ليلي بنهاري.

---

1 - أبيات تركية مؤلمة تقرأ في مأتم الأعزاء.

2 - كان اسـم «أمير» في الهوية "هوشـنك مارالباش". عندما كبر قام بنفسـه بتغيير اسمه إلى أمير، وأصبح الجميع ينادونه بهذا الاسـم. لـم تكن كلمة "مارالباش" مألوفة في اللغة الفارسـية. مضـى حوالي 15 يومًا وأقيمت عدّة مراسـم تشـييع. كنت أظنّ أن الاسم أثر في تأخير إحضار جسد الشهيد وتبيّن أنّ ظني في محله.

كنت أنام ليلًا وأنا أفكّر بأمير، ودائمًا ما أراه حيًّا في منامي. أفرح بذلك، ولكن تتبدّل أفراحي أحزانًا عندما أستيقظ. الآن، حيث جسد «أمير» الجميل في الطريق إلى هنا، كان لديّ فرصة لأرى وجه أعزّ أصدقائي للمرّة الأخيرة. ذهبت برفقة السيّد علي إلى محطّة القطار. وصل القطار أخيرًا. أنزلنا بمساعدة آخرين توابيت الشهداء من القطار واحدًا واحدًا، ووضعناها داخل سيارات الإسعاف. كان «أميرنا» المحبوب، «هوشنك مارالباش» الشهيد الأخير. لم يكونوا يسمحون لأحد بالنظر إلى وجه الشهداء، لكنّني لم أعتنِ بكلام أحد. لقد اشتاق قلبي لرؤية أمير. أزحت كلّ شيء جانبًا ورأيت وجهه. كان هو. الوجه ذاته الذي رأيته في لحظة الشهادة، ولكنّه الآن أصبح أسود اللون، وعرفت أنهم أطلقوا عليه رصاصة الرحمة[1]. أخذوا الشهداء إلى الكليّة التي كانت محلًّا لتجهيز الشهداء[2]. أردت أن ألتقط صورة لأمير، ولكنهم لم يسمحوا بذلك. حصلت على إذنٍ بالدخول إلى رفاقي بالقوة! والتقطت آخر صورة لأمير في هذه الدنيا.

▫

في اليوم التالي كان الثلج يتساقط بغزارة في تبريز. ذهبت بحثًا عن «يوسف حدادي» وهو أحد الإخوة الجيّدين، ويعمل في مؤسسة الشهيد، ويرسم صور الشهداء بشكل جيّد. قلت له أريد أن ترسم لي صورة أمير، فطلب مني صورة له، لكنّني لم أكن أحمل واحدة معي.

كان يوسف – وهو ابن مدينتي – قد رأى «أمير» يرافقني قبل ذلك. فرسم على الورق ما علق في ذهنه من وجهه. للإنصاف فقد كان رسمًا جيدًا. أخذته ونسخته عدة نسخ، ووزعتها على الشباب الذين أتوا من

1 - كنت متأكدًا أن «أمير» استشهد في الدقائق الأولى، ولكن يظهر أنّه في تلك الليلة وبعد انسحاب قواتنا إلى الخلف تقدم العدو إلى جانبهم وأطلق رصاصة الرحمة على الشهداء والجرحى الذين بقوا هناك. قال البعض أيضًا إنّ اسوداد بشرة الأجساد يعود للقصف الكيميائي على المنطقة.

2 – يطلق عليها "معراج شهدا" تجليلا وتقديسا للشهداء.

مسجد محلّة أمير.

في ذلك اليوم العاصف والمثلج، بدأ تشييع الشهداء. أقيمت الصلاة في ساحة «قونقاباشي»، وركب الجميع في الحافلات وتوجهوا نحو وادي الرحمة. كانت حالي سيّئة. في القسم السفلي من وادي الرحمة، المكان الذي كان «أمير» قلقًا من امتلائه، ضعت بين المجتمعين حول قبر أمير. دفن هناك أيضًا كلّ من رحيم افتخاري ورضا كلوليان. عادة ما أقف في الخلف أثناء مراسم دفن الشهداء وتلقينهم. لم يسمح والد «أمير» بدفنه. كان يحبني كأميره، وأراد أن أكون إلى جانبه، وأن أرى للمرة الأخيرة صديقي وأخي الحبيب. أودعنا «أمير» في حضن التراب في ذلك الطقس البارد من شهر آذار من العام 1986م.

3

العمل الوحيد الذي كنت أقوم به في تلك الأيام هو المشاركة في مراسم تشييع الشهداء ومجالس عزائهم وزيارة قبورهم. بالرغم من أنّ خسائرنا في عملية «والفجر8» هي أقلّ نسبة لعملية بدر، إلّا أنّ مساحة منطقة العملية وعديد القوات التي خاضت الاشتباكات كانت أكبر. من جهة أخرى - وخلافًا لعمليتي بدر وخيبر - لم يكن هناك شهداء مفقودو الأثر بأعداد كبيرة، لذلك كان عدد الشهداء القادمين إلى المدينة كبيرًا[1]. كانت المشاركة في مراسم عزاء «أمير» صعبة جدًا عليّ. أحيانًا كنت أقول في نفسي أيّ قلب هو قلبي هذا وأنا أجلس في المصلّى حيث تقام مراسم عزاء أمير! في وسط مراسم العزاء كانت أحوالي تنقلب.

1 - في عملية«والفجر8» فقدنا فقط عددًا من عناصر إحدى الكتائب الذين هاجموا مصنع الملح ولم يستطيعوا السيطرة عليه وبقوا هناك، لكن لا العراقيون استطاعوا الوصول إليهم ولا نحن. وسقطت أجسادهم على الملح فلم تتآكل. عندما سيطرنا على المنطقة في عملية "يا مهدي" نقلنا أولئك الشهداء إلى الخلف. من هنا، لم يكن في عملية«والفجر8» -وخلافًا للعمليات الأخرى- مفقودون كثر باستثناء الشهداء الذين حملهم معه تيار نهر أروند.

كانت تلك الأيام من أكثر أيام حياتي مرارة. كنت أضع صورة «أمير» أمام وجهي وأحدّق بها. كانت وصيتي أنا وأمير -باستثناء الأمور التي لها بُعدٌ عائلي- وصية واحدة كُتبت بخطّه وقمنا بنسخها. انتهت مجالس عزاء أمير، وبدأت أفكّر قليلًا بجرح رجلي الذي لم يلتئم بعد. سعيت لمعالجته بسرعة حتى لا يؤذيني عند رجوعي إلى الجبهة. من جهة أخرى مضى أكثر من سنة على خطوبتي وعقد القران، وبدأت عوائلنا تمارس الضغط أن كفى هذا الوضع، وصار عليّ أن أفكّر في حياتنا المشتركة. كان ذهني مشوّشًا. احترت ماذا أفعل. كنت قد قررت أن أبقى على ذلك الوضع حتى نهاية الحرب، ولكن لم ترضَ عوائلنا بهذا الواقع. وكنت عندما أفكّر في نهاية الحرب أتذكّر كلام الشهيد أصغر قصّاب وأشعر بالارتباك![1]

من جهة حزني على فراق الشهداء خاصة أمير، ومن جهة أخرى توقّعات العائلة. مهما فكّرت كنت أصل إلى هذه النتيجة؛ أنّه في حال أردت بدء حياة مشتركة والرجوع إلى الجبهة لاحقًا، فإنّ أموري ستتعقد أكثر. أخيرًا، رأيت الحلّ في الذهاب لزيارة الإمام الرضا عليه السلام لأعرض عليه حالي ومآلي.

1 – قبل عملية بدر عندما أعلن الإمام التعبئة العامة، كنّا أحيانًا نتحدث مع أصغر قصاب القائد الشجاع لكتيبة الإمام الحسين عليه السلام، والذي استشهد في عملية بدر وفقد جسده هناك. كان أصغر يقول: "العراق أيضًا أعلن التعبئة العامة واستدعى جميع عناصره إلى الجبهة، من عمر 14 و15 عامًا حتى 50 عامًا"، رحم الله أصغر كان في تلك الأيام يقدّم تحليلاً عن الحرب ويقول: "ستكون نهاية حربنا مع العراق نهاية واحدة. فقواتنا تملك إيمانًا وغيرة وطنية كبيرة ولن تسمح للعراق أن يبقى في أرضنا، وفي المقابل لن نستطيع نحن أيضًا السيطرة على العراق لأنّ القوى الأجنبية لا تريد أن نصبح بلدًا قويًّا في المنطقة. سوف يعطون العراق السلاح والعديد والتجهيزات لكي يقف في وجهنا". هذه الكلمات قيلت في مجلس خاص في الكتيبة قبل عملية بدر بستة أشهر. في ذلك اليوم كان محمد بالابور - الذي استشهد هو الآخر أيضًا - حاضرًا في الجمع. كانا يتوقعان أن طرفي النزاع سيتعبان من هذه الحرب في النهاية ويوقفانها، ولكن كان أصغر آغا يعتقد أن حقّنا وواجبنا وسلوكنا وكلّ ما لدينا يجب أن يكون إطاعة للأوامر. عجيب أن أتذكر كلام أصغر في أواسط آذار من العام 1986م.

وصلت إلى مشهد بالحافلة. وحيدًا ولا أملك شيئًا في حقيبتي اليدوية الصغيرة سوى بعض من ثياب «أمير» وصور تجمعنا. حجزت غرفة صغيرة في نزل قريب من المقام الشريف وتوجّهت نحو الحرم.

- السلام عليك يا غريب الغرباء...

في اليوم الأول أعطيت نيجاتيف الصور التي تضمني وأمير إلى استديو التصوير لكي يظهّرها بمقياس كبير. أحببت أن أعلّق صورنا المشتركة على الحائط. أعطيت المصوّر أيضًا بعض صورنا المنفردة التي كنت أحبّها لكي يطبعها على ورقة جنبًا إلى جنب. في واحدة من الصور طبعت صورة «أمير» على صدري، وفي صورة أخرى طبعتها على صورة وردة. كنت أثناء وجودي في الغرفة أبقى أحدّق في الصور، أحدّق لدقائق طويلة في وجه «أمير» الخجول. الصور التي بها أعزّي نفسي. في أحد الأيام كنت جالسًا على شرفة الغرفة الصغيرة متوجّهًا إلى المقام الشريف وأنظر إلى القبة الذهبية، وقد اشتريت فاكهة الـ«خربُزه»[1]. قطعتها بالسكين وبدأت بتناولها، لكنّني كنت مضطربًا بشكل كبير. رحت أفكر أنّ استمراري بهذه الحال وفراق «أمير» سيسقماني. وبينما أنا أحدّق بقبة الحرم، لفتت فجأة حمامة بعيدة انتباهي. سُحرت بمنظر هذه الحمامة الآتية نحوي مباشرة. تقدّمت وتقدّمت إلى أن وصلت إلى أمامي بالضبط. ثنت جناحيها وجلست إلى جانب الـ«خربُزه» (الشمّامة). عقدت عينيها الصغيرتين على عينيّ. لا أعلم كم دقيقة بقيت أنا والحمامة على هذه الحال، يحدّق أحدنا في عيون الآخر من دون أن يشتّت أيّ شيء حواسنا في تلك الدقائق. لا أعلم إذا كانت الحمامة مأمورة أم ماذا؟ لكن كلّ ما أعلمه أنّه عندما فتحت جناحيها مرّة أخرى وطارت، حملت معها جزءًا

1 - نوع من الفاكهة في إيران وتشبه الشمام.

كبيرًا من حزني ووحدتي... في اليوم التالي فكّرت أنّه من الأفضل أن أقوم بزيارة سريعة إلى مستشفى الإمام الرضا عليه السلام. المستشفى نفسه الذي أدخلت إليه في خريف العام 1983م وأنا على تلك الحال المريعة، وصادف أنّ مؤسسة الشهيد في تبريز أيضًا طلبت ملف إصابتي. ذهبت إلى المستشفى والتقيت بذاك الممرض المسيحي نفسه. لم يصدّق أنّني الجريح الذي كان هنا قبل سنتين. قال لي: «لقد تحسّنت حالك كثيرًا».

- أين أنت مِنَ الذي حصل، بعد ذلك الجرح أُصبت بجراح.

كان إنسانًا نبيلًا وعطوفًا وقدّم خدمات جيّدة للجرحى. ذهبت للقاء المرضين الآخرين أيضًا وأخذت نسخة عن ملفي لكي أوصلها إلى تبريز. في مشهد قضيت معظم أوقاتي في الحرم الشريف. في تلك الأيام، كانت أكبر حاجة مشتركة عند جميع المجاهدين هي الانتصار في الحرب وسلامة الإمام. وكانت حاجاتنا العائلية -إن وُجدت- تأتي في المرتبة الثانية. لم نكن نستطيع أن نطلب من الله تعالى حاجاتنا المادية والدنيوية مقابل شهادة أو جرح أعزائنا. على العكس من ذلك، كنّا ندعو الله دائمًا بعجز وافتقار: «إلهي، لا تخجلنا أمام أصدقائنا الشهداء».

لم أستطع المكوث في مشهد أكثر من 4 أو 5 أيام. تحسّنت حالي قليلًا وقرّرت العودة إلى تبريز. ولأنّه لم يكن ثمة حافلة تذهب مباشرة إلى هناك في تلك الساعة، ركبت حافلة متوجهةً إلى محطة «خزانة» في طهران. في محطة طهران ذهبت إلى المرحاض ووضعت حقيبتي على الرفّ المخصّص للثياب فسُرقت! قلت في نفسي لو علموا لمن تعود الثياب التي في داخل الحقيبة لما أقدموا على سرقتها. فقدت هناك وإلى الأبد، بعضًا من ثياب «أمير» التي أخذتها معي إلى مشهد. فقدت أيضًا 7 آلاف تومان من المال كانت بحوزتي. أذهلني الأمر، لكن ليس باليد حيلة. بحثت في جيوبي فوجدت 30 تومانًا ذهبت بها إلى منزل أخي الذي كان

يسـكن في مدينة طهران آنذاك. عندما قصصـت عليهم قصتي قالوا: «اللصوص كثر في تلك المنطقة. يجب أن تنتبه إلى أغراضك جيدًا!». كم كان الاختلاف كبيرًا بين «هذا الوراء» و«ذاك الأمام»! نحن الذين عشنا لسـنوات في مناطق الحرب، كنّا حديثي العهد بحيـاة المدينة لدرجة أن نخدع بسهولة.

في تلـك الليلة علمت عائلة أخي بشـهادة «أمـير» فأقيم مجلس عزاء آخر لأميرنا العزيز.

◘

بقيت عدّة أيام لأربعين أمير. خلال هذه المدّة تحسّـنت قدمي، ولكن لم أعـد أسـتطيع البقاء أكثر مـن هذا في المدينة، فلا شـيء فيها يهدّئ روعـي. انطلقت إلى دزفـول في أواخر آذار من العـام 1986م* حين بدأ الربيع يزهو بنفسه في تبريز.

*- الأيام الأولى من السنة الهجرية الشمسية 1365.

# الفصل الثاني عشر
# مصنع الملح

في اليوم الأوّل من وصولي إلى دزفول، توجّهت إلى مكان تموضع كتيبة «أبو الفضل»؛ تلك الكتيبة التي تضعضعت بسبب استشهاد غالبية عناصرها في عملية «والفجر8». انقبض قلبي لرؤية المكان خاليًا من الشباب. التقيت السيّد «أجدر مولايي» قائد الكتيبة. قلت له: «أريد أن أرجع إلى كتيبة الإمام الحسين عليه السلام».

– لا، لا يمكن!

– لكنّني لا أستطيع البقاء هنا أكثر من هذا. أريد العودة إلى كتيبة «الإمام الحسين».

أصررت على العودة، وهو أصرّ على الرفض. أدركت أنه لن يوافق. ذهبت إلى مركز القيادة. طلبت نقلي إلى كتيبة الإمام الحسين؛ قالوا أنت في كتيبة «أبو الفضل»، وعليك أن تعود إلى هناك!

لم يبقَ في كتيبة «أبو الفضل» سوى عناصر التجهيزات والبريد[1]، وهم أقلّ من عشرة أفراد. كان السيّد أجدر يعمل على إعادة تنظيم كتيبته.ولم يعد أحد من قادة سرية الحاج قلي الذي جرح في نفس ليلة استشهاد أمير[2].

---

1 – تعرّضت الحافلات التي نقلت عناصر كتيبة «أبو الفضل» إلى الخلف إلى قصف ما أدى إلى استشهاد السائقين وعدد من العناصر، وتفرّق من بقي من العناصر.

2 – رأيت خلال الحرب عددًا كثيرًا من القادة. عدا عمليات "بدر" حيث دخل جميع القادة في ساحة المعركة بسبب النقص في العديد، لم أرَ أحدًا كالحاج قلي يوسف بور والسيد أحمد موسوي. كان السيد أحمد موسوي كالحاج قلي، رجلاً استثنائيًا، وقد أصيب بجراح شديدة في عملية مسلم بن

التقيت السيّد «مهدي حسيني» مسؤول المركز (المقر). ما إن رآني حتى سألني: «هل استشهد أخوك؟».

– نعم.

كان السيّد حسيني يعتقد كالكثيرين أنّ «أمير» أخي. ثم قال لي: «ليتك ذهبت إلى الخلف، ففي الوقت الحالي لن نقوم بأيّ شيء». قلت له لقد أخذت قراري، وأريد أن أبقى في المنطقة، وأخبرته أنّ «أمير» ليس أخي. أجابني: «إن كان صديقك فهو أقرب إليك من أخيك. لقد رأيتكم بنفسي. لم تكن تفارقه!». أصرّ عليّ للرجوع إلى الخلف، وأرسل أيضًا «ناصر بربور» حتى يرافقني إلى تبريز. يبدو أنّهم فكّروا بأمر ما لتكريم عائلتي وعائلة أمير، لكنّني لم أرجع بالرغم من محاولاتهم الكثيرة. ذهب «ناصر بربور» وحده إلى تبريز وقصد منزل «أمير» يرافقه «قدرت أشرفي».

▫

بالرغم من رأي السيّد «أجدر» والاستقطاب في مركز القيادة، ذهبت إلى كتيبة الإمام الحسين عليه السلام. أرسلوني إلى سريّة «علي تشرتاب» الذي التقيته فقط في معسكر شهداء خيبر[1]. ذهبت إلى السرية من دون كتاب تعريف أو أيّ شيء آخر. فقد خدمت سابقًا في كتيبة الإمام الحسين لسنتين متتاليتين، ويعرفني كلّ العناصر القدامى في الكتيبة. في البداية أصرّ «علي تشرتاب» عليّ للبقاء معهم، لكنّني كنت راغبًا بالانضمام إلى الفصيل. في تلك المرحلة خيّم الهدوء على أجواء الفرقة رغم التغييرات الكثيرة التي حدثت، وكانوا أحيانًا يرسلون كتائب إلى الخطوط الأمامية.

---

عقيل عندما كنّا عائدين من تلة "سلمان كشته"، ومع هذا كان كلّما استطاع الكلام يقول لعناصره قاوموا... كان قائدًا شجاعًا، فهو ليس فقط لم يأت على ذكر الانسحاب والتراجع، بل كان يحثّ عناصره دائمًا على المقاومة.

1 – كان علي تشرتاب في بدر أحد المعاونين في سريّة خليل نوبري، وعندما تركنا كتيبة الإمام الحسين بعد العملية، أصبح مسؤول السرية.

بعد أيام عدّة استلمتْ كتيبة الإمام الحسين عليه السلام الخطّ الأمامي.

يومهـا انتقلتُ إلى الفصـيل الثالث، وكان مركز القيادة فيه شـاغرًا حتى ذلك الوقت. رأيت بعض الأشخاص الذين أعرفهم؛ «قادر غفاري، حيـدر مهديخـواه ورحيم غفـاري». تعرّفـت أيضًـا إلى أحدهم ويدعى «مجيد»، وهو معاون في إحدى سـرايا كتيبة سـيد الشـهداء عليه السلام. جرح في بدر أيضًـا وتهشّـم فكه، فصرنا نحن الاثنان يشـبه أحدنا الآخر من حيـث هيئة الوجـه! كان في الفصـيل أيضًـا ثلاثة من مسـؤولي «حركة محو الأمية»: «صـادقي، مجيـد بورناجي، وكريمي»، إضـافة إلى «جواد بخت شـكوهي»، وهو من أكثر العناصر شغبًا في الفصيل، و«رسول زارع زاده». لكن، لم يخفّف شـغبهم ومزاحهم من حزني، وشعروا هم بذلك. لقد حملتني شـدّة الحزن على القيام بأعمال كثيرة. سـمعت أنه كلّ من يقرأ سـورة الإخلاص 40 مرّة على مدى 7 ليال متتالية، أو يقرأ السـورة الفلانيـة 7 مرات يرى الشـخص الذي يريد في عـالم الرؤيا. رحت أقرأ هذه السور كلّ ليلة وأتضرّع إلى الله سبحانه كي أرى «أمير». أحيانًا كنت أراه، وأحيانًا كثيرة أخرى لم أوفّق لرؤيته.

مضـى على التحاقي بكتيبة الإمام الحسـين عليه السلام حوالي عشرة أيام ولم ينتبه السـيّد أجدر لذلك بعد. شـيئًا فشيئًا بدأ يؤثّر فيّ الحضور بين جمع الشـباب الطيّبين والمشاغبين في الفصـيل الثالث. كنّا نمضي أكثر أيامنا في لعب كرة القدم. التقيت أكثر شـباب الفصـيل لأوّل مرّة، ومع هـذا كان يتقـرّب مني كلّ من يرى مظهري أو يسـمع قصّـتي من بعض الشـباب القدامى. أحيانـا كنّا نتحدّث عن الشـهداء، فيعلّق أحدهم أن الشـهيد الفلاني هو من بلدتي، وإن صادف أن كنت على معرفة به، أبدأ بالحديـث عن ذكريات الأيام التي قضـيتها إلى جانبه... كان الشـباب يرغبـون كثيرًا بالحديث عن العمليات الماضـية وعن الشـهداء، حتى إنّ العناصر الملتحقين حديثًا فهموا حزني وغصّتي من خلال هذه الأحاديث،

وأصبح الجميع يعلمون كم أحبّ «أمير». رغب أكثرهم بالاطلاع على ألبوم صوري، وكان جواد أيضًا قد رأى صوري أنا وأمير، وأدرك شدّة تعلّقي به، خاصّة عندما رأى الصورة التي طبعتها في مشهد، وقد وضعت صورته على قلبي. منذ ذلك الحين أصبح الشباب يذكرون اسم «أمير» دائمًا بالتقدير والاحترام. وهكذا، توطّدت علاقتي مع الإخوة أكثر فأكثر، حتى طلب منّي جواد بخت شكوهي ذات يوم: «أوصِ بعد شهادتك أن يعطوني هذه الدراجة!»، وقصد دراجتي الهوندا، وكان لها حكايتها الخاصة[1]. ولكي يكفّ جواد عن طلبه ذاك قلت له: «يا عزيزي! هذه الدراجة خطيرة. لقد قتلت عددًا من الأشخاص إلى الآن. صدّق، إذا كتب اسمك أيضًا عليها فإنّ أمرك سينتهي أيضًا!».

لكن لم يصرف جواد نظره عن الموضوع: «ما لك أنت ولموتي! فقط أوصِ أن يعطوني هذه الدراجة عندما تستشهد!».

أعدت شرح الأمر له: «لقد وضع «أمير» يده على هذه الدراجة، والكثير من الشباب الذين استشهدوا ركبوا عليها أيضًا. الآن جاء دوري، إن أعطيتك هذه الدراجة حتمًا ستستشهد!». لم يقتنع وأصرّ: «يجب أن توصي بأن يعطوا دراجتك لجواد!»، فلم أجد مهربًا من الخضوع له! جمعت الإخوة لكي أخبرهم بوصيتي. كان جواد موجودًا ورحيم وقادر وعدّة أشخاص آخرين. كتبوا أنّه بعد استشهاد السيّد نور الدين على يرث «جواد بخت شكوهي» دراجته النارية. عندما فرغنا من كتابة

1- سُلّمت الدراجة التي أحبّها جواد للمرة الأولى من الحرس إلى إبراهيم نمكي، وقد سلمها إلى حسن نمكي قبل أن يؤسر في عملية خيبر. أستشهد حسن لتصل الدراجة إلى كريم الذي أعطاها لأخي زوجته وهو عنصر في الحرس. في أحد الأيام جرّني الكلام مع كريم إلى الحديث عن دراجة إبراهيم وأخبرني أنها معهم. حينها كنت أملك دراجة كاوازاكي. قلت له: "كريم! أعطني هذه الدراجة، أريد أن أحصل عليها مهما كلف الأمر! إنّها عابقة بذكريات الشباب الذين رحلوا!". بكل الأحوال اتفقنا وحددنا موعدًا لاستلام الدراجة، ذهبت برفقة «أمير» في إجازة إلى تبريز والتقيت بأخي زوجة كريم وسلّمته دراجتي التي أعطتنيها مؤسسة الشهيد، إضافة إلى مبلغ من المال مقداره ألف أو ألفا تومان، وأخذت تلك الدراجة.

الوصية التفتّ إلى جواد وقلت له: «جواد! لم أرد أن أصرّح بهذا الكلام، لكن سـأقول لك أمام الشـباب إنّه سـيأتي يـوم وأزورك في قبرك راكبًا هذه الدراجة بذاتها! لن أحترمك في ذلك اليوم، وسآتي إلى قبرك بهذه الدراجـة! وهؤلاء الشـباب يشـهدون...»[1]. منذ ذلك الحين صـار جواد ينتظر دائمًا حصـول اشـتباكات حتى أستشهد خلالها ويحصل هو على دراجتي: «امير بازاري اود توتسون، منه بير دستمال يتيشسين!»[2].

□

يومًـا بعد يوم بـدأت الألفة تزداد بيني وبين شـباب الفصـيل الذين بلغ عددهم حوالي 16 شخصًـا. كنّا أحيانًا نذهب إلى دزفول ونسـبح في الماء، نأكل لحم الكبد وأثناء العودة نشتري أغراضًا لنحضّر منها طعام الغداء. عرف الشـباب أنّني أحبّ البندورة لذا أضـحت محفوظة دائمًا في البراد البلاستيكي؛ ويشترونها لأجلي ويقولون: «هذه البندورة للسيّد نور الدين! لا يلمسـنّها أحد!»، وقد بذل جواد قصارى جهده في كلّ شيء واهتمّ بي كثيرًا. عاملني أكثر الشـباب كأخيهم الأكبر، ما راح يقلّل من أحزاني الماضـية شـيئًا فشـيئًا. طبعًا لم تكن ذكرى «أمير» أمرًا أريد أن أمحوه من ذاكرتي. لا أحد يساوي «أمير» بالنسبة إلي، وبقي الحزن على فراقـه مختلفًا عن كلّ هـمّ وغمّ. بقيت في كلّ ليلة أقرأ الأدعية والسـور التي تعلّمتها لعلّي أشاهده في منامي. أحيانًا عندما لا أراه، كنت أمتعض ولا أكـرّر قراءة السـور بعد ذلـك! في تلك الأيـام ازدادت روحيتي كثيرًا بحيث صرتُ أستيقظ من نومي عندما أريد، مهما كان نومي ثقيلًا. لقد أصبحت علاقتي بالله تعالى عجيبة ولطيفة.

1 – وأتـى يـوم ليس ببعيد حيث ذهبت أنا وحيدر على الدراجة نفسـها إلى قبر جواد! راح حيدر يطرق بيده على قبر جواد ويقول "جواد! انهض! لقد أتى السيد نور الدين على الدراجة..!".

2 – مثل تركي، ويعني ليت سوق «أمير» يحترق لأحصل على منديل، وهو كناية عن أنّه فليقع أيّ حدث ولو كان كبيرًا لأحصل على شيء مهما كان زهيدًا.

ذات ليلة رأيت «أمير» في المنام. تحدّث أحدنا مع الآخر كما العادة. قلت له شاكيًا: «أمير! لقد ذهبت أنت وتركتني هنا وحيدًا في مواجهة المتاعب!»، ردّ قائلًا: «سيّد، أنت أيضًا ستأتي إليّ بعد 15 يومًا!». قفزت من نومي. أيّ منام كان هذا يا إلهي؟! لم يكن ثمّة أيّ خبر عن العملية.

– يا عم لا يوجد شيء هنا! كيف لي أن أذهب بعد 15 يومًا إلى أمير؟ الهدوء التامّ يخيّم حاليًّا على الكتيبة!

بداية أخبرتُ القصة لـ«قلي خاقاني» وهو طالب علوم دينية. ثم تحدّثت مع «بدرام شاكري» و«حسين قوجابي» وهما من مشاغبي الكتيبة. فهما القضية وأجابا: «نحن لا نعلم متى تنفّذ عملية». أخبرت القصة أيضًا لرسول زارع زاده، وبعد ذلك رأيت أنّه من الأفضل أن لا أتحدّث بالموضوع أكثر من هذا، وأن أنتظر اليوم الخامس عشر.

في اليوم التالي أخبرونا أنّهم سيرسلوننا إلى مشهد. إن كنت قبل هذا الخبر أحتمل أن نذهب إلى الخطّ الأمامي بنسبة 50% ونشتبك مع العدو، فقد انعدم هذا الاحتمال مع سماعي خبر الذهاب إلى مشهد. اقتضت العادة بأن يأخذوا العناصر الذين رجعوا حديثًا من العمليات إلى مشهد ولا يشغل بالهم شيء. حزمنا أمتعتنا وركبنا الحافلات. اجتمع جميع عناصر فصيلنا بالإضافة إلى «آقاقلي» و«علي تشرتاب» في حافلة واحدة. تأكّدت أنّ أعمال الشغب والمشاكسة ستصل إلى أوجها في الحافلة. توقفت الحافلة في منطقة «بل دختر»، وذهب جواد واشترى «التمر الهندي»، وأحضر لي بعضًا منه أيضًا. حتى ذلك الوقت لم أكن قد تذوّقت التمر الهندي. قلت له: «ما هذا؟ أو هل يمكن تناول شيء بهذا السواد!»، كان جواد يحبّ التمر الهندي. أنا أيضًا أكلت منه ووجدته لذيذًا! اشتروا البسكويت أيضًا وأشياء أخرى من تلك التي يحبّها الأولاد عادة. واقع الحال أنّهم في مقتبل العمر، وفي عمرهم ذاك كانوا يقومون

بالحـركات الصـبيانية. مثـلاً في الحافلة، يـأكل أحدهم شـيئًا ويرمي بالجزء المتبقّي على رأس الجالس أمامه، ليلتفت هو الآخر ويرمي شـيئًا على رأسه. ترأس جواد وحيدر مجموعة المشاغبين. كان بيننا شخصان باسم رحيم؛ أحدهما «رحيم باغبان» والآخر «رحيم غفاري» الذي قضى جنديّتـه في الجيش وبعد الفراغ منها جاء متطوّعًـا إلى الجبهة والتحق بكتيبتنـا. تميّـزت مشـاغباته بفرادتها. مهمـا قلتَ له، أعطـاك جوابًا معكوسًـا، وكانت أجوبته تضحك الشباب. حتى إنّ طريقة تناوله للطعام مثيرة مضـحكة. اشـتهر رحيم بالمزاح والضـحك إلى حدٍّ لم يعد بعض الأخوة يثق به كثيرًا، وراحوا يتهامسـون بأنّه قادم من الجيش،... وكلام من هذا القبيل[1].

قضـينا في الطريـق إلى مشـهد أوقاتًـا ممتعة. تولّى «جـلال زاهدي» مسؤولية قافلة مشـهد، وهو مسؤول السرية الثانية ومن الأفراد المعروفين في الفرقة، وتميّز بإدارته القوية والنموذجية. كان «مصـطفى بيشـقدم» مسـؤول السـرية الأولى، و«علي تشرتاب» مسؤول السـرية الثالثة. كنّا في سرية علي. انطلقنا بأربع حافلات. لكي لا يحصل ازدحام حين التوقف عند المطاعم الموجودة على الطريق، قرّروا أن يتمّ التنسيق بين كلّ حافلتين على حدة. تولّت الكتيبة مصـاريف السـفر، وقام الأخ جلال بإدارة المصاريف وتأمينها. أخذنا معنا أيضًا أطعمة وفواكه معلّبة لتناولها على الطريق. كان ذلك السفر سفرًا عجيبًا. توقفت الحافلات حيث أراد الشباب؛ إلى جانب الحدائق الجميلة والمروج الخضراء التي افتقدناها طويلاً.

1 – كان البعض في الفرقة يعتقدون خطأً بأن الشـباب المشـاغبين والمزوحين يفتقرون إلى التقوى، وأنّ أداءهـم لـن يكون جيـدًا في العمليات، في حين إنّ القضـية كانت عكس ذلـك تمامًا. طبعًا كانت حياتي إلى جانب رحيم ولاحقًا رؤيتي لشجاعته في الحرب قد تركا تأثيرًا عليّ بحيث صرت منذ ذلك الوقت أحب أن أبقى أكثر مع الشـباب المشاغبين والمزوحين وأصحاب الطرائف. لم أعد أوافق على الحكـم المسـبق على البعضـ الذين كان طبعهم المـزاح، وفي نهاية المطـاف كان العمل يُظهر مدى إخلاص كل شخص!

▫

وصلنا إلى مشهد واستقرّت قافلتنا في حسينية قريبة من الحرم.

كنت وجواد وحيدر ورحيم نذهب معًا إلى الحرم. أحيانًا كان يأتي معنا أيضًا كلٌّ من رسول زارع زاده ومحمد نصرتي. اتفقنا على أن نذهب يوميًّا ثلاث مرات إلى الحرم لنصلّي جميع صلواتنا هناك. كان للتشرّف بزيارة الإمام الثامن عليه السلام مع هؤلاء الإخوة صفاء من نوع خاصّ. كالعادة، قليلًا ما كنت أذرف الدموع في الحرم، وكلّما ذهبنا إلى هناك، يتوجه الشباب إلى ناحية الرأس الشريف. كانت حالهم لافتة؛ بكاؤهم وتضرّعهم... تكرّرت هذه الحال في كلّ مرة، وكنت عندما أراهم أحزن وأفرح في آن؛ أفرح لأنّني صديق لأشخاص كهؤلاء، وأحزن لأنّني أعلم أنّ هؤلاء أيضًا سيرحلون. عند عودتنا من الحرم كنت أرى كيف أنّ شيئًا لم يتغير عندهم من ناحية الشغب. أدبهم وعرفانهم في الحرم شيء، وشغبهم في الخارج شيء آخر.

ليلًا، كان «بورخاني» ينظّم مجالس العزاء في الحسينية. التقطنا صورًا تذكاريّة كثيرة في الحسينية وفي المدينة. ذات مرّة أتى «جواد بخت شكوهي» وقد اشترى خاتمًا. قال: «لقد دفعت في مقابل هذا الخاتم 500 تومان!»، أجبته: «يا جواد! ما هذا الذي اشتريت؟!».

- كلا! أنت لا تعلم أنّه ...

- يا هذا! أنت لا تعلم! أساسًا لا يعتبرون هذا الشيء في تبريز خاتمًا. لقد خدعوك.

ذهبنا إلى سوق الإمام الرضا عليه السلام، وبعد شجار أرجعنا الخاتم. راح جواد ينظر إلى الألعاب كالأولاد الصغار. كان يحبّ أيضًا أن يشتري لعبة. ربّما تكلّم عن ذلك مازحًا، ولكنه حقًّا كان يحبّ الألعاب.

في الأيّام الثلاثة أو الأربعة تلك صرفنا أكثر أموالنا. أحببت أن أنفق أيضًا شيئًا على الشباب، أولئك الذين أعلم أنّ أكثرهم سيرحلون. كنت أستطيع أن أتنبأ أيّ عاقبة ستكون من نصيبهم، ولم يمضِ وقت طويل حتى استُجيب دعاؤهم في الحرم. في ذلك الوقت لم أغفل لحظة واحدة عن المنام الذي حلمت به، ورحت أعدّ الأيام لأرى متى ستنتهي تلك الأيام الخمسة عشر وأصل إلى أمير.

في مشهد، وحرم الإمام الرضا عليه السلام المملوء بالصفاء، أقيمت مراسم العزاء لعدّة مرات، وتشكّلت مواكب اللطم «شاخس»، وكانت حال هؤلاء الشباب أكثر جاذبية أيضًا في تلك المراسم. ذهبنا أيضًا إلى «جنة الرضا عليه السلام»، وأردنا زيارة روضة شهداء مشهد، لكن لم نوفّق لذلك.

اتصل الأخ جلال زاهدي من مشهد بمقرّ القيادة ليطلب منهم إرسال المزيد من المال إلينا بعد أن نفد مالنا، لكن، أتاه الجواب بأن يتحرّك في ذلك اليوم تحديدًا من مشهد، ويرجع إلى المنطقة فلدينا عمل! ما إن انتشر الخبر حتى علا ضجيج الشباب. ذهبنا إلى الحرم بحثًا عن البقية. لم يشبع أحد من الزيارة بعد. لقد أتوا إلى هنا وهم يحسبون أنّهم سيمكثون لمدّة عشرة أيام، وها هو سفرهم يختصر إلى أربعة أيام. استغرق جمع الشباب وقتًا كثيرًا. كلّ من يصل إلى الأخ جلال كان يتمتم غاضبًا: «أيّ سفر هذا إلى مشهد؟! لماذا أحضرتمونا أساسًا!... وهل يمكن زيارة مشهد بثلاثة أيام فقط؟!». على كلّ حال ودّعنا الإمام الرضا عليه السلام وتحركت الحافلة. كان علينا أن نتدبّر أمرنا بما تبقّى لدينا من مال حتى الوصول إلى مقرّ الفرقة.

وصلنا ليلًا إلى إحدى مدن الشمال الخضراء. ترجّلنا في منطقة حرجية يمرّ في وسطها نهر جميل لنتناول طعام العشاء. بداية الأمر أقمنا الأذان والصلاة، ثم حضّرنا سمك التونة للعشاء. منذ أن صدر

الأمر بالعودة إلى المنطقة بدأ الأشـخاص الذين يعلمون بمنامي وقضية الخمسـة عشر يومًا يرمقونني بنظرات خاصّة، وراح آقاقلي يحوم حولي وأنا أصلّي، وأهدر فيلمه بالتقاط الكثير من الصور لي..!

كانت الطبيعة هناك مملوءة بالصـفاء وكذلك حال الشباب. صحيح أنّ الطعـام كان قليـلًا ولكنّـه لذيذ. جلنـا في المكان قليلًا مسـتخدمين مصـباحًا يدويًّا للإنارة، ثم انطلقنا، لكنّ الضباب كان كثيفًا لدرجة أنّ الحافلات اضطرّت للتحرّك ببطء. وصل الأمر لدرجة أن قال السائقون لا يمكن الاستمرار بالقيادة بهذه الحال. تقرّر أن نبقى في مدينة صغيرة علـى آخـر الطريق. كان ذلـك المكان مليئًا بأشـجار الليمـون والأفندي والحامض، ومنظر أشـجار البرتقال المتناثـرة على جوانب الطريق كان جميـلًا وخلابًا بالنسـبة إلينا نحن الذين نشـأنا في منطقـة باردة. لقد استمتعنا بكلّ ذلك الجمال. شيئًا فشيئًا تجمّع الناس حولنا وعرفوا أنّنا من تبريز ومن عناصـر فرقة عاشـوراء. عاملونا بمحبّة ولطف كبيرين حتى خجلنا من الذهاب إلى دكاكينهم لشـراء أيّ شيء لأنّهم أساسًا لم يقبلوا بأخذ المال منا. في تلك الليلة حللنا ضيوفًا على كرم أولئك الناس الطيّبين، ثم تناولنا فطورنا وانطلقنا من دون أن نصرف ريالًا واحدًا[1].

قرابة الظهر وصـلنا إلى طهران، وتوقفت الحافلات أمام مطعم يعدّ الأرز بالكبـاب. قالوا لنا: «ليأخذ كلّ شـخص سـيخًا واحـدًا من الكباب وقنينة مرطبات. لا تطلبوا أكثر فلا نملك مالًا كافيًا!». بهذا الشـكل تبلغ تكلفة غداء كلّ شخص 70 تومانًا، وكان المال الذي بحوزتنا يكفي في هذه الحال. لكنّ أحدًا لم يصغ لهذا الكلام، وبدأ كلّ شخص بطلب ما يشتهي. لم يكن باليد حيلة. قال آقاقلي:«لا بأس بذلك! سـآخذ مالًا ممن يملكونه

1 – قاموا أيضًا بخدمة الحافلتين اللتين لحقتا بنا، وقد اصطحبت عوائل شهداء تلك المدينة الإخوة إلى أحد قصور فرح على شاطئ البحر وأحسنت ضيافتهم.

ونحتسبه، وما إن نصل إلى مقرّ فرقتنا سأرجع مالهم إليهم». جلسنا إلى مائدة الطعام. هنا، لفتتني سيارة مرسيدس من الطراز الجديد تتوقف ويترجل منها رجل يرتدي بدلة بيضاء وربطة عنق حمراء ويدخل إلى المطعم. كنت والأخ جلال جالسين إلى طاولة بالقرب من باب المطعم. لا أعلم لم توجه إليّ ذلك الرجل مباشرة: «أيّها السيّد!».

- أجل!

- من هو مسؤولكم؟!

- أيّ خدمة؟

- أريده في مسألة!

لم أرد أول الأمر أن أعرّفه إلى الأخ جلال. أردت أن أرى ماذا يريد منا. قلت له: «تفضّل!».

- أريد أن أدفع ثمن طعامكم!

تفاجأت عندما سمعت هذا الكلام. أشرت إلى الأخ جلال، وقلت له هذا الأخ هو مسؤولنا. قال الأخ جلال: «نحن شاكرون لك، لكننا نملك مالًا ونحن سنحاسب».

- أنا لا أقول لديكم مالٌ أو ليس لديكم مال. إنّما أطلب الإذن منكم لأدفع ثمن طعامكم.

لم يكن الأخ جلال يريد الموافقة، ولكن أجبرنا ذلك الرجل على ذلك بتمنّيه علينا وإصراره، وقال فليتفضّل الشباب ويطلبوا ما يريدون. مرّة أخرى قلنا للشباب: «ليأكل كلّ شخص ما يحلو له!».

أثناء الوداع قال ذلك الرجل السخيّ: «يبدو أنّكم ذاهبون باتجاه الأهواز. كلّ مصاريفكم هي على عاتقي حتى تصلوا إلى هناك!».

- شكرًا لك! لقد تحمّلت أعباء الغداء!

- كلا! إنّ مصروفكم إلى أن تصلوا الأهواز خذوه من هذه الحقيبة

بلغ ما بلغ!

تمنّـى علينا كثيرًا، إلى أن أخذنا في نهاية الأمر عدة وريقات من فئة الألـف تومان. طلب منّـا أن نأخذ أكثر لكنّنا قلنا لـه يكفي هذا المقدار. ودّعناه وذهب. تعجّبنا لما حدث، فعندما نفدَ مالنا وكنّا جميعنا جائعين، كان مثيرًا للعجب وصول ذلك الرجل في تلك الظروف، ومحاسن الأخلاق التي ظهرت منه والخدمة الحسنة!

عندما وصـلنا إلى مقـرّ الفرقة كانت الحافلات الأخرى قد وصـلت أيضًـا. راحوا يتفاخرون أمام شبابنا ببقائهم في القصر على الشاطئ، وبحسن ضيافة أهالي تلك المدينة الشمالية. نحن أيضًا أخبرناهم قصة الرجل الذي أرسـله الله تعالى حتى يخدمنا بذاك الشـكل. بالنسبة إلى الجميـع كانت ضـيافة عوائل الشـهداء وأهالي تلك المدينـة أمرًا عاديًّا أمـام التعامل غـير المتوقّع من شـخص لا يظهر من شـكله ومظهره أنّه مهتمٌّ بالمجاهدين أساسًا.

▫

لا تقارَن الفرقة اليوم مع حالها قبل أسبوع. عندما ذهبنا إلى مشهد كان الهدوء يعمّ الأرجـاء، أمّـا الآن فلا يكاد أحد يصل حتى يتناهى إلى مسامعه عبارة: «اَسرعوا!». ترجّلنا من الحافلة وتجاذبنا أطراف الحديث قليلًا مع أصدقائنا، ثمّ هرعنا لارتداء ثيابنا وتجهيز أنفسنا. لم يكن أحد حتى تلك اللحظة يعلم بشكل قاطع إن كان ثمّة عملية ستنفّذ أم لا؟. قرابة الظهر استلمنا أسلحتنا، وحضَرَ كافّة عناصر كتيبة الامام الحسين عليه السلام. أصبح الحديث عن العملية جديًّا الآن، وصدر القرار بنقلنا على وجه السرعة إلى منطقة العمليات. في ذلك اليوم كان قد انقضى 13 يومًا على رؤياي لأمير: «هل حقًا سأذهب بعد يومين إلى أمير!؟».

▫

عصـرًا ركبنا الحافلات وتوجّهنا إلى جانب نهر أروند. نفس منطقة عملية «والفجر8»، ونفس القرية التي مكثنا فيها أنا وأمير وعناصر كتيبة «أبو الفضـل» قبل تلك العملية. تقرّر ليلًا أن نبقى هناك. وأيّ ذكرى لم تحضـرني تلك الليلـة... بتّ على حال عجيبة وقد لاحت للجميع أيضًـا. بدأت المدفعية العراقية تقصف المنطقة، وقرابة الصباح اشتدّت غزارة النيران أكثر.

تقرّر أن نذهب صـباحًا إلى شاطئ نهر أروند بالحافلات الصغيرة. بـدأت القصــة. لم يوافـق أيٌّ مِن الشـباب على الجلوس إلى جانبي في الحافلـة! وفتـح باب المـزاح: «انظـر! يمكن أن تقـع هـذه القذيفة على حافلتنا الآن بسـبب السـيّد!». وأنا أسـمع هذا الكلام ونضحك جميعًا. أمّــا أنــا فأجيبهم: «يـا عزيزي! حتــى الآن بقي يومان لكـي تكتمل عدّة الخمسة عشـر يومًا! وأنتم ترسـلونني منذ الآن إلى هناك!». كنت أتفوّه بهذه الكلمات وأكاد أصـدّق أنّ شيئًا ما سيحدث. كانت قذائف المدفعية تنفجر هنا وهناك قرب الحافلة، لكنّنا وصلنا سالمين.

لاحظنــا أنّ الحركـة بالقـرب من نهـر أرونـد لافتة للنظـر. انتقلنا بالقــوارب إلى الضـفة الأخرى من النهر لنسـتقرّ في الدشـم هناك. لم نأمـن مـن البعوض، مـع أنّهم وزعـوا مراهم ضـد اللسـع، قمنا بدهن الأجزاء التي لم تغطّها الثياب من جسمنا بها عسى أن لا يقترب البعوض منا، لكن بلا فائدة.

تقـرّر أن نبقـى هناك حتى الليل. بالإضــافة إلى فصيلنا–الفصـيل الأول– كان هناك أيضًــا عناصر الفصيلين الثاني والثالث. رأيت هناك أيضًا علي تيربارتشي، رسول أفتابي، هاشم تاري[1] وعدد آخر.

1 – الاثنان من المشــاغبين في الجبهة. كنّا معًا في الثكنة؛ وقد مزّق رسـول جزءًا من سـقف الخيمة بمقـدار يسـمح لـه بإخراج رأسـه منـه. وعندما يحل الصـباح يمـد رأسـه خارجًا ويبدأ بالصـياح؛ "كوكوكوكو كوكو!" فيجيبه هاشم من خيمة أخرى! طابت ذكراه.

عصـرًا وصـلَنا خبرٌ محزن. لقد استشهد «محمد سبزي» نائب قائد كتيبة الإمام الحسـين عليه السلام والسـيد «محمد وطني»، ومـير حيدر بايدار واثنان آخران. أحزن خبر استشـهادهم الجميع، حتى إنّ بعض الشباب راحوا يقولون: «بعد هذا لن تُنفّذ العملية!».

هدفـت عملية «يـا مهدي» إلى تطهـير ذلك الجناح الـذي بقي تحت سـيطرة العدو في عملية «والفجر8». أراد العراق أن يجفّف تلك المنطقة، ونحـن كنّا نريد أن نأخذ زمام المبادرة قبله. تقدّمت الفرق الموجودة على الجناحين إلى الأمام. وبقي العدو متمركزًا وسـط قواتنا في منطقة تمتدّ إلى 3 كلم حيث اسـتحدث سـواتر اسـتقرّ فيها الكثير من عناصره. إلى جانب مصـنع الملح يقع «مثلّث الموت»[1]، المكان الذي كان دائمًا تحت نظر العدو وعرضـة لنيرانه الغزيرة. يصـل مثلّث الموت من إحدى جهاته إلى منطقـة فرقة «كربلاء25»، ومـن جهة ثانية إلى محـور فرقتنا. لقد بنى الإخـوة جسـرين فوق نهـر أروند، أحدهمـا في منطقة فرقتي عاشـوراء و«كربلاء25»، والآخر في منطقة فرقة الإمام الرضا عليه السلام. عبرنا بالقارب بمحاذاة هذه الجسور لنصل إلى الطرف الآخر من النهر. كانت منطقتنا أسوأ من منطقة العراقيين؛ فالنهر من خلفنا، والمياه المالحة تغطّي الأرض حتى الخطّ الدفاعي الأوّل للعراقيين بارتفاع حوالي نصف المتر.

أنجزت التشـكيلات. أعطونا رحيم غفاري بصـفة رامي رشاش. ما زالـت مشـاغباته عالقـة في ذهني. جاء أحـد الإخوة وقـال: «لا تعطونا هـذا الرامي! لا يمكن الاعتماد عليه!». في ذلك اليوم وفي تلك الظروف، أوكلوا إليّ مسـؤولية قيادة الفصيل. لم أرغب بالموافقة، لكن، استجدّت معطيات خاصة آنذاك وقبلت[2].

لقد مضـى حتى ذلك الوقت 14 ليلة على رؤياي. كانت حالي عجيبة،

1 – ورد في الفصل الخامس عشر بعض التفصيل حول مثلث الموت.

2 – لم أكن أعلم أنه بعد ساعات ستتغير الأوضاع بشكل أضطر فيه إلى توجيه وقيادة محور السرية أيضًا.

ورحت أفكّر ماذا سيحدث في اليوم الخامس عشر؟!

نظرت إلى العناصر. كان فصيلنا فصيلًا جيّدًا؛ رحيم باغبان معاون قائد الفصيل، الأخ صادقي أحد رماة الـB7 في الفصيل يساعده بورناجي، كريمي قناص، وكان بيننا أيضًا شخصان ابنا عمّ من مدينة «سراب» مؤمنان وجادّان، ويُدعى أحدهما «حجت» وهو طالب علوم دينية. أرسلوا إلى فصيلنا شخصًا يدعى «حسين»، وهو من بلدة «بندر شرفخانه». برزت في سائر الفصائل أيضًا شخصيات أمثال السيد «محمد وطني خطيبي» وهو مسؤول فصيل، ويتمتّع بالأهلية الكاملة لقيادة كتيبة أيضًا، وقد استشهد سريعًا، آقاقلي يوسف بور و... تقرّر أن نبقى ليلًا وننطلق في اليوم التالي، أي في اليوم الخامس عشر!

▫

تحرّكنا صباح اليوم الخامس عشر ووصلنا ظهرًا إلى الخطّ، كان عبارة عن جادّة حفروا بالقرب منها قناة طولها حوالي الكيلومتر الواحد، وامتدّت إلى محور فرقة «كربلاء25» ومحور فرقتنا. كانت القناة مكشوفة لنيران العدو، وخطّنا قريبًا من مثلّث الموت. في الواقع كان خطّ التماس طريقًا، تموضعنا نحن في طرف منها والعراقيون في طرفها الآخر، وقد صُبّت كومات من التراب على هذه الطريق، ولم يتمّ توزيعها فبقيت على حالها، وأصبحت تبدو وكأنّها تلال صغيرة ملتصقة بعضها ببعض، وتحوّلت إلى مكامن لنا وللعدو. أحيانًا كان العدو يرسل عناصره إلى تلك التلال وأحيانًا أخرى نفعل نحن الأمر عينه. وهناك استشهد محمد سبزي، والسيد محمد وطني قبل يوم أو يومين، وقد أثّرت هذه الحادثة سلبًا على معنويات الجميع. لقد تقدّموا إلى الأمام ليروا المنطقة ويتعرّفوا إليها عن قرب، فوقعوا في كمين العدو وقضي عليهم. كانت المسافة بيننا وبين العراقيين حوالي 100 م فقط. وبقينا في

مكان كهذا ريثما نبدأ العملية ليلًا.

كما العادة، تكرّرت مشاهد ما قبل العملية. بعض منشغل بكتابة وصاياه، وبعض يختلي بنفسه، وآخرون يودّع بعضهم بعضًا. كم كان مشهودًا طلب المسامحة وتقبيل الإخوة والوداع الأخير.

▫

ارتفع صوت الأذان عند غروب ذلك اليوم الربيعي. أدّينا صلاتنا وتجهّزنا مباشرة للانطلاق لتنفيذ العملية التي حملت اسم «يا مهدي». تحرّكت كتيبة «علي الأكبر» قبلنا. اقتضت الخطّة أن نساعد هذه الكتيبة التي ستصطدم بالعدو قبلنا. في الجهة اليسرى للمنطقة تحرّكت إحدى سرايا كتيبة الإمام الحسين عليه السلام بقيادة مصطفى بيشقدم. أخذنا القوات باتجاه القناة. أثناء المسير كانت عيني على الشباب عندما لاحظت غياب محمد نصرتي. بحثت في الأرجاء، لكنّني لم أجده. أكملت مسيري مضطرًّا. في اللحظات الأخيرة، رأيت شابًّا صغير البنية يتوجّه نحونا راكضًا. إنّه محمد. صحت في وجهه غاضبًا: «أين كنت؟».

– سيّد! أردت أن أصلّي ركعتين. فأنا الليلة سأستشهد!

– لا تتفوّه بهذا الجنون! تحرّك!

أنّبته قليلًا. وتمتمت قائلًا: «مرّة أخرى، لم يحدث شيء ويفكرون بالشهادة!»، لكن كان قلبي يشهد أنّه يقول الصدق. ما زلت أذكر بكاءه عند الضريح الشريف في حرم الإمام الرضا عليه السلام قبل أيام عدّة. وخطر على بالي أنّ لحظات استجابة تلك الأدعية قد حان موعدها.

كانت لحظة التحرّك نحو العدو. انطلقنا وقد بدأت الاشتباكات وأخذت أصوات الانفجارات تشتدّ شيئًا فشيئًا. تقدّم أحد عناصر المعلومات طابورنا وخلفه وضعتُ عنصرًا سمينًا، ثم أنا، يتبعني بقية

العناصـر. الشـخص الثاني في الطابور كان من القلّة الذين لا يتقدّمون إلى الأمـام في مراحـل كهذه، فوضـعته أمامي متعمّدًا حتى لا يسـتطيع الفرار. كان عناصـر كتيبة «علي الأكبر» قد تقدّموا قبلنا، وها نحن نرى الآن في الطريق عناصرهم الذين استشهدوا أو أصيبوا بالجراح. عجيبة تلك المشـاهد! أحواض المياه المالحة تحيط بنا والجرحى توزّعوا في هذه الأحواض وقد قطعت سـاق بعضهم، ووضع بعضهم كوفيّته في فمه حتى لا يلفت صـراخه انتباه العدو في بدايات الهجوم. لن أنسـى مظلوميّتهم أبـدًا... بدأت كتيبة «علي الأكبر» الاشـتباك مع العدو، وتمكّن ثلاثة من عناصـرها من اخـتراق منطقة العراقيـين من إحدى الزوايـا، ولكنهم لم يسـتطيعوا إنجـاز الكثير. كان رشـاش العـدو الثنائي يعمـل أمامنا بالضـبط. اسـتلقينا في القناة ننتظر أن يحوِّلوا الثنائي إلى جهة أخرى لننهض سـريعًا. في تلك اللحظات، راقبت المنطقة جيدًا. لم تكن تشـبه المناطـق الأخـرى على الإطلاق؛ الأرضـ مغطاة بماء الملـح المذاب، وفي حـال النهوض، علينـا أن نركض حتى خـطّ دفاع العدو بـدون توقف إذ لم يكن بالإمكان الانبطاح أرضًـا. كان قلبي يخفق بشـكل فظيع، ورحت أدعـو الله سـبحانه أن لا يرانا رامي الثنائـي وإلّا انتهى أمر الجميع. في تلك اللحظات المقلقة، سـمعت صـوت جهاز لاسـلكي. لم أعرف من هم لكنّني غضـبت، ورحت أهمس بشـفتي أن: «يا هذا! اخفضـوا رؤوسكم، لا تكشـفوا محورنا!». عندما دقّقت أكثر وجدت أنّه أمين شـريعتي قائد فرقتنـا واثنان من عناصـر البريـد. ارتفعت معنوياتـي عندما رأيته في السـاحة منذ الدقائق الأولى للهجوم وقبـل أن نقتحم خطّ العدو. لاحظ الشباب وجوده أيضًا، فشعروا جميعًا بالراحة. خلال ثوان تحوّلت نيران الثنائـي إلى جهـة محور فرقة كربلاء25. نهضـت سـريعًا وصـحت في الإخوة أيضًـا أن: «انهضـوا لنذهب!». كان عنصـر المعلومات يركض في أول الطابور مفعمًا بالنشـاط. اسـتطاع أن يعبر جسر المشاه فوق حوض

الملح، لكنّ الشخص التالي انزلقت قدمه وغاصت في الوحل وعلق. في تلك اللحظات المضطربة حيث كنت قلقًا من عودة الرشاش الثنائي إلى الرماية باتجاهنا توقّف الرتل عن الحركة. مهما حاول ذلك الشخص لم يستطع أن يسحب قدمه من الوحل.

- أسرع، ارم بنفسك أرضًا حتى يعبر الشباب.

كنت مستعجلًا وهو يسألني: «سيّد! ماذا أفعل؟!».

لم يكن يريد الوقوع في داخل الحوض فركلته بقدمي ووقع! لم يكن لديّ أيّ حل آخر ولم يكن بالإمكان أن نتأخر بسببه. أردت الوصول بالشباب سريعًا إلى خطّ الدفاع العراقي، وإن حصل أمر ما للشباب خلال هذا الوقت أو انتبه العراقيون إلى وجودنا سوف لن يكون لوصولنا إلى هناك أيّ فائدة، وسنضطر إلى مواجهة العدو من دشمة إلى دشمة. في تلك الأثناء كنت في طريقنا نحو خطّ دفاع العدو أسمع الآهات الضعيفة للجرحى، وأخجل من كلّ تلك الشهامة وذلك الإيثار. قريبًا من الخطّ، انتبه رامي الثنائي إلى وجودنا فاستدار برشاشه نحونا، ولكن فات الاوان كنّا قد وصلنا إلى خطّ العدو. رأيت قائد السرية التي اشتبكت قبلنا عند الخطّ. شرح لي تفاصيل المنطقة بشكل سريع وبدأنا بعمليات التطهير. لكن، كان عددنا قليلًا ، أضف إلى ذلك أن 8 من شبابنا استشهدوا أو جرحوا منذ بداية الهجوم. لقد أبدى العراقيون مقاومة كبيرة في ذلك الجزء، وكان طبيعيًّا أن يقاوموا بكلّ وجودهم في تلك القناة، فمنطقتهم الخلفية عبارة عن مستنقعات ووحول، ونيراننا قطعت طريق الدعم عنهم. ولأن المعركة بدأت ليلًا ولا نستطيع أن نأسر أحدًا، رحنا نرمي كلّ عنصر نراه.

من جهة أخرى كانت فرقة «كربلاء25» تضغط على العراقيين.

اقتضــت الخطة أن نقوم نحن وهم بعزل القوات العراقية من الطرفين، لكنّ مقاومــة العدو الكبيرة هناك أعجزت شـباب فرقة «كربلاء25» في تلك اللحظات ما شـكّل خطرًا علينا. كان لا بدّ بأيّ شـكل من الأشـكال أن تنكسـر مقاومــة العدو في ذلــك المكان. تمتدّ هذه القناة 30 م بشـكل مسـتقيم، ثم تتعرّج في المنطقة التي يوجـد فيها العراقيون. لهذا لم يعد لعملية التطهير أيّ فائدة، فقد كان كلّ شخص يخرج من القناة يتعرّض لإطلاق النار حتمًا. بسـبب حجم النيران الكثيف لم أستطع أن أقدّر كم هو عدد العراقيين الذين تجمّعوا داخل القناة. تعسّـرت الأمور للحظات وأُسـقط في أيدينــا! لكــن، مــن بين أصــوات وضــجيج وابل الرصــاص والانفجارات، دوّى فجأة صوت في المنطقة فتبدّل المشهد. لقد أبدع شباب الإعلام في فرقة «كربلاء25» حيث عمدوا إلى إذاعة «مارش» الانتصــار عبر مكبّر الصــوت ...الله أكبر ... ليعلن بحماسـة خبر انتصــار جنود الإسـلام. ارتفعت معنوياتنا. ضـرب شباب فرقة «كربلاء25» خطّ دفاع العدو مرّة أخرى وبدأوا يتقدّمون. وتقدّمهم يعني بالطبع فرار العراقيين أكـثر فأكثر باتجاه محورنا، الأمر الذي صـعّب علينــا الموقف. حتى تلك اللحظـة حيث تقدّمنا في منطقة العدو، كنّا مضـطرّين لوضـع عدد من العناصر كحراس على طول الخطّ الذي تم تطهيره بسبب احتمال تسلُّل العراقيين هناك[1].

كان الوضــع سـيّئًا. اقتربنا من الجــزء المتعرّج من القنــاة، ولم يعد ممكنًــا التقــدّم أكثر. في ذلك المــكان جرح أحد الشـبـاب. أعرفــه. إنّه «داوود أمــير حقيــان»، بطــل المنتخب الوطنــي لكرة الطاولــة. لم تمضِ دقيقة واحدة حتى أصابت رصاصة شخصًا آخر فوقع أرضًا إلى جانبه. لم يعد ممكنًا الاسـتمرار، ركضتُ وقمتُ بتخريب إحدى دشم العراقيين

1 – لم يكن عديد كتيبتنا مكتملاً منذ البداية، أما عديد سـريتنا إذا ما كان مكتملاً يصـل مع عناصر الهندسة والإشارة والإسعاف الحربي إلى 110، بينما لم يتجاوز سوى 70 مجاهدًا.

حتى يتسنّى لي إغلاق القناة في ذلك المكان. بهذا ارتاح بالنا إلى حدٍّ ما من نيران العدو الغزيرة. أغلقنا القناة بصفّين من أكياس التدشيم، في حين بقي هذان الجريحان في تلك الجهة من القناة. ناديتهما مرات عدّة لكي يأتيا إلينا، لكنّهما لم يستطيعا الحراك.

– شباب! تعالوا إلى هنا لنرى ما يمكننا فعله.

أردت التراجع أكثر والتفكير في حلّ للعراقيين الذين احتشدوا في القناة. أتى أحد الشباب وقال: «لقد جرح الشابّ الموجود أمامنا!». كان لدينا مسعف من مرند فأرسلته إلى تلك الجهة وقلت له: «اسحب الجريح إلى هنا. أحضِره وضمّدْ جراحه هنا». ألقيت من مكاني نظرة على الجريح. لقد أَصابت رصاصة جبينه واخترقت عينه وذقنه واستقرّت في صدره. كانت حاله سيئة. أكدت على المسعف قائلًا: «لقد أغلقت القناة. أحضره إلى هنا!». ذهب المسعف ولم يصغِ لكلامي. أراد أن يضمّد جراح الجريح في مكانه، فأصيب هو نفسه في ذلك المكان؛ رصاصة اخترقت جبينه، عينه، ذقنه وصدره. حزنت لذلك. كان المكان هناك مستويًا كصفحة اليد، وكلّ من يذهب إلى هناك ويمكث ولو قليلًا يطلقون عليه النار حتمًا. قلت لشابٍّ آخر: «اذهب واسحبهما من قدميهما وأحضرهما إلى هنا». ذهب، ولكن ما إن أراد أن يرفعهما حتى أصابوه هو الآخر. كان مشهدًا مأساويًّا. بعد ذلك لم أعد أريد إرسال أحد إلى ذلك المكان، وألحّ عليّ الشباب بالقول: «سيّد! لقد جُرحوا! إنهم ينزفون!».

– ليكن! ليس باليد حيلة. لندعهم هناك!

في ذلك الجزء أيضًا كان يوجد عدّة جرحى وبحال سيئة. رأيت أحد شباب الفصيل الثاني هو «مسعود وصالي» وقد ألحقوه بنا كعنصر دعم. لا أعلم كيف أصابته الرصاصة، لكن، خرجت جميع أمعائه من بطنه واستشهد. أصيب رحيم باغبان بجراح، واستشهد مسؤول فصيل الدعم

أيضًــا. من بين شــباب فصيل الدعم كان أيضًــا «بدارم شاكري»[1] الذي جرت مشــاغباته على كلّ لســان في كتيبة الإمام الحســين عليه السلام. تعقّدت أمورنا في ذلك الموقف. بدأتُ أســمع الإخوة يتهامســون عن الانسحاب. العراقيّون أيضًــا أصــبحوا أكثر جــرأة وأرادوا أن يتقدّموا. خطرت على بــالي فكرة. قلت لحيــدر وقادر: «اذهبا أنتما الاثنــان إلى الأمام وارميا قنابل على العراقيين واشــتبكا معهم وجهًا لوجه حتى يتضاءل ضغطهم علينا وينسحبوا قليلًا إلى الوراء!».

قال كلاهما بتعجب: «سيّد! حقًّا... هل تقصد ما تقول؟!» .

– لا أمزح! اذهبا وتغلغلا بينهم واشــتبكا معهم حتى يخفّ ضــغطهم قليلًا!

كنــت أعلم أنّه عملٌ صــعب، ولكــن، لم يكن باليد حيلــة أخرى. كان علينا إمــا أن نتراجع جميعًا إلى الخلف أو أن نمنع تقدّم العراقيين حتى لو اقتضــى الأمر خســارة شخصين أو ثلاثة. وصــلت المسافة بيننا وبين العراقيــين هناك إلى حوالي 15 إلى 20 م. خرج حيدر وقادر من القناة، ولكنهما رجعا بعد دقائق يقولان: «سيّد، ذهبنا إلى الأمام، وسحبنا أمّان القنابل، ولكن وجدنا أنه إن رمينا القنابل بين كلّ هذا الحشد سيقبضون علينــا نحن الاثنــين ويخنقوننا!». كان تجمّع العراقيــين كبيرًا لدرجة أن أخاف الشــباب. لم يكــن باليد حيلــة. أردت أن أرجع نحــو الخلف عند علي تشــرتاب قائد السّــرية حتى يحــدّد لي تكليفي، ولكــن كان عليّ أن أضــع شخصًا مكاني في ذلك الجزء من القناة، الجزء الذي أغلقته قبل ذلك. ناديت «رحيم تيربارتشــي». جاء وفهم الموضــوع. قال لي بكل ثقة: «سيّد! لن أسمح لأيّ عراقي أن يمرّ من هنا ما دام فيَّ عرق ينبض. على العراقيين أن يعبروا فوق جثتي ليصلوا إلى الآخرين!».

1 – استشــهد بعد عدّة أشــهر في عملية كربلاء5، ووري الثرى في الجزء الأعلى من "وادي الرحمة". طابت ذكراه، كانت مشاغباته ترسم الضحك على الأفواه.

أبدى رحيم شجاعة عظيمة في ذلك الموقف، رحيم هذا الذي كنّا دائمًا قبل ذلك نرى منه المزاح والفكاهة. وقف وحيدًا خلف رشاشه وراح يطلق النار على كلّ من يتجرأ من العراقيين. في تلك المحنة وجدت الأخ تشرتاب بصعوبة وأخبرته بما حصل، قال لي: «افعل أنت ما بدا لك!».

- ماذا أستطيع أن أفعل، نحن هنا بحاجة إلى عناصر يتقدّمون إلى الأمام. وليس لدينا عناصر!

- نحن أيضًا لا عناصر لدينا.

انتظرت حتى جاء أيضًا قائد الكتيبة السيّد حسن شكوري. جلسنا لدقائق وتشاورنا فيما بيننا. كنّا بوضع استطاعت فيه فرقة «كربلاء25» أن تسيطر على كامل محورها ما أدى إلى تحشّد جميع العراقيين في محورنا. كان للعدو طريق ضيقة صالحة للأفراد تؤدّي بهم إلى نقاطهم الخلفية، وما عدا هذه الطريق، فإنّ كلّ الأجزاء المحيطة بمصنع الملح عبارة عن مستنقعات. هذه المسألة زادت من بأس وشدّة مقاومة العراقيين، فلا طريق لهم للانسحاب. ارتأى السيّد حسن أن نخرج من ذلك الجزء من القناة ونتراجع لنهاجم مرّة أخرى محلّ تجمّع العراقيين من الجهة المقابلة. لكن، كان لديّ وجهة نظر أخرى. قلت إنّه كنّا في الدشم وفي القناة ولم نتمكّن من التغلّب على العدو، ماذا سنستطيع أن نفعل إن تركنا القناة وخرجنا منها؟! في النهاية كان القرار أن أرجع، وأن أقوم لاحقًا بما هو مناسب بالنظر إلى الظروف الحاكمة.

رجعت وتحدّثت إلى الأخ جلال والحاج «غلام زاهدي» -الذي كانت رجله تؤلمه بعد أن تعرّضت للالتواء أثناء الركض[1]-. في تلك اللحظات الصعبة خطرت فكرة على بالي. قلت لهم: «يا حاج! إذا حصلنا على قطعتي هاون 60 ملم فإنّ جميع الأمور ستُحلّ. سنضرب العراقيين داخل

1 - أعتقد أنّه أصيب قبل ذلك برصاصة في رجله وقد ظهرت نتائجها الآن.

القناة، ثم يتقدّم شبابنا إلى الأمام!».

تركتهم وذهبت إلى الأمام وأنا أفكر بالهاون. كنت عطشًا بشدّة. في الطريق جمعت حوالي عشرة أشخاص من الذين وضعتهم حراسًا على المسار الذي تم تطهيره وأخذتهم معي إلى الأمام، ومن بينهم رسول زارع زاده، محمد نصرتي وجواد بخت شكوهي. عندما تقدّمنا إلى الأمام أكثر وقعت عيناي على بدرام. بدرام أحد أكثر شباب الفرقة شغبًا، كان صامتًا هناك. طلبت منه ماءً ووجدت أنّه لا حول له ولا قوة أساسًا.

- بدرام! ماذا! ما بك! يجب أن تكون همّة المرء عالية هنا، ليس هناك في الخلف!

أردت أن أشاكسه. لم أصدّق أنّه خائف لهذه الدرجة، لكن، قال أحد الشباب لي: «سيّد! لبدرام قصة أخرى! لقد ذهب إلى دشمة العراقيين ليرمي قنبلة داخلها، لكنّهم استطاعوا أن يأسروه ويأخذوه إلى داخل الدشمة! عندما رأى الشباب ذلك اندفعوا إلى داخل الدشمة وخلّصوه من أيديهم!». لقد كان بدرام محقًّا!

شربت قليلًا من الماء، وأخذت جميع الحراس إلى الأمام. في الطريق رأيت رحيم باغبان. ناداني: «سيّد!»، قلت له: «نعم»، وانتبهت إلى أنّ الشباب يتحدّثون عن الانسحاب. قال رحيم: «أرسلني إلى الخلف مع أحد الشباب!».

- أخ رحيم! هذا ليس ممكنًا! لسنا الآن بوارد التراجع! نحن نفكّر بالسيطرة على الخطّ!

قال رحيم كلامه وأصرّ على أن أرسله مع أحد ما إلى الخلف. قلت له: «لكن ما الذي حصل؟».

- لقد أصابت رصاصة قدمي.

- أين؟!

أراني مكان الرصاصة فما كان منّي إلا أن ركلته في مكان إصابته بالضبط، فارتفع صراخه أكثر!

– أنا أقول إنّ الشباب استشهدوا في الأمام، وأنت جُرحت فقط وتكرّر القول خذوني إلى الخلف!

شعرنا بالحزن كلانا. كان رحيم يتألّم بشدة. قال: «اقتلني في هذا المكان!»[1]. في الحقيقة كنت أنا أيضًا أستطيع أن أعود إلى الخلف في ذلك الوضع المتأزم، وهذه هي وجهة نظر القيادة، لكنّني فكّرت أن أتقدّم إلى الأمام، عسى أن تُحلّ عقدة هذه القناة الملعونة.

بعد هذا الحديث لم يفتح أحد شفتيه بالكلام عن التراجع والانسحاب. قلت للشباب: «تقدّموا جميعكم إلى الأمام! أحضروا معكم كلّ ما تملكون من قذائف الـB7 والذخائر لعلّنا نستطيع اقتحام الخطّ والسيطرة عليه!»[2]. ركضنا نحو القناة تحت نيران المدافع الغزيرة. كانت غزارة نيران المدافع شديدة من الطرفين. طبعًا لم يكن للمدافع شغل بالقناة، فقطعًا يعلم كلا الطرفين أنّها مملوءة بعناصر من الجهتين، واقتصرت المعركة في داخل القناة على الرصاص.

أثناء المسير كنت أصيح دائمًا وأشجّع الشباب على الحركة. اشتدّت الاشتباكات لحظة بعد لحظة، وصار وضعنا ميؤوسًا منه بشكل كامل.

---

1 – الآن أيضًا ما زلت ألتقي برحيم، في كلّ مرّة نتحدّث فيها عن تلك الأيام يقول: "كم أنت قاسي القلب! لو أنّك ركلتني في مكان آخر في ذلك اليوم، لقد ركلتني بشكل أحسست معه أن الدنيا دارت حول رأسي!".

2 – لاحقًا كان رسول زارع زاده يتحدث ويقول: "عندما قلتَ أحضروا كلّ ما لديكم من قذائف، جلبتُ معي عددًا من القذائف الإضافية وانطلقت، لكن، لأنّ حملي وتجهيزاتي كانت ثقيلة رميت قذيفتين على الأرض بعد أن تقدّمنا قليلًا إلى الأمام. في تلك اللحظة رآني محمد نصرتي فعلا صوته مؤنّبًا لي: "لماذا رميتها على الأرض! أعطني إياها أنا أحملها إلى الأمام!". أخذتني الدهشة!! كان محمد صغير البنية وقد انحنى بهيكله ذاك مع ما يحمل من تجهيزات وحوالي 7 قذائف أحضرها معه، وبذل جهدًا ليلتقط القذيفتين. كان عمل نصرتي هذا عظيمًا عندي. أخذت منه القذائف بسرعة وقلت أنا آخذهم بنفسي.

عندمـا أدرك العراقيون أنّنا لا نسـتطيع التقدّم أكثر من هذا في القناة، أصـبحوا أكـثر جـرأة وبـدأوا بالتحـرك بوقاحـة اتجاهنـا. كان رحيم تيربارتشـي وباقي الإخوة مشـغولين كثيرًا. عندما أدركت نية العراقيين أرسـلت «حجت» وعدّة أشخاص آخرين إلى جانب القناة وأوصيتهم أن: «لا تسمحوا للعراقيين أن يتقدّموا إلى الأمام». بدأ الإخوة بالاشتباك وأنا عدت إلى الخلف لتنظيم وضعية الشباب في القناة. في تلك الليلة ركضت وصرخت حتى سمع صوتي كلّ الإخوة[1]. أثناء هذه الجولات والاشتباكات كنت أرى الخسائر التي لحقت بنا، وأدوس بدون انتباه، على أيدي وأرجل الذيـن وقعوا في القناة. اسـتنزفنا العراقيون لأكثر من سـاعتين وبدأت معنويات أفرادنا تتراجع. لم نعلم شيئًا عن معنويات العراقيين، في حين كنّا نرى مدى عنادهم. في تلك اللحظات جاء علي تشـرتاب وسـأل عن الوضع في المقدّمة فأخبرته أنّني أغلقت القناة.

- أستطيع أن أذهب وأستطلع المكان هناك.

تقدّم علي إلى الأمام ولم أعلم أنّ ثقبًا صغيرًا بقي بين الأكياس أثناء إغلاق القناة فنال نصـيبه هناك-رصاصـة واحدة- ليرجع بعد دقائق عدة وهو يعرج.

- ماذا حصل؟ إنّك تعرج!

- لا شيء! لقد أصابتني رصاصة من القناة التي أغلقتها أنت!

بدأ اليأس يتسـلّل إلى الجميع. فها هم عناصـر مصـطفى بيشقدم يخوضـون اشـتباكات في الطرف الآخر، ولا قوات دعم أخرى في الخطّ

1 - لاحقًا تحدث داوود «أمير» حقيقيان- الذي كان عضـوًا في المنتخب الوطني لكرة المضـرب، وقد جرح تلك الليلة وسـقط أرضًـا أمـام العدو- تحدث عما جـرى في تلك الليلة قائلاً: "لأن الرصاصـة أصابت رأسي ووجهي لم أكن أرى شيئًا. كنت كلما أسمع صوت رصاصة قريبة أعتقد أن العراقيين قد أتوا ليطلقوا علينا رصاصة الرحمة إذ سمعت قبل ذلك كلامًا عن انسحاب الشباب، ولكن عندما كنت أسمع صراخ السيد نور الدين كانت معنوياتي ترتفع وأقول في نفسي حيث يوجد هذا الرجل لا يستطيع أحد أن يطلق علينا رصاصة الرحمة!".

يرسلونها لمساندتنا. أيضًا مرّة أخرى بدأت تعلو همساتٌ بالانسحاب. كنت أتحرّك بشكل دائم في القناة؛ أذهب إلى الأمام لأطّلع على الوضع وأرجع إلى الخلف لكي أجد حلًّا. أهرول بين الخوف والأمل، ولم أكن مستعدًّا لأترك القناة. في تلك الظروف انصرف ذهني مرّة أخرى إلى ضرورة استخدام الهاون. فجأة تذكّرت الهاون الذي رأيته إلى جانب رامي الرشاش. لم أنتظر وركضت مسرعًا نحوه. التقطته. كان مخزن الذخائر أيضًا قريبًا من هناك وقد وضع العراقيون قبل ذلك قذائف الهاون في الأكياس. التقطت الهاون وحملت كيس ذخائر على كتفي. كان ثقيلًا، ولكن في تلك اللحظة تعلّقت كلّ آمالنا عليه. رحت أركض إلى الخطّ الخلفي ولم أستطع أن أرى في ظلمة القناة أيدي وأرجل الشباب وهي تسحق تحت قدميّ، هل هو شهيد أو جريح أو أحد الإخوة المنتشرين في القناة، وبين التعب واليأس يطلق وابلًا من الرصاص. وضعت الهاون على الأرض إلى جانب الأخ زاهدي. جاء أيضًا الحاج غلام وصديقه، وضعنا الهاون وجهّزناه، وما إن أردنا أن نضع أوّل قذيفة حتى انتبهنا إلى أنّ شظية أصابت رأسه فلم يعد صالحًا للاستخدام! ساءت أحوالنا وشعرنا بالضيق. في تلك اللحظة تذكّرت أنّني رأيت هاونًا في جهة العراقيين قبل إغلاق القناة. تقدّمت في القناة رغم التعب. ما زال رحيم جالسًا مع رشاشه في النقطة التي أغلقت عندها القناة، ويشتبك مع العدو، إضافة إلى قادر وعدد آخر من الأفراد. ألقيت نظرة على الطرف الآخر من القناة، رأيت أنّ الهاون يبعد عنّا مسافة حوالي 15 م، وكان أقرب إلى العراقيين منه إلينا. قلت: «أنا ذاهب نحو العراقيين لأحضر ذلك الهاون، غطّوني أنتم بالنيران...».

خاف الشباب وأصابهم القلق وحاولوا أن يثنوني عن الأمر.

– كلا يا سيّد! قطعًا سيرمونك بالرصاص.

– لا تذهب! يستحيل أن تصل سالمًا إلى الهاون!

كلّ شخص قال شيئًا من هذا القبيل. أنا نفسي كنت أتوقّع. حتى إنّني أعلم أنّه يمكن أن أقع أسيرًا في أيدي العراقيين. فأنا لم أحمل سلاحًا لأكون طليق اليدين، لكن، ليس ثمّة وسيلة أخرى لحلّ قضية القناة. مرّة أخرى طلبت من الشباب تغطيتي بالنار كي أستطيع الوصول إلى الهاون. أساسًا لم أعد أفكر بشيء آخر سوى الهاون، ولا حتى بالمنام وكلام «أمير» واليوم الخامس عشر!

خلال لحظة قفزت إلى الجهة الأخرى من فوق الساتر، أحنيت ظهري وركضت مسرعًا نحو العراقيين. التفتوا إليّ، إلا أنّ كثافة النار التي رماها الشباب على الجزء المتعرّج من القناة لم تسمح لأحد منهم بأن يرفع رأسه ويستهدفني، وكان رصاص العدو العشوائي يعبر متحيرًا من حولي ...

انقطع نفسي حتى وصلت إلى الهاون! أخذته وركضت باتجاه تموضع شبابنا وقد امتزج كلّ وجودي بالتعب والخوف والأمل والتكليف. قفزت من فوق الأكياس لاهثًا ووصلت إلى مكان تموضعنا. كنت مستعجلًا لأنقل الهاون إلى الخلف وأجهّزه. مرّة أخرى عبرت مضطرًا فوق الجرحى والشهداء حتى أستبدل الهاون القديم بالجديد. تهيّأت كلّ الأمور لإطلاق أول قذيفة. كانت المسافة مع العدو حوالي 40م، واستخدام الهاون في تلك الظروف يُعدّ مخاطرة كبيرة، خصوصًا القذيفة الأولى التي تعتبر أهمّ قذيفة ويمكن تصحيح الرماية من خلالها. ربّضنا الهاون على الأرض بزاوية قائمة تقريبًا، وأرسلنا عامل إشارتنا إلى الأمام ليقوم بعملية الرصد. أطلقنا القذيفة الأولى فارتفعت في السماء ... خفنا من أن ترجع أدراجها وتقع فوق رؤوسنا ونهلك في مكاننا! أخيرًا ارتفع صوت انفجار على مقربة منا. ذهبنا قلقين إلى محلّ تموضع عامل الإشارة لنطمئن إليه. ما إن رآني حتى قال: «سيّد! لقد وقعت القذيفة إلى جانبي! انظر ماذا حل بي!». أصيب المسكين بجراح جراء انفجار القذيفة، واستحال جهازه اللاسيلكي إلى قطع صغيرة! قلت: «في المقابل استطعنا تحديد

زاوية الرمي». أطلقنا القذيفة الثانية ووقعت أمام رامي الرشاش. لم نزل قلقين من أن تصيب قذائف الهاون شبابنا بسوء. القذيفة الثالثة كانت أفضل من السابقتين ووقعت في جهة العراقيين. الرابعة، الخامسة، السادسة و... راح الحاج غلام وصديقه يطلقون القذائف وأنا أحضّر الذخائر لهم من الأكياس. تساقطت قذائف الهاون في القناة الواحدة تلو الأخرى. خلال دقائق عدة بدأت تهدأ نيران العراقيين شيئًا فشيئًا، أما نحن فلم نكفّ عن إطلاق القذائف. تعلّقت كلّ آمالنا على قذائف الهاون هذه. رمينا حوالي 80 قذيفة داخل قناة العراقيين! رمينا إلى درجة أصبح الهاون ساخنًا، ولم يبقَ إلا القليل حتى ينفجر هو نفسه. يبدو أنّ العراقيين تشتّتوا بالكامل.

في ذلك الوقت وصل فصيل «رحيم خطيبي»- الذي كان مسؤوله قبل ذلك مصطفى بيشقدم- لمساندتنا، فالتقطنا أنفاسنا قليلًا. تجهّزنا للتّحرك من النقطة، واتُخذ القرار بإطلاق عدّة قذائف B7 قبل أن نتحرّك. خرج رماة الـB7 من القناة واستهدفوا العدو من طرفيها. رأيت أحد شبان التعبئة -وكان يافعًا صغير البنية- يوصل قذائف الـB7 إلى الرماة. رآه رامي الرشاش العراقي وأطلق عليه النار. لقد أصابت جسده أمام أعيننا المذهولة حوالي 18 رصاصة! كان المشهد كبعض الأفلام السينمائية بالضبط، الرصاصات تصيب جسده النحيف فيهتزّ بعد كلّ إصابة، لكنّه لم يقع إلى الأرض وظلّ يمسك بقذائف الـB7 بيديه ولا يسمح بسقوطها أرضًا! لم يكفّ الرشاش العراقي عن رمايته. شاهد الإخوة ما يحدث، فلم يستطع محمد نصرتي التحمّل وقام لكي يطلق النار على رامي الرشاش العراقي، ولكنهم أصابوه هو الآخر. تأكّدت أنّ كليهما قد استشهد. في تلك الأثناء هجم الشباب باتجاه العراقيين بنداء «اللّه أكبر». استأنف رماة الـB7 الرماية على العراقيين في القناة. هَدَفْنا إلى إخراج من تبقّى من العراقيين في القناة ليذهبوا باتجاه المستنقعات ونجحنا في

هذا العمل. كان رحيم وقادر وحيدر وشـباب الفصـيل الذين التحقوا بنا في وقت متأخر يركضون إلى الأمام، لكن، لم أقدر على الحركة من شدّة التعب. لقد ركضت حتى تلك اللحظة حتى رحت ألهث ولم أعد أسيطر على قدميّ، لذلك بقيت في مكاني. فجأة سـطع الضـوء في الأرجاء فقد أطلق العراقيون قنبلة مضـيئة. ناداني الأخ زاهدي: «نور الدين! انظر هناك». مـا إن أخرجت رأسـي من القناة حتى رأيت مشـهدًا عجيبًـا؛ العراقيون يفرون أرتالًا باتجاه المستنقعات. كان عددهم كبيرًا، ما أفرح الجميع. في تلك الأثناء رأيت رسول يطلق النار، ولكن هذه المرّة في الهواء.

- رسول! لِمَ تفعل ذلك؟!

- من فرحي!

كان مشـهدًا حماسـيًا حقًّا. خضـنا في تلك القناة طوال الليل معركة حقيقيـة بكلّ ما للكلمة مـن معنى، والآن رمينا بالعدو نحو المسـتنقعات. تحوّلـت الرشاشـات نحو السـهل؛ لم يكن للعراقيين مـكان ليحتموا فيه. وبسبب المعركة القاسية التي واجهنا فيها العدو لم يكن أحد يفكّر بعملية الأسر. راح جميع الشباب يرمون الرصاص ويتقدّمون إلى الأمام. اتفقنا سابقًا مع فرقة «كربلاء25» أنّه بمجرد السّيطرة على الخطّ سنرسل لهم علامة بواسـطة المصـباح اليدوي. لكن، اسـتطاع الشـباب أن يسيطروا على المنطقة بأقلّ من عشـر دقائق بعد أن حوصروا لمدة ساعتين أو ثلاث سـاعات، وتوغلوا في الخـطّ الأمامي أكثر من اللازم. كمـا إنّ الأخ الذي من المفترض أن يتقدّم إلى الأمام ويرسـل العلامة إلى فرقة «كربلاء25» إما أنّه استشهد أو تأخّر في ذلك، أو نسي الأمر، فلم نرسل أيّ علامة من جانبنا إلى شباب كربلاء25 الذين وظنًّا منهم أنّ شبابنا هم من عناصر العدو، بدأوا بالرماية علينا. بدأت هناك اشتباكات عنيفة وفي ذلك المكان استشـهد رامي الرشاش الباسـل رحيم غفاري وعنصر آخر. بعد دقائق

عدة انتبهوا أنّ هؤلاء الشباب هم من قواتنا وتوقف إطلاق النار.

كانت هذه المرّة الأولى التي يقع فيها الساتر الأول في منطقة «المنقار» بشكل كامل في أيدينا. أحيانًا يخطر على بالي أنّ عملية «يا مهدي» هي واحدة من أكثر العمليات غربة، علمًا أنّها أدّت إلى تثبيت نجاحات عملية «والفجر8». لقد تحقّق هدفنا هناك، وطهّرنا منطقة عملية «والفجر8» من وجود العدو، وذلك بفضل الملحمة التي سطّرها الجرحى الصابرون في تلك الأرض المالحة، وشهامة وثبات المستبسلين في القناة أيضًا.

لم يمضِ عشر دقائق على فرار العدو حتى أدركت قواتهم الخلفية أنّنا سيطرنا على المنطقة، فبدأوا بقصفنا بالمدافع وصواريخ الكاتيوشا. أمطرونا بالقذائف والصواريخ بشكل كثيف للحظات عدّة، بحيث كان ينهمر فوق رؤوسنا أربعون قذيفة دفعة واحدة. لو استمرّت الحال على هذا المنوال لانفرط عقدنا وما بقي من قواتنا أحد، لكنّ الشباب المرابطين على المدفعية تلك الليلة أنقذونا. أخرجوا مدافع الـ230 التي أحضروها سابقًا إلى الجزيرة، وحان دورهم في إطلاق ست قذائف متزامنة. لجمت هيبة وقدرة هذا المدفع العراقيين لساعة أو ساعتين[1]. ثم التقط العراقيون أنفاسهم من جديد، وبدأ تساقط القذائف وصواريخ الكاتيوشا فوق رؤوسنا، إلا أنهم لم يستطيعوا التصويب إلى داخل القناة إلا نادرًا. وبهذا لم يكن للعدو مجال لإحراز أيّ تقدم حتى بهجومه المدفعي هذا. في الواقع انتهى عملنا في تلك المرحلة ليصبح بإمكاني أن أرتاح قليلًا.

عادة في كلّ عملية وعندما يرتاح بالي من التفكير فيها، كنت أجد مكانًا أنام فيه لساعتين. في تلك الليلة أيضًا ومن كثرة ما ركضت في القناة، صرت أشعر بوخز في قدميّ، وكنت حقًّا بحاجة إلى استراحة. ذهبت إلى جانب الأخ جلال والحاج غلام؛ الأخوين اللذين كانا من

1 – كان قوة قذائف ال230 إلى درجة دفعت العراق إلى تقديم شكوى في الأمم المتحدة ضد إيران لاستخدامها مدافع 230 في المعركة!

الأعمدة الراسخة في الكتيبة، حيث المكان الذي نرمي منه قذائف الهاون أشبه بالدشمة. قلت لهم أريد أن أرتاح. كنت عطشانَ بشدّة. أعطوني شيئًا من الماء الذي أخذوه من العراقيين فشربت ونمت. كنت متعبًا ومرهقًا إلى درجة أنّني نسيت أنّ الليلة الخامسة عشرة التي تحدّث «أمير» عنها انتهت على هذا الشكل.

◘

استيقظت قبيل الشروق. أدّيت صلاة الصبح بسرعة وتفقّدت القناة؛ المكان الذي حاصرنا فيه العراقيون مساء الأمس. أردت التقدّم إلى الأمام أكثر، ولكنّ تراكم الجثث جعل من التحرّك في القناة أمرًا صعبًا. خرجت من القناة وتقدّمت إلى الأمام بموازاتها، وبالرغم من أنّ خارج القناة كان عرضة لنيران المدافع إلا أنّ التحرّك هناك كان أفضل بالنسبة إلي من المشي بين كلّ تلك الجثث. ما زلت لا أستطيع في هذا الجوّ المعتم أن أرى ما الذي حدث.

توغّلتُ أكثر ووصلت إلى الشباب. هناك رأيت بعض أجساد الإخوة المضرّجة بالدماء. أحزنتني شهادتهم. عدت من حيث أتيت وأنا أفكّر بحراسة المنطقة التي طهّرناها. في طريق العودة، وتحت أشعة الشمس التي بدأت تضيء ساحة المعركة شيئًا فشيئًا أدركت الذي حدث في القناة. ذهلت عندما رأيت جثث الأعداء المتراكمة بعضها فوق بعض. لقد اشتبكنا مع عدة سرايا من العدو بسرية واحدة من شبابنا. لم أرَ قبل ذلك اليوم كلّ هذا العدد من جثث الأعداء بهذا الوضع. جثث برؤوس مشقوقة وأجساد ممزقة متراكمة بعضها فوق بعض على مدى النظر في داخل القناة، وفي المستنقعات جثث الذين هلكوا أثناء الفرار.

في لحظات الصباح الأولى، علا صوت اشتباكات شديدة من خلفنا. عجيبة هي هذه الاشتباكات! لقد زادتني حيرة.

- ما هذا إذاً!

سريعًا أرسلت نصف الشباب إلى الخلف وأبقيت على الآخرين متمركزين باتجاه العراقيين لتتمّ بذلك الحراسة في الجهتين. خشيت أن يقوم العراقيون الذين ما زالوا في المنطقة بشنّ هجوم معاكس لاستعادة النقاط التي خسروها. لقد أسرنا في أول الصبح بعض العراقيين الذين وجدناهم عالقين في الماء، والآن شغلت بالنا هذه الاشتباكات غير المتوقعة. كانت الاشتباكات شديدة إلى درجة أنّه أحيانًا عندما يتقدّم أحد الأطراف المشتبكة على التلال الترابية كان يتراجع بعد دقائق بضغط من الطرف الآخر. كان رماة الـB7 من الطرفين يقفون بكلّ جرأة ويضربون مواضع الطرف المقابل. قلت لشخص يقف إلى جانبي: «صدّق إنّ كلا الطرفين هؤلاء هم من القوات الصديقة!».

- من أين لك أن تعلم؟!

- باستثناء شبابنا فإنّ أحدًا لا يستطيع أن يحارب هكذا في هذا المكان!

أخيرًا بعد دقائق عدة خمدت هذه النيران، ولاحقًا علمنا أنّ أحد الطرفين هو فصيل فرج قلي زاده التابع لإحدى سرايانا، بينما الطرف الآخر يتبع لفرقة «كربلاء25»! أثناء هذه الاشتباكات، وأثناء التقدّم والتراجع وقع أفراد من الطرفين بالأسر ليتبين بذلك ما يحصل. في تلك المعركة أيضًا قدّم شبابنا خسائر، وقيل إنّ مسؤول إشارة فرقة «كربلاء25» استشهد آنذاك. كثيرًا ما يحدث في العمليات خلل في التنسيق من هذا النوع. في الليلة السابقة أيضًا عندما كان شبابنا يلاحقون العراقيين في السهل، استشهد رحيم غفاري وآخرون بوابل من الرصاص أطلقه عناصر من فرقة «كربلاء25». لقد أحرقت قلبي مظلوميته. في تلك المرحلة، اتخذت بعض الإجراءات للحؤول دون وقوع أخطاء كهذه. غالبًا كان يُتفق على كلمة سرّ، تحتوي كلماتها أحرفًا لا توجد باللغة العربية ولا

يستطيع العرب تلفّظها، ولكنّ هذا الإجراء أيضًا لم يكن ذا تأثير كبير. عندما تخرج في كلّ ثانية 8 طلقات أين سيكون مجال هذه الكلمات؟

أثناء وجودنا في المنطقة كنّا نرى أشياء على الأرض زرقاء اللون لم نعلم ما هي. عندما هدأت الأوضاع قليلًا أعملنا فكرنا لمعرفة ماذا يمكن أن تكون هذه الأشياء الموزّعة فوق سطح الأرض. نشر الشباب الخبر بهدوء. إنّها أجساد الشهداء الذين بقوا فوق الأرض المالحة منذ عملية «والفجر8»، يرتدون معاطف المطر الزرقاء، وقد ظلوا لأشهر عديدة في عداد المجهولين (مفقودي الأثر). بقيت أجسادهم في الأرض المالحة وما زالت سالمة تقريبًا. آنذاك وصلت إحدى حافلات نقل الجند وبدأت عملية الإنقاذ. طبعًا كانت الأولوية لنقل الجرحى وإسعافهم، ثم انطلقنا لنلملم أجساد الشهداء.. بعد الفراغ من عملية نقل الجرحى جاء اثنان من الإخوة وأخبرانا أنّ ثلاثة عراقيين جرحى موجودون في القناة. لم يكن ممكنًا نقل العراقيين إلى الخلف. قال أحد الشباب: «أنا أذهب لأطلق النار عليهم ...»، لكنّني عاجلته بالردّ متعجبًا: «لقد عاينت الخطّ صباحًا، لم يكن هناك أي جريح عراقي! رأيت أسيرين فقط وقد وقعا في الماء وهما يرتجفان من البرد».

– كلا يا سيّد! هؤلاء موجودون في قناتنا نحن.

انطلقت سريعًا وذهبت إلى الجهة التي تحدّثوا عنها. عندما وصلت وجدت أنهم من شبابنا الذين جرحوا ليلة البارحة في المكان عينه، واحدًا تلو الآخر عندما أراد كلّ واحد منهم مساعدة الجريح الذي سبقه. كان الذباب يغطّي أجسادهم بكثافة كبيرة! طيّرت الذباب ومددت كوفية فوقهم. كانوا أحياءً. قلت للشخص الذي أخبرنا عنهم: «هل تعلم من هؤلاء؟!».

– كلا!

عرّفته إليهم. أحدهم كان بطلًا وطنيًّا في كرة المضرب، وآخر مسعفًا، والثالث أحد عناصرنا أيضًا. وصل قادر على وجه السرعة وقال: «إن سمحت لنا سننقل هؤلاء الجرحى إلى الخلف، فقط أعطني شخصًا واحدًا يساعدني».

قلت لدينا نقص في العديد، لا أستطيع أن أعطيك مساعدًا، ولكن، لدينا أسيران عراقيان تستطيع أن تستفيد منهما. أكدت عليه: » دع العراقيان يحملان الجرحى وأنت سر من خلفهما وراقبهما».

- يا سيّد! ما الذي كان سيحصل لو لم يكن لدينا مخّك هذا؟!

كان قادر يمزح، فقد بقينا لسنوات في الجبهة معًا وعشنا معًا تجارب مختلفة.

▫

صباحًا بات المحور تحت تصرّفنا بالكامل. ذهبت إلى الخطوط الخلفية لتفقّد العناصر الذين أوكلتهم بمهمة حماية ظهرنا. جاء آقاقلي أيضًا وراح يلتقط صورًا للشهداء. قلت في نفسي: «انظر إلى هذا! كم هو (طويل البال)!». رأى آقاقلي أنّني أنظر إليه. قال: «سيّد! هذا مكان جيد لالتقاط الصور! هذا مكان مليء بالذكريات!». أساسًا لم أكن أفكر بأهمية عمله. ابتعدت عنه بينما راح يلتقط الصور للشهداء فردًا فردًا، وتوجهت نحو جواد بخت شكوهي. كان تربطني به علاقة جيّدة، وسررت لأنّه ما زال سالمًا. قال: «ما أخبار الشباب!».

- إنّهم في الأمام.

- ما هي أخبار «نصرتي»؟

- هو أيضًا في الأمام!

كنت أدرك طبيعة العلاقة بين جواد ومحمد نصرتي، لذا لم أحبّ

أن أخبره باستشـهاده[1]. تركت جواد وجلت قليلًا بين الدشـم، وفي طريق العودة رأيته أمام جسـد محمد نصـرتي المضـرّج بالدمـاء. وقفت أنظر إليهما. رأيت جواد يبلّ طرف سـجادة صـلاته بالعطر الذي اشتراه قبل أيـام من مشـهد وينظف وجه محمد بها. لقد أوجع بـكاؤه قلبي. اقتربت قليلًا وناديته: «جواد!... لمَ بقيت هنا؟»، أجابني بصوت حزين ومهموم: «لقد قلت لي إنّ محمد ذهَب إلى الأمام. لقد استشهد محمد ... انظر!».

– أنـا أسـألك لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا تركت الدشـمة خالية وجئت إلى هنا؟

أردت أن تكون لهجة كلامي مصحوبة بالشدّة حتى يضطر إلى مغادرة ذلك المكان. دائمًا عندما أحضـر مواقف كهذه وأصـرخ في وجه الشباب وأغضـب، كان قلبي حقًّا يبكي دمًا. وخصوصًـا أنّني جرّبت موقفًا كهذا عند استشـهاد أمير، والآن أرى كم هي حال جواد بائسـة، وللأسـف لم أكن أعلم في تلك اللحظة أنّ فراقهم لن يدوم طويلا[2].

نهض جواد. أنا أيضًا انطلقت. كانت الساعة حوالي العاشرة صباحًا عندما رآني «كاظم لطفي» وقال لي: «سيّد! تعال وخذ مالك!»، ثم ناولني كمية من قطع الأموال الصغيرة! القصّة هي أنّه صرفنا الكثير من المال في مشـهد. هناك وعندمـا فكّرت أنّ هؤلاء الشـباب يحتمل أن لا يكونوا إلى جانبنا بعد مدة، لم أعد أعر اهتمامًا لنفاد المال، فنفد مالي هناك. عندما وصـلنا إلى دزفول اتصلت بالمنزل وقلت لهم بأن يرسلوا لي مالًا،

---

1 – كانت إجازتنا في شـهر رمضـان، وذهبت مع قادر، حيدر، نصـرتي وجواد وشخصين آخرين إلى مقرّهم الذي كان في المسـجد. كانوا يعدّون لحم الكبد وأشياء أخرى، وقد أدركت أكثر علاقة هذين الشخصـين أحدهما بالآخر عندما رأيت سـلوكهما، علاقتهما الطاهرة التـي أبقتهما جنبًا إلى جنب حتى نهاية عمرهما القصير.

2 – بعد أن تركنا الخطّ بقي جواد بخت شـكوهي مع عناصر الكتيبة الذين جاؤوا لاحقًا إلى المنطقة، وبعد عدة أيام استشـهد إثر إصـابته بشظية من قذيفة هاون. لقد شيع مع شهداء عملية مصنع الملح وصديقه العزيز محمد نصرتي.

وكان كاظم لطفي ذهب إلى تبريز قبل العملية وتقرّر أن يقوم بزيارة قصيرة إلى منزلنا، وهو من عناصر المعلومات في عملية مصنع الملح، فأخذ المال من أهلي وأحضره معه إلى الخطّ! كان بمجمله عبارة عن قطع نقدية بقيمة 20 و50 تومانًا وقد سلّمني الآن هذا المبلغ. ضحكت: «يا هذا، من أين لي أن أجد مكانًا لهذا المال؟! ليتك تركته في الخطّ الخلفي».

- خطر على بالي أن أحضره إلى الأمام وأعطيك إيّاه!

في تلك الأثناء امتلأت جيوبي بالمال؛ إنها مشكلة جديدة. قلت للشباب: «كلّ من يلزمه المال أنا أعطيه!...».

◽

ظهرًا أحضروا الـ«كوفته»[1] على طعام الغداء، ولأنّني أحبها، تناولت ثلاثًا منها. بعد الغداء علا صوت الشباب، فقد ظهر أنّ ال«كوفته» بائتة ولم تلائم معدتهم. تزعزعت الأوضاع. حتى الذين لم يأكلوا أكثر من نصف واحدة وقفوا في الصف ينتظرون دورهم أمام المرحاض. تعجبت كيف أنّه لم يصبني شيء مع أنّني أكلت الكثير منها! أعتقد أنّه بعد كلّ هذه المصائب والبلاءات التي حلّت بجسمي، واقعًا لم تعد حالي كحال سائر الناس العاديين!

لم يمضِ ساعات عدّة على حلول الظهيرة حتى رأيت أربع نقاط بيضاء تتحرّك باتّجاهنا من بعيد، كانت تشكّل هذه النقاط هدفًا جيّدًا للعدو. دقّقت قليلًا وأدركت أنهم أربعة علماء دين من المجاهدين ويعتمرون جميعهم عمامات بيضاء. لم أستطع أن أهدأ وأنتظر وصولهم. ذهبت إليهم ركضًا. غضبت، وخشيت أن يستخدم العدو تلك النقاط البيضاء للتهديف في أيّ لحظة ويبدأ بإمطارنا بقذائفه. ما إن اقتربت منهم حتى

1- نوع من الطعام يحضر من اللحم المعجون بالبيض والبندورة و..

صرخت قائلًا: «أنتم لماذا جئتم؟».

- جئنا لرفع معنوياتكم!

مرّة أخرى قلت بصوت أشبه بالصراخ: «إن أردتم أن ترفعوا معنوياتنا فاحملوا تموينا إلى الخطوط الأمامية، أوصلوا إلينا ماءً!».

حقًّا أرهقنا العطش في الخطوط الأمامية، فسيارة الدعم تقدّمت في منطقة العملية قدر استطاعتها، ووضعت أكياس الفاكهة المعلّبة والماء والثلج والخبز في المكان الذي وصلت إليه، لكن، في نقطة بعيدة عنّا نسبيًّا. توجّهنا أنا والإخوة علماء الدين إلى مكان التموين، ولم أكفّ عن معاتبتهم طوال الطريق. بداية نزعت عماماتهم ليحملوها بأيديهم، ثم أعطيت كلّ واحد منهم كيسين أو ثلاثة أكياس ليحملوها على ظهورهم، أنا أيضًا حملت بعضًا منها وسرت بهم في حالة نصف واقف إلى الأمام. بعد هذا وما إن وصلنا إلى الشباب سأل أحدهم جلال زاهدي: «من هو الأخ الغاضب إلى هذه الدرجة؟!».

▫

في الخطّ الامامي كان عدد القوات قليلًا. وبما أننا لم نثبّت بعد مواقعنا، اضطررت لنشر نقاط حراسة على امتداد الخطّ تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة 500 م، ووضعت عنصرًا واحدًا في كلّ نقطة. كانت هذه المسافات مليئة بجثث العراقيين. من جهة كنا قلقين لقلة عديد قواتنا، ومن جهة أخرى منزعجين لأنّهم لا يرسلون إلينا عناصر آخرين. كنّا جاهزين لتقبّل أصعب الظروف كي نحفظ المنطقة ولا يذهب دماء شهدائنا الأعزاء هدرًا.

كانت المدافع لا تزال تعمل، وتوجّب علينا أن نبقى مستيقظين في تلك الليلة المقمرة. خبرنا سابقًا أنّه كلما كانت المسافة التي تفصلنا عن العدو من 400 إلى 500 م أمكن الاشتباك بسهولة معه، ولكن، كلما

قلّت هذه المسافة تعقّدت الاشتباكات أكثر. مع أنّ ظروفنا كانت صعبة، لكنّني لم أكن أعتقد أن العراق يمكنه القيام بهجوم معاكس وينجح به. مرّت ليلة صعبة. كان على الإخوة أن يبقوا مستيقظين كلّ لوحده في مسافات متباعدة نسبيًّا بين جثث العراقيين، وأن يؤدّوا نوبة حراستهم. رحت أتفقّد الإخوة وأفكّر في أن يقوموا بدوريات بدل الحراسة، فيقوم شخصان معًا بدورية واحدة على مسافة 1000 م.

في تلك الليلة لم أنم حتى الصباح وأنا أقوم أتفقّد الشباب ما أعانني جسمي على ذلك. أخبرونا من قبل أنّ الجرافات ستأتي منتصف الليل لتعمل على وصل ساترنا السابق بخطّ العراقيين فيتشكّل في هذه الحال ساتر واحد في المنطقة يمتدّ حتى تقاطع مثلّث الموت. استيقظتُ صباحًا على ضجيج عال. علمتُ أنّ الجرافات تقوم بعملها. تقدّمت نحو الجرافة الأولى وإذ بسائقها يقفز منها ويلوذ بالفرار. كان هناك شخص آخر أيضًا إلى جانبه بدأ هو الآخر بالركض معه إلى الخلف. اعتقد هذا المسكين أنّني عراقي! كان «رضا» وهو أحد مهندسي الفرقة موجودًا هناك. سلّم بعضنا على بعض واستخبرنا عن الأحوال وسألته: «لماذا يفرّ هذان؟!»، ناداهم رضا أن: «هذا أحد شبابنا»، وفور عودتهما قلت لهما: «منذ ليلتين ونحن في هذا الخطّ، أفهل يجرؤ العراقيون أن يأتوا إلى هنا!»، على كلّ حال ضحكنا قليلًا.

بالرغم من أنّ إنشاء الساتر كان جيّدًا إلا أنّه سبّب لنا أضرارًا من جهة أخرى، حيث لم نعلم أنه سيؤدّي إلى إزالة دشمنا. كذلك فإنّ عددًا من الدشم العراقية التي سيطرنا عليها والمملوءة بالأسلحة والذخائر دُفنت تحت التراب. فسارعنا إلى إخراج الأسلحة من الدشم المتبقية قبل استكمال إنشاء الساتر. في تلك الليلة أنهت الجرافات عملها، ونحن انشغلنا ببناء الدشم ونقل الذخائر والوسائل. لاحظ العدو تحرّكنا

فراحت دباباته تطلق قذائفها علينا، لكن من دون أن تصيبنا بأيّ أذى، إذ كانت تفصلها عنا مسافة كبيرة. استمررنا بعملنا في ظل حماية مدفعيتنا المقتدرة. كنّا عندما تعمل مدافع الـ230 نخرج من دشمنا ونتمشى بدون خوف[1].

بقينا اليوم التالي في المنطقة. كان من المقرّر أن تأتي قوات أخرى وتستلم منّا الخطّ. في الواقع مكثنا بعددنا القليل أربعة أيام هناك بعد انتهاء العملية. في تلك الليلة وصلت قوات البديل فتجهزنا لترك الخطّ، لكن، بقي بعض الشباب، ومن بينهم جواد بخت شكوهي الذي نال شرف الشهادة في اليوم التالي، كما استشهد عند ذلك الخطّ أحد علماء الدين الأربعة أيضًا، وآخر منهم نال شرف الشهادة لاحقًا.

عدنا إلى شاطئ نهر أروند، وثيابنا مخضّبة بالدم والتراب. كنّا بحال سيئة. قبل أيّ عمل ذهبنا للاستحمام. بعد ذلك أرجعونا إلى دزفول. كما العادة، خيّم السكوت المرير علينا أثناء العودة. كنّا أربعة فقط! أربعة من أصل 18 شخصًا، والبقية إما استشهدوا أو جرحوا. في الطريق لتنفيذ العملية، أمضينا الوقت بالمزاح والضحك وأحاديث الشباب وخصوصًا بالمزاح المتعلق بمنامي أنا وأمير. والآن في طريق العودة ترى كلّ واحد وقد غاص في أعماق نفسه وحيدًا... وصلنا إلى دزفول، ألقى الأخ أمين شريعتي قائد فرقتنا كلمة بعد صلاة الظهر. عندئذ فهمنا ما حدث في الجزيرة. شرح لنا أنّ العراقيين قاموا بهجومهم لاسترجاع الجزيرة فاضطرت القيادة لنقل قوات فرقة كربلاء25 من المنطقة إلى الجزيرة، ولم يستطيعوا أن يرسلوا إلينا قواتٍ لتساعدنا. شكر السيّد أمين جميع القوات، وكانوا حقًّا عناصر جديرين بالتقدير. وبهذا الشكل، تركنا الجبهة في الأيام الأولى لصيف العام 1986م وعدنا إلى تبريز بالحافلات

1 – لم أر أبدًا هذه المدافع عن قرب، ولكني سمعت أنها قوية وثقيلة إذ كانوا يحضرون قذائفها بواسطة آلية إلى محل الإطلاق، ولم يكن ممكنًا القيام بهذا العمل يدويًّا.

التي أعطونا إياها.

طوال طريق العودة كنت أتمنى أن نصل بسرعة إلى تبريز لعلّي أتحرر من هذا السكوت الثقيل والمرّ الذي خيّم على جوّ الحافلة.

▫

وصلت أجساد الشهداء بالتزامن مع وصولنا إلى تبريز. هذه المرّة ولسبب ما، كانت قصة الشهداء تحرق القلب أكثر من أيّ وقت مضى. فقبل أسبوع أحضر هؤلاء الشباب الهدايا لأعزائهم عندما كانوا في مشهد، واليوم ترجع أجسادهم المضرّجة بالدماء مع الهدايا إلى المدينة، الأمر الذي هيّج نار القلوب أكثر وأكثر. لقد شيّع جسد جواد بخت شكوهي أيضًا مع أجساد محمد نصرتي وستة شهداء آخرين، ودفنوا في القسم الأعلى من وادي الرحمة.

كانت حالي لا توصف. ذات يوم، ذهبت برفقة قادر وحيدر على الدراجة النارية لزيارة قبر جواد. كنّا نبكي ونضحك في آن؛ نبكي لأنّنا فقدنا جواد الذي عرفناه من أكثر شباب الجبهة عطفًا وحنانًا، ونضحك بسبب كلامه وعهوده عندما كان يتمنى أن أستشهد حتى تصل دراجتي النارية إليه. لقد قلت له سابقًا سآتي بهذه الدراجة إلى قبرك، وها قد أتيت الآن. امتزجت البسمات بالدموع، والضحك بالبكاء. هناك قلت لهم: «الآن يعلم جواد كم أنا عصيّ على الموت».

كان عدد الشهداء في عملية «يا مهدي» قليلًا، لكن استمرّ تشييع الشهداء ودفنهم أيامًا عدّة لأنّنا كنا قد وجدنا أجساد الشهداء التي فقدناها في عملية «والفجر8»، لذا أمضينا آنذاك أكثر أوقاتنا في وادي الرحمة. في تلك الأيام، رحت غالبًا أذهب إلى وادي الرحمة برفقة حيدر. في أحد الأيام ذهبت إلى قبر رحيم، رامي الرشاش الشجاع الذي سطّر تلك الملحمة في القناة. رأيت امرأة جالسة فوق قبره وهي تبكي

بحرقة عجيبة وتتكلّم. لقد أوجعت أنّاتها قلبي. فهمت من بعض كلماتها أنهـا تتحدّث عـن خطبة ابنها، وأدركت أن رحيـم كان خاطبًا، ولم يعلم أحد منا ذلك. كم كان بعض الشباب عظماء وغيورين ولم نعرفهم!

اسـتمرّت هذه الإجازة لحوالي 20 يومًا. هذه المرّة أيضًـا كما المرّات السـابقة، انشـغلت بالدواء والأطباء من جهة، وبقضايا العائلة من جهة أخـرى. لكن، علـم الجميع أنّه ما دامت الحرب مسـتمرة وأنا أقف على قدميّ، لا يجب عليهم أن يتوقعوا مني أكثر مما أنا عليه.

## الفصل الثالث عشر

# غواصو حبيب

1

لم نجد أحدًا في مقرّ الفرقة. في مركز القيادة، كانت ثلاث شاحنات من وحدة النقل في الفرقة جاهزة للانطلاق باتجاه «كرمانشاه». غطّوا الجزء الخلفي من الشاحنة بشادرٍ حيث وضعوا التجهيزات، وكان من الواضح أنّهم يبدّلون مكان تموضع الفرقة. ركبتُ و«يعقوب نيكبران» -رفيقي في المصلّى منذ زمن- في القسم الخلفي من الشاحنة. لم أعد أريد العودة إلى كتيبة الإمام الحسين عليه السلام. قال يعقوب: «فلنذهب إلى كتيبة حبيب». في تلك الأيام أخذ اسم الكتيبة يتألق بقيادة السيد «مجيد سيد فاطمي»، وأصبحت واحدة من الكتائب النموذجيّة في الفرقة. التحق بكتيبة حبيب أيضًا عدد من الشباب الجيّدين أمثال فرج قلي زاده، «حسن حسين زاده» و...

كان للركوب في القسم الخلفي من الشاحنة حكايته الخاصة. اشترينا قبل ذلك البطيخ والـ«خربُزه» إذ كنّا نهتمّ بأنفسنا في تلك الظروف ولم تكن أوضاعنا سيئة. قبل كرمانشاه بحوالي 20 كلم عبرت الحافلة مضيق «تشهارزبر»[1] وانعطفت نحو الغابة حيث ظهرت من بعيد خيام الكتيبة. بدا واضحًا أنّ كتيبتي حبيب و«أبو الفضل» تموضعتا في مكان واحد، وأنّ عناصرهما يمضون أوقاتهم في نفس الخيام ويرتادون مسجدًا واحدًا. سرعان ما رأينا الحاج قلي وعلي نمكي وهما من عناصر

1 – مضيق "تشهارزبر" هو المكان عينه الذي حصلت فيه عملية "مرصاد" في العام 1988م.

كتيبة «أبو الفضـل»، ثم السـيّد فاطمي، الذي يتوجّب علينا الذهاب إليه والتعريف بأنفسـنا[1]. عاملنا السـيّد بلطف، وأدركت من اللقاء الأول كم هو منظّم ودقيق[2]. تركتْ روحيّة السـيّد أثرها على أفراد الكتيبة أيضًا، لتصبح النظافة سمةً لمحيط الكتيبة وخيامها.

تولّى «حسن كربلائي»، «عبد العلي مطلق» و«محمد سوداكر» مسؤولية السـرايا في كتيبة حبيب، واسـتقرّت هناك أيضًـا وحدة من الجيش من منطقة «مياندوآب».

ألحقونا بفصـيل «إسـماعيل وكيل زاده»، وهو مـن معارفي القدامى. كان إسـماعيل يخـاف مـن المـاء، فرحنا نتحـيّن الفرص لندفعـه إليه. وجدناه يولي اهتمامًا بالنظام أيضًـا، بينما فصـيله مليء بالمشـاغبين. في الأيام الأولى، لم أكن أعرف أحدًا غير يعقوب وإسـماعيل، ثمّ تعرفت إلى أشـخاص عدّة من بينهم «علي باشايي» الذي أعرف ابن عمّه «أكبر باشـاي» الموجود معنا معرفة سطحية، لكن، سرعان ما توطّدت علاقتي بـه. في هذه الفترة تردّدت كثيرًا إلى الحاج قلي في كتيبة «أبو الفضـل»، وقد ازدادت محبتي واحترامي له بعد عملية «والفجر8».

شيئًا فشيئًا تعمّقت علاقة الشباب بعضهم ببعض، وبدأت أعمال الشغب تظهر أكثر فأكثر. في تلك الأيام كانت البطاطا -التي نحبّها كثيرًا- قليلة في الكتيبة. كنّا نضع حبّات منها صباحًا في إبريق الشاي

1 – بعـد التحاقنـا بكتيبة حبيب أدرجت أسـماؤنا ضـمن عديد الكتيبة. بالطبع كان لدي مشـاكل في مقـرّ قيادة الفرقة إذ لم يكونـوا يعلمون متى ذهبت ومتى عدت. لأنّني لا أذهب إلى مركز التعبئة كلما أردت الالتحاق بالجبهة، ولم أحصل على "أمر الالتحاق" خلال مشاركتي في الجبهة سوى أربع مرات اسـتمرّت إحداها أربع سـنوات من العام 1984م حتى العام 1988م. كما أنهيت خدمتي مرّة أو مرتين؛ مرّة بعد كردستان وأخرى بعد عملية مسلم ...

2 – منذ ذلك الحين بقيت مع السـيّد حوالي سـنتين ونصـف. أسـتطيع القول إنّ السـيّد فاطمي كان من كلّ الجهات، قائدًا كاملاً بالقول والفعل. في السـنتين ونصـف السنة تلك لم أر حتى ربطة حذائه مفتوحة أو غير مرتبة ولو لمرة واحدة. بقي لمدة في الفرقة بعد انتهاء الحرب. وهو الآن يتابع دراسته في مرحلة الدكتوراه في اختصاص الجغرافيا المدنية.

الكبير ونسلقها ثم نتلذّذ بتناولها معًا. في أحد الأيام، قررت وإسماعيل ويعقوب الذهاب إلى تجهيزات الفرقة للإغارة على البطاطا. ذهبنا وقدّمنا أنفسنا على أنّنا مسؤولو الدعم في السرايا، وطلبنا كيسًا من البطاطا. لم يعرفنا الشخص الموجود هناك، فذهب وأحضر ما طلبناه. وما إن استلمنا البطاطا حتى وصل الأخ «حميد باقربور» مسؤول دعم الكتيبة، وأخبروه بأنّنا جئنا من قسم الدعم في كتيبة حبيب، لكنّه يعرفنا جيدًا!

– ماذا؟ هؤلاء من دعم الكتيبة؟!

– حال دون ذهابنا وقال: «سأخبرهم بما فعلتم ...».

قلت له: «ستقول إنّك أحضرت هؤلاء لأنّهم أرادوا الحصول على البطاطا؟! إنّه لشيء مضحك! وما هي البطاطا حتى يكون للحديث عنها تلك الأهمية!». لكن أصرّ الأخ حميد على إطلاع الكتيبة بالأمر بعد أن استردّ كيس البطاطا. تجاهلت الأمر وقلت له: «اذهب وأخبر من شئت، لكن على الأقل أعطنا الكيس!».

وفي النهاية أخذنا نصف كيس من البطاطا بمنتهى الوقاحة ورجعنا إلى خيمتنا. وهكذا عدنا لتناول البطاطا كلّ صباح!

نصبوا ثلاث خيام بعضها إلى جانب بعض. واحدة منها للدعم فصلوها عن الأخريين بستارة، واثنتان يقضي العناصر أوقاتهم ويستريحون فيهما. وزّعوا في أحد الأيام الـ«خربُزه» (شمّام) على الشباب، وبقيت واحدة في الدعم قرّروا إبقاءها حتى اليوم التالي. عندما حلّ وقت النوم همس في أذني أحد الشباب: سيّد! هيا بنا لنذهب ونأخذ الـ«خربُزه». كان هذا الشابّ يقوم بكلّ ما يخطر على البال من شغب، لكن في العملية تغلّب خوفه على شغبه وولّى هاربًا. انتهرته بشدة: «ما هذا الكلام؟ إنّها للجميع!»، فشعر المسكين بالخجل!

عندما انتصف الليل ذهبت مع يعقوب للإغارة على الـ«خربُزه». لم يكن بإمكاننا أخذها من الداخل وإلّا علم الجميع بأمرنا. وقف يعقوب كحارس ورفعت أنا زاوية الخيمة والتقطت الـ«خربُزه» من داخل البراد البلاستيكي. في ذلك الوقت رآنا أحد الشباب أثناء عودته من صلاة الليل، فاستضفناه وقضينا ثلاثتنا عليها! ثمّ صلّينا صلاة الفجر ورجعنا إلى أماكننا.

صباحًا علا الصوت: «أحد ما أكل الخربُزه!»، أما أنا فكنت قاسيًا وقلت: «أنا أعلم من أكلها! هل تريدون أن أخبركم من قام بهذا العمل!»، أخذ ذلك المسكين يقسم أن لا علم له بذلك، وقال: «لقد أخجلني كلامك يا سيّد! أردت أن آكلها ولم أفعل!». قال الشباب: «لا بأس نحن راضون ونسامح من أكلها، قل لنا فقط من قام بهذا العمل!»، بالطبع، لم نخبرهم أنّنا من فعل ذلك.

▫

تقرّر تنفيذ عملية في تلك المنطقة في مرتفعات «بمو» المشرفة على منطقة «سربل ذهاب». لقد تمّ التخطيط للسيطرة على «بمو» مرات عدّة، لكن باءت جميع الخطط بالفشل. تقع هذه المرتفعات على الحدود بين إيران العراق ويبلغ ارتفاعها حوالي 4000 م، ما جعل من تسلّق صخورها العالية عملًا شاقًّا جدًا. تشرف هذه الجبال على كامل منطقة «سربل ذهاب». بقينا حوالي شهر ونصف الشهر في تلك المنطقة التي أُطلق عليه اسم «الشهيد ريزه وندي»[1]، وكنّا نتسلّق الجبال يوميًّا كجزء من البرامج الصباحية. كانت منطقة حرجية، وأضفت عليها أشجار التين والفستق رونقًا وجمالًا.

1 – بعد عملية كربلاء5 واستشهاد الشهيد أحد مقيمي، أطلقوا على تلك المنطقة اسم الشهيد مقيمي، وبقي هذا الاسم في ذاكرة شباب فرقة عاشوراء. لاحقًا تقدم المنافقون أثناء عملية مرصاد حتى تلك المنطقة وعبروها ليتوقفوا في مضيق "تشهارزبر" حيث تمّ القضاء عليهم.

تزامنـت تلك الأيام مع العشـرة الأوائل من شـهر محرم. حتى ذلك الحـين لم أكن قد رأيت مجالس عزاء أردبيلية عن قرب. أغلب عناصـر كتيبة «أبو الفضـل» -التي يقودها السيّد أجدر مولايي- هم من أردبيل، وقـد التحـق أكثر شـباب أردبيل بالكتيبة بعـد استشـهاد «كنجكاهي»- المجاهـد الأردبيلي المعروف- خلال عملية «والفجـر8». لقد تعوّدنا على مواكـب العـزاء التـي يقيمها أهـل تبريز، لكـن، كان العـزاء في أردبيل مختلفًا ويوم عاشـوراء صاخبًا؛ الإخوة يَطلون وجوههم بالطين ويضعون التبن على أكتافهم، ثم يمشون مسافة وهم يلطمون رؤوسهم وصدورهم بحماسـة، ليتوقفوا بعد مسافة ويسـتمرّون باللطم بشدة. بعد ذلك تأتي السـرية الثانية لتقطع هذه المسـافة ركضًـا بأرجل حافية على الحجارة والأشـواك ودقائـق التبن، وعندما تتوقف تبدأ سـرية أخـرى بالحركة. تميـزّت مجالس العزاء التي يقيمها المجاهـدون في ذلك الوادي الخالي بأنها لافتة وخالصة وآسرة للقلوب.

◘

اسـتحدثوا في ذلـك الموقع إلى الجهة السـفلى مـن خيمتنا حمّامين ميدانيين يفصـلنا عنهما قرابة 2 كلم. في أحـد الأيام، خرجت ويعقوب في الصـباح الباكر بنيّة الاسـتحمام. عندما وصـلنا لم نجد الحمامات مضاءة، وقد اصطفّ عدد من الشباب ينتظرون دورهم. أخيرًا بدأ الأخ مسـؤول الحمّام عملـه. كالعادة، لم أسـتطع تحمّل الوقوف بالصـف[1]. على كلّ حال اسـتحممت وانتظرت يعقوب في الخارج. رأيت في الأطراف القريبة من الحمّام عددًا من البغال التي يسـتخدمها الشـباب بكثرة في تلك المنطقة، ويضـعون عليها أجلالًا مصنوعة من الأغطية عادة بسبب

1 – حدث دائمًا أنه عندما يوجد أمامي في الصفوف أحد شبابنا، يسمح لي بتجاوزه، وإذا كان غريبًا يقبل أيضًا بتجاوزي له بعد أن يلقي نظرة على وجهي ورأسي!

قلّة السروج. تركّزت الغارات في تلك الظروف على السروج. أردت ويعقوب الذهاب إلى قسم المدفعية لزيارة أحد أبناء بلدتي ويدعى «علي حسين فلاح»، وكنّا نكنّ الاحترام بعضنا لبعض ونتزاور من وقت لآخر. وبينما أنا أنتظر يعقوب، خرج رجل مسنٌّ من الحمام وتوجّه نحو أحد البغال ليعلو صراخه فجأة: «أين سرجي؟!...». لم يكد ينطق بهذه الكلمة حتى انفجر الشباب بالضحك. لقد أتى هذا المسنّ إلى الحمّام راكبًا على ظهر بغله، وكان يضع عليه سرجًا. ربط البغل غافلًا أنّ أحدًا ما سيأخذ السرج ولن يرحم لحيته البيضاء. لم يكفّ ذلك المسنّ عن الصراخ وبدل من أن يقول «أين سرج بغلي»، اختصر الكلام وراح يصرخ قائلًا: «أين سرجي؟». كنّا حوالي 30 شخصًا خارج الحمّام، بدأنا يومنا بالضحك!

اعتُمِدت البغال كأفضل طريقة لنقل الوسائل والتجهيزات والتموين والجرحى في المناطق الجبلية والوعرة. كذلك شكّلت مركبًا جيدًا في الطرق الوعرة. في السابق، عندما كنّا في «كرمنشاه» أثناء عملية «والفجر4» أطلقوا على إحدى الكتائب في الفرقة -والتي كان حسن كربلائي مسؤولها- اسم كتيبة «طليعة البغال»(قاطريزه). كانت البغال تتحرك في طوابير، ومسؤولية كلّ بغل تقع على عاتق ثلاثة أفراد أعطاهم الشباب صفات: رئيس القطيع، ومساعد الرئيس، وأمين سرّ القطيع!

◻

بعد شهر ونصف الشهر تقرّر أن نعود إلى دزفول لأنّه لم تنجز أيّ عملية من منطقة «دربنديخان». لقد احتفظوا حتى ذلك اليوم بالدجاج الذي سلّموه للكتيبة ليُطهى في أيام العملية. وعندما تأكّد عدم تنفيذها، وأنّه علينا أن نغادر المنطقة، قام شباب الدعم بطهي الدجاج. كان ذاك يومنا الأخير في المنطقة وقد حمل الشباب الأواني والخيام والوسائل الأخرى إلى الشاحنات. أعطوني صحونًا بلاستيكية

لأقوم بتقسـيم الطعـام. كان الطعام وفيرًا وقمت بتوزيعه على الشـباب محتفظًا بحصة أكبر لخمسة أشخاص من المشاغبين في فصيلنا. قديمًا قالوا «عند تقسـيم الطعام إمّا أن تكون ظالمًـا أو مظلومًا»؛ لقد كنت من الظالمين! أعطينا الطعام للجميع، وبدأنا نحن أيضًـا بتناوله حتى وصـل «علي باشـايي» ورأى مائدتنا فقال: «سـتكون قاضيًا عجيبًا يا سيّد!». لم أستحِ واستأنفت تناول الطعام مع إسماعيل ووكيل زاده ويعقوب نيكبران وشخَصـين آخرين، وقد أخذنا لأنفسـنا أيضًـا ما زاد من علب العصير التي وُزّعت.

ركبنـا الحافلات وتوجّهنا إلى دزفول التي وصـلناها ليـلًا. أول عمل قمنا به هو نصب الخيام. وفيما نحن مشغولون بتجهيزها، علا أنين أحد الشباب يشكو من ألم في أسنانه. كان ذلك المسكين يصرخ من شدّة الألم، فقال له أحد شباب الفصيل المشاغبين: «أنا أعطيك دواءً، ولكن بشرط!».

– ما هو هذا الشرط؟

– بعد أن تأخذ حبة الدواء هذه عليك أن تذهب إلى الحمّام وترجع!

لم نعرف لمَ اشترط عليه هذا الشرط. أعطاه الدواء فتناوله وانطلق نحو الحمّام، عندما رجع سأله حسن: «كيف أصبحت؟!».

– لم يحصل شيء .. لم يترك أثرًا!

أعطاه حبة دواء أخرى فتناولها وانطلق مرّة أخرى نحو الحمّام. نمنا تلك الليلة ولم نلتفت إلى أنّ ذلك المسكين لم يرجع!

صـباحًا اتّضحت المسـألة للجميع. فقد اعتاد الشباب الوقوف باكرًا في طوابـير ينتظـرون دورهـم. وأحيانًا يقف حـوالي 20 شخصًـا أمام كلّ حمّام. في هذا الصـباح كانت صـفوف الحمّامات تتحرّك باسـتثناء واحد منهـا؛ فقد دخل أحدهم ولم يخرج. بقي الشـباب يطرقون الباب مـن دون أن يلقوا جوابًـا، فقرّروا أن يفتحوه. عند ذلك وجدوا شخصًـا

يستغرق في النوم. إنّه نفس الأخ الذي تؤلمه أسنانه. المسكين، بعد أن شدّ حزامه سقط في أرضه نائمًا تحت تأثير حبتي «الفاليوم» اللتين تناولهما بالأمس! تعاون الشباب ونقلوه إلى داخل إحدى الخيام، ونام ليومين متتاليين، وغدت قصّته مادة دسمةً للمزاح بين الشباب. كنّا نوقظ ذلك المسكين للصلاة وتناول شيء من الطعام. الله سبحانه فقط وهو يعلمان في أيّ عالم كان يقيم صلاته. لقد غاب عن الوعي تحت تأثير «الفاليوم» لدرجة أنّه نام ونسي ألمه.

▫

في تلك الأيام رحت أفكر كثيرًا بالماضي. كنت أرى أنّ العناصر اليوم ليسوا كعناصر عمليات بدر و«والفجر8». لقد تراجعت روحية بعضهم قياسًا مع الماضي، ولكن لا يزال هناك عدد من العناصر القدامى يواظبون على صلاة الليل، وهم أنفسهم الذين ينظّمون مراسم الدعاء والتوسل بأهل البيت عليهم السلام. من الواضح أنّه لا أحد يسدّ الفراغ الذي خلّفه الشهداء. بقي هناك مسجد مبني من الإسمنت والحجارة، ورحت أرتاده أحيانًا لأصلّي صلاة الليل.

▫

أخبرونا سابقًا أنّنا سنذهب إلى سدّ (دز) للتدرّب على السباحة. في تلك الأيام تناقشنا مع السيّد فاطمي حول إحدى القضايا. تقرّر أن يسلّموا عددًا من كوادر الكتيبة بدلات عسكرية كورية، أصررنا على استلامها قبل التدريب والسيد فاطمي يقول: «بعد التدريب!». وجدت أنّه لا يمكن حلّ هذه المسألة معه، فذهبت إلى «أصغر علي بور»، قائد سريّتنا في تلك الأيام وأحد أصدقائي القدامى. ضغطت عليه ليستلم تجهيزاتنا. كان مخزن الدعم مليئًا بالتجهيزات من ثياب، أغطية، مدافئ نفطية،

وأوانٍ و... لكنّ الإخوة في الدعم يعملون فقط بأوامر السيّد فاطمي الذي أشار إليهم بتسليم التجهيزات إلى السرايا بعد الوصول إلى سدّ (دز).

ذات ليلة استيقظت لأداء صلاة الليل. كنت ويعقوب دائمًا ما يوقظ أحدنا الآخر إذا استيقظ قبله. ناداني. ذهبنا نحن الاثنان لنتوضّأ. وفي طريقنا إلى المصلّى قلت له: «لقد أشعلوا نارًا إلى جانب عنابر (مخازن) الدعم!».

– ربما يكون شباب الدعم مشغولين بتحضير الشاي.

– لا أعلم! ... ولكنهم لا يستيقظون باكرًا هكذا!

دخلنا إلى المصلّى. وجدنا حوالي 20 شخصًا منشغلين بالدعاء والمناجاة من ضمنهم السيّد فاطمي. صلّينا صلاتنا بسرعة. كان في المصلّى عناصر يكبروننا سنًّا، وكنت أنزعج إن علم أحد أنّني جئت إلى المصلّى لأداء صلاة الليل...

بعد الصلاة رجعنا إلى خيمتنا. في تلك الأيام كنا قد هيّأنا مكانًا نظيفًا خارج الخيمة من ألواح الإسمنت، عادة ما نفرش غطاءً فيه وننام هربًا من الحرارة المرتفعة داخل الخيمة، والتي تزيد عن الحرارة خارجها. ما إن أردت الاستلقاء هناك حتى قفزت مباشرة من مكاني: «لا قدّر الله أن تكون هذه العنابر تحترق!». ناديت يعقوب وركضنا نحوها. كان هناك عنبران: واحد كبير وُضعت فيه تجهيزات الكتيبة من موكيت وثياب و... هبّت فيه النيران، وآخر صغير إلى جانبه كان مخزنًا لأسلحة الكتيبة. ركضت مرعوبًا إلى وسط الساحة وصرخت بأعلى صوتي: «العنابر تحترق... النار!».

لم يجبني أحد! ركضت مرّة أخرى نحو الخيام. كنت ويعقوب نصرخ: «انهضوا لقد شبّت النار بالعنبر! ...». استيقظ أشخاص عدّة ولكنهم لم ينتبهوا لما يجري. تذكّرت المصلّين. أسرعت إلى المصلّى وما إن دخلته

حتى صرخت: «لقد شبّت النار في العنبر!»، لكنّ أحدًا لم يقطع صلاته! فما كان منّي إلا أن توجّهت نحو السيّد فاطمي ووقفت مباشرة أمامه: «سيّد! العنبر يشتعل!».

قطع صلاته قائلًا: «ماذا حصل؟!».

- العنبر يشتعل الآن!

قطع الجميع صلاتهم دفعة واحدة وركضنا نحو العنبر. بدأ عناصر الدعم يستيقظون. كانوا ينامون في خيمة ملاصقة للعنبر، توجد في زاويتها صناديق مملوءة بالرصاص والقنابل! سحبنا شخصين من شباب الدعم مستغرقَين بالنوم إلى الخارج، وكسرنا قضبان الخيمة وأبعدناها عن النيران. امتلأت الخيمة بدخان كثيف، وتعجّبت كيف أنّهم لم يستيقظوا والحال هذه! لقد صدق المثل حيث يقول: «إنّ نوم الأخ يعني موته!». راحت النيران تشتدّ أكثر فأكثر. يبتعد المخزن الصغير المليء بأسلحة الكتيبة وذخائرها حوالي المترين عن الحريق، لكنّ أحدًا لم يقترب منه لشدّة الحرارة المنبعثة من المخزن الكبير، خصوصًا مع علمهم بوجود الذخائر. كان للعنبر دواليب يُجرّ بها بواسطة قاطرة، لكن، لم تتوافر آنذاك أيّ واحدة، وكان لبابه قفل كبير لم نستطع فتحه مهما حاولنا، وصادف أنّ عناصر مخزن الأسلحة ذهبوا إلى دزفول وأخذوا المفتاح معهم. اتصلوا بالمقرّ كي يرسلوا جرافات، لكن كلّ ذلك كان هدرًا للوقت ولم تنتظر النار أحدًا. لم نبالِ بالعنبر الكبير بالرغم من أنّ النيران راحت تلتهم جميع تجهيزات الكتيبة المخزّنة فيه. سيطر القلق على الجميع من موضوع الذخائر، واستعانوا بكلّ ما وصل إلى أيديهم لكسر قفل الباب: العمود، المعول... لكن لم تكن ضربات المعول تأتي بنتيجة. استخدم الشباب أيضًا معولًا ذا رأسين وضربوا به القفل،

لكن لم يكن في نيّته أن ينكسر! أنا أيضًا أردت المحاولة، فأخذت المعول من الشباب وضربت برأسه العريض القفل بكلّ قوتي، فانكسر من الضربة الثانية.

في ذلك الحين بدأ يتزايد عدد الشباب. لقد استيقظ عددٌ منهم على صوت الجرافات التي وصلت لتوّها إلى المكان. كما أتى أيضًا «محمد رستمي» وآخرون من كتيبة الإمام الحسين عليه السلام للمساعدة. أخذ الشباب يرمون الأسلحة إلى الخارج ليبعدوها عن النيران. بذلنا جهدًا كبيرًا لإخراج الذخائر من العنبر الصغير. وبعد دقائق معدودة من انكسار القفل، علا صوت انفجار من العنبر الكبير المشتعل. قالوا إنّ في زاوية ذلك العنبر قذائف B7 وقنابل. وصلت النيران أيضًا إلى الخيمة المجاورة له والمليئة بالبطانيات الجديدة وأحرقتها. بعد هذا الانفجار لم يعد أحد يستطيع التقدّم إلى الأمام. كانت الشمس ترتفع في السماء عندما وصلت سيارات الإطفاء من دزفول وأخمدت النيران. لقد أدّى كثيرون صلاتهم قضاءً في ذلك الصباح!

بعد ساعات عدّة ذهبنا ثانية نحو العنبر. رأينا منظرًا محزنًا بالفعل: بطانيات جديدة، سجاد، موكيت، الملابس الكورية التي أصررنا على استلامها ورفضوا، أوانٍ، أحذية عسكرية، خوذ معدنية، احترق داخلها وبقي قالبها الخارجي على حاله إذ لم يكن ممكنًا ثقبه إلا بالرصاص والشظايا! كان للسيّد فاطمي شأن جيّد في سوق تبريز، ويحصل على مساعدات كثيرة للكتيبة من هناك. وقف إلى جانب بقايا التجهيزات المحترقة: «أمير خرمند»، «حبيب رحيمي»، الحاج «فيروز قادريان» والسيّد «يونس سيّد فاطمي» أخو قائد الكتيبة، وعدّة آخرون. بدأ «أمير» وهو من مشاغبي الكتيبة يتحدّث بشكل هزلي. أراد إغضاب السيّد يونس فذهب باتجاهه يشير إلى البقايا المحترقة ويلطم على صدره بلحن العزاء:

«واويلاه واويلاه! أين مكبّر صوتي! واويلاه واويلاه... أين الألبسة الكورية آه ..آه! ..». بحث الشباب بين التجهيزات، لم يعد أيٌّ من الثياب نافعًا بعد الحريق، إلا إذا وُصل بقطع أخرى. قاموا بقصّ السراويل ليستخدموها كسراويل قصيرة، وأمير يقول: «لا بأس بذلك! ستنفعنا هذه السراويل القصيرة في السباحة عندما نذهب إلى سدّ دزفول!».

▫

بعد يومين ركبنا الحافلات التي أتت لتقلّنا إلى سدّ (دز)، بعد أن وضّبنا خيامنا لننصبها لاحقًا هناك. كالعادة واجهنا مشاكل مع السائقين، كانت الطريق جيدة إلى أن وصلنا إلى مسافة تبعد عن (دز) نحو 3 كلم، حيث استحدث الحرس طريقًا بجانب الجبال، لم تكن سيّئة لدرجة أن يشعر السائقون أنّهم مكرهون على قطعها. على أيّ حال، وصلنا إلى سدّ (دز) بمشقّة وعناء.

قبل القيام بأيّ عمل، سلّموا الكتيبة حوالي 150 عنصرًا ليكتمل بذلك عديد السرايا، على الرغم من أنّ عددًا منهم يُستبعد كالعادة أثناء التدريبات. بالطبع رأينا أيضًا بين العناصر الجدد أفرادًا لهم تاريخ جيّد أمثال «حميد غمسوار».

بدأ التدريب على السباحة. والسباحة العسكرية أصعب من تلك التي يجيدها الجميع عادةً. كان «هادي نقدي» مسؤول التدريب العسكري، وأتى للمشاركة في هذه التدريبات عدد من كوادر الكتيبة الذين لا يجيدونها. كان «قدرت توفيقي» أيضًا يدرّب العناصر. نصبوا فوق الماء عددًا من الجسور ليتشكّل إطار يشبه حوض السباحة، ووضعوا تحت الماء سلالم وشباك بموازاة السطح وذلك لكي لا ينزل أحد كثيرًا إلى الأسفل إذا ما غاص في الماء. وصل عمق الماء في مكان التدريب إلى حوالي ثلاثة أمتار.

في الأيام الأولى كان بعض الشباب يخافون من الماء فكنّا ندفعهم

إليه، وازداد خوف بعضهم أيضًا عندما سمعوا عن عمق الماء في سدّ (دز). كان من المقرّر أن يتدرّب هؤلاء على السباحة ليخضعوا فيما بعد لتدريبات أصعب، ويمكن الاستفادة منهم كعناصر الاقتحام.

أثناء وجودنا في سدّ (دز) جاء وفد من عوائل الشهداء للقائنا، من بينهم والد علي باشايي. أمدّنا حضورهم بالمعنويات. تحدّثوا عن مشاكل الحياة في المدينة، والقضايا التي تحدث في المدن، ولم نكن نحن مطلعين عليها. وطبعًا كان الاستماع لهذا الكلام جيّدًا بالنسبة إلينا[1] من جهات عدّة. لقد أكّدوا أنّنا منتصرون لا محالة. كان الحاج «رضا داروئيان» يقرأ العزاء في المجالس الحماسية التي أقمناها، وبعث حضور آباء الشهداء في جمعنا شعورًا جديدًا لدينا. بقوا في خيامنا وشاركوا في المراسم الصباحية خلال الأيام الثلاثة التي كانوا فيها معنا. في تلك الأيام عشنا مشاعر جميلة؛ شعرنا أنّ والدًا موجودًا فوق رؤوسنا.

كانت كتيبتنا كتيبة جيّدة حقًّا خاصّة مع وجود عناصر أمثال الحاج رضا داروئيان، فرج قلي زاده، «حسن وكيل زاده»، وهو ابن أخي إسماعيل وكيل زاده ومعاون قائد سرية سوداكر، أصغر علي بور، «صادق سبك دست»، معاون أصغر وغيرهم الكثير. رغم صغر سنّه، عُدّ الحاج رضا من رجال الحرب الكبار. كان في عملية «والفجر8» المعاون في سريّة الغوّاصين، لكنّه أتى إلى فصيلنا كقنّاص، وأخذ على عاتقه مسؤولية توزيع الشاي للشباب. لقد تعرّفت إليه في معسكر شهداء خيبر. أما صادق فالتحق بالجبهة منذ أول الحرب، وتعرّفت إليه خلال عملية مسلم بن عقيل. كان للعناصر المشاغبين مكانهم في الكتيبة أيضًا:

---

1 – كنّا عندما نذهب إلى المدينة في كلّ إجازة نتعامل بصدق مع الأشخاص الذين يدّعون ادعاءات كبيرة، في حين أنّنا لم نكن نعلم أيّ أعمال لم يقوموا بها بعد! أعتقد أن بعض المسؤولين (الذين بقوا دائمًا في المدنية) لم يعرفوا قيمة المجاهدين قبل أن تبدأ حرب المدن وتُقصف المدن بشدّة! مع أنّ بعضهم ما زالوا لا يعرفون أو لا يريدون أن يعرفوا قدرهم... لكنّهم رأوا في القصف أنّه إن منح العدو الفرصة فإنّه لن يرحم أحدًا، وسوف يهرق دماء الصالح والطالح والمنافق والحزب اللهي.

لقد بدّل «أمير» خردمند وعدّة آخرون الملابس الكورية المحترقة إلى «شورتات» يلبسونها أثناء السباحة.

خلقت المحبة والإيثار عند الشباب جوًّا جيّدًا. في الظروف العادية، بعيدًا عن التدريب وتحضيرات العملية، يتسلّى الشباب بالأعمال المختلفة من قبيل تنظيف الغرف، تحضير الشاي، غسل الأواني وغيرها، ولا يعتبرونها أمرًا ذا أهمية كبيرة، أما في ظروف مماثلة لدورة التدريب في سدّ (دز) لم يَعتبروا أيّ عمل صغيرًا: يخضعون للتدريب من الصباح إلى العصر ويخرجون من الماء متعبين ومنهكين كالآخرين، فلا يتبقّى لديهم أدنى طاقة على الحركة. لكن، على الرغم من التعب والإنهاك، كان بعضهم يهيّئ الطعام ويفرش البطانيات ويهتم بالآخرين. هناك يمكن أن ترى أيّ ورود أنتجتها هذه المحبة والعطف!

في الأيام الأولى، بدأنا التدريب على مسافة 300 م تقريبًا؛ نلبس سترات نجاة صفراء اللون وننزل إلى الماء بصفوف منتظمة، وأحيانًا نتدرّب ليلًا، خاصة في الليالي المقمرة.

مع التقدّم في التدريب رحنا نتمرّن على مهارات جديدة؛ منها التحرّك من دون إثارة أيّ ضوضاء. لكن، عندما يبدأ الشباب بالشغب، لا يأخذون ظروف التدريب بعين الاعتبار، فكانوا يسعون غالبًا لإغراق المتدرّب الذي أمامهم في الماء. وعلى الرغم من أنّ ارتداء سترة النجاة يحول دون الغرق، إلا أنّ الخوف كان يبدو واضحًا على أغلب أولئك الذين يخضعون لأول مرّة لهذه التدريبات، ليهزّ أركان رتل المتدرّبين فجأة أثناء التدريب، صراخٌ عالٍ في سكون منتصف الليل، ويجبرنا المسؤولون على الرجوع إلى الخلف وإعادة التمرين من بدايته.

▫

مضت الأيام والليالي مع برنامج مكثّف من التدريبات والتمرينات.

في الليالي التي لا نتدرّب فيها كنّا ننام باكرًا من شدّة التعب. عادة ما يأخذون الشباب إلى الجبال المجاورة في البرنامج الصباحي. بالقرب من هناك توجد قريتان فيهما بساتين مملوءة بالصفاء. كنّا في البرنامج الصباحي غالبًا ما نسير حتى نصل إلى القرية ونجول في بستان الليمون ثم نرجع أدراجنا، ونسلك في هذه الرحلة مسارًا ضيّقًا يسمح بمرور الأفراد فقط، ولا يوجد غيره. كان الشباب يصلون إلى البستان عطاشى وجائعين. وكثيرًا ما حدث أن دعا أصحاب البساتين الشباب ليقطفوا ما بدا لهم من الثمار، لكنّهم يمتنعون عن ذلك؛ إذ كانوا يراعون المسائل الشرعية بدقّة لدرجة أن يأخذوا كلّ الاحتمالات والمستحبّات على محمل الجدّ ويحتاطوا في عملهم. كان البرنامج الصباحي يستمر لحوالي أربع ساعات، ونتيجةً لهذه التدريبات، أصبح المتدرّبون ماهرين في تسلّق الجبال والغوص في آن! وبحسب قول الشباب فإنّهم تدرّبوا على كلّ شيء ما عدا التدريبات الجوية.

هنا عرفنا أشخاصًا كلّما فكّرنا في أحوالهم أكثر شعرنا بالخجل أمام عظمة أرواحهم ونفوسهم. أحد هؤلاء «أصغر علي بور» مسؤول سريّة الغوّاصين. علمت أنّه يواجه مشاكل كثيرة في عائلته؛ والداه عجوزان ومريضان ويعيشان في محلّة في ضواحي تبريز، وزوجته وابنته تقطنان في منزل والديه. من جهة أخرى كان زوج أخته قد فارق الحياة حديثًا فباتت مسؤولية أخته وأولادها تقع على عاتقه. أثناء فترة التدريب في سدّ (دز)، واجهتْ عائلته مشاكل أخرى ما اضطرّه للقيام بزيارة قصيرة إليهم. عندما رجع سألته كيف أصبحت الحال؟ كان حزينًا جدًا. عندما حدّثني عن أخبار عائلته انقلبت أحوالي. قلت له: «أصغر! ألا يمكنك أن تصرف النظر عن هذه الحرب وتكرّس نفسك للحرب الأكبر في المدينة عند عائلتك؟».

– سيّد! أنا دائمًا عندما أتحدّث مع الله تعالى في جميع العمليات

أطلب منه أن يبقيني على قيد الحياة، لأنّه لديّ مشاكل خلف الجبهة، وإن أنا متّ فإنّ عائلتي ستبقى... ولكن هذه المرّة كلا! هذه المرّة لا أريد من اللّه تعالى أن يبقيني على قيد الحياة. أنا راضٍ بما قسمه اللّه لي، ولكنّني من الآن، أتمنى أن أستشهد.

أردت أن أخرجه من حال الضيق التي يعيشها، لكنّ أصغر تغيّر. ظلّ يقول: «سيّد! صدّق أنّني سأستشهد هذه المرّة». لقد تغيّر تعامله حتى مع شباب السريّة المشاغبين. أحيانًا يتحدّث عن أصدقائه الشهداء، ويقول: «صادق آذري، حميد بنهان و... هؤلاء أصدقائي واستشهدوا. والآن عندما آتي إلى هنا وأرى الشباب أتذكّر أصدقائي الشهداء، وأكاد أصاب بالجنون!». أدرك جيّدًا بعض حالات أصغر، وبالرغم من أنّه يكبرني بحوالي سنتين إلا أنّنا قريبان من بعضنا البعض. أخبرني عن مشاكله، وكذلك حدّثته أنا عن أوضاعي. لكن، أين مشاكلي من حياته؟! أين جهاد السيّد نور الدين من جهاد أصغر؟ بالرغم من أنّني أُصبت بجراح شديدة لمرّتين خلال أقلّ من سنة في كردستان، وفي عملية مسلم بن عقيل حيث لم يتحسّن جسمي أبدًا بعدها، وصرت أعاني دائمًا من آلام الجراح والتهابها، إلا أنّني كنت وحيدًا ومع عائلة تعوّدت على غيابي، وزوجة لم أبدأ معها بعد حياتنا المشتركة. أما أصغر فله عائلة كبيرة تعقد كلّ آمالها عليه وعلى حقوقه القليلة، وتعيش في منزل صغير في ضاحية المدينة، يستلزم الوصول إليه مسير ساعة على الأقدام في الأزقّة الضيّقة والطلعات والسلالم. وعلى الرغم من هذا كلّه لم يكن أصغر ليبقى في منزله والاهتمام بعائلته فقط، وهو يدرك الحاجة إلى حضوره في الجبهة قائدًا لسريّة. فالجبهة كانت تحتاج لـ«رجال!».

◘

في تلك الأيام استلمنا رسائل من الناس للمرّة الأولى. يبدو أنّ رسائل

كثـيرة تُرسـل إلى الجبهة من جانـب التلامذة والناسـ في المدن، لكنّها المرّة الأولى التي نتلقّى فيها رسـائل كهذه. لقد تركت هذه الرسائل فينا أثرًا كبيرًا، وراح الشـباب يذرفون الدموع عند قراءة بعضها. كتبت فتاة صـغيرة: «استشـهد والدي. لقد وعدني أن يأخذني إلى كربلاء لكنّه لم يستطع. أنتم ستنتصرون بإذن الله وستأخذونني إلى كربلاء عوضًا عن والدي ...». وكتبت أخرى: «أنا مضطرة للعمل بحياكة السجاد بالتزامن مـع الدرس. الأغراض التي اشـتريتها لكم هي مـن الأجرة التي تلقيتها مقابل عملي في الحياكة»، وكتبوا في رسـالة عن لسان امرأة عجوز: «لقد اسـتطعت أن أرسـل لكـم خبزًا بعد أن صـمت لعدة أيـام». انتقلت هذه الرسـائل مـن يد إلى يد تاركة أثرهـا في كلّ من يقرأهـا. وأكثر ما بدّل أحوالنـا عندما علمنا أنّ أكياس الفسـتق والزبيب التي وزعت علينا هي من حضرة الإمام، وشعرنا حينها بالمسؤولية أكثر من أيّ وقت مضى[1].

▫

في تلك الأيام كما دائمًا، بقيت أعاني من مشـاكلي الجسـدية. كنت عندمـا أخلـع ثيابي للتدريـب ويرى الشـباب حالي تتبـدّل نظرتهم إلي فيخجلني سـلوكهم. لا أجد نفسـي مسـتحقًّا للطفهم ومحبتهم ولسـت كمـا يعتقدون، لكن كانت أحوالهم تتغـيّر عندما يرون جراحي في الأيام الأولى. صـار الأكـثر قربًـا منّـي يقولون ممازحين: «سـيّد! أيـن المكان السـليم في جسمك؟ لعلّ ما وراء أذنيك فقط بقي سالمًا؟!». قال لي علي باشايي هذا الكلام مازحًا في أحد الأيام فأجبته: «لا بأس! ربما يأتي يوم ويصاب ذلك المكان بشظية أيضًا!».

1 – في ذلك اليوم لم يقل أحد شيئًا عن هذه المغلفات والعلب، لاحقًا قالوا إنها كانت من بيت الإمام، ويبدو أن حرم الإمام تحدثت عن هذا الموضـوع وقالت إنّ الإمام عمل معنا حتى الصـباح في تغليف المكسـرات لإرسـالها إلى الجبهة، علمُنا بهذا الموضـوع رفع معنوياتنا بشكل مضـاعف وسهّل علينا تحمّل الصعاب.

مـع تقـدّم التدريب العسـكري المكثّـف لم يعـد مقبولًا أن نسـبح في الحوض الـذي أقيم بواسـطة الجسـور العائمـة على الماء، بل اتّسـعت مسـافات التمريـن إلى 200 و500 م. كان الشـباب يصـطفّون في رتـل ليدخلوا الماء ويقطعوا هذه المسـافة سباحة. بلغت لياقة الشباب البدنية ومهاراتهم مسـتوى مكّنهم من البقاء في الماء من الصـباح حتى الظهر من دون سـترة نجاة وغيرها من الوسـائل المسـاعِدة. أحيانًا أقاموا في بعض الليالي تدريبًا على الحرب الليلية. في الأيام الأخيرة تركّز القسـم الأعظم من التمرينات على كيفية التحرّك بسكون ومن دون أيّ صوت أو ضـجة. كان الإخوة يدخلون إلى الماء في طابور، ويقطعون أحيانًا مسافة كيلومـترًا داخل الماء من دون أن يصـدر أيّ صـوت من أحد. كنّا نسـبح سباحة الضفدع، وتعلّمنا تحريك أيدينا من دون إصدار أدنى صوت.

إلى جانب هذه التدريبات المكثفة كانت العلاقات الجيدة هي الحاكمة في الفصـيل. كان في فصيلنا أيضًـا عدد من الشباب الأصغر مني سنًّا. من بينهم حميد غمسـوار وصـديقه موسى، «سـعيد بيمان فر» ومحرم آقاكيشـي بور. كان حميد غمسوار شديدًا وذكيًا رغم صغر سنه، وينطق بكلام حكيم وعاقل لا يتناسب مع سنّه وحجمه ما كان يثير إعجابنا! هو من السابقين في الجبهة وذو روحية عالية. مضت فترة طويلة على وجوده في الجبهة، وكان أكثر ما يحدّثني عن القضايا العسكرية.

كان محرم آقاكيشـي بور أيضًـا يمزح معي. يقول: «هذا السـيّد كلما نـاداني تأكدوا أنّه لا يناديني لأجل تناول الطعـام، بل قطعًا هو يناديني للقيام بعمل ما. مثلًا يقول أخ محرم؟ نعم... هناك شخص مريض تعال وانقله إلى أعلى!... حتى الآن لم يحدث أن قال السيّد -مثلًا- أخ محرم، أعددنا اليوم فطورًا جيّدًا تعال كي نتناوله معًا!». في بعض الأحيان يبالغ

أكثر في الشغب، فيقول للشباب: «كلّ هذا في كفّة وعندما يخاطبني قائلًا لقد افتقدناك، في كفّة أخرى! أقول له ماذا حصل؟ فيجيب السيّد إنّ أحد الشباب وقع من فوق الصخور وانكسرت رجله، ليتك كنت موجودًا لتنقله إلى الخلف!». صادف أنّه كان ضعيفًا قليلًا في السباحة، فتسمعه دائمًا يقول: «سيّد! أعطوني رشاشًا في اليابسة وسأفعل كلّ ما تقولون، لكن في الماء دعوني وشأني!». حاولنا أن نأخذه معنا، لكنه ظلّ يسبح إلى جانب الشباب مرتديًا سترة النجاة.

▫

على كلّ حال، تحدّد زمان المناورة بعد انتهاء التدريبات. كان هناك مكان أشبه بجزيرة وضعوا عليه دوشكا وأسلحة أخرى قبل مدّة، وتقرّر أن ننفّذ المناورة فيه. بدأت المناورة الليلية. دخلنا إلى الماء على مسافة 600م من الجزيرة وبدأ التحرك. كان لهذه المناورات ثمارها الكثيرة، فمن خلالها يتعوّد العناصر على النار، ويرون بأنفسهم أنّه يمكن أن يشتبكوا مع عناصر العدو في ظروف مماثلة[1] .

وضّبنا خيامنا بعد الفراغ من المناورة وانطلقنا بالحافلات نحو ثكنة الشهيد باكري في دزفول. لقد تنامت المودّة والألفة بين الشباب، ومع أنّني لا أحبّ التعرّف إلى أحد، وأن أصبح صديقًا حميمًا لأحد، لكن، كان بعض الشباب مثل حميد غمسوار يغمرونني بلطفهم. أخشى أن يصبح أحدهم صديقًا حميمًا لي، ثم يستشهد فتعذّبني الوحدة وغصّة فراق الصديق مرّة أخرى. في هذه الأثناء تقرّر منح جميع العناصر إجازة لمدة 15 يومًا.

1 – بالرغم من أن النيران التي تطلق على الشباب في المناورة تبعد نسبيًّا عن مكان تحركنا للتقليل من إمكانية وقوع إصابات إلى الحدّ الأدنى، ولكن، بكلّ الأحوال ظلت هذه الاشتباكات تذكّر بظروف ليلة العملية.

▫

رجعنا إلى تبريز. كالعادة أعطونا مؤونة للطريق؛ فاكهة معلبة، خبزًا، زبيبًا وفستقًا. جلست مع أصغر علي بور. أذكر أنّهم أعطونًا تمرًا، جافًّا أصفر اللون موضّبًا في علب تزن الواحدة منها 5 كلغ، وكان لذيذًا جدًا. عندما وصلنا إلى تبريز كان قد بقي علبتان من التمر. قالوا ليأخذ التمر من يريد. أخذ حميد علبة لمسجد محلّته، وأنا أيضًا أخذت علبة لكي أوصلها إلى المقرّ. في المنزل عندما تناولت والدتي من هذا التمر، قالت: «نور الدين! أنا لم آكل تمرًا كهذا قبل هذا اليوم، ولن آكل مثله بعد اليوم!»، فأجبتها: «لقد جاء هذا التمر من الجبهة ...».

▫

كالعادة أمضيت أغلب أيام الإجازة مع الشباب. اعتدنا أن نحلّ ضيوفًا على المقرّات الأخرى وغالبًا ضيوفًا على العشاء. في إحدى المرات دعاني حميد غمسوار إلى مسجدهم. كان مركز مسجد حضرة أبي الفضل عليه السلام في الطبقة الثانية من مبنى المصلّى. وقد اشترى الشباب الفول أيضًا. كان حميد عندما يقدّمني إلى أصدقائه يقول: هذا الأخ هو السيّد نور الدين بذاته الذي حدّثتكم عنه[1]، فيشعرني بالخجل.

بما أنّ تجهيزات كتيبتنا قد نقصت بعد أن أتى عليها الحريق، فقد أشاروا علينا بشراء التجهيزات اللازمة لسريّتنا خلال الإجازة وإحضارها معنا عند العودة إلى منطقة العمليات. كنّا أعددنا إحصاءً بالتجهيزات: سماور، موكيت، أوانٍ، وأشياء أخرى من لوازم المعيشة. دفعنا ثمن هذه التجهيزات من مالنا الخاصّ ومن المساعدات التي

1 – لم أكن أصدّق أنه سيأتي يوم أتحدّث فيه عن حميد وشجاعته ومعنوياته في حين أني ابتعدت لسنوات طوال عنه وعن أصدقائي الآخرين... استشهد حميد في مرتفعات ماووت خلال عملية "بيت المقدس3".

يقدّمها الناس. كلّ واحد منّا يشرح الحال لأبيه، وبالطبع فإنّ الوالد الذي يقدّم ابنه لن يمتنع عن تقديم ماله في هذا السبيل. جمع فصيلنا مقدارًا جيدًا من المال. ذهبت برفقة فرج قلي زاده وشخصين آخرين للتبضّع. اشترينا سماورين كبيرين وسفرة للطعام بطول 50 م تقريبًا. كان يلزمنا حوالي 50 م2 من الموكيت. سألنا أخو الشهيد «رهبري»- وهو مسؤول في مؤسسة الخامس عشر من خرداد[1]- عن موضوع شراء التجهيزات، واطّلع على تفاصيل القصة، فبادر إلى جمع المال من العاملين في المؤسسة لشراء الموكيت. لقد اشترينا حتى لوازم «الترشي»[2] وسلّمناها للمنازل ليتمّ تحضيرها. جهّزنا حوالي 50 مرطبانًا من أنواع الكبيس، حوالي مئتي ملعقة، ومئتين من الصحون والأكواب. طبعًا فاق ذلك حاجة سريتنا، وكان الشباب من السرايا الأخرى يقصدوننا لتعويض ما نقص لديهم. اشترينا تجهيزات كثيرة لدرجة أنّنا لم نجد لها مكانًا في الحافلة عندما عدنا إلى الجبهة، ووزّعناها في كلّ مكان خطر على بالنا. بالإضافة إلى ذلك، أحضرنا شاحنة من الحرس لتنقل الموكيت ومرطبانات الكبيس والتجهيزات الكبيرة والضخمة إلى مقرّنا.

في دزفول أردنا -كالعادة- أن ننصب خيمتنا، ولكنهم لم يوافقوا على ذلك، وجاء الخبر بأنّه علينا أن نقضي يومين في مصليات الكتائب الأخرى ريثما يتمّ إرسالنا إلى محلّ التدريب. قبل إيفادنا إلى التدريب استمعنا لكلام قائد كتيبتنا. تحدّث الأخ السيّد فاطمي عن شروط وظروف التدريبات الجديدة فقال: «يختلف هذا التدريب عن تدريبات سدّ (دز). لقد حدّدنا حوالي شهرين ونصف كمدّة زمنية لازمة لهذا التدريب.

---

1 - (5حزيران 1963/تاريخ مفصلي في الثورة الاسلامية بقيادة الامام الخميني؛ خروج تظاهرات كبيرة في مدن قم وطهران و..؛اتخذت الثورةابتداء من هذا التاريخ مسارا تصاعديا؛ تظاهرات؛ اعتصامات؛بيانات الامام وفضحه لاعمال الشاه ودعمه للجماهير ودعوته للتظاهر..).

2 - كبيس من أصناف مختلفة.

وكلّ مـن يتـمّ إرسـاله إلى التدريب لا يحقّ له العودة تحـت أيّ ظرف من الظروف، حتى وإن أصيب بمرض فإنّ طبيبًا سيأتي إلى معسكر التدريب لمعالجته». كان على الشباب أن يفكّروا ويأخذوا قرارهم. لم ينسحب أحد، وكان الجميع مشتاقين وينتظرون تدريبات العملية.

2

انطلقنـا في أواسـط تشـرين الثـاني مـن العـام 1986م إلى منطقة التدريـب بالحافـلات. هنـاك، توجـد بالقرب مـن نهـر «كارون» قرية عرفت باسـم موقع «الشـهيد آجاقلو»، وقد خلت القرى المحيطة بها من سـاكنيها منذ الأيام الأولى للحرب المفروضـة، الأمر الذي ناسـبنا من ناحية المسائل الأمنية. منازل القرية الصغيرة المعدودة المبنية من التبن والطين لم تعد صالحة للسكن، فاستقررنا في داخل الخيام.

في اليـوم الأول ذهبنـا إلى المـاء بالقوارب. من المفترض أن نتدرّب على الغطس، لكنّهم لم يحضـروا بدلات الغطس حتى ذلك الحين. يقول قادتنا إنّ هذه البدلات تُشترى من كندا عبر وسطاء وبثمن باهظ.

بعـد يومين علـى وجودنا في المنطقة، بـدأ المطر يتسـاقط بغزارة في «خوزسـتان». كان المطـر غزيـرًا لدرجة أنّ السـيول غمـرت بعض مدن الجنوب، فراحت الفرق والمقرّات ترسـل إمكاناتها إلى المناطق المنكوبة، وأرسـلوا أكثر مـن 7 آلاف خيمة كمسـاعدات للناس. ضـاقت الظروف علينا حتى إنّ الخبز لم يصـل إلينا لعدّة أيام! في تلك الأوضـاع أفادتنا كثيرًا التجهيزات التي اشـتريناها من المدينة. طبعًا لم يخطر على بالنا أنّـه يمكـن أن نواجه نقصًـا في الخبـز، وإلا لقمنا بتدبـير لمواجهة هذا النقص حال حصـوله. في تلك الظروف أيضًـا لم يسمح لأحد أن يغادر موقع «الشهيد آجاقلو».

أدّى المطر الغزير إلى ارتفاع منسوب المياه في كارون. ففاضت المياه واجتاحت بساتين النخيل، وقطعت الطرقات في المنطقة، ومن بينها الطريق التي نستخدمها. سعينا قدر الإمكان للحؤول دون تقدّم المياه نحو خيامنا. بالإضافة إلى كتيبة حبيب فقد نصبت كتيبة وليّ العصر ﷺ أيضًا -وعناصرها من زنجان- خيامها في ذلك المكان. أخذت المياه تقترب شيئًا فشيئًا من الخيام، وإذا ما دخلتها كان ممكنًا أن تُفشِل جميع برامجنا. أضف، أنّنا لم نملك رفشًا أو معولًا لنصنع سدًّا يحول دون وصول الماء. جاءت رافعتان إلى المنطقة إلا إنّ إحداهما وقعت داخل مياه النهر الهائج! في ذلك اليوم، بدل أن نتدرّب على الغوص، انشغلنا ببناء سدّ أمام الماء مستخدمين الصحون والطناجر والأقدار وكلّ ما كان يخطر على بالنا! رحنا نملأ الأواني بالتراب لنسدّ به مسار المياه. أصبحنا في ظروف صعبة؛ فالسيل قطع الطريق، ولم يعد ممكنًا إيصال الطعام. المروحيّات أيضًا لا تستطيع إيصال الطعام لأنّ ذلك يؤدّي إلى انكشاف مكان التدريب. قالوا إن تحمّلنا 5 أو 6 أيام فإنّ منسوب المياه سينخفض خلال هذه المدّة وتصلح الأمور. في ذلك اليوم انهمكنا جميعًا بالعمل من الصباح حتى المساء. من جهة كان محمد سوداكر- وهو قائد إحدى سرايا كتيبة حبيب- يملأ أكياس الخيش بالتراب بمساعدة الشباب، ومن جهة أخرى رحنا نصنع سدًّا أمام الماء بالأواني والأيدي العارية. لقد نجحنا تقريبًا في منع المياه من التقدّم. في اليوم التالي هدأت المياه وابتدأنا بالتدريب.

استخدمنا أنبوب «الشنوغر»[1] أثناء التدريب. في المرحلة الأولى عندما استلمنا بدلات الغطس كان بينها بدلتان فقط فيهما خمس قطع:

1 - الشنوغر هو أداة تشبه الأنبوب نضع أحد طرفيها في فمنا في حين يبقى الطرف الآخر خارج الماء، وبهذا يمكننا أن نتنفس عندما نكون تحت الماء.

كنزة، سروال، قبعة، قفازات وطبعًا حذاء الغوص الـ«فين»[1]. أما باقي البدلات فهي عبارة عن قطعة واحدة من السروال إلى القبعة، وكان ارتداؤها أصعب. أخذتُ أنا بدلة ذات خمس قطع، وأخذ البدلة الأخرى «رحيم صارمي» الذي كان آنذاك معاون السيّد فاطمي في الكتيبة. خضع الجميع لتدريبات الغطس حتى السيّد فاطمي نفسه. حتى ذلك اليوم، شاركت وحدات الغطس في عمليات خيبر وبدر و«والفجر8»، لكن، اقتصر عملها في تلك العمليات على السباحة فوق الماء، في حين أنّ هذه العملية تختلف عن سابقاتها.

أثناء التدريبات، تعرّفنا عمليًّا إلى أنبوب «الشنوغر»؛ بنيته وطريقة عمله. يمكن التنفّس من خلال هذا الأنبوب، وعندما ينزل طرفه الآخر تحت الماء تمنع المصافي الموجودة فيه دخول الماء إلى الفم، لكن تغلق هذه المياه مسار الهواء. عندها علينا أن نطفو فوق سطح الماء والقيام بالزفير ليخرج الماء من الأنبوب ويُفتح مسار التنفّس. كان لون الجزء العلوي من الأنبوب- الذي يبقى فوق الماء عادة - كلون الماء التي كانت موحلة دائمًا وبلون التراب! يجب أن تبقى حوالي 10 سم من الأنبوب فوق الماء، وإذا ما تحرّك العناصر في طابور، يمكن إذا دقّقنا النظر قليلًا ملاحظة مسير حركتهم من خلال حركة الأنابيب. لكن، طبعًا ليس من السهل رؤية هذه الأنابيب فوق الماء[2].

قالوا لنا إنّه يصعب الغرق مع ارتداء بدلة الغطس، وإنّ كلّ من يرتديها يستطيع أيضًا أن يمسك بشخص آخر في الماء وينقذه من الغرق. بعد ارتداء بدلات الغطس، ينزل الغوّاص تحت الماء بعد أن يربط أثقالًا خاصّة على خصره تتناسب أوزانها مع وزن جسده. وقالوا للجميع

1 – الفين أو الحذاء المخصّص للغطس يشبه أرجل البطة ويسهّل الحركة في الماء ويسرّعها.

2 – لاحقًا وأثناء التمرينات، كانوا يضعون قطعة من الخيش على الماء بحيث يكون الجزء العلوي من الأنبوب تحت هذه القطعة فيبدو الأمر، وكأنّ قطعة من الخيش تعوم على الماء الأمر الذي يضلّل الرائي.

إنّه في حال شعر شخص ما أنّه ينزل إلى عمق الماء باستطاعته التخلّي عن أحد هذه الأثقال عبر سحب قبضتها ليطفو من جديد على السطح. وأكّدوا عليهم أن لا يتركوا أسلحتهم في الماء مهما حدث، وإذا ما واجهوا خطرًا ما فبإمكانهم ترك الأثقال الموصولة بهم فقط.

بدأنا من جديد التدريب في اليوم الذي انخفض فيه منسوب المياه في نهر كارون. أتى «محرم» معنا ولم يشأ مفارقتنا، وهو يعلم أنّه إنّما يمكنه البقاء في فصيلنا إذا تدرّب على الغطس. حاول أن يُحسّن أداءه بالسباحة، وأن يتعلّم الغطس أيضًا. عادة، يمدّون أثناء التدريب حبلًا يساوي طوله طول طابور العناصر، فيه حلقات متباعد بعضها عن بعض بمسافات متناسبة. كلّ عنصر يمسك بحلقة من هذه الحلقات ليبقى العناصر متصلين بعضهم ببعض عبر هذا الحبل. وبالتالي، يبقى جميع المتدرّبين أثناء الغطس على خطّ واحد، وكان ترك هذا الحبل صعبًا قليلًا. عندما غطس محرم، دخل الماء إلى رئتيه، فأفلت يده من الحبل وطفا فوق الماء. في تلك الأثناء كنت في القارب الذي يواكب حركة المتدرّبين. عادة ما يتحرك أثناء التدريب عدد من العناصر بقارب يبتعد 20 إلى 25 م عن الغواصين، وذلك لمساعدتهم عند اللزوم، أو لإنزال أحدهم إلى تحت الماء إن طفا لا إراديًا.

قال لي محرم: «تعال واسحبني».

– انزل إلى الأسفل! تستطيع أن تأتي بنفسك!

أردته أن يتعلّم. كنت أعتقد أنّه إذا خرج شخص من الماء بسهولة أثناء التدريب فلن يتعلّم الغطس أبدًا. لكنه إن رأى أن ليس باليد حيلة سيسعى سعيه ويجهد فيتعلّم شيئًا. تركت «محرم» وشأنه، وهو يصرخ: «اختنقت... اختنقت...». كنت أعلم أنه لن يختنق أبدًا وهو يرتدي بدلة الغطس.

- دعه يصرخ بالقدر الذي يحلو له!

أخذ تيار الماء «محرم» معه...

انتهى التدريب عند الظهر، ليخرج العناصر من الماء ويذهبوا جميعًا إلى الخيام. لا طعام بسبب السيل؛ ولا حتى كسرة خبز واحدة، لكن، توافر العسل بكميات كبيرة، فراح الشباب يأكلونه بأيديهم عوضًا عن طعام الغداء. حتى الساعة، لم يظهر «محرم» بعد، ولم نذهب نحن في أثره، لأنّنا في وضعية تدريب ويتوجّب عليه أن يخرج بنفسه من الماء بأيّ شكل من الأشكال. حلّ العصر ولم نعلم عنه شيئًا. بدأت أقلق.

- يا إلهي! إذًا أين بقي محرم هذا؟

لقد جرّ التيار محرم المسكين إلى منطقة تدريب الغطس التابعة لفرقة «كربلاء25» وهو يصيح ويصرخ. وقد مرّ بمناطق التدريب الخاصّة بعدد من الفرق إلى أن التقطه قارب إحدى الفرق من الماء وعرفوا أنّه من عناصر فرقة عاشوراء. قلقتُ عليه تلك الليلة. أحضروه عند العاشرة ليلًا. ذهبت لأطمئن إليه. عندما رآني غضب وراح يلومني. قال: «قل لي، هل أبي غطاس؟ أمي غطاس؟ جئتم بي إلى هنا لكي أصبح غطّاسًا؟!»، ونحن نضحك ونحاول أن نهدّئه. ذكرت اسم أخيه الشهيد مجيد لعلّه يقلع عن الكلام السيّئ والفارغ كرامةً لأخيه، لكنّه لم يراع حرمة أخيه أيضًا. قال: «اطلبوا منّي أن أفرغ حمولة شاحنة كبيرة، أفرغها خلال عشر دقائق! لكن، ماذا أفعل تحت الماء؟ أعطوني رشّاشًا على اليابسة لأواجه به وحدي سرية من العراقيين، لكن ماذا أستطيع أن أفعل تحت الماء. وهل أنا فعلًا غطّاس غطّاس؟». حاولت تهدئته، قلت له: «سيّد محرم! بكلّ الأحوال عندما جئنا إلى هنا اتفقنا أن كلّ من يأتي عليه أن يتدرّب على الغطس!»، لكنّه أصرّ على موقفه: «حتى لو متّم جميعًا لن أتدرّب على الغطس!». للإنصاف، فقد تميّز محرم بخصال خاصّة.

فمثلًا لا يمكن أن يبقى صحن متّسخًا حيث يكون هو، لأنّه يغسل جميع الأواني. كنّا نحبّه ونسعى لنسكّن قلبه ونهدّئ روعه. بقينا لجزء من الليل نتحدّث ونتحدّث حتى اقتنع قليلًا وهدأ.

◘

بقيتُ تلك الأيام في كتيبة حبيب في السرية الثانية. تولّى الإخوة: أصغر علي بور، محمد سوادكر، وعبد العلي مطلق مسؤولية قيادة السرايا في الكتيبة، وأنا وفرج قليزاده و«علي رضا سارخاني» مسؤولية قيادة الفصائل في سريّتنا.

بعد أيام عدة، وزّعوا عناصر فصيل «علي رضا» ليبقى في السرية فصيلان: فصيل الأخ فرج، وفصيلي أنا. ذهب حسن حسين زاده وعدد من العناصر إلى فصيل فرج، وجاء علي رضا نفسه يرافقه حبيب رحيمي وباقي العناصر إلى فصيلنا. أصبح مسؤولو المجموعات في فصيلنا: حسين نصيري، حبيب رحيمي، ورحيم باغبان. كان حبيب معاوني الثاني. ارتفع عديد عناصر فصيلنا من 35 إلى 45 عنصرًا. من بين الشباب الذين أذكرهم جيدًا من فصيل الغطس ذاك: «حميد غمسوار، سعيد بيمان فر، محمد صدقي، رضا جودت، غلامرضا جشني بور، مازيار نوري[1]، رشيد رنجبر، برويز جودت، ايوب نصير اوغلي[2] واسماعيل اندروا».

تميّز سعيد بيمان فر من بين الإخوة بصوته الجميل. عادة عندما يخرج العناصر من الخيام ويقفون في طابور للنزول إلى الماء، أضع سعيد في أوّل الصفّ وأقول له: «أنشد!»، فينشد بصوته العذب تلك القصيدة

---

1 - استشهد وغلام رضا في عملية كربلاء5.

2 - أصيب في الليلة الأولى من عملية كربلاء5 بجراح وأصبح مشلولاً. تابع دراسته مباشرة وأصبح طبيبًا، وهو زميلي في العمل منذ سنوات في جامعة تبريز للعلوم الطبية.

المعروفة للشـاعر شـهريار في مدح الإمام علـي عليه السلام والتي كانت تُبث في تلك الأيام من الإذاعة على شكل نشيد:

علي يا طائر[1] الرحمة، أيّ آية إلهية أنت!

ألقيت ظلًّا على العالمين، كظلّ الطائر الكبير!

أيها القلب إن أردت أن تعرف الله فانظر دائمًا إلى وجه عليّ!

بالله أقسم، لقد عرفت الله بعليّ!

هو ينشد، والشـباب يردّدون معه بعض أبيات القصيدة. أحيانًا، كنّا عندما نصـل إلى حفّة الماء، نتسـابق مع فصـيل فرج قلي زاده. هو يقود فصـيله وأنا أقود فصيلي، ويسعى كلّ منّا للتقدّم على الآخر. وقد تركت هذه المنافسـة والمسـابقة تأثيرها الجيّد على معنويات الشـباب. شارك الجميـع بالتدريب بشـوق وغيرة. كانـت ظروف الغطس في ذلك الجوّ العاصف لا تصدّق.

في بعض نقاط نهر كارون توجد دوّامات*، سعينا أن لا يقع الشباب فيها، لأنّ الخروج منها كان واقعًا عملًا صـعبًا. فالدّوامة تشـدّ من يقع فيها إلى الأسفل بقوّة كبيرة، ومن الممكن أن يقع فيها جميع الشباب الذين يمسكون بالحبل ويتحرّك بعضـهم وراء بعض. ووصلت قوّة بعض الدوّامات لدرجة أن يعجـز حتى القـارب عن الإفلات منهـا إن علق بها. بعيـدًا عنّا قليلًا، تموضـعت قوات الوحدة البحرية، وكتيبة الإمام الحسـين عليه السلام، وكان في تلك الجهة دوّامة أخافتنا جميعًا.

عرفنا تدريجيًّا من أين تؤكل الكتف. عندما يقف الشـباب في الصف للنزول إلى الماء صرنا نضع ثلاثة من الشباب الماهرين وأصحاب القدرة البدنية الجيدة في أوّل الصف وآخره ووسطه. أحد هؤلاء الذين نضعهم

1 - هماى: طائر العنقاء الخرافي، من قصيدة للشاعر الايراني شهريار.

* – يقال عنها: زوبعة البحر أيضًا.

في الأمام هو صديق لحميد غمسوار. تمتّع بقدرات جسدية جيّدة، وعوّلتُ عليه كثيرًا، لكنّني عرفت لاحقًا أنّني أخطأت التقدير[1].

لم تكن الحركة في طول النهر وباتجاه تيار الماء صعبة جدًا، لكن كان من الصعب علينا الغوص في عرض النهر والتوجه إلى الشاطئ. في الأيام الأولى سبحنا باتجاه تيار الماء. نمشي على الشاطئ ثم ننزل إلى الماء ونرجع غوصًا إلى مكاننا الأول، حيث نخرج من الماء، ثم نمشي على الحافة مرّة أخرى لندخل إلى الماء من نقطة أخرى. في هذه المراحل كان الخروج من الماء أكثر الأعمال صعوبة. فهو يستوجب أرجلًا قوية قادرة على تحريك «البالمات» (الزعانف) بشدّة لنصل إلى سطح الماء. تدريجيًّا أيضًا أتقنّا هذا العمل؛ لا يجب أن نخرج جميعًا من نقطة واحدة، بل على العناصر الاقتراب من الشاطئ على شكل طابور. وفي تلك الحال، كان عدم الدقة والتنسيق -مهما صغر- كفيل بالسماح لضغط الماء بأن يفرّق الجمع. كان العناصر الأقوياء الذين نضعهم في أول الصف وآخره ووسطه يبذلون جهودًا مضاعفة عند الوصول إلى الشاطئ؛ يضربون بالزعانف بقوة لكي يتمكّن الممسكون بالحبل من الوصول إلى الشاطئ. غالبًا ما كنت موجودًا أنا أيضًا مع الشباب في الماء، وأحيانًا أصعد القارب وأواكبهم لأنظّم أمورهم.

في أيام الخريف تلك، في منطقة آجاقلو، تحمّل الشباب ظروفًا قاسية لا تُصدّق وبكلّ صفاء وإخلاص. عندما نذهب إلى الشاطئ مشيًا نحو الجهة العليا من النهر كي ندخل الماء من هناك، يكون أغلب الشباب حفاة. لقد أعطوا الفصائل جوارب للغطس[2]، ولكنّ عددها لم يكن كافيًا. فمثلًا

---

1 – لقد خاف ليلة العملية ورجع. طبعًا أدركت خلال فترة التدريب أن لديه قوة بدنية جيدة، ولكنه ضعيف من الناحية المعنوية التي تعتبر الشرط الأول للمشاركة في سرية الاقتحام، على العكس من ذلك كان يوجد أشخاص كحميد غمسوار الذي لم تكن بنيته الجسدية قوية، ولكن جرأته وشغبه تحوّلا في ساحة الاشتباكات إلى الشجاعة والمعنويات، كم كان لافتًا للنظر رحمه الله!

2- يطلقون على جوارب الغطس هذه أيضًا اسم حذاء الغطس.

أعطوا الفصيل الذي يضم 35 عنصرًا عشرة أزواج منها يتناوب الشباب على انتعالها. إضافة لذلك، لم تناسب هذه الجوارب بعض الشباب، فلها كالأحذية العادية أحجام وأرقام. لذا كانت ألبسة وأحذية الغطس تؤذي أغلب العناصر خاصّة من هم في مقتبل العمر. وشاهدت كيف يربط بعضهم أحذيتهم بالخيط حتى لا تفلت من أقدامهم. في هذه الظروف، كنّا عندما نضطر لقطع هذا المسير ركضًا وبأقدام عارية في كثير من الحالات، تنغرز في أقدامنا الأشواك والتبن وسيقان الأعشاب اليابسة. ليبدأ الشباب أثناء الاستراحة بنزع الأشواك من أقدامهم بالإبرة.

من جهة أخرى، كأنّ الطبيعة أرادت أن تمتحن صبرنا وثباتنا، فطوفان مياه كارون الذي أدى إلى توقّف التدريب في الأيام الأولى في منطقة آجاقلو ثم هدأ بعد ذلك، بدأ ثانية بعد يومين أو ثلاثة أيام. ارتفع مستوى المياه في النهر وبدأ بالتقدّم في المنطقة المحاذية. غمرت المياه مكان تموضع عناصر الوحدة البحرية وعناصر المعلومات، وحوصرت خيام الكتيبة بالمياه. علمنا أنّ المياه تتقدّم نحو الخيام. جهدنا لمحاصرة أطراف الخيام الأربعة بالتراب كي لا يطالها الماء. التقط كلّ واحد منّا مصباحًا وركض نحو الخيام مصطحبًا معه رفشًا ومعولًا وكلّ ما يمكن استخدامه. أثناء الطوفان السابق نقلنا التراب باستخدام الصحون والأواني فقط. هذه المرّة أيضًا كان عدد «الرفوش» قليلًا فلجأ الشباب إلى أكياس الخيش والنايلون يملأونها بالتراب ويشكّلون سدًّا بوجه الماء. في تلك الليلة عمل الجميع حتى الصباح على حفر قناة تُرجِع الماء الذي دخل إلى مكان تموضعنا –بعد أن عبر من فوق ساتر قليل الارتفاع– إلى نهر كارون. حالت السواتر في منطقتنا دون تقدم المياه في أجزاء كثيرة. في تلك الليلة عمل الشباب حتى الصباح تحت ضوء الفانوس والمصباح اليدوي .أحد الذين بذلوا جهدًا مضاعفًا تلك الليلة كان محمد سوداكر. فمع أنّه قائد السرية، إلا أنّه واكب الشباب وساعدهم في أصغر الأعمال.

استمرّ التدريب على الغطس في ظروف صعبة: الأحوال الجوية والصقيع القارس وصعوبة التدريبات من جهة، وعدم وصول الإمكانات الغذائية من جهة أخرى، ما جعل من هذه الدورة واحدة من أصعب الدورات التدريبية. أثناء التدريب على الغطس وقعت أحداث لا يمكن تصورها في ظروف أخرى. عادة كنا بعد ارتداء بدلات الغطس والبقاء ساعات داخل المياه الباردة نفقد القدرة على التحكّم بالتبّول، فتكرّرت حالات التبوّل اللاإرادي بيننا. كانت بدلات الغطس تحول دون نفوذ الماء منها وإليها، لكن، اختلف الوضع بالنسبة إلى بعض البدلات القديمة، فكان الماء ينفذ إلى الداخل، ليتلطّخ رأس ووجه الشباب بالطين أثناء الغوص وعند خروجهم إلى الشاطئ. لذا كانوا عندما يخرجون من الماء يذهبون إلى الجسور الممتدة بمحاذاة الشاطئ، يخلعون بدلات غطسهم ثم يدخلون إلى الماء مرّة أخرى كي ينظفوا أجسادهم ويطهّروها. ولا أستطيع إيجاد كلمات تعبّر عن مدى صعوبة النزول إلى ذلك الماء البارد.

خلال الأيام الثلاثين التي قضيناها في التدريب توجّب علينا الاستحمام في ذلك الماء البارد بسبب عدم توافر حمّامات في المنطقة. كان الماء باردًا لدرجة أن تصيبنا رجفة قوية عندما نمسّه، وفي كثير من الأوقات تسمع صرير أسنان الشباب من شدة البرد في ذلك المكان. في تلك الظروف كان عناصر الدعم يصبّون البنزين على الدواليب المستعملة والأغصان اليابسة وكلّ شيء يمكن أن يستغرق وقتًا ليحترق، ويضرمون النار بها حتى ينعم الشباب بالدفء قليلاً. كانوا ينزعون بذور التمر ويضعون الجوز مكانها ليتناولها الغواصون عند خروجهم من الماء، ولكنّ هؤلاء لم يقووا أحيانًا على فتح أفواههم. رأيت عناصر الدعم لمرات عدّة يفتحون أفواه الشباب ويضعون التمر فيها! في ذلك الوضع كانت حالي أنا نور على نور أيضًا! فبالإضافة إلى كلّ المشاكل

التي عانينا منها، ابتليتُ بمشــاكل خاصّة بسبب جراحي القديمة. خلال دورة الغطس انكمشــت عضـلـة فمي مرتين من شــدّة البرد، وفي كلّ مرّة احتجـت إلـى أسـبوعين لتتحسّـن حـالي! عندمـا تنكمش عضـلة فمي، تلتصـق أسناني بعضـها ببعض، ولم يكن ليفتح بأيّ وسيلة، لا بالتدليك ولا بالقوّة والضغط. ولا أجد بدًّا من الرضوخ لذلك الوضع والصبر لمدّة 15 يومًــا. في ذلــك الوقت، كنت أشـعر بألم عجيب في فكّـي، وأتكلّم من خــلال تحريك شـفتيّ، وطعامي الوحيد آنذاك هو الحليب الذي أشــربه بعد أن يضـيف الشباب العســل إليه. أحيانًا أبلّ البسكويت بالماء وأرشفه رشفًا. كان كلّ شيء يليق بالمشاهدة خلال أيام التدريب تلك حتى معركتي الجديـدة مع جراحاتي القديمـة! وكأنّ جراحاتي تفتح فاهها في صـقيع الليل والنهار لتأخذ نفسًا جديدًا وتنبعث من جديد. بالإضافة إلى انكماش عضـلة الفم[1]، كنت كلما أدخل إلى الماء أشـعر كأنّ شـراييني التصـقت بعضها ببعض وأصاب بالييباس... كانت عضلاتي تتقلّص وتؤلمني لدرجة أن أعجز عن التنفس. إضــافة إلى هذا، عندما أضطر إلى الغطس تحت المــاء أثنــاء التدريبات، ولأنّ جـدار أنفي قد أزيل من مكانــه، كانت المياه تنزل من ثقب أنفي إلى داخل فمي! وكان بعض الذين يخشون دخول الماء إلى أنوفهم يسـتخدمون سـدّة الأنف التي يبقونهــا معلّقة في رقابهم فلم يشــكّل ذلك قلقًا لهم. أما أنا فمشــكلتي تجاوزت موضوع الخوف، فوضع أنفي جعــل دخول الماء بنحو قهري لا مفرّ منه، وبمجرد دخولي إلى الماء، ينصبّ إلى بطني مثيرًا بعض الصخب! لذا حاولت دائمًا استخدام «سدّة الأنف». امتلك رحيم صارمي واحدة أفضل من تلك التي بحوزة الآخرين. لم أعلم من أين حصــل عليها. في أحد الأيام وجدت أنّ حالي بدون سدّة

---

1- لا أعلـم لماذا كان فمي ينكمش. مهمــا كان، فإنّني أحمل تلك الحال كذكرى من أيام التدريب على الغطس قبل عملية كربلاء4، والآن في فصـل البرد هذا إن لم أنتبه لنفســي سوف تعاودني تلك الحال مرّة أخرى. كما بقي التهاب عيني ذكرى من تدريبات بدر ولم يتركني إلى يومي هذا.

الأنف ستكون سيّئة، فقصدت قائد الكتيبة السيّد فاطمي وقلت له: «سيّد! عليكم أن تعطوني سدّة أنف».

– يوجد من هذه.

– سيّد! لدى رحيم واحدة من النوعية الجيّدة. خذها وأعطني إياها! بقية السدّات لا يمكن الوثوق بها كثيرًا!

بعد ذلك ذهبتُ إلى رحيم الذي كان واقفًا هناك: «رحيم! لقد أصدر السيّد أمرًا بأن تعطيني سدّة الأنف هذه!».

– أجل! كل أغراض السيّد نور الدين يجب أن تكون من الدرجة الأولى!

صحيح ما قاله. فبدلة الغطس خاصّتي لها سحّابات في أكمامها وأرجلها ويمكن ارتداؤها بسهولة، في حين ليس لثياب الغطس الأخرى سوى سحاب واحد، وعند ارتدائها كان لا بدّ من مساعدة شخص آخر على ذلك. الزعانف أيضًا كان منها الجيد والسيّئ. فالنوع الكندي طريٌّ ويمكن التحرّك بسرعة وسهولة من خلاله، بينما النوع الإيراني أقلّ طراوة، ويلزمه جهدٌ لتحريكه في الماء. كنت أنا ممّن يملكون زعانف جيّدة! شكاني رحيم عند السيّد فاطمي: «إنّ جميع أغراض السيّد نور الدين هذا هي أغراض نموذجية! ثيابه زعانفه و... والآن يريد سدّة الأنف خاصّتي!».

كان محقًّا. واجهنا أثناء تدريبات الغطس مشاكل طبيعية كالطقس البارد وضعف أحوالنا الجسدية من جهة، ومشاكل في الإمكانات من جهة أخرى، كالنقص في ثياب الغطس، أو نقص الطعام الذي كان مؤذيًا في الأسبوعين الأوّلين من التدريبات. لكن، اختلف الوضع بشكل كامل بعد ذلك. بات الطعام يصل بكميات كبيرة إلى درجة أنّ الشباب صاروا غالبًا يأكلون اللحم ويبقون الأرز. أمّا فيما يتعلق بالإمكانات،

فبالإضافة إلى المشاكل التي واجهناها في بعض البدلات، فإنّ حجمها أيضًا لم يكن في الأغلب مناسبًا للإخوة، وبعضها كان مستعملًا وبقي من العمليات السابقة. أمّا بالنسبة إلى الزعانف أيضًا، فقد اضطر الشباب إلى ربطها بأرجلهم بالخيطان أو الحبال حتى لا تنفلت من أقدامهم أثناء استخدامها. في بعض الأحيان انفلتت الزعانف من أرجل الشباب وغارت في الطين والوحل بالقرب من السدّ. لذا كانوا دائمًا يسحبون أرجلهم سحبًا على الأرض بالقرب من الشاطئ بحثًا عنها، فإذا ما اصطدمت أقدامهم بها استطاعوا إخراجها. تقرّر أنّ كلّ من يجد شيئًا يستخدمه لنفسه. صادف أن وجدنا زعانف كثيرة غرقت في الطين والوحل بسبب وزنها.

◻

في أحد الأيام، وبينما أنا جالس في القارب أثناء التدريب أراقب حركة الشباب تحت الماء من خلال مراقبة أنابيب «الشنوغر»، رأيت أحد الشباب يعلو فوق الماء ثم ينزل مرّة أخرى. أمعنت النظر وإذ به يعلو مرّة أخرى ويصرخ: «لقد اختنقت!».

- أفلت يدك من الحبل.

أفلت يده من الحبل وذهبنا نحوه. ترك قبضة الـB7 التي يحملها في الماء. سحبناه إلى القارب ووجدنا أنّ مصفاة أنبوب «الشنوغر» تعطّلت فدخل الماء مباشرة إلى فمه ورئتيه، وراح يبكي بكاءً شديدًا.

- إذًا، لماذا تبكي الآن؟

- سيّد! لقد تركت الـB7 في الماء!

- ...لا مشكلة! دعنا نر ما يمكن فعله.

- سيّد! أحضر لي قبضة الـ B7 من السيّد فاطمي، وأعدك أنّني

سآخذ ثلاثًا بدلًا عنها من العراقيين!

كان قاذف الـB7 الذي تركه زميلنا في الماء من النوع الكوري، وهو من أفضل الأنواع. شرحت القصّة للسيّد فاطمي فقال: «لا تقسُ كثيرًا، ولكن، في الوقت عينه لا تكن ليّنًا لدرجة أن تجعل من كلّ واحد يتعرّض للاختناق يترك سلاحه قبل كلّ شيء». بقي ذلك الشاب لفترة طويلة يقول لي في كلّ مرّة يراني فيها: «سيّد، أؤكد لك أنّني على الوعد الذي قطعته...».

كانت أسلحة الشباب بحوزتهم طوال فترة التدريب. وكان لزامًا علينا في كلّ يوم بعد انتهاء التدريب وبالرغم من التعب والبرد، أن نضعها في المازوت وننظّفها حتى لا نواجه مشكلة أثناء العملية.

▫

بالرغم من مشاكل التدريب كلّها إلا أنّ علاقة الشباب وتعاملهم بعضهم مع بعض كان عجيبًا. لم نكن نصدر الأوامر لهم كمسؤولين وأعلى رتبة منهم، ولم يكونوا هم ينظرون إلينا من هذا المنظار. عادة عندما كنّا نلجأ إلى الخيام هربًا من برودة الطقس في الخارج، نلتفّ حول المدفأة النفطية. كان الشباب حقًّا طاهرين ومخلصين. لم يُخصّص وقت لاجتماع جميع عناصر الكتيبة. أحيانًا استطعنا الذهاب لأداء صلاة الجماعة، لكنّ التوسل بأهل البيت عليهم السلام لم يتوقّف أبدًا بالرغم من ضغوط التدريبات. كان الشباب عادة يتناولون طعام عشائهم في الخيمة، ثم نخفض فتيل المدفأة ونقرأ دعاء التوسّل. كان الحاج رضا داروئيان وهو من القراء المحبوبين في الفرقة، يقرأ العزاء في جمع كتيبة حبيب، ولكنّه أحد عناصر سرية «مطلق»، ولم يكن في فصيلنا قارئ عزاء معيّن. طبعًا أطلقت هذه المسألة العنان لألسنتنا. فعادة عندما نكون في مجلس عزاء، يكون الجميع مستمعين، وهو يقرأ من العزاء ما يبدّل الجوّ

العام في الخيمة. لكن، عندما نخفض فتيل المصباح وتظلم الخيمة، يبدأ الشباب بقراءة دعاء التوسل. كلّ واحد يقرأ فقرة منه ويتحدّث عن أحد الشهداء بحرقة، تارة عن الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وعائلته، وطورًا عن شهيد يعرفه الجميع. فلم يعد هناك من حاجة لقارئ كي يُبكي الجمع ويحزنهم. عندما يؤتى على ذكر اسم شهيد، كانت قلوبنا جميعًا تحترق. أولئك الذين كانوا حتى أشهر خلتْ إلى جانبنا في الخيمة وفي الدشمة، وكان مجرّد التفكير بهم وأيّ نوع من الأصدقاء هم، كفيلاً بأن يزرع الحرقة في قلوبنا ويجعلنا نذرف الدموع لساعات. كان الشباب أنقياء وعلاقات بعضهم ببعض خالصة لدرجة أن يقول أحدهم أحيانًا أثناء مجلس العزاء: «أنا قمت بأعمال خاطئة، أنا أذنبت، ادعوا الله لي يا شباب كي يعفو عني!».

كنت أتعجّب. فماذا يمكن لمجاهد لا يتجاوز عمره 17 أو 18 عامًا أو أقلّ، أن يكون اقترف من الذنوب أو ارتكب من الأخطاء؟ إلى أيّ درجة وصل أولئك حتى كانوا يصرّون على أصدقائهم أن يطلبوا لهم العفو في صلواتهم؟ أخطاء لا نعيرها أيّ اهتمام أساسًا في حياتنا في المدينة أو نعتبرها شيئًا لا يذكر، كانت تشغل ذهن الشباب في الجبهة لفترة طويلة. أحيانًا يحصل أن يتحدّث أحد ما عن مشاكله الحياتية بين الجمع. واحد يتحدّث عن مرض أمه ويطلب من الشباب أن يدعوا الله لشفائها و...

أرواح المجاهدين الطاهرة كانت تُصقل هناك وتصبح أكثر طهارة ونقاءً. أثناء دعاء التوسل كانت تعلو بعض الأصوات. عادة كان حسين نصيري يقرأ الدعاء باكيًا. وكان حميد غمسوار وحبيب رحيمي[1] ورحيم يقرأون الدعاء بصوت عالٍ أيضًا. في ذلك الجمع الخالص والنقيّ كنت أنظر إلى الشباب وأغبطهم على حالهم أكثر مما كنت أبكي.

---

1 - لقد تألّق هؤلاء الثلاثة (حسين وحميد وحبيب) بارتدائهم ثوب الشهادة.

كانت صلاة الجماعة تقام في خيمة الفصيل بسهولة.

- لا يوجد رياء هنا. من كانت قراءته في الصلاة صحيحة فليتقدّم لإمامة الصلاة.

إذا كان ثمة مجاملة هنا فلأنّ قراءة الجميع كانت صحيحة، وكلّ واحد يرغب بالصلاة خلف صاحبه الذي يعتبره أفضل منه.

مع أنّني حتى ذلك الزمان أمضيت أيامًا عديدة في الحرب وبين المجاهدين، لكنّ أيام التدريب على الغطس اختلفت عن كلّ تلك الأيام. فبالإضافة إلى كلّ صعوباتها، كان علينا في كلّ مرّة نخرج فيها من الماء أن نستحمّ في ذلك الصقيع بالماء البارد. بعد ذلك، يصل الدور إلى أعمال أخرى كمدّ البطانيات -التي كانت فرشة نومنا- أو تجفيف الثياب. كان بعض الشباب أمثال حميد غمسوار يضرمون النار خارج الخيمة منذ الصباح الباكر، ويضعون بدلات الغطس -التي بقيت حتى الصبح خارج الخيمة في الصقيع- بالقرب منها حتى تدفأ قليلًا فلا يتأذّى الشباب كثيرًا أثناء ارتدائها. لا يمكن وضع تلك البدلات داخل الخيام لأنّ كلّ شيء سيتبلّل وستزداد مشاكلنا حينها. كان خلع الثياب الدافئة وارتداء بدلات الغطس الرطبة التي تكاد تتجمّد في صقيع الليل كفيلًا بأن يصيبنا بصدمة تكاد توقف قلوبنا عن الخفقان! وكلّنا عشنا تلك الحال! لذلك كان بعض الشباب يضحّون بنومهم واستراحتهم ليشعلوا نارًا ويُخفّفوا قليلًا من قساوة بدلاتنا وبرودتها.

تموضعت كتيبة حبيب في نقطة كتيبة ولي العصر التي كان عناصرها من زنجان، وكانت تفصل بين الكتيبتين مسافة 50 م. هم أيضًا كانوا يخضعون لتدريبات الغطس. أحيانًا كان يدعو بعضنا بعضًا لتناول طعام الفطور، وبهذا كانت المودّة والأخوّة تصبح أكثر استحكامًا بين أفراد الكتيبتين.

▫

سعيت للبقاء جانب العناصر في كلّ الظروف، فلم يكن مناسبًا بالنسبة إلي -كمسؤول فصيل- عدم مواكبة الإخوة والمشاركة في التمارين. مع أنّني عانيت الكثير بسبب وضع جسدي، لكن لا يجب أن أضعف معنوياتي ومعنويات الإخوة. في ذلك الماء البارد، حتى بعض العناصر السالمين والأقوياء تعرّضوا أحيانًا لشدٍّ عضليّ فلم يقدروا على الحركة إلا بمساعدة آخرين. في هذه الأوضاع كان بعض العناصر الضعاف البنية أو الذين أصيبوا بالشظايا والرصاص أسوأ حالًا، لكن ليس بالإمكان تعطيل العمل، وسريعًا اقترب موعد المناورة.

▫

تقرّر أن ينقلونا ليلًا بالسيارات إلى الأمام لنغطس في الماء وننطلق نحو خطّ العدوّ المفترض وفق تعاليم الغطس التي تدرّبنا عليها. وضعوا من الجهة الأخرى عناصر كعدوٍّ افتراضي، عليهم باستخدام الـB7 والدوشكا تحويلَ ساحة المناورة إلى نموذج صغير عن ميدان القتال الواقعي. علمنا أنّ السيّد فاطمي وقائد الفرقة السيّد أمين شريعتي يراقبان عملنا. أرادا أن يعلما أكثر من أيّ شيء آخر إذا كان الغطّاسون يصدرون أصواتًا أثناء حركتهم أم لا.

دخلنا إلى الماء في عتمة الليل من المكان الذي حُدّد سابقًا. كانت المياه باردة كالعادة، ورحنا جميعًا نرتجف. كنّا قد قطعنا حوالي 2 كلم من المسير عندما انكمشت عضلة رجلي وأُسقط في يدي! لقد سلَبَ الألمُ السكونَ والأمانَ منّي بحيث لم أستطع أن أتحرّك. اشتدّ البرد والصقيع وأنا واقف في مكاني، فاضطررت أن أبقى هناك وأكمل الشباب طريقهم. أثناء التدريب تواكب القوارب حركة الأفراد من الخلف لكي يسحبوا العناصر العالقة في الماء والعاجزة عن الحركة. انتظرت حتى أتى قارب وسحبني إلى شاطئ أشبه بجزيرة حيث المياه تنقسم عنده إلى مسارين.

طلبـوا مني الانتظار هناك حتى يأتي القارب الذي يليهم فيراني الإخوة ويأخذوننـي معهم. ذهبوا وبقيت وحيدًا، وأنـا في غفلة عن أنّه ليس من المقـرّر في تلـك الليلة أن تأتـي القوارب إلى هذا المـكان! كان الجوّ باردًا وترك أثرًا عجيبًا على جسـمي المبلول بالماء! أعلم أنّ مسـير الغطس في المنـاورة يبلـغ حوالي 5 كلم، وقـد قطعت حوالي 2 كلم مع الشـباب منذ الحادية عشـرة ليلًا. لكنّني الآن وحيدٌ في ذلك المكان ولا شـيء يتحرّك بالقـرب مني. أعلم أن بدلـة الغطس تحميني من الحيوانات، لكنّ خوفي كان من البرد الذي أخذ ينهش بدني كالمنشـار ولم تكن قَرْصَتُهُ لتخمد. لم أعـد أسـتطيع أن أتحكّـم بالرجفة في جسـمي. فكّـرت في أن أنطلق لأصـل بنفسي إلى مكانٍ ما، ولكنّني احتملت أن يراني أحدٌ في هذا الليل مرتديًا بدلة الغطس فيخاف مني ويصيبني بسوء. كذلك، لم أكن أعرف طريق العودة من اليابسـة جيدًا فقد أتينا ليلًا بالسيارة. اضطررت إلى البقاء هناك. كنت أتحرّك صـعودًا ونـزولًا وأقوم ببعض حركات الليونة لعلّـي أحافظ على جسـمي دافئًا ولـو قليلًا. اسـتبعدتُ أن أهلك في تلك الليلة من شـدّة البرد، ولكنّ تحمّل تلك السـاعات كان حقًّا أمرًا صعبًا. أخـيرًا أيقظني صـوت قارب عند بزوغ أول الصـباح. يبدو أنّ الشـباب أخبروا السـيّد فاطمي أنّني بقيتُ في الطريق فأرسلَ قاربًا ليُقلّني. كانت حالي سـيّئة لدرجة أنّني لم أستطع التحرّك بمفردي. ساعدني الشباب وأوصـلوني إلى الخيمـة. بقيـت حتى الظهـر تحت عدد مـن البطانيات من دون أن يفارق الجليد جسـمي! من جهة أخرى اعتقد الشـباب أنّني لـذت بالفرار! فراحوا يقولون: «لقد رأينا فرار الجميع! ما عدا مسـؤول الفصيل، الذي رأيناه هنا أيضًا!».

– يا هذا! أقسم بالله لم أهرب! أصاب قدمي شدٌّ عضلي. بل يا ليتني اسـتطعت أن آتي معكم بقدمي هذه لأمسك بالحبل وتسحبوني ولا أبقى أتجمّد من شدّة البرد حتى الصباح هناك.

الفصل الرابع عشر

# الجرح في كربلاء 4

1

في أواخر أيّام التدريب، جاء دور شرح خريطة العمليّة. كنّا نظنّ قبل أن نرى الخريطة أنّها عمليّة كسائر العمليّات الأخرى؛ كـ«بدر»، و«والفجر8»، لكن، تبيّن لنا أنّ عمليّة «كربلاء4» مختلفة. وعرفنا من الخريطة أيضًا أنّ 10 إلى 15 فرقةً ستشارك في هذه العمليّة. وقالوا لنا إنّنا سنكون كتيبة الغوّاصين، لكنّهم لم يتكلّموا كثيرًا عن المكان الذي ستعبر منه القوّات. مع كلّ هذا، عندما نظرنا إلى الخريطة ساورنا الخوف، ليس الخوف من العدوّ، فقد كنّا نؤمن بأنّ لنا روحًا واحدة فقط، وفي أيّ وقت أراد اللّه يسترجعها. لكنّ الخوف كان من فشلنا بإنجاز عملنا نظرًا لموقع المنطقة الصعب، ووجود مضيق تبلغ مساحته 150 م، تمركزت قوّات العدوّ على كلا ضفّتيه. كان علينا الانطلاق من ضفّة نهر «عرايض» في خرّمشهر، والمسير مسافة 7 كلم داخل الماء حتى نصل إلى مصنع للبتروكيميائيّات في البصرة. وفي حال وصولنا إلى الضفّة من دون أيّ اشتباك، كان على كتيبة حبيب أن تحتلّ المصنع؛ وهو بناءٌ ضخم بدا على الخريطة صغيرًا، ويقع أمام خطّ الدفاع العراقي الثالث، ثم التحرّك نحو «جزيرة الأسماك» التي تقع إلى جهة إيران، والالتحاق بكتائب الفرق الأخرى. ما إن انتهى شرح الخريطة حتّى سألت السيّد: «سنتقدّم قرابة 6 كلم في قلب العدوّ، فإن رأونا، أو أُصيب أحدهم وراح يصرخ ولفت أنظار الأعداء إلينا، فهل هناك إذن بالاشتباك ونحن في وسط الماء؟!». في الجلسة الأولى جاء الجواب بالنفي.

– سيّد! بهذه الحال سيرموننا ويصيبوننا!

– أجيبك فيما بعد.

كان ينبغي شرح الخريطة أكثر، والاستعانة بالمناظير مهما أمكن، والتقدّم إن أمكن أيضًا، ومعاينة المكان الذي سننطلق منه عن قرب. انشغل بالي منذ الجلسة الأولى تلك. فالأمر هنا يختلف عن أروند و«والفجر8». ففي أروند كانت إحدى ضفّتي النهر في يدنا، والضفّة الأخرى في يد العدوّ، أمّا هنا، فعلينا الغوص مسافة 6 كلم تقريبًا في مياهٍ تستقرّ قوّات العدوّ على جانبيها.

في الأيّام الأخيرة تحدّثت إلى صديقي «مهديقلي رضايي» وهو من شباب المعلومات والاستطلاع. أحسست من كلامه بأنّ أمر العمليّات قد انكشف. قال إنّ العراقيّين يغلقون المضيق بالحواجز الحديديّة[1]. ظننت من كلامه ومن أوضاع المنطقة بأنّ هذه العمليّة لن تنفّذ، لكنّني لم أصرّح بظنّي لأحد. حتمًا هو أيضًا لم يقطع أملنا، وقال إنّ احتمال إجراء العمليّة هو 50%.

في جلسات التوجيه التالية، سألت أكثر عن كيفيّة الانطلاق والمواجهة. واطّلع كلّ مسؤول* عن توجيه العناصر على أدقّ التفاصيل. وقد طُرحت مسألة الاشتباك أثناء المسير مرّات عدّة، ولم يقبل السيّد فاطمي بتوجّه القوّات وسحبها إلى الضفّة في حال الاشتباك، لكنه قال لي في الجلسة الأخيرة: «في أيّ مكان اشتبكتم، اصعدوا إلى الضفّة. لا إشكال إن لم تكونوا قد وصلتم بعد إلى مصنع البتروكيماويّات، لكن اصعدوا إلى الضفّة، وتابعوا تقدّمكم نحوه من هناك».

1- فصّل مهديقلي رضايي (في كتاب مذكّراته "لشكر خوبان = فرقة الأخيار" تدوين معصومة سبهري) **الكلام** عن عمليّات الاستطلاع لمعركة كربلاء4 وعن ذلك المضيق بشكل جميل جدًا.

*- وغالبًا ما يكون عنصر استطلاع ومعلومات.

▫

إنّهـا الأيّام الأخيرة للتدريب. وقد أصـبح الآن أغلب الإخوة ماهرين وخبراء في الغوص. وجريًا على العادة، عندما تتوجّه المجموعة في طابور نحو الماء، ينشد «سعيد بيمان فر» النشيد الذي نحبّه:

مرّة أخرى حماسة العشق والصفاء

قد حلّ الكرب على كلّ أولاد عليّ والبلاء

فرجال اللّه وصلت أنّاتهم إلى حرم الكبرياء

وارتدّ الرأس مفصولًا عن الجسد بسيف الجفاء

ما دام شوق الحسين في قلوبنا سيكون نهج الخميني رفيق دربنا

كان سـماع هذا النشيد، وعلى وجه الخصوص بصوت «سعيد» -وهو من الشـباب الذين خبروا الجبهة جيّدًا- يضفي جوًّا خاصًّا في النفوس، ويرفـع من معنويّـات الإخوة. قبـل أيّام مـن العمليّة، أتـت إلى المنطقة مجموعـة من قِبَل مقـرّ الفرقة على ما يبدو للتصـوير. فتحـدّث إليهم شخصـان، ثمّ أَشـاروا لهم إليّ! تقدّم المراسل نحوي، وراح المصوّر يدور حولي ليلتقط صورة لوجهي المهشّم جرّاء الإصابة، فلم أدعه يفعل ذلك. وكأنّ عملنا أصـبح فيلمًا! وصـل الأمر إلى درجة صـرت أفرّ منهم وهم يلحقونني إلى أن تركوني وشأني [1] .

▫

المرحلـة الأخـيرة كانت تدريـب القوّات على الصـعود إلى الضـفّة. أخذنا الإخوة إلى تلك الناحية من الضـفّة الافتراضـية المقرّر خروجنا من الماء عبرها، وقلنا لهم إنّه يجب أن يرفعوا أسلحتهم إلى الأعلى حتى

1ـ طوال وجودي في فرقة عاشوراء، وفي زمن الحرب، تمّ تصويري في فيلم لمرّة واحدة فقط من دون علمي، وكان ذلك في عمليّة بدر. وسـمعت من الإخوة فيما بعد أنّ ذلك كان حين انسـحابي بعد هجوم العدوّ. وقد شاهدت تلك المشاهد بعد ذلك في الفيلم الوثائقي "مرآة العبرة".

لا تتلوّث بالوحل والطين، ويصعدوا إليها زحفًا عبر تحريك أرجلهم. كما أشاروا لنا على الخريطة إلى النقاط في الضفّة العراقيّة التي ينبغي علينا التسلُّل منها زحفًا إلى أن نصل إلى السدّ ونصعد، ونبّهونا بأنّ العدوّ سيرمينا إن لم نزحف. كان عملًا صعبًا. وصرنا عندما يصل الإخوة إلى الضفّة نشاهد مناظر عجيبة؛ جميعهم ممّرغون بالوحل من رأسهم إلى أخمص قدميهم، أمّا هيئاتهم فتبدو مضحكة، وكانوا هم أنفسهم يسخرون من ذلك. وإذا رأوا أن لا أثر للوحل والطين على وجه أحدهم، يحملون عليه ويمرّغونه. اختلفت أوضاع التدريب وكثر المزاح. فعندما كان الغوّاصون يخرجون من الماء بصعوبة، ويتوجّهون لاستبدال ملابسهم والاغتسال، كان كلّ من يصل أوّلًا ينثر الطين على من خلفه. ويستمرّ هذا العمل إلى أن يستسلم الجميع ويرضخوا.

لم تعانِ سريّتنا نقصًا بالمخلّلات أو الحاجيّات التي جلبناها من المدينة، وكانت لا تزال موجودة، لكن، في الأيّام الأخيرة وُزّعت سريّتنا على سريّتين أخريين. كان قائدنا الأخ أصغر علي بور، ولم يستطع بجسده الضعيف الجريح إتمام دورة الغوص بنحو جيّد على رغم جهوده الحثيثة. ومن بين 350 عنصرًا يشكّلون عناصر كتيبة حبيب ويخضعون للدورة، كان هناك قرابة الـ 30 شخصًا يعانون من أوضاع مشابهة ولم يوفّقوا. ويبدو أنّه اتّخذ القرار على مستوى قيادة الفرقة بتشكيل سريّة برمائيّة، وتمّ تعيين «أصغر» قائدًا لها. ضُمّ أفراد فصيلنا إلى سريّة مطلق، وفصيل فرج قلي زاده إلى سريّة سوداكر. كلّ هذه التغييرات حدثت قبل إنهاء الدورة بيومين أو ثلاثة، ممّا تسبّب بقليل من الإرباك. وهكذا، صارت كتيبة حبيب عبارة عن سريّتي غوص، يتولّى قيادة الأولى عبد العلي مطلق، والسريّة الثانية محمّد سوداكر. كما تقرّر لسريّة أصغر علي بور، كسريّة ثالثة في الكتيبة، أن تسير بالقوارب بعد وصول الغوّاصين إلى خطّ الدفاع الأوّل للعدوّ، وتشكّلت هذه السريّة ممّن بقي من العناصر في سرايا

الغوّاصين، إضافة إلى العناصر الموفدة حديثًا. من فصيلنا التحق «محرم» وشخصان آخران بهذه السريّة. كان في فصيلنا عنصران متوسّطا السنّ، يبدوان كمسنّين بين شباب المجموعة الذين تتراوح أعمارهم ما بين 17 و18 عامًا. وقد أكّدتُ على هذين العنصرين بأن يلتحقا بالسريّة البرمائيّة، حيث إنّهما أخفقا في التدريب على الغوص، لكنّهما لم يقبلا. في تلك الأيّام التي كان يتمّ فيها تنظيم العناصر وتوزيعها، رأيتهما يبكيان بشدّة. سألتهما: «لِمَ تبكيان؟!».

- سيّد! لِمَ تريد إرسالنا إلى تلك السريّة؟!

- لأنّكما لم تتعلّما كيفيّة الغوص جيّدًا!

- سيّد! سنكون في هذه الأيّام القلائل المتبقّية حتّى نهاية الدورة تحت تصرّفك طوال الأربع والعشرين ساعة. فليدرّبونا في أيّ وقت وقدر ما تشاء من الساعات. نعدك أن نتعلّم الغوص في هذه المهلة المتبقيّة.

لم يكن طلبهما منطقيًّا، قلت: «لا يمكن، مستحيل!»، لكنّهما أصرّا على إمكانية ذلك مع إرادتي. لم أرغب في أن أفقدهما الأمل، ولم يكن هناك وقت كاف لمتابعة التدريب، لكنّني تراجعت أمام إصرارهما. قلت في نفسي: «لنعمل على هذين ليوم واحد ولنرَ ما سيحصل؟!»، وهذا ما جرى. كانت مشكلتهما في الغوص، وإلّا فهما يعرفان السباحة.

يومذاك كانت دورة تدريب جميع العناصر قد أُنهيت. في الحقيقة، أُعطي الإخوة ثلاثة أيّام للاستراحة بعد التدريب المكثّف، وكان عملهم الأساسي حينها التمرّن على الحفاظ على التوازن في الماء، وعدم الغرق مع حملهم الأسلحة والعتاد وهو أثقل مما يمكن لبدلة الغوص تحمّله، لذا توجّب عليهم الحفاظ على توازنهم بطريقة أو بأخرى. كان يمكن للأحزمة البلاستيكيّة أن تحلّ هذه المشكلة إلى حدٍّ ما، لكنّ الفرقة لم تجد مثل هذه الأحزمة في الأهواز رغم التفتيش المكثّف. لذا اضطُرّ

الإخوة إلى تقطيع سترات النجاة، ووضع الإسفنج الموجود داخلها تحت بدلة الغوص حول البطن، ما يساعدهم في أن يطفوا على سطح الماء فيحافظوا على توازنهم ولا يغرقوا عند حملهم السلاح والعتاد. كانت هذه المراحل تحتاج إلى التمرين، وقام بها معظم الإخوة.

أمّا نحن فأعدنا تدريب ذينك الرجلين. فتوجّب علينا أن نعيد لهما في ظرف ساعات برنامج تدريبات مكثّفة استغرقت سابقًا 4 أو 5 أيّام. لم أسمع كلمة «لا»، من أيّ شخص أشرت له بالذهاب مع هذين العنصرين وتدريبهما، وذلك على الرغم من حاجة الجميع للاستراحة في هذين اليومين. في النهاية تقرّر أن يتناوب على تدريبهما كلٌّ من سعيد بيمان فر ورحيم باغبان.

◻

في تلك الليلة، تمّ في خيمة القيادة إعطاء آخر التعليمات لطاقم الكتيبة. في هذه الأثناء كنت أفكّر في أولئك الثلاثة الذين يتدرّبون في خلوة الماء وصقيع أواخر أيّام الخريف. حقًّا كان عمل الإخوة إيثارًا مضاعفًا.

جريًا على العادة، كان الحديث عن كيفيّة تقدّم القوّات. فراحوا يذكّروننا دومًا: «لا تجعلوا قوّاتكم الأساسيّة في مكان واحد، وانشروا القوّات الأساسيّة والجديدة في المقدّمة والوسط والخلف». وأكّدوا على العناصر ألّا يصدر منهم أيّ صوت حتّى لو أرادوا العطس، وألّا يخرجوا من الماء لأيّ سبب كان و... كُرّر هذا الكلام على مسامعنا مرّات عدّة، بحيث أصبحنا جميعًا نؤمن بأنّ سعال أحدهم أو إحداث أيّ صوت يعني مجزرة تُزهق فيها أرواح العشرات!

تقرّر أن نذهب ونعاين المنطقة بالمناظير. على أيّ حال، المشاهدة أفضل من عدمها، مع أنّ طريقة الهجوم لم تكن لتوافق العقل! وعلى الرغم من كلّ هذا القلق، كنت متفائلًا ومؤمّلًا، وأبثّ هذا الأمل في نفوس

العناصــر. ومع أنّني علمت بانكشــاف منطقة العمليّة، كما إنّ تقدّم أكثر من عشــر كتائب من الغوّاصــة محالٌ بنظــري، إلّا أنّني كنــت واثقًا، أنّها ســتكون تحفة عمليّة بدر. في بدر كنت متأكّدًا مــن اللطف والمدد الإلهي، وكنت أُحدّث نفسي هذه المرّة أيضًا؛ بأنّ الله تعالى سيبطل كيد الأعداء.

انتهت الجلســة تلك الليلة قرابة الواحدة، فعــدت إلى الخيمة. رأيت بعض الإخوة نائمين، لكنّ بعضــهم كـ«حبيب» و«حســين» لم يستطع النوم جرّاء التفكير بالأشخاص الثلاثة الذين يتدرّبون في الخارج. واتفق سعيد ورحيــم باغبــان على أن يرجع الأول عند منتصــف الليــل، ليتابع الثاني أعمال التدريب. رأيت «سعيد» قادمًا، فيما رحيم يستعدّ للذهاب. نظرت إليهما؛ رأيتهما يرتجفان من البرد. ذهبت باتّجاه الماء، فرأيت المتدربَين يرتجفان من شدّة البرد أيضًا ويلوذان بالصمت. لم أتكلّم معهما أيضًا، بل توجّهت إلى سعيد بالسؤال: «كيف هو وضعهما؟».

- إنّهما يقدّمان أداءً أفضل منّي!

لم أصــدّق. ارتديت بدلــة الغوص، وكذا ســعيد لم يرجع إلى الخيمة، وتوجّهت هذه المرّة ورحيم نحو الماء. كاد قلبي ينقلع من مكانه من شــدّة الــبرد. لم أنــزل إلى الماء بعد وإذ بالرجفة تأخــذني، لكن لم يكن مقبولًا أن أبقــى في موقع المتفــرّج من البعيد! نزلنا جميعًا إلى الماء. قلت فليعبرا النهر عرضًــا. وهو أمر بالغ الصعوبة، ذلك أنّ سرعة نهر كارون وضغطه يحرفان الغوّاص عن مسيره، وقد يجرفانه لمسافة 25 م. لذا فأثناء العبور عرضًا يتّضــح تأثير قوّة التجديف بالزعانف وسرعته ليتمكّن العابر من التغلّب على سرعة الماء. كنت أنظر تحت نور القمر الضعيف، وإذ بي أرى رحيم وســعيد قــد تأخّرا عنهمــا. كان الماء يتجاذبهمــا إلى هذه الناحية وتلك، أمّا ذانك العنصران فمن شدّة الحماسة تعلّما الغوص جيّدًا، وكانا بعــد كلّ تلــك التمارين، يتقدّمان في منتصــف تلك الليلة الباردة بشــكل

رائع. أحسست بفرحة عامرة لتلك الحماسة والشوق الذي رأيته منهما؛ إلى أين يمكن للإرادة أن توصل الإنسان؟!...وصلنا إليهما، ورأيت أنّهما يريدان التمرّن أكثر. قلت لهما: «عافاكما الله..»، وعدت نحو الخيام. كانت الساعة الثانية والنصف ليلاً، وأذان الصبح يحين في تمام الخامسة والنصف، وأمامي ثلاث ساعات فقط للاستراحة. وعزمت على الذهاب، بعد صلاة الصبح، مع هذين العنصرين للتدريب.

▫

كانت أحوال الشباب في ذلك اليوم لافتة. ذهب العنصران للتمرين من جديد. أمّا خارج الماء فانشغل كلّ شخص بأمر ما؛ أحدهم يحرّر رسالة، وآخر يكتب وصيّة! آخر الوصايا، آخر المطالب، آخر تجارة ومعاملة في هذه الدنيا... أحدهم يهيّئ عتاده، وآخر يسجّل تسجيلاً صوتيًا، بعضهم جلس إلى جانب بعض آخر وراح يتجاذب أطراف الحديث. في الناحية الأخرى راح شباب سريّة أصغر علي بور يتدرّبون على الحرب في القنوات. فيما راح آخرون يبحثون عن الحنّاء. رأيتها مع رضا داروئيان. لم أعلم من أين أتى بها، ويبدو أنّه فكّر من قبل بالحنّاء ليلة الهجوم، وها هو الآن يوزّعها على الشباب. لقد التفت الإخوة إلى أدقّ التفاصيل، حتّى إنّهم أحضروا خيطان الصوف! سمعت سابقًا أنّه إذا ما شُدّت خيطان الصوف على الإصبع بعد وضع الحنّاء عليه، فإنّه يصطبغ جيّدًا.

كان الجميع يعلم بأنّ «الحاج علي أصغر زنجاني» سيأتي الليلة إلى الكتيبة؛ وهو رادود كفيف، ووالد شهيد. والحقّ أنّ أداءه كان يمزج بين الحنّيّة والحميميّة. ولأنّ جميع المجاهدين يعشقون مرثيّاته، فقد انتظروا قدومه بشوق.

ذهبت، كما كان مقرّرًا، مع العنصرين إلى الماء. رأيتهما يعملان

بـكلّ قواهما. لم تكن درجة حرارة الماء ترتفع طوال النهار سـوى قليلًا، لكنّهما كانا ينزلان إلى الماء من دون أن ينبسا ببنت شـفة، وذلك حتّى يُتمّـا تمرينهما. اعتبرني معظم الإخوة إنسـانًا حازمًا وقاسـيًا. لم أكن كالأخ فرج قائد إحدى مجموعات الغوّاصة الأخرى. تشدّدت مع الإخوة، وعلى حدّ قول بعضهم كأنّ لي قلبًا من حجر، لكنه في تلك الظروف، كان حقًّا قلبي ينفطر عندما أراهم يرتجفون من البرد أو أسـمع اصـطكاك أسـنانهم، إلّا أنّنـي لا أُظهـر ذلـك. في ذلـك اليوم، حين أصـبح هذان الشخصان ماهرين في الغوص، وعندما خرجنا من الماء، لاحظت أنهما أُعدما الحوْل، فجاء الإخوة وساعدوهما على خلع ملابسهما. كنت دومًا أحدّث نفسـي، إن كان من المقـرّر أن نفتح الطريق للقوّات اللاحقة، فما الضير في أن نتمرّن بشدّة، فنؤدّي عملنا بالنحو الأفضل ونحقّق أهدافنا.

▫

آنـذاك، مع توافر الغداء بكثرة وتمام النعمـة، لم يرغب أحد بتناول الطعـام، راح كلّ واحد يلتقم لقمة ويتنحّى جانبًا. لقد أتونا بطعام جيّد، وبقي في مكانه ولم يُرجع منه شيء إلى الخلف.

في تلك الأيّام تشـنّج فكّي للمـرّة الثانية وتأذّيت كثـيرًا. لذا توجّهت فورًا إلى غرفة الطوارئ القريبة من الكتيبة. وكان الطبيب التركي هناك يُراجـع لمعالجة جميع أنواع الآلام والأمراض، مـن ألم الرأس والتهابات الجيـوب الأنفيّة - اللذين كان معظم الإخوة يشـكو منهما - إلى التهاب الأذن واللّوزتين والكسور و... اقتربت منه وقلت: «لقد تشنّج فكّي».

- حسنًا، افتح فمك لأرى!

استطعت فقط أن أفتح شفتيّ، أمّا أسناني فقد التصق بعضها ببعض بقوّة! أعاد الطبيب مكرّرًا: «قلت لك افتح فمك!».

- لو كنت أستطيع فتح فمي لما جئت إليك!

– أحقًّا تشنّج فكّك إلى هذه الدرجة؟

كان الأمر لافتًا بالنسبة إليه، فسأل: «لكن، ماذا كنت تأكل طوال هذه المدّة؟».

– لا شيء! القليل من الخبز المبلّل بالشاي![1]

– لمَ بقيت إلى الآن هنا. ينبغي نقلك إلى الخطوط الخلفيّة... إلى المستشَفى!

تحدّثنا معًا، فكان يستمع إلى كلماتي التي أتلفّظ بها من وراء أسناني الملتصقة بعضها ببعض، وفهم بأنّني لن أذهب إلى أيّ مكان. طلب إليّ أن أخلع قميصي ليعاينني. خلعته، وإذا بي أراه وقد استرسل في البكاء وهو ينظر إلى جسدي ووجهي! أحزنه أمري كثيرًا. ارتديت قميصي لأخرج، لم يدعني! جلس إلى جانبي، ووصف لي بعض الفيتامينات، وراح يخاطبني من أعماق روحه: «أنت تنزل إلى الماء وقد أصاب جسدك ما أصابه! ألا تفكّر بأنّه سيتقيّح في الغد... وستقع مريضًا!».

– ...كلا، فهذا الماء ليس من تلك المياه! فهو لا يسبّب الأذى لجسد المرء! أنا أنزل إليه من أجل الله وفي سبيله، ولا أظنّ أنّ الله يريد أن يتقيّح جسدي في هذا الماء.

استبقاني الطبيب عنده قرابة الساعة، وراح يسألني عن إصاباتي ومتى كانت. لم يصدّق أنّني التحقت بالجبهة منذ آذار العام 1981م، وأصبت بجراح فوق جراح. إلى ذلك الحين، كنت قد خضعت إلى ما يقارب 22 عمليّة جراحيّة. لم يصدّق ذلك، وقال: «أساسًا هذا لا يتماشى مع العقل! أن يخضع المرء إلى كلّ هذه العمليّات ويبقى سالمًا!».

– أمّا سالمًا، فلم أبقَ! ألا ترى...!

1 ـ فيما بعد، ومع تكرّر هذه الحال التي كانت تستمرّ بالحدّ الأدنى قرابة 14 يومًا، وتسبّب ضغطًا شديدًا على أسناني وتؤثر على تناولي الطعام، اضطُررت لأن أقتلع سنّين من أسناني وذلك لأتمّكن على الأقلّ من أكل شيء في تلك الأيّام.

علـى كلّ حــال، حاولت أن أمّــد الطبيب بالمعنويّات. وبعد أن صــرف لي الــدواء عــدت إلى الخيمة. وبســبب حالي الصــحيّة ومكوثي الطويل في غرفة الطوارئ، ظنّ الإخوة بأنّني ســأبقى فقالوا: «سـيّد! لعلّك تريد البقاء هنا؟!».

– لا! فأنا لست ممّن يتخلّف عن العمليّات. سآتي بإذن الله.

كانت تلك المرّة الثانية التي أُصــاب فيها بتشنّج في عضلة الفكّ. ففي المــرّة الأولى كنت قد وصــلت للتــوّ إلى الجبهة حين ابتُليــت بهذا الأمر، واســتمرّ قرابة 14 يومًا إلى أن تحسّــنت. وها أنا الآن أعلم بالتجربة بأنّ لديّ عمل في الأيّام القليلة الآتية، وعليّ أن أتكيّف مع الوضع.

▫

بعد الظهر، كان لدينا حفل خضــاب. لم أشــهد يومًا مراسم خضاب لليلة العرس، لكنّه ليلة الهجوم كان لافتًا. راح الإخوة يضعون الحنّاء على أصــابعهم ويلفّونها بخيطان الصوف حتّى تعلق وتصطبغ جيّدًا. عصرًا، أصبحت أصــابع معظمهم صفراء وحمراء... بعضهم وضع الحنّاء على أصابع قدميه أيضًا.

عنــد الغروب، انقضــى وقت انتظارنــا، فتوجّه الجميع نحو مصــلّى الكتيبــة لأداء صــلاة الجماعة الأخــيرة قبل الهجوم. ويا له من مشــهد عجيب، ما إن يدخل الواحد منّا المصــلّى حتّى يشرع بالبكاء. كما حضر أيضًــا شــباب زنجان حين علموا بحضــور الحاج أصــغر زنجاني فغصّ المصلّى بالحاضرين. أدّينا صلاتي المغرب والعشاء بحال معنويّة عالية، وأستطيع القول بجرأة إنّ من بين 600 شخص يؤدّون الصلاة هناك كان هناك 500 يبكون. أساسًــا، كانت العــبرة تأخذنا بمجرّد النظر في وجوه الإخوة... فلعلّ هذا الأخ سيستشــهد بعد يومين... وهذا سيؤسر... وهذا لن يرجع يومًا وهذا ..

لقد خبرت تلك الأوقات القاسية مرارًا. لذا، لم أعد نور الدين القاسي القلب ذاك. ولم أعد أنتظر قارئ العزاء أو أيّ سبب آخر لأبكي. بعد الصلاة سجدنا جميعًا. أُطفئت الأنوار، فخلا كلّ واحد منّا بخالقه على تلك الحال لمدّة. ابتلّت سجّادات الصلاة بالدموع، وشعرنا بخفّة في أرواحنا أكثر من ذي قبل. قرأنا الدعاء جماعيًّا، ليملأ بعدها صوت الحاج علي أصغر الفضاء. سأله أحد رواديد الفرقة: «أتعلم يا حاج علي أصغر ماذا؟!»، التفت الحاج أصغر إلى ذلك الصوت: «تفضّل».

- بعض هؤلاء الشباب الموجودين هنا، لن يكونوا بيننا بعد يومين أو ثلاثة!

عند سماع هذه الكلمات، أُغشي على الحاج علي أصغر من فرط البكاء. نثر الإخوة الماء على وجهه. اختلّ انتظام المجلس. كان كلّ شخص يعيش حاله الخاصّة، إلى أن عاد صوت رادودنا المحبوب يرنّم أبياتًا من قصيدة «الغوّاصين»[1]، التي صقلت أرواحنا بسماعها ليلة الهجوم.

احتضن الإخوة بعضهم بعضًا، ووضعوا رؤوسهم على أكتاف بعضهم البعض، وراحوا يطلبون المسامحة ويودّع بعضهم البعض. العدد الأكبر اختلى في الظلمة بنفسه[2]. أينما توجّهت كنت أتذكّر رفاق الجبهة القدامى وأصدقائي الشهداء. تجدّدت أحزاني لفقدان «أمير» واشتعلت في قلبي نار. «أمير» الخائن للعِشْرة، شخّص نتيجة عمله، وبعد ذلك الحلم، أخذ معه أصدقاء آخرين وتركني... لم أستطع البقاء في المصلّى. كنت أظنّ بأنّني أوّل الخارجين، لكنّني حين خرجت رأيت ازدحامًا كبيرًا! فحول المصلّى، وبين الشجيرات، في كلّ ناحية، رأيت الإخوة قد

1 ـ قصيدة "الغوّاصون" القيّمة والهامّة التي أنشدها الحاج "صمد قاسمبور" في رثاء غوّاصي«والفجر8» وهذه ترجمتها: "أيّها الشباب الذين بقيتم في الجبهة. أيّها الشباب الذين تعبتم ... أحدوكم أنتم الذين تخضّبتم بدمائكم الطاهرة إلى جانب نهر أروند... ناموا قريري العين إذ نمتم خير نومة، وقد أحسنتم التفكير حين فكّرتم بإعارة اللّه جماجمكم".

2 ـ علمت فيما بعد أنّ فيلمًا صوّر لتلك المراسم المعنويّة وما زال موجودًا.

عقدوا خلوات مثنى وثلاثًا وفرادى. ضجّ بستان النخيل بالبكاء. وصار مجلس العزاء يُبثّ من المصلّى. طالت المراسم. لربّما امتدّت إلى ثلاث أو أربع ساعات، لكنّ الإخوة بقوا على حالهم. لا أظّن أنّ أحدًا نام تلك الليلة؛ فبعد مجلس العزاء بدأت الفصائل تتزاور فيما بينها، إذ فيما بعد سيصبح اجتماعها مستحيلًا. قدّم أفراد الفصائل الشاي بعضهم لبعض، وحفلات الخضاب لا تزال قائمة. تلك الليلة، أمكن رؤية أشياء أخرى في وجوه بعض الإخوة؛ فقد تلألأ وجه حميد غمسوار بشكل غير عاديّ، فبدا وكأنّ قمرًا طلع من وجهه. لقد شهدت الكثير من هذه الوجوه في لحظات الرحيل، وأعلم أنّ هذه الحالات والهيئات تظهر عندما يضع المرء كلّ ما يملك بين يدي الله، ويرحل صادقًا. ومع أنّ حميدًا انسجم مع صديقه لمدّة، إلّا أنّه لم يتأثّر به أبدًا. فقد جاءني صديقه حينها قائلًا: «سيّد! لو تعفيني من الذهاب معكم!».

- لا إشكال في ذلك!

كنت منتظرًا هذه اللحظة. فأمثاله في الجبهة قلّة، لكن لم تخلُ منهم. ولا بدّ أنّ حميد اقتنع بكلامي الآن، حيث قلت له مرارًا: «أنت ورفيقك هذا أحدكما غير لائق بالآخر... طريقكما مختلف!».

دخلت الخيمة. رأيت الجميع يقيمون نافلة الليل. خارت قواي من الجوع. فسرعان ما كنت أجوع بسبب تناولي للأطعمة السائلة. شغّلت السماور، ووضعت فوقه مرطبانًا من العسل لِيَلين قليلًا. فجأة سقط المرطبان داخل السماور! ومهما فعلت لم أستطع إخراجه، والجميع يؤدّون صلاة الليل. رحت أقول بتلك الأسنان الملتصقة بعضها ببعض: «كفى صلاةً يا عمّ! فليأتِ أحدكم ويُخرج لي هذا المرطبان!». أتمّ بعضهم صلاته على جلبتي. جاء إليّ حبيب رحيمي الذي كان دائم البكاء في صلاته وقال لي: «سيّد! أرى أنّ أعمالك لا تنتهي!»، ووضع سجّادة صلاته كما العادة

في جيبه[1]. أخيرًا أخرجوا المرطبان فأكلت القليل من العسل، لأنّني أردت البقاء مستيقظًا إلى جانب الإخوة حتّى الصباح.

كانت الساعة تقارب الثالثة بعد منتصف الليل. بعد صلاة الليل، استدعيت جميع شباب الفصيل. ويا له من جمع عجيب! حين كنت أتكلّم مع الإخوة بصعوبة وأعتذر منهم عن كلّ أوجاع الرأس التي تسبّبت لهم بها، والتشدّد الذي مارسته عليهم، والأذى الذي قد يكون صدر منّي بحقّهم و... كانت الأكتاف تهتزّ من فرط البكاء. أطفأ الإخوة المصابيح ليبدأ مجلس آخر... لم يكن في البين أيّ مرثيّة أو مجلس عزاء، وراح كلّ شخص يدلي بدلوه، أحدهم يتحدّث عن صديقه المفقود... وآخر عن الحسرات، الأماني والآمال، وكأنّ الزمان والمكان فقدا مفهومهما، وراحا فقط يستمعان إلى أنّات الغوّاصين النابعة من أعماق قلوبهم. أمّا أنا فلم أعد السيّد نور الدين ذاك الذي كنته في الماضي. فلم يسبق لي أن استدعيت العناصر، تكلّمت معهم، واعتذرت إليهم، أو شكرتهم على كلّ جهودهم، وطلبت المسامحة منهم. عشت حالًا ظننت فيها أنّني راحل لا محالة. تيقّنت أنّني لن أعود. ولهذا لم أرد لأيّ كلام أن يبقى في صدري. عزمت على أن أجدّد وصيّتي، لكنّ الفرصة لم تؤاتني[2]. تعبت من شدّة ما بكيت، وصرت فقط أنظر إلى الإخوة: إلى وجوههم، إلى قاماتهم المشوقة، إلى أصابعهم المحنّاة، إلى ضحكاتهم وبكاءاتهم، إلى كلامهم ومزاحهم، إلى صلاتهم وقراءتهم للقرآن... كم كانت عجيبة تلك الساعات...

1 ـ لقد تناقلت ألسن شباب كتيبة حبيب قصّة سجّادة صلاة حبيب رحيمي وما حدث لها. وكان حبيب قد جلب هذه السجّادة من مدينة مشهد، وبقيت برفقته دومًا. وعند استشهاده أُصيب في رأسه، فسال الدم منه على صدره وملأ سجّادة الصلاة. وعلى ما يبدو أنّ الأخ "صمد قاسمبور" أنشد له أشعارًا [بالآذرية وترجمتها]: حبيبي! لا ترحل، ابقَ! اكتوِ بنار العشق... لقد امتلأت سجدة حبيب وسجّادته بالدماء...

2– وصيّتي السابقة، كتبها «أمير» لكلينا، والحال أنّ ظروفي الآن في البيت قد اختلفت حتمًا. وبالرغم من هذا لم أجدّدها.

وانبثق فجر تلك الليلة الاستثنائيّة التي ما عشت مثلها بعدُ، إلى حين انتهاء الحرب. فلم يجتمع أبدًا مثل الإخوة النموذجيّين لفصيل الغوّاصين ذاك في عمليّة كربلاء4، ولا ظروف التدريب و... كانت مثل ذلك الزمن.

▫

في الصباح، كانت أوّل أعمالنا توضيب أغراضنا وتغليفها وتسليمها لـ«تعاون» الكتيبة؛ العمل الذي كان دائمًا ما يشعرني بالغصّة. لم يكن الإخوة الجدد يتحسّسون من تسليم الأغراض بقدر ما كنا نتحسَّسُ نحن. رحت أنظر من البعيد إلى صفّ الإخوة وأفكّر؛ أيٌّ من هذه الأغراض لن تعاد إلى صاحبها؟ غالبًا ما كانت هذه الأغراض تُرجع إلى المدينة بعد الشهادة أو الأسر أو الجرح، وتُسلّم إلى العوائل؛ يفتحونها عند التسليم، ويسجّلونها في قائمة، أما المشترك بين كلّ المغلّفات فهو القرآن، الملابس، وشريط تسجيل لمجالس عزاء. استخدم الإخوة القدامى صندوق الذخائر الفارغ كخزانة، فكانوا يقفلونه ويسلّمونه إلى «تعاون» الكتيبة. وهؤلاء هم ممّن قضوا فترات طويلة في الجبهة، فكانوا كما يتّخذ الشخص في المنزل مكانًا يضع فيه أغراضه، يتّخذون لأنفسهم زاوية في الدشمة لوضع خزائنهم فيها.

جمعنا الخيام، ورتّبنا مكان تموضع الكتيبة. أنجز كلّ شخص أعماله الأخيرة ريثما تأتي الآليات التي ستقلّنا. في السابق، استخدموا الشاحنات لنقل الإخوة إلى الخطوط الأماميّة، لكن، على ما يبدو أنّ هذه الطريقة كُشفت، لذا، جاؤوا هذه المرّة بمقطورات. جهّز الإخوة أغراضهم، وراحوا يركبون كلّ سريّة في مقطورة. كنت آخر من ركب. بعد ذلك، جاء دور مدّ الشوادر فوقنا. حقًّا إنّ الجلوس في أماكن كهذه يتطلّب مهارة. كان ارتفاع الشادر عن أرض المقطورة أقلّ من متر، وكان

على الإخوة أن ينظّموا أنفسهم في ذلك الفضاء الضيّق. عاد صوت الإخوة ليرتفع مجدّدًا:

- آي، اختنقت! متى نصل.

- ما هذا الذي انغرز في ظهري؟!

- أخي! من بعد إذنك أزح سلاحك جانبًا!

واقعًا، لم يكن بالإمكان التنفّس في ذلك المجال المغلق خاصّة لأولئك الذين صعدوا قبل الجميع وكانوا في مقدّمة المقطورة، إذ إنّ مكانهم كان أشدّ ضيقًا. اضطُررنا لإحداث بعض الثقوب في الشادر بواسطة السكاكين وشيش (مدكّ) البندقيّة حتّى يتسرّب إلينا بعض الهواء، وكان ذلك مجديًا. في ظلمة المقطورة كنّا نسمع عبارات مرحة ومضحكة.

- خالي!

- ناولني فنجان شاي على ذوقك!

كان الإخوة ينادون الحاج رضا داروئيان بـ«خالي». لأنّه المسؤول عن السماور، فطالبه الجميع بتقديم الشاي. وبدأ الإخوة يمزحون ويمرحون ويشاكسون بعضهم بعضًا.

بهذه الحال، عبرنا خرّمشهر ووصلنا إلى الطريق المؤدّية إلى نهر «عرايض». توقّفت المقطورة قرابة الثانية بعد منتصف الليل. أوّل ما فعله كلّ من نزل هو أخذ نفس عميق. والكثيرون سألوا مباشرةً عن المرحاض. بدأ بعض الأشخاص بإنزال الأغراض. دخل شخصان أو ثلاثة تحت الشادر لإحضار الأغراض من عمق المقطورة، إلّا أنّهما لم يستطيعا العودة! حقًّا، لقد آثر الإخوة على أنفسهم وأمضوا زهاء الثلاث ساعات في عتمة الشادر وضيقه وجوّه الخانق.

بعد إنزال الحقائب في تلك الظروف، اختلطت الأغراض بعضها ببعض. جاء أحدهم وقال: «إنّ سلاحه قد وقع سهوًا». تعالَ الآن وجد له

سلاحه من بين مئات الأسلحة! على كلّ حال، وصل كلٌّ لأغراضه بطريقة أو بأخرى. بعد ذلك أمرت الإخوة بحمل باقي الأغراض إلى المقدّمة إلى أن نجد أصحابها.

عندما تقدّمنا قليلًا، رأيت «حسن خوشبو» يسير بكتيبته. كان حسن قائد كتيبة «السجّاد»، وتعرّف أحدنا إلى الآخر منذ مدّة طويلة. كان كلّما رآني يطلب منّي الالتحاق بكتيبته. وقد سألني تلك الليلة حين رآني: «سيّد إلى أين أنت ذاهب؟».

- ترى أنّنا متوجّهون نحو خطّ الدفاع الأوّل![1]

- سيّد لم تُجبني!

كان يقصد الانضمام إلى كتيبته. قلت: «أنا الآن أفكّر في الإخوة والعملية. إن عدت سالمًا آتي إليكم».

- ما أخبار البيت؟!

- لم أتواصل معهم منذ مدّة!

ودّع بعضنا بعضًا كما البقيّة، لكنّ كلام حسن ذكّرني للحظة بالعائلة. لقد مرّ قرابة الشهر ونصف الشهر من دون أن أذهب إلى البيت. وطوال فترة التدريب لم أخبر عنهم شيئًا. هذا التوقّف والسؤال عن الأحوال أخّرني عن الإخوة. وجدتهم حملوا أغراضي ومضوا بها، وذلك كجميع التصرفات التي قاموا بها من أجلي وأخجلوني بها. رحت أركض إلى أن وصلت إليهم عند القناة. لقد بُنيت دشم في بستان النخيل بالقرب من الخطّ الأمامي، وأشير إلى أماكن الفصائل، وخُصّصت ثلاث دشم لكلّ فصيل. تتّسع الدشمة لقرابة 12 شخصًا، ولم يُسمح سوى للحرّاس

---

1. حينذاك أردنا الذهاب إلى دشمنا في الخطوط الأماميّة، فيما كانت كتيبة "السجّاد" تنزل في القنوات الكبيرة القريبة من بساتين النخيل. وكان القرار أن تباشر عملها بالقوارب بعد اختراق الخطّ من قبل الغوّاصين.

بالخروج منها.

كان موقع بساتين النخيل تلك في خرّمشهر غريبًا، فهي تبعد عن الماء وخطّ الدفاع الأوّل للعراق مسافة 2 كلم ونصف. استرحنا وصلّينا الصبح بين أشجار النخيل. مع انبلاج الضوء، صار بالإمكان رؤية عناقيد التمر السوداء الكثيرة المتدلّية من فوق أشجار النخيل، والتي لم يقطفها أحدٌ بعد حتى ذلك الحين. كانت جميلة المنظر إلى درجة سوّلت لنا أنفسنا قطفها، لكن قيل لنا إنّ قنبلة كيميائيّة ألقيت على البستان وأُمرنا بعدم لمسها. كما تمّ التأكيد علينا بعدم السماح لأحد بالخروج من الدشم. وهذا ما نقلناه إلى الإخوة الذين - للإنصاف- امتثلوا للأوامر. لكنّنا عند الصباح رأينا عناصر كتيبة الامام الحسين عليه السلام يجولون فصيلًا فصيلًا بين النخيل.

- ما الذي حصل؟! نحن نُحبس في الدشمة وهم يجولون براحة؟

لم يعد بالإمكان بعد ذلك إبقاء أحد داخل الدشمة. بقيت أعين الإخوة مسمّرة على سلال التمر، والظاهر أنّ قضيّة القصف بالكيماوي لم تكن جدّيّة. وكما بدا لي، فإنّ حذاء «أمير خردمند» هو الحذاء الأوّل الذي رُمي نحو عناقيد التمر. ما إن وصل الحذاء إلى رأس النخلة حتّى تساقطت حبّات النخيل علينا كزخّات المطر. ما أشهى ذلك التمر! فمع ذلك الفكّ المتشنّج لم أتنازل عن أكلها. أكلت وملأت بطني منها مع ما في ذلك من صعوبة.

خطرت لي فكرة، هي أنّه من الأفضل أن أقوم بجولة في المنطقة لأستطلع الوضع. ففي المعابر المائيّة ربطت القوارب المليئة بالذخائر إلى أشجار النخيل، وغُطّيت بالقصب للتمويه. وبالطبع، مع طلوع ضوء النهار، بدأت طائرات العدوّ بالقصف، لكن، قيل لنا إنّها تقصف هذه المنطقة بشكل روتيني.

حينذاك أضـحكنا علي باشايي كثيرًا. كان يصدر منه كلام عجيب، ويطلـق النـكات، فتعلو أصـوات الإخـوة بالضـحك. كان كلّ واحد يقول شـيئًا. هذا يخبر قصّة، ذاك يسـرد حكاية حدثت معه، وآخر يلقي نكتةً على مسامع الجميع... لقد شبعنا من البكاء: «الموت موت، وها نحن الآن نطلق ضحكاتنا إلى حين!».

قرابـة الظهر، انطلقنا نحـو قرية في منطقة العمليّـة. وجدنا بيوتها خربة وجدرانها متهدّمة. كما قدم عناصر سائر الفرق إلى المكان نفسه، حيث راحوا يعطون التعليمات لكلّ فصيلٍ على حدة. أعجبني جوّ القرية، وأمكن استشعار روحها تمامًا من خلال أبواب بعض المنازل التي لا تزال على حالها. تذكّرت حينها قريتنا خلجان. تمّ نصب منظار في أحد بيوت القرية الكبيرة، بيت يضـمّ غرفًا واسعة امتلأت بالعناصر. لم أكن أعلم إلى أيّ فرقـة ينتمـون، فقد نُقل إلى هناك أحد المقـرّات الأربعة العاملة في العمليّة.

شيئًا فشيئًا، بدأت الأجهزة اللاسلكيّة تعمل، ما أوحى بجوّ الاستعداد للعمليـة. من موقعنا، ألقينا نظرة على المنطقة، وتمّ شـرحها لنا بشـكل عـامّ؛ أين توجد وإلى أين سـنتقدّم. بعد الشـرح والتوجيـه، ذهبت إلى مجموعة من عناصـر معلومات إحدى الفرق الموجودة في المنزل المجاور. أردت أن أعرف ماذا يفعلون. دخلت فإذا بي أراهم جالسين يتناولون ما لذّ وطاب من الطعام. بعد التحيّة والسلام، سألوني بالفارسيّة: «من أيّ فرقة أنت؟».

- عاشوراء.

- من الغوّاصة؟!

- أجل!

أظهـروا لي احترامًـا مضـاعفًا. كانـوا يعلمـون بأنّه جيء بعناصـر

الغوّاصة إلى القرية ليأخذوا التعليمات اللازمة. قدّموا لي الشاي والفاكهة المعلّبة. بقيت عندهم طوال الساعة التي تمّ خلالها توجيه عناصر الكتيبة. سألتهم عن الوضع في المقدّمة، قالوا: «كلّ شيء جيّد!».

عندما تركتهم، تبعوني وشايعوني. أَخَذَنا إلى هناك «رحيم صارمي»، وكان حينها المعاون في كتيبة حبيب. وقد تقرّر أن يكون السيّد فاطمي ليلة الهجوم مع الفرقة.

أمضينا وقتنا على هذا النحو إلى العصر. تقرّر أن يتقدّم طاقم الكتيبة إلى الأمام عصرًا لاستطلاع المنطقة. نفّذنا ذلك بهدوء إلى أن وصلنا إلى خلف الساتر. كان من المقرّر أن أتقدّم وحدي أو برفقة شخصين مع عناصر المعلومات. عبرنا من مكانٍ زُرع كلا طرفيه بالألغام. تقدّم بنا مهديقلي رضايي أحد شباب المعلومات إلى الأمام. في أثناء المسيرِ، زلّتْ قدمي وسقطت أرضًا. حينذاك مرّت قذيفة B7 من فوق رأسي! أُطلقت من جهة العراقيّين. توجّهت إلى مهديقلي قائلًا: «لِمَ أطلقوا الـB7؟!».

– لقد سمعوا صوتًا!

– وهل نحن قريبون منهم إلى هذه الدرجة بحيث سمعوا صوت سقوطي؟!

وصلنا إلى ضفّة النهر وعاينّا المكان الذي سنرد منه في الماء والجهة التي سنتحرّك بها.

– ستنحدرون من هنا إلى الأسفل... ومن هناك ستدخلون الماء...

لقد خطّط شباب المعلومات من قبل لموعد تحرّكنا ونزولنا إلى الماء، بناءً على حركة المدّ والجزر. وكانت المسافة بين المكان الذي سندخل منه الماء وبين مضيق «أمّ الرصاص» قرابة 2 كلم، والمسافة بيننا وبين العراقيّين الموجودين مقابلنا قرابة الـ200 م. توجّب علينا أن ننزل الماء

قبل سائر الكتائب، وبعد اجتياز 500 م في الماء نصل إلى منطقة يوجد العراقيّون على كلا ضفّتيها. كان جريان الماء بنحو يساعدنا، ولكن، في الوقت المحدّد للوصول إلى مصنع البتروكيماويّات وفقًا للخطّة، يتغيّر جريان الماء لتصبح حركتنا أصعب من ذي قبل. كان من المفترض أن تباشر كتيبتان العمل من ذاك المسير، وأيّ تأخير قد يتسبّب بسحب الأخوة إلى الأراضي العراقيّة!

كلّما اطّلعنا على تفاصيل العمليّة أكثر تأكّدت لنا صعوبة العمل وخطورته أكثر. طوال تلك الفترة لم أتكلّم مع أحد بشأن انكشاف أمر العمليّة. فهمت أنّ السيّد فاطمي قد علم بذلك سابقًا، في حين جهله الكثيرون. عدنا إلى خطّ دفاعنا. كنّا نتردّد في عدد من القنوات التي حفرت من بستان النخيل وحتى خطّنا. يصل عمق هذه القنوات إلى حوالي المترين، ويقلّ عرضها بالقرب منّا، فلا يتمكّن الأشخاص من العبور فيها براحة، بل عليهم السير جانبيًّا حتى الوصول إلى الساتر الترابي.

عند الغروب بدأ العدوّ بقصف خطّ دفاعنا. وبعد هدوء القصف علمنا بأنّ أربعة من الإخوة قد ارتفعوا شهداء، بقذيفة مدفعيّة سقطت على إحدى الدشم. يبدو أنّ هؤلاء من فصيل «فرج قليزاده». ذهبتُ وألقيت نظرةً على الشهداء، وسألت «أمير خردمند» عمّا جرى. كما شاهدت الحاج رضا داروئيان وهو عنصر حرّ في السريّة. كان في عمليّة «والفجر8» مسؤولًا عن سريّة الغوّاصين، وقد أبلى بلاءً حسنًا، لكنّه لم يقبل المسؤوليّة بعد ذلك.

صرت واثقًا من انكشاف العمليّات. كنّا مستعدّين للهجوم، والعدوّ مستعدٌّ للدفاع! بقيتْ ساعتان على موعد التحرّك. ظننت أنّه كان لا ينبغي للإخوة النزول إلى الماء بسرعة في هذا الوضع. ارتدينا بدلات الغوص في الدشم، ووضعنا الأحزمة وصففنا قطع «الكاوتشوك» التي استخدمناها

لحفظ توازننا. حملنا الزعانـف بأيدينا وتجهّزنا للانطلاق. كانت حال الإخوة لافتة جدًا.

انطلقنا. كان على عناصر الغوّاصة في فرقة عاشوراء النزول إلى الماء قبل سـائر القوّات، والالتفاف خلف العدوّ. وصـلنا إلى حافّة الماء قرابة التاسعة ليلًا وكان الجوّ مظلمًا. كانت في القناة سريّتان من غوّاصة كتيبة حبيـب؛ وكانت القناة ملأى بالماء الذي بدأ منسـوبه يرتفع كلّما اقتربنا من نهـر أروند. تعجّبـت لرؤية غوّاصـي فرقة أخـرى يتحرّكون في الماء مقابلنا، وقد دخلوا النهر قبلنا. ما أقلقني أنّهم كانوا يتكلّمون الفارسيّة بصـوت مرتفع. أحسست باضطراب في قلبي. ولم نكد ندخل النهر حتّى ارتفع فجأة صـوت من الماء؛ لقد اسـتخدم العدوّ قذائـف تبثّ في البدء الغاز على سـطح الماء بمسـاحة تتراوح ما بين الـ50 والـ60 م، ثمّ تشـتعل وتحرق! تعرّض الغوّاصون الذين يسيرون في الماء على شكل طابور لوابل من قصـف العـدو فقطعهم إربًـا إربًا في لحظة. وتتالت لحظات صـعبة لا يعلـم بهـا إلّا الله! رأينا العدوّ يرمـي بكافّة أنواع النيران؛ الرشـقات المباشـرة، والرشاشـات و... وقد شـاهدنا غير مصـدّقين وابل النيران ينهمر على الإخوة الغوّاصين داخل الماء. انبعث من الماء صوت عالٍ يثير الرعب في القلوب. كان أنين الغوّاصين المظلومين يتصاعد غريبًا من بين دويّ القذائف وأزيز الرصـاص. أحسـب أن نهر أروند اصـطبغ في تلك السـاعات بلون الدماء! كذلك جُرح ثلاثة أو أربعة أشـخاص من شبابنا عند دخولهم النهر، لكن لم ينكشف محورنا.

لم يكن الإيرانيّون قد بدأوا بإطلاق النار بعد. بات عناصـر الكتائب الذيـن ينزلون الماء من الأعلى ويمرّون مـن أمام محورنا يُقتلون جميعًا. وكنتُ قد سـمعت أنّ غوّاصـي 13 فرقة باشـروا العمل، لكنّني لم أعرف عدد الكتائب في الماء حينها. يبدو أنّ كتيبتين من الغوّاصة بالحدّ الأدنى كانتا في منطقتنا في تلك الأثناء. بعد دقائق لاحظنا بأنّ كتيبة الغوّاصـة

الأخرى التابعة لفرقة عاشوراء، أي كتيبة وليّ العصر أنزلت عناصرها في الماء، واستُشهد في تلك الليلة معظم عناصرها وفُقد بعضهم، ولم يخرج سالمًا منهم سوى 40 عنصرًا. يا لها من ليلة عجيبة!. فالشباب الذين أمسكوا بالحبل واتصل بعضهم ببعض في خطّ واحد استُشهدوا أو جُرحوا بنحو مروّع في الماء. أحيانًا تناهى إلى سمعي صراخهم وأنينهم فكان قلبي ينفطر لهم. كما كنت أشاهد أيادي الإخوة وأرجلهم المقطوعة تعوم على سطح الماء. بقينا قرابة الربع ساعة من الوقت تحت وطأة أوضاع غير عاديّة، وبمشهد لا يُصدّق، رأيت أحد مسؤولي السرايا يفرّ من المعركة. راح يجري بسرعة حين علقت رجله فجأةً بشريط، فتعثّر وانقلب! في المقابل استبسل هناك قادة أمثال محمّد سوداكر وفرج قليزاده، فنزلوا إلى الماء غير مكترثين لوابل نيران العدوّ التي تسقط هناك! وراح سوداكر بجسمه الأقوى من أجسام بقية عناصر الكتيبة، ينقل الجرحى بكلّ بأس من قلب النهر إلى الضفّة. إنّ ما قام به يمثّل قمّة الشجاعة والإيثار بالنسبة إلى قائد.

باشرت مدفعيّاتنا العمل، وكانت لا تزال ساكتة. وكأنّه ثبت لقادة الصفّ الأوّل بأنّ التساهل أكثر من هذا أشبه بالخيانة. وما إن باشرت مدفعيّاتنا بالعمل حتّى هدأت نيران العراقيّين. لم يبقَ أحد في الماء على امتداد مجال رؤيتنا حيًّا. كما استُشهد ثلاثة أو أربعة عناصر من كتيبتنا أيضًا. لقد جرف النهر معظم الشهداء نحو البحر. أُصدرت الأوامر إلينا بالانسحاب وترك المنطقة بهدوء. ولو أُطلقت من جهتنا طلقة واحدة لانكشف محورنا بتمامه، ولتغيّر اتّجاه النيران. وعلى ما يبدو لم يلتفت العراقيّون إلى تجمّع العناصر في محورنا، وإلّا لفقدنا القدرة على التحرّك والانتقال.

تحت وابل النيران الشديدة، وقف السيّد فاطمي فوق خربة وراح يراقب بدقّة ما يحدث. بعد دقائق قرّر القادة إدخال الزوارق السريعة

ميـدان العمل، وذلك لجلـب أنظـار العراقيّين نحوهـم وإجبارهم على الفرار من المنطقة إن أمكن. بدأ تحرّك الزوارق السـريعة، وبدأ مع هذا التكتيك انسـحاب القوّات الإيرانيّة من المنطقـة. وبعد ما يقارب الأربع ساعات من بدء عمليّة «والفجر4»، راح الإخوة ينسحبون من المنطقة.

فكّرت في تلك الأوضـاع أن أتّصـل بالمقرّ عبر جهاز اللاسـلكي الذي بحوزتي. وكان جميع القادة قد سُـلّموا أجهزة لاسلكيّة مضادّة للماء. لم يبقَ في تلك الناحية أيّ عنصر. جلست في القناة ورحت أدير الجهاز إلى هذه الناحية وتلك لألتقط المقرّ وأنظر ماذا يقولون؟ فجأة رأيت غوّاصًـا يركض باتّجاهنا شـاهرًا سـلاحه نحونا. ما إن بدأ بإطلاق النار نحونا حتّى صحت فيه: «...لا تطلق! ماذا تفعل؟».

توقّف وقال بالفارسيّة: «أَوَليس هنا خطّ دفاع العراقيّين!».

– لا يـا عم! هنا خطّ دفاع فرقة عاشـوراء! خـطّ العراقيّين إلى تلك الناحية!

كان من الغوّاصـة المنتشـرين في الماء، وفي أثناء تلك النيران سـحب نفسه إلى الضـفّة. ظنّ أنّنا عراقيّون. كنت واقفًا في القناة عندما وصل إليّ. وكمـا في الليالي السـابقة، ارتفع فيها منسـوب الميـاه. تكلّمت معه قليـلًا. المسـكين كان يشـعر بالدوار ولم يكـن بحال جيّـدة. أخبرته عن الأوضـاع وبأمـر انكشـاف العمليّة، لكنّنـي في تلك المعمعـة لم أعلم من عناصـر أيّ فرقة هو. أراد الانصراف. قال لي: «اُخرج لكي أمرّ». كانت القناة هناك ضيّقة جدًا بحيث لا يمكن سوى لنفر واحد المرور منها، أمّا خارج القناة فكان جحيم النيران، والخروج منها يعني الجرح المحتّم.

– لمَ أنا؟! اُخرج أنت لأمرّ أنا!

لم يَقبل هو أيضًـا. تجادلنـا قليلًا إلى أن قـال: «إذًا، تمدّد أنت على الأرض لأعبر من فوقك».

- لا إشكال في ذلك!

تمدّدت على أرض القناة، وأخرجت يديّ من حافّتي القناة لأستطيع النهوض بسهولة. قام ليعبر من فوقي، وإذ بقذيفة مدفعيّة تسقط تمامًا على حافّة القناة... الشيء الوحيد الذي وعيته كان شدّة الضربة التي أصابت رأسي، وسقط هو الآخر فوقي ولم يعد يتحرّك! استغرق الوضع بضع دقائق حتى استفقت من أثر الصدمة. كان رأسي يؤلمني بنحو ظننت فيه بأنّه تشظّى بتمامه. لم أتمكّن من الحراك لثقل ذاك الغوّاص الذي استُشهد حينها وهوى عليّ، ومهما فعلت لم أستطع القيام. استمرّ ألمي شديدًا. في تلك الأثناء تناهى إلى سمعي نداء «أمير» خردمند. كان له صوت فريد، أستطيع تمييزه من بين 100 نفر. صحت: «أمير... أمير... أمير...».

سمع «أمير» صوتي، وكان يبحث عنّي ويناديني، لكنّه لم يستطع العثور عليّ. استغرق الأمر فترةً حتّى اهتدى إلى مكاني. رفع جسد الشهيد عنّي وساعدني على النهوض. كانت حالي سيّئة.

- أمير! أشعر بدوّار في رأسي... انظر، لنرَ ما الذي أصابه؟

- سيّد! أرني يدك!

إلى تلك اللحظة لم أكن قد التفتّ إلى يدي، التي أصيبت بشظيّة وأنا أضعها على حافّة القناة، وأيّ شظيّة هي! كانت أصابعي الأربعة النازفة معلّقة بالجلد فقط، وتنزف، لكنّني لا أشعر بألم فيها. وفي المقابل شعرت برأسي وكأنّه تقطّع إربًا إربًا. نظر إليّ «أمير» وقال: «ما من خطب في رأسك. لا بدّ أنّ أصابعك هي التي تؤلمك!». لا شك أنّ عصف الانفجار دفعني نحو حائط القناة بقوّة، ولا بدّ أنّ وجع رأسي سببه تلك الضربة.

- والآن ماذا سنفعل؟

- تعالَ لأنقلك إلى الخلف!

- كلا! لن أنسحب. انقلني إلى إحدى هذه الدشم، لأنظر ماذا سيحدث!

ساعدَني على النهوض ونقلني إلى دشمة قريبة من المكان. وصادف أن وضعوا فيها ثلاثة أو أربعة جرحى أيضًا. راح الإخوة يئنّون من شدّة الوجع والوهن. تمدّدت إلى جانبهم، لكنّني قلت لهم: «بالله عليكم لا تصدروا أصواتًا! لكلٍّ منّا أوجاعه... فليتحمّل كلّ واحد منّا ألمه من دون أصوات!...». إلى ذلك الحين لم يكونوا قد ضمّدوا لي يدي، ولم أكترث لها، إلّا أنّ وجع رأسي كاد يقتلني. بعد مدّة جاء «أمير» وقال إنّ الوضع قد تحسّن، وإنّنا سيطرنا على الساحل العراقي.

- إذًا، باقون! اذهب وأحضر لي بطّانيّة لأرى إن كان يمكنني النوم هنا.

أحضر «أمير» لي بطّانيّة ورتّب مكان استلقائي. تمدّدتُ وجعلت يدي في حضني بأصابعها تلك حرصًا على أن لا تنقطع! غلبني النعاس. لا أعلم كم مضى من الوقت. كنت مشوّشًا. رأيت في المنام بأنّني جُرحت. وهذه المرّة رأيت يدي وقد أصابتها شظيّة وتؤلمني كثيرًا. استفقت من شدّة الألم. قيل لي بأنّ قذيفة سقطت فوق الدشمة، فأصيب بعض الجرحى الآخرين بجراح فوق جراحهم ولكنّني لم أُصب بأذى. اشتعلت النيران في دشمتنا، فراح بعض الإخوة يُطفئوها من الخارج بسعف النخيل حتّى خمدت. بقيت مشوّش التفكير وأتألّم. رفعت يدي إلى محاذاة وجهي؛ أصبحت ثقيلة وقد تجمّد الدم والتراب عليها. وها قد بدأ حريق أصابعي يزيد من معاناتي.

قال لي الإخوة إنّه حان وقت صلاة الصبح. قمت منحنيًا، وتيمّمت بيد واحدة. ويا لهما من تيمّم وصلاة! أدّيت صلاتي في الدشمة من جلوس. كان «أمير» وبعض الأشخاص هناك. سألتهم: «والآن ما الذي

سيحدث؟».

- قال السيّد إنّنا سننسحب في الصباح!

- الآن حيث تقرّر الانسحاب، فإنّني أنسحب أيضًا.

توجّه إليّ علي رضا سارخاني وهو معاوني في الفصيل: «سيّد! تعالَ لأنقلك إلى الخلف!».

- أذهب وحدي!

لم يتركني علي رضا وأصرّ على مرافقتي. ساعدني ورجعنا حتّى وصلنا إلى ذلك القسم الذي تتّسع فيه القناة. قلت: «علي رضا عد أنت، فمن هنا أستطيع الذهاب وحدي».

- ماذا لو ذهبت وسقطت قذيفة أو أيّ شيء آخر؟!

- لا! عد أنت...

أرسلته وأكملت طريقي. في الخلف رأيت عناصر سرايا الهندسة، ومعهم صديقي القديم «حجّت». ما إن رآني على تلك الحال حتّى احتضنني. راح يقبّلني ويبكي: «سيّد! ماذا حصل لك؟!».

- لا شيء... ترى...

وهذه المرّة لم يتركني وقال: تعالَ لأنقلك إلى الخلف». قلت: «لا! سريّتك هنا. وهم الآن بحاجة إليك. أذهبُ وحدي».

لم أرد له أن يتخلّف عن عمله من أجلي. سألت عن طريق غرفة الطوارئ فأرشدوني إليها.

هناك، أفرغوا كيس مصل على جرحي، وغسلوا الدماء والتراب المتجمّد على يدي إلى حدٍّ ما. ثمّ وضعوا لوحًا تحت يدي ولفّوها بضماد: «اذهب واركب السيّارة ليتمّ نقلك إلى الخلف!». جلست في مؤخّرة سيّارة الإسعاف المليئة بالجرحى، وانطلقت. لم تمشِ وقتًا طويلًا حتّى توقّفت

وترجّلنا. وصلنا إلى مدرج الطائرات. في الأهواز على ما أظنّ. وجدت الباحة مليئة بالجرحى. واللافت للنظر أنّ أحدًا لم يكن موجودًا باستثناء عناصر من معلومات الحرس والطاقم الطبّي. وبرأيي فإنّ هذا أمر مهم. أساسًا في كلّ العمليّات كان رجوع العناصر المشاركة في العمليّات إلى الخلف ممنوعًا، حيث يُخشى للجرحى أن يدلوا للناس بمعلومات من دون انتباه. عمل عناصر المعلومات هناك بدقّة ولم يسمحوا لأحد بأن يتكلّم مع الجرحى. كما أوصونا بعدم التحدّث إلى أحد. افترش الجرحى إحدى باحات المطار حيث غُطّيت الأرض الإسمنتيّة بالبطانيات على مدّ النظر. وفي ذلك الازدحام كان أصحاب الجراح البليغة يقضون نحبهم. أمضينا تلك الليلة هناك، وفي ظهر اليوم التالي جاءت طائرة «C ـ 130». فنُقلتُ إليها على الحمّالة. كنت لا أزال أرتدي بدلة الغوص. حتّى القفّاز ما زال في يدي اليمنى، وفيما بعد تذكّرت بأنّ الشظيّة قد أطاحت بقفّاز يدي المصابة.

وصلت الطائرة إلى طهران، ومن هناك نقلونا إلى المستشفى. وفيما كنت منتظرًا في غرفة طوارئ المستشفى، جاءني رجل ملتحٍ وسألني: «من عناصر أيّ كتيبة أنت؟».

- لِمَ تسأل؟

راح ينظّف لي وجهي وسألني مجدّدًا: «كم لحق بكم من خسائر؟».

- وما دخلك أنت؟

كان يتكلّم الفارسيّة محاولًا أخذ بعض المعلومات. سأل عن الجبهة وألحّ في السؤال. جاء أحد عناصر المعلومات ليخرجه فادّعى بأنّه ابن عمّي. قلت: «لا! عن أيّ ابن عمّ تتكلّم؟! أنا تركي وهو...»، فأمسك به عناصر المعلومات وأخذوه. بقيت منتظرًا في المستشفى، وكان الممرّضون جريًا على العادة يأتون إليّ ويذهبون، إلى أن حان دوري لإجراء العمليّة.

جاؤوا إليّ بالمقصّ: «علينا تجريدك من ملابسك!». علت صرختي: «ماذا تفعلون؟!».

– علينا أن نقصّ بدلتك! كيف ستخلعها ويدك على هذه الحال؟!

– سأخلعها بأيّ طريقة كانت... فليس لديكم أيّ فكرة عن ثمنها!

– دعك منها يا عمّ! ستؤلمك يدك إن لم نقصّها عليك.

حدّثت نفسي بأنّ هؤلاء لا يعلمون بأيّ جهد يتمّ الحصول على بدلة الغوص. وبصعوبة بالغة جدًا وبمساعدتهم خلعت بدلة الغوص ونُقلت إلى غرفة العمليّات.

◻

عندما استعدتُ وعيي، كانت رجلاي تؤلماني، بالإضافة إلى الحريق الذي أشعر به في يدي. واتّضح لي بأنّهم إلى تلك اللحظة لم يجرّدوني من حذاء الغوص! ناديت أحد شباب المعلومات الذين كانوا في غرفتنا وطلبت منه أن يجرّدني منه. اقترب ومهما حاول لم يفلح. كانت رجلاي قد تورّمتا فالتصق الحذاء بهما بقوّة. وبعد محاولات حثيثة، ذهب المسكين وجاء بشخص آخر ليساعده. وهذه المرّة أيضًا، مهما حاول الاثنان لم يفلحا في تجريدي منه! طلبت منهما أن يحضرا لي وعاءً من الماء البارد لأضع قدميّ فيه، ففعلا. وبعد دقائق عدّة من وضع قدميّ في الماء البارد نجحا في المحاولة. أرادا رمي الحذاء في سلّة المهملات، فلم أدعهما: «اغسلاه واتياني به. أريد الاحتفاظ به»[1].

بعد يومين من دخولي المستشفى، اتّصلت بمنزل والد زوجتي وأخبرتهم بأنّني في طهران. في اليوم التالي جاءت العائلة لزيارتي، وكان الجميع قلقًا ممّا حصل لي. قلت لهم بأن لا شيء مهمًّا، وإنّني أُصبتُ بيدي، إلّا أنّ حقيقة الأمر كانت أنّ يدي التهبت وسرى الالتهاب من أصابعي إلى عضدي. وفي ذلك اليوم طلبت منهم السماح لي بالخروج

1. من بين الأشياء التي احتفظت بها كذكرى من أيّام الحرب، هو حذاء الغوص ذاك.

مـن المستشـفى. فكّـرت أن أذهب إلى تبريـز ومتابعة علاجـي هناك. فوافقوا على ذلك وعدتُ برفقة العائلة إلى تبريز.

◘

وصـلت إلى تبريـز، لكنّنـي لم أرغـب بدخـول المستشـفى. فضّـلت الاسـتراحة في البيت. وقد تقرّر أن أذهب من وقت لآخر لأغيّر الضماد. فـكان «حميد رسـتمي»[1] و«حبيب سـيفي» يأتيان كلّ يـوم ويأخذاني إلى مستوصـف الحرس الواقـع في «شـارع الجيش» لتغيـير الضـماد. في مستوصـف الشـهيد بهشـتي حينهـا، عمل ممرّض يُدعى «إسـماعيل فرهمند» أسـماه الإخوة «الجلّاد إسـماعيل»، وذلـك أنّه لم يكن في قلبه ذرّة شفقة؛ فإذا ما رأى أثناء تضميد الجرح، أيّ التهاب أو تقيّح ، يفعل مـا يلزم من أجل أن يخرج التقيّح منه. وهو حتمًا يفعل ما يفعله بقصـد تعافي الجريح، فكان ينقذ كثيرًا من الإخوة من العوارض اللاحقة لبعض الإصابات، إلّا أنّه كان ينتزع قلب المرء عند تضميد جرحه! وهذا ما وقع لي بالضـبط في المرّة الأولى لمعاينته لي إذ ضـغط بشدّة بكلتا يديه على مكان إصابتي فانتفضـت بكلّ جوارحي لكأنّه وصلني بالتيّار الكهربائي! قـام بعدها بفتح سـطح الجرح برأس المقصّ وأدخل فيه الشـاش وراح يفركـه من جميـع النواحي بحيث أغمي عليّ من شـدّة الوجع. إلى ذلك اليـوم، لم أكن قد غبت عن الوعي جرّاء أيّ تضـميد لجـرح! نثروا الماء على وجهي فاسـتعدت وعيي تدريجيًا. كنت أرجو إسماعيل: «باللّه عليك رويدًا رويدًا!»، وهو يجيبني: «وباللّه عليك أيضًا، وبالنبيّ وبكلّ ما أقسمت بـه عليّ، أنا أقوم بما يجب عليّ القيام به، فاصـبر قليلًا». ظلّ هذا دأبه مع سـائر الجرحى. كنت عندما أقصده وأنتظر ريثما يأتي دوري، أسمع أنين الجرحى وبكاءهم يتعالى أثناء تضميده جراحهم. لم يعتد أن يرسل المريض إلى الطبيب فيما لو رأى شـظيّة مستقرة في الجرح، بل يسحبها بالمقصّ بنفسه! كما سحب من يدي قطعة من قفّاز الغوص!

---

1– هو أخو محمّد رستمي الذي كان مسؤول وحدات الاحتياط في المحافظة.

بعد كلّ تلك الأوجاع والجراحات التي أُصبت بها في الحرب، لم أعد أحتمل طريقة إسماعيل بالمعالجة. اشتدّ التهاب يدي، وكاد أن يشلّ قواي. ظلّ الحاج حميد يأتي كلّ يوم بسيّارة ويقلّني إلى المستوصف حتى قرابة الشهر. آلمني جرح «كربلاء4» بشدّة، وكنت أحيانًا أتألّم طوال فترة تضميد جرحي، وأشعر بأنّ عينيّ تشتعلان.

2

ظلّ هذا برنامجي اليومي حتى دقّ نفير عمليّة «كربلاء5»[1]. هام قلبي للذهاب إلى الجبهة، خاصّة أنّني أعرف جيدًا منطقة العمليّة، وكنت مطّلعًا على الخطّة إلى حدٍّ ما. رحت يوميًا أتابع الأخبار التي أفرحتني رغم الدموع والأوجاع التي عانيتها كلّ يوم أثناء تضميد جرحي. وممّا سمعته من وسائل الإعلام، ظننت أنّ عمليّة «كربلاء5»، قد عوّضت خسارة عمليّة «كربلاء4»[2].

ما وصلني في تبريز عن العمليّة كان من خلال الأخبار. إلى أن حصلت تدريجيًا على إفادات من الإخوة الذين شاركوا في العمليّة. قالوا عندما عبرت سرايا الغوّاصة الماء، بدأت المواجهات. فارتأى أحدهم الانسحاب، وتقدّم آخر بقوّاته إلى الأمام. وأصدر السيّد فاطمي أيضًا أوامره عبر الجهاز اللاسلكي بالتقدّم. لكنّ بعضهم تردّد أيضًا. أخيرًا، وصل فصيل

1ـ بدأت عمليّة كربلاء5 بنداء يا زهراء وذلك بتاريخ 1987/1/9م.

2ـ في كربلاء4، لم نسلّم إلى العدوّ أيّ منطقة، بل أخذنا بعض المناطق منه، لكن فشلنا في تحقيق أهداف العملية. غاية الأمر أن ما بُثّ في خارج الجبهة كان أمرًا مغايرًا، وعمد المعادون للثورة وأعداء الخارج إلى بثّ الكثير من الدعايات السلبيّة حول كربلاء4. وعندما كنت في المستشفى في طهران، وبعد إجراء العمليّة الجراحيّة لي، طلبت من مندوب مؤسّسة الشهيد هناك أن يحضر لي مذياعًا، تابعت الأخبار من خلاله. فكانت الإذاعات الأجنبيّة بعد كربلاء4 تضخّم الأمور حول هزيمة إيران. على سبيل المثال تتحدّث في الصباح عن خسائر إيران في هذه العمليّة وتقول إنّ إيران قدّمت 50 ألف عنصر. وعند الظهر تزيد هذا العدد ليصبح 60 ألفًا، وفي اليوم التالي جعلته 65 ألفًا... وعلى ما يبدو أنّها زادت العدد إلى 80 ألفًا. هذا الأمر كان في الحقيقة يؤلمنا. لكن برأيي، ما حدث بلطف الله في كربلاء4 علّمنا درسًا كبيرًا، وكانت نتيجته أنّ عمليّة كربلاء5 المظفّرة قد آتت ثمارها.

«فرج قليزاده» إلى السدّ، واجتازه ما بين 10 و15 نفرًا واحتلّوا المنطقة. نقل الإخوة أنّ الأخ فرج وعنصر المعلومات في تلك المجموعة الأخ «يوسف حقّايي» استبسلا، فاستُشهد هناك الأخ يوسف حقّايي[1].

بعد أيّام عدّة، توافدت قوافل الشهداء تدريجيًّا إلى المدينة، وشيّعت أجساد شهداء كربلاء4 وكربلاء5 معًا. كان عددهم كبيرًا، من عناصر كتيبة حبيب وكتيبة الإمام الحسين عليه السلام الذين سطّروا بطولات كبرى. آنذاك، ودّعت تبريز العشرات من أبنائها؛ أحيانًا بلغوا 40 وأحيانًا 50 وأحيانًا 60 شهيدًا في اليوم. وكان بينهم قائد كتيبة الإمام الحسين عليه السلام مصطفى بيش قدم الذي نال أخيرًا المكافأة على جهوده واستُشهد. كان وادي الرحمة يغصّ بالوفود كلّ يوم. وأنا الذي بتّ وحيدًا ولم يكن لي صديق خاصّ وقتها، كنت أحبّ الحضور في ذلك المكان المقدّس أكثر من أيّ مكان آخر. شاركت في تشييع أجساد الإخوة بحسرة، فقد كنت على معرفة ببعضهم، واحترق قلبي بنار فراقهم. أكثر ما بدّل أحوالي من بين الشهداء كان «أصغر علي بور»، الذي اختاره الله تعالى للشهادة أخيرًا في «كربلاء5». هو ورفاق منهم: «أحد مقيمي، أكبر باشايى، حسن كربلائي، غلام رضا جشني بور، بدرام شاكري و...».

كنت أزور قبر «أمير» في وادي الرحمة دومًا. بقيت إلى أربعين الإخوة في تبريز، وبرنامجي الأساسي معالجة يدي التي لم يخفّف من التهابها شيء. أصبحتْ تميل إلى السواد، فارتأى الأطبّاء قطع أصابعي، لكنّ الأخ إسماعيل الذي عانيت ما عانيت من ألم ووجع تحت يديه قد أنقذني، وسيطر شيئًا فشيئًا على التهاب الجرح.

---

1 ـ لقد حُرّرت المذكّرات الملحمية لمجموعة الغوّاصين تلك بالتفصيل، في كتاب مذكّرات "فرج قلي زاده" تحت عنوان "همه دوستان من" [كلّهم أصدقائي] وذلك بقلم "غلام رضا قلي زاده". وقد نشرت هذا الكتاب مؤسّسة حفظ ونشر آثار شهداء الدفاع المقدّس في العام 2009م.

▫

في أواخر شهر آذار من العام 1987م وبعد ثلاث سنوات على عقد قراننا، نجحت أخيرًا بإقناع عائلتي وعائلة زوجتي ببدء حياتنا المشتركة بالحدّ الأدنى من المصاريف، فسافرنا يومين أو ثلاثة إلى مشهد المقدّسة.

لم يكن وضعي الجسدي جيّدًا لكنّني لم أكن مستعدًّا للانسلاخ عن الجبهة. في المدّة التي كنت فيها في البيت، كثيرًا ما قصدت مقرّ «مسجد كزران». حيث يقوم الإخوة هناك ليلًا، بدوريّة في المحلّة، ومن بين هؤلاء «يعقوب نيك بيران، حسين سعادتي، الحاج ميلاني، ويونس بهجت نيا». ونظرًا لوضعي الجسدي لم يسمحوا لي بمرافقتهم كثيرًا. ذات ليلة، أحببت البقاء معهم. كانت الساعة قرابة الحادية عشرة ليلًا، حين أوقفنا سيّارة، وعند التفتيش وجدنا أسلحةً بحوزة الركّاب. قالوا إنّهم من عناصر محكمة الثورة الإسلاميّة، ولكنّهم لا يحملون رخصة بحمل السلاح. صادرنا أسلحتهم، فتطوّر الأمر بيننا وهدّدونا، لكننا لم نتراجع وقلنا: «افعلوا ما بدا لكم، لكن اذهبوا أوّلًا وآتونا بالرخصة». وفعلًا غادروا وأحضروها بعد ساعة فسلّمناهم أسلحتهم. ولكنّنا بسبب التهديد الذي وجّهوه إلينا ظننّا أنّهم سيعملون على أذيّتنا. عدنا تلك الليلة إلى المقرّ، ونمنا هناك. لكن، ما كادت أعيننا تغفو حتّى رنّ جرس الهاتف. قلنا في أنفسنا، إنّهم هم أنفسهم لن يدعونا نرتاح. وقد وجدوا نمرتنا. رنّ جرس الهاتف من دون توقّف، إلى أن رفعنا السمّاعة أخيرًا، وعلمنا بأنّ مواطنًا مسكينًا أراد إبلاغنا بأنّ لصًّا دخل منزله! أخذنا منه العنوان وتوجّهنا فورًا إلى المكان واستطعنا مساعدته. كان الإخوة في المقرّ فعّالين في أمثال هذه القضايا.

في اليوم الثاني قصدت [مقرّ] المصلّى. وحين وصلت إلى هناك شعرت بقلق يعتمل في صدري، فلم أستطع البقاء. أوصلني الإخوة بالسيّارة إلى

البيت. طرقت الباب طويلًا، لم يفتح لي أحد، رغم الأصوات التي كنت أسمعها من خلف الباب. لم يكن بحوزتي مفتاح. أخيرًا، فتحت زوجتي الباب. توجّهت إليها قلقًا: «منذ مدّة وأنا أطرق الباب! لِمَ لم تفتحي؟».

- كنت نائمة!

- لكن ما هذه الجلبة التي تأتي من المنزل؟!

بدأت بالتفتيش. فتّشت في سائر أنحاء المنزل ولم أرَ شيئًا. خمّنت أنّه قد يكون صوت الهواء، وقد اشتبه عليّ الأمر وظننت أنّ أحدًا يتكلّم. فتّشت في المرحاض، لكنّني لم ألتفت إلى الحمّام؛ كان لصّان قد اختبئا هناك لحظة قدومي، وحين خلدت إلى النوم تابعا عملهما!

بعد أداء صلاة الفجر، سمعت طرقًا على الباب. كان جارنا السيّد «جليل». تعجّبت حين قال: «سيّد! لِمَ ملابسك في الخارج؟!».

ألقيت في البدء نظرةً على علّاقة الثياب فوجدت أنّ سروالي ومعطفي ليسا عليها! خرجت إلى الزقاق فرأيت الملابس، والبطاقات و... ما عدا مبلغًا من المال كان بحوزتي، مرميّةً على الأرض. بات الآن واضحًا ما حصل. عدت سريعًا إلى البيت وتفقّدت محتوياته لأجد أنّهم سرقوا أيضًا حليّ زوجتي الذهبيّة. ذهبت إلى مخفر الشرطة وأطلعتهم على الأمر، إلّا أنّنا لم نصل إلى نتيجة، وقالوا كان عليك الانتباه أكثر.

بعد يومين أو ثلاثة من تلك الحادثة صلّيت الصبح في المصلّى. وأردت شراء الخبز والعودة إلى البيت. أحببت كثيرًا استخدام درّاجتي الناريّة التي تركتها منذ مدّة أمام المصلّى. أخذت الدرّاجة، وحيث إنّني لا أستطيع استخدام يدي للضغط على المكابح، رحت أضغط برجلي على المكابح السفليّة بشدّة ليمكنني السيطرة على الدرّاجة. ذهبت واشتريت الخبز، لكنّني تفاجأت بسيّارة جيب أمامي على «تقاطع قطران»، ومهما ضغطت على المكابح السفليّة لم تعمل. كذلك لم أستطع الضغط على المكابح بيدي،

لأنّني أحمل الخبز وأقود بيدي السالمة. فكّرت في أن أصطدم بشيء لا أتأذّى معه. لكنّني اصطدمت بزاوية سيّارة الجيب فطرت ووقعت على الرصيف! صرخت من أعماق قلبي متألّمًا من يدي. حينذاك كان محلّ بطّاريّات في الجوار قد فتح أبوابه، فأسرع صاحبه إلى مكان الحادث. كما توقّف سائق الجيب إلى جانبي. أعطيت نمرة هاتف المصلّى لصاحب المحلّ ليتصل بالإخوة هناك ففعل... قال لهم بأنّ حادثًا قد وقع لأحد أصدقائكم. فأجابوه: «أنت مشتبه، فصديقنا صاحب الدرّاجة الناريّة نائم هنا، والآن ما هي مواصفات صديقنا الذي تتكلّم عنه؟».

أعطاهم أوصافي، وحينما استيقنوا من دقّتها جاؤوا على وجه السرعة؛ وصل الحاج ميلاني يركض بخفة وخلفه آخرون. كان الحاج غاضبًا، وما إن وصل حتّى صاح بي: «يا عمّ! أيمكن قيادة الدرّاجة بيد واحدة؟!»، أما صاحب سيّارة الجيب، وبدا للإنصاف رجلًا ودودًا، فراح يردّد دائمًا: «لا إشكال إن أصاب السيّارة شيء، المهمّ أن تكون أنت بخير!». أضحى كلّ من يصل إليّ يدلي برأيه حول ما فعلت: «يا أخي! وهل يُعقل أن تقود الدرّاجة بيد واحدة؟».

- إن رغبت بتناول الخبز الطازج قل، فنحن نشتريه لك!

قصدنا الطبيب مجدّدًا لنطمئنّ بأنّ يدي لم تُصب بإصابة جدّيّة، وهذا ما كان. غاية الأمر أنّني تحمّلت الألم مدّة أطول. بالطبع، جاء ذلك اليوم الذي أيقنت فيه بأنّ على الجرحى متابعة أمورهم بأيديهم، وأنّ أغلب الناس للأسف قد فقدوا فكرة وروحيّة المساعدة...

▫

أحيانًا كانت آلام جراحاتي القديمة تثور وتتجدّد! ذات مرّة اجتاحتني أوجاع شظيّة لا تزال في ركبتي منذ إصابتي في عمليّة مسلم بن عقيل. كنت حينها في مسجد التوحيد الذي أحببت شباب مقرّه، وقد أعدّ «محمود

ستّاري» أخو كريم الغداء مع الإخوة الآخرين. بعد تناول الغداء خرجت من هناك قاصـدًا المنزل. حينذاك، عادة ما كان يقف حارس وسط مفترقات الطرق. أردت عبور تقاطع «قره آغاج»، وكنت منذ مدّة أشعر بقليل من الألم في ركبتي، إلّا أنّ الألم اشـتدّ عليّ في تلك اللحظة، بحيث لم أعد أسـتطيع الحراك حين وصلتُ إلى قرب الحارس! لم أستطع التقاط نفسي من شدّة الألم. أطلقت بعض السيّارات الزمامير: «لِمَ أنت واقف؟».

- لا أستطيع المشي!

عندمـا رأى الحارس حالي، لفّ يدي حول رقبته وسـاعدني في عبور الشارع. أوقف سيّارة أجرة، فركبتها بصعوبة بالغة لتقلّني إلى البيت. في البيت لم تُحلّ المشكلة بل ساءت. كاد الوجع يقتلني. حين رأت زوجتي حالي استأجرت سـيّارة ونقلتني إلى طوارئ مستشفى الإمام. بعد المعاينة قال الطبيب لي: «يجب أن تخضـع لعمليّة جراحيّـة». تذكّرت قول الطبيب في غرفة العمليّات حين سألته هل كلّ هذه الوحدات من الدم التي يعلّقونها لي هي تعويض عن الدماء التي نزفتها، فقال: «عادة يسـتغرق الأمر شهرين أو ثلاثة لتعويض الدماء النازفة». أحسسـت بغشـاوة في عينيّ، أمّا رجلي المتألمة وكأنّها تشتعل نارًا. وأنا الذي لا أحبّ الصراخ والأنين، كدت أصرخ من شدّة الألم. لقد تورّمتْ ركبتي وازرقّت. لعلّ الشظيّة التي استقرّت في ركبتي في شهر أيلول وربّما تشرين الأول من العام 1982م تريد أن تصفّي حسـابها معي! نُقلـت إلى غرفة العمليّات. فجاءني الجـرّاح وكان حديث عهد بالعمل. حين رأى الصـور وحـالي، أدرك ما يحدث. التقط الطبيب حقنـة كبيرة وأدخلها تمامًـا في المحلّ الذي يؤلمني. كان ألمي شـديدًا إلى درجة لم أشعر فيها بألم الإبرة. بدأ بسحب القيح من ركبتي، فملأ حقنتين شـعرت بعدها براحة. ثمّ قاموا بتخديري وسـحبوا الشظيّة والتقيّحات. كنت عندما أستعيد وعيي، ألوذ بالصمت كعادتي. فطوال مدّة إقامتي في المستشفيات، كنت دومًا أرى الجرحى يتكلّمون حين إفاقتهم من التخدير

بكلام غير ذي معنى، فيبدأ من حولهم بالضحك. لذا، أخذت عهدًا على نفسي بأن لا أتكلّم بكلمة إلّا بعد أن أستعيد وعيي بالكامل. وكان الجميع يعجبون لحالي. وقد استدام الأمر إلى آخر سنوات الحرب. حتّى إنّني سُئلت: «أنّى لك التركيز وأنت تستعيد وعيك؟»، فأجيب إنّها ليست المرّة الأولى التي أخضع فيها لعمليّة، وقد زادت العمليّات التي خضعت لها عن 20 عمليّة!

في تلك الأيّام كان وضع المستشفى الذي أُدخلت إليه لإجراء عمليّة لركبتي سيّئًا. والطعام الذي يقدّمونه أين منه طعام الجبهة. فالفطور مثلًا عبارة عن القليل من الخبز والجبن، والغداء قليلٌ من الخبز والبطاطا المسلوقة، أمّا عند العشاء فيقدّمون الحساء.

عندما رأيت ذلك، أوصيت عائلتي بإحضار الطعام من المنزل. فصاروا عادةً ما يحضرون لي المرق باللحم، أو الكباب بالأرزّ، إضافة إلى المرطّبات. لقد اعتنيت بنفسي. من حسن الحظّ أنّ جرحي لم يكن بحال تستدعي نظامًا غذائيًا خاصًّا. بعد أن مضت ثلاثة أو أربعة أيّام لم أذق فيها طعام المستشفى، قيل لنا بأنّهم عيّنوا رئيسًا جديدًا له، وأنّه سيأتي في الصباح لتفقّدنا. ما إن وصل إلى غرفتنا ونظر في الأطباق البلاستيكيّة الموضوعة أمام المرضى والمحتوية على قليل من الخبز والجبن إضافة إلى فنجان من الشاي، حتّى قال: «كيف هو وضع الطعام هنا؟»، قلنا: «ها أنت ترى بنفسك». غضب كثيرًا. رمى بالأطباق جانبًا وبدأ بالصراخ. وفي ظرف دقيقتين جمع طاقم المستشفى هناك وقال: «ما هذا الذي تقدّمونه للجرحى؟! هؤلاء ليسوا أسرى، إنّهم جرحى ومجاهدون. وقد جاؤوا إلى هنا ليتعافوا ويتقوّوا... إن قدّمتم هذا الطعام للمجنّدين الإجباريّين لا يأكلونه و...»، عند الظهر، تغيّر الوضع، فقدّموا للمرضى الأرزّ بالكباب أو الدجاج في وعاء زجاجي، مع المرطّبات. بحيث صار المريض لا يرغب بالخروج من المستشفى!

وراح الجميع يدعون للرئيس الجديد. لقد كان من قبل مدير مستوصف الشهيد بهشتي التابع للحرس، وقد نُقل إلى هنا وكان غوثًا للجرحى. بقيت في المستشفى عشرة أيّام إلى أن تحسّن جرحي وأُذن لي بالخروج.

▫

في أواسط أيّار من العام 1987م اشتدّ شوقي للجبهة بنحو لا يوصف. لا يوجد أحد ليرافقني. فالكتيبة أنهت قبل مدّة إجازتها وعادت إلى الجبهة. لذا، ركبت حافلة دزفول وحدي، للعودة إلى حضن الجبهة.

الفصل الخامس عشر

# خطّ شلمجه

1

لم أجد في دزفول أثرًا لكتيبة حبيب؛ سألت عنها، فعرفت أنّها انتقلت إلى خطّ «شلمجه»، عندها فكّرت أنّه من الأفضل أن أذهب إلى الثكنة التي هي محل تجهيزات الحرب. تقع هذه الثكنة على مسافة 6 كلم من الأهواز على الطريق المؤدّية إلى خرّمشهر، وقد تعرّضت طريقها الترابية لقصف عنيف. عرفت هناك أنّهم سيوصلون الطعام إلى كتيبة حبيب في آلية تويوتا، فلم أفوّت هذه الفرصة عليّ، وذهبت إلى هناك في نفس تلك الآلية.

وصلنا إلى منطقة خطّ الدفاع الثاني حيث تموضعت سريّتان من كتيبة حبيب. أردت الذهاب إلى هناك لأنّ غالبية الشباب الذين أعرفهم كانوا في الخطّ الأمامي في سريّة علي باشايي، لكن، كونه خطّ دفاع جعلني أعدل عن هذا الأمر. فأنا لم أكن أساسًا أحبّ هذا الخطّ، ولا أستطيع البقاء فيه لارتفاع احتمال الإصابة هناك، وأيضًا بسبب أجوائه المحزنة. لكنّ المانع الأهم كان الإمكانات البدائية في هذا الخطّ. فأنا لم أعد كالسابق أستطيع النوم حتى على الحجارة! صرت عندما أنام أتقلّب طوال الليل من جنب إلى آخر، وأستيقظ بعد ساعة بسبب الآلام التي أعاني منها جرّاء الإصابات القديمة.

أمضيتُ تلك الليلة في قسم الإشارة في كتيبة حبيب التي التحق بها الكثير من العناصر، ولم أكن أعرف منهم إلا اثنين أو ثلاثة. صادف في

تلك الأيام أن كنّا في شهر حزيران، وهي أيام امتحانات، لكنّ الأساتذة الموجودين هناك لم يقبلوا بالتقدّم إلى الخطّ الأول لإجراء امتحانات للأخوة برغم كلّ محاولات المسؤولين. ربّما أصابهم الخوف بعد سماعهم نبأ استشهاد اثنين من الشباب هناك. لقد جاؤوا إلى هذا الخطّ، لكنّهم غير مستعدّين للتقدّم أكثر. أخبرتهم أنّني سأذهب إلى الخطّ الأوّل، فأعطوني أوراق الامتحانات لأعطيها للشباب ثم يعيدها أحدٌ ما عندما يرجع من هناك. يبعد الخطّ الأول حوالي 13 كلم عن الخطّ الأمامي. توجّهت إلى هناك صباحًا في آلية التويوتا التي أوصلت الماء والثلج وغير ذلك مما يحتاجونه.

أوّل شخص رأيته هناك هو أحد أصدقائي القدامى ويدعى فرج، وكان معاون علي باشايي. كان هناك أيضًا صديقي حميد غمسوار[1] مع أخ من الإشارة وعدد آخر من الأفراد. بعد السلام والاطمئنان عن الأحوال سألوني: «سيّد، هل ستبقى هنا؟».

– لست أعلم بعد، سأبقى 5 أو 6 أيّام، لكن، ربّما ذهبت قبل ذلك لأنّني لا أحبّ خطّ الدفاع هذا.

أخبروني هم أيضًا أنّهم جاؤوا إلى هنا منذ 12 يومًا، وسيعودون بعد 7 أو 8 أيام لأنّه من المقرّر أن تستلم كتيبة أخرى هذا الخطّ. أعطيتُ أوراق الامتحانات لفرج قلي زاده. تعذّر جمع الشباب في مكانٍ واحد، لذا كان على كلّ واحد منهم تقديم الامتحان في الدشمة التي يوجد فيها. كان الأساتذة قد أوصوا بالإجابة عن أسئلة الامتحان ولا داعي لتحصيل علامة أعلى من 18، وعندما رأى الشباب الأسئلة قالوا: «لا يمكن أصلًا في هذه الامتحانات الحصول على علامة أعلى من 18!».

1 – كان الشهيد حميد غمسوار صديقي في الجبهة، وتعرّفت بعد الحرب إلى والده المرحوم الحاج علي غمسوار وأصبحنا أصدقاء، وقد توفّي في شتاء 2006م على أثر مرض أصابه. كان الجلوس معه يرفع من معنويّاتنا حتى آخر أيام عمره، ويذكّرنا برفاق الجبهة الطاهرين، حشره الله مع الشهداء.

▫

بدأتُ بعد ساعة جولة تفقديّة للشباب في دشمهم الواقعة قرب مثلّث طرق يتعرّض بشكل دائم لنيران العراقيين. كان فصيل عليرضا سارخاني متموضعًا في الجهة الأخرى من المثلّث، وقد حُفر خندق بعد المثلث بقليل يصل إلى مكمن يقع على مسافة 40 مترًا بعد الخطّ الأمامي، ويبعد عن الأعداء مسافة 20 أو 30 م. وبالتالي، يستطيع الشباب الموجودون فيه رؤية الدبّابات المحترقة؛ دبّاباتنا من جهتنا، ودبّابات العراقيين من الجهة الأخرى. قالوا إنّ العراقيين كثيرًا ما يعبرون من قرب هذا الخندق فيرونهم ويطلقون النار عليهم، وبدورهم كان العراقيّون يستهدفونهم عندما يتّجهون ناحية الدبّابات المحترقة، لذا صارت الطريقة الوحيدة للنجاة هي العبور من هناك بطريقة «مشية القرفصاء». كانت منطقة عليرضا سارخاني من أسوأ المناطق لأنّ العراقيين يرون بوضوح الآليات والتجهيزات الموجودة فيها ويقصفونها بشدة، فتتزايد خسائرنا بشكل كبير في هذا المثّلث لدرجة أنّ الشباب صاروا يسمونه «مثّلث الشهادة». بالفعل كان خطّ الدفاع في شلمجه مكانًا خطيرًا. لم أعبر المثّلث، وكنت أرى الشباب في فصيل سارخاني من بعيد. ذهبت إلى دشمة في هذه الجهة من المثّلث وهناك رأيت الحاج ميلاني. كان من الواضح أنّه نام بعد صلاة الصبح واستيقظ الآن. وقد أصبحت الساعة التاسعة وأراد الذّهاب لتناول طعام الفطور. ما إن رآني حتى ناداني: «لوري... »[1]، لم يعد يناديني باسمي منذ أحداث «لورل وهاردي»[2] وما قمت به أنا والشهيد عبد الحسين أسدي. كان لقاءً حارًّا. سلّمت عليه ودخلت إلى دشمته. هناك رأيت أيضًا حبيب رحيمي الذي تربطني به معرفة قديمة، فسررت كثيرًا، وبدأنا نستذكر الماضي. سألني الشباب باستمرار «سيّد،

---

1 – حتى في هذه الأيام حيث نعمل معًا في جامعة العلوم الطبية لا يناديني باسمي أحيانًا!

2 - ورد تفصيل عن هذه الأحداث في الجزء الأول من الكتاب، الفصل السادس.

ستبقى أم لا؟!»، وكان جوابي واحدًا: «لا أستطيع البقاء طويلًا في خطّ الدفاع، لكنّني سأمكث بضعة أيام لأنّ الإخوة مجتمعون هنا». أخذنا الحديث حتى الثانية ظهرًا عندما أرسل علي باشايي أحدهم في أثري يدعوني لتناول طعام الغداء، فأخبرته أنّني سأذهب مساءً إلى منطقته، عندها قالوا لي: «سنلعب الليلة هنا مع العراقيين بالألعاب النارية». فغادرت المكان وذهبت إلى علي باشايي. ما إن رآني حتى صاح بي: «أولًا اجلس قليلًا في مكان ما يا عزيزي وتناول طعام الغداء، ثم اذهب للتنزه حيث شئت!». كنت فعلًا أحبّ هؤلاء الأصدقاء وأستأنس بهم لدرجة أنّني كنت أرغب برؤيتهم جميعًا في الساعات الأولى لوصولي إلى المنطقة، وأنّى لي أن أجد أناسًا أكثر منهم إخلاصًا وصدقًا في كلّ الدنيا؟!

تناولنا طعام الغداء عند الثانية والنصف تقريبًا. كان الجوّ معتمًا قليلًا داخل الدشمة؛ في النهار يدخل نور ضعيف من الكوّة؛ أمّا في الليل فكانوا بالطبع يضيئون المصباح. لم أستطع البقاء كثيرًا فيه فأخذت طعامي إلى الخارج وجلست أمام الباب، عندها صاح بي الشباب: «المكان هناك خطير، ستتأذى إن بقيت!»، وكانوا في ذلك الوقت يقصفون بشدّة المثلّث الذي لا يبعد عن الدشمة أكثر من 30 م. قالوا إنّ العراقيين يقصفون هذا الخطّ بشدّة بعد فترة الغداء عندما يذهب الشباب للوضوء هناك حيث صهاريج المياه، لذا صاروا يؤخّرون صلاتهم قليلًا. وكان بعضهم كالأخ علي، يذهب إلى مصلّى صغير قرب دشمة عليرضا سارخاني مسؤول الفصيل ليصلّي.

منذ اليوم الأول، عرفت أنّ أكبر مشكلة يعاني منها الشباب في هذا الخطّ هي قلّة المراحيض. كان هناك مرحاض واحد فقط قرب دشم فصيل حبيب رحيمي وآخر قرب المثلّث. أمّا في فصيل عليرضا سارخاني فلم يكن هناك واحد، وكلّ من تطرأ عليه حاجة كان يبتعد قليلًا ويقضيها.

- يمكننا بناء مرحاض باستخدام الأشياء البسيطة المتوافرة، وهذا ليس بالأمر الصعب.

كنت كلّ يوم أقول لهم هذا الكلام لكن لم يُعمل به. وظلّ الذهاب إلى المرحاض أمرًا شاقًّا.

▫

في أحد الأيام، أردت الذهاب إلى الحاج ميلاني. كانت الاشتباكات عنيفة. وبينما أنا متوجّه إلى دشمة الشباب، سمعت فجأة صوت قذيفة B7 وغرقت في الغبار والتراب! ذُهلت، ثم انتبهت بعد دقائق أنّ رامي الـB7 وقف على ساتر ترابي وأطلق قذيفة من دون أن ينظر إلى الخلف. كانت النيران الخلفيّة للـB7 تحرق حتى مسافة عشرة أمتار. من حسن حظي أنّني لم أتأذّ. ذهبت نحوه ووضعت يدي على كتفه، فذُهل ولم يكن قد انتبه لي حتى تلك اللحظة. قلت له: «يا أخي، كيف يرمون قذيفة آر.بي.جي؟».

- باتجاه العدوّ طبعًا!

- ألا ينظرون إلى الخلف ليتأكدوا إن كان هناك أحدٌ ما أو ذخائر مثلًا؟! ألا يجب أن ينتبه الرامي للنيران الخلفية؟ لو أنّك سهوت قليلًا لكنتُ احترقت!

أخذ يعتذر مني عندما قلت له هذا الكلام، كان من السادة أيضًا، وقد استشهد لاحقًا. لقد ذكّرتني النيران الخلفية بالأحداث التي أصبت فيها لأولّ مرّة، وكانت إصابة بالغة. تركته وتوجّهت إلى دشمة الحاج ميلاني. كان العراقيّون قد بدأوا بقصف المنطقة بشكل عنيف بمدافع هاون 60ملم[1]، فأسرعت إلى الدشمة الخاصّة بالتجهيزات وانتظرتُ

1 - تمتاز قذائف 60 ملم بأنّها لا تصدر أيّ صوت قبل أن تصيب الهدف، وكانت تسقط فجأة وتنفجر. بينما كان للقذائف الأخرى صوت تعوّدنا عليه، وكنّا نعلم متى تسقط القذيفة وفي أيّ مكان تقريبًا.

هناك حتى يهدأ القصف قليلًا. لاحظت خلال تلك الأيام القليلة التي أمضيتها هناك أنّ العراقيين يقصفون المنطقة مرّة عند الواحدة أو الثانية ظهرًا ومرّة عند الغروب، وبالتالي لم يكن أحد يستطيع النوم ظهرًا. وفي الليل أيضًا لا يهدأ القصف لحظة واحدة. وإضافة إلى هذين الموعدين، كانوا يقصفون أيّ آلية تعبر في هذا الخطّ. بعد أن هدأ القصف، تابعت طريقي باتجاه دشمة الحاج ميلاني. كان الشباب في تلك المنطقة يخوضون اشتباكات عنيفة أيضًا. كان حبيب رحيمي -مسؤول الفصيل- قد وضع اثنين من رماة الدوشكا في دشمتين يعملان مداورة، وبينهما في دشمة ثالثة راميB7، وكان أحيانًا يقف ويطلق النار باتجاه رامي الدوشكا في جهة الأعداء عندما يراه. كان حبيب رجل حرب، وإنسانًا طاهرًا ومحبًّا ومن شباب الجبهة المميّزين. لم أعرف أنّها آخر أيام حياته.. استمرّت الاشتباكات عنيفة لمدة ساعة تقريبًا، ولمّا هدأت قليلًا دخل الشباب إلى دشمهم. لقد كان عمل الحراس صعبًا جدًّا في مثل هذه الأوقات.

▫

في أحد الأيام، ذهبت والحاج ميلاني والسيد «إسماعيل كهنمويي» لنستحمّ. ولمّا وصلنا إلى «قناة السمك» رآنا العراقيّون[1] فأمطروا المنطقة بقذائف المدفعيات والهاون. احتمينا بالسواتر الترابية، ولمّا رأيت شدّة القصف قلت للحاج ميلاني: «أتعلم، سيصيبنا شيء من هذه الشظايا!».

- لا لن يحصل شيء.

ما إن وقفنا لنتابع طريقنا حتى وقعت حولنا بعض القذائف، فتأكدنا أنّهم يشرفون على الطريق وكلّ منطقة قناة السمك. قرّرنا نحن الثلاثة

1 - قبل أن أذهب إلى الخطّ الأمامي رأيت العراقيين من خلف السواتر الترابية العالية الموجودة في الخطين الثاني والثالث. أما هم، فلم يكونوا يستطيعون رؤية الخطّ الأول بسهولة لكنهم يرون الطريق الموصِلة إليه بشكل جيد، وبمجرد أن يروا أحدًا يعبر من هناك يستهدفونه.

الذهاب إلى الجهة الأخرى. عبرنا الطريق ركضًا، وما إن وصلنا حتى سقطت قذيفة في نفس المكان الذي كنّا فيه! عندها قال الحاج ميلاني: «لو أنّنا بقينا هناك لما بقي منّا شيء!». فعاتبت نفسي في تلك اللحظات: «لماذا الاستحمام ما دام أني سأغادر بعد يومين أو ثلاثة؟!».

أعرضنا عن فكرة الاستحمام، ووصلنا إلى الخطّ تحت النار بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من التأخير. بعد طعام الغداء عدنا إلى حديث المرحاض. كان العراقيّون قد بدأوا القصف من جديد. لم يمضِ وقت طويل حتى انتشر في الخطّ خبر مزعج؛ لقد أصيب اثنان من الشباب: الحاج ميلاني والسيد إسماعيل كهنمويي. جُرِح السيّد في قدميه، أمّا الحاج ميلاني فقد أصيب في بطنه إصابة بالغة. أسعفوهما بشكل أوّلي وسحبوهما إلى الخطّ الخلفي، بينما كان العدوّ لا يزال يقصف المنطقة بعنف. سمعت أنّهم لم يكونوا دقيقين في طوارئ الخطّ الثالث لدى معالجة السيّد إسماعيل، وضمّدوا جرحه بحيث لم يعد الدم يجري في قدمه. لمّا وصل إلى الأهواز كانت قد ازرقّت فقرروا قطعها. بعد إجراء العملية وقطع القدم الأولى، عرف أنّهم يريدون قطع قدمه الثانية فلم يسمح لهم بذلك. انزعجنا لمّا سمعنا بهذه الأخبار خاصة أنّ سبب قطع قدم السيّد هو إهمال وتقصير بعضهم. كما أن الحاج ميلاني كان كثير المزاح، ويرفع من معنويّات الشباب بإضحاكهم. لقد افتقدناه كثيرًا. في تلك الأيام، كان الحاج ميلاني معاون حبيب رحيمي مسؤول الفصيل.

▫

عندما كنت في هذا الخطّ، ذهبت مرّتين أو ثلاث مع الشباب إلى المكمن. كانت تلك المنطقة خطرة. أخبروني أنّ أحد الشباب استشهد هناك في عملية كربلاء5؛ لكنّهم لم يستطيعوا سحب جسده الطاهر بعد؛ برغم المحاولات المتعددة لذلك.

بقيت هناك 5 أو 6 أيام. ولمّا قررت العودة، فكّرت أنّه من الأفضل أن أتفقّد الشباب وأخبرهم أنّني أريد العودة في الغد لعلّهم يريدون إرسال رسالة ما. عرفت هناك أنّهم أنجزوا امتحاناتهم وهي ما تزال معهم فأخذتها لإيصالها إلى الخطّ الخلفي. وبينما أنا متّجهٌ إلى إحدى الدشم، وإذ بأحدهم يطلق قذيفة B7 من جديد وأغرق في الغبار والتراب. التفتّ وإذا به الأخ نفسه. قلت له: «هذه أول مرّة آتي بها إلى هذا الخطّ يا أخي! دعني أرجع سالمًا. إنّها المرّة الثانية التي تفعل فيها ذلك!».

ذهبت إلى دشمة عليرضا سارخاني قال لي: «سأكتب رسالة وآخذها صباحًا إلى دشمة الأخ علي». عندما حلّ المساء سألت: «كم شخص يوجد في المكمن؟»، قالوا: «ثلاثة».

أردت في تلك الليلة الذهاب إلى هناك فلربّما كان لديهم رسالة أو أمانة يريدون إيصالها. كان طريق المكمن عبارة عن خندق قليل العمق وتحت نظر العراقيين. وعندما عبرت الخندق ركضًا بوضعية القرفصاء، سقطت قذيفتان فيه، ولم أصب بسوء. وصلت إلى المكمن، وبعد التحية والسلام، رأيت الشباب ينظرون بدقّة واهتمام إلى الأمام. فقلت لهم: «ماذا حصل؟»، قالوا: «العراقيّون يتحركون هناك».

دقّقت النظر. بالفعل يمكن رؤية العراقيين. فكّرت في نفسي: «آمل أن لا يكونوا قد رأوني عندما أتيت إلى هنا». قلت لهم: «إذا كان لديكم رسالة أو أيّ شيء ما تريدون إيصاله فأنا ذاهب في الغد إلى المدينة». لكن بقوا مشغولين بتحركات العدوّ فكان جوابهم: «سيّد، ها هم! خلف الدبّابة، لقد جاء العراقيّون!».

– هكذا يكون الكمين يا عزيزي! إذا وصلوا فسنطلق النار عليهم... الأمر ليس مخيفًا لهذه الدرجة.

مع أنّ الوضع في مثل هذه الظروف مخيف بالفعل، إلا أنّني لم أرد للشباب أن يفقدوا معنوياتهم، لذا بدأت أحدّثهم عن «كمين شلمجه»

و«مخفـر زيد»: «أنتم لم تروا الكمائن هناك، كان العراقيّون قريبين منّا لدرجة أنّنا أخذنا منهم أسرى أيضًا!...». أردت بهذا الحديث التخفيف من حدّة الموقف عليهم.

كان المكمن كبيرًا نسبيًّا، حفروه بأبعاد مترين ونصف المتر، وأحاطوا جوانبه بأكياس تدشـيم تصـل إلى السـطح. وضـعوا في داخله صندوق طلقات دوشكا وقنابل، وثبّتوا في جهاته الأربع قواذف B7.

وبينمـا أنـا أتحدّث مع الشـباب وإذ بشـيء ما يقع فجـأة في المكمن! اضـطرب الثلاثة وقفـزوا إلى الخارج، أمّا أنا فوقفـت مذهولاً! فوجئت لدرجة أنّني لم أعد أعرف ما يجب أن أفعله. ما وقع في المكمن كان قنبلة مضـيئة كادت تحرق سقفه. أصبت بالتوتر خوفًا من أن تنفجر الذخائر الموجودة والتصـقت بحائط المكمن! فجأة رمى أحد الشباب من الخارج بخوذته على القنبلة ونام عليها وصاح بي: «اخرج! هيا بسرعة...».

ركضت إلى الخارج ثم سحبته من قدميه. هنا جاء عليرضا سارخاني وآخـرون وتعاونـوا على إخماد النار. كان من الواضـح أنّ أحد الشـباب (في الكمـين) ذهب وأخبرهم بما جرى عندما قفز إلى خارج المكمن. لا أدري أيّ كرامة حصـلت فلم تشـتعل الذخائر الموجودة، لكنّ بطن ذلك الفدائي[1] احترق. عندما خرجت من الدشمة قلت له: «ليس ذنبك، فقد آن أجلي اليوم!».

انزعجت لما حدث خاصّـة عندمـا رأيت الحرق في بطـن الأخ. وقفت على مسافة قريبة من المكمن. أردت أن أرى خطوة العراقيين التالية؛ وفي الوقت نفسـه كنت غاضبًا وأريد الانتقام منهم لما جرى. لكنّني فكّرت إن أنا قمت بعمل ما فسـيتأذّى شبابنا في المكمن لعدة أيام فقررت أن أعود. وللعودة من الكمين، لا بدّ من العبور من الخندق الذي ينتهي إلى نفق حُفر تحت سواتر ترابية. هناك تمامًا رمى العراقيّون قذيفتين أو ثلاث قذائف

1 – رأيته بعد الحرب وكان يعمل في غرفة التجارة. نسيت اسمه للأسف.

هــاون 60ملم. دقّتهم أكّدت أنّهم يشــرفون بشــكل كبير على ذلك الجزء من الخندق. لم تنل مني شـظايا القذائف. إذ أسرعت نحو الدشمة، وما إن أردت الدخـول حتى وقعت قذيفة أمام مدخله وامتلأ بالغبار والتراب! عندها قال لي علي باشـايي: «سـيّد، أتعلم، سنصاب بالأذى بسببك، إن أردت الذهاب يا عزيزي فأسرع بذلك وادفع عنا شرّك...!».

قلت: «لا تخف! إن لم أذهب في الغد فسأذهب بعد غد!».

في تلـك الليلة، تمكّنت من النوم بعد كلّ القذائف التي لاحقتني. وأيّ نوم! اسـتمرّ العراقيّون في قصف الخطّ، لكن، لم يقعد شبابنا «عاطلين من العمل»، وراحوا يردّون على النار بالنار!

غرقت في نوم عميق لدرجة أنّني لم أعلم حتى الصباح أنّ دشـمتنا امتـلأت بالغبـار والتراب بسـبب قذيفتين سـقطتا على إحدى الدشـم القريبـة منها. قال الشـباب إنّ الانفجار كان شـديدًا لدرجة أنّ أكياس التدشيم تزعزعت من مكانها. أردت النوم ثانية بعد أن صلّيت الصبح، لكـن -كعادتـه- لم يسـمح لي الأخ علي بذلك. كان يقول: «اجلسـوا بعد الصـلاة تناولوا فطوركم. تحادثوا وتفقّدوا بعضـكم بعضًـا». وأنا كنت أصـرّ على الخلود إلى النوم وأجيبه: «لا! سـأنام! ومـاذا يمكن أن يفعل المـرء في خـطّ الدفـاع! أين يمكـن الذهاب؟» هـذه هي الحقيقـة. تلك المنطقة هي من أسوأ خطوط الدفاع، ولا تستطيع هناك ممارسة حياتك الطبيعية خارج الدشمة.

قبل أن أغادر في ذلك اليوم، قررت الذهاب إلى «نوك»[1]، وهي منطقة معروفة في شـلمجه، أحبّ زيارتها. توجهـت إلى هناك مع حبيب رحيمي وعليرضا سارخاني. تقع نوك في خطّ فرقة أخرى، ومن المعروف أنّ أشدّ الاشـتباكات كانت تجري في تلك المنطقة من شـلمجة التي تشـبه المنقار الذي يخترق قلب العراقيين. عرفت عندما وصـلنا إلى هذه المنطقة لماذا

1- ومعناها بالعربية المنقار.

هي أكثر شـهرة من غيرها. لقد تبدّلت أرضـها الصافية إلى سوداء من كثرة القصف، وامتلأت بالتجهيزات والدبّابات والذخائر المحطّمة، حتى إنّ الشـظايا مزّقت الأسـلحة والجثث مـرّات ومـرّات! عرفنا من خلال العملات النقديّة المتناثرة أنّ للعراقيين قتلى هناك أيضًـا. كلّ شيء كان خرابًـا. وكأنّ زلـزالًا عظيمًا أصـاب المنطقة فقلبها رأسًـا على عقب... هناك، اختلطت مشاعرنا. آلمنا المشهد، لكنّنا سررنا لأنّ إخوتنا استطاعوا الحفاظ على هذه الأرض بمقاومتهم الباسـلة. فكّرت أنّه لو قُدّر لشلمجة أن تتكلّم، لروتِ الكثير عن بسالة شبّاننا وشهادتهم ومظلوميّتهم...

عدنـا عند الظهـر. أخبرونا أنّ سـيارات ستوصـل بعد فـترة طعام الغـداء فقررت أن أعـود فيها. عندما انتهينا من تنـاول الطعام قال لي علي باشـايي: «سيّد، بما أنك سترجع اليوم، اسـمح أن تأتي معي لنبني المرحاضـ معًا». وعندما بدأنا بالعمل قلت له: «أتعلم يا علي، لن تتركني أرجع من هنا ما لم أُصب!».

فقال مبتسـمًا: «وأين ستصـاب يا عزيزي!»، ويقصد أنّني مصاب في كلّ أنحاء جسدي و...، قال ذلك وأتى بأربعة أو خمسة أكياس خيش وقال لي: «أنت املأ هذه وسـأذهب لأحضر غيرها من علي رضا». بقيت وأحد عناصـر الإشـارة. تناولنا المجرفة وبدأنا العمل معًـا. كان لا بدّ من حفر حفرة في الأرض لتصـريف الفضلات فيها، كما وجدنا في المنطقة بعض الألواح المعدنية فاسـتخدمناها في بناء المرحاضـ. لم نعلم أنّ العراقيين رأوا «علـي» وهو يعبر مثلّـث الطرق، وبينما كنّا نعمل بجـدٍّ واجتهاد، وإذ بقذيفتي هاون 60ملم تسـقطان في المنطقة بينما كنت أحمل أحد أكياس الخيش؛ واحدة قرب الأخ عنصـر الإشـارة، والثانية خلفي تمامًا، وكانت شـظيتان من نصـيبي! واحدة في ذراعي والأخرى خلف أذني، ولحسـن الحظّ لم يصب عنصر الإشارة بسوء. بدأت الدماء تسيل من رأسي، ولم

أنتبه إلى الجرح الذي في يدي. هنا جاء علي ورأى ما أصابني فقال لي:

- آها، سيّد، لم يكن غير خلف أذنك سالمًا، وها قد أصيبت أيضًا!

- أجل، والآن وقد جُرحت، دعوني أرجع...!

عندما رأى الشباب أنّ جرحي ليس عميقًا، أخذوا الأمر على سبيل المزاح أيضًا... أوصلوني إلى المسعفين الذين بدأوا بمعالجتي. أخذوا قميصي وضمّدوا به الجرح الذي في ذراعي، وضمّدوا رأسي فصرت وكأنّني أضع عمامة. قال لي المسعف: «انهض لنرجع إلى الخطّوط الخلفيّة». أردت البقاء في تلك الليلة، لكن ازداد النزيف في رأسي عند العصر تقريبًا، وصار يؤلمني أكثر فأكثر فوافقت على الرجوع معهم. أمّا يدي فإصابتها لم تكن بليغة، ولم تكن تؤلمني ما لم أحرّكها على الرغم من وجود شظيّة فيها لم يستخرجوها حتى فيما بعد.

وصلنا إلى طوارئ الخطّ الثاني. لم أرغب بالتراجع أكثر. كانت تشغل بالي رسائل وامتحانات الشباب الذين لم يتسنّ لي أن أودّعهم، والتي وعدتهم بإيصالها. فكّرت أن أعود عندما يتوقف النزيف، لكن لم يقبل المسعفون بذلك وقالوا: «عليك العودة الآن». وهكذا، لم أستطع الوفاء بوعدي بعد كلّ الذي جرى، وأجبرت في 10 حزيران 1987م على مغادرة المنطقة على متن سيارة إسعاف، والانتقال إلى مستشفى في الأهواز، هو نفس المستشفى الذي نُقلت إليه في عملية كربلاء4.

أدخلت إلى غرفة العمليات. استخرجوا الشظيّة التي خلف أذني وقطّبوا الجرح الذي في يدي وضمدوها من دون أن يستخرجوا الشظية منها. لم يكن الجرح العميق الذي أصبت به في أصابعي في كربلاء4 قد تحسّن بالكامل، لذلك لم تكن حركة يدي طبيعية. بقيت يومين في المستشفى على هذه الحال ثم نقلوني إلى طهران حيث انتظرت في وحدة إخلاء الجرحى إلى أن عدت إلى تبريز بالطائرة.

كالعادة، في تبريز لم أقبل بالذهاب إلى المستشفى لشدّة مللي منه، وصار أهل بيتي يعرفون ما يفعلون في مثل هذه الحالات. كنت مُنهكًا وأصبت بدوار في رأسي. ارتديت قبّعة غطّت الضّماد وتوجّهت إلى المنزل. وصلت عند الظهر وسلّمت على زوجتي. لم أرفع القبّعة عن رأسي فارتابت في الأمر. سألتني: «لماذا لا ترفع القبّعة عن رأسك؟».

- هكذا!

لم يكن الهواء باردًا ليبرّر تغطية رأسي. ولمّا أصرّت زوجتي على معرفة السرّ في ذلك أخبرتها أنّني أُصبت.

عندها قالت لي: «أُصبت! لكن لم يمضِ بعد 15 يومًا على ذهابك وعودتك؟!».

لقد استغربت المسكينة، ويحقّ لها ذلك، لكنّ هذه الأمور محتملة في الحرب. لم يخلُ منزلنا ذلك اليوم من الزوار. جاء أفراد العائلة والأقارب لعيادتي. وأكثرهم زاروني للسلامة من الإصابة السابقة، فتضايقوا حين علموا بإصابتي الجديدة. أمّا الأشخاص الأكثر حساسيّة فكانوا يندمون لمجيئهم. كالعادة، دفع الفضولُ الجميعَ لمعرفة أين كنت خلال الخمسة عشر يومًا وماذا جرى معي.

عندما حلّ المساء انقبض قلبي. اتصلت بأخ في المصلّى وطلبت منه أن يأخذني إلى المركز. كانوا مجتمعين وعرفوا أنّني أصبت من جديد. سألوني عن الجبهة ورحنا نمزح معًا؛ كانوا يضحكون على حالي وأنا أضحك على حالهم! سألني أحدهم عن الحاج ميلاني فعرفت بأنهم جهلوا أخباره. أجبت: «لقد أصيب الحاج ميلاني والسيد إسماعيل قبلي بثلاثة أيام يا عزيزي!». بدأ الشباب البحث عنه في اليوم التالي إلى أن وجدوه في النهاية في أحد مستشفيات طهران.

علـى أيّ حال، كنّا نقضـي أغلب أوقاتنا في المصلّى عنـد مكوثنا في المدينة، وقد رضيت عائلتي بهذا الوضع تعوّدًا أو قسرًا. رسمتُ في المركز خارطة شلمجة وخطوط الدفاع مع العراق، وشرحت للشباب العمليات التي نُفّذت في المنطقة. تعجّب الذين لم يروا المنطقة ممّا يسمعون، ولأنّنا لا نمتلك معلومات من الأقمار الصناعية، لم نستطع اطّلاعهم على كلّ تفاصيل المنطقة. كانت البرامج التلفزيونية ضعيفة أيضًا، ولم يحصل أن أعدّ أحد فيلمًا شاملًا يظهر بشكل جيّد ما يقوم به الأخوة. خلاصة الأمر، إنّ الأفراد الذين كانوا في المدينة ولا يعرفون الجبهة جيّدًا، صاروا يفهمون الظروف أكثر نوعًا ما عندما روينا لهم ما كنّا نرى ونسمع.

بعد عدّة أيام، انسحبت كتيبة حبيب من خطّ شلمجه. لكن قبل ذلك، فُجعتُ بخبر استشهاد اثنين من أصدقائي القدامى. لقد استشهد علي باشايي في 17 حزيران في خطّ شلمجه بعد أن أصيب بشظيّة عندما كان ذاهبًا ليتوضأ. كان من المقرّر في تلك الأيام أن يحضر إلى المدينة ليذهب إلى الحجّ، مع الشباب العائدين، إذ تمّت الموافقة على حجّهم، أمّا هو، فقد مرّ يوم تلاه آخر ولمّا يعد، لكنه سبق الجميع إلى بيت اللّه... وبعد ثلاثة أيام على شهادته، نال حبيب رحيمي أيضًا وسام الشهادة والتحق بأخيه مجيد.

كنت أدعو اللّه تعالى بقلب مكسور أن يعينني على تحمّل فراق أعزّتي ويمنحني الصبر والجلَد...

# الفصل السادس عشر
# الانهيار

1

بدأنا نسمع شيئًا فشيئًا أنّ مهمّة فرقة عاشوراء ستكون من الآن فصاعدًا في الغرب. في تموز-آب من العام 1987م ذهبتُ إلى هناك عدّة كتائب من بينها كتيبة الإمام الحسين عليه السلام، وشاركت في عملية «نصر7»[1] في منطقة «سردشت». فكّرت في تلك الأيام دائمًا بكلام الشهداء. لقد أصبح ما كانوا يتداولونه حول الحرب أمرًا واقعًا، فأيامها طالت، ولم يستطع العراقيّون حتّى اليوم توجيه ضربة قوية لنا، ولا نحن استطعنا توجيه ضربة قاضية لهم. أضف أنّ خسائر العراقيّين كانت تُعوّض بسرعة عبر الدعم الذي يقدّمه لهم حلفاؤهم في الخارج وأعداء الجمهورية الإسلامية: طائرات جديدة، أسلحة جديدة، وحتى قوّات جديدة[2]... بينما تظهر الخسائر البشرية واضحة عندنا.

كنّا نطرح في الجلسات مسألة سدّ الفراغ الذي يتركه الشهداء، وأنّى ذلك، فالمجاهدون اليوم؛ إن بحضورهم المادّي أو بروحيّتهم القتاليّة وإيمانهم وتضحياتهم، لا يشبهون المجاهدين في السنوات الأولى للحرب على الإطلاق. الجبهة التي جذبت بمعنويّاتها الكثير من التعبويين فتربّوا في حضنها وجعلت منهم أناسًا سماويين، فقدت اليوم جاذبيّتها المعنويّة

---

1 - بدأت عملية نصر7 بنداء يا فاطمة (عليها السلام) في 1987/8/5م في غرب محافظة سردشت في أيام عرفة وعيد الأضحى.

2 - رأينا بين الأسرى العراقيين طوال مدة الحرب جنودًا مأجورين من 15 دولة أجنبية أيضًا، وهذا دليل على الدعم المطلق للدول الأجنبية للعراق، وعلى مظلومية الشعب الإيراني العظيم.

أمـــام الدّنيا ولذائذهـــا، ولم يبقَ على عهد المقاومة المكتوب بالدم ســوى أولئـك الذين ذاقوا تلـك الحلاوة الإلهية. كان أكـثر الأفراد الموجودين في المركز هم ممّن لديهم تجربة طويلة في الجبهة، وقد أصـيب بعضهم بجراح حدّت من فعاليّتهم وعطائهم. وأنا كذلك. فلم أكن مثلًا أستطيع النّوم في الجبهة ليلة كاملة بشـكل مريح. ظهري يؤلمني من جهة وبطني مــن جهــة أخرى! بعد هــذه السّـنوات الطّويلة التي قضـيتها في الجبهة والجراحات التي أنهكت جســدي وغطّت 70% منه، اقترب موعد ذهابي ليســ إلى الخطّ الأمامي ولا إلى المنــزل، بل إلى وادي الرحمة! لكن أراد اللّه أمرًا آخر وبقيت شــاهدًا على مظلوميّة شبابنا وغربتهم في الجبهة، في وقت لا بدني ســاعدني على البقاء هناك، ولا حياة المدينة اسـتطعت احتمالها هنا.

في كردســتان، عــام 1981م، كان وزني يزيد عن الــ80 كلغ وأنا في 17 من عمري، أمّا في خريف العام 1986م فقد أصبح وزني 55 كلغ. ظللتُ في أغلب الأوقات أعاني من التهابات جراحي المتكرّرة، لكنّني كنت أتصــبّر، ولم أتــوانَ لحظــة واحدة عــن أداء التكليف. كان ما أراه في المدينة أشــدّ إيلامًا من تلك الجراح أحيانًا. لقد بدأ الشــرخ يكبر بين الجبهة والمدينة مع مرور الأيام، وصــار الشباب يصــابون باليأس ويعرضون عن الجبهة عندمــا يرجعــون منها، ويرون عــدم اهتمام المســؤولين بشــؤون الحرب المفروضة. كنّا نصادف تلك الأيام أشخاصًا يخاطبون رفاقهم بلا حياء: «تريــدون الذهاب إلى الجبهة؟! دعكم منها ولنذهب نتســلَّ معًا»، ورأينا أبناء بعض المســؤولين يمضون الخدمة الإلزامية (خدمة العلم) في فريق الحماية الخاصّ بمســؤولي الإدارات المختلفة في المدينة. لم تكن مثل هذه الأمور تحصــل فقط في ســنوات الحرب الأخيرة، لكنّها ازدادت أكثر مع مرور الوقت[1]، وهذا ما قصم ظهورنا.

1- أذكر عندما كنت في كتيبة الإمام الحســين أنّ عددًا من المســؤولين جاؤوا لزيارتنا قبل أيام على بدء عملية "يا مهدي" وكنا في مصــنع الملح، ومن بينهم مســؤولو محافظات، قائمقاميات وبلديات.

■

في أواخر صيف العام 1987م كنت في دزفول عندما قالوا إنّ كتيبة حبيب ستذهب إلى ثكنة الشهيد القاضي. وضعنا أمتعتنا في آليتي «تريلر» وذهبنا نحن في الحافلات. طلب الأخوة في الحرس من السائقين عدم التوقّف بعد مدينة «ميانه»، لكنّ الشباب أصرّوا على الذهاب من داخل المدينة، فحينذاك سيتمكّنون من شراء ما يحتاجونه أولًا، وتفقّد عوائلهم ثانيًا. خضنا في الحافلة نقاشًا ساخنًا حول موضوع تمامية الصلاة وقصرها في ثكنة الشهيد القاضي.

لم يكن بناء هذه الثكنة قد اكتمل بعد؛ فبعض الأبنية يفتقر إلى المياه وبعضها إلى الكهرباء، لذا أجبرنا على استخدام المصابيح في الليل. عندما وصلناها جلنا في أرجائها فوجدناها محاطة بالأسلاك الشائكة من كلّ الجوانب، وكان في الجهة الخلفية منها حديقة غير مسيّجة تفصل بينها وبين إحدى التلال. لم نجد هناك أيّ مخرج جيّد للهروب في النهار.

رغب الجميع بالذهاب إلى تبريز بسبب قربها من الثكنة، إذ لم تتجاوز المسافة إلى هناك النصف ساعة، لكن، تمّ منع الدخول والخروج من على مسافة 100 م من الحارس، بل وفُرض عدم التقدّم إليه أساسًا،

---

ذهبت كل مجموعة منهم إلى فصيل، وزارنا منهم اثنان من رؤساء البلديات. عندما كنّا نتناول طعام الغداء طرحنا بعض المشاكل التي نعاني منها، وانتقد الشباب أوضاع المدينة والمسؤولين؛ قال أحدهم: أنتم ترون الشباب هنا في أيّ ظروف يعيشون وفي أيّ حرب قاسية يقاتلون، مع كل ذلك، عندما يذهب هؤلاء إلى المدينة ويرون الوضع هناك يصيبهم اليأس! ولا يكفي أنكم أنفسكم لا ترسلون قوات إلى الجبهة بل تأخذون عناصرنا أيضًا!"، أكمل الثاني: "كيف يستطيع هؤلاء المقاتلون إدارة الحرب وفقًا لتوجيهات الإمام وتوجيهات قادتهم، وأنتم لا تستطيعون إدارة مدنكم بشكل جيد، وهي بعيدة عن أجواء الحرب؟"، وقلت أنا مازحًا: "نحن دخلنا في حرب مدن، إن شاء الله عندما تنتهي الحرب سوف نرجع ومعنا أسلحة الـB7 والدوشكا وأي إدارة أو مصلحة لا يكون الناس راضين عنها سوف نطلق عليها النار"، أجابني أحدهم بكلام عرفت بعد سنوات أنّه كان من صميم الواقع: "عندما ترجعون إلى المدينة سوف يقوم بعض المسؤولين بتوظيف بعضكم كمرافقين لهم ويكملون أعمالهم، وعندها لن تستطيعوا حتى أن تطلقوا قذيفة B7".

والسبب هو قرار الانطلاق إلى الغرب بعد ثلاثة أو أربعة أيام. كان بعض الأهـالي يأتون لرؤيـة أبنائهم بعدما عرفوا بوصـول الفرقة إلى الثكنة، لكن، لم يسـمح لهم الحرّاس بالاقتراب من الثكنة أيضًا، فكانوا يكتفون بالسـلام على أبنائهم مـن بعيد. في تلك الليلة عرفـت أنّ أفراد عائلتي ينتظرون أمام المدخل. ذهبت لرؤيتهم، لكنّ الحارس منعني. قال لي إنّه من غير المسـموح لي الاقتراب أكثر! عندها ذهبت من طريق اكتشـفتها صباحًا. احتجت إلى نصف ساعة لألتفّ حول الثكنة عبر الحديقة وأصل إلى خارجها حيث تفاجأ بي الحارس، وقال لي: «أخبرني كيف خرجت؟».

– هذا الموضوع لا يعنيك.

بقيت مع عائلتي لفترة وظلّ الحارس يراقبني ليعرف من أين سأعود. عندما ودّعتهم كان السيّد فاطمي قد وصـل لحسن حظّي، وأخبرته أنّ الحارس لا يسـمح لي بالدخول، فطلب منه أن يدعني أدخل ولا يعترض طريقي مرّة أخرى. وهكذا عدت إلى الثكنة.

خصّصـوا هناك لكلّ كتيبة قاعة قسّـموها إلى عدة غرف، ومع أنّها افتقرت إلى المياه والكهرباء، إلا أنّها ظلّت أفضل من الخيام، خاصّة مع تدنّي درجات الحرارة.

◘

بعـد 5 أو 6 أيام توجّهنا نحو «رحمانلـو»، وهي قرية قريبة من بحيرة أرومية. لم تكن طريقها جيّدة في البداية، إذ تحيط بها الكتل والمسطّحات الصـخرية الكبيرة والجبال التـي كان يذهب الشـباب أحيانًا إليها، ثم استُحدثت لهـا طريق فيما بعد باسـتخدام الجرافات. نصـبنا الخيام هناك، فقد تقرّر أن نمضي الشتاء في تلك المنطقة.

اشـتدّت برودة الطقس، وبدأت الثلوج تتسـاقط في ضـواحي تبريز. كنت في عصـر أحد الأيام في الخيمة الخاصـة بالقيادة وجلال زاهدي، حسـن حسـين زادة، فـرج قلـي زاده وعـدد آخر مـن الأفـراد، نتبادل

أطراف الحديث ونحتسي الشاي، وقد غطّينا الخيمة ببطانية لكي نحتمي من البرد القارس، ووضعنا في طرفيها صندوقي ذخائر فارغين استخدمناهما لأمتعتنا، وكنّا نخلع أحذيتنا قربها.

فجأة سمعنا صوتًا عجيبًا. لقد تدحرجت صخرة من أعلى الجبل ووقعت على الخيمة. لم يستطع أحد فعل شيء للحؤول دون سقوطها، فقط صار الجميع يصرخون: «ابتعدوا». صادف أن كنّا جميعًا جالسين في أطراف الخيمة فلم يصب أحد بسوء والحمد لله، لكنّ الخيمة مُزّقت وكأنّها شُقّت بسكّين إلى نصفين! قلبت الصخرة الخيمة رأسًا على عقب فخرج الجميع منها مضطربين. من أين جاءت هذه الصخرة؟ ماذا كان سيحصل لو أنّها وقعت على الشباب؟... يبدو أنّ اثنين أرادا أن يمزحا وحرّكاها فتدحرجت وسقطت على الخيمة...

◻

بالنسبة إلى الإخوة، كان للبقاء في «رحمانلو» حسناته وسيئاته في الوقت ذاته. من حسناته قصر المسافة إلى تبريز إذ لم تكن تتجاوز الساعة أو الساعة والنصف، ما جعل التواصل مع أُسرهم سهلًا. أمّا من سيئاته، فهو أنّ هذه العوائل كانت تعرف بكل أمر يقع في «رحمانلو». فمثلًا، إذا وُضعت خطّة ما يعلم الأهالي بها. كما إنّ الظروف هناك – لا سيّما المناخية الباردة – كانت صعبة بالنسبة إلى الأفراد الذين اعتادوا على مناطق الجنوب. اعتقدت أنّ الذين يستطيعون العمل في الغرب هم الأخوة في فرقة عاشوراء الذين أتوا من تبريز وأرومية وغيرهما من مدن آذربيجان، مع أنّ قدامى هذه الفرقة أمضوا سنوات عدّة في الجنوب ولم يكونوا معتادين على برودة الطقس هنا.

يوميًّا كان لدينا في «رحمانلو» برامج صباحية. أحد أهمّ هذه البرامج الجيّدة التي واظبنا عليها من بداية الحرب حتى نهايتها هو قراءة آيات

من القرآن الكريم وترجمتها، إضافة إلى قراءة وصيّة شهيد أو شهيدين من فرقة عاشوراء. كان هذا البرنامج المختصر يرفع كثيرًا من معنويات الشباب لأنّ أغلبهم تعرّفوا إلى هؤلاء الشهداء، لذا كانوا يتأثّرون أكثر بوصاياهم. وطالما احتوت عددًا من النقاط المشتركة: «لا تُخلُوا الجبهة، لا تتركوا الإمام وحيدًا، إضافة إلى الدعوة إلى العبادة وصلاة الليل والجهاد و...».

في هذه الظروف، كان وضع بعض الأفراد يستحقّ المشاهدة. بعضهم مرتّب، وآخرون جُعلت فداهم!، مُفشكلون يسدلون طرف القميص فوق البنطال وطرفه الآخر تحته، وكانوا يضعون المعاطف على أكتافهم..

بعد ذلك، يأتي موعد تسلّق الجبال. لم يكن المكان مناسبًا للركض، فاستعضنا عنه بالتسلّق يوميًّا، وكان بعضهم يستغلّ تلك الفرصة فينسحب خلسة ليمضي إلى المدينة ويشتري الطعام أو الفواكه، أو يذهب للحلاقة أو الاستحمام. كنت واحدًا من هؤلاء الذين يقومون بمثل هذه الأمور، ويهربون لساعات خلال النهار أو طوال اليوم، فعندما يصطفّ الشباب في طابور ليتسلقوا الجبل يكفي أن تبقى أنت في الخلف و..! بعد شهادة علي باشايي وحبيب رحيمي، أصبح جلال زاهدي مسؤول السريّة، وفرج قليزاده معاونه، وبقي حسن حسين زاده المعاون الثاني. وبعد كربلاء5، أصبح السيّد فاطمي مسؤول اللواء، ومحمد سوداكر مسؤول «كتيبة حبيب»، ومطلق معاون مسؤول الكتيبة. لقد انسجمت مع أفراد السريّة وانسجموا هم معي. كانوا أحيانًا يجتمعون في مكان ما وأبدأ بالحديث معهم، وكالعادة يضحكون عندما أتكلّم معهم، إمّا من شكل وجهي، وإما من نفس حديثي!

▣

أحيانًا كنّا نمشي ونتسلّق الجبال في الليل. وأحيانًا كانوا يأخذون

الشباب عند الظهر إلى مكان أبعد من خط سّكة (تبريز-عجبشير) الحديدية التي تمرّ قرب «رحمانلو» حتى يصبح احتمال رؤيتهم ضعيفًا. وعند المساء، يتركونهم ليستكشفوا بأنفسهم طريق العودة، كلّ فصيل وحده. وعادة ما كانوا يرجعون إلى المعسكر بسهولة لأنّهم تعرّفوا إلى المنطقة. اعتُمدت مثل هذه الأساليب لاكتشاف نقاط الضعف في حركة الأفراد، وكانت فعّالة![1]

ارتفع في المنطقة جبل شاهق بالقرب من بحيرة أرومية يشرف على تبريز وآذرشهر من جهة، وعلى بناب، عجبشير ومراغه من جهة أخرى. بدا منظر البحيرة من هناك رائعًا، وإذا كانت لأحد عينان سالمتان مثلي، فإنّه يستطيع الاستمتاع كثيرًا برؤية تلك المناظر! تستغرق المسافة بين المعسكر وذلك الجبل الشاهق حوالي الأربع ساعات، وقالوا إنّ المنطقة التي ستُنفّذ فيها العمليّة الجديدة شبيهة بهذا الجبل، لكن فيها المزيد من الصخور، لهذا عمدنا أغلب الأوقات للتدرّب على تسلّق الجبال. أحيانًا قمنا هناك بمناورات، فيتموضع بعض الشباب في قمة الجبل ويطلقون النار على البقيّة، واعتبر ذلك برنامجًا جيّدًا لرفع الجهوزية. لكن، كان بعضهم يصاب بضيق في التنفس عندما يتسلّق الجبل فلا يكمل طريقه. شكّل مثل هذه التدريبات أمرًا لازمًا لخوض حرب في المناطق الجبلية، وقد قمنا في تلك المنطقة بأكثر من عشر مناورات، بينما لم نكن ننفّذ أكثر من واحدة أو اثنتين في المناطق السّهلة.

◘

في آخر أيام إقامتنا في رحمانلو حين بدأنا بجمع أمتعتنا للذهاب

---

1 - في إحدى المرات، ضلّت إحدى السرايا الطريق في المساء وكان المطر غزيرًا. وصل الشباب عند الصباح إلى إحدى القرى وما إن رأى الناس قوّات عسكرية حول القرية حتى أصابهم الخوف ولم يخرج أحد منهم من منزله، فذهب أحد الشباب وأخبرهم بما جرى، واطمأنّ أهل القرية إليهم وساعدوهم على إيقاد النار لتجفيف ملابسهم. زوّدوهم بالماء والطعام أيضًا وأرشدوهم إلى طريق العودة إلى المعسكر.

إلى منطقة العمليّة راحوا يقدّمون لكلّ كتيبة الكباب اللذيذ الذي تشتهر به مدينة تبريز. وعندما وصل الدور لكتيبتنا وذهبت لأحضر الكباب، أخذت كمية تزيد عن حاجة الفصيل. رآني جلال وعاتبني كثيرًا على ذلك... فقلت له: «ما يعنيك في الموضوع؟ لم أحضرها لك يا عزيزي، بل أحضرتها لي!»، كان لتناول المزيد من الكباب نكهة خاصة أيضًا. لقد شفيت غليلي في العشاء وفي فطور اليوم التالي أيضًا.

في تلك الأيام أرسلوا إلينا مجموعة من عناصر المعلومات، وقد أضفى حضورهم بيننا جوًّا من الأنس؛ فعندما سألت أحدهم مثلًا: «أين تعمل أيها السيّد؟»، كان جوابه: «أنا موظف في البلدية، أكنس الطريق من أول السوق حتى مجرى الماء...».

ولما سألت آخرَ عن عمله أجاب:

- أنا أعمل في مصلحة الزراعة، ويأتي الناس من القرى ليأخذوا الأدوية من عندنا!

اللافت أنّنا صحبنا عددًا منهم، وراح يمازح بعضنا بعضًا قائلًا: «جيّد، لقد أصبح لنا معارف في كلّ مكان، وسنتمكّن بعد الحرب من تيسير أمورنا!».

اجتمعوا كلهم في فصيل عليرضا سارخاني، وصادف أنه تميّز بالانضباط.

▫

كلّ شيء كان يُنبئ بقرب موعد العمليّة، خاصة الطعام والمناورات الليلية. لقد نُفّذ عددٌ منها وتمّ التخطيط لأخرى في بعض الجبال الشاهقة الواقعة على طريق فرعي يمرّ قرب بحيرة أرومية.

في ذلك اليوم وبعد أن تناولنا طعام الغداء، ذهبت مع جلال زاهدي إلى مقرّ قيادة السريّة. كان محمد سوداكر هناك، وقدّم شرحًا حول

المناورة الليلية: مكان تموضع السرايا، طريقة التحرّك وغير ذلك. وكان على طاقم السـرية توضـيح هذه التفاصيل لعناصـرهم، ثم حُدّد موعد بـدء المنـاورة بعد الغروب عندما يحلّ الظلام. لم تكن الثلوج تتسـاقط، لكـنّ برودة الطقس اشـتدّت. بدأنا بتسـلّق الجبـل. كلّما تقدّمنا أكثر ازدادت سـرعة الريـاح لدرجة أنّها كادت توقعنا إلى الأسـفل... تحرّك عناصـر كتيبتنا في طابور قرب الماء؛ وسـلكت كلّ سـريّة المسـار المحدّد لها. اقتضت الخطّة أن نتسلّق جبلًا يُفترض أنّ «العدوّ» تموضع في قمّته، وبالتـالي علينا أن نتحرّك في الأخاديد ونقطع الشـيارات والمنخفضـات التي لُغّمت أو نُصـبت فيها الكمائن. كان المحور الذي نتحرّك فيه وسط محوري سـريّتين. وأثناء عبورنا المنخفض نحو أعلى الجبل، بدأ الشباب بتفجـير الألغام وإطلاق النار من أسـلِحة الدوشـكا، فاحترقت ملابس اثنين من العناصـر، لكن سـرعان ما أُخمدت النار. لقد أخطأوا عندما بدأوا التفجيرات أثناء عبورنا من المكان، ولا أعلم إن كان السـبب خللًا في الجدولـة الزمنيـة للخطّة أم أنّ مشـكلة ما قد وقعـت. على أيّ حال، تمّت المناورة، وعرفنا كيف تكون المعركة في المناطق الجبلية.

في طريق العودة، تقرّر أن يرجع العناصر إلى خيامهم في طوابير، واحدًا بعد آخر، لكن، لم يكن الأمر بهذه البساطة. كان المشي في تلك المنطقة صعبًا بسبب الحجارة والصخور المنتشرة على الرمال، إضافة إلى مشكلة الصوت الذي كنّا نصدره. ومقابل كلّ خطوة إلى الأمام نرجع خطوتين إلى الخلف. تأخّرتُ عن الشباب ولم أستطع اللّحاق بهم بسبب معاناة نظري، وقدمي لم تساعدني على الجدّ بالسير، لكنّ جلال زاهدي ظلّ قربي وتابعنا طريقنا معًا. بدأت حالي تسوء أكثر بسبب اشتداد الصقيع، وتأذّى وجهي وعيناي كثيرًا لدرجة أنّني لم أعد أعلم أين أضع قدميّ، وكأنّ عينيّ أصبحتا مجرد ثقب في وجهي. ولأنّني جرّبت مشكلة انقباض عضلة الفم في السابق، خفت

أن تعاودني هذه الحال في هذا البرد القارس. عندما رأى جلال حالي أمسك بيدي بكلّ شهامة وقال: «هيا بنا سيّد، لنذهب معًا». أعطيته يدي من دون تردّد، وألقيت بثقلي على كتفه قليلًا فتحسّن وضعي بعض الشيء. تأخّر الأخ جلال في الوصول بسبب حركتي البطيئة، وكان عليه أن يصل قبل البقيّة ويتحدّث معهم. اعتذر منّي وقال: «سأذهب أنا وأنت انزل الهوينا[1]». هكذا أصبحت وحيدًا مرّة أخرى. في الأحوال الطبيعية أقطع هذا المسار خلال 5 دقائق، لكنّني احتجت إلى نصف ساعة لأصل إلى الشباب، وقعت خلالها أرضًا ثلاث أو أربع مرات حتى سال الدم من ركبتي. زاد الصقيع من سوء وضعي وأخذ الدمع يخرج من عيني، وتمكّنت من الوصول بالتوكّل على الله، ولم أكن أستطيع أن أرى حتى ما تحت قدميّ. أصبحت كالجندي المنهار! تقدّم الأخ جلال باتجاهي، ولما رأى يديّ وركبتيّ المدمّاة قال منزعجًا: «ليتني لم أتركك. لم أكن أعلم أنّ حالك سيّئة لهذه الدرجة!». فأخبرته أنّني لا أستطيع تحمّل الطقس البارد!

في اليوم التـالي عادت التقيّحات إلى وجهي، وتجدّد ألمي وانقبضـت عضلة فمي! كانت تخرج يوميًّا من عينيّ 40 إلى 60 نقطة من التقيّحات؛ لكن فقط خلال النهار أمّا في الليل فلا. ربما يحصـل ذلك نتيجة البرد والصقيع الذي يجتاح جسدي ليلاً فأسمع صداها نهاراً.[2]

## 2

بعـد المنـاورة بيومين أو ثلاثة أيام، تقرّر الانطـلاق إلى المنطقة التي ستُنفّذ فيهـا العمليّـة. تغيّرت مـن جديد أوضـاع وأحوال الشـباب في

1 - أي انزل على مهل.

2 - القيح الذي كان يخرج من عيني هو من ذكريات الحرب، ولم تعالج هذه المشكلة أبدًا بشكل كامل ومازالت مستمرة حتى اليوم، وهي تتفاقم أكثر في الطقس البارد.

الكتيبة. بدأ بعضهم بتجهيز سلاحه وآخرون بكتابة رسالة أو وصيّة. لقد أصـبحت «رحمانلو» الآن نقطة انطلاق إلى سـاحة أخرى. ساءت أحوال الطّقس عند الانطلاق، وأراد الشباب إقامة مجلسِ عزاء، فأحضروا من تبريز- القريبة- كلّ ما يحتاجونه. قبل العمليات أَضْفَتْ فرق اللطم على أرواحنا نكهة فريدة.

منذ الصـباح الباكر بـدأ الكلّ بجمـع العتاد والأمتعـة، فالموعد كان عند الحادية عشـرة. جاء من تبريز حوالي 20 شخصًـا لوداعنا ما بين علماء دين ومسـؤولين، وليتهم ذهبـوا لتنفيذ العمليّة مع الأخوة بدل من أن يأتـوا لوداعهم! أذكر من هؤلاء إمـام جمعة تبريز والمحافظ وأفرادًا مـن النيابـة العامة وغيرهم. وقـد لبسٍ الجميع الجزمـات لأنّ المنطقة كانـت موحلة، ويبـدو أنّ أحدًا لبس خطأً الجزمة الخاصّـة بإمام جمعة تبريز الشـيخ «ملكوتي». كنّا منزعجين من أغلب المسؤولين، وهناك قال أحدهم، علم أم لم يعلم، كلامًا زاد من انزعاجنا! في المقابل، تناول أحد العلماء الذي كان أبًا لشـهيدين، وهو الشيخ «رضايي» قرآنًا بيده، وجعل الشـباب يعبرون من تحت القرآن بكلّ محبة. انهمك المصـوّرون بالعمل أيضًـا، وفوجئت بأحدهم يطلب إجراء مقابلة معي ولم يترك لي فرصـة للتفكـير، لكنّ انقباض عضـلة فمي أثار حفيظة المراسـلين. وفي حين لم يسـتطع أحد إدراك وضعي المزري، أحضر لي الشباب الذين ذهبوا إلى تبريز الحليب معهم لعلّ وضعي يتحسّن قليلًا.

▫

تجـاوزت السـاعة الحادية عشـرة ولم نتحرّك من مكاننـا بعد. لقد اسـتلزم صـعود 40 عنصـرًا في الحافلة مع حقائبهم وأسلحتهم الكثير من الوقت. ودّعَنا المسـؤولون وهم جالسون في سياراتهم الخاصّة بسبب غـزارة الأمطار وعادوا! أما نحن فودّعنـا رحمانلو وتوجّهنا نحو بوكان.

وبعدها وصلنا إلى قرية صغيرة فيها مقرّ للحرس حيث كانوا بانتظارنا. صعدوا في الشاحنات التي أحضروها من قبل وتابعنا طريقنا معًا.

ما بعد بوكان، اشتدّت برودة الطقس أضعافًا مضاعفة، وعندما نزلنا من الحافلة عرفنا من الصقيع الذي لفح وجوهنا أنّنا في منطقة جبلية. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر، وأُعطي الشباب ساعة من الوقت للصلاة وتناول طعام الغداء. صلّى أغلبنا في الخارج لأنّ المكان لم يكن مناسبًا إذ أعطيت غرفة واحدة لكلّ كتيبة! كان المركز في وسط القرية، ولم يسمح عناصره للأهالي بالاقتراب منه أثناء وجودنا. لم تكن المواجهات في كردستان قد انتهت بعد، ويبدو أنّه وقع اشتباك في المنطقة قبل يومين. بالطبع عاملنا الناس بلطف وأرادوا أن يسألونا من أين جئنا وإلى أين نذهب.

وأخيرًا فَرزوا لسريّتنا شاحنة (بيك آب) ذات خلفية مغطاة بخيمة (تشادر) بارتفاع متر، وتهيّأ الشباب للتحرّك. كان الصعود في الشاحنة وتحمّل تلك الظروف أمرًا صعبًا جدًّا، وقد جرّبناه من قبل، لكن، ليس باليد حيلة. جلست قرب السائق لأنّني المسؤول عن العناصر في الشاحنة. كان تركيًّا ومن سكان تاكستان. سألني: «إلى أين نذهب؟»، قلت: «أوَلم يخبروك إلى أين نذهب؟.

- بلى أخبروني. هل المكان جيّد هناك؟
- أجل؟ جيّد جدًّا!
- كم تبعد المنطقة هناك عن العراقيّين؟
- المسافة كبيرة بيننا وبينهم! لا تخف!

كانوا قد أبلغونا من قبل أن لا نخبر السائقين أين نذهب ولماذا.[1]

---

1 - أكثر السائقين كانوا عندما يعلمون أنّنا ذاهبون إلى منطقة عمليات يمتنعون عن الذهاب، وقد حصل مرات عدة أن ترك السائق الآلية وقال: "لن أذهب! أنتم خذوا الشاحنة واذهبوا!"، وبما أنه لا

انطلقنا عند الرابعة ووصلنا مع أذان المغرب إلى «بانه». لقد تحمّل الشباب تلك الظروف بكلّ شهامة بالفعل، حتى إنّه لم يكن ممكنًا للناس معرفة أنّ ما تحمله الشاحنة هو سريّة تعبئة؛ الثلوج تغطّي الأرض، والصقيع يلفح سطح وجوانب الشاحنة، وأنا أتجمّد بردًا لمجرّد التفكير بما يعانيه الشباب في الخلف. ومع أنّنا شغّلنا جهاز التدفئة إلا أنّ البرد ظلّ ينخر عظامي!

وصلنا إلى جادة سيّد الشهداء، وهو شارع التأمين. استغرق عبور هذا الشارع حوالي الساعة بسبب شدّة انحداره، ونحن نرى القنابل المضيئة التي يرميها العراقيّون. سألني السائق: «ما هذا؟».

– قنابل مضيئة.

– قنابل مضيئة؟ العراقيّون رموها أم الإيرانيّون؟

– لا! شبابنا هم الذين رموها! إنّهم ينفّذون مناورة!

– ولماذا ينفّذونها في الليل؟

– لأنه لا يمكن تنفيذ مناورة في النهار! يجب أن تكون المناورة في الليل.

قلت له إنّنا بعيدون جدًّا عن خطوط الدفاع كي لا يخاف، ولحسن الحظّ لم يكن يعرف شيئًا عن المنطقة فصدّق كلامي سريعًا. صادف في تلك الأيام أن كانت الأوضاع سيّئة، ورأينا في طريقنا شاحنة مقلوبة ورافعات وآليّات إيفا. كان ذلك الطريق الترابي شديد الازدحام، وقد ذهبت إلى المنطقة عدّة سرايا قبلنا ومن المقرّر مجيء قوّات أخرى بعدنا. عندما وصلنا إلى جسر سيّد الشهداء اقتربنا أكثر من السيّارات المتقدّمة علينا. كان في الطريق عدد من أفراد الشرطة العسكرية، وقد تم التنسيق المسبق معهم فأرشدونا إلى الطريق الصحيح. تابعنا سيرنا

---

يستطيع أحد قيادة الشاحنة الآن، أردت أن أخفف من قلقه فقلت له إنّ المكان الذي نذهب إليه بعيد عن العراقيين و...

حتى وصلنا إلى جسر آخر صغير فوق نهر غزير، تحيط به الأحراج، وقد وضعوا تحته أنابيب إسمنتية (عبّارات دائرية). عبرنا هذا الجسر الذي يبعد عن جسر سيّد الشهداء 6 أو 7 كلم فوصلنا إلى المنطقة التي تمركزت فيها فرقة عاشوراء. توقّفنا في منحدر واد حيث نقطة تمركزنا. قال سائق الشاحنة سأبقى معكم الليلة وأعود في الصباح. أراد أن يعطيني وثيقة الشحن لنوقّعها له ما يستلزم بقاءه حتى الصباح. طلبت منه أن لا يبقى. سأل: لماذا يجب ألّا أبقى؟

- إذا بقيت هنا قد يحلّ شيء ما بسيارتك، لأنّ المسافة بيننا وبين العراقيّين لا تزيد عن 1 أو 2 كلم!

ما إن سمع هذا الكلام حتى أرجع الشاحنة وقفل عائدًا لينجو بروحه. كانت تجربة جميلة، تحدّثنا طوال الطريق. قلت له: «ولم تخاف إلى هذه الدرجة! أنت تعلم أنّنا أقوى من العراقيّين، نحن نهاجمهم دائمًا وهم لا يقدرون على الهجوم علينا. ضع نفسك أنت مكان هؤلاء الشباب. إنّهم يقاتلون تحت الثلج وفي البرد و...» فأجابني بكلّ صراحة: «لا أيها السيّد! نحن لا نستطيع أن نضع أنفسنا مكانكم. نحن لدينا حياتنا، لدينا عوائل!...» وكأنّنا نحن لا حياة ولا عوائل لدينا!

▫

استقررنا في معسكر «الشهيد داوود آبادي»، تحيطنا من جهة مرتفعات «سركلو»، ومن الجهة الأخرى مرتفعات «كولان». وقد سبقنا إلى هناك عنصران أو ثلاثة من كلّ فصيل لنصب خيام فصائلهم، لكنّهم لم ينجحوا بسبب الثلوج التي وصل ارتفاعها إلى نصف المتر أو إلى متر واحد في بعض الأماكن، إضافة إلى برودة الطقس الشديدة. لذا نصبوا خيمة واحدة فقط للسريّة، وأيّ خيمة! خيمة تسري المياه إلى داخلها فأصبح الشباب كالمشرّدين. قرب الجسر، تموضع عناصر

فرقـة أخرى ، وكان هناك أيضًـا عنبران أو ثلاثة عرفنـا فيما بعد أنّها خاصـة بعناصـر المعلومات في تلك الفرقة، وقد طلبوا منّا المبيت في أحد هـذه العنابـر حتى يتدبّـروا أمرنا في صـباح اليوم التـالي. كان من بين عناصـرنا «صـمد قاسـمبور» و«كريم محمديان»، وأحدهما يشبه الآخر كثيرًا؛ لدرجة أنّنا صـرنا نخطئ بينهما وهما يخادعان الشـباب أحيانًا على سـبيل المزاح أنّهما إخـوة . أما أنا فعمدت إلى منـاداة كُلٍّ منهما بـ «أخي» من دون تسمية.

ذهبـت وحميـد غمسـوار إلى العنبر فوجدنـاه مليئًا بالميـاه. لم تكن المياه تتقاطر من سـقفه، بل كانت تتدفق منه بشـكل متواصـل، لكن، لم يكن لدينا خيار آخر. أشـعلنا «مدفأة علاء الدين» لعلّ الوضـع يتحسّـن قليلًا ، لكن بلا نتيجة. لقد حاصـرتنا المياه من جهة والصـقيع من جهة أخرى. خرجنا من العنبر لأنّ البرد اشتدّ لدرجة أنّه إذا بقي أحد هناك بلا حراك فسـوف يتجمّد. قالوا إنّ الطقس في المناطق الأمامية بنفس البرودة. في هذه الظروف، تقدّمت آليّات السـيمرغ إلى أعلى التلّة مثيرة الكثـير من الضوضـاء، ولم تكـن آليّات أخـرى غير التويوتا والسـيمرغ تسـتطيع الصـعود. فكّرنا بالتقدّم، لكن بلا فائدة، كلّ المناطق بعضـها مثل بعض؛ ثلج، ثلج، مياه وصقيع!

كان هناك خيمتان، واحدة للدعم الخاصّ بالكتيبة، والثانية للسريّة، لكن، لم تكن تسـتخدمها. نقلنا عددًا من العناصر بالآليّات إلى الأمام. وبعـد ذهاب دفعتـين أو ثلاث جـاء الأمر بعـدم اسـتخدام الآليّات لأنّ العراقيّين يسـمعون صوتها، فتقرّر أن يتقدّم بقية العناصر عند الصباح في طوابير. كنت قد رافقت المجموعات التي ذهبت بالآليّات، ولأنّ مهمتي الإشراف على عملية نقل الأفراد فقد بقيت مع أفراد السريّة. لم يتمكّن أحد من الاسـتراحة حتى الحادية عشرة ليلًا ، فحيثما ذهبت تجد المياه والثلوج. كان هناك مكان واحد للاستلقاء؛ تحت السماء وفوق الثلوج! لم

يكن ممكنًا إيقاد نار والاستراحة خوفًا من أن يرانا العراقيّون، وأمضى كلّ الشباب تلك الليلة في ظلّ هذه الظروف الصعبة، أما العراقيّون فلم يكفّوا عن إطلاق النار حتى الصباح. كانت صواريخ مدفعياتهم تقع بعيدة عنا، ولم نكن نحن قد تعرّفنا بعد إلى المنطقة بشكل جيّد.

مع إشراقة الشمس، استطعنا أن نرى المنطقة حولنا. كنّا في مكان يشبه الوادي والثلوج تحاصرنا من كلّ مكان. وصلت أخبار تقول إنّ بعض الآليّات لا تستطيع إكمال مسيرها بسبب نفاد الوقود، وإنّ الطريق إلى هنا أغلقت بسبب الثلوج، والوحول تغطّي الطرقات، ما تسبّب أيضًا بسقوط عدد من الآليّات قرب النهر.

وقفت على الجسر فرأيت محمد تجلايي وقد نفد الوقود من آليّته ولم يستطع إكمال الطريق. نظرت فرأيت على وجه الماء نفطًا أو [ربّما كان] بنزينًا! سألت الشباب: «من أين يأتي هذا النفط على سطح النهر؟»، لكنّ أحدًا لم يكن يملك جوابًا. قرّرت أن أتابع طريقي لعلّي أصل إلى المصدر الذي يأتي منه النفط. وصلت إلى مقرّ عناصر المعلومات التابعين لإحدى الفرق. كانوا مجهّزين بشكلٍ جيّد ولديهم كلّ شيء. دعوني لتناول طعام الفطور، فأكلت معهم قليلًا وتبادلنا أطراف الحديث؛ كانوا غاضبين من الشباب في فصيلنا لأنّهم أغاروا على الخبز والجبن الذي يملكونه.

تركتهم وذهبت إلى خلف المقر. وجدت هناك صهريجًا يتّسع لـ 10 أو 12 ألف ليتر. اقتربت أكثر، فرأيت فيه ثقبًا يبدو أنّ صاروخ مدفعية أو قذيفة هاون سبّباه. شيء ما كان يتسرّب من هذا الثقب، لكن لم أعرف ما هو بسبب الثلج المحيط بالصهريج. توقّعت أن يكون بنزينًا، وتأكّدت من ذلك عندما نظّفت حوله وازداد سيلان البنزين. ذهبت لأحضر خشبة وسكينًا وعدت بصحبة بعض الشباب. نحتنا الخشبة ولففنا عليها خيطًا وأدخلناه بصعوبة في الثقب كي نمنع تسرب المزيد من البنزين، ثم ذهبت لأحضر غالونًا، ولما عدت رآني أحد أفراد الفرقة فتوجه نحوي

وقال: «ماذا تفعل؟».

- أريد أن آخذ بعض البنزين.

- لا يمكنك ذلك.

- لماذا لا يمكنني ذلك.

- هذا البنزين لنا.

- عفوًا! نحن من حافظنا على هذا البنزين، لقد كاد ينفد.

جاؤوا وألقوا نظرة على الصهريج، فوجدوا أنّه قد نقص ثلاثة آلاف ليتر وظنوا أنّنا أخذناهم. راحوا يقولون لن نعطيكم حتى ليترًا واحد.

غضبت كثيرًا، فقلت لهم: «عزيزي! منذ متى وأنا أسعى لإصلاحه. لقد أصلحنا هذا الثقب بصعوبة كبيرة كي لا تخسروا المزيد من البنزين».

- سلمت يداك، لكن، لن نعطيكم حتى ليترًا واحدًا.

ذهب وأحضر جنزيرًا لفّه على صنبور الصهريج وأقفله وذهب! وعدنا نحن أيضًا.

- حسنًا! تظنون أنّنا لا نستطيع تحدّيكم!

ذهبت وأحضرت عددًا من الغالونات الفارغة وعدت مع عدد من الشباب. لقد ظنّوا أنّهم بإقفالهم الصنبور لن نستطيع الحصول على البنزين، لكننا ملأنا الغالونات من فتحة الصهريج، ورجعنا بسرعة لملء خزّانات الوقود فتيسّر أمر الشباب.

أحضروا لنا طعام الفطور عند الحادية عشرة. لم يكن بالإمكان البقاء داخل الخيمة في النهار خاصّة أنّ حرارة المدافئ ستذيب الثلوج ويسوء الوضع أكثر. تناولنا طعامنا في الخارج. جاء الأمر بالتحرّك عند الثانية عشرة. لقد أخذوا الليلة الماضية بعض العناصر بالآليّات، وتوجّب

على البقيّة الآن أن يقطعوا تلك المسافة نفسها سيرًا على الأقدام، فذهبوا في طوابير. لم تكن الطريق طويلة جدًّا، لكن مع هذا لم تكن الحركة في الجبال وبين الثلوج مهمة سهلة. كانوا قد شقّوا دربًا متعرّجًا في الجبل لتسهيل حركة الأفراد. لو ذهبوا بخطّ مستقيم لكان أقصر، لكنّ ارتفاع الثلوج وصل إلى حوالي نصف المتر أو المتر، فكانت الطريق الأقل ثلجًا هي الأفضل. وظلّت آليّات التويوتا التي تمرّ من هناك تُقلّ بعض الأفراد. لقد عشنا بالفعل ظروفًا قاسية؛ لم نخلع الجزمات من الليل حتى الصباح، وراحت المياه تتسرّب من معظم الأحذية، ولم يكن مستبعدًا أن تتجمّد قدما أحدنا في هذا الصقيع.

وصلنا بصعوبة إلى مقرّ كتيبة حبيب. شمّر الشباب عن سواعدهم وبدأوا بتنظيف الثلوج ليتمكّنوا من نصب الخيام. كان الثلج قد تحوّل إلى جليد فاضطرّوا إلى استخدام المعاول لتكسيره. استمررنا في هذا العمل حتى العصر حين بدأنا بنصب الخيام، ولأنّ الأرض موحلة، اضطررنا لوضع قطع نايلون عليها ثم مددنا بطانية عليها، لكنّ الوضع لم يختلف كثيرًا. لم يمضِ نصف ساعة حتى وصلت الرطوبة إلى البطانية وسرعان ما تبلّلت. غيّرنا موديل الخيمة، وضعنا حولها نايلونًا وبطانيّات وحفرنا في وسطها حفرة صغيرة، لتتجمع فيها المياه! لكن، اضطررنا بعد ساعة إلى حفر قناة صغيرة من وسط الخيمة إلى خارجها لتصريف هذه المياه. لقد أحاطت سواقي المياه بالخيمة من كلّ مكان. لم نرَ مثل هذا المشهد من قبل! واجهتنا صعوبات كثيرة، لكن، هوّن الأمر علينا أنّ الشباب الموجودين بيننا هم أشخاص طاهرون وطيبون. المياه في كلّ مكان، وكلما صعدنا الجبل أكثر، رأيناها تخرج من أكثر من ناحية فيه. لو لم يكن هناك حرب لكان المشهد أكثر روعة.

نصبنا الخيام في مكان أشبه بالتلة، لذا كنّا عندما نذهب من خيمة إلى خيمة نتعثر ونقع ونصل إلى الأسفل بعد ثلاثة أو أربعة «تشقلبات».

▫

استمرّ تساقط الثلوج أربعة أو خمسة أيام متواصلة ما تسبب بإغلاق الطرق لمدة 13 يومًا! لم يستطيعوا إيصال شيء لنا خلال هذه المدّة، لا بنزينًا ولا طعامًا. كانوا يؤمّنون لنا القليل منه فقط بواسطة مروحيات كانت ترمي صناديق الطعام في المنطقة.

عشنا وضعًا صعبًا. إلى متى يستطيع الإنسان الصمود بين الثلوج! عادة ما تصل القوّات إلى منطقة العمليّة قبل موعدها بثلاثة أو أربعة أيام على الأقلّ ثم تنفّذ العمليّة، لكنّ الأمور اختلط بعضها ببعض الآن ولا يمكن القيام بشيء؛ الشباب عاطلون من العمل، وأخذوا يخترعون لأنفسهم عملًا بسبب الملل الذي كانوا يعيشونه رغمًا عنهم: بعضهم راح يحفر في الأرض ويستمرّ في الحفر حتى يصل إلى الماء، وآخرون يصنعون أنبوبًا لسحب هذه المياه، وكانت للإنصاف ماءً زلالًا، وكنّا نغسل به أوعيتنا. ذهبنا عدة مرات أيضًا إلى الوادي، رأيت دُشمًا لا أعلم إن كانت قد بُنيت في أوّل الحرب أم فيما بعد. في العادة كنّا نجول هنا وهناك مع «صمد قاسمبور»، وهو أحد عناصر المعلومات ومن كردستان. كان قصير القامة، ولا يظهر منه غير رأسه عندما أُغرِقه في الثلج. لقد أخذ صمد لنا صورة ما زالت معي حتى اليوم. صعبت هذه الظروف على بعض أكثر من بعض آخر، خاصّة المدخّنين الذين عانوا من قحط في السجائر. كانت المروحيات ترمي لنا الخبز والتمر فنقوم بإعداد «القيساوا»[1].

▫

فُتحت الطريق أمامنا بالجرافات حتى المقرّ القريب من الجسر، لكن بقيت طريق سيّد الشهداء مغلقة حتى بعد 12 أو 13 يومًا. مرّت الأيام ثقيلة علينا، فوُضِع برنامج صباحي لتسلّق الجبال. كان الأمر مضحكًا؛

1 - نوع من الأطعمة المحلية هو عبارة عن تمر مقلي بالزيت.

نمشي حتى تدبّ الحيوية في أقدامنا، ثم بعد قليل نغرق في الثلوج ونتجمّد. فإمكانية الحراك بقوة انتفت بسببين: وجود بعض الهوّات والفجوات المغطّاة بالثلج، واحتمال أن يقع أحدنا فيها، وقد حصل مرّات عدّة أن وقع بعض الشباب في الحفر. صنع كرات الثلج ودحرجتها إلى الأسفل كانت من التسالي غير المؤذية في تلك الظروف.

جاءت الطائرات العراقية مرّات عدّة لشنّ غارات لكنّها لم تستطع تحديد هدفها بدقة، وكانت دفاعاتنا قوية أيضًا لذا لم يصب أحد منّا بسوء. كنت في صباحات تلك الأيام أجول في المنطقة مع صمد قاسمبور. لم يكن صمد شخصًا عاديًّا في الفرقة، إلا أنّه كان دائمًا قريبًا من الشباب. نزلنا معًا إلى سفح الجبل، وكان يجري من شقّ بين الحجارة ماء زلال ينعش الروح.

ذهب الشباب المدخّنون في أحد الأيام صباحًا ليحضروا السجائر ورافقتهم. مشينا حوالي 13 كلم حتى وصلنا إلى إحدى القرى الكردية واشتروا السجائر من هناك. باعونا علبة سجائر «هُما» الصغيرة بمئة تومان! وجدنا الناس يعيشون حياتهم العاديّة في تلك القرية العراقية التي سقطت بأيدينا خلال الحرب، لكنّهم كانوا مسلّحين، وقد اتخذ عناصر من «مقرّ رمضان» مركزًا قرب القرية. أنجزنا المهمة وعدنا بعد الظهر. كم تحمّل هؤلاء من مرارات في سبيل السجائر! كان كلّ ثلاثة أشخاص يدخنون سيجارة واحدة فقط هي نصيبهم في اليوم.

□

في أحد الأيام قالوا لنا: «ستذهبون غدًا لرؤية الخطّ». كان يجب أن نقوم بذلك في النهار عندما يكون الجوّ صافيًا حتى من الضباب. توجّهنا إلى هناك في يوم كانت ظروف الطقس فيه مساعدة. رافقنا إلى هناك

مهديقلي رضائي وهو من عناصر الاستطلاع والمعلومات ومن السابقين في هذا العمل، وقد أصيب في كربلاء5 بجراح عميقة لم يعد يستطيع بسببها طيّ إحدى قدميه وأصبح يعرج. كانت تربطني به علاقة جيّدة، وكنا نسأله أيّ شيء يخطر على بالنا حول المنطقة. أخبرنا مهديقلي أنّ العراقيّين موجودون في أعلى جبل «قاميش»، ويشرفون علينا، وأنّ في هذه الجهة مدينة «ماووت»[1] العراقية التي تحرّرت في عملية «نصر4». تتميّز «ماووت» بأبنيتها الجميلة، وكان أحدها معقلًا للمنافقين وقد تم إخلاؤه. بدت الحركة خفيفة في المنطقة ودأب عناصرنا على الذهاب إلى هناك في الليل. كانت فقط المناطق المنخفضة والأخاديد بمنأى عن أعين العراقيّين. وقد وجد شباب المعلومات والاستطلاع طرقًا للذهاب إلى مرتفعات قاميش العالية، رغم أن المنطقة خطيرة، والعدوّ يطلق النار على كلّ من يراه. لم تكن حركة الآليّات سهلة في النهار خوفًا من أن يراها الأعداء، أما في الليل فكانوا يطفئون الأنوار ويستعينون بأحد الأفراد لإرشادهم إلى الطريق.

يمر نهر كبير أسفل «قاميش» أُطلق عليه «قلعة تشولان». كان شباب المعلومات يقولون: سنبني فوق «قلعة تشولان» جسرًا لتتمكّنوا من العبور. بناءً على قولهم علينا أن نسير كلّ الليل للوصول إلى سفح قاميش.

بدا العمل في تلك المنطقة صعبًا؛ لكنّ كلّ شيء توقّف بسبب تساقط الثلوج. لقد شقّوا طريقًا من معسكر الشهيد داوود آبادي حتى الخطّ (المحور) الذي كنّا فيه، وتمر الطريق بقسم منها في الجبل؛ وقد حُفرت بالجرافات، وخرجت من قلب الجبل مياه عذبة صافية ووافرة، كتلك التي لأجلها تُحفر الآبار العميقة في المدن. كانت الأرض هناك خصبة ببركة هذه المياه الجوفية والثلوج والأمطار التي تتساقط فيها باستمرار،

1 – ورد الحديث عن المعارك والاستطلاع في ماووت وجبال قاميش في كتاب (فرقة الأخيار–ج2) بشكل لافت ومفصّل أيضًا.

ومـلأت أشـجار الجوز والعنب المنطقة. رحنا نشـرب من هـذه الينابيع ونغسـل فيها أوعيتنـا وأمتعتنا وسـياراتنا، كما وغطّت المياه جزءًا من الطريـق لكنّها لم تُعـق حركة السـيّارات. لم أرَ قبل ذلـك اليوم منظرًا كمنظر ذلك الشارع وذلك النبع. إضافة إلى النهر الكبير والغزير «قلعة جـولان»، فقد تكوّن عـدد من الأنهر الصـغيرة بفعل ذوبـان الثلوج كان منظرها يحيي الروح.

استقرّت هناك كتائب «أبو الفضل العباس»عليه السلام، الإمام الحسين عليه السلام، السجاد عليه السلام وحبيب، لكن لم تتجاوز العمليّة مرحلة التخطيط. كنت أفضّل المجموعات المشاغبة؛ لذا لم أكن في المساء أبقى كثيرًا في الخيمة الخاصّة بقيادة السريّة، ولم تكن العناصر المشاغبة قليلة بيننا أيضًا ومنهم حسن حسينزاده، صمد قاسمبور وغيرهما... ويعتبر جلال زاهدي الوحيد الذي يُعدّ بيننا من أهل الفكر؛ كان يكثر من الحديث عن قضايا المدينة ومشاكل الحرب والمجتمع، وأحيانًا يروي بعض ما حصـل في عملية «نصـر7» التي نفّذتها كتيبة الإمام الحسين عليه السلام، ويحدّثنا عن المواجهات التي خاضوها وعن شجاعة الشهداء ومظلوميّتهم...

أمـا «فرج قلي زاده» فجلّ حديثه تركّز على المسـائل العسـكرية. وفي مقابل هـؤلاء الذين لا يفكّرون كثيرًا في بطونهم، كان كلّ تفكيري وهمّي في الطعام لأنّني لا أستطيع الصمود في ذلك البرد القارس إلا إذا تناولته باستمرار. أحبّ جلال العمل في التجهيزات كنصب الخيام، حفر الدشم وإحضـار الطعام وتوزيعه، وبرع في هذه الأعمال... من ضـمن سـريّتنا أيضًا كان محرم آقاكيشي بور، سعيد بيمانفر، إبراهيم فرهمند، حميد غمسوار، كريم محمديان، ولكلٍّ منهم عدد من الأصدقاء من المصلّى أو المحلّـة التي يسـكنون فيها. كنت في أغلب الأيـام أذهب بعد تناول طعام العشـاء إلى فصـيل «علي سـارخاني» حيث ينشط الشـغب. لقد نصبوا خيمتين ملتصـقتين الواحدة بالأخرى، وأمضينا هناك أوقاتًا استثنائية

بالفعل. هذا يقول إنّ المياه تنبع من هنا، ذاك يولول لأنّ فراش نومه قد تبلّل، وآخر يثرثر مع صديقه، وفلان يتحدّث عن العمليّة، وبعض يعيش في عالمه الخاص. لكن، ظلّ هناك أمرٌ محسومٌ، وهو أنّ كل واحد منّا كان يستيقظ من نومه مبلّلًا! فمع أنّهم وضعوا في أرض الخيام ألواحًا خشبية وبسطوا فوقها قطع نايلون ثم بطانية، لكنّ كلّ شيء يترطّب، ما جعلهم في كلّ يوم مضطرّين لسحب النايلون وجمع المياه التي تأتي من جهات الخيمة الأربع وتتجمّع في الوسط لتغمر الألواح الخشبية.

غالبًا ما أكلنا «القيساوا» في تلك الظروف، وكان صمد قاسمبور هو الذي يقوم بإعدادها. عرفناه شاعرًا ويحب قراءة العزاء أيضًا، ومن أشعاره قصيدة «غواصلار» التي أنشدها للغواصين في عملية «والفجر8»، والتي أصبحت الذكر الذي يجري على ألسن الشباب. كان الأخ صمد شخصًا عزيزًا علينا.

عادة ما أقام الشباب الصلاة جماعة، وكان جلال زاهدي يؤمّها أحيانًا في خيمتنا، وصمد قاسمبور أحيانًا أخرى. ليس بسبب قلّة العلماء في الكتيبة، لكن، لعدم إمكانية إقامة الصلاة جماعة على نحو موسّع. وكان الشباب يصلّون صلاة الليل أيضًا في خيامهم، ولا يخجل أحد من البوح بذلك، لكنّها ما انفكّت أمرًا شاقًّا بسبب قلّة التجهيزات والبرد الشديد.

كلّ صباح، كان أحد الأفراد يقوم بتنظيف الثلج حول الخيمة، وآخر يرفع المياه المتجمّعة فيها، وآخر يغسل الأوعية...

من مشاكلنا الأخرى الهامّة المرحاض. فالشباب ينتظرون في صف طويل أمام المرحاض القريب منّا لدرجة أنّ كلّ من يخرج من هناك كان يرتجف من البرد بسبب الفترة الطويلة التي انتظرها. كنّا نشعل المدافئ لتدفئة الخيام، ولم تكن تستهلك الكثير من النفط؛ 4 أو 5 غالونات تقريبًا لكلّ سريّة. وعندما يختلط النفط بالماء يتقطّع اشتعالها،

ولم يحدث أساسًا أن شعرنا بالدفء الكامل في تلك المنطقة الجبلية؛ وكان الجميع يعاني من تشقّق في يديه وقدميه وشفتيه من شدّة البرد والرطوبة. في مثل هذه الظروف كنا نظنّ أنّه لا يمكن تنفيذ العمليّة، وخاصة أنّ الجميع بدأوا يشعرون بالإرهاق.

▫

في أحد الأيام، وبهدف تنشيط الشباب، صدر قرار بالذهاب سيرًا على الأقدام من الخيام إلى المكان الذي كنّا فيه سابقًا ثم العودة. كان الطقس جيّدًا عندما انطلقنا، لكنّ الثلوج بدأت بالتساقط بعد أن قطعنا مسافة 2 كلم تقريبًا. لم يكن معظم الشباب يرتدون ملابس كافية، وكانت جواربهم عاديّة، في حين أنّ جوارب الصوف وحدها يمكن أن تجعل شيئًا من الدفء لأقدامنا في الجزمات. وقد أعطوا الشباب معاطف مطر بلاستيكية زرقاء اللون، لكن، لم تكن لها أيّ فائدة في هذا الصقيع. أما أنا، فأصبح وضعي مزريًا لدرجة أنّ الأخ صمد عندما رأى حالي، أعطاني سترة طويلة من الصوف كان يرتديها فشعرت بالدفء قليلًا. صار الثلج ينهمر على رؤوسنا ووجوهنا لدرجة كاد البخار الخارج من أفواهنا يتجمد، ولم يمضِ وقت طويل حتى ابيضّت لحى الشباب وحواجبهم. عدنا إلى الخيام، وفي الطريق أنهكت ولم أعد أستطيع تحريك أصابعي، وانقبضت عضلة فمي فصار منظر وجهي أكثر غرابة. لقد أنهك عدد من العناصر أيضًا وباتوا عاجزين عن إكمال مسيرهم، فقام الشباب بصنع حمّالة من العصيّ والمعاطف لإيصالهم إلى الخيام، أما أنا فقد حملني «محرم آقاكيشي بور» على ظهره، وكان يتمتم عليّ طوال الطريق قائلًا: «سيّد! أسقمك الله!».

بعد قليل قال لي: «سيّد، من الآن فصاعدًا، الطعام من نصيبك والعمل من نصيبي...». كنت أسمع ما يقول، لكن لا أستطيع أن أجيبه.

فعضلة فمي قد انقبضت وذقني تورّمت وبدأت تؤلمني لدرجة أنّني نسيت عذاباتي السابقة. رحت أحيانًا أهمس في أذن محرم فقط لأرفع من معنوياته: «جُعلت فداك يا محرم!». المسكين محرم، كان رجلًا غيورًا وحملني على ظهره مع أنّ الواحد منا في تلك الظروف كان يجرّ نفسه بصعوبة. ومع أنّه كان يتمتم عليّ، لكنه كان يمازحني أحيانًا ويقول لي: «سيّد، ما رأيك في أن أتركك الآن في قعر الوادي!... اممم، وماذا عساي أفعل؟! فمن جهة أنت مسؤولي، ومن جهة أخرى رفيق المسجد! كيف أتركك وأذهب...».

وأخيرًا وصلنا إلى الخيام؛ بعد أربع ساعات من السير مسافة 6 كلم تحت المطر والثلج، وتوجّهنا مباشرة إلى الطبيب الذي قام بمعاينة الجميع، لكن، لم يستطع فعل الكثير؛ فأغلب الشباب مرضى، والفارق الوحيد هو في شدّة المرض بين فرد وآخر.

لم يُفتضح أمر العمليّة، لكن، انهارت قوى الشباب في هذا الفصل من السنة بعدما حاصرهم البرد والثلج فتمّ إلغاؤها. فُتحت الطريق وجاء الأمر بترك المنطقة، وفي نفس تلك الأيام بدأ «مقرّ رمضان» بتنفيذ عملية أخرى انطلاقًا من المنطقة الواقعة خلف نقطة تمركزنا، من دون أن نشارك نحن بها.

تركنا كلّ أمتعتنا وخيامنا في معسكر الشهيد داوود آبادي وذهبنا سيرًا على الأقدام إلى المكان الذي كانت تنتظرنا فيه الشاحنات. لم أعد أقوى على السير لشدّة المرض، فحملني من جديد أحد الشباب على ظهره، واستغرق مسيرنا ثلاث ساعات تقريبًا. راحت الثلوج تتساقط مصحوبة برياح عاتية، فغطّى الجليد ظهور الشاحنات واحمرّت وجوهنا من الصقيع، لكن، لم يجد العناصر خيارًا سوى الرّكوب في هذه البرّادات المتحرّكة. كالعادة أجلسوني في الأمام قرب السائق، لكن، لم

أكن وحدي؛ حُشرنا أنا وحسن حسين زاده المريض أيضًا، وإحدى عينيه كعيني، وجلال المصاب من قبل. لم نكن نعلم شيئًا عن وضع الشباب في الخلف، لكن، لم نتوقّف عن التفكير بهم دائمًا. لم تتجاوز سرعة الآلية الـ 60 كلم في الساعة، وكان الله وحده يعلم حالهم في ظلّ ذاك الطقس العاصف وهم من دون خيمة تقيهم المطر والثلج المتساقط بغزارة.

قُطع الطريق جرّاء انهيار جبلي، فاضطررنا للتوقف أربع ساعات تقريبًا قبل أن يفتحوها ونكمل مسيرنا. استغرقت المسافة حتى «بانه» 6 ساعات بدلًا من الساعة ونصف الساعة، كما توقّفنا لإقامة الصلاة أيضًا إلا أنّ المكان لم يكن جيدًا، لذا فضّل أغلب الشباب التيمّم والصلاة في أماكنهم في الشاحنات. صحيح أنّنا لم ننفّذ العمليّة، إلا أنّ الصعوبات التي واجهناها في تلك الظروف تعادل تنفيذ بضع عمليات.

وصلنا إلى مشارف «بوكان» عند الواحدة بعد منتصف الليل ووجدنا الحافلات في انتظارنا. كان كلّ من ينزل من الشاحنة ويصعد إلى الحافلة كمن يخرج من الجحيم ويدخل إلى الجنة، ولا مبالغة في ذلك! لقد غاب عن الوعي في الشاحنة أربعة من الشباب، وكانوا يصفعونهم على وجوههم ليوقظوهم. حصل ذلك مع أنّنا كنّا نحن الثلاثة الذين نجلس في الأمام نبدّل أماكننا مع الشباب الذين تسوء حالهم لكي يشعروا بالدفء قليلًا، لكنّ البرد أنهك الجميع، وازرقّ وجه بعضهم من شدّة الصقيع فأصبحوا عاجزين حتى عن مسح أيديهم بعضها ببعض... بالقرب من الحافلات أسرع عدد من العناصر يساعدون الشباب على النزول كلًّا على حدة لمّا رأوا حالهم. في الحافلة اختلفت المصيبة، فقد بدأ الشباب يشعرون بوخز في الأيدي والأرجل بسبب انتقالهم من مكان بارد إلى مكان دافئ.

تحرّكت الحافلات، وتوقّفت بعد بوكان بقليل أمام مطعم صغير. كنّا

جائعين لأنّنا لم نتناول طعام الغداء ولا العشاء في ذلك النهار. قدّموا لنا الكباب، لكن، بكميّات قليلة أيضًا، فنال كلّ واحد منا لقمة أو لقمتين. تابعنا طريقنا على هذه الحال حتى وصلنا مع أذان الفجر إلى ثكنة الشهيد القاضي. كنت مرهقًا وكأنّني نفّذت أكثر من ثلاث عمليات في هذه الأيام القليلة. عندما تُنفِّذ عملية ما، تشعر بالشوق والحماسة، تشتبك مع العدو، تركض، تعرق و... أمّا هناك فقد بقينا في الثلوج والصقيع من دون إمكانات كافية، ولا أبالغ إذا قلت إنّه من بين 300 عنصر من أفراد الكتيبة، أصاب المرض 200 منهم. يبدو أنّ الأهالي علموا أنّنا سنكون في الثكنة عند الصباح، فوجدنا حوالي ألفي شخص ينتظرون أبناءهم هناك، وكانت هذه إحدى مشاكل قرب المسافة من المدينة. فقد جاء عدد من العوائل منذ المساء ونامت في السيّارات تنتظر أبناءها، وكانت عائلتي من بينها. رأونا دخلنا الثكنة بالحافلات، لكن، كان القرار بعدم السّماح لأي فرد بالخروج، فعادوا خالي الوفاض.

بعد كلّ هذا التّشديد لم يمضِ يومان حتى أعطوا الشباب إجازات (مأذونيات)، أما أنا، فكان لي هنا قصة أخرى. لم أكن أستطيع أكل شيء وبقيت في طوارئ الثكنة، ومن هناك نقلوني إلى مستشفى في تبريز حيث أعطوني عددًا من الحقن، وأرادوا إبقائي في المستشفى، لكنّني فضّلت الذهاب إلى البيت. لقد وصلت إلى المنزل أيضًا بعد يومين مثلهم، غاية ما في الأمر أنّني قضيتها في طوارئ المستشفى بينما هم في الثكنة.

◘

ساء وضعي بالكامل في إجازة الثلاثة أو الخمسة أيام. ثم أصابني الانهيار، وفقدت ما تبقّى من قوّتي بعد صقيع تلك الجبال. عندما وصلت إلى البيت لم يعرفوني في البداية! كان كل من رآني يقول لي: «ماذا جرى حتى حلّ بك ما حلّ بك؟». كدت أموت فعلًا. لقد ارتفعت

حرارتي وبقيت في السرير شهرًا كاملًا. تدهورت صحتي بشكل لا مثيل له بسبب البرد ؛ تورّم وجهي، وانقبضت عضلة فمي ولم يبقَ ألمٌ إلا وشعرت به! وعلى عكس المرّات السابقة، لم يُنعشني أيّ دواء أو علاج أو غذاء، وكنت فقط أستطيع احتساء السوائل. لقد اسودّ مكان الجراح التي أُصبت بها والعمليات التي أجريت في جسدي، وأصبحت قدماي تؤلماني وتحرقاني لدرجة شعرت معها أنّني أكاد أموت. تحمّلت ولم أتأوّه، لكنّني لم أعد قادرًا على متابعة هذا النضال بعد 7 سنوات من الآلام والجراح. كانت أمي تُدلّك قدميّ كلّ ليلة بزيت الزيتون وأدوية من الأعشاب وتلفّها بمنديل من الحرير لتدفأ قليلًا ، وكذلك تحاول تدليك مكان الجراح وتدفّئها ليتحسن جريان الدم فيها. في كلّ يوم يزورني طبيب من مؤسسة الشهيد ليعطيني الحقن التي أحتاجها ويطمئنّ إليّ. لقد بذلت أمي وزوجتي من الجهود في تلك الأيام ما لا يُقدّر بثمن.

عاد الشباب من إجازتهم خلال هذه المدة وتوجّهوا إلى سلسلة جبال ماووت لتنفيذ عملية بيت المقدس2.[1] ولمّا أغادر السرير بعد! استأت لأنّني لم أشارك في هذه العمليّة، وقلت لسعيد بيمانفر، رحيم باغبان، حسن حسين زاده وآخرين ممن جاؤوا لعيادتي: «هنيئًا لكم! نحن تحمّلنا أعباء العمليّة وأنتم قمتم بها!». أخبرني الشباب أنّه لم يعد هناك الكثير من الثلج في المنطقة. لقد استشهد في تلك العمليّة عدد من أصدقائي الأعزاء؛ لكنّ شهادة جلال زاهدي كانت الأكثر إيلامًا على قلبي، صديقي القديم ورفيقي في الجهاد الذي تحضرني ذكراه دائمًا عندما أتكلّم عن الحرب. أخبروني أيضًا أنّ «ميرحاجي همايون» جرح وكانت قصة إصابته مضحكة. قالوا إنّه عندما أصيب في عينه ورأسه من أثر الشظايا، حملوه على ظهر دابّة ليسحبوه إلى الخطوط الخلفية، فوقعت قذيفة قربها وأصيبت المسكينة بشظايا وسقطت على الأخ

1 بدأت عملية بيت المقدس في 1988/1/15 بنداء يا زهراء (عليها السلام) في شمال السليمانية.

همايون أيضًا! رأى الشباب الدابّة تحتضر فاقتربوا منها ليُنهوا حياتها برصاصة ويريحوها، عندها رأوا شخصًا تحتها اكتشفوا أنّه همايون صاحبنا وقد خسر إحدى عينيه.

حريّ بنا أن نبكي لما حمله الشّباب من أخبار مؤلمة، لكنّنا كنّا نخفي دموعنا خلف ضحكاتنا حفاظًا على جهوزيّتنا للحرب. وكنت أملك عزمًا يحول دون شعوري بالعجز عن المضيّ قدمًا في الحرب. ومع أنّني عشت ظروفًا قاسية، إلا أنّه لم يشغل بالي سوى تلك الجبال وأولئك الأشخاص الذين أحببتهم فردًا فردًا، والذين كان خبر شهادة أحدهم يؤلمني أكثر من كلّ الجراح التي أصابت جسدي.

## الفصل السابع عشر

# عندما لم تسعفني دموعي

**1**

مـرّت تلـك الأيّام ثقيلةً علـيّ وأنا أرى النقص يـزداد في عديد فرقة عاشـوراء[1] ولا أقـوى علـى الذهاب إلى الجبهـة، وعندما بـدأتُ أتماثل للشـفاء صـرت أتردّد إلى وادي الرّحمـة -مكاني المفضّـل في المدينة - كانـت ذكرى الشـهداء والأصـدقاء الأعزاء هي عزائي الوحيد والسـند الذي يقوّيني ويعينني على تحمّل هذه المصاعب ومقاومتها.

في ربيـع العـام 1988م اسـتقرّت الفرقة في ثكنة الشـهيد القاضـي، وكنت أذهب إلى هناك أيضًـا، وكثيرًا ما ترددتُ إلى المنزل بسـبب قربه من الثكنة. في تلك الأيام، أصبح فرج قليزاده مسؤول سريّتنا، وهو من العناصر القدامى والمخضرمين في الحرب، وشارك في عدد من العمليّات الكبيرة على الرغم من صغر سنّه. مع هذا، كان غالبًا ما يوكِلُ إليَّ مهمّة التحدّث إلى عناصر السريّة، وكان عددهم كبيرًا. وحينها يكون لكلامي «قصـة»...! إذ يبدأون بالضحك بمجرّد أن أبدأ الحديث معهم! وأستمرّ

---

1 - لانخفاض عدد عناصـر تبريز جذور عميقة أهمّها مسـألة "حزب خلق مسـلمان" (حزب الشعب المسـلم) الذي وجّه ضـربة كبيرة إلى المدينة، وسبّب الفرقة بين الناس، وجعل الكثير منهم يعيشون حـال اللامبـالاة تجاه الثورة. أضـف إلى ذلـك الأعمال المرائية والتصـرفات التي تسـتبطن النفاق والتي تذوّقت طعمها شخصـيًّا في مواقف مختلفة، ومن الطبيعـي أن يتقاعس الناس العاديّون عندما يواجهون مثل هذه التصرفات لمرّات عدّة، ولا يخاطرون بأنفسهم في سبيل الثورة. لو أنّ إنسانًا عاديًّا هـو الذي يقـوم بمثل هذه الأعمال لأمكـن تحمّل الأمر، لكـن الطامّة الكبرى هي أنّ عـددًا من هؤلاء المنافقين كانوا في مواقع مسـؤولية وفي مراكز عليا وهامّة! وقد أدّت هذه الأسباب مجتمعة إلى ذلك النقص في العدد حتى إنّ عدد كلّ العناصر في تبريز لم يصل في ربيع العام 1988م إلى ثلاث كتائب، لكنّ هؤلاء كانوا يعملون من صميم قلوبهم وأرواحهم، ويرفعون رأس فرقة عاشوراء عاليًا على الدوام.

فأحدّثهم عن العمليّات التي شاركت بها، وأركّز كثيرًا على أساليب التحرّك ومشاركة العناصر وحضورهم في العمليّات. لقد أثبتت التجربة لي حتى تلك اللحظة، أنّ دور العناصر في العمليّة لا يقّل أهميةً عن دور القائد؛ القائد معرّض للشهادة أو الإصابة منذ اللحظة الأولى لبدء العملية، لذا على العنصر أن ينتبه جيدًا وبدقّة كبيرة لتفاصيل العملية ولأوامر قائده. لكن، في الوقت نفسه يجب ألّا يعلّق كلّ الآمال عليه، بل أن يتمكّن من اتّخاذ القرار في حال أصيب القائد بسوء ويكمل العمل، وهذه مسألة في غاية الأهمية. لقد حصل مرّات عدة أن كنت أنا مع أربعة أو خمسة أشخاص من يجد الحلول للمشاكل التي تواجهنا في مراحل حساسة من العمليّات، وفيها يودّع بعضنا بعضًا عادة ثلاث مرات. أوّل مرّة عندما ننطلق إلى المنطقة الأساسية، والمرّة الثانية عندما نتّجه نحو العدو، والمرّة الثالثة عندما ينفصل عناصر المجموعات عن السريّة ليبدأوا بتنفيذ العملية. يتمّ تذكير الأخوة في المرحلة الثالثة أن يفرغوا مطرتهم إذا لم تكن مملوءة بالكامل. وكان مسؤول التدريب العسكري هادي نقدي يقول إنّه إذا كانت مطرتك غير مملوءة بالماء بالكامل قبل الانطلاق لمواجهة العدو، فسيسمع العراقيّون صوت الماء عندما تركض وكأنّك تقول لهم: «تهيّأوا أيّها العراقيّون، نحن قادمون إليكم!»، كنّا في البداية نضحك من قوله، ثم فهمنا لاحقًا أنّه كلام واقعي. فالعنصر يوضّب كلّ أمتعته بشكل جيّد ويُحكم إغلاق جعبته، لكن، لا يمكنه التحكّم بصوت المطرة غير المملوءة بالماء بشكل كامل! وعندما يركض سوف يثير هذا الصوت الصادر من المطرة انتباه قوّات العدوّ في نقطة المكمن المتقدّمة عن خطوطه الأمامية، ويمكن لهذه المسألة الصغيرة أن تُفشل العمل الذي من الممكن أن تقوم به كتيبة واحدة؛ حتى لو قامت به حينئذ خمس كتائب. كنتُ أنقل هذه التفاصيل والنقاط الهامّة والعمليّة إلى العناصر. أحيانًا كان هادي نفسه يقول: «سيّد، لقد درّبت في عددٍ من

الدّورات حتى اليوم، لكنّني لم أستطع في 8 عمليات شاركت بها تطبيق شيء ممّا أقوله!». وسبب ذلك هو أنّ ظروف العملية تختلف عما يتمّ تعليمه في التدريبات، وعلى العناصر أن يمتلكوا من التجربة والخبرة ما يمكّنهم من وضع خطة تتناسب مع الواقع الذي يواجهونه.

المسألة الثانية التي شكّلت هاجسًا لديّ وتهمّني وأذكّر بها العناصر بشكل دائم هي سلاح الإشارة. في العادة يستفاد من العناصر الكفوئين والخبراء في سلاح الإشارة في المراكز، وقد تلحق بهم ضربات قاسية بسبب قلّة خبرة عنصر الإشارة. في عملية مسلم بن عقيل، تعرّضنا لنيران قواتنا في مرتفعات «سلمان كشته». قلت لعنصر الإشارة اتصل بهم وقل لهم أن لا يطلقوا النار، وهو يجيبني: «لا أعرف كيف أتصل!». لا أعلم إن كانت معنويّاته انخفضت أم ... لكن كان عنصر الإشارة بلا فائدة! أحيانًا أخرى كان عناصر الإشارة يفتحون الأجهزة اللاسلكية على مقربة من الأعداء فتكشف أصوات الأجهزة المنطقة ويتمّ كشفنا كما حصل في كردستان.

أردت بذكر هذه التفاصيل أن يعرف الشباب أهمّيّة عملهم ويلتزموا الجديّة، وطالما أنصتوا باهتمام لما أقول. بعد هذه الأحاديث التي حرصت على أن لا تتجاوز الربع ساعة في كل يوم، كنّا نتسلى معًا ونشاكس خاصة مع الأصدقاء الذين كنت معهم سابقًا؛ وبالطبع عندما أنسجم قليلًا مع الشباب أتكلّم براحة أكبر معهم. تحدّثنا عن عمليّة بدر وكيف استطعنا السّيطرة على المقرّ رغم قلة العدد، لأنّنا هاجمنا العدوّ ولم يتقاعس أحد. التقاعس يعني هنا إما أنّني أخاف وأريد الحفاظ على حياتي، أو أنّني سبق أن جرّبت الرصاص والشظايا والنار وقررت الانتظار بضع دقائق ليتقدّم الآخرون، أعود بعدها للتقدّم عندما تهدأ النيران... وكلا الحالين تعتبران خيانة. كنت أسعى لإفهام العناصر أنّ من يهاجم العدوّ ويطلق عليه النار سيلقي في قلبه الرعب.

◘

في ربيع 1988م، منّ الله عليّ بأول أبنائي. كانت فتاة أضفى حضورها على حياتنا القاسية في تلك الأيام لطفًا وصفاءً، وجدّد حزني على أصدقائي الشهداء الذين كنت أرى مدى محبّتهم وعاطفتهم على أبنائهم. تنقّلت في تلك الأيام بين الثكنة والمدينة، وقد أصبح الوضع سيئًا في المنطقة. لقد دخلت أمريكا بأساطيلها إلى الخليج الفارسي وصارت تشكّل تهديدًا فعليًّا، ووصل الأمر لدرجة إسقاطها طائرة «إيرباص» تقلّ مسافرين إيرانيين[1]، كما إنّ العراقيّين وسّعوا من دائرة عملياتهم ولجأوا إلى الأسلحة الكيميائية. إضافة إلى كلّ ذلك، أدّى النقص في المتطوّعين إلى أن يكملوا عديد الكتائب من قوّات الخدمة العسكرية، كما وطُرحت من جديد قضيّة القرار، وأعطوا مهلة 15 أو 16 يومًا[2].

◘

في أحد أيام تموز الحارّة[3] جاءني أخو زوجتي وعلى وجهه إمارات الخوف وقال: «لقد قبلت إيران بالقرار!».

- ماذا تقول؟

انفعلت بشدّة. أقسمَ أنّه سمع ذلك بأذنيه. لم أصدّق، ولم أعرف ماذا أفعل لشدة انزعاجي. لم أستطع البقاء في مكان واحد وراحت كلّ الذّكريات تجتاح تفكيري. تملّكني اليأس لدرجة أنّني شعرت أنّنا نخسر ثمرة سنوات طويلة من العمل الخالص. عدتُ إلى المنزل ووجدت أنّ الخبر صحيح فعلًا، وها هم يتحدّثون عن ذلك في الإذاعة والتلفزيون. جلست واستمعت إلى بيان الإمام وقلبي يتفطّر ألمًا وعيناي تقطران دمًا،

---

1 - في 3 تموز سنة 1988م استهدف الأسطول الأمريكي "فنسنس" طائرة إيرباص إيرانية على متنها 298 مسافرًا مدنيًّا وأسقطها في الخليج الفارسي.

2 - قرار الامم المتحدة رقم 598...القاضي بطلب وقف إطلاق النار بين إيران والعراق.

3 - في 18 تموز 1988م قبلت إيران القرار 598 الصادر عن مجلس الأمن الدولي، وبدأ رسميًا وقف إطلاق النار بين إيران والعراق في 18 آب 1988م.

وعندما قال الإمام إنّه تجرّع كأسًا مرّة شعرت بالأسى وبكيت. لن أنسى طعم تلك اللحظة المرير حتى آخر لحظة في حياتي. انزعجت كثيرًا، وبدأت أفكّر بالعناصر الذين أعرضوا عن الجبهة وأولئك الذين لم يلتحقوا أساسًا بالجبهة بسبب عدم مبالاتهم، والأهمّ من ذلك، بأولئك المسؤولين طلّاب السلطة الذين أوصلوا الأمور إلى مرحلة اضطرّ فيها الإمام أن يقبل بالقرار ويقدّم هذه الرسالة. كان كلّ من يتكلّم معي في تلك الأيام يشعر بمدى غضبي، وكنت أغضب أكثر عندما أرى شباب المركز، المسؤولين والعناصر الذين طالما أجّلوا التحاقهم بالجبهة منذ بداية الحرب!! ها قد انتهت الحرب الآن ولم يذهبوا إلى الجبهة بعد!

– أيّ عناصر أنتم؟... لماذا قعدتم؟ لماذا تفركون أيديكم بعضها ببعض وحسب؟ منذ متى تُحلّ الأمور بالقعود لتُحلّ الآن به؟... هيا فلتذهبوا...

كان جوابهم جاهزًا: «نحن عناصر مثلنا كمثل غيرنا!..». كانت كلماتي تنبعث من حرقة قلبي لدرجة أنّهم أرسلوا في اليوم التالي مجموعة من العناصر إلى الجبهة، لكن، بلا فائدة! للأسف لم يكن ذلك في الوقت المناسب!

▫

ذهبت يوم الخميس إلى وادي الرحمة. لم أعد أستطيع التحمّل. لقد جننت. كنت ألوم أولئك الذين ألتقي بهم، وقد ذهبوا إلى الجبهة في وقت من الأوقات وعادوا إلى منازلهم وحياتهم الطبيعية وكأنّ الحرب قد حقّقت أهدافها وكلّ شيء قد انتهى. وأنظر إلى صور الشهداء وأقول: «إلهي، فلتحفظ دماء هؤلاء الشهداء. كم تعبتم من الجبهة ورحلتم بسرعة...».

كانت أيام صيف العام 1988م صعبة بالنسبة إلى أمثالي؛ بسبب

الأخبار السيئة التي تصل من المنطقة. فقد ذهبت كتيبة حبيب إلى رحمانلو عندما وصلت الأنباء بأن الجيش العراقي بدأ هجومًا واسعًا من كردستان، وقوّاتنا انسحبت من حلبجه. كنت قرب النهر في رحمانلو عندما سمعت من الإذاعة أخبار الهجوم الواسع للجيش العراقي من جهة الجنوب، لكنّهم لم يقدّموا تفاصيل كاملة عن الخبر. سمعت من الشباب أنّ العراقيّين تقدّموا واحتلّوا المناطق التي كانت تخضع سابقًا لسيطرتهم، واحترقتُ ألمًا لذلك. ذلك الرجل الصلب، السيّد نور الدين الذي قلّما يبكي، لم تسعفه دموعه للبكاء الآن!

عندما سمعت أخبار التّعبئة العامة في الأهواز وقد أخذ المحافظ وإمام الجمعة الأسلحة هناك وذهبوا إلى خطوط الدفاع ترافقهم جموع الناس، سكنت نفسي قليلًا. في تلك الأيام ذاتها سمعت أيضًا خبر مقتل أحد القادة العراقيّين الكبار داخل دبابة، ثم خبر موت أحد قادتهم في حادث تحطّم طائرة وإعلان العراق الحداد العام ثلاثة أيام. ومع كلّ هذا، ظلّت الأخبار السيئة هي الطاغية. في هذه الأجواء، وصلت بيانات عن تحرّك المنافقين وكنّا في حال جهوزية فأعطونا الأمر بالتحرّك إلى منطقة الغرب. كانت الحماسة تسيطر على الجميع، وهنا وصلت أوامر متناقضة. في البداية قالوا ستذهبون إلى الجنوب، ثم تحدّثوا عن «بانه»، ولم تمضِ ساعة حتى بدأت تُسمع أخبار عن «كرمانشاه». أما أنا فجلّ ما أردته هو الالتحاق بأيّ طريقة بالكتيبة التي ستقوم بالتحرك، لذا غيّرت مكاني حتى حلول الظهر ثلاث مرات! ذهبت من كتيبة حبيب إلى كتيبة الإمام الحسين عليه السلام حيث أوكلوا إليّ مهمة معاون مسؤول السرية الثالثة «أيوب رضائي»، وكنّا قد شاركنا معًا في عملية بدر. ما إن جمعت عدّتي وعتادي حتى أخبِرنا أنّ كتيبة الإمام الحسين عليه السلام لن تذهب إلى المنطقة، عندها تركت سلاحي وعتادي في الخيمة وخرجت. سمعت أنّ كتيبة حبيب ستذهب إلى الخطّ، فتوجّهت إلى أحد العنابر التي يسجّلون

فيها الأسماء. أردت أن أشطب اسمي من كتيبة الإمام الحسين عليه السلام وأسجّله في كتيبة حبيب، وعندما رأى المعنيّ عن تسجيل الأسماء ذلك صاح بي: «إلى أين ستذهب في النهاية يا عزيزي!».

صرت في كتيبة حبيب، وجئنا إلى تبريز لنذهب إلى كرمانشاه من المطار، لكن كتيبة الإمام الحسين عليه السلام ذهبت أولًا، ولا أدري ماذا جرى حتى ألغيت الرحلة حين جاء دورنا. بدأت كتيبة الإمام الحسين عليه السلام العمل في نفس اليوم وبقينا نحن حيث كنّا. لقد رغبت كثيرًا بالمشاركة في الحرب ضدّ المنافقين، أولئك الذين استغلّوا الواقع بشكل سيّئ ولم يرحموا حتى أبناء وطنهم، وعندما سمعت خبر هجوم المنافقين قلت للشباب إنّ العراق يريد أن يبعد عنه شرّ المنافقين. قالوا لي: «ومن أين تعلم ذلك».

- سوف ترون الآن! لقد أغلق العراق حدوده، والمنافقون يُقتّلون في الغرب جماعات وأفرادًا.

وهذا ما كان، وبدأت الأخبار السارّة تصل هذه المرّة. لقد ذهب الكثير من المتطوعين إلى المنطقة، وكأنّ الله تعالى أيضًا أعمى قلوب وعقول المنافقين فظنّوا أنّهم يستطيعون الوصول إلى طهران من الطريق الأساسي خلال بضعة أيام! لكنهم وقعوا في كمين جنود الإسلام وتمّت محاصرتهم في مضيق «تشهارزبر» والقضاء عليهم في عملية «مرصاد»[1].

▫

كنت في تلك الظروف أتابع بدقّة كلّ التفاصيل وأسأل أيّ شخص قد يمتلك معلومة عمّا يقع من أحداث. أخبرني الشباب أنّ العراقيّين استخدموا في «الفاو» السيانور وغيره من أسلحة كيميائية، وقالوا إنّ أجساد الجميع يبست في لحظة واحدة: السائق خلف المقود، رامي

1- بدأت عملية مرصاد بنداء يا علي(ع) في 1988/7/27م غرب البلاد في مدن إسلام آباد وكرند غرب، وفيها طويت صفحة المنافقين ومأجوري العراق.

المدفعية قرب المدفع، و... في تلك الأيام توجّهت إلى الجبهة جموع المتطوعين من كلّ إيران، وأغلقت أكثر الإدارات والمصانع أبوابها حتى المجلس (مجلس الشورى)، وسمعنا بخبر حضور رئيس الجمهورية السيّد الخامنئي إلى الجبهة فارتفعت معنويّاتنا أكثر. لم يعد في ثكنة الشهيد القاضي موضع قدم من كثرة المتطوّعين، حتى إنّ مقر اللواء في ضواحي «بناب» و«ملكان» غصّ بالقوات أيضًا، فلم تعد هناك حتى خيام لهم فبقي أغلبهم تحت الشمس المحرقة؛ بعض راح يسبح في الماء، وآخرون يلعبون كرة القدم. أما أنا فكنت حيثما ذهبت أحمل مذياعًا وأتابع أخبار الانتصارات في عملية مرصاد. قالوا إنّ المروحيات أنزلت 500 عنصر في المنطقة، وكانت تلك الأخبار تثلج صدورنا. كان التلفاز يبثّ صورًا لآليات المنافقين وقتلاهم، وعلمنا أنّ نهايتهم اقتربت.

بعد عدة أيّام، عادت الكتيبة الوحيدة المشاركة في عملية مرصاد من فرقة عاشوراء -أي كتيبة الإمام الحسين عليه السلام- إلى «رحمانلو». لم يحصل خلال كلّ الحرب أن ذهبت فرقة لاستقبال كتيبة، أمّا الآن فقد ذهب الجميع لأول وآخر مرة، لاستقبال شباب كتيبة الإمام الحسين عليه السلام في «رحمانلو»، وبمشاركة بعض الأهالي الذين سمعوا بعودتهم في المدينة. لم يكن هناك الكثير من الخسائر في الكتيبة، 5 أو 6 أخوة استشهدوا في آخر أيام الحرب، وثلاثة أو أربعة جُرحوا. لقد سُررت برؤية الإخوة خاصة أنّهم عادوا مرفوعي الرأس ومنتصرين، وعندما سمعت أخبارهم عن العملية، خفّت حدّة انزعاجي بسبب عدم المشاركة فيها. كنّا جميعًا نرغب بسماع أخبار هذه المعركة مع المنافقين[1]، لكنّ حزنًا غريبًا يجتاح قلبي وأنا أنصت إلى ذكريات الإخوة حول المعركة. فكّرت لو أنّ جموع

1 – قال الشباب إنّ المنافقين كانوا يقاتلون مثل الممثّلين؛ يضعون الرشّاشات على الآليات ويتركون هذه الآليات في وسط الطريق تمامًا ومن دون أيّ تحصين، وكان طيارونا يقصفونها بلا هوادة، فقُتل أغلبهم داخل تلك الآليات. وقد ظهرت أهمية طائراتنا ومروحياتنا أكثر عندما صدّت هجوم المنافقين قبل أن يصل مجاهدونا إلى المنطقة.

هؤلاء المتطوعين شاركت في الحرب منذ بدايتها لضيّقنا الخناق على العدوّ باحتلال البصرة حيث نفّذنا أكبر العمليّات ولانتهى كلّ شيء. لكن، للأسف، التحق بعض بالحرب بعد الموافقة على القرار!

بقينا لأسبوعين في حال جهوزيّة ننتظر الأوامر الجديدة لدرجة أنّنا لم نخلع الجزمات حتى. لم يكن العمل بوقف إطلاق النار قد بدأ حتى انتهك العراقيّون القرار. لكن، في النهاية هدأت طبول الحرب، وتقرّر أخذ القوات إلى خطّ الدفاع لتتمركز هناك، وذهبت أنا في إجازة.

▫

في الختام انتهى كلّ شيء. يبدو أنّ الوقت حان لأهتمّ بعلاجي وأبحث عن عمل، وأحمل بعضًا من أعباء الأزمات التي أثقلت كاهل عائلتي، من هنا سعيت لإثبات إنجاز خدمتي. سابقًا، سعيت خلال الفترات الفاصلة بين العمليّات للحصول على بطاقة الإعفاء من الخدمة العسكرية، وقد حصلت عليها من خلال الأحداث اليومية التي واجهتها. قانونيًّا يسهل إعفائي من الخدمة العسكرية بسبب الجراح التي أصبت بها، إضافة إلى أنّ السنوات الطويلة التي قضيتها في الجبهة يمكن احتسابها بدلًا عن الخدمة العسكرية (الإلزامية)، لكنهم في البداية لم يأخذوا هذا الأمر بعين الاعتبار! فقد ذهبت إلى اللّجنة الطبيّة في الجيش مرات عدّة، لكنّني عدت دومًا خالي الوفاض إلى أن دخلت بنفسي في أحد المرات إلى غرفة الطبيب. قلت له إنّ التقرير الخاصّ بي يفيد بأنّه عليّ الذهاب إلى الخدمة. نظر إليّ مستغربًا وقال: «من كتب التقرير؟». تصفّح الملفّ فعرف أنّه هو من كتبه! أرسلني إلى مقرّ الدرك وصادف أن كان مسؤول المخفر أحد العناصر ممن كانوا معي في كردستان ويدعى «يونس». عرفني وتولّى متابعة ملفي. قالوا لي هناك: «لقد تغيّبت ثلاثة أشهر، يجب أن نحوّل ملفك إلى الشرطة القضائية! سيشكّلون محكمة هناك ويكتبون تقريرًا يفيد أنّك كنت في الجبهة. عندها تجلب لنا هذا

التقرير لنتابع موضوع البطاقة».

كان مسؤول الشرطة القضائية رجل دين. نظر إلى التقرير، ثم نظر إليّ وقال: «أين كنت خلال هذه المدة؟ لماذا تغيّبت؟».

– كنت حينها في بدر، وجُرحت هناك أيضًا.

– من قال لك أن تذهب إلى الجبهة؟

انزعجت من سؤاله وقلت له: «ذهبت إلى الجبهة بناءً على أمر الإمام!». فقال بوقاحة: «حسنًا! فليأتِ الإمام ويُجب!».

غضبت كثيرًا! ما زال الإمام حيًّا ويتصرّف هؤلاء بهذه الطريقة! قلت له: «اكتب مخالفتي مهما كانت، إمّا أن أُسجن وإمّا أن أدفع غرامة!».

قال: «سوف تُسجن ستة أشهر! شهرين عن كلّ شهر غياب!».

قلت له بعصبيّة: «لا مشكلة!»، أكمل قائلًا: «لأنّك شابّ جيّد سنغضّ الطرف عن موضوع السجن، وسأكتب لك غرامة ألفي تومان». كتب ذلك وقفلت عائدًا. لم أكن أمتلك المال الكافي. أخبرت أبي بما جرى في المساء، فاستشاط المسكين غضبًا وقال: «انظروا، لقد ذهب حاملًا روحه على كفّه، عاش في الجبل والصحراء، وجاء الآن ليدفع غرامة لأنّه لم يذهب إلى الخدمة العسكرية!». أخيرًا تمّ تأمين المبلغ المطلوب. ذهبت صباحًا إلى المصرف ثم توجهت مباشرة إلى الشرطة القضائية. كنت أوّل الواصلين. جاء من بعدي 7 أو 8 أشخاص، ثم وصل رجل الدين ذاك. ألقى التحيّة عليّ عندما صار بقربي لكنّني لم أجبه. دخلت، فقال لي: «اخرج!»، خرجت وانتظرت حتى أنجز كلّ أولئك أعمالهم وذهبوا. كانت الساعة الحادية عشرة والنصف حين سمح لي أمين السرّ بالدخول. قال لي: «يا بنيّ، تعرف أنّ رد التحيّة واجب!».

– أجل.

– لقد ألقيت عليك التحية صباحًا لكنك لم تردّ علي!

– لقد سمعت أيضًا أنّه يجب أن لا نسلّم على اثنين، المنافق والكافر...

وأنت برأيي إنسان منافق!

أخـذ يحدّق في وجهـي، فقلت وقد كاد قلبي ينفجـر من الغيظ: «لقد جئتم إلى هنا ببركة الإمام والمجاهدين. وأنتم هنا تتسـلّطون لأنفسكم! هل سـمحوا لكـم بالوصـول إلى هذه المناصـب زمن الطاغوت (الشـاه المخلـوع)؟ لـو كنتم تعملون هنـا في زمن الطاغوت لصـرتم من رجاله! تتصـرّفون معنا بهـذه الطريقة والإمـام ما زال موجـودًا!؟... اكتب لي التقرير لأذهب!».

أراد أن يخفّف عنّي فقال إنّه يطبّق القانون، وإلى ما هنالك من هذه الأقاويل.

أخذت الرسـالة في اليوم التالي إلى الفوج. هناك عاملوني باحترام؛ إذ عادة ما يحترم العسـكريّ العسـكريّين الآخرين. يبدو أنّ يونس أخبر زملاءه ببعض ما جرى في كردستان، لذلك انزعجوا كثيرًا عندما علموا بما حصـل معي في الشرطة القضائية، وأقسـم الشخص الذي أرسلني إلى الشـرطة القضـائية أنّـه لو كان يعلـم أنّهم سيتصـرّفون معي بهذه الطريقة، لما أرسـلني إلى هناك أساسًا. وهكذا تيسّرت أموري وحصلت هناك على البطاقة[1]، لكنّني لم أسـتطع الجلوس مكتوف اليدين. ذهبت إلى مكتب إمام الجمعة في المدينة. استقبلني ابن الشيخ ملكوتي وسألني عـن حاجتي فقلت له إنّـني أريد رؤية الشـيخ. أخـذني إلى إحدى الغرف وانتظرت هناك حتى جاء الشـيخ وأخبرته بالقضـية. قلت له إنّ المسألة ليسـت في الغرامة، لكن في قوله: «يجـب أن يأتي الإمام ويجيب عن هذه الأسـئلة»، قال الشـيخ ملكوتي: «يـا بني، هناك الكثير مـن أمثال هؤلاء الأغبيـاء! دعك منهـم!». فكان لقائي به بلا نتيجة. نصـحني الشـباب

1- لقد قال أيضًا كلامًا لافتًا: "أتعلم! أنا عنصر في الدرك، وأعمل هنا منذ أيام الطاغوت. أتقاضى مـالاً مـن الحكومـة وأعمل، ولا يهمّنـي أتكون هـذه الحكومة للشـاه أم للإمام. واجبي هـو العمل هنا وسأقوم بعملي طالما أنا هنا. لكنني لا أحبّ أولئك الذين وصلوا إلى مناصبهم في ظلّ الثورة ويقومون بهذه الأعمال!".

عندما علموا بالقضية بأن أطلع مسؤول التعبئة الأخ «حسيني» عليها. وبعد عدّة أيام رأيته، فتوجّهت إليه وأخبرته بما جرى. وصفت له ذلك العالم فعرفه بسرعة وقال لي: «ما قاله لك لا يعتبر شيئًا يا عزيزي! لقد رأيت منه أمورًا يصغر أمامها هذا الكلام!»، أثار ذلك تعجّبي.

ثم أخبرني أنّهم أرسلوا في أحد الأيام عددًا من علماء الدين للتبليغ في ثكنة الشهيد باكري في دزفول، وقال: «عادة ما نرسل العلماء لإقامة الصلاة أو التبليغ. توجّهنا صباحًا إلى جهة القوات المتموضعة في الضفة الأخرى لنهر «أروند»، وعند تقاطع طرق «أنديشمك» لجهة الـ«أهواز» سألني ذاك العالم نفسه: أخ حسيني، إلى أين نذهب؟ قلت له: «إلى الفاو»، وما إن سمع باسم الفاو حتى قال: أخ حسيني، أنا لم آت إلى هنا لأذهب إلى «الفاو»، بل جئت لأذهب إلى دزفول، دعنا نرجع ولتوصلني إلى الفرقة!»، عندها قلت له: «أيها الشيخ، طريقنا نحن من هنا، تفضّل أنت بالنزول واذهب إلى الجهة الأخرى من الطريق. ستوصلك أيّ سيارة من مثلّث الطرق إلى دزفول بـ 50 تومانًا!» نزل، وأكملنا طريقنا. بقيت مع الشباب يومين أو ثلاثة، وذهبت إلى الخطّ مع عدد من العلماء الآخرين وعدت. وهناك، في خيمة القيادة رأيت ذلك الشيخ! كنّا قد أرسلنا العلماء وفق برنامج محدّد إلى كتائب سيد الشهداء، القاسم، أبو الفضل، التجهيز و... ولم يبقَ سوى ذلك الشيخ الذي قال لي: «أخ حسيني، دعني أذهب إلى كتيبة الإمام الحسين عليه السلام لأعطيهم دروسًا في الأخلاق!»[1]. قلت له: «أيها الشيخ، تريد أن تذهب إلى كتيبة الإمام الحسين عليه السلام لتعطيهم دروسًا في الأخلاق، لقد أنهى كلّ الشباب في الكتيبة هذه الدروس!». عندما سمع هذا الكلام قال: إذًا سأعود إلى تبريز!» ورجع. لم تتجاوز فترة بقائه في

1- كانت كتيبة الإمام الحسين عليه السلام من أشهر الكتائب في تبريز، حيث كانت تضمّ كلّ العناصر الشّجعان والمعروفين. وكانت أكثر الكتائب شهرة وشعبية بسبب قادتها وشهدائها وشجاعة عناصرها، والبرامج العظيمة التي كانت تقيمها في تبريز.

دزفول في هذه الظروف 6 أو 7 أيام، لكنّه أخذ فيها تقريرًا وذهب في تلك السنة نفسها إلى الحجّ بسبب ذهابه إلى الجبهة! سيّد، أنت تواجه إنسانًا كهذا! احكم بنفسك، أتريد متابعة القضية؟».

بالطبع أعرضت عن متابعة القضية!

▫

كان مقرّ اللواء في ملكان. احتاج المعنيون إلى يومين أو ثلاثة ليخرجوا ملفي من ملاك الفرقة لأحصل -أخيرًا- على بطاقة نهاية الخدمة بتاريخ 1988/10/17م، وكان قد تبقّى لي فترة ثلاثة أشهر إجازة لم أستفد منها. وهكذا طُويت [إداريًّا] صفحة 77 شهرًا في الجبهة بأيّامها الحلوة والمرّة.

عدت إلى المدينة. صرت فيها غريبًا. لا أدري ماذا أفعل؟ أين أذهب؟ كلّ الأماكن لم تكن لي! كنت أجلس في المنزل وأفكّر؛ لقد أصبح «أمير» شهيدًا. وأصبح صادق شهيدًا. حميد غمسوار استشهد في عملية «بيت المقدس3». أصغر علي بور، علي أكبر مرتضوي، الحاج رضا داروئيان، الحاج علي باشايي و... لقد استشهد كلّ أعزائي. كدت أختنق من كثرة التفكير. كنت أتناول الألبوم الذي يحوي صور الجبهة، أنظر إلى صور أصدقائي فتتجدّد حرقة قلبي عليهم. أتذكّر كردستان ولياليها المضطّربة وجسدي الذي احترق هناك بالكامل، أفكّر بالجنوب، وبأخي السيّد صادق الذي استشهد أمامي، بأمير الذي سيبقى ألم شهادته في قلبي ما بقيت حيًّا، بالعمليّات، والجهود التي بذلها الشباب في الغربة عن الوطن والأهل، بالدماء التي سُفكت ظلمًا على أرض إيران، بالغوّاصين الذين كانوا نموذجًا كاملًا للإيمان، وبكلّ الجراحات والآلام التي تحمّلناها...

والآن جاء اليوم الذي لم أفكّر فيه أبدًا (لم اتوقعه)؛ لقد انتهت الحرب وبقينا أحياء.

## الفصل الثامن عشر

# الآلام التي لم تنتهِ

1

لقد انتهت الحرب القاسية بعد 8 سنوات، لكنّني ما زلت أعاني عددًا من الأمراض الناتجة عن الجراح التي أصبت بها خلال الحرب. في العام 1984م طُرِحت لأوّل مرّة مسألة سفري إلى الخارج لعلاج عصب عيني والتقيّحات التي تخرج منها، وطلبت اللّجنة الطبيّة المعنيّة بإيفاد الجرحى للعلاج في الخارج، مبلغ 27 ألف تومان لم أكن أملكه. طرحتُ في أحد الأيام هذه المسألة في مؤسسة الشهيد مع الأخ «رهبري» فقال: «سنؤمّن نحن المبلغ، وتابع أنت الموضوع». لكنّنا كنّا في ذلك الوقت نخطّط لعملية بدر، ولم أكن مستعدًّا للذهاب للعلاج وعدم المشاركة بها. كما إنّ الشعور باليأس انتابني نتيجة كلام الأطباء عن احتمال فقد البصر بعيني بسبب صعوبة وضع عصبها والتقيحات. كذلك انزعجت من طلبهم المال؛ وأيضًا من تصرّفاتهم في مستشفى «مصطفى الخميني»، فأجّلت الموضوع حتى عام 1989م.

في ربيع العام 1989م بدأتُ العمل في جامعة العلوم الطبية في تبريز، ولم يمضِ شهران حتى أخبرني صديقاي كريمي وصادقي -وهما من مسؤولي حملة محو الأميّة- بأنّ رئيس الوزراء آنذاك «مير حسين موسوي» سوف يأتي إلى المدينة. ولأنّهما يعلمان بمسألة علاجي حيث كانا من عناصري أيام الجبهة، طلبا منّي كتابة رسالة له حول الموضوع. كتبت الرسالة، وفي لقاء له في المحافظة مع المجاهدين والجرحى،

أخبرته بالمسألة -وجهًا لوجه- باختصار وأعطيته الرسالة. عندما أنهى زيارته، ذهبت مع الأصدقاء إلى المطار ثانية، وسلّم أيضًا على الجميع فردًا فردًا. عندما وصل إليّ قال: «أنا أذكر رسالتك، وسأجيبك عليها». وللإنصاف فقد اتصلوا بعد يومين أو ثلاثة من مكتب رئيس الوزراء بحملة محو الأمية -وكنت قد أعطيتهم رقمها- وقال لي الشباب إنّهم يريدونني في طهران. جمعت أوراقي وتوجّهت إلى هناك.

في طهران ذهبت إلى مكتب رئيس الوزراء. أخبروني هناك أنّهم أعطوا أمرًا بتقديم كلّ التّسهيلات اللازمة لتسريع سفري إلى الخارج، فصار لزامًا عليّ الذهاب ثانية إلى مستشفى «مصطفى الخميني». سابقًا، كانت السيدة كروبي رئيسة المستشفى قبل أن يستلم محلّها الدكتور «لشكرية»، وقد كتبت رسالة لها قلت فيها إنني سأشكوهم يوم القيامة لأنّهم طلبوا منّي المال مقابل إرسالي إلى الخارج، وتسبّبوا في أن أخسر البصر في إحدى عينيّ، وصادف أن رأيتها هناك، وقد علمت بالقضية فسألتني: «هل شكوتني؟». شرحت لها القضية من جديد وأضفت أنّ الرسالة التي كنت قد كتبتها لها كتبتها للسيّد موسوي أيضًا، وهو يعمل الآن على حلّ القضية. على أيّ حال، حضّرت كلّ شيء خلال يومين أو ثلاثة أيام: الباسبور، و... لكن وقع حدثٌ أجّل موضوع السفر.

◘

كان خبر مرض الإمام ثم وفاته في 4 حزيران عام 1989م أسوأ حدث يمكن أن يقع. لقد عشت حينها ظروفًا نفسية صعبة. إلهي! أيّ ألم أصعب؟ ألم فراق أصدقائي الشهداء؟ أم ألم هذا الجسد المعذّب الذي يجب أن يتجرّع بصبر مرارة ما يراه في المدينة؟ والآن ألم وداع الإمام الذي نحبّه بإخلاص ومن أعماق قلوبنا وأرواحنا، والذي كنّا مستعدّين لنفدي حياته وصحّته بأعمارنا؟!

لقد طرحوا اسمي مرّات عدّة خلال الحرب للذهاب إلى سوريا وإلى الحجّ. وخلال أحداث مقرّ زيد في خطّ شلمجه عام 1984م طرحوا اسمي للتوجّه لأداء فريضة الحجّ، كما طرحت أسماء عدد من العناصر القدامى أيضًا. ذهب بعضهم، وكنت ممن تخلّفوا خشيةً أن أخسر فرصة المشاركة في العملية. إضافة لذلك، لم أكن أرغب أساسًا بالذهاب إلى الحجّ في تلك الفترة وبأن ينادوني بـ«الحاج». بعد بدر، طرحوا اسمي للذّهاب إلى سوريا، لكنّني لم أذهب أيضًا. وطوال الحرب، ذهبت مع الفرقة مرّة أو مرتين إلى مشهد. لكن، كلّ ذلك لم يزعجني، ما كان يزعجني ويحرق قلبي أنّ اسمي طُرح مرّات عدّة للقاء الإمام إلا أنّني لم أذهب! كنت كلّما جرى حديثٌ عن لقاء الإمام شعرتُ بالخجل من الذهاب للقائه، وقلت في نفسي: ماذا فعلت لأقف أمام الإمام!... هذا هو السبب الذي جعلني أخسر اللقاء به واحتفظت به سرًّا لنفسي. والآن...

بعد وفاة الإمام، صار قلبي يحترق أسفًا لأنّني خسرت فرص اللقاء به. لماذا لم أرَ الإمام حتّى لمرة واحدة... كنت أفكر دومًا بهذه المسألة وأبكي لدرجة أثارت تعجّب من حولي. وأتساءل طوال الوقت: ما هو حال المجاهدين في زمان النبي الأكرم ﷺ والإمام علي عليه السلام، يواجهون العدوّ على مرأى من الإمام عليه السلام والنبي ﷺ، ويصمدون أمامه ويقاتلون ويستشهدون ويراهم ﷺ و... الآن أنا أفكّر في حالنا، وأقول، إلهي، أنت ترى أنّنا ذهبنا إلى الجبهة في زمن الغيبة فقط بناءً لأمر نائب الإمام عجل الله فرجه، ولم نرَ إمامنا حتى. سمعنا صوته فقط، ولم نتراجع لحظة عن الجبهة، وكان هناك فرصة للقائه، لكن... لماذا لم أذهب؟ لماذا لم أره؟ في إحدى الليالي، بكيت كثيرًا قبل أن أنام، ورأيت حلمًا عجيبًا. رأيت الإمام رحمة الله عليه في غرفة عاديّة، والشهيد «أمير» الباش يجلس قربه من جهة، وأنا أجلس في الجهة الأخرى، وهو يمسح بيده على رأسي ورأس «أمير» ويقول لي: «لا تنزعج كثيرًا، ليس المعيار والهدف أن ترى، المعيار هو أداء

التكليف». استيقظت صباحًا بحال عجيبة من السعادة والراحة وكأنّي أكاد أطير من الفرح، وبدأت أشعر أنّني لم أقصّر في الحرب وقمت بعون اللّه بواجبي.

◘

بعد المشاركة في مراسم ذكرى مرور أسبوع على وفاة الإمام في «جماران» في طهران، بدأتُ أتحضّر شيئًا فشيئًا للذهاب إلى ألمانيا، وحُدّد موعد السفر في الأوّل من تموز. ولأنّني كنت بانتظار مولودي الثاني فقد رغبت بتأخير السفر، لكن ذلك لم يكن ممكنًا، وكنت أتوقع أن أعود بإذن اللّه في وقت مبكر.

توجّهنا إلى ألمانيا وكان على متن الطائرة جرحى آخرون من كرمان، طهران وهمدان. أقمنا هناك في مدينة «كولن». أخبرني أحد الجرحى الذين التقيت بهم أنّه مضى على وصوله 12 شهرًا، وقال آخر إنّه أتى منذ 18 شهرًا، فعرفت أنّ أمامي عملًا كثيرًا، ولا بدّ من البقاء ثلاثة أو أربعة أشهر على الأقل. قال الشباب إنّهم لا يعطون المريض بعد العملية وحدات من الدم، لذا يحتاج إلى فترة نقاهة طويلة نسبيًّا ليتعافى بدنه. أخذوا لي موعدًا من طبيب بروفسور يدعى «هالمن» إلى ما بعد شهرين، لكنّني لم أرغب بالبقاء حتى ذلك الوقت. كانوا يعطون لكلّ جريح 12 أو 15 ماركًا يوميًّا، ولم نكن في ضائقة مادية، لكنّني كنت قلقًا على عائلتي. لم تمضِ أيام قليلة على وصولي إلى ألمانيا حتى اتصلت بي زوجتي وأخبرتني وهي تبكي أنّ ابنتي الثانية قد وُلدت، لكن هناك مشكلة في قدمها. زاد هذا الخبر من استيائي وانزعاجي وبدأت أفكر بالعودة إلى إيران في أسرع وقت ممكن. قلت للشباب إنّ حالي طارئة ولا يمكنني الانتظار فترة شهرين، فقرّروا التحدّث إلى الطبيب وقدّموا موعد الزيارة. استمرّت جلستي مع البروفسور «هالمن» ساعتين ونصف الساعة حتى عرف بالتفصيل مشكلتي الصحية، وتقرّر – بعدها– مشاركة فريق

من الأطباء المتخصّصين في العين، الأذن والفم والأنف، والفكّ والوجه، في العمليّة الجراحيّة التي سأخضع لها. قال إنّ هناك مشكلة في عصب العين، لكن يمكن معالجتها، وسيجرون عملية لحدقة العين. لكنّ المشكلة الأكبر هي في التقيّحات القديمة التي تخرج من عيني، وتأزمت منذ العام 1982م حتى اليوم، ويجب معالجتها بأسرع ما يمكن.

في النهاية أدخلوني المستشفى وأجروا لي عملية صعبة استغرقت حوالي 5 ساعات.

◘

عندما عدت إلى وعيي، انتبهت إلى أنّهم أجروا لي عملية في الأنف وحدقة العين، وقالوا إنّهم سيجرون لي عمليّة أخرى بعد شهر. أثناء وجودي في المستشفى تعرفت إلى أشخاص عدّة. كان معي في الغرفة فتى من طهران يرأس والده أحد البنوك. لم تكن أمّه وأخواته ملتزمات بالحجاب، لكنّهم كانوا يهتمّون بي. كان ذلك الصبيّ يشاهد التلفاز بشكل مستمرّ، وعندما لاحظ تعجّبي من هذا الأمر، أخبرني أنّه لا يمكنه مشاهدة التلفاز مجّانًا في المنزل لذا هو يستغلّ فرصة وجوده في المستشفى! إضافة إلى المرضى الإنكليز والأمريكيين، كان في الغرفة أيضًا مريض تركيّ من أهل السنّة استفدت كثيرًا من وجوده معي. كان يخبرني بمواقيت الصلاة ويساعدني في اختيار الأطعمة الحلال ويعطيني أدويتي. أتى إلى المستشفى أيضًا مرضى من المنافقين وأحضروا معهم مجلاتهم. كانوا أناسًا مساكين! أذكر أنّ الشباب في «خانه إيران» قدّموا وجبات طعام في ذكرى أربعين الإمام الخميني قدس سره، فكان المنافقون وطلاب السّلطة الذين فرّوا من إيران، يُحضرون معهم القدور ليأخذوا الطعام! أكثرهم عانى من ضائقة مالية كبيرة. رأيت في فرانكفورت أيضًا إيرانيين يفتشون في النفايات. لقد لاحظت أنّ الألمان

لا يتعاملون بشكل جيّد مع الإيرانيين، لكنّهم يتعاملون بشكل أفضل بكثير مع الجرحى الأفغان الذين أصيبوا في حربهم ضد الروس.

◘

بعد شهر، أجروا لي عملية ثانية وضعوا خلالها أنبوبًا رقيقًا يصل حدقة العين بالأنف وعلّموني كيف أهزّه لتخرج منها التقيّحات، وقرّروا إجراء عملية أخرى أيضًا. وبعد 65 يومًا سمحوا لي بالخروج من المستشفى. أخذوني إلى «خانه إيران»، وهو فندق جميل يقع بين كولن وفرانكفورت، تفصل بينه وبين الجبل حديقة تحيط به من كلّ الجهات، وقد استأجروه خصّيصًا للجرحى... التفتّ إلى أنّهم اشتروا خروفًا ليقدّموه أضحية بمناسبة عيد الأضحى، إلا أنّ أحدًا لم يستطع ذبحه، وكنت قد جرّبت ذلك في الجبهة من قبل حيث كانوا يحضرون للكتيبة ثلاثة أو أربعة خراف، وكنّا نقول وقتها على سبيل المزاح إنّنا سنتركهم إلى ما بعد العملية حين يقلّ عدد الأفراد! حضّرنا الأضاحي بمساعدة شابّ من «همدان» مبتور القدمين، وذبحناها في الفناء، وتم تحضير لحومها طعامًا للشباب. كانت القنصلية الإسرائيلية تقع قرب ذلك الفندق، وكانوا يذيعون فيها موسيقى فاحشة طوال الأربع والعشرين ساعة، فقام شبابنا بالردّ عليهم بتوجيه مكبّر الصوت ناحيتهم وبثّ الأناشيد الفلسطينية عبرها.

بدأ شهر محرم، وكنت منزعجًا جدًّا. كنت دائمًا أحبّ أن أكون في تبريز في العشر الأوائل من محرم، مع أنّه كان لأيام محرم في الجبهة نكهة خاصّة طوال السنوات التي قضيتها هناك؛ لا مثيل لها في أيّ زمان أو مكان. عندما عدت لمراجعة الطبيب، وعرفت أنّهم يستبعدون أن أبصر بعيني ثانية، لم يتبقّ لديّ دافع كبير للبقاء. ولأنّني كنت أيضًا قلقًا على عائلتي وطفلتي الصغيرة أصررت على الذهاب إلى طهران، فقبلوا

بذلك بعدما قطعتُ لهم عهدًا بأن أعود بعد شهرين لمتابعة العلاج.

□

في تبريز قال الأطباء إنّ مشكلة قدم طفلتي ليست معقّدة وستتحسن مع العلاج. ذهبت بعد شهر لمراجعة الأطباء فقالوا إنّه لا فائدة كبيرة تُرجى من الأنبوب الموجود في عيني واستخرجوه. لم أعد أفكّر في الذهاب إلى ألمانيا؛ فمن جهة كانت تكلفة العلاج مرتفعة، ومن جهة أخرى لم يكن للعمليات والعلاج أيّ نتيجة.

ما تزال الجراح التي أُصبت بها في وجهي تؤلمني؛ منذ تلك السنة وحتى الآن وخاصّة في الفصول الباردة، ،كذلك كانت مشكلة انقباض عضلات الفم تتكرّر عندما لا أعتني بنفسي جيّدًا في الطقس البارد. وأعاني في تلك الأيام لدرجة أنّني اضطر لفتح فكي بالقوة كي أستطيع تناول الطعام.

□

كانت حملة «راهيان نور» فرصة لي لأتمكّن ثانية من تقبيل موضع أقدام أصدقائي الشهداء بعد كلّ ما مرّ من السنوات. لقد طرحت مرات عدّة مسألة المذكّرات في مناسبات مختلفة، ولم أعتقد أنّها مهمَّة في هذا الزمن. لم تكن مسألة إجراء مقابلات والحديث عن مذكّرات الحرب قد طرحت بعد. والحقيقة أنّني بقيت دائمًا أعاني من عوارض الجراح التي أصبت بها، وفي إحدى الليالي من عام 1994م، رأيت السيّد علي الخامنئي في المنام يحمل في يديه أوراقًا يقرأها ويبكي، وكنت معه في نفس الغرفة. قال أحدهم إنّ هذه الأوراق تتضمن مذكّرات جريح وصلت درجة جراحه إلى 70% وأمضى في الجبهة 80 شهرًا ويقول إنّه لم يقدّم شيئًا في الحرب... لقد شغل هذا المنام كلّ تفكيري حتى

ظننت أنّي لن أتمّ واجبي تجاه هؤلاء الناس وما جرى في الحرب إلا بكتابة هذه المذكّرات، لذا رويت تفاصيل 8 سنوات من حياتي في الجبهة لتبقى تلك اللحظات التي لا مثيل لها حيّة مع الزمن. مذكّرات ليالي كردستان الخطيرة... مذكّرات مسلم بن عقيل والشظايا التي أخذت «صادقنا»، وخطّت مصيري مع هذه الجراح الخالدة... مذكّرات بدر ومواجهة الأجساد للدبابات وشجاعة الأنصار الكربلائيين الذين بقيت أجسادهم الطاهرة على ضفاف نهر دجلة... مذكّرات «والفجر8» وتلك الليلة الغريبة التي حفرت في قلبي ألم فراق أمير... مظلوميّة أصدقائنا وشهادتهم في مصنع الملح في شلمجه؛ ذكرى رحيم وحبيب ومحمد و.. ذكرى الغوّاصين الذين أخجلوا نهري الكارون وأروند بغيرتهم وعظمة أرواحهم. ذكرى الجبال المغطّاة بالثلوج والجليد.. ذكرى كلّ الأخوة الأشاوس الذين اصطفاهم اللّه شهداء، والذين أعشق جراحي لأجلهم، ومن ذكراهم أستمدّ العزيمة والصبر في تحمّل كلّ هذه الآلام.

# ملحق
# ملف الصّور

1- الجبال الواقعة في ضواحي مهاباد، بعد شهور عدّة على إلتحاقي بالحرس، ولم أكن قد جرّبت الجراح بعد، أوائل العام 1981م.

2 - كردستان، مركز التلفزيون في مهاباد-أكثر المراكز راحة- حيث كنت هناك لحظة تحوّل السنة 22 آذار عام 1981م. من اليسار: السيد نور الدين عافي.

3- مهاباد، من اليمين: ....، ميرفندرسكي، يونس، نور الدين عافي، ... ، ... لقد وجّه ميرفندرسكي ضربات عدّة للعدوّ بواسطة المدفع 106ملم هذا، لكنّني احترقت من رأسي حتى أخمص قدميّ باللهيب الخلفي لهذه المدفعية عندما أردت رفع قذيفة وضعها يونس على ظهر الآلية في شباط - آذار (اسفند) 1982م.

4- قرية خلجان، مركز المسجد، من اليمين: أخي الأصغر الشهيد السيد صادق عافي الذي استشهد أمام عينيّ في أيلول 1982م.

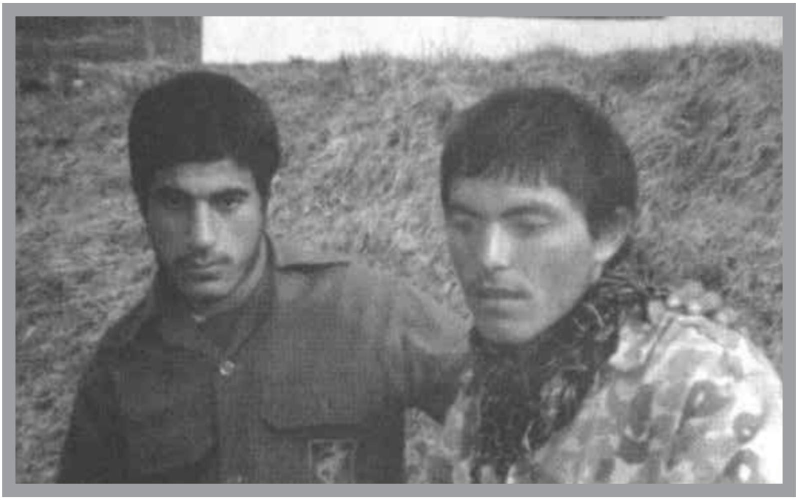

5- كردستان، 1982م، من اليسار: السيد نور الدين عافي قرب قائد مجموعة رأس الحربة الذي استشهد في كردستان.

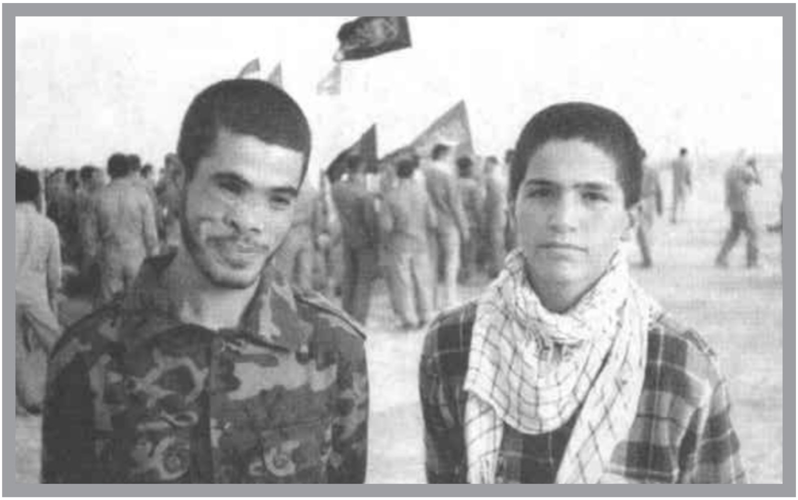

6- ربيع 1983م. بعد الإصابة في عملية مسلم بن عقيل عدت الى الجبهة بهذا الوجه، وإلى جانبي الشخص الذي كتب لافتة استشهاده بيده، واستخدموها بعد شهادته. كان يعمل في مؤسسة الشهيد.

7- 1984م، معسكر شهداء خيبر، حيث كنت أعدُّ الشاي، وأشتري الوقود بأيّ ثمن كان. وفي هذه الصورة أشعل النار لإعداده. الشخص الثالث في الصف الأول من اليمين: الشهيد همّت آقايي يرسم صليبًا، وفي الصورة ثلاثة شهداء آخرين.

8- الصورة عند ضريح الشهيد الكبير الدكتور مصطفى شمران، وقد ذهبنا لزيارته في جنة الزهراء بعدما أخذنا إجازة.

9- معسكر شهداء خيبر، جمع الشباب الطاهرين في السريّة الثالثة في كتيبة الإمام الحسين عليه السلام، صيف العام 1984م. وقوفًا من اليمين: علي أبقايي، الشهيد بهمن غفاري، صمد فرجي، فرج قليزاده، الشهيد أيوب رضائي، مقصودي، ناصر حجازي، الشهيد همت آقايي، علي رضا جاويد، الشهيد رحيم افتخاري، الشهيد يوسف فداكار، محمد ميلاني، يونس بهجت نيا، السيد نور الدين عافي، أصغر أسفهلاني. جلوسًا من اليمين: الجريح علي نمكي (ابن خالي)، أصغر غربي، الشهيد...، رضا محبوبي، موسى غفاري، حمزة...، ...، الشهيد عبد الحسين أسدي، علي رضا فغاني.

10- دشم تحت الأرض في ثكنة شهداء خيبر، اجتماع وديّ للشباب، أوّل شخص من اليمين فرج قليزاده، الشخص السادس من الصورة أنا، والسابع الشهيد حسن كربلائي، 1984م.

11- ثكنة شهداء خيبر، الصورة بالزيّ العسكري العراقي حيث ارتديته مرّات عدة خلال الحرب، 1984م.

12- معسكر شهداء خيبر، جلوسًا من اليمين: أنا، موسى غفاري (أستاذ اللغة الذي كان يتحدّث مع المراسلين الأجانب)، الشهيد محمد رضا باصر، الشهيد أيوب رضائي، كريم دداش زاده، أصغر أسفهلاني. وقوفًا من اليمين: الشهيد يوسف فداكار (الجريح الذي استشهد حديثًا)، صمد فرجي، رضا محبوبي، أصغر غربي، صيف 1984م.

13- ثكنة شـهداء خيبر حيث كان لي مع الدراجة النارية الكثير من الذكريات الحلوة والمرّة، 1984م.

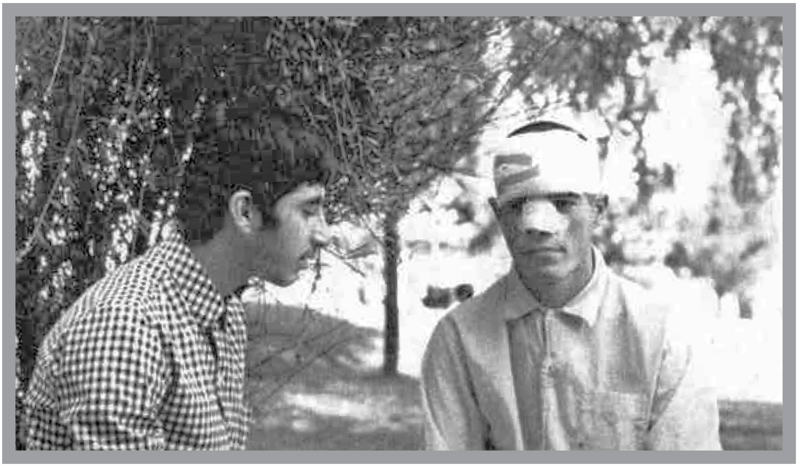

14- 1985م، بعد أن أصـبحنا أصـدقاء، صـرت وأمير مارالباش نمضـي كل أوقاتنـا معًا، وكان معي في المستشـفى عندما أجـروا لي عملية في عيني، بالفعل لقد قاسمني أحزاني وأفراحي.

15- مستشـفى فاطمة الزهراء عليها السلام في طهران، وإلى قربي الجريح الهمداني الذي كانوا يضعون في فمه صفًّا من الأخشاب، 1985م.

16- انـا والشـهيد أمير مارالباش قـرب الرادودين (المدّاحيـن) التبريزيين الطاهرين اللذان تـركا أثرًا كبيرًا على معنويات المجاهدين: الحاج بيوك آسايش (والد شهيد) والحاج مقصود بوررادي (أبٌ لشهيدين)، 1985م.

17- الشـخص الثاني من اليمين الشـهيد محمود دولتي الذي أصبح في عداد المفقودين في عملية بدر، 1985م. كان العديد من الشباب في ثكنة شهداء خيبـر ينامـون على السـواتر الترابيـة لأنها كانـت أكثر بـرودة، وفي هذه الصورة كنّا قد جمعنا البطانيات و...

18- أنا وأمير قرب الهور نكتب وصيتنا المشتركة قبل عملية بدر، آذار 1985م.

19- ثكنة شهداء خيبر، قائد فرقة (عاشوراء 31) الباسل الأخ مهدي باكري والشهيد أصغر قصاب عندما كانا يتفقدان كتيبة الإمام الحسين عليه السلام، صيف 1984م.

20- مجاهدو كتيبة الإمام الحسين عليه السلام البواسل يستمعون إلى حديث قائدهم أصغر قصاب قبل التوجّه لتنفيذ عملية بدر، وفي وسط الصورة أنا والشهيد علي أكبر مرتضوي (يضع كوفية على رقبته)، آذار 1985م.

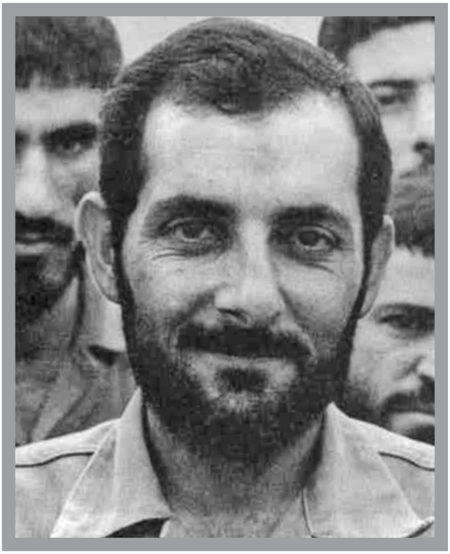

21- قائد قلوب المجاهدين في فرقة عاشـوراء الأخ مهدي باكري الذي ارتقى شهيدًا في عملية بدر.

22- مـن اليسـار شـهداء عمليـة بدر الثلاثة: الشـهيد قاسـم هريسـي الذي اسـتطعنا سحبه إلى الضـفة الأخرى من نهر دجلة بصـعوبة بعد إصابته، الشـهيد أصـغر قصـاب عبد اللهي والشـهيد علي تجلايي، وكنّا مع هؤلاء الثلاثة حتى آخر لحظة في تلك الضفة من دجلة.

23- أحد المجاهدين البواسـل فـي كتيبة الإمام الحسـين عليه السلام داوود نظافت الذي استشهد في  المواجهات العنيفة التي جرت في منطقة همايون أثناء عملية بدر.

24- قبل سـاعات على الانطلاق لتنفيذ عملة بدر، الشخص الثاني من اليمين: الشـهيد علي تجلايي، مسـؤول المعلومات في مقرّ خاتـم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم الذي التحق بعديد كتيبة الإمام الحسـين عليه السلام تعبويًّا. من اليسار: الشهيد أصغر قصـاب مسـؤول كتيبة الإمام الحسـين عليه السلام، الشهيد مصـطفى بيشقدم (مسؤول سريّة). آذار 1985م.

25- مسؤول سريتنا الباسل في كتيبة الإمام الحسين عليه السلام؛ المدّاح المخلص الشهيد خليل نوبري الذي التحق بقافلة الشهداء في عملية بدر.

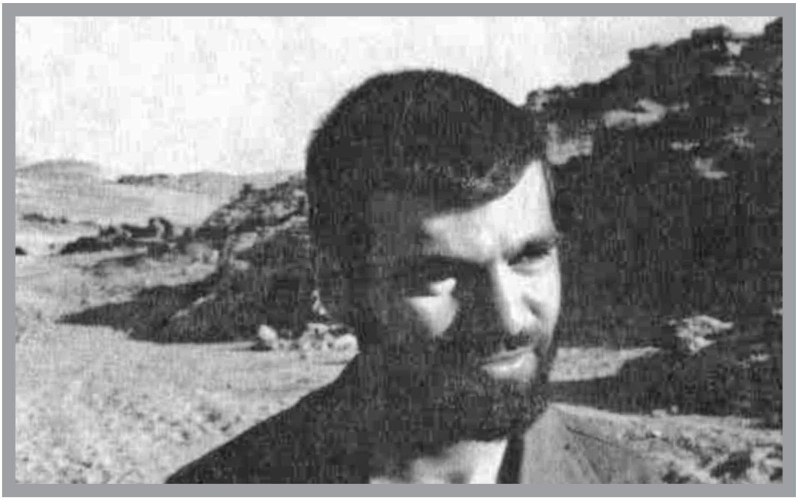

26- الشهيد صمد زبردست الذي قُطع حبله الشوكي في الحرب والتحق بعد سنوات بالرفيق الأعلى.

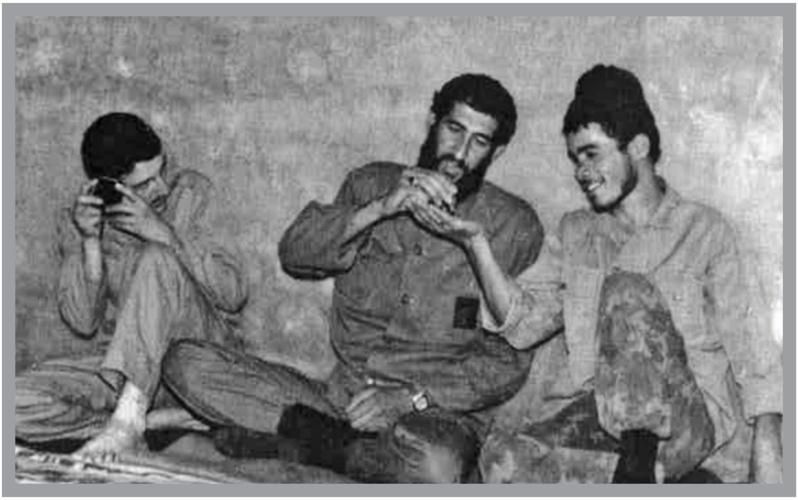

27- في دشـمتنا في معسـكر شـهداء خيبر؛ الشهيد حسـن كربلائي يضع لي عطرًا ويقول: سيد، لقد استشهد كل من وضعتُ له عطرًا.

28- الشـهيد السيد علي أكبر مرتضوي (بابا) الذي شهدتُ لحظة استشهاده، وأكّدت لعائلته شهادته...

29- بعد عملية بدر، لم أعد أستطيع تحمّل البقاء في كتيبة الإمام الحسين عليه السلام، فالتحقت وأمير (الشخص الأول من جهة اليمين) بكتيبة «أبو الفضل» عليه السلام وكان مسؤول الكتيبة السيد أجدر مولايي (الشخص الأول من جهة اليسار)، الهور 1985م.

30- خطّ الدفاع في جزيرة مجنون حيث بقيت لمدة مع شباب كتيبة «أبو الفضل» عليه السلام. الشخص الثاني من اليمين الشهيد أمير مارالباش، ثم الشهيد رحيم افتخاري وأنا، قبل عملية «والفجر8»، 1986م.

31- بستان نخيل على ضفاف نهر أروند، قبل أيام من تنفيذ عملية «والفجر 8»، من اليمين: محمد تجلايي، الشهيد أمير مارالباش، ....، أنا، ....، شباط 1986م.

32- ثكنة الشهيد باكري، قبل عملية «والفجر 8»، وفي الصورة ثلاثة من الشهداء الخمسة الذين استشهدوا معًا في العملية، الشهيد رحيم افتخاري الشخص الأول الواقف على اليمين، الشهيد مهدي محمدي الشخص الثاني الجالس على اليمين، ثم الشهيد رضا كلوليان. ومن وراء الكاميرا أمير الذي التقط هذه الصورة، 1986م.

33- اللواء أمين شـريعتي–الذي أصبح مسؤول فرقة عاشوراء بعد شهادة الأخ مهدي– خطيبًا في عناصر الفرقة قبل البدء بعملية «والفجر 8».

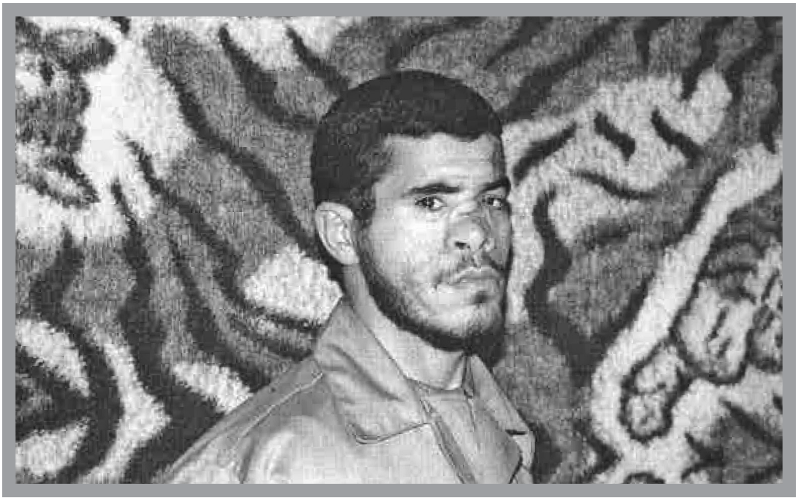

34- آخـر صـورة التقطهـا لـي أمير. قبل سـاعات مـن التوجّه لتنفيـذ عملية «والفجر8»، شباط 1986م.

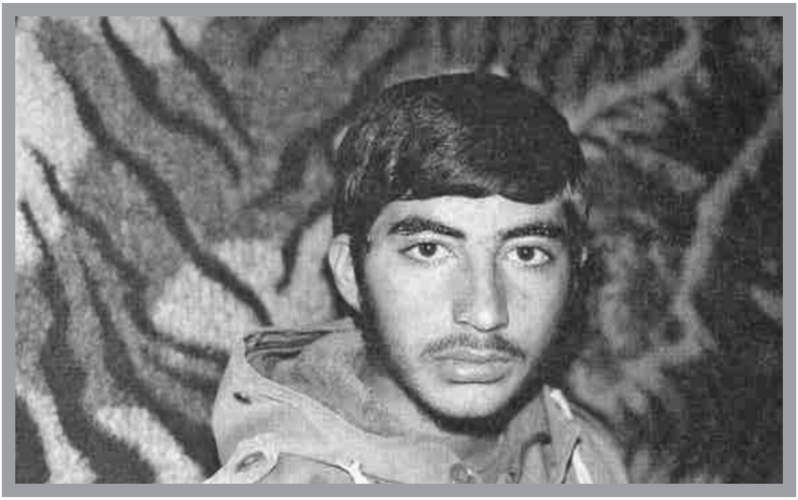

35- آخر صورة التقطتها لأمير قبل شهادته...، كانون الثاني 1986م.

36- آخر صورة لأمير في التابوت عندما أحضروه إلى المدينة، شتاء 1986م.

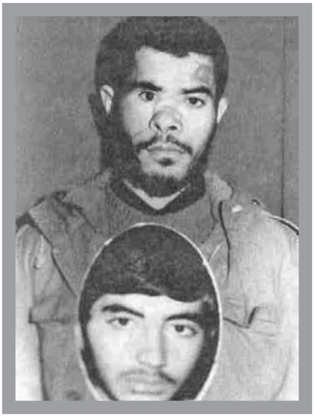

37- ذهبت إلى مشهد بعد شهادة أمير، قصصت مكان القلب في صورة لي ووضعت صورة أمير مكانها، والتقطوا الصورة من جديد... كان أمير معي في كل مكان، ولم أكن أستطيع تصوّر بعده عنّي أبدًا.

38- ربيع 1986م، بعد عملية والفجر8، في إحدى الحسينيات في مشهد حيث كان شباب كتيبة الإمام الحسين عليه السلام مستقرّين، وفي الصورة الكثير من الشهداء: وقوفًا من اليمين: أول شخص حتى السادس هم شهداء، ثم رسول زارع زاده. جلوسًا من اليمين في الصف الثاني: الشخص الأول والثاني والرابع والخامس شهداء، السابع السيد نور الدين عافي، الثامن الشهيد محمد نصرتي، التاسع الشهيد جواد بخت شكوهي، جلوسًا من اليمين في الصف الأمامي: الشخص الثالث والرابع شهداء، الخامس الشهيد بدرام شاكري، إضافة إلى ثلاثة شهداء آخرين في هذه الصورة استشهد أكثرهم بعد بضعة أيام في عملية يا مهدي.

39- فرقـة لطـم في حـرم الإمام الرضـا عليه السلام في مشـهد، ربيـع 1986م، من اليسـار:...، السـيد نـور الدين عافي، ...، الشـهيد جواد بخت شـكوهي، الشهيد محمد نصرتي و...

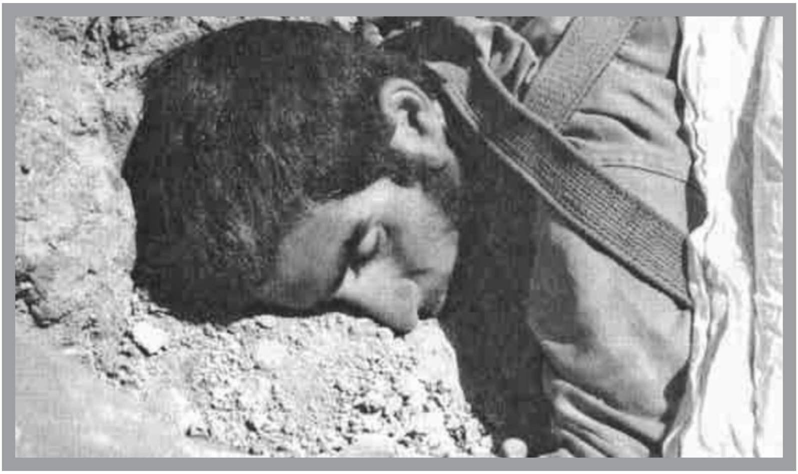

40- ... رأيت شابًّا قصير القامة يتوجه نحوي، إنّه محمد نصرتي، قال: سيد، لقد ذهبت لأغتسـل غسـل الشـهادة لأنّني سأستشـهد الليلة... واستشهد بالفعل في مواجهات مصنع الملح!

41- 1987م، أنا ويعقوب نيكبيران، ومن خلفنا موقع الشهيد مقيمي في كرمانشاه حيث استقرت كتيبة حبيب، وتبدو الخيام والعنابر واضحة في الصورة.

42- 1987م، من اليمين: يعقوب نيكبيران، صادق سبكدست، السيد نور الدين عافي،....، المداح الشهيد الحاج رضا داروبيان وعلي حاجي بابايي.

43- وحيدًا في الهور، أفرغت أحد الجسور العائمة واستخدمته كسفينة لأصطاد السمك...

44- من اليمين الشهيد الحاج علي باشايي، اللواء السيد مجيد سيد فاطمي مسؤول كتيبة حبيب، إسماعيل وكيل زاده.

45- سنة 1986م، خيمة كتيبة حبيب، سدّ دز أثناء التدرب على تعلم السباحة، وقوفًا من اليمين في الصف الأوّل: محرم آقاكيششيبور، سعيد بيمانفر، الشهيد حميد غمسوار (في وسط الصورة)، الشهيد أحمد رنجير (يضع كوفية على رقبته).

46- خريف 1986م، أثناء التدرّب على الغوص، من اليمين: سعيد بيمانفر، الحاج بهزاد بروين قدس (الفنان والمصوّر في الحرب) وأنا.

47- غواصو كتيبة حبيب في عمليات كربلاء 4 و5 في آخر أيام خريف 1986م، موقع الشـهيد أجاقلو، من اليسـار وقوفًا: الشـهيد حبيب رحيمي، السـيد نور الدين عافي، الشـهيد حسـين زكي، الجريح أيوب نصيراوغلي، بهنام رحيمي، رحيم باغبان، أيوب جديري، الشهيد أحمد رنجبر، الشهيد أحمد محموديان، محمد صدقي، الشهيد مازيار نوري.

48- من اليسـار الشـهيد حسن وكيل زاده، محمد سـوداكر الذي يحكي شباب كتيبة حبيب الكثير عن بسالته، محمد نيكنفس، الشهيد محمد حقوقي.

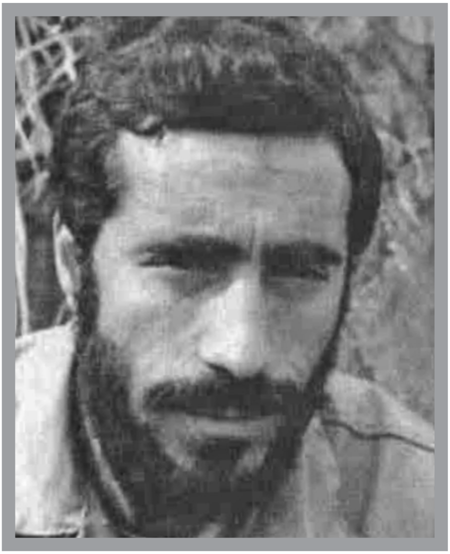

49- الشهيد أصغر عليبور الذي تركت شهادته في كربلاء5 ألمًا كبيرًا في قلبي... كانت حرب أصغر لا مثيل لها مع الظروف الخاصة التي كانت تحيط به.

50- 1986م، عندما كنت غواصًا وقد انقبضت عضلة فمي، وتجددت آلامي في المياه الباردة، لكنّها كانت آلامًا حلوة بالنسبة لي، ولا تُنسى...

51- شتاء 1987م، رحمانلو، إحدى آخر فرق العزاء التي شكّلها مجاهدو كتيبة حبيب، قبل الانطلاق إلى منطقة العملية، الشخص الرابع من اليمين: السيد نور الدين عافي.

52- شتاء 1987م، مرتفعات ماووت، حيث بقينا محاصرين في الثلوج والصقيع 15 يومًا، الشخص الثاني من اليمين: السيد نور الدين عافي ثم الحاج صمد قاسمبور، حسن حسينزاده، أمير خردمند، وقد حفرنا ساقية حول الخيمة وحاصرتنا المياه والثلوج.

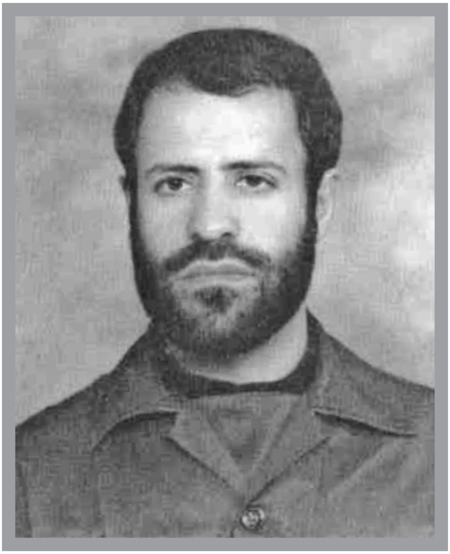

53- الشـهيد جلال زاهدي الذي نال الشـهادة تقديـرًا لعطاءاته الكبيرة، في جبال ماووت في عملية بيت المقدس2 في شتاء 1988م.

54- لحظة استشـهاد الحاج علي باشايي في خطّ الدفاع في شلمجه، حزيران 1987م.

55- حين قبل بي المرحوم أكبر أشرفي صهرًا له، ليلة خطوبتي عام 1984م.

56- أنـا وزوجتي معصـومة أشـرفي في حـرم الإمام الرضـا عليه السلام حيث بدأنا حياتنا المشتركة، 1987م.

57- أنــا وأخــي ميررحيــم قرب أمــي. لقد تحمّلت الســيدة نمكي ألم شــهادة عزيزها صادق وجراحي المتتالية بكلّ صبر، وكانت كالجبل الشامخ.

58- خريف 2010م، في بســتان أبي في ســردرود، قرب والدي الســيد حســين عافي الذي تحمّل الكثير في الحرب ولم ينكسر أبدًا.

59- سـنة 2001م، مع عائلتـي، الزوجة التي وقفت جانبي كلّ سـنوات الحرب وشاركتني كلّ مشاكلي، وبناتي: نسرين، إلهام وزهراء.

60- ذهبـت بعد نهاية الحرب عدّة مرّات لزيارة تلك التربة الطاهرة مع حملة راهيـان نـور، وإلى جانبي الحاج صـمد إقـدام نيا، رفيق الجهاد سـابقًا، وزميلي في العمل حاليًا.

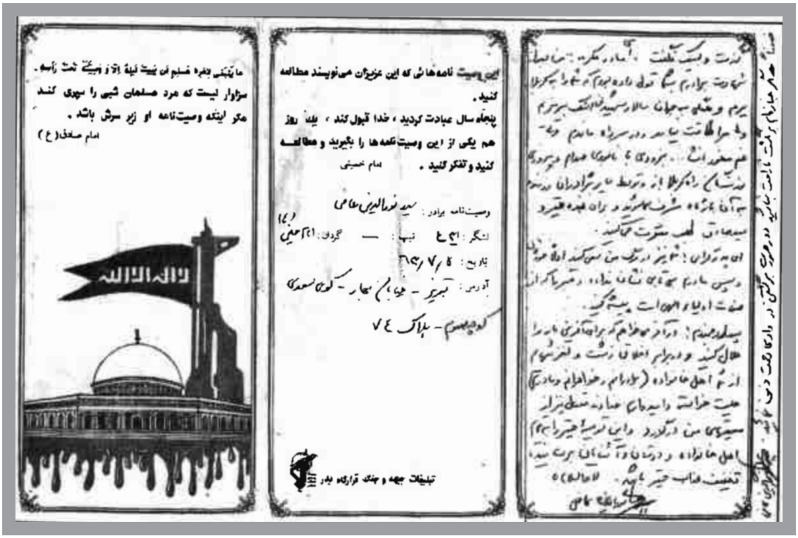

ما يَنْبَغي لِمَرءٍ مُسلِمٍ أن يَبيتَ لَيلةً إلّا وَ وَصِيَّتُهُ تحتَ رَأسِه.
سزاوار نیست که مرد مسلمان شبی را سپری کند مگر اینکه وصیت‌نامه او زیر سرش باشد.
امام صادق (ع)

این وصیت نامه‌هائی که این عزیزان می‌نویسند مطالعه کنید.
پنجاه سال عبادت کردید، خدا قبول کند، یک روز هم یکی از این وصیت‌نامه‌ها را بگیرید و مطالعه کنید و تفکر کنید.
امام خمینی

وصیت‌نامه برادر: سید نورالدین عفامی

لشگر: ... تیپ: — گردان: امام حسین (ع)

تاریخ: ۶۳/۷/۵

آدرس: تبریز - خیابان بهار - کوچه سعدی - کوچه ... - پلاک ۷٤

تبلیغات جبهه و جنگ قرارگاه بدر

61- وصـيتي التي تشــترك في العديد من نقاطها مع وصـيـة أميــر. وقد كتبت بخط أمير العزيز قبل عملية بدر.

# سلسلة سادة القافلة:

## تصدر عن دار المعارف الإسلامية الثقافية

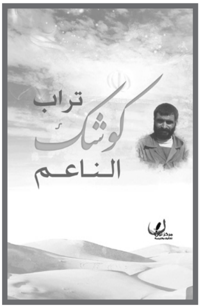


1 . تراب كوشك الناعم

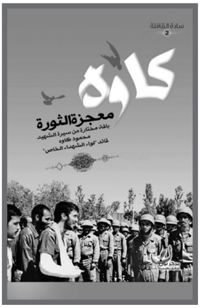


2 . كاوه –معجزة الثورة

3 . كتيبة كميل

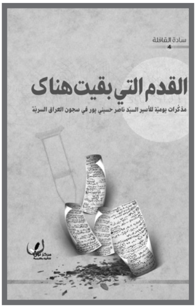


4 . القدم التي بقيت هناك

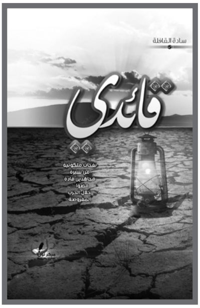


5 . قائدي

6 . هاجر تنتظر

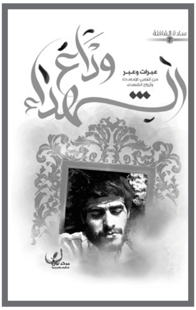


7 .وداع الشهداء

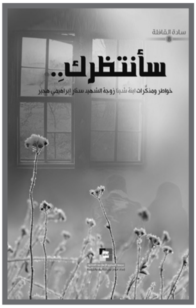


8 . سأنتظرك..

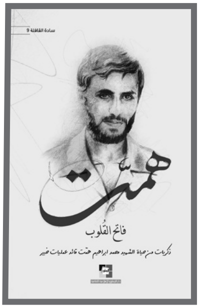


9 . همت..فاتح القلوب

10 . حفلة الخضاب

11 . فرقة الأخيار

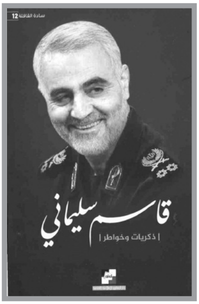


12 . قاسم سليماني (ذكريات وخواطر)

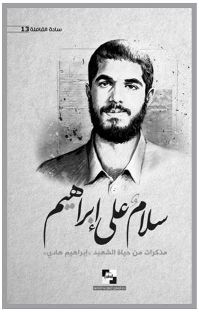


13 . سلام على ابراهيم

14 . نسائم الذكريات النديّة

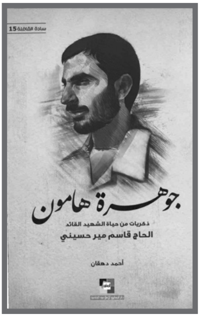


15 . جوهرة هامون

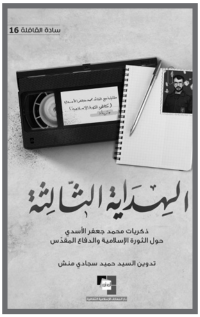


16 . الهداية الثالثة

17 . ملحمة تلّة برهانى

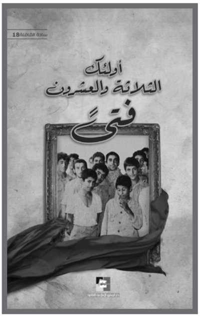


18 أولئك الـ 23 فتى

19 . **تلة جاويدي وسرّ اشلو**

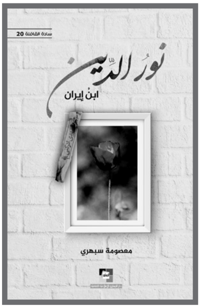


20 . **نور الدين ابن ايران**

---

## يصدر قريبًا:

**1** . دا - أماه (ج1) / دا - أماه (ج2)

**2** . گلستان يازدهم

**3** . دسته يك

**4** . كوچه نقاش ها

هذه أيضًا واحدة من أروع اللوحات التي رسمتْ صفحات سنوات الدفاع المقدس الثماني المعجِزة والمعطاءة. لقد أبدع كلٌّ من الراوي والكاتبة حقًّا. إنّ امتزاجَ هذه الذكريات بروح الفكاهة وعذوبة البيان التي فاضت بها قريحة الراوي؛ قد نُظِمَ في المتن بجودة واتقان بفضل حرفية ودقة نظر الكاتبة، وأيضا جرأة الراوي وصراحته في سرد نكات ووقائع عادة ما تبقى مخبوءة في سرد الذكريات، لهي من الخصائص البارزة لهذا الكتاب.

النقصُ الوحيد الذي يَظهر فيه هو عدمُ الإشارة إلى الدور المضحّي لزوجة شَرَت بروحها مرارات وصعوباتِ حياةٍ مع مقاتل شرس وجريحٍ ومشاغب، وتَقبّلتْ برضًى مشاركته حياةً قاسية؛ بالطبع حياةً مليئة بالأجر والثواب.

لقد أمضيتُ ساعات رائعة؛ مليئةً بالصفاء بين صفحات ومقاطع هذا الكتاب في لحظات ما قبل النوم. والحمد لله.

الامام الخامنئي (١٠/١/٢٠١٢م)


**مركز المعارف للترجمة**: مركز متخصص بنقل المعارف والمتون الإسلامية؛ الثقافية والتعليمية؛ باللغة العربية ومنها باللغات الأخرى؛ وفق معايير وحاجات منسجمة مع الرؤية الإسلامية الأصيلة.

ISBN-13: 978-614-467-059-0

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان ـ بيروت ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 471070 1 961+ فاكس: 476142 1 961+
www.almaaref.org.lb
Email:info@almaaref.org.lb